الهيئة العامة لقصور الثقافة



تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

4

إعداد و تحقيق :

عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

وزارة الثقافة



السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الرابع

وزارة الثقافة



مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
الإشراف العام
صبحي موسى
الإشراف الفني
د. خالد سرور
المتابعة والتنفيذ
عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الرابع)
• إعداد وتحقيق:
عبدالعزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17x 24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الرابع

من مرقس حتى يوساب البطرك ٥٢ (٨٣٠ - ٨٤٩م)

مرقس البطرك وهو من عدد الابا
التاسع والاربعون
[٧٩٩ / ٨١٩م]
[السيره العشرين من سير البيعه]

ثم عاد الاسقفان الى مصر وهما ابا ميخايل اسقفها وجرجه اسقف منف بسرعه ليقدما امر من يرسم بعده، فلما اجتمعو الاساقفه والشعب الارتدكسى باسكندريه وتشاورو فيمن يقدمونه، فقالو الاساقفه: نحن سمعنا ان ابانا انبا يوحنا ذكر

وقد ظهرت فى العصر العباسى مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من أراد إدخالها فى مصر[١] ونتبين هذا مما ذكره الكندى[٢] والمقريزى [٣] عن محمد بن الأشعث والى مصر (١٤١ ـ ١٤٣) إذ قالا: «فلما استقر محمد بن الأشعث بها بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر فإن ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلى وان أبى فاعمل على الخراج، فعرض عليه ذلك فأبى» أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله. ويبعد أن يرفض أى شخص أن يلى خراج مصر، ولكن من المعقول أن يرفض ضمان خراجها مثلما فعل محمد بن الأشعث، وذلك خشية العجز عن القيام بما التزم به نظراً لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان، أو لاحتياجه إلى المال للنفقة على الإدارة وعلى الجند.

(1) Zaky M. Hassan: Les Tulunides pp. 243 - 244

(٢) الولاة والقضاة ص ١٠٩.
(٣) الخطط جـ١ ص ٣٠٦.

اسم القس مرقس انه الذى يجلس بعده. فقالو
جمع الكهنه من فم واحد: هو مستحق بالحقيقه
هذا الطقس، هذا القديس الذى ارضى روح
القدس وارضى روح ابينا الطوبانى يوحنا مدة مقامه
معه فى جميع ايامه. ثم ان جميع الاساقفه
والكهنه كتبو كتبا الى انبا ميخايل اسقف مصر
يقولون: ابوتك تعلم ما جرى علينا من اليتم فى
مضى ابينا الطوبانى ابا يوحنا الى الرب فى هذا
الزمان الصعب وتقلب الملوك، وابوتك تعلم ان

وكانت الضرائب بعد الغزو - إذا استثنينا الضرائب غير العادية - تجبى كل سنة قمرية. وكان المصريون قبل الغزو يعتمدون فى الزراعة والحصاد وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطية. وقد اضطر العرب إلى تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية، فكانوا يسقطون سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قمرية، وسموا ذلك الازدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب[١].

وكان الأهالى الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون إيصالات عرفت فى أوراق البردى العربية باسم براءة[٢] وكان جابى الضريبة العينية ينتخبه السكان ويسمى القبال[٣] ونسمع عن قبال قرية فى ورقة بردية كتبت سنة ١٣٤هـ[٤].

وكانت الضرا ئب العينية المكونة من الحبوب ترسل إلى أهراء العاصمة[٥] أما الضرائب

---

(١) انظر المقريزى - خطط جـ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٣.

(2)Grum: Coptic Ostraca. pp; 36 - 37, Grohmann: Arabic papyri vol. III. p. 141 - 142.

(3)Papyri Schott - Reinhardt I. 45.

(4) Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 102.

(5) Bell: Translations of Greek Papyri (Der Islam II) p. 271 - 381.

قطيع خراف [بغير راع يدخله الديب فيشتته،
وكل مدينة] بغير سور العدو يهلكها، ولجل هذا
اجتمعنا فى البيعه العظمى باسكندريه والابا [ء]
الاساقفه فقد كتبنا نقول واحد منا طاب به قلبنا
على القس مرقس ان يكون لنا ابا لانا علمنا ان
الرب قد اصطفاه وان ابانا الماضى قد اعملكم بهذا
قبل نياحته، من اجل ذلك نقول كما قال المغبوط
داود: عوض الابا[ء] صارو ابنا [ء] تجعلهم ريسا
على جميع الارض.

النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال [1] عن طريق فروعه فى الأقاليم، وكان يشرف على كل فرع من فروع المالية فى الأقاليم موظف يسمى الجسطال[2].

ويظهرن أنه كانت ما تزال تتبع فى مصر فى ذلك العصر وسائل الشدة لجباية الخراج. ونعرف أن الليث بن الفضل والى مصر خرج الى الخليفة الرشيد فى سنة ١٨٧هـ وسأله أن يبعث معه بالجيوش لأنه لا يستطيع استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش[3].

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجرى مدى الشدة التى كانت تتبع فى جباية الأموال، ففيها أمر بأنه إذا لم يؤد كل فرد ما عليه من الأموال يضرب عشرة سياط ويغرم فى صلب ماله دينارا[4].

النقود الاسلامية فى مصر

كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة وبألاّ يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية، ولهذا كانت عملة

---

(١) ديوان الخراج والأموال بمثابة وزارة المالية وقد وجد العرب فى مصر ذلك الديوان فأبقوه على حاله حتى أنه كان يكتب باليونانية والقبطية إلى أن أمر عبد الله ابن عبد الملك بتعريب هذا الديوان سنة ٨٧هـ.

(٢) Becker: Neue Arabische Papyri. p. 353; Grohmann . op. cit vol. III p. 17.

(٣) الكندى: ص ١٤٠ ومتز جـ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(4)Grohmann. Arabic Papyri vol. III. p. 104.

وأنفذو الكتب مع بعض الاساقفه وارشيد ياقن المدينه، فلما اتصل بالقس مرقس خبر الكتب التى كتبت من اجله حزن جدا ونهض للوقت وهرب إلى دير ابى مقار بوادى هبيب. وكانت البريه(*) ذلك الزمان مثل فردوس الله فيها قوم قديسون روحانيون منهم من تنبا على هذا القديس انه مستحق لهذه الخدمة كما ذكرنا انفا. فلما وقف الاب انبا ميخايل اسقف مصر على الكتب ذكر كلام معلمه ابا يوحنا البطرك المنتيح فاحضر

(*) برية وادى النطرون.

بلاد الفرس الجارية هى الدراهم الفضية، بينما شاعت العملة الذهبية فى البلاد التى كانت تحت حكم الرومان من قبل [١].

وكان العرب فى الجاهلية يتعاملون بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة، والدنانير البيزنطية وكانت من الذهب. وتذكر بعض المراجع أن أول من ضرب النقود من الخلفاء هو عبد الملك بن مروان [٢]، على أن المقريزى [٣] ذكر أن عمر بن الخطاب أقر النقود على حالها إلا أنه فى سنة ١٨هـ ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد فى بعضها «الحمد لله» وفى بعضها «محمد رسول الله» وفى بعضها «لا إله إلا الله وحده» ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها «الله أكبر» [٤].

و قد سك معاوية فى خلافته أيضاً دراهم ودنانير [٥]. ولما قام عبد الله ابن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة ، ويقال إنه أول من ضرب الدراهم المستديرة كذلك ضرب أخوه مصعب

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٣١٦.
(٢) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٤٨ والقلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص ٤٢٤ وأبو المحاسن: النجوم جـ١ ص ١٧٦.
(٣) المقريزى : النقود الاسلامية ص ٤ - ٥ والمقريزى: إغاثة الأمة ص ٥١ - ٥٢
(٤) المقريزى : النقود الاسلامية ص ٥ وإغاثة الأمة ص ٥٢.
(٥) المقريزى : النقود ص ٥٠ وإغاثة الأمة ص ٥٢ - ٥٣.

جميع الريسا بمصر ومضو الى الوالى ودخلو اليه الاساقفه انبا ميخايل والرسل ولم يمكن غيرهم من الدخول فقال لهم: ما حاجتكم؟ فقال له انبا ميخايل : نحن نعلم رياستك لاجل ان أبانا الشيخ ابا المذهب الذى كان لنا قد توفى. فقال لهم : فما تريدون؟ فقالو له ا لله يديم ايامك ، وعلى اواسى البيعه خراج كتير ومال، ولاجل ذلك أردنا ان نقيم اخر عوضه يدبر البيعه والشعب . فقال الوالى: فما اسمه؟ قالو له: مرقس. فامر بكتب اسمه فى

بن الزبير دراهم بالعراق، فلما قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أبطل تلك العملة وقال: «ما نبقى من سنة الفاسق أو المنافق شيئا[١]»

غير أن هذه النقود التى سكها خلفاء الدولة الإسلامية وأمراؤها لم تثبت على وزن واحد بل، كانت متغيرة الأوزان [٢] كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية، إلى أن ولى عبد الملك ابن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور فى الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه، فأراد أن يصلح النقود ويوحدها فى جميع المملكة الإسلامية ويستغنى عن النقود الأجنبية[٣].

---

(١) المقريزى . النقود ص ٥ ــ ٦ وإغاثة الأمة ص٥٣.

(٢) انظر المقريزى: النقود ص ٤ ــ ٦ وإغاثة الأمة ص ٥١ ــ ٥٣ De Sacy: Traite des monnaies Musulmanes pp. 17 - 19 والأب انستاس الكرملى: النقود العربية وعلم النميات ص ٢٧ ـ ٣٣

(٣) روى المؤرخون أن السبب الذى حدا بعبد الملك إلى هذا هو أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر ويأتى العرب من قبل الروم بالدنانير فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذى يكتب فى رؤوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله. فكتب إليه ملك الروم إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه. قال فكبر ذلك فى صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنها فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فى ذلك فلم يكن منه إلا أن قال. حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سكا ولاتعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير. فقال عبد الملك: فرجتها عنى فرج الله عنك، وضرب الدنانير (البلاذرى. فتوح البلدان ص ٢٤٠ المقريزى: النقود ص ٦ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٧٦ ــ ١٧٧).

الديوان ثم اذن لهم فى اقامته عوض انبا يوحنا وخرجو من عنده.

ثم بلغ الاسقف انبا ميخايل هروب القس مرقس، كان انبا ميخايل الاسقف متولى ما يتعلق بالديارات فانفذ للوقت الاساقفه والكهنه وامرهم ان يقيدوه ويمضو به الى اسكندريه ففعلو به ذلك فى اليوم التانى من امشير يوم عيد(*) الاب لنجينوس، وكان يوم وصوله الى اسكندريه، وكان

(*) الاب لنجينوس رئيس دير الزجاج بالاسكندرية، ويذكر السنكسار ان الانبا بولا أول =

ولذا نرى عبد الملك يضرب الدنانير والدراهم فى سنة ٦٧هـ بعد تعديل فى أوزانها. وقد أرسل إلى الأمصار الإسلامية كلها لتضرب نقودها بمقتضى السكة التى ضربها عبد الملك[١]. وربما حمل المؤرخين على القول بأن عبدالملك بن مروان أول من ضرب النقود فى الإسلام كونه نظم سك النقود وجعلها وزنا واحدا وجعلها تسرى فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية، لأننا رأينا أنه ضربت نقود فعلا قبل عبد الملك. وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحيانا يغيرون فى أوزانها. ولما انتهت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ صار الخلفاء العباسيون يضربون سكا أيضا.

* * *

تدل قطع «الاستراكا» [٢]على أن المعاملات بين الأهالى فى مصر قبل الفتح كان أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينار tremision, solidus denarius [٣]، أى أن مصر كانت تتبع قاعدة الذهب [٤].ويذهب علماء الاقتصاد السياسى إلى القول بأن نظام المعدن الفردى

(١) انظر : المقريزى : شذور العقود ص ٦ ـ ٨ والأب انستاس الكرملى النقود العربيه ص ٣٤ ـ ٣٩.

(٢) قطع من الفخار والأحجار، كتبت عليها بعض الشعوب، ولا سيما الاغريق والفراعنة والقبط، واستنبط منها علماء الآثار كثيرا من الحقائق التاريخية.

(3) Crum: Coptie Ostraca. pp. 23. 45. 78. 79. 80.

(٤) إذا كان أساس النظام النقدى فى الدولة الذهب يقال إنها تتبع قاعدة الذهب gold standard (الدكتور عبد ا لحكيم الرفاعي. الاقتصاد السياسى جـ١ ص ٤٧٩).

مع الأساقفه ابا جرجه اسقف منف واوسم فى اليوم المذكور بمدينة اسكندريه، فلما جلس على الكرسى الانجيلى وجميع الشعب يشهدون له بالاستحقاق فقرا عليهم الاكساكسيس الذى يسمى عند الارتدكسين اللوغس وذكر فيه انه عارف باعمالهم وهذا اللوغس ممتلى من نعمة روح القدس مقالات الارتدكسيين، وأظهر فيه سقطة المجمع الخلقدونى والرد عليهم وبين ضلالتهم وانهم عابدون انسانا. ورد على الذين انكرو الام

= السواح توفى فى نفس هذا اليوم سنة ٣٤١ م. وتحتفل بهما الكنيسة المصرية فى ذات اليوم.

الذهبى لا يمنع استعمال نقود أخرى غير الذهب، بخاصة النقود الفضية، ولكن الذهب يكون وحده هو العملة القانونية التى لها قوة إبراء غير محدودة[١]، وتعتبر النقود الأخرى عملة مساعدة[٢] ولانجد فى الاستراكا سوى إشارة أو اثنتين إلى النقود الفضية فى مصر وتعرف بالدراهم [٣]. ويظهر أن النقود الصغيرة التى كانت تستعمل فى مصر إذ ذاك ـ كالقروش وكسورها اليوم ـ كانت العملة البرنزية [٤].

ويقول المقريزى [٥]: «أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب إليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهباً فى سائر دولها جاهلية وإسلاما، ويشهد لذلك بالصحة أن خراج مصر فى قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب».

وتؤيد أوراق البردى وقطع الاستراكا ما ذكره المقريزى، إذ تشهد كلها بأن الجزية والضرائب

(١) أى تكون أداة للوفاء فإن القانون لا يعترف لغيرها بقوة الإبراء من الديون ـ عبد الحكيم الرفاعى: الاقتصاد السياسى ص ٤٤٨.

(٢) عبد الحكيم الرفاعى: الاقتصاد السياسى ص. ٤٨.

(3)Crum: op. cit. p. 23.

(4)Crum: op. cit. p. 23. 42. 45.

(٥) النقود الإسلامية ص ١١ وإغاثة الأمة ص ٦٢.

المسيح الاهنا الذى قبلها عنا بارادته بالجسد، وهم يقولون أنه خيال . فلما كمل خدمة القداس كالعاده ناول الشعب اجمع من السراير المقدسه بالجسد والدم الطاهر.

فلما تم كل شى وبعد تكريزه بأسبوع كانت جمعة الرفاع فمضى الى الدير المقدس دير الزجاج ليتعكف فيه على الصلوات فى ايام الصيام المقدس، فلما وصل الى هناك وصلت اليه كتب

وايجار لأراضى وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها، وتعرف الدنانير فى أوراق البردى اليونانية باسم Solidi[1] ويظهر أن مصر بعد الغزو كان يتعامل فيها بالدنانير الذهبية التى كان يتعامل بها قبل ذلك، ولابد أن النقود الإسلامية قد دخلت فيها بعد الفتح ويذكر Quatremere[2] وSauvaire [3] أن الكاتب القبطى بشندى Picendi أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب، كتب كتابا إلى أساقفة إمته (و هذا الكتاب محفوظ فى مكتبة باريس) يقول فيه: «إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس وصورة السيد المسيح ومسحوا الصليب وصورة المسيح وكتبوا محلها اسم نبيهم محمد الذى يتبعون تعاليمه واسم خليفة نبيهم ونقشوا الاسمين معاً على النقود الذهبية».

وربما ظلت النقود الأجنبية فى مصر يتعامل بها جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية حتى إصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريمه الدنانير الأجنبية، أى أن السكة فى مصر

(1) Crum: Coptic Ostraca. pp. 36 - 37, Bell: (der Islam 11) . pp. 271. 274 etc. Becker: NeueArabische Papyri. pp. 254 _ 267 etc, Grohmann Arabic Papyri vol. 11. pp. 44, 45, 48, ol. III. pp. 17. 31 48. 141

(2) Memoires geographiques et Historiques sur l'Egypte t. 1, p343.

(3) Materiaux (Journal Asiatique. Septieme Serie T. XIV)pp. 456 - 457.

انبا ميخايل اسقف مصر تشير عليه بالدخول الى مصر بعد عيد الفصح المقدس ليسلم على الوالى. وكان ذلك تدبيرا من الله لان بعض البيع كانت مهدومه إلى ذلك الوقت والشعب حزين لذلك.

فلما تم عيد الفصح دخل الاب البطرك انبا مرقس الى فسطاط مصر ليسلم على الوالى . فلما وصل مصر اعلمو الاب ميخايل الاسقف والشعب بوصوله فخرجو اليه بالاناجيل والصلبان والمجامر

خضعت للسكة الإسلامية، وهذا مظهر من مظاهر التبعية دون شك. ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة إلا بعد أن استقلت عنها كما حدث فى عهد أحمد بن طولون [١]. وفى ذلك يقول المقريزى [٢] «ومع هذا فإن مصر لم تزل منذ فتحت دار إمارة وسكتها إنما هى سكة بنى أمية ثم بنى العباس إلا أن الأمير أبا العباس أحمد ابن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية».

البحرية

«ساهمت مصر بنصيب وافر فى إنشاء الأساطيل الأولى وكان عمرو بنى العاص اول من تنبه إلى قيمة الاساطيل فى الحروب وذلك عندما استخدم الاسطول المصرى وملاحيه من المصريين القبط فى نقل المؤون والعتاد لمساندة حملته على شمال افريقيا بعد احتلاله للأسكندرية تحت قيادة القائد البيزنطى السابق للأسطول فى مصر الذى قبل العيش فى مصر

....

(1) Stanley Lane - Poole: Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo pp. 135 - 6

(٢) النقود الإسلامية ص ١٢.

ولقوه بفرح عظيم وتهليل وقرا[ء]ه وكانو يقولون
: نعم وحسن وصولك الينا يامرقس ابن مرقس .
فمضى لمنزله ليستريح لانه كان اخر النهار،
وبالغداة قام البطرك والاسقف أنبا ميخايل وباقى
الاساقفه المجتمعين معهما ليجتمعو بالوالى، فلما
وصلو الى داره استاذنو عليه فامر بدخوله ، فلما
دخل وسلم على الوالى التقاه ودعا له حتى تعجب
الوالى من حلاوة لفظه وكلامه الممتلى نعمه ،
ومن النعمه التى هو مشتمل بها فجعل الله فى

والعمل لدى الغزاة الجدد من العرب. كما يذكر ساويرس فى سيرة البطرك بنيامين. فكان المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد. ولا ننسى أن سكان مصر ولا سيما القبط كان لهم الفضل فى بناء السفن وتزويدها بالجند والمجدفين، وتشييد دور الصناعات فى وادى النيل بذلك».

أجل إن مصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول العرب، فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحرياً [١].

---

(١) ولكن أهل بلاد العرب الجنوبية فى ممالك معين وسبأ وحمير بإقليم اليمن كانوا يشتغلون بنقل التجارة بين مواطن المدنيات القديمة فى الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام بل والصين فيذكر فى بعض المراجع القديمة أن السفن العمانية واليمنية كانت تنقل الحجاج البوذيين من الصين إلى الهند. وكانت سفنهم تمخر عباب البحر الواقع جنوبى شبه جزيرة العرب والذى أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربى ـ ومهما يكن من شئ فإن الامبراطورية الاسلامية لم تصبح دولة بحرية بمعنى الكلمة لأن الشعوب التى قامت على أكتافها كالعرب والفرس والترك كانت تتألف فى البداية من قبائل معظمها رحل.

Hans Mzik Beitrage zur historischen Geographie (Leipzig 1929)p. 42.

راجع أيضا مادة «سفينة» فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية.

قلبه له رحمه وامره ان يجلس وساواه فى المخاطبه وقال له: قوّ منبّتك وشد ازرك فانى اقضى جميع حوايجك وكلما تريده منى ابلغك اياه. فقال له البطرك: ان الله يرفع سلطانك ويسعد ايامك ويوفق رعيتك ببقاك. وخرج من عنده بسلام.

فلما راو مخاطبة الوالى له واهتمامه بامر البيع قال انبا ميخايل اسقف مصر: الواجب ان نهتم بعمارة البيع فى هذا الوقت لما ظهر من محبة

ولكن عندما اتسعت امبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمما بحرية، وعندما اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر فى البحار، بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عونا لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطاتهم وغزو الروم فى عقر دارهم.

لم يكن البحر يركب للغزو فى حياة الرسول أو فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب، وقيل إن أول من ركب البحر للغزو فى الإسلام العلاء بن الحضرمى وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب، إذ ندب أهل البحرين وكان أميراً عليها غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة فغرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء، وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه.

ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبى سفيان ـ وهو يومئذ على جند دمشق والأردن ـ على الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو البحر معللا ذلك بقرب الروم من حمص، ولكن الخليفة لم يوافقه على ذلك لأنه خشى على المسلمين من ركوب البحر وقال فى ذلك: «والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً» وسرعان ما غير العرب سياستهم وسعوا الى إنشاء أسطول بحرى للغزو فى البحر على أن يكون جند الاسطول من غير العرب.

الوالى للنصارى. ولما كان بالغداه عاد البطرك الى
الوالى فسلم عليه فبجله واكرمه ورفعه واجلسه
وخاطبه قايلا: قد قلت لك بالامس انى اقضى
جميع حوايجك ولم تطلب منى حاجه والان
فمهما كان لك من حاجه فاذكرها فانها مقضيه
عندى لمحبتى لك. فقال له البطرك بكلام لين:
الرب يحفظ ايامك ويزيد فى رفعتك وسلطانك،
تعلم ان لم يولو عبدك على مال ولا خراج بل
على الانفس والبيع، وارغب الى جلالتك ان لنا

فغزا المسلمون جزائر عدة مثل قبرص وصقلية ورودس وأرواد وكريت وغيرها من الجزائر بجنود وبحارة من القبط وغير العرب بل إن معاوية بن أبى سفيان غزا مضيق القسطينطينية فى سنة ٣٢هـ [١] ونعرف أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان بن عفان قد قاتل البيزنطين بحراً فى غزوة ذى الصوارى وانتصر عليهم بالبحارة القبط وتحت قيادتهم رغم قلة سفنهم.

كان طبيعياً أن يستخدم العرب فى غزواتهم البحرية شعوب الأمم التى فتحوها والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم. وإذ كنا فى معرض الكلام على مصر فلا بد أن نذكر هنا أن العرب أفادوا من خبرة المصريين البحرية وقيادتهم للأساطيل ومن العمال المصريين أيما إفادة فقد أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين وإن كان ذلك يتم تحت ظروف حياتية قاسية حتى أن المصرى كان يقضى معظم حياته أو حياته كلها فى خدمة الاسطول تحت أحط

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص ٧٧. راجع أيضاً Lammens Etude sar le regme du califeemaiyade Moawia ler pp. 52,270,279.

هاهنا بيعا قد هدم الظالم بعضها قبل وصولك الى مصر فهدم الرب دياره وقطع حياته من على الارض، فان راى رايك فيها ان يتقدم لنا بعمارتها لنصلى فيها وندعى لجلالتك فالامر لك ، فجعل الله فى قلبه عاجلا أن يامر بعمارتها فبنيت جميع بيع فسطاط مصر، وكان فرح عظيم لجميع الارتدكسيين وسبحو الله على عظم رحمته التى فعلها معهم وعاد حزنهم الى فرح. وكان ابونا مرقس يتهلل بالروح ويرتل مع داود ويقول: مبارك

الظروف المعيشية. وأصبح اسم «الصناعة» فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية. وقد عقد المقريزى فى كتابه الخطط ـجـ٢ ص ١٨٩) فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما أشار فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ـجـ١ ص ٣٠١) إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤هـ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم. وقد سميت جزيرة الروضة حينئذ «جزيرة الصناعة» كما كانت تسمى أحيانا «جزيرة مصر»[١] ولكننا نرجح أن «الصناعة» أنشئت فى مصر قبل هذا التاريخ، فعبد الله بن سعد غزا غزوته البحرية فى سنة ٣٤هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥هـ) وأن قتال الروم جعل المسلمين يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بعد أن كانت الصناعة فى مصر وحدها. فيذكر البلاذرى[٢] أنه لما كانت سنة ٤٩هـ هاجم الروم السواحل الإسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا.

(1) Maspero et Wiet: Materiaux pour servir a la Geographie d'Egypte p. 68; et G. Wiet: Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte II. pp. 197 - 199.

(٢) فتوح البلدان اص ١٧٧.

الرب الذى لم يرفض صلاتى ولم يبعد رحمته عنى.

وعاد الى اسكندريه واهتم باجتماع اتحاد الكرسيين اسكندريه مع انطاكيه، وكتب سنوديقا كما جرت العاده ممتليه من كل حكمه وارسلها الى كرياكوس بطرك انطاكيه يعلمه فيها بنياح الاب انبا يوحنا وكيف كان جلوسه على الكرسى الانجيلى، واعلمه فى رسالته عن جميع المخالفين،

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية يأمره باتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية، وقد كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه إلى أفريقية (تونس) ألف قبطى بأهلهم وولدهم لإنشاء دار صناعة فيها. أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا إلى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب[1] هؤلاء القبط أسسوا كذلك ميناء تونس واعطوه اسم المدينة التى قدموا منها وهى «تنيس».

ويظهر أن بناء السفن فى مصر كان له شأن عظيم فى فجر الإسلام ولا سيما فى العهد الأموى فقد ألقت أوراق البردى شعاعاً من النور على صناعة السفن بمصر وأظهرت مهارة المصريين فى تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة الإسلامة المركزية لتلك المهارة ومدى استغلالها على يد الأمراء المسلمين.

وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو والتى ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة [2] وفى

(١) أبو عبيد البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧م) ص ٣٨ ـ ٣٩ راجع أيضاً مقال الأستاذ فييت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣ - ٣٤ من كتاب «فى مصر الإسلامية» الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن وعبد الرحمن زكى).

(2) Bell: (Der Islam vol. IV) P. 92

واجتهاد ابابنا على صحة الامانه وبعد كل الشقاق والمخالفين والمجمع الطمث الخلقدونى لأنه سبب الشك بجميع المسكونه، وشيعة نسطور الذين هم اليهود الجدد. وبين اتفاق الكرسيين ويدعوه ابا وشريكا فى الخدمه. وارسلها مع اسقفين فهمى الخطاب بكلام اليونانى، احدهما مرقس اسقف الفرما، والشماس جرجه قيم بيعه اسكندريه ، فلما وصلو بالسنوديقا الى البطرك كرياكوس ووقف عليها حزن على نقله [نياحة] الاب يوحنا وفرح

القلزم (١) وفى الإسكندرية (٢)، فبعض تلك الأوراق يكشف لنا أن الوالى قرة بن شريك كثيراً ما يطلب من صاحب كورة أشقوه أن يرسل إليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة [احواض السفن] والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى. كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى (٣)، وكان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها(٤) تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول(٥).

ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب (٦) أو أسطول المشرق(٧) والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية.

(1) Bell: (Der Islam vol. II)P. 277

(2) Bell: (Der Islam vol. II)P. 280.

(3) Bell: (Der Islam vol. II) PP. 271, 272, 279, 280.

(٤) هذه الحقوق للحكومة على الهيئات أو الأفراد كلها من آثار الليتورجيا Leiturgia أو الالتزامات الاجتماعية التى عرفت فى العالم القديم.

(5) Bell: op Cit. PP. 277, 279, & (der Islam Vol. XVII) P. 8.

(6) Bell: op. Cit. vol. II. P. 279.

(7) Bell: op. cit. vol. XVII. P. 6-8.

بجلوس الاب انبا مرقس والاساقفه القديسين، فلما قرى الكتب فى بيعة انطاكيه فامتلت نفوسهم فرحا عند سماعهم كلامه والحكم المملوه طيبا روحانيا التى تنبع من قلب انبا مرقس الممتلى روح القدس، وباركو الرب واعطو الطوبى للابا[ء] الذين يستحقون الجلوس على كرسى مرقس الانجيلى، ثم تعجبو من الاساقفه الواصلين من مصر بالسنوديقا لحسن منظرهم ولباسهم واتضاعهم وفصاحة منطقهم وطيب كلامهم.

ولابد أن المصريين كانوا يصنعون أيضا سفنا نيلية غير تلك السفن الحربية لأن الطريق المائى فى مصر كان يستخدم كثيرا للنقل [1] والتجارة فى ذلك العهد. وطبيعى أنه كانت هناك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية.

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا، فيذكر المقريزى (الخطط جـ٣ ص ١٩١) أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة ٢٣٨هـ فى خلافة المتوكل وفى ولاية عنبسة بن اسحق على مصر «وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول، وأنشئت الشوانى [2] برسم الأسطول، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب.

وكتب المقريزى أن بعض مناطق وادى النيل كان بها أشجار لا تحصى من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار. ويذكر أيضاً أنه كان لا يباع مما فى البهنسا

(١) انظر مقال فييت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٤ ـ ٦.

(٢) الشونة: المركب المعد للحرب والجمع شوان.

وقامو عند البطرك [كرياكوس] اياما قليلا ووعهم بكرمات تضاهى البطركية، وكتب معهم كتب السلامه بتمجيد ابينا القديس مرقس البطرك. ولما وصلو الى مصر وقريت كتب البطرك كرياكوس ببيع مصر مجدو الشعب الله وفرحو باتحاد الاتنين بعضهما مع بعض.

ونذكر ايضا امر فعله الرب فى ايام ابينا مرقس لتفرح قلوبكم وتعرفو انه قد ضاهى الاب ساويرس

إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية. ولكن المقريزى (الخطط جـ١ ص ١١٠ ـ ١١١) يعود فيقول إن هذا بطل جميعه فى زمانه أى فى عصر المماليك واستولت الأيدى على تلك الأشجار فلم يبق منها شئ البتة ونسى هذا من الديوان وإن كنا لا نعرف متى نشأ هذا النظام ومتى ألغى، فان من المحتمل أن هذا الاهتمام بالأخشاب يرجع إلى عهد الولاة ولا سيما فى نهايته.

ومما يذكره المقريزى أيضان أن القرظ وهو ثمر شجر السنط كان لا يتصرف فيه إلا الديوان وإذا وجد مع أحد شئ منه اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع. ولكنه يضيف أن ذلك كله بطل فى عصر المماليك.

ومن هذا نرى أن صناعة السفن فى مصر، وخاصة السفن الحربية المعدة لمحاربة الأعداء وللدفاع عن الشواطئ، كانت من أهم الصناعات فى فجر الإسلام كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الإسلامية البحرية، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى إنشاء أسطولها الحربى. بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبى سفيان. وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم العمال المصريين فى دور الصناعة التى أنشاتها فى المشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردى.

وكيرلس وديسقرس هولا الذين ابعدو المخالفين فى زمانهم، كان بمصر قوم يعرفون ببار سنوفه(*) ويسمون ايضا «من ليس لهم راس» اقامت هذه الهارسيس زمانا كتير من ايام بطرس البطرك الذى جلس بعد طيماتاوس المعترف فى زمان زينون الملك الدين، كانو بعد هذه المدة باقين خلافهم، فحزن الاب مرقس الذى يهتم بخلاص انفس الناس ودعا الى الرب من اجلهم، ويقول : يارب القوات الابدى النور الذى لا يدرك ولا يلمس ولا يشاهده

(*) انظر الجزء الأول من الكتاب ومن المعروف أن هذه الجماعة ظلت منتشرة فى مصر ولها عدد كبير من الاتباع حتى أن البابا مرقس البطرك رقم ٤٩ أقام لهم كنيسة عرفت باسم «بيعة البطريك» بعد أن تبعوا بطركيته.

ونلاحظ أن الدولة الإسلامية التى كانت تخشى غزو البحر حتى خلافة عمر بن الخطاب استطاعت بعد ذلك أن يكون لها شأن فى البحر. فمنذ أيام عثمان بن عفان بدأ المسلمون يمتلكون بعض الجزر فى البحر المتوسط، واستطاعت مصر فى خلافته أن تهزم الروم فى موقعة ذى الصوارى البحرية. وقد سميت بهذا الاسم لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها، وتسمى فى الكتب الأوربية واقعة فونيكه Phoenicus وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكة غربى الأسكندرية (١). الحق أن هذه المعركة كانت نصرا بحريا كبيرا على البيزنطيين. ومما ذكره المقريزى فى وصفها أن قسطنطين بن هرقل (٢) قدم لغزو الإسكندرية سنة ٣٤هـ على رأس أسطول من نحو ألف سفينة. وكان عبد الله بن سعد قد أنزل نصف جنوده إلى البحر ثم فوجئ بقدوم العدو وعلم من أحد الرسل أو المراقبين أن الروم أقبلوا فى

---

(١) Justus Perthes: Atlas Antiquuis Tab 18 D 3 ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت فى آسيا الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phoeinx راجع M. Canard: Expedition des Arabes Contre Constantinople dans l'Hisoire et dans la Legende (Journal Asiatique, Janvier - Mars 1926 وانظر ماكتبه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الصدد فى عدد شهر مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٢) يجدر الإشارة هنا أن امبراطور البيزنطيين حينذاك كان قنسطانز بن هرقل لا قسطنطين كما تذكر المراجع العربية.

احـد ولا يدنو اليـه، الذى ينظر الى الخليـقـه التى
خلقـها بيده وهى غارقـه فى عـمق الخطيـه لاجل
الخلاف صنعت لنا خلاصا بسر لا يدرك، وجعلت
الارض مثل السما بموتك وقيامتك المقدسه كما
قال بولس الحكيم لكى يجمع الامم اليه بالسلامه
بقوة صليبه الذى اهلك العدو، وبشرنا بالسلامة
للقريب والبعيد، ومضيت الى الجبل حتى رددت
الخروف الضال وخلصته من فم الديب الردى،
ولم تاخده بسيف ولا سوط بل برحمتك العظيمة،

ألف مركب (؟!) بقيادة قسطنطين بن هرقل «وكانت مراكب المسلمين مائتى مركب ونيفا فقام عبد الله بن سعد بين ظهرانى الناس فقال: بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل عليكم فى ألف مركب فأشيروا على. فما كلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم ثم قام ثانية فكلمهم فما كلمه أحد فجلس، ثم قام الثالثة فقال إنه لم يبق شئ فأشيروا على، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال: أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله اركبوا فركبوا. وانما فى كل مركب نصف شحنته لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البر... فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد اقتتلوا بالنبل والنشاب فقال: غلبت الروم. ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم. ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد نفدت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف. قال: غُلبت الروم (بضم الغين)!

وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الإسلامية سيدة فى البحر المتوسط. واليك نص ما ذكره

٤٩: مرقس البطرك ٧٩٩ / ٨١٩م

ولم تقنع بعودته لكن دعوت القوات السماويه والطغمات الملايكيه العلويه لكى يفرحو معك، اذ قلت لهم فى إنجيلك: «افرحو معى لوجود خروفى الضال»(*). والان يارب اسمع صلاة عبدك وليدخل دعاى امامك بسبب هذه الخراف الضاله ولتجمع اعضا [ء] بيعتك ليكونو قطيعا واحدا وراعيا واحدا كالقول الصادق فى الانجيل . فسمع الرب دعاه بسرعة فحرك قلوب ريسا تلك الهارسيس، وكان مقدمهم اسمه ابراهيم وابوه

(*) متى : ١٨ / ١٢ ، ١٣ .

ابن خالدون «المقدمة» (فصل ٣٤) عن عظمة المسلمين فى هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والأفرنج»

وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن والتى استخدموها فى حاجاتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين

وليس فى المراجع العربية ما يمكننا بوساطته أن نعرف شيئاً يستحق الذكر عن أشكال السفن الحربية المصرية ومعداتها فى فجر الإسلام، ولكن أكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيراً عن السفن المعروفة عند الروم فى ذلك العصر لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين، بل إن السفن التى صنعت بمصر للمسلمين فى البداية «أخذت أشكالها من سفن الروم التى استولى عليها عمرو بن العاص فى واقعة

الجسدانى جرجه كان اسقفا لهم وهو علمهما ان
يعرفا الضلاله التى كانو فيها وتركو ينبوع ما[ء]
الحياه من الكرسى الانجيلى وحفرو لنفوسهم بير
السقطة كما قال ارميا النبى. فقاما مسرعين
وحضرا عند الاب البطرك انبا مرقس الجديد
وطرحا نفسيهما بين يديه وسجدا له قايلين: مبارك
الله الذى انار علينا بتعاليم قدسك التى وصلت
الى مسامعنا وردنا من الضلاله التى غشيت علينا
طول هذه المده، نحن الآن محسوبان من خرافك

الإسكندرية»[1] طبيعى أن المراكب الحربية كانت متنوعة فى أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء المختلفة التى اطلقت عليها بعد ذلك مثل الحراقات والشونات والطرادات والعشاريات والشلندات والمسطحات[2]. وإذا كنا لا نعرف تماما معدات تلك السفن وأسلحتها فإننا نظن أنها كانت تشبه ما عرف بعد ذلك عن السفن الحربية الإسلامية فى العصور الوسطى، وكان فى بعضها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم وفى بعضها منجنيقات وآلات تقذف النفط، وكان بعضها لحمل المؤن لرجال الأسطول والبعض الآخر لحمل الخيل[3].

---

(١) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار جـ٢ ص ٢٢

(٢) انظر الدكتور زكى محمد حسن: كنوز الفاطمين ص ٥٠ حاشية ٥ وما جاء فيها من مراجع وانظر مادة سفينة فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) راجع جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٨٠ - ١٨٢ عبد الفتاح عبادة: سفن الأسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتها (فى أعداد السنة الحادية والعشرين من مجلة الهلال ثم طبعت مستقلة بمطبعة الهلال سنة ١٩١٣م).

مــثل اولادك الذين لكرســيك الانجــيلى الذى للقــديس مــارى مــرقس، فلمــا راى ابينا البطرك رفـضـهـمـا مـا كـانا عليـه وعـودتهـمـا الى القطيع الروحانى فرح جدا ومجد الله لاجل ذلك، وقال التسبيح الذى ينبغى كما قال داود المسبح لله فى المزمور(*): «اذا رد الرب سبى شعبه صرنا كالمتعزين فليفرح يعقوب وليتهلل اسرايل.

(*) مزامير : ١٤ / ٧ .

ومن نعمه المضيه فى ابينا القديس البطرك اراد

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى الخلافة

بعد وفاة الخليفة عثمان مباشرة ظهر الخلاف مرة أخرى بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذى يتولاها، وهل هى إرث فى بيت النبى محمد وفى فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية، أم يتقلد أمرها أى فرد كفء لها بغض النظر عن القبيلة التى ينتسب إليها. فالدين الإسلامى لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أو لغيرها من الأمم، ولم يعهد الرسول إلى شخص معين من بعده ليكون زعيما للعرب يتولى الإشراف على أمورها الدنيوية والدينية.

وكــان امتناع العبــاس عم الرسول وعــلى بن أبى طالب وطلحة والزبير وغــيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبى بكر الصــديق بالخــلافة إيذانا بما حدث بعد ذلك من انقسام المســلمين إلى سنين وشيعيين. وكــثر النزاع حول الخــلافة ومن يتولاها، وكــان هذا النزاع تارة بالكــلام والجدل وتارة بالسيف والحــرب، وقد اتبع كــل فرقة أو حزب من الأحزاب التى نشأت أفراد عديدون، إما إيمانا بعقــائدها ومبادئها، وإما رغبة فى منفعة أو مصلحة مادية تعود عليهم.

وقبل أن نعرض للكلام عن الحركات التى قامت فى الخلافة والتى اشتركت فيها مصر،

ان يجرب ويكشف امانة الرجلين ان كانا متضعين كما ينبغى لمن يريد ان يعود الى المسيح، ام هما لابسان الكبريا[ء] لاجل الرياسه التى كانا فيها، حينذ قال لهما بتواضع ورحمه: اعلما ما قاله الذى فيه ينبوع الرحمه لسان العطر بولس فى بعض رسايله: ما نصيب المومن من غير المومن، وما مسرة المسيح مع الشيطان، وانتما الان مع الشيطان فلا نظنا انكما تقيمان فى هذا الطقس الذى انتما فيه مما اخذتماه من هذه الملة المخالفه

يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين الوطنيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وإنما كانو من الجند العربى الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية. أما المصريون أنفسهم سواء أكانوا من الأقباط أو من الذين أسلموا بعد الفتح فلم يشتركوا فى تلك المنازعات ـ إذا استثنينا معاونتهم إلى حد ما للعباسيين ضد الأمويين.

١. الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين

(٢٠.٤٠هـ=٦٤٠.٦٦٠م)

أ. موقف مصر من الحركة التى قامت ضد عثمان بن عفان

ظهر النزاع حول الخلافة بأجلى مظاهره فى الثورة التى قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان، إذ احتكم فى ذلك النزاع إلى السيف بدلا من أن يحكم العقل واللسان، وكانت هذه أول مرة يحتكم فيها إلى السيف فى النزاع الخليفى الذى يدور حول مسائل الحكم والملك.

فلم تمض ست سنوات من حكمه حتى بدأت تسرى ضده حركة تذمر فى الولايات المختلفة وقد ترأس هذه الحركة عبدالله بن سبأ الذى أخذ يتنقل فى البلاد يدعو إلى الثورة ضد

بغير وسم حسبما فى القوانين، ولم تحل عليكما
روح ا لقدس الهابطه على الابا الاساقفه عند
قرا[ء]ةالصلاه القانونيه التى قررها الابا[ء]
الحواريون عليهم. فلما سمعا ذلك منه اجابا
بالاتضاع لما صار اليهما من النعمة بدعا الاب
القديس فقالا له: يا ابانا القديس ومن الان ما
نستحق ان نكون فى طقس ولا نبقى فيه لكنا اتينا
اليك لنكون تحت ظل صلواتك، ولكنا نطلب
منك شيا واحدا ان تسال الرب فى ان يغفر لنا اثم

عثمان، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام، ولكن يظهر أن محاولاته لم تكن ذات بال فى تلك البلدان، فلم ينجح فى الحجاز أو الشام وعندما أتى إلى مصر وجد أن الحالة فيها كانت مهيأة للثورة ضد عثمان فأخذ ينشر دعايته وتعاليمه، فكان مما نشره مذهب الرجعة. وأخذ يقول إنه يعجب ممن يقول إن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]، ولذا فإن محمدا أحق بالرجوع من عيسى. كذلك نادى عبدالله بين سبأ بمذهب الوصاية، فذكر أن لكل نبى وصى وعلى بن أبى طالب وصى محمد ﷺ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فإن عليا خاتم الأوصياء، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول، وبذلك حرض ابن سبأ جند العرب فى مصر على الوثوب على عثمان لأخذه الخلافة بغير حق[2] .

وقد أنكر المتمردون على عثمان أمورا، منها الدور الفخمة التى شيدها لأهله وبناته بالمدينة، وتوليته أهله وبنى عمه من بنى أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم[3]، كذلك قالوا إن

(١) سورة القصص آية ٨٥.
(٢) الطبرى: تاريخ الاسم والملوك ج ٥ ص٩٨، خطط المقريزى. ج٢ ص٣٣٤.
(٣) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج١ ص٣٦.

ما كنا عليه من الضلالة والتفريط. وقالا هذا بقوة
ايمان واعتراف، والتمسا منه دواه وقرطاسا وهما
جالسان بين يديه وكتبا بخطهما انهما يحرمان
نفسيهما وانهما لا يلتمسان منه طقس اسقفيه ولا
كهنوت فى موضع من المواضع . فلما نظر قوة
امانتهما ورجوعهما الى الأمانه الارتدكسيه التى
لابائنا القديسين اللابسين النور بارك عليهما من
عمق قلبه قايلا كما قال بولس الرسول: اله الرجا
يملوكما من كل فرح وسلامه لتكثرا فى الايمان

عثمان وسع على نفسه وعلى أهله بخلاف أبى بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين، فنفر المسلمون من ذلك التبذير وعهدهم قريب بضبط أبى بكر وعمر[١]، وزعموا أيضا أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم: إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم. فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحد عليه بل أخر ذلك[٢].

ولم يغفل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون[٣]، ما انطوت عليه هذه الحركة، فقد أوضح أن المسألة لم تكن مسألة عثمان إنما كانت عود إلى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة، وأنفة بعض القبائل العربية مثل بنى بكر بن وائل وعبدالقيس وربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم، من سيادة قريش، فأظهروا الطعن فى ولاة عثمان وفى الخليفة نفسه، فلما وصلت تلك الأخبار إلى الصحابة بالمدينة ارتابوا لها وحملوا عثمان على النظر فى الأمر.

ومما يدل على أن المسألة كانت مسألة أغراض مختلفة ما رواه الطبرى[٤] من أنه عندما

(١) ابن طباطبا: الفخرى ص٨٦.
(٢) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج١ ص٣٦.
(٣) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج١ ص٣١.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص٩٨ ـ ٩٩.

المستقيم بقوة الروح القدس. وكعادة المحبه واظهار الخير فى كل وقت والمجازاة عليه اظهر لهما سرعه، ثم امر ان يوخذ الرجلان جرجه وولده ابراهيم، وبعد ان تحقق نياتهما اوسمهما اسقفين وقرا عليهما الصلاة القانونيه والبسهما ثياب الاسقفيه . وكان ذلك ببيعة الشهيد مارى مينا بمريوط فى يوم عيده الجليل وهو الخامس عشر من هتور، وجميع الشعب الارتدكسى مجتمع لعيد الشهيد وكان الجمع قياما على اطراف اصابع ارجلهم ينظرون ما



أوانى مار مينا التى كان يحمل فيها الماء المقدس.

حرض عبدالله بن سبأ جند العرب فى مصر على الطعن فى أمراء عثمان «واظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». أخذ جند العرب فى مصر يكتبون الكتب إلى الأمصار المختلفة فى عيوب ولاتهم، ويكاتبهم أخوانهم فى مثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يحدث، حتى «أوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء. إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا إنا لفى عافية مما فيه الناس».

ويظهر أن الخليفة عثمان كان يجهل تلك الحركة فى بادىء الأمر، إذ أنها كانت حركة سرية. ويظهر أيضا أنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينة أولا فأعلموا عثمان بها وأشاروا عليه بأن يرسل رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار المختلفة ليتبين ذلك الأمر ففعل، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبدالله بن عمر إلى الشام وعمار بن يسار إلى مصر، وأرسل غيرهم إلى سائر الجهات، فلما عاد الرسل إلى عثمان أخبروه أن الحالة على ما يرام وأن أهل البلاد لا ينكرون شيئاً وأن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم، ولكن عمار بن ياسر الذى أرسله الخليفة إلى مصر تخلف ولم يعد إلى المدينة، ولشد ما كانت

كـان ويمجـدون الرب الصـانع العجـايب على يد هذا القديس قايلين: المجد لك يا محب البشر الذى انقذ نفسى هذين من عبودية الشيطان المضل.

ثم لما اكـمل العيـد المقـدس عـاد الى مـدينة اسكندريه وجميع الشعب بفرح عظيـم ويمدحون الاب البـطرك لانه قـدم للرب هذا القـربان واخـذ هذين الاسقفين اليه ولازمهما.

وبعد قليل تنيح اسقفان من جمله الاسـاقفه

دهشتهم عندما أرسل واليها عبدا لله بن سعد كتابا إلى المدينة يقول إن قوما استمالوه، منهم عبدالله بن سبأ وخالد بن ملجم وكنانة بن بشر(١).

ويجدر بنا الآن أن نعرف موقف الجند العرب المتمردين فى مصر وكيف كانت هذه البلاد سببا فى تعجيل الحوادث وفى إشعال نار تلك الثورة التى انتهت بقتل الخليفة عثمان بن عفان، والتى كانت سببا فى انقسام المسلمين على أنفسهم انقساما طال أمده وتعددت مناحيه.

كان عبدالله بن سبأ طرد من البصرة والكوفة ولم يلق أى نجاح فى الشام، ثم قدم إلى مصر فوجد جندها من العرب متهيئة لقبول دعوته وللطعن فى عثمان، وهذا الأمر يستلفت النظر ويدعو الباحث إلى أن يتساءل عن السبب فى ذلك؛ فلم نجحت دعوة ابن سبأ فى مصر نجاحا كبيراً؟ ولم يطرد منها كما حدث له فى البصرة أو الكوفة مثلا؟ نحن لا نجد فى المصادر القديمة ذكر السبب فى ذلك، ولكن إذا أعوزتنا الأدلة النقلية فلا بأس من أن نلجأ إلى الأدلة العقلية. ويظهر أن الدعوة ضد عثمان نجحت نجاحا كبيراً فى مصر لأن أفراد القبائل العربية التى لا تنتمى لقريش ومن بينهم بعض الصحابة والمجاهدين الذين استقروا بمصر وكذلك الانصار من أهل المدينة بل واليهود الذين شتتهم أبو بكر وعمر بن الخطاب خارج الجزيرة

(١) الطبرى ج٥ ص٩٩، تاريخ ابن خلدون ج٢ ص١٣٩، خطط المقريزى ج٢ ص٣٣٤ ـ ٢٣٥.

بكورة مصر احدهما بقيره اسقف طنبذا ومينا اسقف اتريب ، فقسم ابراهيم على اتريب وجرجه اباه على طنبذا، وصار هذان الاسقفان مصطفيين عنده إلى يوم نياحتهما، والمجد للسيد يسوع المسيح الذى يفرح بكل من يعود الى الحياه.

فلما نظر البرسنوفيون المقدم ذكرهم الذين كانوا بكورة مصر [الفسطاط] ان ريساهم قد عادو ارتدكسيين ولم يبق لهم اساس كتبو الى انبا مرقس

العربية وخاصة إلى مصر رأوا فيها فرصة للقيام ضد الخلافة القرشية، وهم فى ذلك لم يقصدوا الخليفة عثمان نفسه وإنما أرادوا زعزعة سيادة قريش خاصة الفرع الأموى الممثل فى عثمان وبنى أمية، فقد كرهوا تلك السيادة التى زادت منذ ظهور الإسلام. على أنه وجد أيضاً فى مصر بعض القرشيين الذين ثاروا ضد عثمان ولكنهم ليسوا من الفرع الأموى بل من بنو هاشم الفرع النبوى المناهض للأمويين، وعلى رأسهم محمد بن أبى بكر الصديق ومحمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ولا يبعد أن يكون هؤلاء ممن طمعوا فى الخلافة نفسها، فهم يرمون سيادة قريش بالطبع، ولكن ربما حدثتهم أنفسهم وسط حركة التذمر التى سرت بين الناس أن يلقوا دلوهم فى الدلاء علهم يصلون إلى منصب الخلافة أو إلى أى منصب عظيم فى الدولة الإسلامية. كان عبدالله بن سبأ ذا مواهب متعددة جعلته يجذب الكثيرين إلى تعاليمه، ولم يكن تأثيره عظيما على العامة فحسب، بل نرى أيضاً أنه استطاع بمهارته أن يجذب إليه رجالا من أئمة الحديث وأن يؤلبهم على عثمان، مثل عمار بن ياسر الذى كان عثمان قد أوفده للاستفسار عن حقيقة ما قيل بصدد التذمر والثورة ولكنه تنكر للخليفة ولم يعد إليه.

واستطاع عبدالله بن سبأ أن يجذب إليه أيضا أحدكبار أئمة الحديث، كان مقيما بالشام عندما كان ابن سبأ يتنقل فى الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان، ذلك هو أبو ذر

يسالونه ان يمضى اليهم ليكرز بيعهم، فلما وقف على الكتب فرح فرحا عظيما وترك جميع اشغاله ومضى مسرعا الى مصر وكرز لهم البيع والديارات وجعل لهم القداسات بالناموس البيعى واعطاهم السراير المقدسه جسد ودم السيد يسوع المسيح الاهنا. وكان بفسطاط مصر فرح عظيم ومسره روحانيه.

وكان السيد يسوع المسيح يفعل مع ابينا

الغفارى[1] . وكان هناك فريق من الصحابة يفضل علياً على غيره، وطبيعى أن يكون فى مصر فريق ممن يؤمنون بأن علياً أحق بالخلافة ممن عداه.

وهكذا نرى أن التمرد ضد عثمان كان الباعث عليه اتجاهات وميول مختلفة، فمن متذمر من خلافة قريش وسيادة الفرع الاموى، ومن طامع فى الخلافة ومن شيعى خرج مؤمنا بحق على بن أبى طالب فى الخلافة، وقد تتجمع هذه العوامل المختلفة فى بلد آخر غير مصر. ولكن يظهر أن الذى ساعد على نجاح تلك الحركة فيها والذى سهل على ابن سبأ القيام بمهمته هو انشغال والى مصر إذ ذاك، عبدالله بن سعد بن أبى سرح، بالحروب الخارجية التى قام بها، إذ غزا النوبة سنة ٣١هـ وغزا شمال إفريقية سنة ٢٧هـ كما حارب الروم فى وقعة ذى الصوارى سنة ٣٤هـ[2] ، وفى هذه الأثناء بالذات كان عبدالله بن سبأ يقوم بدعوته وفى سنة ٣٤هـ كان المتمردون على عثمان من جند العرب فى مصر والأمصار المختلفة يتكاتبون للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نقموا عليه بسببه[3]، أى أن الحركة التى كان يدعو إليها ابن سبأ والتى كان مركزها فى مصر كانت قد اختمرت وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ فى السنة التى كان يغزو فيها عبدالله بن سعد الروم، ويظهر أن عبدالله بن سعد لم يعلم بأمر هذه

(١) الطبرى ج٥ ص٦٦.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص١٢ ـ ١٣.
(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص٩٢.

القديس مرقس كلما يساله فيه، وكانت كل الجموع تجتمع اليه لتسمع كلامه وتعاليمه العذبه.

ومن بعد ايام قليل نظر تلك البيعه التى كرسها للبرسنوفيين اصحاب تلك المقاله اذا دخل اليها ليقدس [فوجدها صغيره] لا تسع الجموع فدعا بالصناع وانفق عليها من عنده حتى بنيت بنا حسنا وسميت بيعة البطرك الى يومنا هذا.

وكانت هذه النعمة العجيبة تنمو فى ايامه، فلم

الثورة إلا سنة ٣٥هـ بعد رجوعه من غزوة ذى الصوارى كما يخبرنا بذلك أبو المحاسن[١]، فليس هناك ما يشير إلى أنه علم بهذه الحركة قبل ذلك الوقت والا لما تغافل أو تعامى عنها وهو أخو عثمان فى الرضاعة وموضع ثقته.

وتذكر بعض المراجع المتأخرة أن الذى ساعد على نجاح تلك الحركة فى مصر هو سخط اجناد العرب بها على واليها عبدالله بن سعد لأنهم كرهوا أن يليهم بعد عمرو بن العاص ولأنه استخدمهم فى قتال أهل المغرب وغيرها[٢]. ولعل عمراً نفسه ـ وهو المعروف بدهائه العظيم ـ كانت له يد فى إثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على خلفه عبدالله بن سعد. ولعل كثيراً من الجند العرب فى مصر أصبحوا لا يرحبون بقتال أهل المغرب إما رغبة فى الراحة أو استخفافاً بنتائج هذا القتال وما يصيبونه فيه من غنائم قليلة لا تبرر تركهم مصر الغنية بالاسلاب.

ولنرى الآن ما تم من أمر هذه الحركة والى أى حد نجح المتمردون فى حركتهم.

وفد عبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى عثمان بن عفان بالمدينة فى رجب سنة ٣٥هـ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى فى قول، أو السائب ابن هشام بن كنانة العامرى

---

(١) النجوم الزاهرة ج١ ص٨٠.
(٢) النجوم الزاهرة ص٨٠، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٢.

يصبر العدو [الشيطان] عند نظره السلامه والامور العلويه والوصايا التى ثبتها فى قلوب المومنين وتخلص السبى الذى عاد بصلواته، فاطلق سهاما فى بيعة المشرق وعمل فى مطران من مطارنة كرياكوس البطرك بانطاكية يسمى إبراهيم حتى انه قال كلاما معوجا فى سراير المسيح ما لا اردنا ذكره لولا الضرورة لكى لا ينجس مسامع المومنين الاصفيا سماعه لانى اعلم انكم مشتملون بالنعمه فى كل حين بنور البشير مارى مرقس، لان

فى قول آخر[١] ، ولكن خليفته عليها طُرد من الفسطاط فى شوال من السنة المذكورة على يد محمد بن أبى حذيفة الذى أخذ يدعو الناس إلى خلع عثمان ويحرض عليه بكل الوسائل الممكنة لدرجة أنه كان كما يذكر المقريزى[٢] يكتب الكتب على لسان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام ويدعى أنهن كتبنها ويقرأها فى المسجد فإذا فيها الاستغاثة مما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام، وبالطبع صدق أناس وكذب آخرون وبالطبع كان لعثمان شيعة فى مصر فناوأوا ابن أبى حذيفة وأرسلوا إلى عثمان من يخبره بصنيعه، ومن بين شيعة عثمان فى مصر معاوية بن حديج وخارجة ابن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطاة وغيرهم كثير[٣] .

وأراد عثمان بن عفان معالجة الموقف باللين والسياسة لا بالعنف والشدة، فأرسل سعد بن أبى وقاص عله يستطيع أن يصلح بين المصريين ويصل إلى حل فى المسألة. ولكن سرعان ما خطب ابن أبى حذيفة فى أتباعه يحضهم على التماسك وألا ينخدعوا لرسول عثمان بدعوى أنه جاء ليشتت أمرهم ويفل عزيمتهم، وكان لكلامه أكبر الأثر فى أتباعه إذ سار إلى سعد بن

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص١٣ ـ ١٤، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٢) الكندى ص ١٤، المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٣) الكندى: الولاة والقضاة ص ١٥، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.

بصلوات ابينا البشير الإنجيلي لا تخليه الى الابد من النعمه. وهذه الضلاله التى ضل فيها ذلك المطران بتجديفه على السراير. حينذ لما سمع ابونا مرقس حزن جدا وقال: ما الذى نربح اذا كنا الزمان كله باتحاد واحد فى الامانه فتظهر هذه المقاله الغريبه فى بيعة انطاكيه وهذا الوجع هو لى من اجل اتحاد الابا[ء] الارتدكسيين الذى نحن وهم متمسكون به ولاسيما لقول بولس(*) «اذا تالم عضو واحد من الجسد فقد تألمت جميع الاعضا، واذا تمجد عضو

(*) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: ١٢ / ٢٦ .

أبى وقاص نحو مائة شخص فأساءوا إليه واضطروه إلى العودة من حيث أتى. وما لبث عبدالله بن سعد أن أتى مصر إلا أنه لم يكد يبلغ جسر القلزم حتى منعه أتباع ابن أبى حذيفة من الدخول فيها، فطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول ليخبر جنده بما أتى به، ولكنهم أصروا على منعه فرحل إلى عسقلان وظل بها إلى أن توفى[١] .

ولم تقف الحركة فى مصر عند هذا الحد من عصيان الخليفة، بل فكر ابن أبى حذيفة فى إرسال جيش من مصر إلى عثمان بن عفان، فأرسل ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس أما قائدهم الأعلى فكان عبدالرحمن ابن عديس البلوى. وكانت النتيجة أن قتل عثمان فى ذى الحجة سنة ٣٥هـ وعاد هذا الجيش ثانية إلى مصر[٢]. وهناك رواية أخرى تذكر أن وفد مصر، وكان معهم الثائرون من البصرة والكوفة، خرجوا متظاهرين بأن غرضهم العمرة[٣] ولكنهم كانوا يريدون الثورة على عثمان ابن عفان، وكان من بينهم محمد بن أبى بكر الصديق فشكوا إلى عثمان بن عفان واليه على مصر عبدالله بن سعد وطلبوا منه عزله فأجابهم عثمان إلى طلبهم وكتب بتولية محمد بن أبى بكر على مصر وعزل عبدالله بن سعد فقفل ذلك الوفد راجعاً، وبينما هم فى الطريق رأوا راكباً ارتابوا فى أمره ففتشوه وإذا معه كتاب من عثمان

(١) الكندى ص١٦ ـ١٧ ، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥ .
(٢) الكندى ص١٧ ، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٣) العمرة: زيارة البيت الحرام فى غير أوقات الحج ويسمى الحج الأصغر.

واحد من الجسد قد تمجد معه جميع الجسد » ،
قال هذا القديس مرقس البطرك وهو داع الى الرب.

ولاجل عظم اهتمامه بالامانه والاتحاد معهم كتب الى الاب البطرك كيرياكوس بما هذه نسخته: اتصل بنا ما قد بذره الشيطان فى بيعتكم المقدسه من ضلال ابراهيم فحزنت بيعتنا وتجمعنا لذلك لانا لم نسمع قبل هذه الايام بشى غريب

إلى عبدالله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن أبى بكر ونفر ممن معه، فأخذوا الكتاب ورجعوا ثانية إلى المدينة. وقرأوه على من فيها من الصحابة وقد أنكر عثمان ذلك الكتاب وحلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً، فظنوا أن الكتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه وطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان فلم يرض عثمان بذلك إذ أن مروان حلف هو الآخر أنه لم يكتبه. فطلبوا إليه أن يعتزل الخلافة فأبى وتمسك بها، وما لبث الثوار أن تطاولوا عليه وقتلوه أفظع قتلة وربما شجعهم على قتله ما علموا من استنجاده بمعاوية بن أبى سفيان وعبدالله ابن عامر والى البصرة وأمراء الأجناد فأرادوا أن يتموا ثورتهم قبل وصول المدد إلى عثمان خوفا من أن يقضى على حركتهم هذه بالفشل. ويقال إن محمداً بن أبى بكر هو أول من حرض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقتله[1] .

قد تكون الرواية السابقة صحيحة وقد يكون خصوم عثمان دسوها دساً يتهموه بالخداع أو الغفلة، خصوصاً إذا علمنا أن عبدالله بن سعد كان قد خرج من مصر قبل خروج الثائرين إلى عثمان.

ولم يضع قتل عثمان حداً لتلك الفتنة، بل كان بداية الفتن والمنازعات التى حفل بها التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى.

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ١ ص٤١ ـ ٤٨، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٣ ص١٢٨ ـ ١٣٦.

من اتحادنا بالامانه الارتدكسيه، وما جمعه الرب وجعل جميعنا بالنور الحقيقى وصرنا الان مثل من قد سبى سبيا ويقدمه كرامة للملك، وفيما هو مهتم بهذا قام عليه شعب غريب وملك السبى لكنى اومن من ذلك الملك الذى نحن متدرعون بسلاحه لقتال اعدايه ان يخزى اعداه سريعا وينقذ السبى من ايديهم، ومن اجل ذلك ايها الاب المبارك لا تغفل عن طلب الضال واغذه بالطعام الذى يجب ان يغذى به الاعلا[ء]، الذى هو كلام

ب. أثر النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى مصر

كان مقتل عثمان بن عفان كما يقول ابن خلدون [١] فتنة ابتلى الله بها الأمة، فقد بويع على بن أبى طالب من بعده بالخلافة فى سنة ٣٥هـ ولكن النزاع تجدد بين المسلمين حول هذه المسألة. إذ رأى على ومن تبعه أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها وذلك لاجتماع من اجتمع عليها بالمدينة. ورأى آخرون أن بيعته لم تنعقد لإفتراق الصحابة ولا تكون البيعة صحيحة إلا باتفاق أهل الحل والعقد كما أنها لا تكون صحيحة بغيرهم أو بحضور أقلية منهم، كذلك رأوا أن المسلمين كانوا حينئذ فى فوضى واضطراب فيجب أولاً المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين. وكان على رأس هذا الفريق المعارض لخلافة على، معاوية بن أبى سفيان والى بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان وابن عمه.

وقد بادر على بعد توليه الخلافة بعزل ولاة عثمان وإرسال عماله إلى الولايات، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار. والظاهر أن البيعة جاءته من كل مكان إلا بلاد الشام التى كان يليها معاوية بن أبى سفيان، فكان لابد من نشوب النزاع بين الطرفين بينما هما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسى حادث جديد. هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج الرسول على خلافة على واشتباكهم معه فى موقعة الجمل التى انتهت بانتصار على وقتل

(١) المقدمة ص١٧٩ (فصل فى ولاية العهد).

الله كما كتب لنا المعلم بولس يقول: ان الضعفا فى الامانه أقبلوهم وايدوهم ليس بمحاورة فكر لكن بصنعة الطب، طب الاجساد الذى يعرف العلة فيها بمعالجة الاعلا[ء] تعافو وتقوو، وانت الآن طبيب الانفس، وبقدرة تعليم سيدنا المسيح تبطل الذى للعدو، والسلامة لابينا القديس المبارك امين.

فلما وصلت الكتب الى البطرك انطاكية كرياكوس تعجب من اهتمام هذا القديس واهتم

طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة فى سنة ٣٦هـ. وفى تلك الأثناء استطاع معاوية أن يستميل إليه رجلا من أكبر دهاة العرب: هو عمرو ابن العاص. ويذكر اليعقوبى [١] أن عمرو بن العاص اشترط على معاوية بن أبى سفيان أن تكون ولاية مصر طعمة له نظير مساعدته له ضد على فقبل معاوية ذلك.

سار على بن أبى طالب فى أواخر سنة ٣٦هـ من الكوفة ـ التى اتخذها مقراً لخلافته بعد موقعة الجمل ـ نحو الشام لمحاربة معاوية وتقابل الفريقان فى سهل صفين، حيث نشب القتال بين الفريقين. وانتهت تلك الموقعة فى صفر من سنة ٣٧هـ بحيلة ارتآها عمرو بن العاص. إذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف فكان ذلك سببا فى فتور أكثر جند على بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار. وقد اختير عمرو بن العاص حكما من قبل معاوية كما اختير أبو موسى الأشعرى من قبل على. وقيل إن هذا التحكيم انتهى باتفاق الحكمين على خلع على معاوية، فأعلن أبو موسى الأشعرى خلعهما، ثم قام عمرو فأعلن خلع على وتثبيت معاوية لأنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بأن يخلفه [٢].

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٢ ص٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) انظر الطبرى جـ٦ ص٣٧ ـ ٤٠، المسعودى: مروج الذهب. جـ٢ ص٢٨ ـ ٣٣ (ط. القاهرة).

بكل جهده فى اعادة ذلك الظالم فلم يقدر عليه، وكان الشيطان يميل قلبه حتى ان جماعه ممن معه من الاساقفه باعمال انطاكيه مالو اليه وضلو معه فى هذه الضـــلاله وســـمـــوهم اهل المشـــرق الإبراهيـــميين(*) هولا افترقو من البيعه والمجمع الارتدكسى.

(*) شيعة الابراهيميين فى انطاكية.

فلما عاد ابونا انبا مرقس الى اسكندريه بعد بنا البيـعه المعـروفه به فرحـو الارتدكسيـون وامتلو

وقد خرج معاوية من التحكيم أقوى مما كان فقد رضى أهل الشام بخلافته، ولابد أن فريقاً غيرهم من الناس اعتقد بصحة التحكيم وبصحة خلاف معاوية، كذلك خرج فريق من أتباع على عليه بسبب رضائه بالتحكيم وهذا الفريق هو الذى يعرف بالخوارج، كما أن فريقاً آخر من جند على ملوا الحرب والنزاع، وقد عزم على على محاربة أهل الشام لاعتقاده أن الحكمين حكما الهوى ولم يحكما القرآن، وحث الناس على قتالهم فى سنة ٣٨ فتقاتلوا ولم يطيعوه إذ كانوا قد ملوا الحرب وسئموا القتال.

وقد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو فلم ينجح من هؤلاء الخوارج سوى عبدالرحمن بن ملجم الذى قتل علياً بالكوفة فى شهر رمضان من سنة ٤٠هـ. وبقتله انتهى عهد الخلفاء الراشدين وبايع المسلمون من بعده ابنه الحسن بن على، ولكن خلافته لم تزد على بضعة أشهر، إذ كان لا قبل له بمحاربة معاوية وجنده فتنازل له عن حقه فى الخلافة.

* * *

تجلى النزاع بين على ومعاوية بأجلى مظاهره فى مصر التى كانت مركزاً للمتمردين على عثمان بن عفان. فبعد مقتله فى ذى الحجة سنة ٣٥هـ عاد الركب الذى كان قد خرج عليه إلى مصر ثانية، ويلوح أن نفراً منهم تخلفوا فى المدينة ومنهم محمد بن أبى بكر نفسه، ويظهر

جميعهم جسدا الهيا، فاما الريس المحب لله سليمان وجماعة معه فحضرو عند ابينا وسلوه سوالا كتيرا قايلين له: ان ارض مصر جميعها امتلت مسره ببنا البيع وخاصة هذه البيعه التى بنيتها بمصر [الفسطاط]، وانت تعلم يا ابانا انه من حياة ابينا انبا يوحنا سالناه فى بنا[ء] بيعه السيد المخلص ان يوسعها ويزيد فيها لاجل كونها فى وسط المدينه فلم يتفق هذا الامر وبقيت الى الان، ونحن نسلك ان تورينا هذا الفرح فى ايامك.

أن أولئك المتمردين كانوا يتوقعون أن ينتقم منهم شيعة عثمان أو أنهم كانوا كعادتهم دائما يمزجون السياسة بالدين، وذلك لأنهم لما أتوا الفسطاط ودخلوا المسجد صاحوا: «إنا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله»[1] أما شيعة عثمان فى مصر فقد بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان فسار بهم إلى الصعيد، ولكن ابن أبى حذيفة أرسل إليهم من يحاربهم والتقى الفريقان فى إحدى قرى البهنسا فكان النصر حليف شيعة عثمان وهزم جيش ابن أبى حذيفة. ثم سار معاوية بن حديج إلى برقة ولا نعرف لماذا سار إليها ـ ثم رجع ثانية إلى الاسكندرية فأرسلى إليه ابن أبى حذيفة جيشا آخر على رأسه قيس بن حرمل اللخمى فاقتتل الجيشان بخربتا[2] فى أول شهر رمضان سنة ٣٦هـ فقتل قيس بن حرمل وهزم جيشه[3]. وعلى هذا نرى أن شيعة عثمان فى مصر انتصرت للمرة الثانية على الحزب الذى ثار على عثمان ولما يمض عام واحد على مقتله.

نرى إذن أن النزاع الذى كان يقوم فى حاضرة الخلافة أو حول منصب الخلافة كان يؤدى إلى فوضى ونزاع فى مصر حتى تكاد تنعدم سلطة الخليفة فى تلك الظروف، فنرى ابن أبى

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص١٨ خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٢) خربتا. بفتح الخاء أو كسرها كانت من كور الحوف الغربى بالقرب من الإسكندرية (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٤١٦).
(٣) الكندى ص ١٨ ـ ١٩، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

فأجاب الراعى الصالح وقال لهم: انتم تعلمون حسد هولا المجاورين لكم [الخلقدونيين] ومتى بدانا بعمل ما ذكرتموه فهم يرفعون فينا للسطان ويشكونا فنقع فى تجربه مثل ما قد صبرنا دفعات عليهم أنا وأبى يوحنا عند بنا بيعة ميخايل الملاك «بيعة التوبه». وكلما كلمهم سألو وزادو فى السوال قايلين له: صلواتك المقدسات يكن لنا حصنا حتى يكمل هذا التذكار. فلما نظر قوة إيمانهم وحموة امانتهم اجاب سوالهم واحضر

حذيفة يغتصب ولاية مصر لنفسه دون أن يعينه خليفة، كما نرى شيعة عثمان وشيعة على يقتتلان فى مصر.

ويظهر أن انتصار شيعة عثمان على ابن أبى حذيفة شجع معاوية بن أبى سفيان على القدوم إلى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها الجغرافى الممتاز فوصل فى نفر من أصحابه إلى سلمنت من كورة عين شمس فى شوال سنة ٣٦هـ فخرج إليه ابن أبى حذيفة وأهل مصر[١] ليمنعوه من دخولها، فبعث معاوية ـ بما عرف عنه من الدهاء وحسن السياسة إلى ابن أبى حذيفة يقول إنهم لم يجيئوا لقتال أحد وإنما جاءوا يطلبون القصاص لدم عثمان ويريدون القبض على قاتليه وهما عبدالرحمن بن عديس وكنانة بن بشر اللذين كانا على رأس الوفد الذى يذهب إلى المدينة لقتل عثمان، فلم يجب ابن أبى حذيفة طلب معاوية وقال له لو طلبت منا جديا رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك!! وهنا لجأ معاوية إلى الحيلة مرة أخرى فعرض على ابن أبى حذيفة وأتباعه بأن يعطوه رهنا لكى يتفادوا حربه ضدهم. فرضى ابن أبى حذيفة بذلك وخرج فى الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وغيرهم من قتلة عثمان فلما

(١) مصر هنا تعنى الفسطاط لا القطر المصرى لأن معاوية بوصوله إلى عين شمس كان قد دخل القطر المصرى فعلا وليس الفسطاط عاصمة مصر.

جماعه من الصناع والمهندسين ووضع الاساس على اسم السيد يسوع المسيح، وكانت هذه البيعه في وسط المدينه. وكان يقوم وقت الصلاه ووقت صياح الديك ليشاهد البنا مثل أحد المهندسين ويدبره لن [لأن] الرب قد انعم عليه بكل حكمه، وكان يحسب تعبه راحه لاجل محبته وشهوته للصالحات وبنا البيع. وعندما بنى البيعه المذكوره بنعمه الرب الحالة فيه زينها بكل زينه إلى ان صارت كمدا للمخالفين الخلقدونيين وفرحه وبهجه للمومنين الارتدكسيين.

بلغوا لد[١]سجنهم معاوية بها. وسار هو إلى دمشق فهربوا من السجن فتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم فى ذى الحجة سنة ٣٦هـ[٢].

واستطاع معاوية بمهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوى فى مصر، ولا سيما الذين كانوا قد ثاروا على عثمان، دون أن يكلفه ذلك حربا أو سفك دماء. ولم يلجأ إلى حربهم أو إلى دخول مصر عنوة فى وقت كان يستعد فيه لحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين على بن أبى طالب.

ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبى حذيفة أرسل إلى مصر قيس بن سعيد ابن عبادة الأنصارى واليا عليها من قبله فدخلها فى بداية ربيع الأول سنة ٣٧هـ. ويظهر أن قيسا كان من أصحاب المقدرة السياسية الذين يعرفون كيف يستميلون الرجال حتى المعادين لآرائهم ومبادئهم، فنراه يحسن إلى شيعة عثمان بخربتا ويكرمهم ويبعث إليهم بأعطياتهم. ولعل معاوية خشى أن تجعل سياسته هذه من مصر ولاية علوية لا تعرف غير على والطاعةله فيقضى بذلك على حزب بنى أمية، فعمل هو وعمرو بن العاص على إخراجه من مصر بأية وسيلة،

(١) هى الآن اللد Lydda فى فلسطين على الطريق بين مصر وسوريا (لد. بالضم والتشديد.. قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين) ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص٣٥٤).

(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص ١٩، وخطط المقريزى: جـ٢ ص٣٣٦.

ولما كان فى اليوم السابع عشر من توت يوم عيد الصليب اجتمع الأساقفه الذين فى كورة اسكندريه واساقفه اخر من المجاورين بمصر وكرزت البيعه على اسم السيد يسوع المسيح. فما اعظم ذلك الفرح الذى كان فى ذلك اليوم بتسبيح وبركات وتمجيد كطغمات السماويين فى العلا. وتصدق ذلك اليوم على الفقرا واهل الحاجه باشيا كتيره فما اكتر اعمال الاب الجليل مرقس البطرك التى لا يحصى لها عدد ولا يقدر لسانى الناقص ان ينطق بها.

ولكنه امتنع منهما بالدهاء والمكايدة. وأخيرا لجأ معاوية إلى مكيدة استطاع بها أن يجعل عليا يشك فى إخلاص قيس بن سعد فكان معاوية يحدث رجلا من ذوى الرأى من قريش فى هذا ويقول «ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلى من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى قيس». إذ تظاهر معاوية لأهل الشام بأن قيسا من شيعته وأن كتبه ونصائحه تأتيه منه وكتب بذلك إلى شيعته فى العراق، فسمع بذلك جواسيس على فى العراق، وانتهى ذلك الخبر إلى على وأراد أن يتحقق من صحته فأرسل إلى قيس يأمره بمحاربة شيعة عثمان بخربتا فرفض قيس مقاتلتهم معللا ذلك بأنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم فمنهم مسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطأة ومعاوية بن خدج وقال إن معاملتهم بالحسنى خير من قتالهم؛ فقتالهم لا يجدى نفعا وأنه فى الواقع يكيد لهم بمعاملتهم بالحسنى، ثم كتب إلى على: «إن كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى» فعزله على وكانت ولايته على مصر حوالى أربعة أشهر. وولى على مصر الأشتر مالك بن الحارث النخعى وهو من أعوان على وكبار قواده حضر معه موقعتى الجمل وصفين. وسار الأشتر إلى مصر حتى نزل القلزم فى بداية رجب سنة ٣٧هـ، وهناك شرب عسلا فمات مسموما. ولما سمع بذلك معاوية وعمرو قال عمرو: «إن لله جنودا من عسل»[١] ومن المحتمل أنه كان لمعاوية وعمر يد فى مقتله.

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٠ ـ ٢٤، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٦.

وفى تلك الايام اقام الاب قيما على الخدمة البطركيه وكان ذلك القيم مملو حسدا وسو لكل احد وخاصة لرجل كاتب لابينا انبا مرقس وكان يذكر عنه كل قبيح لكى يطرده ابونا البطرك ويسلم له البيعه وحده، فيردعه ابونا ويمنعه ان يتكلم بهذا الكلام، فلم يقبل الدوا من الطبيب، ولما كان يوم من الايام وهو اليوم السادس عشر من طوبه اراد الاب القديس ان يتم يوم نياح الاب يوحنا الذى توفى فيه حضر ذلك الشرير وبدا ان

وكتب أبو المحاسن[1] أن معاوية استاء من تولية الأشتر مصر لكفايته وشدته فكتب إلى عامل القلزم يمنيه بوعود مختلفة على أن يهلك الأشتر بكل طريقة يقدر عليها، فكان أن قدم عامل القلزم للأشتر طعاما وعسلا مسموما فمات لساعته.

لما علم على بموت الأشتر أرسل إلى مصر محمد بن أبى بكر فكان حكمه بداية النهاية لحكم على بن أبى طالب فى مصر، ولا غرو فقد كان رجلا يجهل أمور السياسة والحكم، وكانت تغلب على طبيعته روح الفوضى والثورة، وفيه حب للرياسة والزهو، وقد تجلت طبيعته هذه فى ثورته ضد عثمان وفى سياسته فى مصر عندما وليها.

قدم محمد بن أبى بكر إلى مصر فى رمضان سنة ٣٧هـ. ويقال إن قيس ابن سعد لقيه فنصحه عدة نصائح تختص بحكم مصر، تذكرنا بسياسة قيس قبل أن يعزله على، ومن تلك النصائح أن يصانع شيعة عثمان فى مصر ليكشف بمعاملته الحسنة عن أمرهم وآرائهم، كما نصحه بأن يحسن سياسته مع الشعب بوجه عام وبأن يتحبب إلى الناس وذلك بأن يعود المرضى ويشهد الجنائز، وغير ذلك من النصائح التى تستحق التقدير. على أن محمد بن أبى بكر لم يفعل شيئا من ذلك، بل كان أول ما عمله أن كتب إلى معاوية بن حديج ومن معه من شيعة عثمان يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه فبعث إلى دورهم فهدمها ونهب أموالهم

(١) النجوم الزاهرة: جـ١ ص١٠٣ ـ ١٠٤.

يتكلم فى الاخ الكاتب مثل اخوة يوسف معه فقال البطرك له: الان قد عسر داؤك، الان قد جربناك فى كل شى لخلاص نفسك وانت لا تكف بل تزيد، والان فظلمك يكون هلى هامتك كما قال النبى فى المزمور. وكان هناك قونه [ايقونه] فيها صورة السيده الجليله مريم والسيد المسيح فى حضنها منصوبه فى موضع جلوس البطرك فنظر اليها ذلك القيم ومد اصبعه من يده اليمنا وقال: ان كنت وقوتها قلت كذبا فيما ذكرته فهذه



الست مريم وطفلها المسيح.

وسجن ذراريهم، فنهضت شيعة عثمان لمحاربته ولما علم أنه لا قبل له بهم كف عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية ففعلوا ولحقوا بمعاوية[١] . ويظهر أن ذلك جعل معاوية يتخذ خطة الهجوم وينهى خطة السياسة والمكائد ويرسل جيشا لفتح مصر.

فى ذلك الوقت الذى عزم فيه معاوية على إرسال جيش لاستخلاص مصر من على، كان قد اتفق هو وعلى على التحكيم عقب موقعة صفين، ونعرف أن مدة التحكيم كانت بمثابة هدنة يضع فيها الفريقان المتحاربان السلاح. وتذكر المصادر أنهما لما اتفقا على التحكيم غفل علیی أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر[٢] ، ولذا أصبح معاوية حل من قتال أهلها. ويذكر أبو المحاسن[٣] أن معاوية طمع فى مصر لما اختلف أهل العراق على على، وكان معاوية قبل ذلك يهاب مصر لكثرة الشيعة بها بالرغم من أن أهل خربتا كانوا عثمانية، ويذكر أيضا أن معاوية قصد باستيلائه على مصر أن يستعين بها على حرب على. ولأهمية تلك المسألة استشار معاوية خواصه ومن بينهم عمرو. فقال عمرو: «أهمك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعونا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض، فى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت

---

(١) الكند ص ٢٦ ـ ٢٨، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٧.

(٢) الكندى ص٢٨، خطط المقريزى جـ٣ ص٣٣٧.

(٣) النجوم الزاهرة جـ١ ص١٠٧ ـ ١٠٨.

الصوره تنتقم منى. فاسمعو الان ما نزل على هذا الشقى من الامر المر من فم ذلك النبى القديس الذى قوله بسلطان قال له قولا مملو خوفا مثل قول دانيال النبى للشيخين المخالفين شهود سوسنه(*) العفيفه قايلا: يامن عتق فى ايامه السو ملاك الرب يضربك ويقطعك نصفين مثل ما ضرب الذى شهد على سوسنه بالزور. فى تلك الساعه عند تمام الكلام الخارج من فيه وقع ذلك الشقى على جنبه الايمن تحت رجليه وهو جانب يده اليمنا التى

(*) سوسنه : هو اسم للست مريم.

عدوك. فقال له معاوية. يا ابن العاص: «إنما أهمك الذى كان بيننا»[1] وقد رأى بقية خواصه ما رأى عمرو. وفى تلك الأثناء كاتب معاوية شيعته فى مصر وعلى رأسهم معاوية بن خديج ومسلمة ابن مخلد يمنهم بقدوم جيشه فكتبا إليه: «أما بعد فعجل علينا بخيلك ورجلك، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين فإن أتانا المدد من قبلك يفتح الله علينا».

هذه هى الرواية التى يذكرها أبو المحاسن ويستفاد منها أن شيعة عثمان بمصر لم يخرجوا منها، وأن معاوية لم يرسل جيشاً لاستخلاص هذه البلاد إلا بعد أن تمهدت له الأمور فى مصر.

وقد تكون شيعة عثمان فى مصر قد خرجت حقا فى ولاية محمد بن أبى بكر كما ذكرنا سابقاً، ولكن الأرجح أنها لم تخرج كلها بل ظل فيها طائفة منهم.

وقد أرسل معاوية سنة ٣٨هـ جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص.

وهنا يجب أن نتذكر أن عمراً لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من أيدى البيزنطيين كما فعل سنة ٢٠هـ وإنما كان يستخلصها من شيعة على ابن أبى طالب، فكان جيش عمرو فى تلك المرة يحارب فريقا من شعبه يدين بدينه، لا شعبا أجنبياً عنه ويدين بدين غير الدين

(١) يشير معاوية بذلك إلى الاتفاق الذى كان بينه وبين عمرو على أن يعطيه مصر طعمة له وذلك عند ما تعاهد معه على قتال على.

مدها الى الصوره بالسو وانفلج الى يوم وفاته. فلما نظرو الاعجوبه والامر الهايل خافو جميعهم من كلامه الذى كان مثل كلام الانبيا.

والآن يا ساداتى الابا[ء] وأولاد الارتدكسيين قد بدات وذكرت لكم انى لا أقدر ان انتهى فى ذكر افعال اباى لعظمها لاننى كالسرات [كالسائرين] خلف الحصادين، وليس لى قلب مضى[ء] لانى غارق فى ظلمة ذنوبى . وقد سمعنا من قوم ثقات

الإسلامى. ففى سنة ٢٠هـ وقف العرب كتلة واحدة أمام البيزنطيين، وهنا فى سنة ٣٨هـ انقسم العرب على أنفسهم وأصبح حزب منهم يقاتل حزبا آخر. وكان جيش عمرو يتكون من أهل دمشق وعليهم يزيد بن أسد البجلى وأهل فلسطين وعليهم رجل من خثعم وكان معاوية بن حديج على رأس شيعة عثمان، وأبو الأعور السلمى على أهل الأردن. وتقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبى بكر فاقتتلوا بالمسناة[(١)] وهزم الجيش الذى كان يقوده محمد بن أبى بكر بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة فى الأرواح. ويبين شدة القتال فى تلك الموقعة ما قاله عمرو: «شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوما كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ» وبعد انتصار عمرو دخل هو وأهل الشام مدينة الفسطاط[(٢)] .

هرب محمد بن أبى بكر بعد تلك الموقعة فأقبل معاوية بن حديج فى رهط من أنصاره يبحث عنه فدلتهم على مكانه امرأة فسار إليه معاوية بن حديج وقتله وقال: يقتل كنانة بن بشر ويترك محمد بن أبى بكر وانما أمرهما واحد[(٣)] ! ويقال إن محمدا طلب العفو من معاوية بن حديج فقال له معاوية: «قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان وأتركك وأنت صاحبه!» فقتله ووضعه فى جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار. فكانت ولاية محمد بن أبى بكر

(١) المسناة: مكان بين عين شمس وأم دنين أى شمالى القاهرة.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٩.
(٣) الكندى ص٢٩.

صادقين كانو بخدمون ابابنا القديسين في كل زمان ما نحن ذاكرون بعضه ، واذكر ايضا ما ظهر من هذا الاب انبا مرقس البطرك لكى تتعجبو وتمجدو الله من اجل الرافه والرحمه التى يعملها مع اصفياه كما قال بولس: ان الذين يحبون الله يصنع معهم كل عمل جيد.كان فى زمان هذا القديس جراد عظيم ظهر فى أعمال البحيره واسكندريه فاكل جميع اثمار الارض والكروم كما هو مكتوب فى المزمور انه قال: فجا جراد وجندب

على مصر خمسة أشهر ومقتله فى ١٤ من صفر سنة ٣٨هـ وقيل أيضاً إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبى سفيان بدمشق وطيف به، وهو أول رأس طيف به فى الإسلام[١] ، وبذلك انتهى حكم الخلفاء الراشدين من مصر فى صفر سنة ٣٨هـ[٢] . وتقديراً لهذه الخدمات التى أداها عمرو بن العاص ولاه معاوية مصر صلاتها وخراجها وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها، وهذه هى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر. ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذى كان بين على ومعاوية واستخلف على مصر ابنه عبدالله، وقيل خارجة بن حذافة صاحب شرطته، وبعد أن أدى مهمته فى التحكيم كما رأينا عاد ثانية إلى مصر[٣] ليجمع أموالها لحسابه وحده. وهكذا أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ بالرغم من أن علياً ظل خليفة حتى سنة ٤٠هـ.

٢.النزاع الذى قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين (٤٠.١٣٢هـ= ٦٦١.٧٥٠م):

أ.دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك فى مصر

طمع عبدالله بن الزبير فى الخلافة كما طمع غيره وتجلت أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه

---

(١) خطط المقريزى: جـ٢ ص٣٣٧.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص١١٠.
(٣) الكندى ص٣١، خطط المقريزى: جـ٢ ص٣٣٧.

فـاكل جـمـيع عـشب الارض. فـحـزن الاب عند معرفته بذلك وامر الشعب الارتدكسى ان يخرجو بالبـخور والصلبان و الإناجيل ويسالو الله الرحوم ان يزيل عنهم الغضب الحال بهم، وخرج معهم الاب وهو يسـال الله فى قلبـه بدمـوع غـزيره، وخرجو خار ج المدينه موضع الجراد كما قال لهم ونظرو الجراد وقد طار متعاليا الى الجو وكان امرا عظيـما حتى غطا الجـو، وكـانت دموع الشـعب تخـتلط مع دعـاهم والاب البطرك يقـول: يارب

فى موقعة الجمل[1] ، على أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد لخروجه وادعائه الخلافة، بل نراه يشترك فى خدمة الدولة زمن معاوية ابن أبى سفيان ويخرج فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية سنة ٤٩هـ بقيادة يزيد بن معاوية[2] . وعندما أخذ معاوية قبيل وفاته البيعة لابنه يزيد، عارض فى تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن على وعبدالله ابن الزبير. وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير إذ قال له «... وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت»[3] ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ ـ ٦٤هـ = ٦٨٠ ـ ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته. فأما الحسين فقد خرج على يزيد وقتل فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ بكربلاء، وبقتله خلال الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة فى سنة ٦١هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز[4] . وقـد أرسل يزيد جيشا فى سنة ٦٣هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه فى المدينة ثم مكة، ومات يزيد ولما يتم إخضاع ابن الزبير. ثم ولى الخلافة معاوية الثانى ابن يزيد، إلا أن مدة خلافته لم تطل فقيل إنه ملك

(١) انظر الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص١٦٩، ابن طباطبا: الفخرى ص٧٦.
(٢) الطبرى: جـ٦ ص١٣٠.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى ص٩٨.
(٤) الدينورى: الأخبار الطوال من ص٢٦٠، الطبرى: ج٦ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

يارب الرأفــه والرحــمــه لا تهلكنا لاجل خطايانا وذنوبنا ولكن تجاوز عن سيآتنا لجل رحمتك، وكما سمعت صراخ اهل نينوى اسمع يارب تضرعنا واقبل دعانا يارب وكما سمعت دعا موسى فى ذلك الزمان وازلت الجراد عن ارض مصر اسمع اليوم دعانا وانظر دموع شعبك وتنهدهم من عمق قلوبهم وازل عنا هذا الغضب.

ولولا انا نكره التطويل لشرحنا كلما قالوه من

أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر، وحدثت بعدموته فترة هرج ومرج ونزاع حول منصب الخلافة، وفى تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذى بايعه أهل الشام كلهم إلا أهل الأردن، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن.

ولما بويع مروان بن الحكم بالخلافة فى سنة ٦٤هـ (٦٨٤م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبدالله بن الزبير. أما فى الشام فقد انتصر على الضحاك بن قيس عامل عبدالله بن الزبير فى موقعة مرج راهط وقتله وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان، وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سنرى، ومات مروان فى سنة ٦٥هـ (٦٨٥م) وابن الزبير متغلب على الحجاز والعراق.

وفى عهد عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ = ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) تم القضاء على ابن الزبير، إذا تغلب بنو أمية على العراق فى سنة ٧٢هـ، وعلى الحجاز فى سنة ٧٣هـ، وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير فى هذه السنة.

* * *

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨هـ وأصبح ولاتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء الأمويين، ولم تظهر دعوة ابن الزبير فى مصر إلا عقب وفاة

الدعا والتضرع بالاتضاع والحرقه والدموع، والله العظيم الذى يسمع دعا عبيده ويخلص الذين يصرخون اليه ويدعونه، يا لعظم تلك الاعجوبه التى لم تنقص شيا عما كان فى ايام موسى، يا لعظم قوة المسيح التى فى ابينا البطرك، ففى تلك الساعة طار الجراد فوق روسهم الى ان نزل فى لجج بحر اليم ومات جميعه بصلاته.

اسمعو الآن يا اباى واخوتى ما تفرح به قلوبكم

الخليفة يزيد وذلك فى ولاية سعيد ابن يزيد عليها (٦٢ـ ٦٤هـ). وقد قام بتلك الدعوة الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم[١] . والواقع أن هذه الفرق المختلفة من الشيعة والخوارج كانت تؤيد جموع الثائرين على الخلافة علها تستطيع الوصول إلى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية. فلم يقل أحد بأن ابن الزبير كان يدين بمذهب الخوارج، ولكن ربما ادعى الخوارج فى مصر ذلك، وساعدهم فى دعوتهم هذه ما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم فى نشر دعوته.

أوفد الخوارج فى مصر وفدا إلى ابن الزبير ـ ليرسل إلى مصر أميرا من قبله يؤازرونه. كذلك خرج من مصر إلى ابن الزبير أناس من غير الخوارج، منهم أبو عبيدة وعياض ابن عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى وأبو بكر بن القاسم بن قيس العذرى وحيان بن الأعين الحضرمى وحجوة ابن الأسود الصدفى ـ ثم أرسل ابن الزبير واليا من قبله على مصر هو عبدالرحمن بن عتة بن جحدم الفهرى، فقدم مصر فى طائفة من الخوارج الذين قاموا ضد واليها سعيد بن يزيد فاعتزل الولاية سنة ٦٤هـ ومن ثم بدأت ولاية عبدالرحمن بن جحدم فى شعبان سنة ٦٤هـ وأصبحت مصر ولاية تابعة لخلافة عبدالله بن الزبير. وقد بايعه الناس فى مصر ومنهم شيعة بنى أمية الذين بايعوه فى الظاهر إلا أنهم كانوا مخلصين للأمويين

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص٤٠ ـ ٤١، خطط المقريزى: جـ٢ ص ٣٣٧.

برافة الله التي جعلها في هذا الاب ، لما كان بعد ذلك عند عودته من مصر وهو يفتقد الشعب اجتاز بلد تسمى الان اغروه، وقديما اغرا[ر][*] وخرجو الكهنه للقايه كالعاده ليقرو قدامه، وجماعه من الشعب ريسا مقدمون وبارك عليهم ودعا لهم جميعهم، فخرج مع الناس انسان به شيطان فصرعه بين الناس وخنقه حتى خرج الزبد من فيه، فلما راه ابونا حزن عليه وتحنن وامتلا من روح

(*) أغرار : هى الآن غالبا قرية الغريره. وهى ناحية إدارية تكونت سنة ١٩٢١ ، تقع فى زمام ناحية كيمان المطاعنه مركز اسنا محافظة جرجا .

وللحكم الأموى فى الباطن[١] . فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ دعاه شيعته بمصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير.

فقدم مروان بن الحكم إلى مصر وأرسل أمامه جيشا بقيادة ابنه عبدالعزيز بن مروان وأمره أن يدخل مصر عن طريق أيلة. وقد أشار الجند على ابن جحدم بحفر خندق حول الفسطاط للدفاع عن مصر، فأمر بحفر هذا الخندق فحفر فى شهر واحد.

وقد أعقب ابن جحدم ذلك بإرسال جيش إلى الشام أمر عليه السائب ابن كنانة بن هشام العامرى كما سير إليها حملة بحرية بقيادة الأكدر بن حمام اللخمى. وأرسل إلى أيلة جيشا آخر بقيادة زهير بن قيس البلوى ليمنع عبدالعزيز بن مروان من السير إليها. أما جيش السائب فقد انتصر عليه مروان بخدعة غريبة إذ أخبره روح بن زنباع بأن للسائب بفلسطين ولدا رضيعا فأخذه مروان ولما التقى بجيش السائب أظهر له ابنه وهدده بقطع رأس ابنه إذا لم يرجع، فرجع السائب دون قتال ولذلك سمى جيشه جيش الكرارين، وأما المراكب التى سيرها ابن جحدم فقد هبت عليها ريح عاصف أغرقتها ونجا أميرها الأكدر وعاد إلى الفسطاط. وقد التقى جيش زهير بن قيس بعبد العزيز على مقربة من أيلة وتقاتلا فانهزم زهير ومن معه[٢] .

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص٤٠ ـ ٤٢ ، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٧.
(٢) الكندى ص ٤٢ ـ ٤٣ ، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٧ ـ ٣٣٨.

القـدس وقـال لهـم قـدمـوه الى ورسـم علـى وجـهـه
علامة الصليب وقـال: الرب يسـوع المسيح الكلمه
الوحـيـد من الاب الذى اخـزى الشـيـاطين وعـتق
خليـقته منهم، انت الذى عـرفوك الشياطين وانت
الذى القيتهم فى قعر الجحيم فصرخو وقالو: ما لنا
ولك يا يسـوع ابن الله اتيت لتـهلكنا قـبل الوقت
الذى نعذب فيه، انت الان يا سيدى يسوع المسيح
اصـرف هذا الشـيطان النجس واخـرجـه من هذا
الرجل. فلمـا قـال هذا سـقط الرجل على الارض

وسار مروان إلى مصر حتى نزل عين شمس فخرج إليه ابن جحدم فى اتباعه وتحاربوا يوما أو يومين ثم رجعوا إلى خندقهم. وأخذوا يحاربون مروان وهم فى الخندق، وقد سميت تلك الأيام بأيام الخندق والتراويح، فكان أهل مدينة الفسطاط، يتناوبون القتال فيخرج نفر للقتال ثم يرجع ثم يخرج غيرهم، وهكذا وقد اشتد القتال بين الفريقين حتى قام نفر ليصلحوا بين المصريين ومروان وتم ذلك الصلح وكتب مروان كتابا أمن فيه المصريين ثم دخل الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥هـ[(١)] . وانتهى فى مصر حكم ابن الزبير بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهى المدة التى ولى فيها عبدالرحمن بن جحدم.

وقد بايع الجند العرب فى مصر مروان بن الحكم إلا نفرا لم يرضوا بنكث بيعه ابن الزبير بعد أن بايعوه طائعين. ولما كان مروان يريد أن يقضى على خلافة ابن الزبير نهائيا من مصر، فقد قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا ثمانين رجلا.

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموى، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز بعد أن زوده بالنصائح الهامة التى تجعل منه حاكما قديرا وتساعده على حكم مصر[(٢)].

---

(١) الكندى ص٤٣ ـ ٤٥، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨.
(٢) الكندى ص ٤٧ ـ ٤٨.

وانقطع حسه وسبت [دون حركة] كانه نايم، وقام بعد ساعه وقد خرج منه الشيطان بصلواته، فسجد على قدميه المقدسه وشكر الله على ما ناله من الخلاص. حينذ قال له الاب قول الرب الذى قاله فى الإنجيل لصاحب اليد اليابسه لما ابراه: قد عوفيت فلا تعود تخطى فينالك اكتر من هذا وانظر كيف تصعد لتأخذ السراير المقدسه وأعلم أن الذى حل بك هو بسبب انك كنت تتناول السراير المقدسه بجهل، فاحفظ نفسك من الكلام

على أن جند العرب فى مصر بعد خروجهم عن طاعة ابن الزبير لم يقفوا على الحياد فى النزاع الذى كان بينه وبين الخلفاء الأمويين، بل مدوا يد المساعدة إلى الأمويين كى تعينهم على التخلص منه، فأرسل عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٥ ـ ٨٦هـ) فى سنة ٧٢هـ حملة بحرية إلى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل، وكان فى هذا البعث رجل اسمه عبد الرحمن بن بحنس [١] أحد موالى تجيب يقال إنه هو الذى قتل ابن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ[٢]

وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة، إلا أنه، كما يقول المقريزى [٣] انكفت ألسنتهم هم والعلوية بعد تغلب مروان على مصر. على أنهم عادوا الى الظهور فى ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ ـ ٩٦هـ) فى خلافة الوليد بن عبد الملك، فيذكر الكندى [٤] والمقريزى [٥] أنه عندما خرج قرة إلى الإسكندرية فى سنة ٩١هـ اتفق الخوارج بالاسكندرية، وكانت عدتهم نحو مائة، على الفتك به وكان رئيسهم إذ ذاك المهاجر

---

(١) كتب الاسم فى المصادر بحنس ويحتمل أن يكون ذلك الاسم «يحنس»
(٢) الكندى ص ٥١، خطط المقريزى: جـ١ ص ٢١٠.
(٣) الخطط جـ٢ ص ٣٣٨. (٤) الولاة والقضاة ص ٦٤.
(٥) الخطط جـ٢ ص ٣٣٨.

البطال الذى يخرج من فيك. فنظرتم يا احباى هذه النعمه العظيمه التى استحقها ابونا انبا مرقس وانه بكلام فمه يطرد الشياطين بامر وسلطان مثل الحواريين تلاميذ المسيح الرسل الاطهار . وكان يدهن جماعه من المرضى بالزيت باسم السيد المسيح ويصلى عليهم فيبرون [فيبرؤن] عاجلا.

فان قال إحد من المقاومين: فلاى شى لم يشف نفسه من وجع الضربان الذى كان به فليقرا فى

ابن أبى المثنى التجيبى أحد بنى فهم، وقد علم بذلك رجل يكنى بأبى سليمان فأبلغ قرة ما عزم عليه الخوارج فأخذهم بغتة قبل أن يتفرقوا وحبسهم وقد أقروا بما عزموا عليه فقتلهم.

وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة وظلت مصر تقريبا طوال الحكم الأموى فيها (٣٨ ـ ١٣٢هـ) هادئة لا تشترك فى أية منازعات أو حركات ظهرت فى مقر الخلافة أو فى غيرها من أنحاء الدولة الإسلامية إذا استثنينا تلك الفترة التى قامت فيها خلافة ابن الزبير فى مصر كما تقدم. على أن مصر دخلت فى أواخر ذلك العهد فى النزاع الذى قام بين الأمويين والعباسيين والذى انتهى بقيام الدولة العباسية كما سنرى.

ب.زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك فى مصر

تجمعت الظروف والعوامل التى أدت إلى زوال الخلافة الأموية وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى، فمن شيعة يعملون على الكيد لبنى أمية ليغتصبوا الخلافة منهم، ومن خوارج كانت مبادئهم وحركاتهم هادمة لخلافة قريش، إلى موال كرهوا الدولة الأموية لتفضيلها العرب عليهم.

وهذه العناصر المناوئة للدولة وجدت منذ قيام الدولة الأموية،ومع ذلك لم يظهر أثرها فى إضعافها إلا بعد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموى على نفسه انقساما تاما منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥

الكتب فيجد قول الله انه يجرب اصفياه بالعلل والتجارب مثل ايوب الصديق بالجذام، ويوسف برميه فى الجب من ايدى اخوته، ودانيال مع الاسود الضوار، والتلته فتيه فى اتون النار، واشعيا النبى بمنشار الخشب. واهل هذه الطبقه من الانبيا والصالحين كتير لو شرحنا ما نال كل منهم لما وسعه المصاحف، لان القديس بطرس الحوارى كان ظله اذا مر على مريض فى الطريق قد برى من مرضه، ولاجل هذا كانو المرضى يجلسون فى

ـ١٢٦هـ=٧٤٣ ـ ٧٤٤) إلى أن ولى الخلافة مروان بن محمد اخر الخلفاء الأمويين فى سنة ١٢٧هـ (٧٤٤هـ)، وإذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموى يتخذ لنفسه حزبا يستعين به على الوصول إلى الخلافة، مما شجع الطامعين من غير بنى أمية على إلقاء دلوهم فى الدلاء علهم يصلون إلى ما يريدون. وكان صاحب النصيب الأكبر فى هذه الغنيمة هم العباسيون.

كذلك وضح خطر العصبية القبلية فى أواخر عهد الدولة الأموية ومما زاد فى شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم فى هذه المنازعات، فتعصب بعضهم لعرب الشمال وتعصب آخرون لعرب الجنوب.

وقد استغل بنو العباس عم النبى محمد كل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالخلافة الأموية، يظهر أنهم بدأوا منذ أواخر القرن الأول الهجرى ينظرون من جانبهم فيما طمح إليه الشيعة[1] فأخذوا يعملون لأنفسهم واستغلوا فى حركتهم الشيعة والموالى استغلالا كبيراً؛ إذا كانوا يدعون لواحد من آل محمد وطبيعى أن هذا يشمل آل على وآل العباس.

وفى الوقت الذى أثمرت فيه الدعوة العباسية كان حال الخلافة الأموية قد ساء إلى أقصى حد. وقد وجدت الدعوة العباسية فى شخصية أبى مسلم الخراسانى صاحب الفضل فى

---

(١) المسعودى: كتاب التنبيه والإشراف ض ٣٣٨.

الطريق التى يعبر فيها فيمر ظله عليهم فيبرون [فيبرؤن] وكان فى ساق بولس نمله(*) وهو متالم منها لا يقدر على بروها [وكانت الحزق التى تشد عليها تبرى المرضا وكان بصلاته يبرى العميان] وانما ابلاه الله بها رحمة منه ليلا [لئلا] يكبر نفسه عندما يعمل العجايب باسم المسيح، وسمعان الحبيس كان به قروح تدودت لم يقدر على بروها، وكان بصلاته يبرى العميان ويطهر البرص ويعمل اعمالا كتيره، وكلما اقام فى علته

(*) يقصد بالنملة هنا حبه نافرة فى الجلد.

إخراجها إلى حيز العمل والتنفيذ، فهو كما يقول ابن طباطبا [1] «رجل الدولة وصاحب الدعوة وعلى يده كان الفتح». وقد نجح أبو مسلم فى إظهار الدعوة العباسية ورفع راية العباسين فى خراسان سنة ١٢٩هـ[2]. وتمت الغلبة للعباسيين على الأمويين فى خراسان والعراق، وسار أبو مسلم بجنده من خراسان إلى الكوفة حيث بايع أبا العباس السفاح بالخلافة فى سنة ١٣٢هـ. وتبعه الناس من بعده. وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الآموى الذى كان يقوده مروان بن محمد عند نهر الزاب (أحد روافد نهر دجلة)، وهناك كانت الغلبة للعباسيين فى سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م[3]) وفر مروان بعد ذلك هاربا إلى مصر.

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية فى مصر لأن العباسين كما عرفنا اهتموا بخراسان والمشرق لنشر دعوتهم فيها ولأن محور الحوادث منذ البداية كان فى المشرق، ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها فى مصر التى فر إليها الخليفة مروان بن محمد ولقى فيها حتفه.

أول ما نسمع عن الدعوة العباسية فى مصرأيام خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ ـ

(١) الفخرى ص ١١٨.
(٢) الطبرى جـ٩ ص ٨٢ ـ ٨٤.
(٣) ا لطبرى جـ٩ ص ١٣٠ ـ ١٣٢، ابن طباطبا: الفخرى ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

تلت سنين، وابونا القديس انبا مرقس البطرك قام اثنتى عشره سنه فى وجعه، وكان يشكر المسيح ويقول: اشكرك يا ربى والاهى اذا جعلتنى مستحقا لهذه الالام مثل العازر المسكين.

وكانت الشعوب وجميع كورة مصر فى سلامة وهدو فى جميع ايامه.

فلم يصبر مبغض الخير الشيطان لما راى من اعماله وعجايبه التى هى كل يوم تزيد، فبدا ان

١٢٥هـ) وفى ولاية عبد الرحمن بن خالد عليها (١١٧ ـ ١١٩هـ) إذ يذكر أبو المحاسن [١] أن دعاة بنى العباس أرسلوا إليه سرا فاكرمهم ووعدهم فبلغ ذلك هشاما فعزله.

لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر مما كان يدور فى المشرق حتى كانت خلافة مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢هـ) فيبدأ الاضطراب فى مصر منذ توليه الخلافة ونرى الجند لا يطيعون أوامر الخليفة فى كثير من الأحيان، كما نرى النزاع بين القيسية واليمنية يتجلى بإجلى مظاهره فى مصر ولا غرو فقد عمت روح العصبية القبلية إذ ذاك فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية، فاليمنيون لا ينفذون أوامر الخليفة، والقيسيون أو المضريون فى جانب الخليفة، ولكن بعضهم يشقون عصا الطاعة، كما يثور بعض أفراد البيت الأموى تعصبا للخليفة مروان بن محمد وبعضهم يثور ضده، كذلك يظهر الخوارج فى مصر. أى أن ما يحدث فى مقر الخلافة يقع مثله فى مصر. وهنا نجد ظاهرة لم نعهدها من قبل وهى ثورة المصريين الوطنيين [البشمور] ومساعدتهم للعباسيين ضد الأمويين، فالمصريون الوطنيون لم يشتركوا فى المنازعات الخلافية من قبل ولكنهم لعبوا هنا دورا لا يغفل أثره، فتهيأت بذلك الظروف للعباسين، كى يتموا نصرهم ضد الأمويين، وكى ينشروا دعوتهم فى مصر.

لما بويع مروان بن محمد بالخلافة فى صفر ١٢٧هـ كان على ولاية مصر إذ ذاك حفص

(١) النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٧٨.

يقيم الفتن على كورة مصر وصار حزن فى كل مكان وفى اسكندريه، فلحق البطرك قلق عظيم حتى ان الانسان اذا سمعه لا يصبر عن البكا.

وانا الان اذكر لكم ذلك كان قد مات(*) فى تلك الأيام هرون الرشيد ببغداد وجلس موضعه محمد ولده المعروف بالامين، وكان سبب ذلك ان هرون الرشيد قد جمع قبل موته وجوه دولته وقال لهم الخلافه بعدى للسيد المامون ولدى، فلما

(*) وفاة هارون الرشيد وقيام الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون وكان ذلك فى حوالى ٢٥ مارس ٨٠٩م = ٣ جماد الثانى ١٩٣هـ.

بن الوليد الحضرمى، فلما أعلن بالفسطاط نبأ بيعة مروان، كتب حفص إليه يستعفيه من ولايته على مصر فأعفاه مروان منها [١] وهنا يجدر أن نشير إلى أن حفصا هذا كان من عرب الجنوب، أو من اليمنية الذين كانوا فى ذلك الوقت فى عداء مستحكم مع المضرية أى عرب الشمال الموالين للخليفة.

ولى مروان بن محمد حسان بن عتاهية على صلاة مصر، وولى على الخراج عيسى بن أبى عطاء، وهنا تتجلى العصبية القبلية بأجلى مظاهرها، كما تتجلى حالة الفوضى التى وصلت إليها البلاد ، وكيف قطعت الدولة العباسية شوطا بعيداً وسط تلك الفوضى الشاملة التى عمت أنحاء الدولة الأموية إذ ذاك. فقد كانت سياسة مروان بن محمد تنطوى على الاتحاد مع القيسية أو المضرية ضد اليمنية ، فكان طبيعيا أن يثور اليمنيون فى مصر ضد سياسة الخليفة لذا نجد أن حسان بن عتاهية عندما قدم إلى مصر فى ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ يأمر بحل الفرق التى كان حفص بن الوليد [٢] قد جندها على أن حسان لم يكد يستقر فى ولاية مصر حتى ثار قواد الفرق التى جندها حفص وأعلنوا عدم رضاهم إلا بحفص بن الوليد[٣]. وكان هذا فى الواقع نزاعا بين ا ليمنية والمضرية. إذ كان اليمنيون يثورون ضد عامل

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٨٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٩٢.
(٢) الكندى ص ٨٥. (٣) الكندى ص ٨٥.

وصل الخبر إلى محمد الامين امتلا غضبا وجمع اليه جماعه وحاربه فقتله وجلس على كرسى الملك.

ولما وقع الخلف بين الاخين قام [بمصر] تاير [ثائر] وحشد اليه جماعه وخلايق لا يحصى عددها(*)، وحفظ طريق مصر والمشرق . وكان ينهب جميع مال المسافرين إلى مصر والصعيد والحبشه والنوبه حتى انقطعت الطريق وجميع

(*) اضطراب الأحوال فى مصر وانقسامها بين أيدى المتمردين على الخلافة العباسية.

مروان بن محمد الذى كان يهمه موالاة المضريين، على أن الذى شجعهم على عصيان الخليفة هو حالة الفوضى والاضطراب التى سادت أنحاء الدولة إذ ذاك ، إذ كان الخليفة فى ذلك الوقت مشغولا بمحاربة الخارجين على الدولة من مختلف الطوائف والأحزاب، حتى إنه عجز عن عمل أى شئ ضد الدعوة العباسية.

ويظهر أن الدعوة العباسية فى مصر كانت فى ذلك الوقت قد قطعت شوطا بعيدا. إذا أرسل ثابت بن نعيم الجذامى ـ وكان ممن خرجوا على مروان بن محمد ـ كتابا إلى حفص بن الوليد يدعو فيه إلى خلع مروان ابن محمد. كذلك أتى إلى مصر رسول زامل بن عمرو الذى خلع مروان بحمص ودعاهم إلى مثل ما دعاهم إليه ثابت بن نعيم[1] . والمهم هنا أن اليمنية وسائر الخارجين على مروان ساروا إلى دار حسان بن ثابت وحاصروه فيها وطلبوا منه أن يخرج من مصر فنزل على رغبتهم واتجه إلى الشام ليلحق بمروان، فكانت ولاية حسان بن ثابت على مصر ستة عشر يوما. كذلك أخرج الثائرون من مصر صاحب الخراج عيسى بن أبى عطاء. وولى الثائرون عليهم حفص بن الوليد [2] على أنه بالرغم من أن حفصا كان من اليمنيين إلا أنه كان رجل دولة بالمعنى الصحيح يعرف أن مصلحة الدولة فوق مصلحة القبيلة وأن طاعة

(١) الكندى ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) الكندى ص ٨٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٠١.

المسالك من خوفه، واستطال الثوار على مصر وجميع أعمالها بحكم اضطراب مملكة بغداد، وخرجو الخوارج على المملكه بمصر وجبو الخراج لنفوسهم ، وكان من جملتهم رجل يسمى عبدالعزيز الجروى(*) اخذ من شطنوف الى الفرما وشرقية مصر بلبيس واعمالها، ورجل اسمه السرى بن الحكم اخذ من مصر [الفسطاط] الى اسوان ، واستوليا على الخراج، وقوم يسمون لخما وجذاما القبيلتين اخذو غربى مصرى واعمال اسكندريه

(*) عبد العزيز الجروى يستقل بشرق الدلتا. والسرى ابن الحكم يستولى على الصعيد، وقبيلتى لخم وجذام تحتلان غرب الدلتا والاسكندرية ومريوط.

الخليفة واجبة. ويتبين لنا ذلك مما قاله الكندى [1] إذ يذكر أنه ولى مصر فى هذه المرة كرها وأن قواد الجند هم الذين أجبروه على ذلك.

وفى تلك الأثناء قدم حنظلة بن صفوان الكلبى من إفريقية إلى مصر وكان أهلها قد أخرجوه منها، فنزل بالجيزة. وعند ذلك كتب مروان إلى أهل مصر بتولية حنظلة بن صفوان عليهم. ولكن الجند من عرب مصر عصوا أمر الخليفة مرة أخرى، بل حاربوا حنظلة وأخرجوه من الفسطاط إلى الحوف الشرقى، وظل حفص بن الوليد واليا على مصر طوال سنة ١٢٧هـ حتى أوائل سنة ١٢٨هـ[2].

على أن الخليفة مروان بن محمد وجد أن تنفيذ أوامره فى مصر لا يكون إلا بالقوة، لذا عزل حفص بن الوليد عن ولايتها فى المحرم سنة ١٢٨هـ وولى عليها حوثرة بن سهيل الباهلى وزوده بالجيوش لقتال حفص والجند العرب فى مصر، فسار حوثرة إلى مصر يصحبه سبعة آلاف رجل من أهل حمص والجزيرة وقنسرين، وهنا نجد حفصا مرة أخرى يلبى نداء عقله ولا يستمع لنداء العصبية القبلية حين اجتمع إليه الجند وطلبوا منه أن يمنع حوثرة من دخول

(١) الكندى ص ٨٦.
(٢) الكندى ص ٨٧، أبو المحاسن جـ١ ص٣٠٢.

ومريوط وملكو البحيره جميعها ، وكانت هاتان القبيلتان فى اكثر الاوقات متحاربتين ونهب بعضهم بعضا، وكان على البلاد منهما بلا عظيم، فلما ضيقو على مدينة اسكندريه دعو أهلها واستغاثو بالرب وسألوه ان يخلصهم من هذه الامه الظالمه.

وكان فى تلك الايام غربى اسكندريه دير يسمى دير الزجاج وفيه شيخ حبيس وقد اعطى نعمه ان ينظر بروح القدس علامات واشيا، واسم ذلك

مصر، إذ أبى عليهم ذلك وسلم ما بيده إلى أبى الجراح الجرشى بشر ابن أوس الذى أرسله حوثرة ريثما يحضر إلى مصر[١] .

ولما دخل حوثرة أرض مصر يصحبه الجنود، خشى أهل مصر منه، فأرسلوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمى يسأله الأمان فلقيه بالعريش وأجابه إلى ما طلب، وكتب إلى الجند من عرب مصر كتاب أمان فخرج إليه حفص بن الوليد فى وجوه الجند، إلا أن حوثرة لم يعبأ بالأمان الذى أعطاهم إياه فأمر بالقبض عليهم. ثم سار إلى الفسطاط فى ١٢ من المحرم سنة ١٢٨هـ. وعقب دخول حوثرة الفسطاط بعث فى طلب رؤساء الفتنة وكانوا من اليمنيين وتمكن من القبض عليهم وقتلهم، ومنهم حفص بن الوليد، وذلك سنة ١٢٨هـ[٢] .

ولم يكد حوثرة يتخلص من اليمنية فى مصر ويمهد أمورها حتى ظهرت فيها حركة أخرى كانت صدى لحركة الخوارج بالحجاز. فعندما قام عبد الله ابن يحيى الملقب بطالب الحق فى الحجاز ضد مروان بن محمد ودعا إلى نفسه بالخلافة، قدم إلى مصر داعيته ودعا لمبايعته ، فأجابه نفر من تجيب وغيرهم، ولما علم حسان بن عتاهية صاحب الشرطة بذلك قبض عليهم فقتلهم حوثرة بن سهيل[٣] .

---

(١) الكندى ص ٨٧.
(٢) الكندى ص ٨٨ ـ ٩١، أبو المحاسن جـ١ ص ٣٠٥.
(٣) الكندى ص ٩٢، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨.

الشيخ يوانس، فقال لاهل اسكندريه نبوه: اراكم قلقين من اجل هذه الامه هكذا صدقونى انه تجى امه من الغرب وتهلك هذه الامه وهذه المدينة بغير رحمه وينهبون كلما فيها.

فلما كان بعد قوله هذا دخل الى اسكندريه قوم ومعهم شي كثير من جزاير الروم يسمون الاندلسيين(*)، وأقامو على هذه القضيه من مصر الى جزاير الروم ينهبون ويجيبون السبى [النصارى] الى اسكندريه ويبعونهم كالعبيد، فلما نظر ابونا

(*) فى عهد الحكم بن هشام الأموى بالاندلس وعلى أثر وقعة الربض بقرطبة فى عام ١٩٨هـ - ٨١٤م التى قامت بينه وبين=

وما زال حوثرة يمهد أمور مصر حتى استدعاه مروان بن محمد سنة ١٣١هـ ليخرج إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بنى العباس [١] .

ولى مصر بعد ذلك المغيرة بن عبدالملك الفزارى فى جمادى الأولى سنة ١٣٢هـ ثم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وفى تلك الأثناء كان مروان بن محمد قد هزم أمام جيش العباسيين فى وقعة الزاب (جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ) وفر إلى حران عاصمة الجزيرة. وكانت مصر البلد الذى فكر مروان فى الهرب إليه عله يستطيع منها أن يقضى على العباسيين ليسترد سلطانه المهدد بالضياع، وذلك بما لها من مزايا عديدة من حيث الموقع والثروة. ويقال إن مروان فكر أولا وهو بحران فى الهرب إلى بلاد الروم حيث يجمع أمره ويلم شمل جنوده ليحارب العباسيين، واستشار فى ذلك رجلا من أخص الناس عنده وهو اسماعيل بن عبد الله القسوى. فكان ذلك رأى اسماعيل، غير أنه تذكر معاداة مروان لليمنيين وتحامله عليهم فصرفه عن هذا الرأى، وقال له يا أمير المؤمنين: أعيذك بالله أن تحكم أهل الشرك فى نفسك وحرمك لأن الروم لا وفاء لهم[٢] .

(١) الكندى ص ٩٢، أبو المحاسن جـ١ ص ٣٠٥.
(٢) الدينورى: الأخبار الطوال ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

مرقس ذلك السبى حزن جدا لبيعهم الانفس مثل الغنم ويسلم منهم كتير، ومما فى قلبه من الرحمه كان يشترى منهم كثيرا مثل رهبان وقساوسه وشماسه وعذارى وامهات اولاد الى ان اشترى منهم ستة آلاف نفس، وكان اذا اشترى منهم شخصا كتب له عتاقته لساعته وسلم له كتاب عتقه فى يده ويقول لهم: من اراد منكم ان يجلس عندى فهو مثل ولدى ومن اراد العودة الى بلده دفعت له ما يوصله الى أهله.

=أهل قرطبة هرب العديد منهم فى سفنهم وأتوا إلى اسكندرية التى تعودوا أن يقدموا إليها للتجارة فوجودوا أحوالها مضطربة بسبب الصراعات المسلحة التى كانت قائمة فيها بين والى الخليفة وبين المدعو عمر بن هلال الذى حرضه عبدالعزيز الجروى الذى استقل بسلطانه فى الدلتا، على الدعوة له باسكندرية فاستعان بهؤلاء القرطبيين للإستيلاء على اسكندرية. وتطورت الأمور حتى صار لهؤلاء القرطبيون السيادة

وحين عاود الخليفة سؤاله قال: «الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى[(1)] مدن الشام مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء، وتضمهم جميعا إليك وتسير حتى تنزل ببلاد مصر، فهى أكثر أهل الأرض مالا وخيلا ورجالا فتجعل الشام أمامك وإفريقية خلفك، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام، وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو إفريقية فإنها أرض واسعة نائية منفردة [(2)]» وقد صادف هذا الرأى قبولا لدى الخليفة، إلا أن مروان عندما وصل إلى مصر وجد أن الدعوة العباسية قد قطعت مرحلة كبرى فيها فكان أمامه محاربة العباسيين فى داخل مصر وخارجها، وكانت النتيجة أن غلب على أمره فى النهاية.

لما وصلت الأخبار إلى مصر بانهزام مروان فى موقعة الزاب أخذ واليها عبد الملك بن مروان يستعد لمقاومة العباسيين فصادر كل ما وجده من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيره ليستعمل ذلك فى الصناعة وغيرها من الأمور اللازمة للدفاع. وقد اخترعت فى ذلك الوقت مادة من العقاقير تدهن بها المراكب كيلا توثر فيها النيران، ويحدثنا ساويرس بن المقفع بأنه شاهد تلك الظاهرة بنفسه وهى عدم تأثر المراكب بالنيران إذا ما دهنت بتلك المادة، بل كانت

(١) استقرى البلاد تتبعها وطاف بها.

(٢) الدينورى ص ٣٤٧.

= كاملة على اسكندرية مدة أربعة عشر عاماً أنتهت فى عام ٨٢٧م = ٢١٢هـ . بخروجهم إلى جزيرة كربت (اقريطش) وقيامهم بأعمال القرصنة فى البحر المتوسط.

وكان جماعه منهم عند نظرهم افعاله يقعدون عنده فيسلمهم لمعلمين يعلمونهم المزامير وعلم البيعه، ومن اراد منهم ان يروح لاهله زوده ودفع له ما يحتاجه.

فشاعت اخباره وما فعل الى ممالك الملوك واهل الدول وصار له بينهم سمعه جميله، فحسده الشيطان على افعاله فحرك عليه البلايا واظهرشوكة شره، وكان فى مدينة اسكندريه فى

النيران تنطفئ فى الحال [١] . ولا بد أن أهالى مصر الوطنيين قد نالهم بلاء عظيم من جراء مصادرة أموالهم وأستخدامهم فى كثير من الأمور اللازمة للعرب.

وممن ثاروا على مروان فى مصر عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان وتبعه فى ذلك الدماحس بن العزيز الكنانى فى جمع من قيس، فأرسل إليهم الوالى عبد الملك بن مروان جيشاً قوامه سبعة آلاف شخص برياسة موسى بن المهند، وفى بلبيس التقى هذا الجيش مع الثائرين الذى طلبوا الصلح، فأجابهم موسى بن المهند إلى ماطلبوا، ثم ظفر بعمرو بن سهيل وحبسه فى الفسطاط [٢]. وحسبنا دليلاً على الاضطراب الذى وصلت إليه مصر فى تلك الفترة أن يتمرد على مروان بن محمد بعض أفراد البيت الأموى كعمرو ابن سهيل وأن يتبع هذا المتمرد جزء من قبيلة قيس التى كانت موالية لمروان. ولما عزم مروان على المسير إلى مصر اجتمع بعض الجند فيها على منعه من دخولها وأمروا عليهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن عميرة الحضرمى وهو ـ كما نرى من نسبه ـ ينتمى إلى عرب الجنوب الذين أصبحوا فى عداء مستحكم مع الخلفاء الأمويين. وقد أرسل مروان على مقدمة جيشة ابنه عبيد الله بن

(١) ساويرس ص ٢٧٣جـ ٢.
(٢) الكندى ص ٩٤، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٦.

تلك الايام وال كبير فى جنسه من المسلمين يسمى
عمر بن مالك فثارو عليه اللخميون والجذاميون
والمداجه وطلبو قتله حتى يملكون المدينه وبدو
يقاتلونه فما قدرو عليه، وكان شيخ كبير من
الاندلسيين كان قد وصل الى اسكندريه منذ صباه
ويعلم كل مكر ودغل، وكان يتوسط بين لخم
والاندلسيين ليساعدوه على قتل الوالى،واتفق راى
الجميع على ذلك فاتو اليه فى اليوم العاشر من
بوونه سنة خمس ومايتين وتلتين للشهدا، فلما اتفق

مروان، فلما وصل إلى مصر دعا ابن عميرة الجند إلى النهوض معه فتثاقلوا عنه ولم يقوموا بشئ مما عزموا عليه [١]، ثم قدم مروان مصر لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢هـ فوجد أن أهل الحوف الشرقى قد أصبحوا من أعوان العباسيين، كما وجد الأسود بن نافع بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فى الاسكندرية قد صار من أنصارهم، وكذا عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله ابن مروان الجيشانى بصعيد مصر ويحيى بن مسلم بن الاشج مولى بنى زهرة باسوان[٢]. ومن هذا ندرك كيف نظمت الدعوة العباسية فى مصر.

ونجح مروان فى أن يخضع الاسكندرية والصعيد ولكنه لم يجن ثمار هذا النصر لأن صالح بن على بن عبد الله العباسى وأبا عون تبعاه إلى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلا إليها بعده بنحو شهر كما يحدثنا بذلك ساويرس [٣] أو بعد مجيئة بشهرين تقريبا

---

(١) الكندى ص ٩٤ - ٩٥.

(٢) الكندى ص ٩٥.

(٣) تاريخ البطاركة ص ٣٩١ جـ ٢ .

يذكر ساويرس أن مروان قدم إلى مصر فى عشرين بؤونة سنة ٤٦٧ للشهداء، وأن الخراسانيين وصلوا مصر فى يوم ١٩ أبيب. وساويرس فى الواقع أكثر ثقة من المراجع المتأخرة لأنه استمد معلوماته من الوثائق اليونانية والقبطية المعاصرة لتلك الحوادث والتى كانت محفوظة بالأديرة.

راى الشيخ معهم هداهم الى ماعملوه فقتلو الوالى وملكو المدينه.

والذى جرى بعد ذلك يحزن ويولم، فلما كان تانى يوم بعد قتل الوالى وهو الحادى عشر من بوونه انفسد ما بين اللخميين والاندلسيين وصار عوض الصلح عداوه وحرب، والتقو ولم يزل الحرب بينهم الى الليل وظفرو الأندلسيون ، فلما نظرو اهل اسكندريه ذلك جردو سيوفهم ومشو فى

أعنى فى النصف من ذى الحجة كما تخبرنا بذلك المراجع المتأخرة[١]. وقد زاد الحالة حرجا فى ذلك الوقت ثورة أهل البشمور [٢] فى وجه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير والى مصر قبل قدوم الخليفة إليها وقد امتنعوا عن دفع الخراج، فحاربهم عبد الملك ولكنهم هزموه. ولما وصل مروان بن محمد إلى مصر وعلم بثورتهم، أرسل يعرض عليهم الأمان ولكنهم لم يقبلوا ذلك منه وظلوا على ثورتهم، وساعدهم على ذلك أن المنطقة التى ثاروا فيها كانت تحيط بها المستنقعات، وتعيق حركة الجيوش المهاجمة. وفشلت الجيوش التى أرسلها مروان لمحاربتهم.

ولما اقترب العباسيون من الحدود المصرية وبلغوا غزة صمم مروان على إحراق مدينة الفسطاط وأعلن وجوب إخلائها فى ثلاثة أيام، فهرب جميع أهلها إلى الجيزة و إلى جزيرة الروضة ثم أمر مروان بإحراقها. ولما علم بوصول الخراسانيين إلى الفرما أمر بإحراق جميع المراكب فى مصر وإحراق ما يستطاع إحراقه من المدن والكور وتخريب ما يستطاع تخريبه فى الوجه البحرى، وتم إحراق بعض المدن وتخريبها فى شرقى الدلتا فألحق بمصر وأهلها ومدنها وحرثها ونسلها وحيواناتها وأموالها خراباً هائلاً، ولم يهتم سوى بنجاة نفسه وجنده فكانت

---

(١) الكندى ص ٩٦، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٧.

(٢) إقليم البشمور أو البشرود كما فى المراجع العربية: هو المنطقة الرملية للواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد والمعروفة فى التاريخ القديم باسم بيكولى Bucolics التى حدثت فيها حرب الفلاحين فى عهد الإمبراطور ماركس أورليوس (G. Wiet: Hist. de la Nation Egypt. t. V. p. 37).

الاسواق والشوارع والحمامات والبيوت وقتلو من وجدو من الأندلسيين فى كل موضع. فكان عدة الذين قتلو منهم ثمانين نفسا. فلما افترق القتال وانهزموا اللخميون سالو الاندلسيون عن قضية اصحابهم فاعلمو ان الإسكندرانيين قتلوهم، وامتلو غيظا كالأسد الضاريه لشجاعتهم فجردو سيوفهم وخرجو فى المدينه مغضبين وقتلو كلمن لقوه من اهل البلد من المسلمين والنصارى واليهود واى موضع وجدو فيه احدا من اصحابهم المقتولين

مصر تجنى منه ومن أمثاله من الحكام العرب كل الخراب والدمار. أما مروان نفسه فقد عبر إلى الضفة الغربية للنيل فى مراكب هو وجنده بعد أن أحرق الفسطاط على الضفة الشرقية. ويذكر ساويرس أن مروان قام بحركة التخريب والإحراق لأنه ظن أن الخراسانيين إذا أتوا إلى الضفة الشرقية للنيل ووجدوها خالية من الناس والبهائم والغلات ولم يجدوا مراكب يركبون فيها رجعوا من حيث أتوا [١].

وهنا نجد ظاهرة جديدة لم نعهدها من قبل وهى اشتراك المصريين الوطنيين ونقصد هنا الأقباط الذين كانوا يكونون أغلبية الشعب المصرى حينذاك، فى تلك الحركة التى أدت إلى زوال الخلافة الأموية. ذلك أن المصريين الوطنيين لم يشتركوا فى المنازعات الخليفية قبل ذلك وانما فى هذه المرة نراهم يرحبون بالعباسيين لأنهم أرادوا التخلص من الحكم العربى الأموى بالإضافة إلى أن العباسيين وعدوهم برفع الجزية والمغارم عنهم، وهذا ما لم يحدث بالطبع عندما تمكن العباسيون من الاستيلاء على مصر.

ظل أهل البشمور على ثورتهم، بل ساروا إلى الفرما لمقابلة الخراسانيين يشكون إليهم من مروان بن محمد ومن اضطهاده الشعب القبطى على العموم [٢] ولم يكن هذا شعور أهل

---

(١) ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ص ٤١٨ جـ٢ .
(٢) ساويرس تاريخ البطاركة ص ٤٢٦ جـ ٢ .

احرقوه بالنار، فلما انتهو الى بيعة المخلص وهى
السطير التى بناها ابونا مرقس وجدو بعض
اصحابهم على ابوابها مطروحا لان المسلمين
قتلوهم هناك فى الدور وحملوهم رموهم عند باب
البيعه فعند ذلك غضبو جدا، وظهر فى ذلك
الوقت شيخ من فوق الدور ينظر الى الطريق،وهو
الشيطان الذى ظهر بذلك الشبه وقال للاندلسيين:
انا رايت صاحب هذه البيعه وقد قتل اصحابكم .

البشمور فقط بل كان شعورن القبط على وجه الإجمال ففى ذلك الوقت كان مروان قد قبض على بطرك الأقباط أنبا ميخائيل لأنه لم يقم بدفع المال الذى طلبه منه كما أنه لم يعمل شيئا لردع أهل البشمور [١] ويحدثنا أحد القساوسة الذين كانوا فى السجن إذ ذاك مع البطرك عن المعاملة السيئة التى لقيها هذا الرئيس الدينى على يد مروان ثم يقول إن الخراسانيين كانوا فى الضفة الشرقية للنيل ينظرون ماحل بالبطرك ولو وجدوا سبيلا إلى العبور إلى مروان لقتلوه لما رأوا من ظلمه وقسوة قلبه [٢]. وهذا يظهرلنا شعور القبط إذ ذاك نحو الأموين وأنهم كانوا يأمولون فى الخلاص على أيدى العباسيين.

لم يجد العباسيون إذ ذاك مراكب يعبرون فيها إلى الضفة الغربية للنيل حيث كان مروان مقيما بالجيزة. وكان مروان قد أحرق الجسرين اللذين يصلان الفسطاط بجزيرة الروضة وبالجيزة. وكانت هناك مخاضات فى النيل يمكن العبور منها بسهولة إلى الضفة الغربية ولم يكن العباسيون يعرفونها، ولكن دلهم عليها قوم يعرفونها وعبروا معهم إلى الضفة الغربية واستولوا بعدها على مراكب مروان التى عبر فيها هو وجنده إلى الجيزة.

ثم دارت رحى الحرب بين مروان وبين العباسيين وكتب النصر لهم ففر مروان حتى وصل

---

(١) ساويرس ص ٣٩٨ وما بعدها جـ٢.
(٢) ساويرس ص ٤٢٤ وما بعدها جـ ٢.

فرمو النار فى البيعه وكان النار تعلو جدا حتى انها احرقت دوركتير واماكن بعيده.

فلما علم ابونا بهذا الامر بكى بكا مر وحزن جدا، وقتلو مالا يحصى عدده من الخلايق ومواضع كتير نهبوها واحرقوها. وبعد هذا نحن الآن نريد أن نتكلم على ما دخل على قلب ابينا البطرك مرقس من الالم وخاصة بيعة السطير، وكان ينوح ويبكى ويقول بهذا النوح كما قيل فى

إلى بوصير[1]، وهناك لحق به صالح بن على العباسى حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ[2] وبذلك زالت الخلافة الأموية نهائيا، وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من

(١) بوصير أو أبو صيرة اسم لبلدان كثيرة فى مصر. وهذا الاسم من بقايا التاريخ القديم إذ كان المصريون القدماء يسمون بلدانا كثيرة باسم الإله أوزير. وبوصير هذا مشتق من الاسم الإله أوزير (أوزيريس). وبوصير هذا مشتق من الاسم المصرى القديم بروسرأى «مكان الإله أوزير» (سليم حسن بك: أقسام مصر الجغرافية. ص ١٨٧). وكان هناك زمن مقتل مروان أربع قرى بمصر باسم بوصير، فكان هناك بوصير قوريدس من أعمال الأشمونين وبوصير السدر فى كورة الجيزة، وبوصير دفدنو فى كورة الفيوم، وبوصير بنا فى كورة سمنود (ياقوت معجم البلدان جـ١ ص ٧٦٠) وقد أختلف المؤرخون فى المكان الذى قتل فيه مروان. فيذكر الكندى أنه قتل فى بوصير من كورة الأشمونين (ص ٩٦) ويذكر ابن العميد فى كتابه تاريخ المسلمين ص ٩٦ أنه قتل فى بوصير قوريدس. ويذكر المقريزى فى الخطط جـ١ ص ٣٠٤ وأبو المحاسن جـ١ ص ٣١٧ أنه قتل ببوصير بالجيزة. ويرى الأستاذ فييت أن مروان قتل فى أبى صير الملق الحالية التى تقع الآن فى مركز الواسطى فى مديرية بنى سويف وذلك لأنه يوجد هناك ضريح صغير باسم مروان يعمل له كل عاما احتفال سنوى. كذلك نعلم أن مروان حمل معه ثروته إلى مصر. وقد اكتشف أخيرا فى أبى صير الملق إبريق فخم من الطراز الساسانى يرجح أنه كان ملكا له (انظر: زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية ص ٢٧٠). والأصح أنها كانت بوصير التى فى أعمال الجيزة. وبوصير الملق الحالية قريبة من الجيزة وربما كانت ضمن كورة الجيزة فى العهد العربى. وساويرس يذكر أن الخراسانيين عبروا فى آخر يوم من ابيب أى بعد وصولهم إلى الفسطاط بعشرة أيام ويذكر أنهم عندما عبروا إلى الجيزة قتلوا مروان (ص ٤٥٧ وما بعدها جـ ٢) إذا قارنا ذلك بما ورد فى المصادر العربية بأن مروان قتل بعد وصول الجيش العباسى إلى الفسطاط بنحو تسعة أيام. نرجح أن قتله كان قريبا من الجيزة ونرجح أن أباصير هى أبو صير الملق الحالية لقربها من الجيزة.

(٢) الكندى ص ٩٦ ـ ٩٧، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٧.

المزمـور «يا الله دخلت الامم الى مـيـراثك ونجسـو هيكل قـدسك جعلو يروشليم خرابا كـمثل ظلمة الحبس، جعلو جثث عـبيدك طعـامـا لطير السـمـا، ولحوم قديسيك لوحوش الارض وسفكوا دما[ء]هم مــثل المـا[ء] حـــول يروشليـم ولـم يكن لهـم من يدفنهـم»(*). ثم نزل من على كرسيه وجلس على الارض . وكـان مداوما هذا النوح مثل قـول ايوب المغبـوط «انا كنت فى السـلامـه بدّدنى ونزع عنى

(*) المزمور ٧٩ / ١ ، ٢ ، ٣ .

أنصار بنى أمية فى مصر وأسر البعض الآخر ، ثم دخل صالح بن على العباسى الفسطاط فى المحرم سنة ١٣٣ هـ وبعث برأس مروان بن محمد إلى العراق [١]. ولم ينس العباسيون أن يكافئوا القبط الذين رحبوا بهم، فخففوا عنهم الخراج وأخلوا سبيل أنبا ميخائيل الذى حبسه مروان، ولما طلب البطرك من قائد العباسيين فى مصر أن يحمى أملاك الكنيسة فى جميع البلاد ولا يتعرض لها، أجابه إلى ما أراد. كذلك أعفى العباسيون البشامرة من دفع الخراج[٢].

وهكذا زالت الدولة الأموية نهائيا بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد فى مصر، وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢هـ وأوائل سنة ١٣٣هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق.

الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية
الى قيام الدولة الطولونية (١٣٢ . ٢٥٤هـ).

أ . موقف الأمويين والعلويين فى مصر من الخلافة العباسية

لم يكن زوال الخلافة الأموية ومقتل مروان معناه انتهاء المقاومة الأموية نهائيا، فقد ظهر من

(١) الكندى ص ٩٧ ، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٧.

(٢) ساويرس ص ٤٦٠ جـ٢ . ولعل الأعفاء كان عن هذه السنة فقط.

حلتى وارشق فىّ سهامه»(*). ويقول هذا وما يشاكله . ولم يفطر ذلك اليوم وتلك الليله ولم يقدر احد ان يجلسه على كرسيه ولا على حصير بل كان مطروحا على الأرض ينوح فلما كان نصف الليل قام ليصلى كعادته، فلما اصبح خرج ومعه اتنان من اولاده وقال: يا ايها المدينه المقدسه التى كتر فيها القتل وملكها العدو يا كرسى الذى قد اعتقدت اننى اجلس عليه [الى حين انتقالى]، ايها الموضع الذى لاباى [لآبائى] القديسين

(*) ايوب : الاصحاح ١٦ / ١٢ .

وقت لآخرن بعض أنصار البيت الأموى أو أفراده، قاموا ضد الخلافة العباسية ولم يتهاون العباسيون فى القضاء على المعارضين لهم حتى لو كان هؤلاء ممن ناصروهم من قبل.

ونلاحظ أيضا أن قيام الدولة العباسية لم يكن معناه أنتهاء مطالبة العلويين بالخلافة وتركهم مناوأة الحكومة القائمة، فقد كان العباسيون فى نظر العلويين وشيعتهم مغتصبين للخلافة كما كان الأمويون من قبلهم لذا نجد أنه كلما قام خليفة عباسى، قام علوى يدعو إلى نفسه بالخلافة. وقد استعمل العباسيون كل الوسائل من قتل وغدر للقضاء على المعارضة العلوية، ولا يكاد تاريخ أى خليفة يخلو من وقائعه مع العلويين، وظلت فرق الشيعة من جانبها تكيد للدلة العباسية فى الخفاء أو تحاربها جهراً إن أمكن الجهر. والذى يهمنا الآن هو موقف الأمويين والعلويين بمصر من الخلافة العباسية وموقف الخلفاء العباسيين منهم.

فى عهد الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) وفى ولاية إبراهيم ابن صالح على مصر من قبل ذلك الخليفة (١٦٥ ـ ١٦٧هـ) نسمع عن خروج أحد الأمويين وأنه دعا إلى نفسه بالخلافة ، ذلك الأموى هو دحية ابن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى خرج بالصعيد، فلما بلغ ذلك والى مصر تراخى عنه ولم يحفل بأمره ولم يهتم بمحاربته للقضاء عليه وكان نتيجة سياسة هذا الوالى المتراخية أن استفحل أمر دحية وملك أغلب بلاد

اللابسى النور الذى تنيحو فيه بابتهاج وسرور، وانا
صرت غريبا منه لاجل خطاياى. قال هذا وخرج
من المدينه وسار من مكان الى مكان يشق بحار
مياه واماكن صعبه فأقام فى هذا الضيق خمس
سنين من بعد خروجه من المدينة كمن هو سبى،
وكان فى جميع ذلك شاكرا لله ليلا ونهارا. وما
ذا حل باولاد البيعه من البلايا فى ذلك الزمان
والابا[ء] الاساقفه والاراخنه، وكانو ياتون اليه
ويعزونه ويسالونه وكل منهم يساله ان يمضى به

الصعيد وكاد أمره أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين. فلما علم الخليفة المهدى بذلك سخط على الوالى وعزله سنة ١٦٧هـ(١).

ولى مصر بعد ذلك موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمى (١٦٧ -١٦٨هـ) فأرسل جيشا مكونا من خمسة آلاف محارب بقيادة عبد الرحمن بن موسى بن على بن رباح اللخمى، إلى الصعيد لمحاربة دحية. وما لبث هذا الوالى أن قتل فى ٧ شوال سنة ١٦٨هـ أثناء محاربته قيسا واليمنية الذين ثاروا ضده فى الحوف (٢). ولى مصر بعد مقتله عسامة بن عمرو وافتتح أمرته بحرب دحية الأموى بالصعيد، وأرسل إليه الجيوش بقيادة أخيه بكار بن عمرو فحارب يوسف بن نصير الذى كان على مقدمة جيش دحية، وقد عاد الجيشان دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر (٣). وبعد ذلك بأيام يسيرة ورد الخبر بعزله عن ولاية مصر وتولية الفضل بن صالح بن على العباسى عليها فى آخر المحرم سنة ١٦٩هـ(٤). وكان أمامه قبل كل شئ أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره وبايعه كثير من الناس حتى كاتبه البعض ودعوه إلى دخول الفسطاط(٥).

(١) الكندى ص ١٢٤، أبو المحاسن جـ٢ ص ٤٩.
(٢) الكندى ص ١٢٦، أبو المحاسن جـ٢ ص ٥٤ - ٥٥.
(٣) أبو المحاسن جـ٢ ص ٥٧. (٤) أبو المحاسن جـ٢ ص ٦٠.
(٥) الكندى ص ١٢٩.

الى منزله لياخذ بركته فلم يفعل . وكان الارخن الدين مقاره بن ساث [نبات] النبرواى(*) من كرسى سمنود، فلما سمع ما جرى قام ومضى الى عند عبد العزيز المتولى على المشرق وخاطبه بسبب الاب البطريرك انبا مرقس ، وان الأمم الذين تغلبوا على اسكندريه نهبوا جميع ماله وترك كرسيه رجا[ء] سكن تحت ظل الله وظللك، فان كنت قد ظفرت بنعمه امامك فاكتب له كتابا باسمك ليتقوى بامرك ليكون فى موضعه امنا.

(*) نبروه: تقع فى محافظة كفر الشيخ عرفت بالفسيخ النبراوى. ورد اسمها فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد من أعمال السمنودية. أما سمنود فكانت عاصمة للمملكة المصرية فى عهد الأسرة الثلاثين الفرعونية. واسمها المصرى سبنترت مكون من مقطعين «سب» بمعنى الأرض، و«نترت بمعنى المقدسة ثم حرف اسمها سبنترت إلى =

أتى الفضل إلى مصر ومعه جيوش من الشام استخدمها فى قتال دحية فى بويط[1]، وقد تقهقر أصحاب دحية أمامه وتوجه بعدها دحية على رأس حامية من جنده إلى الواحات فبعث إلى أهلها ـ وكانوا من المسالمة [2] والبربر الذين يدينون بمذهب الخوارج ـ يدعوهم إلى القيام معه فأبوا أن يقاتلوا معه حتى يتبين إذا كان يدين بمذهبهم فأجابهم بأنه على مذهبهم فخرجوا اليه وقاتلوا معه يوم الدير. وقد أرسل إليه الفضل بن صالح جيشا كبيرا بقيادة عبد الله بن على فخرج إليه دحية فى أهل الواحات فهزم عبد الله بن على وقتل يومئذ عبد العزيز بن مروان بن الأصبغ، على أن أهل الواحات مالبثوا أن تخلوا عن دحية لإيثاره العرب على المسالمة وتقديمهم على البربر، كما أنه لم يرض بأن يتبرأ من عثمان فتبين لهم أنه على غير مذهب الخوارج فتركوه وانصرفوا عنه، فلما علم عبد الله بن على بانصرافهم عنه أتى ثانية لمحاربة دحية فقتل يومئذ مروان بن عبد الملك بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان [3]. وقد انتهى الأمر بأسر دحية وأتى به إلى الفسطاط فضرب الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه إلى الهادى وكان قتله فى جمادى الآخرة سنة ١٦٩هـ [4]. وكان القضاء على دحية الأموى

(١) بويط بالضم ثم الفتح قرية فى مصر الوسطى قرية من ديروط.
(٢) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقريزى جـ١ ص ٥٠) أو من يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط جـ١ ص ١١٠).
(٣) الكندى ص ١٢٩ ـ ١٣٠
(٤) أبو المحاسن جـ٢ ص ٦٠ ـ ٦١.

حينذ [حينئذ] كتب له سجلا عظيما كما التمس الريس المحب لله، حينذ اخذ ذلك الارخن نصيب دروتاوس ارخن سخا(*) الذى اوى اليه الاب القديس سويرس حتى تنيح عنده ، ثم انفذ رسلا من عنده وسجل [كتاب] الامير الى الأب البطرك ان ياتى ويقيم فى منزله، فقام ابونا البطرك وصلى وسار الى أن وصل الى نبروه(*) فخرج اليه ولقيه وكلمن معه من اجل الرياسه ، فلما راى الاب سجد له بقوة امانته وقال : الرب قد صنع

=سبنوتس الرومية وسمنوت القبطية ثم سمنود حاليا.

(*) سخا: هى سخوى Skhouy القبطية قرب برارى شمال الدلتا، كانت عاصمة للغربية وقت الايوبيين.

(*) انتقال البطرك إلى مدينة نبروه بسبب سقوط الاسكندرية فى يد الاندلسيين.

معناه انتهاء أول المحاولات وآخرها من جانب الأمويين فى مصر لاسترداد الخلافة. على أنهم بعد ذلك كانوا أحيانا ينضمون إلى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين وذلك رغبة فى الكيد للدولة العباسية.

وقد ظهرت الدعوة العلوية فى مصر منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصو (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) ففى أمارة حميد بن قحطبة (١٤٣ ـ ١٤٤هـ) قدم إلى مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب داعية لأبيه وعمه (١). وقد كان أبوه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على المعروف بالنفس الزكية قد دعا إلى نفسه سرا فى خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين، وفى سنة ١٤٥هـ ظهر بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثر أنصاره فى خراسان واعترف الناس بإمامته فى مكة والمدنية، ومن ثم أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته. على أن محمدا كان مصيره القتل على يد عيسى بن موسى ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه وقام لنصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأى والجاه. ولكن إبراهيم لقى حتفه كأخيه على يد عيسى بن موسى العباسى أيضا فى موقعة باخمرا (٢) وذلك فى أول ذى الحجة سنة ١٤٥هـ.

(١) خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨.
(٢) باخمرا: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب (ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٤٥٨).

معى اليوم رحمة عظيمه اذ جعل ابوتك ان تنزل بيت عبدك وانا اومن ان مجيك الينا يكون بركه ومعافاة لانفسنا. ثم مضى معه الى البيعه بالقرا[ء]ة امامه كما يجب للبطاركة وجعله فى موضع يشاكل [يناسب] رياسته وهو موضع اعمره والده على اسم القديس ابى مقارى بوادى هبيب.

ومع جميع ذلك لم يكن يتخلى هذا الاب القديس عن الاهتمام بالبيع المقدسه باسكندريه

أما ما كان من أمر هذه الدعوة فى مصر فهو أنه لما قدم على بن محمد إليها يدعو لأبيه وعمه توانى حميد بن قحطبة فى الأمر ولم يجد فى القبض عليه، وبعث إلى أبى جعفر المنصور يقول إنه أرسل فى طلبه فلم يجده. وكان ذلك سببا فى سخط أبى جعفر المنصور على الوالى وعزله فى ذى القعدة سنة ١٤٤هـ. ولى مصر بعد ذلك يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة (١٤٤ ـ ١٥٢هـ) وفى بدء ولايته كانت دعوة بنى الحسن بن على قد ظهرت فى هذه البلاد وبايع كثير من الناس لعلى بن محمد، وكان على هذا أول علوى قدم مصر. وكاد أمر بنى الحسن أن يتم فى مصر حتى قدمت الخطباء إليها برأس ابراهيم بن عبد الله بن الحسن فى ذى الحجة سنة ١٤٥هـ فنصبوه فى المسجد الجامع أياما[١]. فخمدت تلك الحركة كما خمدت فى الحجاز والبصرة بمقتل زعمائها سنة ١٦٠هـ. وأما على بن محمد النفس الزكية فقد اختلف فى أمره فزعم بعضهم أنه حمل إلى أبى جعفر المنصور وقيل إنه اختفى بمصر عند عسامة ابن عمرو حتى مرض ومات. وقد حمل عسامة إلى العراق وحبس زمانا حتى آلت الخلافة إلى المهدى فأمنه على أن يصدقه عن على بن محمد فاعترف بأنه مات فى بيته [٢] وهكذا انتهت تلك الحركة فى مصر وقد كان يزيد بن حاتم قد منع

(١) الكندى ص ١١١ ـ ١١٤، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨، أبو المحاسن جـ٢ ص ١ ـ ٢.
(٢) الكندى ص ١١٥.

والبطركيه، وبيعة الشهيد ابى مينا بمريوط، وايضا لاجل اتحاد الاعضا[ء] التى افترقت من بيعة انطاكيه التى افرقها ابراهيم المطران ومن معه.

وفيما هو مهتم بهذه الامور اخذ الرب الاب كيرياكوس بانطاكيه وتنيح وجلس بعده انسان جيد اسمه«ديونوسيوس» فلما جلس المذكور على الكرسى بدا بمخاطبة ابراهيم [المطران] بخطاب لين واعاد جماعه ممن كان قد ضل معه فاظهرو

أهلها من الحج بسبب خروج هؤلاء العلويين فلما قتل ابراهيم ابن عبد الله العلوى أذن لهم فى الحج [1].

ويجدر بنا أن نشير إلى أن بعض أفراد البيت الأموى الذين بقوا فى مصر كانوا ممن بايع لعلى بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد. أبناء الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان.

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذى استطاع بعد خروجه منها أن يقتطع لنفسه جزءا من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة مستقلة، ذلك العلوى هو ادريس بن عبد الله أخو محمد الملقب بالنفس الزكية. ففى عهد الخليفة الهادى (١٦٩ ـ ١٧٠هـ) خرج الحسين بن على بن الحسن ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة يدعو إلى نفسه ومنها سار إلى مكة حيث التقى بجيش العباسيين فى فخ [2] فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا. وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل لمن تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. وكان ممن ناصر الحسين بن على فى حركته هذه يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وقد هربا قبل هذه الموقعة. أما يحيى فقد ثار فى بلاد الديلم فى عهد هرون الرشيد وانتصر له أهل اليمن وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال

(١) أبو المحاسن جـ٢ ص ٢.
(٢) فخ بفتح أوله وتشديد ثانيه... وهو واد بمكة (ياقوت معجم البلدان جـ٣ ص ٨٥٤).

التـوبه واعـتـرفـو بضـلالتـهم . فلمـا اتصل بابينا القديس مرقس ذلك فرح جدا واسرع وكتب كتبا الى الاب ديونوسيـوس بطرك انطاكـيـه باهتـمـام باعادة [الخراف] الضاله اول كتابه هكذا:

مبارك الرب اله المجد الذى لم يزل فى كل حين مهتما بقطيعه وبيعته الذين اشتراهم بدمه الطاهر وعلم فى البـد[ء]ان ابوتك يصيـر باسـمـه المقدس [بركـه] كـمـا شـهـد عن بولس ان هذا يكون لى

الرشيد فأنفذ إليه الفضل البرمكى، فما زال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بيده، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يجف بعد.

أما إدريس بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر فى سنة ١٧٢هـ، وكون هناك أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة.

مر إدريس بن عبد الله على مصر فى طريقه الى المغرب فى ولاية على ابن سليمان بن على بن عبد الله العباسى (سنة ١٦٩هـ ـ ١٧١هـ) زمن هرون الرشيد. ويقال إنه لما قدم إلى مصر علم واليها بمكانه وقابله سرا ولم يفضح أمره حتى توجه إلى المغرب [١]. ويقـول أبو المحـاسن [٢] بأن واضح ابن عبد الله المنصورى الذى كان واليا على مصر زمن المهدى سنة ١٦٢هـ، وكان على بريد مصر عندما قدم إدريس إليها، وكان يميل إلى العلويين فحمل إدريس على البريد إلى الغرب. أى أن مصر سهلت الطريق لإدريس بن عبد الله وساعدته فى خروجه على الدولة العباسية.ولو قبض عليه واليها إذ ذاك أو أخبر عامل البريد بوجوده فى مصر لما قامت تلك الدولة العلوية فى المغرب بالرغم من أنف هرون الرشيد.

ويظهر أن تعقب العباسيين للعلويين واضطهادهم إياهم قد ألجأهم إلى الفرار إلى الجهات

---

(١) الكندى ص ١٣١.
(٢) النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٤٠.

انا[ء] منتخبا باسمى امام الملوك والأمم، كذلك
بارادته المقدسه اصطفاك لاسيما فى هذا الزمان
الذى اقتناه وهو التمام كما قال الرسول المغبوط،
وانا اسيل الان ابوتك ان تقدم صلوات ودعا كتير
الى السيد المسيح الرووف الهنا ليهدينا وبيعته لانا
قد افتقرنا جدا، لان باحكامه الغير مفحوصه يتمم
ما قد بدا. وقال ان الامم [المخالفه] دخلو الى ميراثه
ونجسو هياكلنا المقدسه وجعلو المدينة العظمى
اسكندريه مثل محرس [سجن] حبس لما جرى من

البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ولاسيما ما كان مرتعا خصيبا للمعارضة كبلاد البربر[١]،
والذى يهمنا أن كثيرا من آل البيت قد أتوا إلى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات
والمضايقات التى نالتهم على أيدى الخلفاء العباسيين. ولاتزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ
ذلك العهد البعيد.

ولم نسمع بأن أحداً تعرض للعلويين فى مصر بسوء طوال ذلك العهد إلى أن كان زمن
الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ)، وكان يبغض العلويين، فأرسل كتابا
هو وابنه المنتصر - صاحب اقطاع مصر حينذاك - إلى والى مصر اسحاق بن يحيى (٢٣٥
- ٢٣٦هـ) يأمره بإخراج آل على بن أبى طالب من مصر فأخرجوا من الفسطاط فى رجب
سنة ٢٣٦هـ إلى العراق وهناك أمروا بالخروج إلى المدينة فى شوال من سنة ٢٣٦هـ[٢]
ويذكر المقريزى [٣] أن الذين بقوا فى مصر من العلويين اضطروا إلى الإختفاء.

أصبح العلويون والشيعة فى مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد

---

(١) أبو المحاسن جـ٢ ص ٦٨.
(٢) الكندى ص ١٩٨، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩، أبو المحاسن جـ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٥.
(٣) خطط جـ٢ ٣٣٩.

الحروب فيها بين الامم، حتى ان قتلاها لم يجدو
من يدفنهم واجساد كتير منهم صارت طعاما لطير
السما ووحوش الارض.

وبهذه الأفكار كان يتكلم لأنه مثل ما كتب عن
يروشليم فى نواح ارميا النبى لما جرى عليها بعد
قيامة السيد المسيح لاجل ما فعلوه ا ليهود الكفار
ارسل عليهم طيطس ملك الروم الكافر المجوسى
يفعل فيهم ما هو مشروح فى كتاب «يوسف ابن

المتوكل. وقد عمل الوالى يزيد بن عبد الله على استئصال شأفتهم فعاقبهم وأبادهم وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه[١].

ولما قتل المتوكل فى شوال سنة ٢٤٧هـ وبويع ابنه المنتصر بالخلافة أرسل إلى يزيد بن عبد الله يقره على ولايته بمصر[٢] ثم ورد كتابه إلى يزيد بألا يقبل [٣] أحد من العلويين على ضيعة، ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينه [٤].

توفى الخليفة المنتصر فى شهر ربيع الأول ٢٤٨هـ وبويع المستعين بالله فى شهر ربيع الآخر. وفى خلافته علم يزيد بن عبد الله بأن رجلا يقال له محمد بن على بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بويع له، فأخذه فاعترف بذلك كما اعترف بمن بايعه، فأخذ

(١) الكندى ص ٢٠٣ ، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩، أبو المحاسن جـ٢ ص ٣٠٩.
(٢) أبو المحاسن جـ٢ ص ٣١٣.
(٣) قبل وقبل قبالة. ضمن والتزم، قبل المزارع الأرض. جعله يلتزمها بعقد.
(٤) الكندى ص ٢٠٤ ، المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩.

كـروتوس» الذى اهتم وجـمع اخـبـار اليـهـود فى البيت التانى، ومن اجل ذلك خرجنا من المدينه لما شاهدناه فيـهم لانهم لم يكفـو عن القتل والنهب والحريق وليس من يمنعهم ولذلك اخترنا ان نسكن فى الغربه وندعو الى السيـد المسيح الاهنا، واردنا اعـلام ابوتك ذلك، ولكن حـزن عظيم بسـبب الذين افترقو من البيعه بجريرة المسمى «إبراهيم»، ولما اتصل بنا الان ان بعض منهم طلبـو التـوبة ويعودون من ضلالتهم فرحنا جدا ونسينا الاوجاع

بعضـهم فضربوا بالسيـاط ثم أخرج العلوى فى جمع من آل أبى طالب إلى العراق فى شـهر رمضان سنة ٢٤٨هـ [١].

خلع المسـتعين من الخـلافـة فى المحـرم سنة ٢٥٢هـ وبويع المعتـز (٢٥٢ - ٢٥٥هـ). فاضطربت الأمور فى مصر لاضطراب أمر الخلافة [٢] بسبب تحكم الأتراك فى شئون الدولة. والأتراك كما نعلم كانوا فى البداية من الرقيق الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون جنوداً، ثم كثر عددهم وقوى نفوذهم منذ أيام الخليفة المتعصم الذى أكثر من شرائهم، إذ رأى فيهم قوماً أشداء يميلون إلى الحرب، وليس لهم وطن أو مجد قديم يعملون على إحيائه وليست لهم عصبية العرب، وإذا خصهم أحد بمنحه وعطاياه فلا يعرفون رئيساً إلا هو، وقد بلغ من قوة نفوذهم فى عهد المعتصم نفسه أن اضطر إلى مغادرة بغداد حاضرة الخلافة العباسية وبناء حـاضـرة جـديدة له ولجنده الأتراك هى سـامـرا (٢٢١هـ) ليكون بعـيـداً عن الجند العـربى والفارسى ببغداد[٣]. على أن هؤلاء ما لبثوا أن تدخلوا على ممر الزمن فى معامع السياسة، وصاروا يولون ويعزلون من شاؤا من الخلفاء، وأصبح بيدهم القوة المدنية والحربية فى الدولة.

---

(١) الكندى ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.　　(٢) أبو المحاسن جـ٢ ص ٣١٤.

(٣) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٦، ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ١٦، ١٧ وابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٦ ص ٣١٩، الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر جـ١ ص ٢٤ ـ ٢٥.

المحيطة بنا لانه اذا كان اتحاد فى البيعة المقدسة وهى تحت السلامه تضاعفت عندنا النعم، والان يا ابى القديس نحن نعلم رحمة السيد المسيح الاهنا الذى اتى الى العالم ليس لجل [لأجل] الصالحين لكن من اجل الخطاه وافتح لهم الان باب التوبه واهدهم إلى طريق الحق لكى تفرح بعودتهم طغمات السموات لنهم [لأنهم] اعدو فى ابنا[ء] النور. فلما وصلت هذه الكتب الى الاب ديونوسيوس فرح جدا وجميع شعب سوريه لكترة

وكان هذا إيذانا باضطراب الأحوال فى الأقاليم المختلفة فى الدولة الإسلامية كما كان فرصة لذوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن بينهم العلويون. ففى خلافة المعز ثار فى الإسكندرية جابر بن الوليد المدلجى فى ربيع الآخر سنة ٢٥٢هـ، واشتد أمره وقويت شوكته وبسط سلطانه على بلاد كثيرة من الوجه البحرى. وجبى منها الخراج، ولم يستطع يزيد ابن عبد الله والى مصر إذ ذاك أن يقمع حركته، فأرسل إليه الخليفة نجدة بقيادة مزاحم بن خاقان الذى قدم من العراق فى عسكر عظيم، (رجب سنة ٢٥٢هـ) وقد استطاعت جيوش الخليفة أن تهزم جابراً وتظفر به فى النهاية، لما كتبوا إلى الخليفة بذلك ورد عليهم الجواب بصرف يزيد بن عبد الله عن إمرة مصر وتولية مزاحم بن خاقان بدلا منه (ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ[١]).

والذى يهمنا فى حركة جابر بن الوليد ماكان من انضمام أحد العلويين إلى تلك الحركة، وهوعبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكان يقال له ابن الأرقط. فلما هزمت جيوش جابر بن الوليد بعد قدوم مزاحم بن خاقان، أخذ ابن الأرقط وأخرج إلى العراق فى ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ. وفى ولاية

(١) الكندى ص ٢٠٥ ـ ٢١٠، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩؛ أبو المحاسن جـ٢ص ٣١٤.

اهتمامه وصلاحه، اعنى ابانا انبا مرقس، ولذلك عاد الذين ضلو فى تلك الايام عند سماعهم كتبه، الا يسيرا مع إبراهيم الذى هو راس الضلاله وهم يسمون الان إبراهيميين. وصارت بيعة انطاكيه بفرح عظيم.

ثم ان الاب ديونوسيوس بطرك انطاكيه كتب سنوديقا الى الاب انبا مرقس يظهر له اتحاد المحبه ويشكر محبته واهتمامه فى خلاص كل احد،

أزجور التركى على مصر (ربيع الاخر - رمضان سنة ٢٥٤هـ) خرج أحد العلويين بالصعيد وهو احمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن بن الحسين بن على وكان يعرف باسم بغا الأكبر [١]. فحاربه أصحاب أزجور ففر ثم مات.

كذلك خرج من العلويين بغا الأصغر واسمه احمد بن محمد بن عبد الله ابن طباطبا فيما بين الإسكندرية وبرقة فى موضع يقال له الكنائس. وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٥هـ ثم سار فى جمع إلى الصعيد حيث هزم على يد أحمد بن طولون وقتل فى الحرب وأتى برأسه إلى الفسطاط فى شعبان سنة ٢٥٥هـ [٢]. كذلك ثار بصعيد مصر سنة ٢٥٥هـ أحد العلويين ويقال له ابن الصوفى العلوى، ودخل إسنا فى سنة ٢٥٥هـ فنهبها وقتل أهلها فبعث إليه احمد بن طولون جيشاً لقتاله، وانتهى أمر ذلك العلوى بأن ذهب إلى المدينة المنورة حيث قضى فيها بقية أيامة[٣].

ومن ذلك نرى كيف تتابعت حركات العلويين فى مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسى. فكأن أضطهاده لهم وتضييقه عليهم هو ومن أتى بعده من الخلفاء لم يمنعهم من الخروج

(١) خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩.
(٢) الكندى ص ٢١٢، المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩.
(٣) الكندى ص ٢١٣ - ٢١٤و Zaky M. Hassan: Les Tulunides. PP. 54 - 56.

ولذلك صار فرح عظيم فى كورة مصر والمشرق بهذا الاتحاد ومجدو الله.

فلما تمت هذه النعمه لم يصبر الشيطان الذى هو مقاوم الصلح فى كل حين ومقيم الشرور فبدا وانزل على برية وادى هبيب بلايا عظيمة، التى هى مسكن للعرب [فى ذلك الزمان]، وكانت برية وادى هبيب مثل فردوس النعيم فنهبوها العرب واسرو الرهبان وهدمو بيعها والمناشيب [اعنى

علانية بعد أن كانوا يكيدون للخلافة العباسية سرا، علهم ينالون حظا من السلطان ويتخلصون من الخلافة العباسية واضطهادها. كما شجعهم على الخروج فى تلك الفترة أيضا ضعف الخلافة العباسية نفسها وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة فى يد الأتراك.

ب. أثر النزاع بين الأمين والمأمون فى مصر

قام النزاع بن الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد فقد كان الخليفة هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون، على أن يلى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ويلى المأمون من همذان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه [٣].

لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته فى تنفيذ عهد الرشيد [٢]، فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى،وقامت الحروب لهذا بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ هـ وانتهت بحصار جيش المأمون بغداد وقتل الأمين فى سنة ١٩٨ [٣] وبذلك انتهت خلافة

(١) الطبرى جـ١ ص ٥٣، ٦٩ ـ ٧٠و ٧٣، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٨١، ١٠٥ ـ ١٠٦، ١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) الطبرى جـ١٠ ص ١٢٤.
(٣) الطبرى جـ١٠ ص ١٣٠، ١٣٨ ـ١٣٩، ١٧٠، ١٧٤ ـ ١٩٥،١٧٥.

القلالى] وتشتتو الشيوخ القديسين فى كل موضع من الارض . فلما نظر الاب انبا مرقس هذا الامر الصعب افكر القديس معدن المحبه الروحانيه التى تنبع منه المحبه والامانه، لكل احد ولا سيما فى البريه المقدسه التى لابائنا فى تلك الامور، فلم يحتمل هذا الحزن بل كان يسيل [يسأل] الرب من عمق قلبه ويقول قول داوود فى المزمور(*) «اضطرب قلبى داخلى وفى كلاى اشتعل النار، عرفنى يارب انتهاى لان رجاى قد فنى وليس لى

(*) المزمور ٣٩ / ٤ ، ٥ .

محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون ولم ينتقل المأمون بعد توليه الخلافة إلى بغداد بل ظل فى مبدأ الأمر فى مرو عاصمة خراسان.

كانت خلافة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨هـ)، أو بعبارة أخرى فترة النزاع بين الأمين والمأمون ، عهد فوضى واضطراب فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية. ولم تنته تلك الفوضى باعتلاء المامون عرش الخلافة فى سنة ١٩٨هـ، بل ظلت آثارها عدة سنين وحدثت ثورات مختلفة فى أنحاء الدولة، ثورات من جانب العلويين، وأخرى من جانب الأمويين الذين استغلوا ذلك النزاع حول الخلافة لينالوا هم أيضا حظا من السلطان.

وقد شملت هذه الفوضى مسلمو مصر أيضا، فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون، كما ظهرت فى تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات فى الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا فى ذلك إلى حد ما، واستطاع بعض الأندلسيين فى تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه سلطة مستقلة عن الخلافة بالأسكندرية ، فكانت مصر فى تلك الفترة يكاد لا يربطها شئ بالحكومة المركزية الإسلامية.

لماولى الأمين الخلافة كان على ولاية مصر الحسن بن التختاخ [١] وقد بدأ اضطراب الجند

(١) فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ٢ ص ١٤١ أن اسمه الحسن بن البحباح

مينا سلامه انجو به» . لان قد انقضى افراح كورة مصر ووادى هبيب الذى هو قدس القديسين صار خرابا [و] مساكن للسباع الضاريه، ومساكن اباى المباركين الذين رقدو بصلواتهم، وصارت ماوى للبوم ومغاير ثعالب السو هذه الامه النجسه» .
وكان أبونا لا يفتر من البكا ليلا نهارا من اجل الضيق والحزن الموافى [الكثير] وخاصة خراب الديارات المقدسه وكنايسها . فلما نظر الرب هذه البلايا والاحزان التى صبر عليها هذا القديس اراد

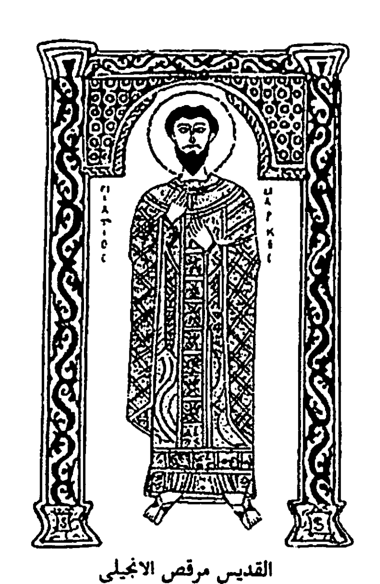
فى مصر عقب وفاة الرشيد مباشرة ونشب القتال بين الحسن هذا وبين الثائرين عليه، وقتل من الفريقين جمع غفير قبل أن يسكن الأمر، ثم أخذ بعد ذلك فى جمع الخراج، وكتب إليه الفضل بن الربيع بأن يرسل الأموال إلى بغداد، ولما مر الرسل الذين كانوا يحملونها بفلسطين وثب أهل الرملة عليهم وأخذوها منهم [1] . وحسبنا مثل هذا الحادث دليلاً على الفوضى التى حلت إذ ذاك بالبلاد . وما لبث الخليفة الأمين أن عزل ابن التختاخ عن إمرة مصر (ربيع الأول سنة ١٩٤هـ) وولى عليها حاتم ابن هرثمة بن أعين، الذى قدم من بغداد على رأس جيش قوامه ألف من الجنود الفرس، ونزل بلبيس. وهناك اتفق معه أهل الحوف على أن يدفعوا ما عليهم من الخراج، ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا ذلك الصلح واجتمعوا لقتال الوالى ، فبعث حاتم لمحاربتهم جيشاً أفلح فى هزيمتهم [2] . ثم عزل الأمين حاتم بن هرثمة فى جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ. ولعل سبب ذلك أن والده هرثمة بن أعين انضم للمأمون ضد الأمين. وولى الأمين على مصر جابر ابن الأشعث الطائى .

وقد ظهرت الاضطراب فى مصر عندما علم أهلها بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية

---

(١) الكندى ص ١٤٦ ، أبو المحاسن جـ٢ ص ١٤١ .
(٢) الكندى ص ١٤٧ ، أبو المحاسن جـ٢ ص ١٤٤ .

ان يريحه من نفاق هذا العالم فاخذته حمى اياما قليلا ، فظهر له فى منام مرقس الانجيلى فى اليوم السابع عشر من شهر برموده وكان يوم احد الفصح تلك السنه وقال له: افرح يا مرقس خليفتى المأمون، أفرح ايها المجاهد على الحق هو ذا قد وهبك السيد يسوع المسيح هذه الموهبه ان ينقلك الى مساكنه الابديه فى يوم قيامته المقدسه، كن مستعدا للقاه، فى هذه الليله تفارق هذا الجسد، وهذه علامة لك أن عند تناولك من



القديس مرقس الانجيلى

العهد. ففكر فريق من الجند فى خلع الأمين غضبا للمأمون وتزعم هذه الحركة السرى بن الحكم بن يوسف فبعث إليهم والى مصر لينهاهم عما قاموا من أجله ويخوفهم عواقب الفتن. ولكن السرى بن الحكم ظل يدعو الناس إلى خلع الأمين [1]. وقد أتى السرى إلى مصر زمن الرشيد إذ كان من جند الليث بن الفضل والى مصر حينئذ (١٨٢ ـ ١٨٧هـ). ويقال إنه كان خامل الذكر ولم يرتفع شأنه إلا بقيامة فى خلع الأمين [2]، وقد شجع السرى بن الحكم على القيام بحركته هذه ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين [3].

ولم يهمل الخليفة المأمون من جانبه أمر مصر فكتب إلى وجوه القوم فيها يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه كلهم سرا، ثم ورد كتاب قائده هرثمة بن أعين إلى عباد بن محمد بن حيان وكان وكيلا على ضياع هرثمة بمصر ـ يدعوه إلى الدعوة للمأمون، فجمع الجند فى المسجد وقرأ عليهم كتاب هرثمة ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابه نفر عظيم منهم فأعطاهم عباد رزقاً يسيراً وبايعوا للمأمون. وكان خلع الأمين بمصر فى جمادى الآخرة سنة ١٩٦هـ.

(١) الكندى ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٢) الكندى ص ١٤٨.
(٣) أبو المحاسن جـ٢ ص ١٥٠.

السـرايـر المقـدسـه الله يقـبل روحك اليـه. فلمـا
استيقظ الاب القديس قال للاساقفه الجلوس عنده
اسرعو لتتمو القداس مجدا لقيامة المسيح ربنا،
فلما نظروه الابا الاساقفه وهو قلق جدا ما أرادو
مفارقته، فلما صلب عليهم فعلو ارادته وقدسو فلما
فرغ القداس جم [جاؤوا] اليه بالكاس فتناول
جسد ودم المسيح الاهنا . ثم قال اودعكم
جميعكم للرب. وفتح فاه واسلم الروح.

وثار الجند على الوالى جابر بن الأشعث فأخرجوه من مصر فى رجب من هذه السنة ثم ولى هذه البلاد عباد بن محمد من قبل المأمون [١].

ولما علم الأمين بخلعه فى مصر وإخراج واليه جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة بن قيس ـ وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف ـ يبلغه اختياره إياه والياً على مصر وكتب إلى بعض وجوه القوم فى مصر يطلب إليهم أن يشدوا أزر ربيعة بن قيس، فقام هؤلاء يدعون إلى خلع المأمون وساروا إلى الفسطاط لمحاربة عباد، إلا أن عباد سرعان ماحفر خندقا حول الفسطاط للدفاع عنها فسار ربيعة بن قيس إلى الخندق فى آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧هـ ووقعت الحرب بين الطرفين عند الخندق عدة أشهر دون أن ينتصر أحدهما، فرأى عباد أن يحاربهم فى الحوف فأرسل إليهم جيشاً بقيادة عبد العزيز ابن الوزير الجروى فى ذى القعدة سنة ١٩٧هـ فانهزم الجروى ومضى فى قومه من لخم وجذام فاقوس [٢]. وهناك حرضه قومه على أن يدعو لنفسه وقالوا له: «لم لا تدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض؟». فصادف ذلك هوى فى نفس الجروى وذهب إلى بلبيس ومن هناك بعث عماله لجباية الخراج من مصر

(١) الكندى ص ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) الكندى ص ١٤٩ ـ ١٥١.

يا لعظم ذلك الحــزن الذى نال جــمــيع
الارتدكسيين فاجتمعو اليه وقرا[ء]و عليه كما
يجب وكفنوه وجعلوه فى تابوت خشب فى بيعة
نبــروه الى زمــان اراد الله ان ينقله الى مــدينة
اسكندريه . والذى اقام على الكرسى عشرون سنه
وسبعون يوما، وكان نياحته فى التانى والعشرين
من برموده، [سنة] خمس مايه [و] خمس وتلتين
للشهدا وهو ماسك البيعه المقدسه وكتب فى ايامه

السفلي. وهكذا نرى أن النزاع في مصر لأجل الأمين أو المأمون بدأ يتطور إلى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة.

وكانت آخر مرة سار فيها أهل الحوف إلى الفسطاط لمحاربة عباد فى المحرم سنة ١٩٨هـ فعقد عباد السرى بن الحكم لمحاربتهم فاقتتل الفريقان، وفى تلك الأثناء وصل إلى مصر خبر مقتل الأمين فى المحرم وبيعة المأمون فتفرق أهل الحوف، ثم عزل المأمون عبادا فى صفر سنة ١٩٨ وولى المطلب ابن عبد الله الخزاعى[١].

ساد الاضطراب فى مصر كما رأينا زمن الخليفة الأمين ولم ينته ذلك الاضطراب بمقتله وتولية أخيه المأمون الخلافة، بل تطور الأمر فى هذه البلاد إلى نزاع بين بعض القواد للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة، فكان على المأمون أن يبذل جهداً خاصاً لإعادة مصر إلى سلطانه والقضاء على الفتن فيها.

ومما يدل على اضطراب الحالة فى مصر حينئذ أن أعمال الشرطة فيها وليها خمسة رجال على التوالى فى بضعة أسابيع [٢]. وقد عزل المأمون المطلب ابن عبد الله عن ولاية مصر فى

---

(١) الكندى ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) أبو المحاسن جـ٢ ص ١٥٧.

احدا وعشرين مصطاغوجيا وعشرين ارطستيكيا ، وسكن مع القديسين فى كورة الاحيا والمجد للاب الابن والروح القدس الى الابد امين.

ابا يعقوب(*) البطرك
وهو من العدد الخمسون
[٨١٩ / ٨٣٠م]

(*) اسمه قبل البطركية يوسف ويُكنى أبا يعقوب. كما يرد اسمه يوساب.

كان قبل نياحة الاب القديس انبا مرقس كانت البريه المقدسه بوادى هبيب خرابا، التى ذاق خرابها

شوال سنة ١٩٨ هـ بعد أن وليها سبعة أشهر ونصف، وولى مكانه العباس بن موسى، وقد أرسل العباس ابنه عبد الله إلى مصر خليفة له ريثما يحضر هو، فقدم عبد الله إلى مصر فى شوال من هذه السنة، وكان أول ما فعله هو القبض على المطلب بن عبدالله وزجه فى السجن. وقد اشتد عبد الله فثار الجند عليه وقاتلوه غير مرة، حتى هزموه فى النهاية وأخرجوه من مصر، ثم قصدوا المطلب بن عبد الله حيث أخرجوه من حبسه وولوه عليهم فى المحرم سنة ١٩٩هـ(١).

حدث كل ذلك ووالى مصر نفسه العباس بن موسى لم يحضر إليها فلما علم بما حدث لابنه عبد الله قدم من مكة إلى الحوف فنزل بلبيس ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى وذلك فى جمادى الاخرة سنة ١٩٩ . ومن هذا نرى أن الوالى الذى عينه الخليفة، لم يستطع دخول الحاضرة كما لم يستطع الوقوف وجها لوجه أمام الوالى الذى انتخبه الجند، ومن هذا ندرك أيضا كيف تلاشت سلطة الخليفة على ولاية مصر تقريباً.

بعد موت العباس، كاتب المطلب أهل الحوف فبايعوه، فولى على الوجه البحرى يزيد بن

(١) الكندى ص ١٥٣ - ١٥٤، أبو المحاسن جـ٢ ص ١٦١ ـ ١٦٢.

الاب المذكور حتى انه سال الرب فى نقله من هذا العالم والا يبقيه للحزن الذى ناله على تلك المواضع لما نالها من العرب المخالفين وكونهم ملكوها وطردو ابائنا القديسين الذين كانو فيها، وقتلو منهم جماعه واحرقو البيع والمناشيب، واعنى القلالى، بالنار، ولاجل ما نالهم من القتل تفرقو الرهبان فى المدن والقرى والديارات باعمال مصر والصعيدين ولم يبق فيها منهم الانفر يسير ممن اختار الموت ليفدى نفس اخوته بنفسه فورث الحياة

خطاب الكلبى، وبعد ذلك بعث المطلب إلى الجروى بولايته على تنيس وأمره بالشخوص إلى الفسطاط[1] ويظهر أن المطلب أراد بذلك أن يخدع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الاستقلال وطمعه فى ولاية مصر، فالمسالة لم تعد تتصل بالحكومة المركزية فى بغداد، وإنما أصبحت مصر وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب ، فالوالى الذى عينه الجند يرى أن طاعته واجبة على أهل مصر، والجروى لايرى نفسه أقل من الوالى كفاية. وبعد قليل نرى السرى أيضا ينضم إلى زمرةالطامعين فى مصر ويحاول أن يؤسس له ملكا وراثيا فيها، كل هذا يحدث والخليفة المأمون مشغول بالقضاء على الثورات المختلفة التى قامت فى أنحاد الدولة الإسلامية .

لم يذهب الجروى إلى الفسطاط كما أمره المطلب، وإزاء هذا بعث المطلب بوال على تنيس ولكن الجروى أخرجه منها، فبعث إليه السرى ابن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليه، إلا أنه أراد الغدر بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح واستطاع أن يقبض على السرى خدعة ويأسره ثم مضى به إلى تنيس حيث سجنه بها (جمادى الأولى سنة ١٩٩هـ) ويظهر أن بلاداً عدة فى شرقى الدلتا دخلت فى حوزة الجروى إذ ذاك وزادت قوته نتيجة لذلك بدليل تحديه قوة الوالى. فبعد أن سجن السرى بن الحكم،

(١) الكندى ص ١٥٦.

الابديه بصبره. وحفظهم الرب فلم يرجع احد يوذيهم ولا يضرهم.

وكان فى ذلك الزمان فى دير ابينا ابى مقار قس مضى الافعال اسمه يعقوب ، هذا لما بدا خراب الديارات خرج منها ومضى الى دير فى الصعيد ليتعبد فيه منتظرا زمانا يعود فيه الى الجبل المقدس ميزان القلوب وادى هبيب، والرب محب البشر العارف السراير المخفيه التى يظهرها لقديسيه فى

ذهب لمقاتلة يزيد بن الخطاب، عامل المطلب على الوجه البحرى، واستطاع الجروى أن يهزمه فأرسل إليه المطلب جيشا لمحاربته بقيادة ابن عبد الغفار الجمحى ولكن الجروى هزم ذلك الجيش وأسر ابن عبد الغفار وذلك فى أول رجب سنة ١٩٩هـ [١].

عزم المطلب إزاء هذا على أن يوجه كل قوته للقضاء على الجروى فلما علم الجروى بذلك أخرج السرى من سجنه وعاهده على أن يطلق سراحه ويذكر للمصريين أن كتاباً ورد من الخلافة بولايته على مصر، على شرط أن يقوم السرى بمحاربة المطلب، فعاهده السرى على ذلك. وعند ذلك أطلقه الجروى وأعلن ولايته إلى الجند، فبايعه الجند من أهل خراسان وامتنع الجند العرب وقد وقعت حروب بين السرى وبين المطلب انتهت بأن طلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج من مصر. فأمنه السرى وخرج المطلب إلى مكة فى رمضان سنة ٢٠٠.

وعقب ذلك ولى السرى بن الحكم مصر بإجماع الجند فى مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠هـ[٢]. وقد أدرك المعاصرون من المصريين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة، فيذكر ساويرس [٣] نقلا عن الوثائق المعاصرة له: واستطال الثوار على مصر وجميع

(١) الكندى ص ١٥٧. (٢) الكندى ص ١٥٩ ـ ١٦١.
(٣) تاريخ البطاركة ص ٦٨٠ جـ ٢.

كل زمان ويفعل ارادته فيهم صنع امرا عجيبا فى هذا الانسان المذكور القس يعقوب القديس وهو انه استحق ان ينظر جليان النور، لأنه كان فى الموضع الذى كان فيه يصلى كما جرت عادته فنظر امورا عجيبه، وذلك ان السيده الطاهره ام النور ظهرت له قايمه عند راسه ليلا وعليها تاج عظيم تنير بنور عظيم جدا ومعها ملاكان وقالت له ملكة الحق(*): يا ولدى يعقوب ما الذى فعلت معك من الشر انا التى ربيتك من صغرك وحفظتك الى الان

(*) ملكة الحق، اسم آخر للست مريم لأنها تمثل الحق والعدل =

اعمالها بحكم اضطراب مملكة بغداد، وخرجو الخوارج على المملكة بمصر، وجبو الخراج لنفوسهم، وكان من جملتهم رجل يسمى عبدالعزيز الجروى أخذ من شطانوف إلى الفرما وشرقية مصر بلبيس واعمالها، ورجل اسمه السرى بن الحكم أخذ من مصر (الفسطاط) إلى اسوان، واستوليا على الخراج، وقوم يسمون لخما وجذاما القبيلتين أخذو غربى مصر واعمال اسكندريه ومريوط وملكو البحيرة جميعها.

هكذا قسمت مصر بين الخارجين على الخلافة كما يذكر ساويرس، فالجروى كما رأينا سابقا كان صاحب السلطة الفعلية فى شرقى الدلتا، كما كان صاحب الفضل فى تولية السرى بن الحكم على مصر ليتخلص بذلك من المطلب بن عبد الله ، إلا أنه لكى يتخلص من المطلب، أوجد له منافسا آخر فى شخص السرى، الذى سرعان ما طمع فى أن يكون صاحب السلطة الفعلية فى مصر كلها، فبعد أن كان الجروى والسرى يحاربان لأجل الخليفة المأمون، أصبح كل منهما يحارب الآخر، وهذا أدى إلى النزاع بين الجروى والسرى نزاعا متواصلا فى السنين التالية، بل إن هذا النزاع استمر بين أولادهما بعد و فاة الاثنين.

أما منطقة غربى الدلتا ، ونعنى منطقة الاسكندرية بوجه خاص، فقد خرجت عن سلطة والى مصر منذ ولاية عباد بن محمد بن حيان (١٩٦ ــ ١٩٨هـ) إذ تغلب بهلول اللخمى على الاسكندرية فى ولايته. فلما ولى المطلب بن عبدالله مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨هـ

لما اصطفاك ولدى الحبيب من وقت كنت فى بطن امك ليقيمك على بيته فمضيت الان عنى، لاتفعل هكذا لكن قم وعد الى المكان الذى خرجت منه لانك انت تكون ريسا على شعب عظيم وهم المصطفون الى مكان الراحة قريبا غير بعيد. فلحقه خوف عظيم ولم يكن ذا قلبين، ولا شاك فى المنام الذى شاهده بل نهض مسرعا وعاد الى البريه المقدسه ميزان القلوب، فلما وصل اليها اراد الرب أن يطيب قلبه اظهر له الاب الروحانى ابا مقار

=وهى حتى اليوم ومن قبلها «ماعت» رمزاً للعدالة فى جميع أنحاء العالم. ومن هنا نعرف لماذا سمى وادى هبيب بميزان القلوب «شيهات»، فقد كانت ستنا مريم سيدة هذا الودى.

ولى على الاسكندرية، حديج بن عبدالواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، فثار ضده بنو مدلج بالاسكندرية، فبعث إليهم المطلب بأخيه هرون فانهزم هرون أمامهم[1].

ولما ولى المطلب بن عبد الله ولايته الثانية على مصر بإجماع الجند (سنة ١٩٩هـ - ٢٠٠هـ) ولى على الاسكندرية محمد بن هبيرة ابن هاشم بن حديج ، فاستخلف محمد هذا عمر بن عبد الملك بن محمد ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى يعرف باسم عمر بن هلال [2] فوليها عمر بن هلال ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل ابن عبد الله [3].

فى تلك الأثناء كانت مراكب الأندلسيين قد رست عند الاسكندرية وكثيراً ما كان الأندلسيون يأتون إلى الاسكندرية فيتبادلون التجارة مع الناس، ولكن ولاة مصر كانوا لا يسمحون لهم بالدخول فيها [4]. أما فى هذه المرة فإن أهل الأندلس لم يأتوا للتجارة وإنما خرجوا من وطنهم مطرودين وذلك فى عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة

(١) الكندى ص ١٥٣.
(٢) يذكر الكندى أنه عرف باسم عمر بن هلال ويذكر المقريزى فى الخطط ١ ص ١٧٢ أه عرف باسم عمر بن ملاك.
(٣) الكندى ص ١٥٧، خطط المثريزى جـ١ ص ١٧٢.
(٤) الكندى ص ١٥٨، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٢.

وقال له: نعم مجيك الى هاهنا ايها المامون عند الرب. انظر، لا تكن ذا قلبين ولاتشك فى المنام الذى رايته لن [لأن] بك يجتمعون اولادى الى مواضعهم التى بددهم منها الشيطان.

فأقام فى وسط من بقى من الرهبان يعزيهم ويسليهم يوما بعد يوم. ولما نظر المنام زاد فى نسكه واعماله الحسنه حتى شاهد امور عجيبه عظيمه علويه، وكان كلمن يشاهد النور الذى هو حايط به يعلم ان الله قد اصطفاه.

الربض بقرطبة فى رمضان سنة ١٩٨هـ[١]. فرسا فريق منهم بالقرب من الاسكندرية وكان عددهم حوالى ١٥٫٠٠٠ شخص إذ استثنينا النساء والأطفال [٢].

لما عزل عمر بن هلال، كتب إليه عبد العزيز الجروى يأمره بالدعاء له فيها وبإخراج واليها من قبل المطلب فلم يجد عمر بن هلال بداً من استدعاء هؤلاء القرطبيين [الاندلسيين] ليساعدوه فى ذلك وسرعان ما لبوا طلبه واستطاع أن يخرج واليها ـ الفضل بن عبد الله ـ ويدعو للجروى بالاسكندرية. إلا أن أهل الاسكندرية ثاروا ضد الأندلسيين وأخرجوهم من الاسكندرية إلى مراكبهم بعد أن قتلوا منهم نفراً، وأقاموا عليهم الفضل ثانياً [٣].

ثم عزل المطلب أخاه الفضل عن الاسكندرية وولى عليها إسحاق بن أبرهه ابن الصباح فسار إليه عمر بن هلال فى شهر رمضان سنة ١٩٩هـ، فعزله المطلب وولاها أبا بكر [٤] بن جنادة بن عيسى المعافرى [٥] ولما انتصر السرى ابن الحكم على المطلب وولى مصر فى

(١) ابن الأثير جـ٦ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ وأبو المحاسن جـ٢ ص ١٥٨ . Dozy: Histoire des Musulmans d' Espagne. t. 1. PP. 296 - 300.

(2) Dozy: op. Cit. p. 300.

(٣) الكندى ص ١٥٨ ، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٢ .

(٤) فى خطط المقريزى (جـ١ ص ١٧٣) يقول إن اسمه أبو ذكر بن جنادة .

(٥) الكندى ص ١٥٨ ، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٣ .

ثم اظهر الله امرا عجيبا له فيما هو قايم يصلى للرب بالليل، ويجعل بقية ليله فى عمل يديه كعادته، لحقه خوف ورعب وبكى جدا فقال له من كان معه : ما الذى حل بك يا ابى القديس؟ ما أنت نايم. فقال لهم يا اولادى افكارى اختطفت الى فوق وسمعت امرا لاجل ابينا القديس انبا مرقس ان يقيم على البطركيه اربعين سنه، ثم بعد ذلك سمعت امرا اخر من عند الرب بان ينيح ابانا البطرك فى هذه السنه ولاجل ذلك بكيت

رمضان سنة ٢٠٠ هـ بإجماع الجند، وسار عمر بن هلال إلى أبى بكر بن جنادة وأخرجه من الاسكندرية ودعا للجروى بها، وكان الجروى والسرى إذ ذاك متسالمين، فلما علم الأندلسيون بولاية ابن هلال على الاسكندرية قدموا إليه، إلا أنه لم يعاملهم فى تلك المرة كما عاملهم أولا إذ بلغه عنهم بعض الفساد فأمر بإخراجهم من الاسكندرية إلى مراكبهم.[١].

حقد الاندلسيون على ابن هلال، وظهر فى الاسكندرية فى ذلك الوقت طائفة تعرف بالصوفية[٢] «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» فيما زعموا، ويعارضون السلطان فى أمره واتخذوا رئيسا لهم رجلا منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى، وقد اتحد الأندلسيون مع هولاء الصوفية كما تقووا بقبيلة لخم وكانت أقوى من فى ناحية الاسكندرية، ثم ساروا إلى عمر بن هلال ليثأروا لأنفسهم منه فحاصروه وانتهى الأمر بقتله فى ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ[٣]. وعقب مقتل ابن هلال انقلبت صداقة الأندلسيين واللخميين إلى عداوة ووقعت الحرب بينهم. ولما رأى أهل الأسكندرية ما حدث بين الفريقين جردوا سيوفهم وقتلوا من

---

(١) الكندى ص ١٦١ ـ ١٦٢، المقريزى جـ١ ص ١٧٣.

(٢) يذكر ادم متز فى كتابه الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ١٤ أن أول ظهور الطوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ وذلك فى مصر مهد الرهبنة المسيحية أما الصوفية ذاتها كمذهب فقديمة فى مصر قدم الديانة الاوزيرية.

(٣) الكندى ص ١٦٢، المقريزى ص ١٧٣.

بحرقة قلب فسألت الرب ان يصطفى من يجلسه على هذا الكرسى باستحقاق، ثم سكت.

ولم يمض بعد نظره الرويا الا زمان يسير حتى بدا الاب مرقس القديس ان يمرض مرض وفاته، كما شرحنا انه سال الرب ان ينقله اليه، وكان عنده ابا[ء] اساقفه فسالوه بتضرع قايلين : يا ابانا المغبوط نسألك ان تقول لنا ما اظهره الرب لك، من يستحق ان يجلس بعدك على الكرسى

الأندلسيين نحو ثمانين نفسا، فلما علم الأندلسيون بذلك بعد انتصارهم على اللخميين خرجوا لقتال كل من لاقوة من أهل الاسكندرية، مسلمين كانوا أو نصارى أو يهود وأحرقوا كل موضع عثروا فيه على أحد من أصحابهم المقتولين [١].

أصبح الاندلسيون أصحاب السلطة الفعلية فى الاسكندرية منذ انتصارهم على عمر بن هلال وتأكد سلطانهم عندما هزموا اللخميين وملكوا الإسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠هـ[٢] فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى، إلا أن الأحوال فى الاسكندرية اضطربت فى عهده وعم القتل والنهب فيها فعزله الاندلسيون عنها وولوا عليها رجلا منهم يعرف بالكنانى[٣].

وهكذا نرى أن الاسكندرية أصبحت شبه دولة مستقلة للأندلسيين، وأصبحت مصر بمثابة قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة، كل منها مستقلة عن الأخرى وهى كلها مستقلة عن الخلافة.

بلغ الجروى مقتل ابن هلال وما فعله الاندلسيون بالاسكندرية فسار إليها فى خمسين ألفا

(١) ساويرس: تاريخ البطاركة ـ ص ٦٨٢ وما بعدها.
(٢) الكندى ص ١٦٣.
(٣) الكندى ص ١٦٣ ـ ١٦٤. خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٣.

الإنجيلى؟. ولم يكن الاب القديس يظهر للاساقفه
ولا يوجدهم انه يعرف شيا من هذا بل قال لهم :
قد اوقد الرب المصباح وجعله على المنارة ليضى
على ساير من فى بيته الذى هو البيعه. فوقف احد
الاساقفه ممن كان فيه امانة قويه فى الاب البطرك
وبدا ان يساله ويقسم عليه باسم الرب والكرسى
المقدس ان يقول له من الذى اصطفاه الرب
للجلوس بعده على الكرسى . فاجاب بصوت
خفى [خفيض] وقال : للاسقف يعقوب القديس

وحاصرها وكاد يفتحها فى المحرم سنة ٢٠١هـ ولكن السرى خشى ازدياد نفوذ الجروى فبعث عمرو بن وهب الخزاعى على رأس جيش إلى مقره فى تنيس، فترك الجروى حصار الاسكندرية ورجع إلى تنيس حيث أخرج جيش السرى منها. ومن ثم تطورت المنافسة الخفية بين الجروى والسرى إلى نزاع علنى بينهما.

وربما خشى الاندلسيون على مصيرهم فرأوا أن يتقووا بانضمامهم إلى الوالى، لذلك نراهم يدعون فى الاسكندرية للسرى بن الحكم سنة ٢٠١هـ[١] على أن السرى ما لبث أن أختلف مع آل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى، وكانوا وجوه أهل خراسان بمصر، فبايعهم الجند على القيام ضد السرى وأظهروا كتابا من طاهر بن الحسين (قائد المأمون) بولاية سليمان بن غالب ابن جبريل البجلى على مصر، فلم يكن من السرى إلا الرضوخ لهم وذلك فى ربيع الأول سنة ٢٠١هـ فكانت ولاية السرى فى هذه المده ستة أشهر[٢].

أمر سليمان بن غالب السرى بن الحكم بترك العاصمة والذهاب إلى اخميم . على أن السرى مالبث أن تقوى ثانية بانضمام بنى مدلج وكثير من الناس إليه . فسار بهم يريد الفسطاط، ولما علم سليمان بن غالب بذلك أرسل إليه جيشا لمحاربته قبل أن يصل إليها فدارت الدائرة على السرى وأسر هو وابنه ميمون ، فأمر سليمان بردهما ثانية إلى اخميم وسجنهما

(١) ا لكندى ص ١٦٥.

(٢) الكندى ص ١٦٥.

الذى من بيعة ابينا القديس ابى مقار هو الرجل المزين بافعاله . وتقدم الى الاسقف ان لا يعلم احدا بهذا واقسم عليه بالبيعه على ذلك حتى ينظرو مجد الله يتم فيه.

ثم تنيح الاب القديس كما ذكرنا انفا. فيا لهذا المجد العظيم الذى لكرسى القديس مارى مرقس الانجيلى ولكلمن يجلس عليه لانه بنعمه روح القدس البار يصطفى ويختار بحلوله على كل

وذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٠١هـ [١]، ولا نعرف لماذا لم يقتل سليمان بن غالب السرى بعد أن ظفر به، وربما دعاه إلى هذا التصرف خوفه من أتباع السرى ومن ثورتهم ضده، وما لبث أهل خراسان بمصر أن قاموا ضد سليمان بن غالب وذلك لتقديمه أتباعه وبطانته عليهم، وانتهى الأمر بأن خلعه الجند من ولاية مصر فى شعبان من سنة ٢٠١هـ ثم لحق سليمان بالجروى [٢]. بعد عزل سليمان، ولى السرى بن الحكم مصر للمرة الثانية على أنه فى هذه المرة لم يتولاها كالمرة الأولى بمبايعة الجند له وإنما وليها بأمر من الخليفة المأمون [٣] ويظهر أن اضطراب الحال فى الدولة الإسلامية دعا المأمون إلى التسليم بالأمر الواقع فى مصر ريثما تهدأ الأمور فولى السرى الذى كان له أتباع كثيرون إذ ذاك.

وحدث فى سنة ٢٠١هـ أن بايع المأمون لولاية عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة شعار العلويين، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق.

وقد ظن أهل بغداد أن هذا من عمل الفضل بن سهل الذى كان يدبر أمور المأمون فى مرو. والفرس كما نعلم كانوا يميلون إلى العلويين. ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة

---

(١) الكندى ص ١٦٦.

(٢) الكندى ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) الكندى ص ١٦٧.

واحد منهم، كما قال الرب لتلاميذه ورسله: هو ذا انا معكم كل الايام والى انقضا العالم.

وانا أشرح لكم يسيرا من اعمال يعقوب القديس القس فى رهبنته قبل ان يجعلونه قسا، ومن قبل ان يجلس على الكرسى، غير انى اعرف عجزى وانى لا ابلغ شيا من عظم افعاله ومجد الثالوث الحايط به ولذلك اختصر فى الكلام. فاما بداية وسمه وما صبر عليه فهو ربح وبركه لجميع الارتدكسيين.

إبراهيم بن المهدى عم المأمون فى سنة ٢٠١هـ ويخلعون المأمون . واضطربت الأحوال فى بغداد، ولم يعلم المأمون بذلك إذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ويقال إن الذى أعلمه بهده الأمور عليا الرضا بل إنه أشار عليه بالرجوع إلى بغداد لتهدأ الحالة وليضبط الأمور بنفسه، فسار المأمون إليها وفى طريقه إلى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢هـ ثم مات على الرضا فى طوس سنة ٢٠٣ . وأخيراً دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤هـ واختفى إبراهيم بن المهدى، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال ويقضى على الاضطرايات التى سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسى ومن النفوذ العلوى، وقد استعطفه إبراهيم بن المهدى فصفح عنه.

أما فى مصر فإن أمورها فى تلك الفترة كانت تسير دائما متأثرة بما يجرى فى الخلافة فينعكس عليها ما يحدث هناك واضحا جليا. لذا نرى الخليفة المأمون يكتب إلى السرى بن الحكم يأمره بالبيعة فيها لولى عهده على الرضا فى المحرم سنة ٢٠٢هـ فبويع له بها، على أن المسلمين المصريين أنقسموا على أنفسهم كما حدث فى بغداد وسائر الدولة الإسلامية، إذ كتب إبراهيم بن المهدى إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده، والثورة ضد السرى، وكان من السهل أن يلقى إبراهيم بن المهدى أنصارا له بمصر، لاحباً فى خلافته وانما طمعا من بعض الزعماء فى السلطان أو لتذمرهم من ولاية السرى أو غير ذلك من

لما تنيح ابونا البطرك انبا مرقس حزنت البيعه عليه حزنا عظيما وجميع الشعب وخاصة المدينه المحبه لله اسكندريه لعدمهم نظر ابيهم ومن غيبته عنهم، وبعد ايام زال الحرب والقتال من اسكندريه ومصر وجميع قبايل الاندلسيين(*) واللخميين والمداجه. وبدوا يتهلون ويصلون الى الله فى ان يذكر بيعته التى اشتراها بدمه ويظهر لهم راعيهم الذى رعاهم ويعزيهم فى قلقهم ، فاجتمع الابا[ء] الاساقفه والشعب المحب للمسيح وطلبو من

(*) كان الاندلسيون قد خرجوا من الاسكندرية منذ عام ٨٢٧ م = ٢١٢هـ ورحلوا إلى جزيرة كريت «أقريطش» واحتلوها وجعلوها مركزاً لأعمال القرصنة فى البحر المتوسط.

الأغراض المختلفة التى كانوا يسترونها وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة. فقام بالدعوة لإبراهيم فى مصر الحارث بن زرعة بن قحزم بالفسطاط، وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بالدلتا وسلامة ابن عبد الملك الأزدى الطحاوى بالصعيد، وسليمان بن غالب بن جبريل الذى كان منضما إلى الجروى . وعقدوا الولاية لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى، على أن السرى حاربه حتى ظفر به، وقتله فى صفر سنة ٢٠٢هـ [(١)] وانضم بعد ذلك كل من كره بيعة على الرضا إلى الجروى لعظم سلطانه إذ ذاك، فسار الجروى إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمحاربة الاندلسيين بها فحاصرها وانتهى الأمر بأن اصطلح الاندلسيون على فتح حصن الإسكندرية والدعوة للجروى بها . ثم دعى للجروى بالصعيد أيضا.

وعندما علم الجند بموت على الرضا وانخذال إبراهيم بن المهدى أظهروا بيعة المأمون والدعوة إليه، وقد ورد كتاب المأمون إلى السرى بذلك وبغسل المنابر التى دعى عليها لعلى الرضا فغسلت[(٢)] . وانتهز الاندلسيون أيضا هذه الفرصة فأخرجوا عامل الجروى بالإسكندرية منها وأغلقوا الحصن دونه وخلعوا الجروى ودعوا إلى السرى بن الحكم ، فسار إليهم الجروى فى رمضان سنة ٢٠٣هـ. على أن القبط بسخا ثاروا ضده وانضم إليهم بنومدلج فهزمهم

(١) الكندى ص ١٦٨.
(٢) الكندى ص ١٧٠.

يستحق هذه الرتبة وذكرو جماعه وفيهم المضى[ء]
يعقوب القس، وكان هذا تدبير من الله، وجعل
اسمه فى فمهم لانه المستحق لهذه الرياسه، فذكر
الاسقف المغبوط الذى كان قال له الاب البطرك
مرقس المتنيح من اجل العمود المضى[ء] يعقوب،
فاعلم السر لجماعة الاساقفه فصرخو بصوت
واحد: يستحق يستحق الذى افعاله مثل افعال
الملايكه وهو الارضى وهو سماوى فاسرعو وجاو
[جاؤوا] الى البريه الى بيعة القديس ابى مقار

الجروى وهرب بنو مدلج ثم بعث الجروى بجيوش إلى الإسكندرية لمحاصرتها [١]. وربما دعا القبط إلى الثورة ضد الجروى ما أتاه من أفعال؛ إذ يذكر ساويرس [٢] أن الجروى ما كان يفتر من قتل الناس وأخذ أموالهم وكان يدفن فى الأرض ما يأخذه من أموال ، وإذا دفن المال يقتل الذين ساعدوه على دفنه كى لا يبيحوا بسره. وكذلك جمع الجروى قمح أرض مصر جميعاً ووضعه فى الأهراء تحت تصرفه، حتى ندر القمح وعز وجوده، فحدثت مجاعة كبيرة بسبب ذلك ولاسيما بالإسكندرية، وكان يرمى من وراء ذلك إلى أن تسلم إليه البلاد جميعها.

لكن السرى بن الحكم أفسد على الجروى خططه فأرسل جيشاً فى ذى القعدة سنة ٢٠٣ إلى بلاد الصعيد لا ستخلاصها منه ، فمنهم سلامة ابن عبد الملك الطحاوى حليف الجروى بالصعيد، وأسر هو وابنه إبراهيم وأرسلا إلى الفسطاط حيث قتلا هناك فى المحرم سنة ٢٠٤هـ [٣].

وفى تلك الأثناء سار عبد العزيز الجروى لحصار الاسكندرية للمرة الرابعة فأغلق الأندلسيون حصنها ولكن الجروى حاصرهم حصاراً شديداً وأخذ يضرب الحصن بالمجانيق وظل على ذلك

---

(١) الكندى ص ١٧٠.
(٢) تاريخ البطاركة ص ٧٤٢ جـ ٢ .
(٣) الكندى ص ١٧١ .

واخذو القس يعقوب قبل ان يعلم وسارو به الى مدينة اسكندريه، وكان يبكى ويقول : مبارك هو الرب الويل لى انا الغير مستحق لهذه الكرامه العظيمه لنقصى عن هذا الامر والمجد العظيم الذى انا قادم عليه، ويسال الله ليله ونهاره اجمع ان يخرجه من العالم قبل ان يقلده هذا الامر. وهو ذا هو باك وسايل فى هذا اذا راى مناما عجيبا كعادته ان الله يعزيه ويقول له كما قال ليعقوب الاب الاول: لاتخف يا يعقوب فهو ذا أنا معك الى مصر

سبعة أشهر من بداية شعبان سنة ٢٠٤هـ إلى آخر صفر سنة ٢٠٥هـ. وانتهى الأمر بأن قتل الجروى أثناء الحصار . ومات السرى بن الحكم بعده بثلاثة أشهر فى الفسطاط فى آخر جمادى الأولى سنة ٢٠٥هـ بعد أن ولى مصر ثلاث سنين وتسعة أشهر.

بويع بولاية مصر بعد السرى بن الحكم ابنه أبو نصر بن السرى، ولم يكن معنى ذلك القضاء على المنازعات التى قامت حول ولاية مصر، إذا ورث أبناء السرى والجروى نزاع والديهما، فكان بيد أبى نصر من أرض مصر الفسطاط والصعيد وغربى الدلتا وكان بيد على بن عبد العزيز الجروى، بقية الوجه البحرى بما فى ذلك الحوف الشرقى، وقد وقعت الحروب بينهما ثم اصطلحا على أن يكف أحدهما عن الآخر. وأخيراً توفى أبو نصر فى ٨ شعبان سنة ٢٠٦هـ بعد أن ولى مصر أربعة عشر شهراً (١).

بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر بعد وفاة أخيه فى شعبان سنة ٢٠٦هـ ولم يتعرض كل من عبيدالله وعلى بن الجروى للآخر حتى انتهت سنة ٢٠٦هـ، حين عقد المأمون ولاية مصر لخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وبعثه إليها فى جيش من ربيعة فلما دخل الحدود المصرية أرسل إلى عبيد الله يعلمه بذلك فامتنع عبيدالله عن التسليم له واحتج بأن كتاب المأمون قد ورد إليه بولايته هو، واستعد عبيدالله الحرب خالد فحفر خندقاً حول

---

(١) الكندى ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

واقويك واكون معك فى جهادك لتستحق الاكليل
مثل اخويك المجاهدين ساويرس وديسقرس ريسا
على الاساقفه بيد كامله وشرطونيه صحيحه.
واستوجب ان ينظر شيخ راهب كان خرج من
البريه عندما فرشوا الانجيل فوق راسه صورتين
احديهما تشبه صورة ديسقرس والاخرى تشبه
صورة ساويرس تمسكان الإنجيل من هاهنا ومن
هاهنا واسم يعقوب البطرك فى وسطهما فلما نظر
هذه الاعجوبه، وفيما هو مفكر راى قوما يتحدثون

الفسطاط وجند الجنود، فسار خالد إلى خندق عبيد الله وهناك وقع القتال بينهما وانتهى بأسر خالد بن يزيد فأكرمه عبيد الله بن السرى وخيره بين المقام فى مصر أو الرحيل حيث شاء فاختار الذهاب إلى مكة عن طريق القلزم [١]. ويظهر أن الأمور فى مختلف انحاء الدولة الإسلامية شغلت المأمون حتى ذلك الوقت عن التفرغ للقضاء على الفوضى فى مصر وإرجاعها ثانية إلى حظيرته، فأرسل رسولا من قبله يقر عبيد الله على ما بيده من أرض مصر ويقر علياً ابن الجروى على ما بيده[٢].

حدث بعد ذلك نزاع بين عبيد الله بن السرى وبين على بن الجروى وسببه أن قوما من أهل الحوف منعوا ابن الجروى من جباية الخراج وكتبوا إلى عبيد الله بن السرى يطلبون منه المساعدة ضد على الجروى، فأمدهم بما طلبوا وبعث إليهم أخاه أحمد بن السرى فى سنة ٢٠٧ هـ فوقعت حروب بينهما كان نتيجتها أن دخل عبيد الله تنيس، مقر ولاية الجروى، وهرب ابن الجروى إلى الفرما ثم العريش فى ربيع الأول سنة ٢٠٩هـ [٣]، أى أن مصر كلها خضعت لعبيد الله بن السرى إذا استثنينا الاسكندرية التى كانت تحت سلطة الأندلسيين. على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته فى مصر السفلى. فحدثت مناوشات

(١) الكندى ص ١٧٣ ـ ١٧٦.
(٢) الكندى ص ١٧٦ـ ١٧٧.
(٣) الكندى ص ١٧٧ - ١٧٨.

ويقـولون هذا الانسـان فـعله يشبـه فـعل هذين الرجلين بالحقيقه.

يا ابهاتى ان هذا القديس كانت سيرته فاضله مثل سيرة القديس ساويرس فى افعاله، وكان عظة للمخـالفين بالخوف وبحسن امانتـه واعتـرافـه وطقسـه. وكـانو يهـابون كـلامه لانه عند جلوسه عمل مقاله نوثاتيريون يقطع فيه جميع الهارسيس الكسـار سطوس والمجـمع الطمث الخلقـدونى

وحروب بينه وبين ابن السرى [١]، وبينما قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام موفداً من قبل الخليفة المأمون ليقضى على تلك الفوضى التى سادت فى مصر منذ نحو إحدى عشرة سنة، كادت مصر فى أثنائها تكون مستقلة عن الخلافة، لاترسل إليها الخراج والأموال ولا ترضخ فيها لأوامر الخليفة ولا تقبل العمال الذين يوليهم وقد تغلب على كل ناحية فيها قائد أو زعيم.

سار عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستقبله على بن الجروى بالأموال والأنزال وانضم إليه، ثم أرسل ابن طاهر إلى عبد الله بن السرى يدعوه إلى الطاعة ولكن عبيداً أخذ يستعد لحربه فحفر خندقه وأعد سفنه وأحكم أموره وكانت النتيجة أن اشتبك الفريقان ووقعت الحرب بينهما فانهزم عبيد وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان. فكتب ابن طاهر إلى الخليفة المأمون كتابا يسأل فيه أمان عبيد فأجابه الخليفة إلى ذلك. ثم كتب عبد الله بن طاهر لعبيد كتاب أمان أشهد فيه شهوداً من الجند والفقهاء وأشراف إهل مصر فى صفر سنة ٢١١هخـ وخلع عليه ابن طاهر وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج إلى المأمون[٢] وبذلك خلصت معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر وكان أمامه أن يقضى على الدولة التى أقامها الأندلسيون بالاسكندرية منذ عشر سنوات.

---

(١) الكندى ص ١٧٨ ـ ١٧٩، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٩.

(٢) الكندى ص ١٨٠ ـ ١٨٢.

واصحاب الخيال الذين هم الغايانيون هولا الذين ينكرون الالام المحييه التى لله الكلمه التى قبلها بالجسد.

وفى بعض الايام قرب الشعب وجا الى منزله، وكانت عادة الاسكندرانيين ان يدعون عندهم المخالفون ليرو اعيادهم ومجد البطرك وكانو يفعلون هذا حتى يظهرو لهم المجد الذى اعطاهم الله وما يظهره لهم من اعمال الابا[ء] الذين جاو [جاؤا]

سار عبد الله بن طاهر فى قواده إلى الاسكندرية فى بداية صفر سنة ٢١٢هـ وحاصرها فى شهر ربيع الأول فطلب أهلها الأمان، وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا الى جزيرة أقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى، ثم ولى ابن طاهر على الإسكندرية الياس بن سامان، ورجع ثانية إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢١٢هـ (١).

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة للخلافة بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل بأمورها منتهزة فرصة النزاع بين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذى قام فى أوائل حكم المأمون. ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم، الخراسانى الأصل، استطاع أن يكون لنفسه ولأسرته من بعده ملكا شبه مستقل دام نحو عشر سنوات ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وإنما سيطرت على العاصمة دائما وعلى الوجه القبلى فى الغالب. ونلاحظ أيضا أن أسرة السرى كانت كغيرها من الأسرات التى استقلت بمصر فيما بعد، مثل ا لطولونيين والأخشيديين، أى أنه لم يكن لها أساس قومى فى البلاد التى اتخذتها مسرحاً لنشاطها. فهذه الأسرات التى قامت فى مصر الإسلامية لم تكن نتيجة لحركات قومية وإنما كانت حركات فردية قام بها

(١) الكندى ص ١٨٣ ـ ١٨٤، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٣.

وجلسو على كرسى البشير مرقس، ففعلو هذا مع الاب البطرك يعقوب وحضر جماعة منهم فنظرو الممتلى من نعمة الروح القدس وهم مختلطون مع الارتدكسيين وقال مثل ما قال بولس الرسول(*): اى شركه للحق مع الاثم او اى شركة للنور مع الظلمه، او كيف يتفق المسيح مع الشيطان، او اى نصيب لمومن مع مخالف، وكما ان ليس لهم معنا نصيب فى الروحانيات ولا يكون لهم فى الجسدانيات. فخرجو جميعهم بخزى وخجل من

(*) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنتوس : ٦ / ١٤ ، ١٥ .

ذوو الشخصيات الطموحة القوية من المغامرين. ولذا لم يكن من المنتظر أن تعمر طويلا بعد وفاة مؤسسيها ، وخاصة إن كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التى كانت لأسلافهم. ويصح أن تعتبر أسرة السرى مقدمة لأسرة ابن طولون التى استقلت بمصر استقلالا فعلياً فى الواقع وذاتياً فى الظاهرة.

جـ . مصر والمحنة بخلق القرآن

مسألة خلق القرآن هى إحدى المسائل التى أثارتها المعتزلة حين ظهرت بتعاليمها كما ظهر غيرها من الفرق والمذاهب.

ولا يعنينا هنا أن نبحث فى اراء المعتزلة الدينية ومعتقداتهم وانما يهمنا أن الدولة العباسية فى وقت ما اتخذت الاعتزال مذهبا رسميا لها، وحملت جميع رعايا دولتها على اعتناق ذلك المذهب مستعملة فى ذلك جميع وسائل القوة والعنف، ومسلمو مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب . كانت مسألة خلق القرآن هى مسألة التى تركز فيها الاعتزال فى تلك الفترة (٢١٨ ـ ٢٣٤هـ) لكثرة القول والجدل فيها، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله [١].

(١) أحمد أمين بك: ضحى الإسلام جـ٣ ص ١٦٥ .

باب البيعه، وكان فيهم انسان غنى مسلط على جباية خراج اسكندريه فى ذلك الوقت وكان له سلطان فى الاندلسين(*) وولايه، فمضى مسرعا واعلم صاحب الخراج ما جرى وتكلم فى الاب البطرك ابا يعقوب وقال له أنه قد احرمهم، فلما سمع المخالف هذا امتلا غضبا على ابينا البطرك وقال كلاما عظيما، وارسل الى الاب وقال له: انى ادعك ان تلتفت فى البيعه، اذا قلت السلام لا تجد انسانا يقول لك ومع روحك [يرد عليك] . فلما

(*) من الواضح أن خروج الاندلسيين لم يكن كاملاً بل بقيت منهم أعداد من التجار فى الغالب وأصحاب الأموال والأملاك.

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن فى سنة ٢١٢هـ [١]، إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا فى سنة ٢١٨ هـ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم إذا كتب إلى والى بغداد إسحق بن إبراهيم يطلب منه أن يمتحن القضاة الفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ويعاقب من لا يقر بخلقه على أن المأمون توفى بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجبت سنة ٢١٨هـ) فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) ثم الواثق (٢١٧ ـ ٢٣٢هـ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن، وقتل البعض الآخر، وبقدر ما كان الخلفاء يشتدون فى تلك المسألة كان العلماء والشعب يعارضون فيها [٢]، وقد أصبحت كلمة المحنة تعنى اختبار العلماء فى القول بخلق القرآن وما لاقوه فى ذلك من عذاب [٣]، وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية كلها موضوع محاكمة،. ويهمنا ما كان من أمر مصر فى هذه المسألة.

فى ولاية كيدر نصر بن عبد الله على مصر (٢١٧ ـ ٢١٩هـ) ورد عليه كتاب المعتصم (صاحب إقطاع مصر حينذاك) فى جمادى الآخرة سنة ٢١٨هـ يأمره بأخذ الناس بالمحنة

(١) الطبرى جـ١٠ ص ٢٧٩.
(٢) أحمد أمين بك : ضحى الإسلام جـ٣ ص ١٥٦ ـ ١٨٢.
(٣) المرجع نفسه ص ١٦٦.

سمع ابونا هذا الكلام من المخالف قال بنعمة روح القدس: هكذا نعم ما تنبا به على هذا المخالف اشعيا النبى اذا يقول(*): ان غضبه وزخره وفكره يرجع على راسه ، وظلمك وغضبك قد صعد الى فانا اربطك بلجام فى شفتيك ولا يزول من مكانه حتى تتم القضيه عليه، وهكذا تكون قضيته، وحقا اقول لكم اننى لا ادخل بيعه الرب حتى يتم الله هذا الحكم فيه عاجلا.

(*) اشعيا: ٣٧ / ٢٩ .

بخلق القرآن وأن يمتحن قاضى مصر إذ ذاك هرون بن عبد الله الزهرى وأن يمتحن المحدثين والفقهاء والشهود ، وأن يعزل القاضى إن لم يقر بخلق القرآن، وكذلك طلب منه ألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن [١]. يظهر أنه لم تقم بين مسلموا مصر فى أول الأمر معارضة شديدة للقول بخلق القرآن، كما قامت فى العراق مقر الخلافة، ولم تتعرض مصر لما تعرضت له العراق من قتل وتعذيب واضطهاد لهذا السبب، وربما أقر مسلموا مصر القول بخلق القرآن تقية فكفاهم هذا شراء كثيراً. فيذكر الكندى أنه حين ورد كتاب المعتصم على كيدر يأمره بأخذ الناس بالمحنة أحضر هرون بن عبد الله القاضى ودعاه إلى هذا فأجاب إليه ووافقه على ذلك عامة الشهود ومن عرف بالعدالة كما أجاب أكثر الفقهاء إلا من هرب منهم وكذلك كان هرون ابن عبد الله يوقف شهادة من لا يقول بخلق القرآن ويقبل شهادة من يقر بخلقه[٢].

ظل هرون بن عبد الله يلى قضاء مصر إلى أن ورد عليه كتاب الخليفة المعتصم فى سنة ٢٢٦هـ يأمره بالتوقف عن الحكم. وولى القضاء بعده محمد ابن أبى الليث الخوارزمى. ولعل مسلموا مصر لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد المحنة طالما لم يؤخذوا فيها بالشدة، فيذكر الكندى[٣] أن أمر المحنة كان سهلا فى خلافة المعتصم ، «فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا

---

(١) الكندى ص ١٩٣ ، ٤٤٥ - ٤٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢١٨ - ٢١٩ .
(٢) الكندى ص ٤٤٧ .
(٣) الكندى ص ٤٥١ .

وبعد ذلك وقع للمذكور خصومه وقتل واخذ جميع مافى بيته ولم يبق له شى فلما نظرو المخالفون الذين فى اسكندريه هذا العجب الذى كان وتمام ما قاله الاب المشتمل بروح القدس، لم يقدر احد من المخالفين ان يخاطبه بكلمه وكان بطركهم يوقره ويخافه ويحيد عنه.

وكانت اعماله الحسنه تتزايد وتنمو اكتر من اعمال رهبانيته، ولم يكن ينظر مجد الناس بل

أو أبوا حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر أن يؤخذ الناس بها وورد كتابه على محمد بن أبى الليث بذلك وكأنها نار أضرمت». فالخليفة الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به المأمون[١]، لذا نجده يرسل إلى قاضى مصر محمد بن أبى الليث يأمره بامتحان الناس جميعاً حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالمحنة، وعندئذ عارض كثير من المصريين المحنة وثاروا ضدها . فملئت السجون منهم كما هرب الكثيرون.

وقد أمر ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق، كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم أن لا يقربوه وقد اختص أصحاب مالك والشافعى بالمنع لأنه لم يكن للمذاهب الأخرى أتباع فى مصر حينذاك.

وعلى وجه الإجمال نلاحظ أن أمر المحنة فى مصر كان سهلا خفيف الوطأة على المصريين فلم يقاسوا بسببها إلا بضع سنوات فى عهد الخليفة الواثق فملئت السجون منهم، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن مصر. ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث قتل أو تعذيب كما كانت الحال فى العراق. فلما ولى الخليفة المتوكل العباسى وجد أن المسألة طال أمدها فأبطل هذه المحنة .

(١) الكندى ص ٤٥٣.

يعمل باعمال الله وعقله فوق مثل بولس الرسول الذى لم يكن يفتـر من الكرازه والبشـاره باسم يسوع المسيح ويسبح الله فقال لشعبه: سمعت ان منكم قوما بطالين كسالى وانا طلب اليكم ان تعملو اعمالكم بدعه، وتاكلو خبزكم كما قال بولس الرسـول : ان بيدى كنت اخـدم ولم اثقل عليكم ونعم اصلاح نصيب المحتاج، ولا ياخد من احـد، وكـان هو يسيـر من الدنيـا يكفيـه وليس ينصب للمـوايد مـثل الناس بل ياكل خـبـزه

- -

الأقباط والنظام المالى

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمى إلى استغلال مصر استغلالا منظما، وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال، وإذا بينما نرى بعض الخلفاء أو ولاتهم يشتط فى جمع الضرائب نرى البعض الآخر يرى أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلخها. وحسبنا أن نشير فى هذه المناسبة إلى ما ذكره المـاوردى[1] من أن «الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما». فإن هذا مثل يرينا كيف كانت سياسة هذا الخليفة ترمى إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كيلا يجف معينها ويؤثر ذلك على ماليته ولكن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يبتزون كل ما تملك البلاد، فنرى الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦هـ ـ ٥٩٩م) يكتب إلى أسامه بن زيد التنوخى متولى خراج مصر «أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم[2]» وقد ظهر اهتمام الخلفاء بثروة

(١) الأحكام السلطانية ص ١٤٣.
(٢) أبو المحاسن جـ١ ص ٣٣١.

بالدموع، بل كانت اعماله تنير فى وجهه، وكلما يطلبه من الله يعطيه، وكلمته تقطع اكثر من سيف ذى فمين.

واخبركم يا اخوتى انه كان فى ايام هذا المغبوط البطرك انبا يعقوب له قرابه، محب للمسيح، ريس مقدم فى نبروه اسمه مقاره، فلما سمع بجلوسه على الكرسى فرح فرحا عظيما ومجد الله الذى يختار اصفياه وزاد فى الصدقه ومحبة الاخوه،

مصر عقب الفتح مباشرة، فيذكر ابن عبد الحكم [١] عن هشام بن أبى رقية اللخمى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال للقبط: إن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته. وسمع عمرو بأن أحد أهالى الصعيد يقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك، وعندما تبين لعمرو ابن العاص صحة ما سمعه عنه أمر بقتله. فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفا من القتل.

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية ولذا كانت الجزية سببا فى إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعا معناه نقص فى دخل الدولة. وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل إن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريج عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم [٢]. وإذا كان هذا النص صحيحاً وإذا كان الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يجعلهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم

(١) فتوح مصر ـ طبعة تورى ـ ص ٨٧.

(٢) ابن عبد الحكم . طبعة تورى . ص ١٥٤ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٧ يقول الماوردى فى كلامه عن أهل الذمة والجزية «ومن مات سهم فيها أخذ من تركته بقدر ما مضغ منها ومن أسلم منهم كان ما لزم من جزيته ديناً فى ذمته يؤخذ بها. الأحكام السلطانية ص ١٣٩.

وارسل الى اسكندريه ما تحتاج اليه البيع بحكم انه قريب البطرك وكان يكرم الاساقفه ويخافهم. وبدا الغلا والسبى يقل فى اسكندريه، ولم يجد البطرك ما يدفع للبيع كالعاده ولم يبق معه شى وانقطع مضى الشعب من كل موضع الى بيعة الشهيد مارى مينا بمريوط ومنه. وكان البطرك [محصور] بالبيع، وسبب هذا، الحرب والقتال الذى كان بين المصريين والمداجه والاندلسيين وكان هذا بالاسكندريه.

منهم. ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ماهى نسبة نقص الجزية بسبب أعتناق الأقباط الدين الإسلامى لأن المؤرخين كثيراً ما يجمعون بين الجزية والخراج فيقال إن عمرو بن العاص جبى من مصر ١٢ مليون دينار وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان ٢٤ مليون دينار وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العاص فى هذه الكلمات:

«يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول فقال عمرو: «أضررتم بولدها» ويذكر اخرون أنه قال: «ذلك أن لم يمت الفصيل [١]» ويذكر المقريزى [٢] أن الذى جباه عمرو ثم عبدالله إنما هو من الجماجم[٣] خاصة دون الخراج.

بلغ خراج الأرض مع جزية الرءوس فى أيام معاوية بن أبى سفيان خمسة ملايين دينار وبلغ فى أيام هرون الرشيد أربعة ملايين دينار وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالى ٣ ملايين دينار [٤] إذا استثنينا فترات معينة ولعل الفرق الهائل بين ما جباه عبد الله (٢٤ مليون

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ـ طبعة تورى ص ١٦١ وخطط المقريزى جـ١ ص ٩٨.
(٢) الخطط جـ١ ص ٦٨.
(٣) يقصد بالجماجم هنا جزية الرءوس.
(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٩.

وكان شماس اسمه جرجه من مقدمى كهنة اسكندريه وكان قيما لبيعة اسكندريه، فبدا يتكلم عن هذا الاب حتى انه قال له: تدفع لنا ما نحتاج اليه كما جرت العاده والا فامض الى البريه من حيث جيت. فلما سمع قول هذا العاتى الاب البطرك وانه ما احتشم منه وزاد فى كلامه قال له: لا تعود من الان تدخل رجلك من هذا الباب الى هذا الموضع. فخرج الشماس بغضب عظيم من عنده [و] مضى الى بيته ولم يلتمس من الاب

دينار) وماجباه الخلفاء بعد ذلك (حوالى ٣ ملايين دينار) يوضح حجم النهب والخراب الذى أصاب مصر فانتهى الأمر إلى أن نقصت الجباية من ٢٤ مليون دينار إلى ٣ مليون.

وتشهد المكاتبات التى دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص عقب الفتح مباشرة على مدى الاهتمام بجباية أموال مصر ؛ فعندما بلغت عمر بن الخطاب اكذوبة أن المقوقس جباها قبل عمرو بستة وعشرين مليون دينار وأن عمروا جباها اثنى عشر مليون دينار كتب الخليفة إلى عمرو يستبطئه فى الخراج. وهذا ما دار بينهما من المكاتبات:

كتب الخليفة إلى عمرو يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص. سلام عليك فأنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فأنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولاجدب، ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر، ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك فإذا أنت

القديس تحليلا ولا تاب فلحقه حمى صالبه [شديدة]، وكانو يمسكونه من قوة النيران التى تلحقه، وتوفى فى يومه، واعلمو البطرك بهذا فحزن عظيما وطلب الى الله ان يحل نفسه من الرباط الذى ارتبط به ويحله ايضا من الخطيه. ومن يوم وفاة هذا الشماس دخل الموت والفنا الى جميع بيته ولم يبق فيه احد الى اليوم، فلما نظر الجمع وسمع هذه الاعجوبه وان كلامه بسلطان كمثل

تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى. ولست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك. ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك؟ فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا إن البراءة لنافعة ولئن كنت مضيعا نطفا إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك. وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىّ ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليه وتلفف اتخذوك كهفا وعندى بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فأن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وما عنه تلجلج فأنه قد برح الخلفاء والسلام[1]».

فكتب إليه عمرو بن العاص. «بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص. سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى واعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام، ولعمرى للخراج يومئذ

(١) ابن عبد الحكم ـ طبعة تورى ـ ص ٥٨ ـ ١٥٩ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٨ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٦٤.

الرسل خافو وفزعو وارتعبو ولم يجسر احد ان يخاطبه، وكان عندهم مثل نبى.

فلما قربت الاربعون يوما الصوم المقدس اراد الاب ان يمضى الى برية ابى مقار ليقوى الاخوه الرهبان ويعزيهم ويقيم عندهم الى عيد الفصح المقدس كما جرت عادة الابا البطاركه، فلما وصل اليها فرح جميعهم ولقوه وصاحو: مبارك الاتى باسم الرب. وجا كل الابا[ء] الشيوخ من مغايرهم

أو فر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع ذلك درها وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحا والعمل به سيئاً فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قيلنا، معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فأقبض عملك فإن الله قد نزهنى من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد لنفسى غضباً ولها إنزاها وإكراما وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ولكنى حفظت مالم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام[1].

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ ـ ١٦١ طبعة تورى وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٨ و٧٩ والسيوطى : حسن المحاضرة ص ٦٤ ـ ٦٥.

باجبـال يجـرون كـمـثل الوحـوش المشتـاقين الى
مجارى الما[ء] وكانو ياخدون بركته بفرح عظيم.
وكانت هذه البريه مثل فردوس الرب بصلاة الاب
البطرك ومساعدة بنى المعموديه المصريين، وكان
للبطرك محبه عظيمه للبريه اكتر من الرهبان
ويفعل فيها مثل كرنيليوس فى زمانه، فارسل الى
جميع الابا وأبهات القلالى وقال: كلمن يحتاج
الى شى لمنشوبيته ياتى ياخذ. لان البربر كانو قد
نهبو جميع مالهم وهدمو البيع واحرقو القلالى

ولم تقف المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فيما يختص بالخراج عند هذا الحد. فقد عاود عمر بن الخطاب الكتابة فكتب إلى عمرو «سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلى ببينات الطرق وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين،.ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى فأحمل الخراج فإنه فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام[1]».

فكتب إليه عمرو بن العاص. «بسم الله الرحمن الرحيم. لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص. سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أنى بعيد عن الحق وأنكب عن الطريق وأنى والله ما أرغب عن صالح فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام [1]».

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ ـ ١٦١ طبعة تورى وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٨ و٧٩ والسيوطى : حسن المحاضرة ص ٦٤ ـ ٦٥.

بالنار. فلما اجتمعو الابا[ء] الرهبان سبحو الرب
على تجديد النعمة عليهم ومجدو الله على ذلك،
ولما راى الاب ان الحمام قد عاد الى وكره الاول
فرح. وكان فى ايام قسيسيته قد بدا بعمارة هيكل
على اسم القديس شنوده قبلى هيكل القديس ابى
مقار وكانو الرهبان يجتمعون اليه عوض البيع
المهدومه، وكمله وجدد البيع وسبحو ومجدو
التالوت كالملايكه، فلما راى الشيطان هذا زار
[زأر] كمثل السبع وأعد سهاما للبطرك وللبيعه.

هذه الرسائل ترينا إلى أى حد كان الخليفة يهتم بخراج مصر وأنه كان يريد أن يجبى مثلما كان يجبيه الروم من قبل. ولذا نجد أن المصريين سرعان ما عادوا إلى ماكانوا فيه تحت حكم الروم فوقعوا تحت الأعباء المالية الكثيرة التى تطلبتها الخلافة وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاة والموظفين أيضاً. وفى العصر العباسى اضطربت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاة وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان هم الوالى جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولا وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانيا.

ولنستعرض الآن الفترات التى أشتد التحول فيها إلى الدين الإسلامى بسبب المغارم المالية الباهظة ولنبدأ بولاية عبد العزيز بن مروان الذى كان يمثل الخليفة عبد الملك بن مروان فى مصر (٦٥ ـ ٨٦هـ).

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد رخاء ويسر للعرب فى مصر حتى انه أنفق مالا كثيراً فى بناء مدينة حلوان، يقال إنه بلغ مليون دينار [١] وقد زيدت أعطيات الجند فى عهده[٢] كما اشتركت مصر فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وقد تطلب هذا كله كثرة الإنفاق

(١) «سعيد بن بطريق: التاريخ جـ٢ ص ٤٠.
(٢) الكندى ص ٤٩.

وكان فى ذلك الزمان للبطرك شماس يختص به
لخدمته و يفعل ما يريد بغير مشاوره، فضرب احد
التلاميذ لاجل شى عمله وعنف عليه، فمن كترة
ما ضربه مات، وكان ذلك منصوبه من فخاخ
العدو الشيطان، فلما شاهدو المداجه خفرا الدير
ذلك مسكو الاب البطرك واقلقوه لاجل موت
الانسان وطلبو منه الشماس ليقتلوه عوضه، وكان
الاب مجتهدا فى خلاص نفس الشماس لاجل
تربيته له من صباه، وكان يظن انه يقدمه فى درجة

والأموال الكثيرة حتى قيل إن عبد العزيز بن مروان كان يجبى خراج مصر أسبوعياً خوفاً من فتنة تنزل به يحتاج فيها إلى المال. ولم يزل على ذلك حتى قتل عبد الله بن الزبير وتم الأمر لعبد الملك بن مروان [١].

وكانت نتيجة حاجة هذا الوالى إلى المال أن اتجه إلى شئ لم يتجه إليه أحد من قبل، فأمر بإحصاء [٢] جميع الرهبان فى كل الكور وفى وادى النطرون وسائر الأماكن وفرض ديناراً جزية على كل راهب وأمر الا يترهب أحد بعد من أحصاه، وكانت هذه أول جزية أخذت من الرهبان [٣]. ويقال إنه ألزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفى دينار سنوياً بالإضافة إلى خراج أملاكهم [٤].

(١) سعيد بن بطريق جـ٢ ص ٤١ .Wiet: Histoire de la Nation Egyptienne p. 47
(٢) ساويرس ص ١٠٧ جـ ٢ : ونذكر هنا أن بعض المخطوطات كان فيها تصحيف فى كلمة «أحصى» أو أن خطأ أدى إلى قراءتها «أخصى» فشاء بعض المستشرقين أن يستنبط منها توحش المسلمين فى هذه المناسبة. ولكن فطن إلى هذا الخطأ مستشرقون آخرون كالأستاذ فيت فى مقاله Kibt فى دائرة المعارف الإسلامية .Wiet: art. Kibt (Encyclopaedia of Islam) P. 993
(٣) ساويرس ص ١٠٧ جـ٢ .
(٤) ساويرس ص ١٠٧ جـ ٢ .

الكهنوت. ولما رأو المداجه اعتنا الاب به وعلمو انه ما يسلمه اليهم تشددو فى طلبه وطلبو منه مالا جـــزيلا، ولم يكن مع البطرك شى يدفع لهم فاعانوه الاساقفه والشعب المحبون لله الى ان دفعو لهم شيا وخلصوه من ايديهم.

ثم خرج الاب المغبوط يعقوب الى الصعيد ليتفقد الشعب والديارات فلما لقوه الشعب والرهبان كانو يمجدون الله ويقولون : مبارك الاتى باسم الرب. وتعجبو من اعماله ويقولون:

ونحن نعلم أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك، وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد، ففضل الكثيرون أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى أديرة. ولما كان الراهب لا يملك شيئا ويعيش فى عزلة عن العالم، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة. على أن الأديرة التى كانت تزداد كثرة على مر الأيام مالبث أن وقف عليها أملاك كثيرة وزادت ثروتها، ولكن الحكومة فى عهد الرومان والبيزنطيين لم تكتف باعفائها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدراً ـ معيناً من الإيرادات المالية [1].

فلما احتل العرب مصر حافظوا على ماكان موجوداً قبلهم من التقليد الذى يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان. وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتازة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية. وقد لجأ كثير من الأقباط إلى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب [2]. ففطنت الحكومة إلى ذلك وبادرت بإحصاء الرهبان، وفرضت عليهم جزية الدينار التى أشرنا إليها.

ولما زاد أحتياج عبدالعزيز بن مروان إلى المال لجأ إلا الأديرة التى أصبحت تملك ثروات

(1) Munier: L Egypte Byzantine. P. 77.

2) Wiet: Precls de L'hist. d' Egypte. T. 11. P. 132.

مبارك ابونا ايلياس الجديد. واقام عندهم اياما قليلا وعاد، و كانو يفتخرون باعماله وفضايله.

وذكر ابونا الاتحاد والمحبه والرباط الذى بينه وبين ديونوسيوس بطرك انطاكيه وكان يحب النظر اليه بالمشاهده او بالمكاتبه ويمنعه من ذلك الحروب التى كانت بارض مصر وفى الطرق، لانها اقامت اربع عشره سنه. وكان يطلب الى الله ان يتبت المحبه بين الكرسيين الجليلين الاسكندرانى والانطاكى، ويدعو الى الله ان يجمع بينهما

ضخمة. ففرض على رهبانها جزية سنوية كي يسد بذلك عجز ميزانية الدولة، وكان من أثر هذا أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلامي.

وبعد وفاة عبدالعزيز ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٦هـ ولم تمض بضعة أشهر حتى توفى الخليفة عبد الملك بن مروان، وبويع بعده بالخلافة ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦) فأقر الوليد أخاه عبد الله على ولاية مصر حتى سنة ٩٠هـ. وقد تشدد عبد الله بن عبد الملك على الأقباط فى الأمور المالية. فألزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار أو يعتقله فلقى البطرك مشقة عظيمة فى جمع هذا المال من الأساقفة والرهبان والأقباط على العموم، كذلك زاد عبد الله الخراج على المصريين، فمن كان يدفع ديناراً خراجاً ألزمه بدفع دينار وثلثين، حتى أن كنائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السبب[1]، وقد زاد وطأة ذلك الوالى على المصريين ما حدث فى أيامه من الغلاء، وذلك على أثر انخفاض النيل [2] فى سنة ٨٧هـ.

والظاهر أن هذا الوالى عمد إلى ابتزاز الأموال، ولا سيما من القبط وربما أسلم نفر منهم

(١) ساويرس ص ١١٧ جـ ٢ .

(٢) الكندى ص ٥٩ والمقريزى: إغاثة الأمة ص ١١. وأبو المحاسن جـ١ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

بالمشـاهده والمكاتبـه، فلم يرفض الله صـلاة هذا الاب بل كملها بنظر الاب ديونوسيوس بالجسد.

وانا اعلمكم بالسبب واعلمكم القلق الضيق الذى لحق ارض مصر والاب يعقوب البطرك.

و ملكو الاندلسيـون اسكندريه وعـبـد العـزيز الجـروى ملك بعض البـلاد. وكـان الاب مبتـهـلا وباكيا لاجل خراب البلاد وطول استمرار الحروب فى القتال وان اجساد الناس طعام لطيور السما.

ليتخلص من هذه الأعباء، وقامت فى عهده حركة مقاومة سلبية ضد هذه السياسة المالية من جانب الذين ضايقهم الأعباء المالية والذين لم يريدوا تغيير دينهم بسببها. فأخذ بعض الأفراد يهربون إلى مناطق أخرى غير تلك التى كانو مقيدين فيها بعد أن وجدو ألا فائدة من الاعتصام فى الأديرة. غير أن هذا الوالى ومن جاء بعده تشددو فى مراقبة هذه الحركة التى كانت تثير الفوضى فى البلاد، فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة. فأمر عبد الله بن عبد الملك بوسم الغرباء الذين وجدو فى الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى مواضع لم يعرفوها[١].

وولى مصر بعد عزل عبدالله بن عبد الملك فى سنة ٩٠هـ قرة ابن شريك، وظل على ولايتها إلى أن مات بها فى سنة ٩٦هـ. ويذكر ساويرس أن قرة أنزل بلايا عظيمة بالمسلمين والنصارى على السواء، وبالكنائس والرهبان[٢]. وكتب المقريزى عن قرة أنه «أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلو قبلها بمثلها»[٣]. وتكثر النصوص والروايات من التحدث عن ظلم قرة بن شريك وعسفه، فيذكر أبو المحاسن أن قرة كان سئ التدبير، خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً

(١) ساويرس ص ١١٧ جـ ٢.
(٢) ساويرس ص ١١٩ جـ ٢..
(٣) الخطط جـ٢ ص ٤٩٢.

(*) الجروى يحتكر الأموال والغلال ويرفع أسعارها وينهب الأموال.

(*) ميخا : ٢ / ١ ، ٢ ، ٣ .

وان الجـــروى(*) ما كـان يفتر من قتل الناس واخـذ اموالهم، وكـان يدفن ما ياخذه من الامـوال ليـــلا فى الارض واذا دفن المال يقـــتل الـذين يساعدونه على دفنه حتى لا يبقى من يعرف مكان شى يدفنه، فـتـمت فـيـه كلمـة مـيـخـا النبى اذ يقــول:(*) هولا المتـفـكرون بالسـو والدغل لانـهم دفـعـو ايديهم فى ذلك واخـذو الحـقـوق وظلمـو اليتامى واختطفو الانسان وبيته وورثته. لاجل هذا يقول الله أنى اجيب الشرور على قبايلهم ولا يتم

متهتكا»[١]، وقيل إن عمر ابن عبد العزيز ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الامصار أيام الوليـد بن عبـد الملك، فقـال: «الحجـاج بالعراق، والوليـد بالشـام، وقـرة بن شـريك بمصـر ! وعثمان بالمدينة! وخالد بمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس» [٢]. فـنـراه يشدد فى طلب المتأخر من الجزية التى لم تدفع منذ عهد الوالى الذى سبقه[٣]، ويأمر عماله على الأقاليم بأن يقدمو له سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة، واحصاء الرجال والجزية الواجبة عليهم وما يملكه كل رجل من الأراضى والخدمات التى يؤديها [٤]. ولكننا نراه أحيـاناً يفرض ضرائب غير عادية [٥].

ويذكـر سـاويرس [٦] أن قرة فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف وقد استمرت فى عهد قرة حركة الهرب التى بدأت فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بل وانها اتخذت فى عهده شكلا واسعاً فكانت أسرات بأسرها رجالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان

(١) النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢١٧ . فى طبعة دار الكتب «منهمكا».
(٢) المرجع نفسه ص ٢١٨.

(3) Becker: op. cit. d. 267, Grohmann: op. cit. p. 48.
(4) Bell: op. cit. p. 272.
(5) Bell: op. cit. p. 272.

(٦) ساويرس ص ١٤٢ جـ ٢ . .

ما ظنو . فجا[ء] على هذا الرجل حكم الله العالى القوى، وكان قد جمع قمح ارض مصر جميعها وجعله فى الأهرا[ء] تحت احتكره وقال: اجعل الغلا فى ارض مصر جميعها، واجمع اموالهم كما فعل فرعون يوسف فيطيعنى كل مقاوم. وفعل هذا وصار غلا عظيم حتى بلغ القمح ويبه واحدة بدينار، ولم يطلق قمحا الى اسكندريه غرضا فى هلاك الاندلسيين الذين ملكو مدينة اسكندريه، وصارت الويبه القمح فى اسكندريه بدينارين

إلى مكان، لا تستقر فى مكان معين وذلك فراراً من دفع الضرائب. واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه [١].

وتلقى أوراق بردى كوم اشقاو شعاعا من النور على هذه الحركة التى كان محورها الزراع أو الجالية [٢] وكان الوالى يأمر باعادتهم إلى قراهم الأصلية فنراه يكتب إلى صاحب أشقوه أنه علم بوجود جالية بأرضه ويطلب منه أن يرد الجالية ـ أى الهاربين ـ إلى أرضهم الأصلية[٣] ونراه يرسل مندوبين للنظر فى حركة الهرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقومو حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم وليبينو أيضا من أين هرب كل شخص والى أى جهة ذهب. وذلك لحصر الذين عادو إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدو الضرائب، وليقومو على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يعرف. ثم يعود قرة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء

....

(١) المرجع نفسه ص ١٤٣ .

(٢) قيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب ولزمهم هذا الاسم أينما حلو ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وإن لم يجلو عن أوطانهم. ويقال استعمل فلان على الجالية أى على جزية أهل الذمة (لسان العرب).

(3) Grohmann: Arabic Papyri. Vol. 111 P. 24.

ودرهم واحد وماكانو يجدون شيا يشترونه، وهلكو الناس بارض مصر ولاسيما باسكندريه (*)، فعلم ذلك المتكبر ان الناس قد هلكو ففتح فمه وقال كلمه، لم يقلها الله. انا ادعهم ان يبيعو القمح قدحا بدينار. فكمل عليه كلام ناحوم(*) النبى اذ قال : يقول الله لى الانتقام يعطينى واهلك مقاومى واعداى عاجلا. فرحم الرب تنهد الخلق وما يراه من الغلا وما الناس فيه وانتقم الله منه هكذا لانه [الجروى] مضى بجيشه الى اسكندريه ليقاتل

(*) يلاحظ اهتمام ساويرس باحداث الاسكندرية لأنها كانت مقر البطرك.

(*) ناحوم: الاصحاح الأول / ٢ ، ٣ .

الرجال بالعمل فى هذه المسألة بجد ونشاط وألا يقبل أحد منهم هدية أو رشوة من أى شخص وإلا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب [1] وفى كتاب آخر لقرة نراه يطلب من صاحب أشقوه أن يرسل إليه الهاربين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يعد سجلا يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلو، وفى أى موضع من كورته هربو، وأملاك كل شخص، والوقت الذى أمضاه كل شخص فى كورته، وكل شئ يعرفه عن الهاربين دون كذب أو محاباة، وأن يرسل. كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذى أرسله قرة لهذا الغرض، ويهدده بأشد العقاب الجثمانى والمالى إن هو توانى عن النظر فى هذه المسألة وتغافل عن أحد الهاربين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهاربين بغرامة مالية كبيرة فوق مقدورهم [2].

وظل قرة يتابع تلك الحركة بنشاط كى يقضى عليها إلى أن مات سنة ٩٦هـ. وفى عهد خلافة سليمان بن عبد الملك كان المتولى على خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى فكتب إليه سليمان بن عبد الملك «احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم [3]» أى أن

(1) Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band 11.) P. 270.

(2) Bell: op. cit. PP. 274 - 275.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٣١ .

الاندلسيين فهربو منه الى داخل السور واغلقو الابواب حتى اكلو دوابهم من الجوع وكان قد قوى عليهم وصار يضرب الحصن بالمنجنيقات ليهدم الحصن وظن انه يهلك كلمن فيها بالسيف، وكان يطلب البطرك لانه انفذ اليه يشفع فى انسان ان يصلحه اسقفا فلم يقبل [البطرك] ان يخرج عن قانون البيعه. فلما نظر المحب لله مقاره غضب عبدالعزيز الجروى كتب الى الاب البطرك وطلب اليه ان يقسم ذلك الانسان اسقفا ففعل. وكان

سياسة هذا الخليفة كانت سياسة استغلال لموارد مصر إلى أقصى حد ممكن وقد وجد من أسامه خير منفذ لأوامره. وقيل إن سليمان بن عبد الملك قال يوماً وقد أعجبه فعل أسامه ابن زيد: «هذا أسامة لا يرتشى ديناراً ولا درهما» فقال له ابن عمه عمر ابن عبدالعزيز بن مروان: « أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشى دينادراً ولا درهما» . قال سليمان: «ومن هو» ؟ قال عمر: «عدو الله إبليس» فغضب سليمان وقام من مجلسه[١].

نفذ أسامه بن زيد تعليمات الخليفة بكل دقة واشتد فى طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانو فى جمع الضرائب فأسلم الكثيرون فى عهده كى يتخلصوا من الأعباء المالية ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبو فى اعتناق الدين الإسلامى.

وقد أمر أسامه ألا يأوى أحد غريبا فى الكنائس أو الفنادق أو السواحل. ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان عندهم من الغرباء أو الهاربين[٢]. ولكى لا يتمكن أحد من الهرب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بجوازات السفر اليوم Passport فالزم كل

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٢.
(٢) ساويرس : تاريخ البطاركة ص ١٥٣ جـ ٢ .

الجروى حريصا فى طلب البطرك وقال انه يهدم البيع ويقتل الاساقفة فى كل موضع إن لم يجتمع به البطرك ، فسمع مقاره الارخن النبراوى، فكتب الى البطرك كتابا يقول له لابد من ان تجتمع بهذا الرجل والا فهو يهدم البيع ويقتل الناس، وحلف له وقال: انى ادفع جميع مالى عنك ولا يلحقك ما يغمك. فقال البطرك كلمة اشعيا النبى: ان ليس نفسى عندى عزيزه وانها لله ولينظر الرب خلاصى لانى توكلت عليه فلا اخاف ما يصنعون بى

شخص يريد الانتقال من جهة إلى جهة فى أنحاء القطر المصرى أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وقد أمر الوالى بالقبض على أى شخص يرى ما شيا فى موضع ما أو عابرا من موضع إلى موضع وليس معه سجله . وإذا وجد شخص راكبا مركبا أو نازلا منها وليس معه سجله تنهب المركب وتحرق بالنار. أما من فقد سجله أو أتلفه فقد ألزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير (١).

وقد عمل أسامة بن زيد إحصاء ثانيا للرهبان بعد الاحصاء الاول الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وأمر الرهبان ألا يقبلو فى الرهبنة من يأتى إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى ليكون معروفا، ووسم كل واحد منهم بإسم بيعته وديره والتاريخ الهجرى وفرض على كل واحد منهم ديناراً جزية . أما من وجد هارباً أوغير موسوم فقد كان يلقى عقابا قاسياً (٢) ويقال إن أسامة بن زيد جبى مصر فى خلافة سليمان ابن عبد الملك اثنى عشر مليون دينار (٣) .

وبهذه المناسبة نذكر أن أول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف،

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٦ جـ٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٣ جـ٢ . وخطط المقريزى جـ٢ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.
(٣) خطط المقريزى جـ١ ص ٩٩.

الـنـاس(*) . فقام وخرج للقاه، وكان معهم قس محب لله اسمه يوساب لبيعة القديس ابى مقار استحق ان يجلس على الكرسى الرسولى ونحن نذكر فضايله فى هذه السيره، وبينما هو فى الطريق وقد فرغ من صلاته فقال للقس يوساب: امن بالله يا ولدى ان هذا الرجل لا ينظرنا ولا ننظره حيا. فلما كان الصباح وقع عليه حجر من الحصن فطارت عيناه من وجهه وطار يافوخه ومات. هكذا تمت عليه كلمة زكريا النبى انه فكر

(*) اشعيا : الاصحاح ٥١ .

ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبدالعزيز بن مروان والى مصر من قبله أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن حجيرة فى ذلك وقال «أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر. فوالله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من أسلم منهم؟» فتركهم عند ذلك[١]» .

وكتب عمر بن العزيز أيضا إلى حيان بن سريج أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم[٢] كما ذكرنا من قبل وربما كان هذا الأمر هو الذى بعث ساويرس على أن يقول إن عمر بن عبد العزيز أمر بأن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلمون حتى فى الحالات التى لم تجر عادتهم بالقيام بها[٣]. ونحن لا نعرف تماما متى بدأ أخذ الجزية ممن أسلم. والظاهر أن هذا بدأ قبل عهد عمر بن عبدالعزيز [٤].

ويعلق السير توماس ارنولد[٥] Thomas Arnold «ولكن الولاة المتأخرين استمراو فى فرض

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ ، خطط المقريزى جـ١ ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ ، خطط المقريزى جـ١ ص ٧٧.
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة ص ١٦٣ وما بعدها جـ ٢ .
(٤) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ والمقريزى ص ٧٧.

(5) The Preaching of Islam p. 103.

بالسو وما بلغ ان يفعله وخلصوه من الحجاره. فلما راو اصحابه هذا حملو جسده ودفنوه فى بعض الضياع، وكانو يسدون انافهم من ريحته ونتن جتته، فوصل الخبر الى الاب فمجدو الله اصحابه الذين كانو معه وسمعو ما قاله لهم قبل ان يكون فقالو للاب: قد تم ماقلته يا ابانا. فقال : يا اولادى هذا فعله الله به لن [لأن] هذا الانسان اراد قتل بنى بشر بالجوع.

ثم تولى ولده بعده وكان اسمه على ولم يعمل

الجزية على الذين أسلمو وبالجملة لم يكن هناك استمرار فى مثل هذا السياسة بل كان الولاة يتبعون فى ذلك سياسات مختلفة على حسب أهوائهم دون السير على وتيرة واحدة.

ثم حدث أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ) أخذ المسيحيين بالشدة من الوجهة المالية فأعاد الخراج الذى كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة. ويدلنا على مبلغ كراهية المسيحيين له تلك الكلمات التى يصفه بها مؤرخ البطاركة إذا يقول «إنه سلك فى طريق الشيطان وحاد عن طرق الله[١]».

ولما بويع هشام بن عبد الله الملك (١٠٥ ـ١٢٥هـ) بالخلافة تفاءل المسيحيون خيرا. ويصفة مؤرخ البطاركة بأنه رجل يخاف الله مخلص للأرتودكسيين ومحب لسائر الناس [٢]. وقد أمر هشام بأن يعطى كل من يدفع خراجا إيصالا باسمه كيلا يظلم أحد فى مملكته[٣].

على أن سياسة هشام بن عبد الملك المالية كانت كسياسة غيره من الخلفاء . وليس أدل على ذلك من أن عامله على خراج مصر وهو عبيد الله بن الحبحاب ظل فى هذا المنصب منذ أن ولى هشام الخلافة إلى سنة ١١٦هـ[٤] أو إلى سنة ١١٤هـ[٥] فى قول آخر، بينما

(١) ساويرس : ص ١٦٣ وما بعدها جـ ٢ .
(٢) ساويرس ص ١٦٦ جـ ٢.
(٣) ساويرس ص ١٦٨ جـ ٢.
(٤) خطط المقريزى جـ١ ص ٢٠٨.
(٥) أبو المحاسن جـ١ ص ٢٧٣.

باعمال ابيه فجا رخا عظيم حتى نسى الناس ما
كانو عليه من الغلا وقالوا: نسبحك اللهم فى ذك
اليوم كما قال اشعيا النبى(*): لنك [لأنك]
غضبت علينا ثم رددت غضبك عنا ورحمتنا لنك
ربنا ومخلصنا وتوكلنا عليك. وبعد هذا نظر الله
تشرد الرهبان اولاد ابى مقار وتشتتهم فى كل
مكان فاعادهم الى مواضعهم المقدسه فشكر الله
الاب البطريرك ومجده وقال كما قال داود النبى
فى المزمور(*)[٨٥]: رجعت واحييتنا، شعبك يفرح

(*) اشعيا : الاصحاح ٥٧ / ١٦

(*) المزامير : ٨٥ / ٦ ، ٧ .

تعاقب على حكم البلاد فى زمنه خمسة ولاة، وكان يتمتع أثناء ذلك بنفوذ كبير لا يحد، يولى من شاء من الموظفين ويعزل من يشاء. بل إنه نجح فى عزل اثنين من الولاة، وهما الحر بن يوسف، وحفص بن الوليد. وجعل إليه الخليفة أمر اختيار من أحب من الولاة ، فاختار عبد الملك بن رفاعة(١). وكان له الأمر أيضا فى تولية القضاة، فقد قام بأمر توبة بن نمر الحضرمى حتى ولى القضاء فى سنة ٢١٦هـ (٢) وطبيعى أن من الأسباب التى حصل بها ابن الحبحاب على هذه السلطة الواسعة أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل . أما قوام هذه السياسة فنتبينه من بعض أخبار هذا العامل على الخراج. فإننا نعرف مثلا أنه لما ولى خراج مصر أمر بأن تحصى الناس والبهائم،وأن تقاس الأراضى الزراعية والأراضى البور وضع أميالا أى علامات للمسافات فى حقول مصر على الحدود والطرقات، وضاعف الخراج وأمر بأن تختم رقاب الناس بسمة الأسد (٣) وذلك لتسهل معرفة هؤلاء الذين تجب عليهم الجزية والضرائب. ويذكر المقريزى (٤) أن الخليفة هشام ابن عبد الملك أوصى عبيد الله بن الحبحاب بالعمارة، فيقال إنه لم يظهر فى خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا فى وقتين، أحدهما فى خلافة هشام

(١) الكندى ص ٧٤ ـ ٧٥. (٢) الكندى ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٣) ساويرس : تاريخ البطاركة ص ١٧١ جـ ٢.
(٤) الخطط جـ١ ص ٩٨ ـ ٩٩.

بك، ارنا يا رب رحمتك واعطنا خلاصك. وايضا تكلم بالسلام على شعبه وابراراه. فراى الاب انبا يعقوب هيكل ابى شنوده انه لا يسع جماعة الرهبان فبنى البيعه التى على اسم ابى مقار وهى هيكل بنيامين لنه [لأنه] كان قد دثر، وزينها بكل زينه وكملها وكرزها اول يوم من برموده وكان هذا تذكارا للبطرك ومجدا للرب.

وكان مقارة النبراوى الارخن يشتهى ان يرى الاب البطرك ويبارك عليه فى منزله وجا الى بيته،

ابن عبدالملك عندما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب، والوقت الثانى فى إمارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر، فبعد أن كان خراج مصر دون الثلاثة ملايين دينار خرج ابن الحبحاب بنفسه ومسح العامر من أرض مصر والغامر[1] فراكها كلها وأصلحها، وآستطاع أن يجبى من مصر أربعة ملايين دينار.

ويذكر الكندى [2] والمقريزى [3] أنه فى أمرة الحر بن يوسف (١٠٥ ـ ١٠٨هـ) كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطاً [4].

وازاء هذه الأعباء المالية الثقيلة بدأ الأقباط للمرة الأولى يتركون سبيل المقاومة السلبية ويقامون حكومة العرب مقاومة إيجابية . فثار الأقباط فى سنة ١٠٧هـ فى الوجهين البحرى والقبلى فبعث إليهم الحر جيشاً لمحاربتهم فقتل منهم نفر كثير [5].

---

(١) الغامر الأرض الخراب أو البور. (٢) الولاة والقضاة ص ٧٣.
(٣) الخطط جـ١ ص ٧٩.
(٤) القيراط نوع من العملة المستعملة حينذاك فكان الدينار ينقسم إلى ٢٤ قيراطا (ابن عبدالحكم ـ طبعة تورى ص ١٥٣).
(٥) الكندى ص ٧٣ ـ ٧٤ وساويرس ص ١٧٣ جـ٢. وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

وكان قد ولد له ولد ذكر ففرح به وكان عنده وعمل صدقات كثيرا ورحمه، واراد الله ان يمجد البطرك بهذا السبب فاظهر هذه الاعجوبه، وبعد ايام يسيره اعتل الصبى ومات فاخذه بامانه وجا به الى قلاية البطرك، مثل ما فعل ريس الجماعة الذى اقام المسيح ابنته، وقال الارخن للبطرك: اعن عبدك فان ابنى يموت: فقال: احضره الى . فاحضره فقبل الصبى إليه وصلب على صدره وفواده وجبهته وقال: يا سيدى يسوع المسيح

وعند ما ولى مصر الوليد بن رفاعة من قبل هشام بن عبد الملك (١٠٩ ـ ١١٧هـ) خرج ليحصى أهلها، وينظر فى تعديل خراجهم، واصطحب معه جماعة من الكتاب والأعوان ليساعدوه فى مهمته هذه، فأقام بالصعيد ستة أشهر حتى بلغ أسوان، وأقام بالوجه البحرى ثلاثة أشهر، فأحصو من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، ولم يحص فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة رجل ممن تفرض عليهم الجزية [١].

وقد تتابعت ثورات القبط، فثار أقباط الصعيد وحاربو عمال الحكومة فى سنة ١٢١هـ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان والى مصر (١١٩ ـ ١٢٤هـ) جيشاً لمحاربتهم، فانتصر عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً [٢] وفى ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر (١٢٧ ـ ١٢٧هـ) أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدين الإسلامى .

---

(١) ابن عبد الحكم ـ طبعة تورى ص ١٥٦ وخطط لمقريزى جـ١ ص ٧٤ والسيوطى: حسن المحاضرة جـ١ ص ٦٣ ـ ٦٤ فى مجموعة الارشيدوق رينز بالمكتبة الأهلية فى فينا وثيقة بردية تشير إلى أحصاء سكان مصر فى ولاية الوليد بن رفاعه . وتفصل هذه الوثيقة البيانات التى كان على الموظفين جمعها عن كل شخص . وراجع Papyrus Eizherzog Rainer. Fiihrer durch die Ausstellung (Wien1894). No 599 p 152.

(٢) خطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

معطى الحياه والمنعم بالنعمه من عنده: أقم هذا الطفل لابيه دفعة اخرى حيا. فعادت اليه نسمة الحياة وفتح عينيه وحرك يديه ورجليه. فقال ابونا بصوت عال لابيه الارخن مقاره كما قال السيد المسيح لريس الجماعه: ان ولدك لم يمت بل كان نايما. فلما راى الارخن هذا العجب العظيم لحقه خوف شديد منه ومجد الله صانع العجايب فى قديسيه. وفى تلك الساعه زاد الارخن فى صدقته وفعله الخير وكانت صدقته تفيض من يديه كالنهر

ومع ذلك فقد تتابعت ثورات القبط فخرج ثائر منهم بسمنود، يدعى يحنس ، فبعث إليه عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير ، والى مصر إذ ذاك جيشاً لمحاربته، وكان ذلك فى سنة ١٣٢هـ، فقتل يحنس مع كثير من أصحابه (١).

ثم ثار القبط برشيد فى سنة ١٣٢هـ، فأرسل إليهم مروان بن محمد جيشاً لمحاربتهم، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بنى العباس فهزمهم هذا الجيش (٢)، كذلك ثار ضده أهل البشرود ولكنه لم يستطع القضاء على ثورتهم، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه.

ولما قامت الدولة العباسية فى مصر تفاءل الأقباط خيراً وخمدت ثورة البشموريين من أجل ذلك ، إلا أن المشكلة المالية لم تنته وعادت إلى ما كانت عليه زمن الأمويين، بل عادت للعهد السابق فلم تمض ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط ولم يتم ما وعدو به من التخفيف عنهم .

ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرر الخليفة السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره، فتخلى كثير من المسيحيين، أغنياء كانو أو فقراء، عن دينهم

(١) الكندى ص ٩٤ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.
(٢) الكندى ص ٩٦ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

الجارى الفايض، ودفع تلت ماله للارامل والايتام [المعوزين] ويكسوهم الثياب ويفعل كلما يجب فعله.

ووصل هذا الخبر الى مدينة يروشليم وانفد مقاره الارخن وبنى فيها بيعه، وهى الان ملجا الارتدكسيين الى اليوم ولمن يطرق المدينة للصلاه فيها، بناها تذكارا له الى الابد وهى تعرف ببيعة المجدلانية، فبارك الله عمل يديه وضاعف له أمواله مثل القديس ايوب.

واعتنقو الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم. وسرعان ما عاد القبط الذين بقو على دينهم إلى الثورة فثار الأقباط يسمنود فى سنة ١٣٥هـ فى ولاية أبى عون الأولى على مصر ١٣٣٠ ـ ١٣٦هـ) فبعث إليهم أبو عون جيشاً لمحاربتهم فهزموا وقتل أبو مينا زعيم تلك الثورة (١).

ثم ثار القبط فى سخا سنة ١٥٠هـ ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة على مصر (١٤٤ ـ ١٥٢هـ) وانضم إليهم أهل البشرود وبعض جهات الوجه البحرى، ولكن العرب انهزمو أمام القبط فى هذه المرة (٢) . تم خرج القبط فى سنة ١٥٦هـ فى ولاية موسى بن على بن رباح اللخمى (١٥٥ ـ ١٦١هـ) فأرسل إليهم الوالى جيشاً هزمهم (٣).

وكثيراً ما ثار العرب ضد الحكومة بسبب الخراج بعد أن زاد عددهم وأصبحو يملكون الأراضى فى البلاد، وكثيراً ما اشتراكو مع الأقباط فى ثوراتهم. وكانت آخر ثورة للأقباط تلك التى حدثت فى جمادى الأولى سنة ٢١٦هـ زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل المعتصم (٢١٦ ـ ٢١٧هـ) إذ ثار أهل الوجه البحرى كلهم سواء فى

(١) الكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن جـ١ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٢) الكندى ص ١١٦ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.
(٣) الكندى ص ١١٩ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

واراد الله ان يرى هذا الرجل سرا عظيما عجيبا من كترة امانته ليرزقه الله رجا[ء] الحياة الابديه، وفى بعض الايام اقسم يمينا ان يتمم فعلين، وهما ان لا يرد احد يساله، ولا يغلق بابه فى وجه احد.

اسمعو ماجرى له، كان له امانه ورجا بشفاعة القديس تاودرس، وكان يرشده فى اعماله ويقضى حوايجه، وكان فى زمان خلافة هرون الرشيد كتر الخراج على مقاره هذا لكترة وصاياه واعماله، فمضى الى الملك ليوفى ما عليه فطال مقامه وانفق

ذلك العرب والقبط ـ فطردوا عمال الحكومة، وقدم الأفشين قائد المأمون من برقة لمحاربتهم، فسار إلى أهل الحوف وهزمهم وأرسل القواد وعيسى بن منصور إلى مختلف جهات الوجه البحرى لمحاربة الثائرين. ثم أقبل الأفشين فى جنوده إلى الإسكندرية فهزم كل من اعترضه فى طريقه إلى أن دخلها فى ذى الحج سنة ٢١٦هـ، ثم سار بعد فتحها إلى أهل البشرود، فامتنعو عليه حتى قدم المأمون إلى مصر [١].

وقد عرف أهل البشرود أو البشمور بتمردهم والثورة منذ التاريخ القديم، وقد شجعتهم طبيعة المنطقة التى يعيشون فيها على ذلك فإن هذه المنطقة الرملية على ساحل الدلتا بين فرعى رشيد ودمياط [٢] كانت تحيط بها المستنقعات والأوحال التى تعيق حركة الجند وقد ثارو زمن المأمون لكثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التى كانت تستعمل فى جبايته وقبل مجئ المأمون إلى مصر كتب البطرك أنبا يوساب إليهم كتبا ينصحهم بأن يرجعو عن ثورتهم ويحذرهم من قوة السلطان فلم يرجعو، ولما رأى الأفشين تمادى البشموريين فى ثورتهم كتب إلى الخليفة المأمون يعلمه بما حدث [٣] فرأى المأمون أن يأتى إلى مصر لإخماد تلك

(١) الكندى ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(2) Wiet: Hist. de la Nation. Egypt. T. IV. p. 73.

(٣) ساويرس ص ٨١٧ جـ٢ .

جميع ما كان معه، لنه [لانه] لم يكن يمتنع من دفع الصدقه ولم يجتمع بالملك، فجاز يوم وهو ماضى الى قصر الملك فراى فى الطريق منزلا عظيما مزينا لم يراه قبل ذلك اليوم، فقال لغلمانه قد ضللنا عن طريقنا لان هذه الدار لم نرها فى طريقنا قبل اليوم،. وصار مثل انسان قد سها او بغير عقله، فنظر الى انسان نير وقد خرج من الدار يشبه معرفه له لما كان بارض مصر فقال للارخن : يا مقارة لك ايام منذ وصلت الى هاهنا ولم تفتقد

الثورة فجاء فى جيشه وصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية (١) فى المحرم سنة ٢١٧هـ .

أرسل المأمون البطرك أنبايوساب والبطرك ديونوسيوس إلى البشموريين. ووعدهم إلا يعاقبهم إن هم رجعو عن ثورتهم ولكن البشموريين لم يجيبوا البطركين فسير المأمون إليهم الأفشيين بجنده ولكنهم قاوموا جند الأفشين بشدة فلما علم المأمون بذلك سار إليهم بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريون فأعمل فيهم القتل بالسيف وأحرقو مساكنهم وهدموا كنائسهم (٢) .

وبعد ثورة البشموريين التى كانت آخر ثورة للأقباط فى عهد الولاة، اسلم العديد من المصريين وعلى الأخص فى الوجه البحرى إذ يظهر أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم فى ذلك الوقت (٣).

وهكذا نجد ان المصريين كانوا قد قبلوا النظام المالى الذى فرضه الخلفاء حتى سنة ١٠٧هـ

....

(١) ساويرس ص ٨١٦ جـ ٢ .
(٢) ساويرس ص ٨٢٢ وما بعدها جـ ٢ .
(٣) خطط المقريزى جـ١ ص ٧٩ ـ ٨٠.

بى، فكلمه الارخن مقاره بحضور من معه فتقدم
اليه وعانقه وقبل بعضهما بعضا ومسك صاحب
الدار يد الارخن ودخل به الى الدار من عدة ابواب
وجا به الى موضع فيه مال عظيم يشبه خزاين
الملوك وقال له: خذ جميع ماتحتاج اليه لنفقتك
واذا مضيت الى بلدك فانت تعيده الى وانا اليوم
انجز حاجاتك عند الملك وكلما تحتاج اليه. فاخذ
الارخن المال من بيت ذلك الانسان النير الذى كان
يخاطبه وخرج ودفعه لمن كان معه من غلمانه

ثم بدأو يقاومون حكومة العرب مقاومة علنية دموية ظلت أكثر من قرن لاسيما فى منطقة الدلتا. على أن ثورات القبط كان يقضى عليها سريعاً. وكان يتبع إخمادها فى العادة تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى. ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وانما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة. وكان هدفها خفض الضرائب أو الهرب من دفعها. فبينما نجد أن الاضطهاد الدقلديانوسى ضد المسيحية فى مصر قد زاد من قوتها وولد حركة قومية بين المسيحيين نجد أن القبط يغلبون على أمرهم فى ثوراتهم ضد العرب(*).

(*) انظر: ١ ـ مصر فى فجر الإسلام . د. سيدة اسماعيل الكاشف دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٤٧.
٢ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى . د. زبيده عطا. سلسلة تاريخ المصريين ٤٨. الهيئةالمصرية العامة . القاهرة ١٩٩١.

القيام على الباب، وركب الرجل فرسه واسرع
قدام الارخن فلما قرب من القصر بدو الاعوان
ينادون اليه ويقولون: اين مقاره المصرى. فاخذو
بيده وادخلوه الى الملك فخاطبه الملك وقال له:
اطلب جميع حوايجك وكلما تحتاج إليه حتى
اقضيه لك فى هذا اليوم. فا نجز له حاجاته
والانسان النير الذى خاطبه خرج به من القصر،
فلما صار بعيد من القصر غاب عنه ولم يعد
الارخن ينظره، وظن انه قد عاد الى داره التى اجتاز

علاقة الحكام المسلمين بالأقباط المصريين

عهد الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤هـ = ٦٨٢ ـ ٦٨٤م) بولاية اقليم الاسكندرية والبحيرة ومريوط، وما يليها لأحد المسيحيين الملكانيين، ويسمى تيودوسيوس[١]. ووقف تيودوسيوس موقفا عدائيا من القبط الأرثوذكس، وبطركهم الأب اغاثو. وساعده فى ذلك ما صار له من سلطان بفضل مرسوم الخليفة. فقد طلب من البطرك اغاثو جزية سنوية على تلاميذه مقدارها ستة وثلاثون دينار. كما كان يلزمه بكل ما يحتاجه من نفقات على الأسطول والنوتية. كما طالبه بزيادة على خراج كنائسه، وقدرها سبعة آلاف دينار[٢]. وفى الحقيقة كان

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، يسميه تاوضوسيوا. وفى موضع آخر ص ١٢٢ تادرس. انظر أيضا، السنكسار. جـ ١، ص١٢٧، ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص٢٢. ويذكر هؤلاء ان تيودوسيوس ذهب الى الخليفة المذكور بدمشق وقدم له هدايا وأموالا عظيمة وطلب منه أن يوليه حكم الاسكندرية وما يجاورها، وأن يكتب الخليفة له سجلا بذلك. فكتب الخليفة يزيد لتيودوسيوس سجلا يحق له به حكم الاسكندرية والبحيرة ومريوط. كما أشار الخليفة فى هذا السجل الى أن والى مصر ليس له سلطان على هذا الحاكم.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، السنكسار، جـ١، ص١٢٣ وما بعدها. وأصل البطرك أغاثو من مريوط. وكان قسا فى الكنيسة فى بطريركية الأب بنيامين. وشهد اضطهادات المقوقس وتحدى مذهبه الذى كان يدعو اليه القبط. فكان ليلا يتزيا بزى العلمانيين، ونهارا يتنكر فى زى نجار ـ يحمل آلات النجارة ـ كما ذكرنا آنفا فى التمهيد ـ وعاد الى الظهور بعد الفتح العربى وعودة البطرك بنيامين الذى عهد اليه بتدبير أمور البيعة، وولى البطركية من بعده. انظر ابن المقفع: المصدر السابق.

به فيها، فلما وصل الى الموضع الذى كانت فيه الدار لم يجد لها اثرا بالجمله فشخص الرجل وغاب عقله ساعه، وبعد هذا فهم انه الشهيد العظيم تادرس [الشاطبى] الاسفهسلار (*) لجل محبته له، فمجد الله وزاد على الرحمه والصداقه والاعمال الحسنه، وكان ثابتا على هذا الحال الى الزمان الذى نقله الله من هذا العالم.

(*) تحتفل بشهادته الكنيسة المصرية فى ٢٠ أبيب. أنظر السنكسار جـ ٢ ص ٣٢٢ . مكتبة المحبة.

فنعود الان الى ذكر بقية قصة الاب انبا يعقوب البطرك، فما فعلنا هذا وذكرنا جبر هذا الارخن

موقف هذا الحاكم من البطرك اغاثو يمثل انتقاما من القبط اليعاقبة وبطركهم، ورغبة فى اضعاف شأنهم، وعودة سيادة الملكانيين عليهم، كما كان الحال فى العهد البيزنطى، وخاصة أن هذا الحاكم كان يمارس سلطان واسعة فى دائرة حكمه، فكان يفرض ضرائب جديدة، ويزيد مقدار الضرائب المفروضة فعلا.

ثم أمر تيودوسيوس، أصحابه برجم البطرك اغاثو بالحجارة وقتله: فكان هذا البطرك لا يخرج من قلايته[1] ليلا ولا نهارا. ولما توفى البطرك اغاثو حجر تيودوسيوس على كل أمواله، وعلى جميع أموال الكنائس القبطية فى الاسكندرية وختم عليها. فانتشرت المجاعة فى المدينة واستمر الحال على ذلك حتى توفى تيودوسيوس[2].

ويشيد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين بدور القبط الواضح فى الادارة والحكومة فى

(١) القلاية جمعها قلالى، وهى أماكن منفردة للمتعبدين و النساك المنعزلين عن السكن بين الناس. وهى تعد أصلا لسكنى الرهبان ويقوم الرهبان بحفرها فى الصحراء أو أماكن الجبال أو بنائها من الطوب. انظر عبدالمسيح البرموس: تحفة السائلين. ص١٧ . حكيم أمين: دراسات فى تاريخ الرهبانية، ص ١٣٨ . والمقصود هنا البناء الذى يسكنه البطرك ويكون فيه اقامته طوال توليه كرسى البطركية.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة ص ٥ جـ ٢ .

مقاره الا غرضا فى عز الاراخنه الارتدكسيين، فان الله لا يدعهم فى هذا الدهر ولا فى الاتى كما قال بولس الرسول(*): لا تدع عمل الخير حتى تحصد ما بذرته، وما دام الزمان معنا تفعل الخير مع كل احد ولا سيما اخوتنا اهل الايمان. ثم انه كان يوصى طيماتاوس ولده ويقول له: اكثر من تذكار فعل الخير للمومنين عند ما يكاتبه يقول له هكذا: ان اغنيا [ء] هذا الزمان تقدم ليهم بان لا تتكبر قلوبهم ولا يجعلو رجاهم وتوكلهم على غناهم

(*) الغلاطين: الاصحاح ٦ / ٩ ، ١٠ .

ولاية عبدالعزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) الذى اتخذ له كاتبين أرثوذكسيين هما: أثناسيوس(١) وأصله من مدينة الرها، والثانى يسمى اسحق من أهل شبرا(٢).

خدم هذان الكاتبان مصالح القبط، ومصالح بطركهم يوحنا(٣). وعملا على تحقيق كل آمالهم ورغباتهم بشأن الكنائس وغيرها. وكان حاكم الاسكندرية تيودوسيوس ـ كما ذكرنا ـ قد حجر على أموال الكنائس وأملاكها بعد وفاة البطرك أغاثو، فلما أقيم يوحنا بطركا، بعث لأثناسيوس وزميله اسحق يعلمهما بما أصاب القبط على يد حاكم الاسكندرية وما حل ببيعهم آنذاك. وتمكن هذان الكاتبان بما لهما من نفوذ وسلطان أن ينهيا هذا الحجر، فعادت جميع أملاك وأموال الكنائس القبطية الى البطرك يوحنا(٤).

(١) ويسميه أحد المورخين السريان اثناسيوس بن غومايه Athnasius Bel Gaumaye ويقول انه كان يشتهر بالنبل، والذكاء، وكان متبحر فى العلوم الكنسية والدنيوية. وذاعت شهرته حتى بلغت اخباره الخليفة الاموى عبدالملك بن مروان الذى عهد اليه بتعليم أخيه عبدالعزيز بن مروان الذى ولى امرة مصر..
chronique de Michel le Syrien, T. 2. fasc. 3, p. 475.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة جـ٢.
Amélineur: Histoire du Patriarche Copte Isaac, p. 43.

(٣) أصله من سمنود، وترهب بدير أبى مقار، وكان كاتبا للبطريرك أغاثو وولى البطركية من بعده، الأنبا ايسيدورس: الخريدة النفسية، جـ٢، ص١٢١.

(٤) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة جـ٢ .

فـان الغنى لا ربح فـيـه، لكن يكون توكلهم على الله الذى يعطينا كل شى يغنى، ويكون فـعلنا فى الخيـر ويكون غنانا فى الافعـال الحـميـده لنكون مـسـتقـيـمين ليكون لنا اساس ثابت فـيـمـا ياتى، ونتمسك بحياة الحق.

فلذلك ابسطو عذرى واسمعو منى بقية اعمال هذا الأب القـديس المؤيد الذى هو نبى واعطاه الله ان ينظر الاسرار من البعد.

ويبدو أن أثناسيوس قد تولى ديوان الخراج فى عهد الوالى عبدالعزيز بن مروان. واستمر فى اهتمامه بمصالح القبط والكنيسة القبطية طوال عهده. فلما توفى البطرك سيمون[1] (فـى سنة ٦٩١م)وأصبحت الكنيسة بدون راع لها، طلب أثناسيوس ومن معه من الكتاب القبط من الوالى عبدالعزيز بن مروان، أن يرسل الأسقف اغريغوريس الى الاسكندرية للتحفظ على أموال الكنائس ورعاية شئونها[2] وأجاب عبدالعزيز بن مروان الكتاب القبط الى طلبهم، وأنفذ اغريغوريس الى الاسكندرية وكتب له سجلا، يفوضه التصرف فى أموال الكنائس، وعهد اليه بتدبير شئونها، وقام اغريغوريس بهذه المهام نحو ثلاث سنوات[3].

وكان أثناسيوس ينعت فى المكاتبات الرسمية بالكاتب الأفخم، ويضم ديوانه عشرين كاتبا، ثم زاد عددهم حتى بلغ أربعين كاتبا[4]. وزادت ايرادات أثناسيوس وأولاده. الى جانب ما كان

(١) أصله من أهل المشرق، جاء به والده منذ صباه الى الاسكندرية. صار قسا فى بطركية أغاثو. وبعد وفاة البطرك اسحق، وقع اختيار القبط على الأب سيمون ليكون بطركا لهم. وحاول بعض الكهنة دس السم له. وحارب البطرك سيمون ظاهرة التسرى بين الأساقفة والقبط. وتعرض لكثير من المحن. انظر: ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة..

(٢) ساويرس ابن المقفع: المصدر السابق.

(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.

(٤) ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص٢١.

لما ذكر الرب كورة مصر الضعيفه ليزيل منها الحروب اظهر الامر للاب القديس وعرفه ان هذا يكون قريبا غير بعيد وكان يعلم ان الارشيدياقن الذى له يفعل افعالا بغير ارادته فدعاه وقال له : يا ولدى سوف يجى سلطان الى بلاد مصر قريبا ويملك على مصر وعلى رويساها وعلى اسكندريه وجمع كورتها، فاذا وصلنا مع سلامة الله الى اسكندريه فاياك ان تسمع من احد من الناس ان

يحصل عليه من الهدايا والأموال العظيمة من الوالى عبدالعزيز بن مروان حتى بلغ ما يتقاضاه ستين ألف دينار سنويا[١]. وصارت كل شئون البلاد المصرية فى ولاية عبدالعزيز بن مروان ـ تحت تصرف كاتبه أثناسيوس[٢]. وأثرى أثناسيوس نتيجة ذلك كله ثراء كبيرا، واتسعت أملاكه. فقيل انه كان يمتلك أربعة آلاف عبد، الى جانب عدد لا يحصى من الضياع والدور والحدائق، ومقدار عظيم من الذهب والفضة[٣]. وكان أثناسيوس غيورا على دينه، متحمسا لمذهبه، فشيد كثيرا من الكنائس بمصر خاصة فى الفسطاط، ومنها كنيسة مار جرجس وكنيسة أبى قير[٤].

(١) ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص ٢١.

(2) chronique de Michel.., T. 2, fasc. 3. p. 475.

(3) Ibid. p. 475.

(٤) انظر: Ibid., p. 476.

وابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٤١.

وقد سعى باثناسيوس أحد الملكانيين ويسمى سرجيوس بن منصور، عند الخليفة عبدالملك بن مروان فى دمشق، واتهمه أمامه بنهب أموال مصر، وحملها معه الى الشام بعد وفاة عبدالعزيز بن مروان. فاستدعى عبدالملك اثناسيوس، وقد تمكن الأخير من ارضاء الخليفة وقدم له مبلغا عظيما من الأموال. ويقال ان عبدالملك قبض على اثناسيوس وأهله وأخذ منهم كل ما جمعوه من الأموال.

تمد عينك الى شي من هذا العالم فتكون مظلما في اعمال الله ونكون ذليلين عند الامه المخالفه الذين اذلهم قدامنا، والشيطان امامهم، واعلم انك اذا خليت كلامي فتقع بيعة الله في بلا عظيم.

ثم بعد ان قال له هذا القول بقليل وصل الى كورة مصر امير من عند ملك المسلمين اسمه عبدالله بن طاهر(*)، وكان رجلا خيرا رحوما في دينه محبا للعدل مبغضا للظلم ومن اجل ذلك

(*) عبد الله ابن طاهر يصل إلى مصر واليا عليها في ١٣ ابريل ٨٢٦م = الأول من محرم =

ولم يكن أثناسيوس واسحق هما الموظفان الوحيدان من أهل الذمة في حكومة عبدالعزيز بن مروان، اذ كان هناك كثير من الكتاب القبط[١]، الى جانب بعض حكام الأقاليم نذكر منهم بطرس حاكم الصعيد، الذى أسلم فى نهاية حكم عبدالعزيز بن مروان[٢]. وأيضا كان حاكم مريوط مسيحيا الا أنه كان من أتباع المذهب الملكانى. وهكذا تغلغل الذميون من المسيحيين خاصة فى الأعمال الادارية والحكومية المختلفة.

ومن صور تغلغل الذميين فى شئون الادارة والحكم ما نلمسه فى عصر قرة بن شريك. (٩٠ ـ ٩٦ هـ) فقد كان يتولى ديوان الاسكندرية رجل من أهل الذمة، من المسيحيين الملكانيين ويسمى تاودرس[٣]. وكان هذا الحاكم على عداء شديد مع البطرك القبطى الاسكندروس[٤].

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.

(٢) المصدر نفسه. ص ١٠٨ جـ ٢.

(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.
ويقول ترتون، ص٢٢ـ ٢٣ ان اسمه تيودور، وانه كان يلقب فى الكتب الرسمية باسم اجستاليس Augustales وكان هذا لقب حاكم الاسكندرية فى العصر البيزنطى.

(٤) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة ص ١٢١ جـ ٢. وقد ولى الاسكندروس البطركية بعد ثلاث سنوات من وفاة البطرك سيمون. وكان متواضعا، انظر المصدر نفسه ص ١٠٣ جـ٢.

اخضع الله له كل عاص واذل له امة الاندلسيين التى باسكندريه واقام بمصر اياما حتى استقامت له الأمور.

=٢١١ فى عهد الخليفة المأمون الذى عزله فى ٢٨ يناير ٨٢٩م= ١٧ ذو القعدة ٢١٣ هـ انظر الهامش السفلى ص ٥٠٦.

نعود الان الى خبر انبا يعقوب مع ديونوسيوس بطرك انطاكيه وانه لم يمكنه ان ينفذ سنوديقا لجل الحروب بمصر والمشرق، وكذلك الأب البطرك ديونوسيوس كان يسمع بافعال الاب البطرك انبا يعقوب وكان يشتهى ان يسلم عليه وهو فى

وكان جباة الضرائب، وحكام الكورات أيضا فى عصر هذا الوالى من القبط[١]. وقد عهد قرة بن شريك الى أحد القبط ويدعى يونس بجباية الخراج من الرهبان والأساقفة وكان يونس يتمتع بمكانة عظيمة لدى قرة وكبار رجال الحكومة المصرية فى ذلك العصر. وقد قال قرة بن شريك: «يجب أن تعلم أن الرهبان والأساقفة الذين فى سائر الأماكن قد ثقل عليهم الخراج. وها هنا أمر سهل منهم من هو مكثر ومنهم من لا يقدر على قوته. ونحن نعرف حال سائر النصارى فان رأيت أن تولينى أمرهم واستخرجت الخراجات» فولاه قرة بن شريك أمر خراج الرهبان والأساقفة وان كان الواضح من هذه الرواية أنه ولاه أمر الجزية والخراج عامة، ويؤكد ذلك أن قرة بن شريك قد أوصى يونس أن يضاعف الجزية على غير القبط[٢] وهكذا رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة فى أيدى الذميين. على أن هذا النظام لم يكن من مميزات حكومة قرة بنى شريك أو العهد الأموى، وانما كان من مميزات النظام المالى نفسه الذى تركه البيزنطيون لخلفائهم العرب[٣].

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة. ص ١٣٣ جـ ٢.
(3) Lammans: Un Gouverneur Omaiyade, p. 115.

الجسد، فلما اتفق له هذا الأمير وهو متوجه إلى مصر سار صحبته [البطرك ديونوسيوس] اليها حتى وصل إلى مصر، فلما نظره ابونا انبا يعقوب فرح فرحا عظيما روحانيا وتلقاه احسن تلق وتهللت جميع كورة مصر بمشاهدتهما بعضا لبعض. وكانو الكهنه المصريون يقرو قدامهما من قول داود: الرحمه والعدل التقيا والصدق والسلامة اقبلا الينا. ثم اقام الاب ديونوسيوس البطرك بانطاكيه عند الاب انبا بعقوب البطرك اياما كثيرة

وفى الوقت الذى نجد فيه بعض الولاة فى مصر يستخدمون الذميين فى شئون الحكم والادارة نجد بعض الخلفاء الأمويين، يعارضون هذه السياسة، وينهون ولاتهم فى مختلف الأقاليم الاسلامية عن استخدام أهل الذمة، والاعتماد على المسلمين بدلا منهم. ومن هؤلاء الخلفاء عمر بن عبدالعزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) فقد كره هذا الخليفة ـ كما كره الخليفة العباسى المتوكل بعد ذلك ـ استعمال الذميين فى الادارة وأعمال الدواوين. وتعددت روايات المؤرخين حول تفسير سياسته واتجاهاته ولكن كتبه العديدة التى وجهها الى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية، جاء فيها توصيات بعدم استخدام أهل الذمة، واحلال المسلمين محلهم. ويجدر بنا الاشارة الى بعض هذه الكتب ومنها: «أما بعد، فان المشركين نجس حين جعلهم الله جند الشيطان، وجعلهم الأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فأولئك لعمرى مما تجب عليهم لعنة الله، ولعنة اللاعنين. ان المسلمين كانوا فيما مضى. اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك، يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير، فكانت لهم فى ذلك مدة، فقد قضاها الله.. فلا أعلم كاتبا ولا عاملا فى شىء من عملك، على غير دين الاسلام الا عزلت واستبدلت مكانه رجلا مسلما. فان محق أعمالهم محق

ليشبع كل واحد منهما من قدس الاخر فبدو
اساقفة كورة مصر ان يحضرو خصايم [متلازمين]
بين يدى الاب ديونوسيوس لاجل الارشيد ياقن
الذى لابينا الاب انبا يعقوب من اجل انه خوّله
كلما بدينا وقلنا، فبدا الاب ديونوسيوس مثل من
يريد ان يذكر لهذا القديس انبا يعقوب ان يردع
الارشيد ياقن وان لا يكون فيه ضجر على الاساقفه
ولا يخاطبهم الا بما يجب. فلما سمع ذلك العمود
المضى انبا يعقوب نبعت منه روح النبوه وقال

أديانهم، فان أولى بهم انزالهم منزلتهم، التى أنزلهم الله بها من الذل والصغار، فافعل ذلك، واكتب الى كيف فعلت»[1].

وهكذا أمر هذا الخليفة عماله باستخدام المسلمين، فان لم يكن فيهم خير، فغيرهم من الذميين أولى ألا يكون فيهم خير أيضا[2]. وكان والى مصر آنذاك حيان بن شريح، الذى احتج لدى الخليفة بأن هذا الاجراء، سيؤدى الى اعتناق معظم أهل الذمة فى مصر الاسلام،

---

(١) عبدالله بن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ . ابن النقاش. الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٣، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ تاريخ. ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ق١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ويزيد فى النهاية هذا الكتاب «وأمر بمنع اليهود والنصارى من الركوب على السروج الا على الأكف. وليكتب كل منكم بما فعله من عمله».

(٢) ابن كثير: عمر بن عبدالعزيز. ص ٩١ ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن هذا الخليفة كره أن يكون للذمى سلطان على المسلمين. وأن بعض كتبه الى ولاته فى هذا الشأن يعد رسالة تعليمية، جاء فيها «أما بعد، فان الله عز وجل. أكرم بالاسلام أهله، وشرفهم وأعزهم، وضرب الذل والصغار على من خالفهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة، فتبسط أيديهم وألسنتهم، وتذلهم بعد أن أعزهم الله. ونهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى. فان الله عز وجل يقول: ﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَتخذُوا بطانَةً مِن دُونكُمْ لا يَألُونكُمْ خَبالاً ودُّوا ما عنِتُّمْ قد بدتِ البَغْضاءُ من أفواهِهِمْ وما تُخفِي صُدُورهُمْ أكبرُ قدْ بيَّنَّا لكُمُ الآيات إن كُنتُمْ تعقلُون﴾. ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص ٢٣.

للاب ديونوسيوس: وكيف حتى استجرو الاساقفه
وقالو فيمن هو مصطفى الله ومبشر به فطوبى له
مثل الذى عمل ساعة واحده فى الكرم مع
صاحب الاحدى عشره ساعه فاخذ اجرة النهار
اجمع، فلما سمع ديونوسيوس البطرك كلام الاب
انبا يعقوب البطرك ونظر الى روح القدس يتلالا
فى وجهه وضع له مطانوه وقال كما قال داود
النبى: كما سمعنا كذلك راينا. انا اومن انى

مما ينتج عنه قلة الجباية، مما يضر بموارد الخزانة العامة[١]. وكان معظم الولاة حريصين على المحافظة على مستوى الايرادات.

واستجاب والى مصر لأوامر الخليفة، فعزل الموظفين من أهل الذمة من مختلف الأعمال واستبدل بهم غيرهم من المسلمين، كما أبعد أهل الذمة عن العمل فى المواريث، كما نزع منهم رئاسة الكور المختلفة[٢].

وتشير الرواية القبطية الى أن عمر بن عبدالعزيز كتب الى عامله بمصر «من أراد أن يقيم فى حاله وبلاده، فيكون على دين محمد مثله، ومن لا يريد يخرج من أعمالى» فعزل القبط وغيرهم من الذميين من وظائفهم، وجعل مكانهم المسلمين «ودخلت (تسلطت) اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين المسلمين فى كل مكان كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم»[٣].

ولنا أن نتساءل بعد ذلك، هل استمر الخلفاء والولاة، بعد عصر عمر بن عبدالعزيز فى انتهاج سياسة اقصاء الذميين عن المناصب الحكومية والادارية؟

وفى الحقيقة أن الأوضاع قد عادت الى ما كانت عليه قبل خلافة عمر بن عبدالعزيز

(١) ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة، ق١، ص٢١٣.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٦٩ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ١، ص٢٣٨.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦٣ جـ ٢.

شـاهدت انسـانا له عند الله منزلة ان يشـفع فى
كورة مصر. ثم سال ابانا البطرك يعقوب ان يدعه
ليمضى الى كرسيه فدفع له كرامات عظيمة كقدر
رياسته ثم ودعه هو والاساقفه بسلام يمجدون الله
ويباركونه لاجل مشاهدتهم لقدسه وحسن صورته
وهيبته وعفافه.

فلما وصل الى المشرق بلد سوريه كان يحدث
بما شاهده من قدس ابينا انبا يعقوب ويشكر السيد
يسوع المسيح الذى يمجد اصفياه.

واستمرت سياسة استخدام الذميين في الادارة وأعمال الدواوين، فكان من بينهم الكتاب ورؤساء الأقاليم وغير ذلك من الأعمال طوال عصر الولاة الأمويين فى مصر، بل وفى عصر الولاة العباسيين، بتأييد من الخلفاء أنفسهم الا فى عدة حالات كما سنرى وذلك بسبب كفائتهم التى كانت تنقص العرب والمسلمين منهم.

أختار الخليفة العباسى المأمون (١٩٧ ـ ٢١٨هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣م) معاملة أهل الذمة وخاصة زعماء القبط فى مصر بدهاء لأنهم كانوا مفاتيح حكمه فى البلاد. فقد قدم الى مصر فى سنة ٢١٧هـ للقضاء على ثورات المصريين فى الدلتاء والحوف بعد أن فشل قواده الأتراك فى انجاز ذلك، وصحب معه جيوشه الجرارة، وظل يدمر ويقتل كل ما يقابله من الثوار المصريين ويحرق أراضيهم ومحاصيلهم وحيواناتهم حتى ابادهم وأسر من بقى من أهالى تلك البلاد وحملهم إلى مستنقعات جنوب العراق للعمل كعبيد لتعميرها واصلاحها. فى اعقاب ذلك. تقدم اليه أحد كبار رجال القبط ويسمى بكام، وطلب من الخليفة أن يوليه كورة بورة[1] فعرض عليه المأمون اعتناق الاسلام حتى يمكن له أن يعهد اليه بهذه الولاية. ولكن بكام كان متمسكا بدينه فى الوقت نفسه الذى كان فيه شديد الحرص على الولاية، فقال للخليفة

(١) بورة مدينة على ساحل النيل، بالقرب من دمياط. وتنسب اليها العمائم البورية والسمك البورى.
انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٥٠٦.

فاما الامير عبدالله بن طاهر فعند وصوله الى مصر ولى اميرا من اصحابه على مدينة اسكندريه وعلى جباية الخراج بها وباعمالها، واسم الذى ولاه ايلياس بن يزيد(*).

(*) هو إلياس ابن أسد ابن سامان خدا.

فاما [حكاية] ذلك الشماس الذى لابينا يعقوب فسها عن الخطاب الذى كان خاطبه به أولا وهو قوله له أنه لا يمد عينه الى شى من امور العالم، وعمد الى ضياع اراضى اخد منها بقطا وظن

المأمون: «لأمير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم، أفلا يكون له مولى واحد نصرانى». وعند ذلك عهد اليه المأمون بكورة بورة وما حولها[1].

أحسن بكام معاملة القبط، كما أحسن معاملة المسلمين، على حد سواء، ولم يتحيز لاخوانه فى العقيدة المسيحية، فكسب بذلك محبة وود سكان الكورة على اختلاف مذاهبهم الدينية[2].

وفى عهد الخليفة المأمون أيضا، كان يلى الديوان فى مصر، أحد القبط ويسمى اسحق بن أندونة، ينتسب الى أسرة عريقة تشتهر بالثراء. وكان قد أمل فى البطركية الا أن قانون البيعة قد حال بينه وبين تحقيق آماله[3].

وتشير بعض الروايات التاريخية الى أن المأمون حينما قدم الى مصر شكا اليه المسلمون من تسلط الذميين عليهم، وأن الخليفة سأل أحد أصحابه، ويسمى، عمرو بن عبدالله الشيبانى عن أصل قبط مصر، فأجابه بأن أصلهم يرجع الى فراعنة مصر القدماء وذكره بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد نهى عن استخدامهم فى أعمال الحكومة والكتابة. ثم قرأ عليه قصيدة لخالد

(1) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص58. ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص 24.

(2) ابن بطريق: المصدر السابق، ص58، ترتون: المصدر السابق، ص24 ـ 25.

فأذن للقبط ببناء كثير من الكنائس. كما سمح للمسلمين ببناء مسجد آخر غير المسجد الموجود.

(3) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص 790 جـ2.

بذلك انه يحصل شيا للبيعه ولم يعلم ان سوف
يتم ما قاله وتنبا الاب يعقوب. فلذلك لحق الاب
والشماس احزان كتيره لما الزما به من الخراج
وليس معهما ما يقومان به، وكان الاب المبارك
يقول قول الحكيم بولس الرسول لذلك الشماس:
ما كان يجب لك يا ولدى ان تجعل عليك حجه
بل تسمع ما وصيتك به بامانه ومحبه للسيد
المسيح . او ما سمعت يا ولدى ما قاله بولس[*]:
ان الذين يريدون ان يكونو اغنيا يقعون فى البلايا

(*) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس: ٩، ١٠.

بن صفوان، مدح فيها عمرو بن العاص، كما حرضه فيها ضد القبط وأغراه بهم، وفيها يقول خالد بن صفوان:

يا عمرو قد ملكت يمينك مصرنا ... وبسطت فينا العدل والأقساطا
فاقتل بسيفك من تعدى طوره ... واجعل فتوح سيوفك الأقباطا
فيهم أقيم الجور فى جنباتها ... ورأى الأنام البغى والافراطا[١]

فلما عاد الخليفة المأمون الى بغداد أمر بعزل جميع الذميين من وظائفهم وسجن الكثير منهم[٢].

استمر ولاة مصر فى العصر العباسى. يستخدمون الذميين فى أعمالهم، ويعتمدون عليهم فى ادارة البلاد. فقد قام كل من مقارة بن يوسف ـ وكان يتولى شئون بيت المال واستخراج

(١) ابن النقاش: الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ ـ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة. ق١، ص٢١٧ ـ ٢١٨. ويزيد بيتا رابعا جاء فيه:

عبدوا الصليب وثلثوا معبودهم ... وتوازروا ونقدوا الأشراطا

(٢) ابن النقاش: الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ ـ ٨٧. ويقول ان الامام على بن حمزة الكسائى كان يقرأ القرآن على الخليفة بعد عودته الى بغداد، فلما وصل الى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ قال الكسائى للخليفة: انك تقرأ كتاب الله ولا تعمل بما جاء فيه. ولذلك أمر بعزل الذميين من أعمالهم. واستخدم المسلمين بدلا منهم.

والعثرات وشهوات الجهل اللاتى لا يربحن شيا، ويطرح الناس فى الفنا والهـــلاك . واصل كل الشرور محبة الفضه التى احبها قوم كتيرا فضلو عن الامانه وجذبو لهم هموما عظيمه، فبكى ذلك الشماس وساله ان يغفر له مخالفته.

وبدا ذلك الامير ان يشدد على الاب فى طلب الخراج، ولم يكن معه ما يدفع كما ذكرنا من عدم البيعه لانقطاع الناس عن الحضور الى بيعة القديس

لأموال - وابراهيم بن ساويرس، بدور عظيم فى سياسة البلاد، وذلك فى أثناء ولاية عبدالواحد بن يحيى الوزير (٢٣٦ - ٢٣٨هـ = ٨٥١ - ٨٥٢م) - وكان هذان الموظفان من القبط، يرفعان من شأن اخوانهم فى العقيدة، ويحققان لبطركهم رغباته بقدر المستطاع. وظهر هذا واضحا حينما أساء والى الاسكندرية، أحمد بن دينار، الى البطرك اليعقوبى قزمان[١]. فقد تقدم مقارة بن يوسف، وابراهيم بن ساويرس الى الوالى عبدالواحد، يطلبان منه استدعاء البطرك قزمان الى الفسطاط بحجة أنه ولى البطركية حديثا، ولا علم له بما على كنائسه من خراج.

واستجاب عبدالواحد لطلب هذين القبطيين، وأرسل من يستدعى البطرك من الاسكندرية. فلما قدم الى الفسطاط، استقر الأمر على أن يسكن مدينة دميرة[٢]، وجميع سكانها من القبط، كما اهتم هذان القبطيان بأمور البيعة وتعهدا بضمان الخراج المفروض عليها[٣]. وهكذا نجح الموظفان القبطيان فى انقاذ البطرك القبطى من يد والى الاسكندرية.

(١) ويسمى أيضا قسما وقد جلس على كرسى البطركية بعد وفاة أنبا خايال. وكان شماسا فى بيعة القديس أبى مقار. وأصله من سمنود انظر الجزء الثالث من ساويرس.

(٢) قرية كبيرة بمصر بالقرب من دمياط: انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٨، ص٤٧٢.

(٣) ساويرس ابن المقفع: المصدر السابق، سيرة البطرك قسما وهو ٥٤ من العدد. ويعلق على عناية الموظفين القبط باخوانهم وبطركهم فيقول: «وكان من نعمة الله أن جماعة من المؤمنين متولين ديوان السلطان ، =

الشهيد مارى مينا لكترة الحروب، ولما لم يجد شيا يدفعه فى الخراج اخرج انية [أوانى] البيعه للامة المخالفه. والرب محب البشر الذى يظهر عجايبه فى كل حين فى بيعته وجعلها غالبة للملوك فى كل زمان، اظهر اعجوبه يجب ان نتعجب منها، لما جلس الامير يوما من الايام ليكسر الآنية وفيما الصايغ يكسر كاسا من الكاسات المقدسه سكب دم على يديه كتيرا جدا مثل دم خروف قد ذبح، فلما نظرو هذه الاعجوبه نزل عليهم خوف عظيم

وظهر فى العصر العباسى بعض الكارهين لاستخدام الذميين فى المصالح الحكومية ـ كما حدث فى العصر الأموى من قبل ـ فقد حاد الخليفة العباسى المتوكل (٢٢٣ ـ ٢٤٧ = ٨٤٨ ـ ٨٦١م) عن سياسة التسامح التى اتبعها بعض الخلفاء العباسيين فعانى أهل الذمة فى عصره من بعض المضايقات. فقد نهى المتوكل عن استخدام أهل الذمة فى دواوين الحكومة التى ترتبط بمصالح المسلمين[١].

تعددت روايات المؤرخين حول سياسة المتوكل نحو أهل الذمة، وكتبه الى عماله بضرورة اتباعها، واقصاء الذميين عن مختلف الأعمال. وهناك كتاب للمتوكل فى هذا الشأن وفيه يوصى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية، بأن يكون موظفوهم من أهل الأمانة والنصح، وهو يرى أن هذه الخصائص لا تتوافر عند أهل الذمة، فنراه فى هذا الكتاب يقول: «فأما الأمانة، فليس أحد منهم مأمونا على أموال الفىء وأمور المسلمين، لأنهم عداة الدين ونعاته.

= وجميعهم يبذلون أنفسهم مع البيعة شهوة واجتهادا عن أمانتهم، وأراحوا البطرك والبيعة والمؤمنين وصاروا تحت هدوء وسلام ولا يوجد موضع واحد فيه اضطراب فى تلك الأيام».

(١) ساويرس ابن المقفع. المصدر السابق البطرك قسما وهو ٥٤ من العدد. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٧، ص٣٥٥، ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص٢٨٥.
ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ق١، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

وخاف الامير وكلمن حضر وامر ان لا يكسر شي
منها، ثم انه خاف ان يجعلها في خزاينه فامر
باعادتها إلى الاب وأمره اشد بالقيام بمال الخراج
فناله صعوبه عظيمه قبل ان يوفى ما عليه من
الخراج، ثم بعد ذلك عزل الامير بمدينة اسكندريه
وسار الى كورته ولحقه علة هناك وكانت علة موته.
وبعد ايام كثير ذكر العجب العظيم وهو خروج
الدم من الكاس، وفى ذلك الوقت تقدم الى اولاده

وأما النصيحة، فغير موجودة عند من كان مقامه بين ظهرانى المسلمين على.. قهر وذلة وصغار»[1].

ونهى المتوكل فى كتابه هذا، عن استخدام الذميين فى شيء من أمور المسلمين، وأموالهم وتدبير خراجهم، فلا يكون منهم فى الدواوين الخاصة والعامة فى العاصمة والنواحى، وأعمال الجهبذة والمعادن والبريد وسائر الأعمال[2].

وفى الوقت نفسه حدد المتوكل فى كتابه، بعض الحالات التى يمكن استخدام المسلمين لأهل الذمة فيها فكتب: «من كان متقلدا لعمل من خاص أعمال أمير المؤمنين ونفقاته، ولا يد له، ولا سلطان على المسلمين. فان اقراره فى ذلك العمل، ريث ما يؤخذ بما جرى على يده، ويجار لمكان غيره من المسلمين ثم يصرف عنه، وخلا من استعان به مستعين فى قهرمته (خدمه) وخاصة نفقات منزله وحشمه»[3].

---

(١) ابن زبر القاضى (أبو محمد عبدالله بن أحمد): شروط النصارى ورقة ١٦، مخطوط بدار الكتب تحت رقم (٣٩٥٢ تاريخ).
(٢) المصدر نفسه، ورقة ١٧.
(٣) المصدر نفسه، ورقة ١٧، ١٨.

واكد عليهم بان ينفذو الى مصر بالمال الذى اخذه من البطرك ليسلم الى من يوجد بطركا على مدينة اسكندرية ففعلو اولاده ذلك [فى ايام من يذكر فيما بعد] وتمت هذه الاعجوبه فى ايام من استحق ان تتم على يديه، كما انا نظهر الامر لمحبتكم عند تمام هذه السيره.

فاسمعو عجبا اخر أيضا ظهر فى ايام هذا القديس انبا يعقوب البطرك لما كان فى ايام ايلياس

كما هدد المتوكل عماله، اذا تهاونوا فى تنفيذ ما جاء فى هذا الكتاب، أو حاولوا الاغضاء عن أحد من أهل الذمة، باخفاء أمره تحت اسم غيره من المسلمين[1]. ونرى أن كل ما كتبه المؤرخون الأقدمون عن سياسة المتوكل ازاء أهل الذمة، كانت كتابات عامة، ولا نجد كتابات مفصلة - الا نزرا يسير - عن الاجراءات التنفيذية التى اتخذت فى هذا العصر فى مختلف الأقاليم الاسلامية.

ولى الخليفة المتوكل على مصر، رجلا فارسيا مسلما يسمى عبدالمسيح بن اسحق وجعل له الولاية والخراج، وأمره أن ينتهج سياسة نحو القبط وكنائسهم مثل سياسته نحو النصارى فى

(١) المصدر نفسه. ورقة ١٨ . ويذكر القلقشندى كتابا للمتوكل جاء فيه «وقد انتهى الى أمير المؤمنين ان أناسا لا رأى لهم، ولا روية، يستعينون بأهل الذمة فى أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية، فيعسفونهم، ويبسطون أيديهم الى ظلمهم وغشهم. والعدوان عليهم. فأعظم أمير المؤمنين ذلك، وأنكره... وتبرأ منه. وأحب التقرب الى الله بحسمه والنهى عنه. ورأى أن يكتب الى عماله على الكور والأمصار، وولاة الثغور والأجناد فى ترك استعمالهم لأهل الذمة فى شىء من أعمالها وأمورهم. والاشراك لهم فى أماناتهم وما قلدهم أمير المؤمنين واستحفظهم اياه...» وأشار الخليفة فى كتابه هذا الى ما يتميز به المسلمون دون الذميين من الثقة والأمانة والدقة وغير ذلك.
انظر: صبح الأعشى، جـ١٣. ص٣٦٨.

الامير الوالى باسكندريه. توفى اسقف فى الصعيد على كرسى «فاو»(*) فانفذو انسانا للبطرك يوسمه عوضه، فخاف الرجل [ان] يطلع الله البطرك على اعماله فيمنعه فمضى الى الامير ودفع له مالا وساله ان يتقدم الى الاب البطرك انبا يعقوب باصلاحه، فلما سال الامير فى اصلاحه امتنع الاب البطرك لقوة اعتقاده وتشدده فى القوانين، فسالوه الحاضرون وقالو له: تجيب [توافق] سوال الأمير ليلا [لئلا] يجرى عليك وعلى البيعه شر.

(*) فاو: تعرف الآن باسم فاو قبلى لأنه أقيمت قرية حديثة باسم فاو بحرى. وهى تابعة لمركز دشنا قرب مدينة الأقصر.
كان اسمها القبطى فابو Phebôou.

بغداد والمشرق. فأنزل عبدالمسيح بالقبط كثيرا من الاضطهاد، وأخرجهم من الديوان ومن كثير من المصالح الحكومية، وولى مكانهم موظفين من المسلمين(١).

ثم أمر المتوكل واليه على مصر، ببناء المقياس الهاشمى للنيل، وبمنع القبط من تولى أمره، وأن يعهد بذلك الى المسلمين(٢). ولكن هذه السياسة التى انتهجها المتوكل، لم تدم طويلا، وعاد ولاة مصر الى استخدامى الذميين فى أعمالهم، وفى ادارة البلاد.

وتشير بعض أوراق البردى الى استخدام القبط بصفة خاصة فى تحصيل الجزية والخراج، سواء أكان ذلك قبل عصر الخليفة المتوكل أم بعده. فنجد ورقة بردية، يرجع تاريخها الى ١٣

(١) ساويرس ابن المقفع تاريخ البطاركة. سيرة البطرك قسما وهو ٥٤ من العدد. ويصف هذا المؤرخ ما صارت عليه أحوال القبط الموظفين منهم وغير الموظفين والبطرك تحت ضيقة عظيمة، وصعوبة، من هذا الذى ليس بانسان. ومن قوة أمانتهم لما صرفوا من أشغالهم، توكلوا على رحمة الله تعالى ذكره وسألوا أن لا ينساهم. فأما أبونا البطرك، لما شاهد الأراخنة وما نالهم من الصعوبة من ذلك الشيطان والبطالة، وقطع معايشهم، وأنهم الذين كانوا يهتمون بأمور البيعة كان حزينا جدا وقد أحملت كتب المؤمنين الى الأب البطرك، يسألونه الدعاءلهم. وكانوا أيضا يكاتبون الآباء الصالحين المنقطعين الى الله فى الجبال والديارات بمواصلة الدعاء لهم وللمؤمنين بالمسيح، أن يكشف الله عنهم هذه الغمة، ولا ينساهم، ولا يدعهم تحت رجزه وغضبه».
(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص٢٠٣.

ولم يزالو يلطفون به الى ان اصلحه اسقفا، فلما
سار قال عليه امرا هو هكذا مثل قول بطرس
لسيمون الساحر فى ذلك الزمان فقال: موضع
توكل هذا الاسقف على اخذ النعمة به فهو
يضمحل بعد قليل، فتكون النعمه التى نالها بعيده
منه. فلما سار وقرب من كرسيه اعتل فى الطريق
ومات قبل ان ينظر الكرسى. فمن الان لا يخاف
من هذه الاعمال العجيبة فيمجد الله الذى

طوبة سنة ٢٣٣هـ (١٠ سبتمبر سنة ٨٤٧م) جاء فيها أن القسطال[١] لكورتى الأشمونين وأسفل انصنا وقوص، كان قبطيا ويسمى مينا بن ابراهيم[٢]. وهناك بردية أخرى مؤرخة فى سنة ٢٤٩هـ (٨٦٣/٨٦٤م) وفيها أن القسطال كان قبطيا ويسمى ابن ابهيوه[٣]. كما تشير بعض أوراق البردى الى أن رؤساء القرى فى القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى، كان كلهم من المصريين القبط تقريبا[٤].

والحقيقة أن المصريين القبط بصفة خاصة، دون غيرهم من أهل الذمة، كان لهم دور واضح فى ادارة البلاد المصرية ـ كما ذكرنا ـ فكان منهم الكتاب وعمال الدواوين وحاكم الأقاليم وعمال ديوان الخراج، وكانوا يستفيدون دائما من مناصبهم فى خدمة اخوانهم القبط ورعاية كنائسهم، وتوفير كل سبل الراحة لبطركهم. ونبحث فيما يلى موقف ولاة مصر المسلمين فى ذلك العصر، من اقامة البطاركة.

---

(١) ويكتبها البعض بالجيم بدلا من القاف. والقسطال لقب يطلق على الموظف المشرف على مالية الكورة، أو بمعنى آخر مندوب ديوان الخراج والأموال. ويرى جاستون فيت G. Wiet أن كلمة جسطال تقابل الكلمة البيزنطية أوجستاليوس. انظر سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص٢٦.

(٢) جروهمان: أوراق البردى، جـ١، ص١٣٤، ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٥، واسم القرية التى كان يقوم بتحصيل خراجها غير واضح.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٠.

يظهرها من هذا المصطفى. ولو انا نذكر يسيرا من كثير سمعناه من عجايب هذا القديس وجهاده الجيد لكثر القول جدا ولا نقدر ان نشرحها لضعف عقولنا المظلمه عنها، لكن نذكر مما يجب ذكره ونشرح تمام جهاده ربحا لمن يسمع وبركه.

لما كان عند توجهه الى الشرق ليفتقد البيع والشعب ووصل الى ضيعة تسمى بيت [منيت] تشمت احضروا له شابا به شيطان قد اخرسه

كان والى مصر له حق الاشراف على اختيار بطرك القبط. باعتبار الوالى نائب الخليفة، فى مصر. ويبدو من النصوص التاريخية أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى فى اختيار البطرك، كما أنهم كانوا يقدمون من الاسكندرية الى العاصمة ـ الفسطاط ـ بعد اختيارهم للبطرك، لمقابلة والى مصر، وتقديم واجب التحية له. وكانت موافقة الوالى على البطرك الجديد. شرطا ضروريا لاتمام رسامته بطركا.

وهناك أمثلة عديدة، منها، ما حدث فى ولاية عبدالعزيز بن مروان، عندما توفى البطرك يوحنا الثالث (يوحنا السمنودى) (٦٧هـ ـ ٦٨٦م) فقد اجتمع الأساقفة والكهنة والقبط بالاسكندرية واتفقوا فيما بينهم على ترشيح الشماس جرجه، بطركا دون مشورة الوالى عبدالعزيز بن مروان كالعادة ، وأنه اذا اعترض على ذلك، يخبرونه بأن البطرك يوحنا كان قد أوصى به أن يكون بطركا من بعده، وأنه لا يمكن مخالفة هذه الوصية. وبالفعل عينوا جرجه فى درجة قسيس. وألبسوه الثياب الخاصة بذلك وقرروا رسامته بطركا فى غد ذلك اليوم[1].

---

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، سيرة البطرك اسحاق وهو رقم ٤١ من العدد ص ٤٤ جـ٢.

واطرشه وسالوه ان يضع يده عليه، وان الاب اخذ
زيتا يسيرا من على عظام القديس ساويرس ودهن
به الصبى ورسم على وجهه واذنيه وقال: باسم
السيد يسوع المسيح الذى انقذ خليقته من عبودية
الشيطان ليعف هذا الشاب وينحل عنه رباط
الشيطان . وللوقت عوفى وانفتح فوه واذناه وتكلم
وسمع، وكلمن ابصره تعجب ومجدو الله
بالحقيقة.

ومن محاسن الصدف، أن اليوم الذى تقرر تنصيب القس جرجه فيه بطركا، لم يكن يوم أحد، وقد جرت العادة بين القبط على أن يتم تعيين بطاركتهم فى يوم الأحد دون غيره من أيام الأسبوع. وقد أدرك ذلك أرشيدياقن[١] المدينة، ويسمى مرقس، فمنعهم من تنفيذ رغبتهم فى رسامة جرجه بطركا، فى غير يوم الأحد، حتى لا يخالف القوانين الكنسية التى جرت العادة بمراعاتها واتباعها[٢]. وفى ذلك اليوم قدم الى الاسكندرية رسل الوالى عبدالعزيز بن مروان، وطلبوا من الأساقفة والكهنة وبطركهم المرشح، الرحيل معهم الى الفسطاط لمقابلة الوالى عبدالعزيز، ولكن ما لبث أن اكتشفت حقيقة الأمر، وفطن الجميع الى أن جرجه، ليس هو الذى أوصى به البطرك يوحنا، ليكون خلفا له، وانما الأب اسحق. فغضب عبدالعزيز بن مروان لذلك أشد الغضب، وأبطل تعيين جرجه، وأمر باقامة الأب اسحق بطركا بدله[٣].

---

(١) Archdeacon وهو رئيس الشمامسة ويكون مسئولا عن نظام الكنسية ونظافتها. كما يكون من مهامه الاشراف على أملاك الكنائس ومساعدة الأسقف فى أعماله كما يكون حريصا على مراعاة العادات والتقاليد والقوانين الكنسية. انظر: The Oxford Dictionary of Christian Church, p. 79.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ٤٦ جـ٢ ، ويقول: «وهذا أمر من الله، ليقدم من اصطفاه، أولا وهو أبا اسحق الراهب من أهل شبرا» انظر أيضا:

Amélineau: Hist, du. P. Isaac. pp. 444-5.

(٣) ساويرس ابن المقفع: المصدر السابق، ٤٦ ، ٤٧ جـ٢ Ibid., pp. 45-47.

وكان هذا الاب فى قدسه مثل التلاميذ لما صبر عليه من التجارب وما تتم على يديه من العجايب [مثل] احيا[ء] الميت واخرج الشياطين، واعلا [مرضى] كثير ابرأهم، والسيده ام النور ظهرت له [وتكالمه] قبل ان يصير بطركا، والسيد المسيح ايضا والقديسون الذين استحق ان يراهم.

ثم انه اشتهى ان يقيم فى مدينة «تندا» اياما قليلا عند عبوره عليها، فلما اقام بها شهد لنا بعض الاساقفه من الثقات الصادقين وقال: انى

وبعد وفاة البطرك اسحق، حدث خلاف بين الأساقفة والكهنة والشعب القبطى على من يصبح بطركا بعد وفاة الأب اسحق. فرأى قوم منهم، أحقية يوحنا، وكان راهبا بدير الزجاج، كما كان رجلا عالما كاتبا. فى حين اختار الآخرون الأب بقطر، وكان أيضا ممن اشتهروا بالفضل والعلم. ورجحت كفة الفريق الأول، فقد كان من بينهم أعضاء الكنيسة الانجليلية التى تضم مائة وأربعين كاهنا. فكتب حاكم مدينة الاسكندرية تادرس الى الوالى عبدالعزيز بن مروان، يخبره باتفاق القوم على اختيار الأب يوحنا بطركا لهم[1]. مما يثبت ضرورة موافقة والى مصر على تنصيب البطرك الجديد. وتوجه تادرس وفى صحبته البطرك المرشح وبعض الكهنة الى الفسطاط ـ كما جرت العادة ـ للقاء الوالى وتقديمى الولاء والتحية له. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد اعترض أحد الأساقفة على اقامة يوحنا بطركا، مما أصاب الجميع بذهول عظيم. فلما سأل الأمير هذا الأسقف، عمن يصلح لهذا المنصب، رشح الأب سيمون[2].

---

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة ص ٥٩ جـ٢.

(٢) المصدر نفسه. ص ٥٤ وما بعدها جـ٢. كان والدا الاب سيمون قد حضرا به الى الاسكندرية، حيث قدماه قربانا للبيعة لأجل جسد القديس ساويرس. فأخذ تادرس سيمون فى بطركية الأب أغاتون، وعهد الى الأب يوحنا ـ وكان شماسا ـ ليعلمه قوة الكتابة وفصول الكتب [والعلوم البيعية] فتعلم سيمون الكتابة القديمة، وكثيرا من الحديثة فى زمن يسير. ولما أدرك البطرك أغاتون صلاحيته، أوسمه قسا. وكان يلى الأب يوحنا فى الدرجة فى دير الزجاج. انظر كذلك السنكسار، جـ٢، ص٢٣٣.

مضيت اليه لافتقده واخذ بركته، فلما وقفت على باب موضعه سمعته يقول كلاما خفيا وهو : يا سيدى وام سيدى انا اسالك ان تغفرى لى و انا مستعد لما تامرينى به وان اتممه واكون حافظا له الى النفس الاخير. قال الاسقف: ولما عولت ان اتطلع من الباب الذى هو داخله وقبل وصولى صاح بصوت عظيم: من هذا الذى يرى. فخفت من هيبته ورجعت الى وراى فسمعته يقول: الله

علم عبدالعزيز بن مروان أن الأب سيمون هذا، من أصل سريانى، من أهل المشرق. فقال للأساقفة المجتمعين: «فما تقدروا أنتم أن تقيموا واحدا من بلادكم» فأعلموه أنه لا يوجد أفضل من يوحنا، وأنهم يختارونه بطركا لهم، وأن الأمر لله وللوالى. وسأل عبدالعزيز سيمون عن رأيه فى الأب يوحنا، فأجابه: «ما يوجد فى كورة مصر، ولا فى المشرق من يستحق مثل هذا، وهو أبى الروحانى، وربانى من صغرى، وسيرته سيرة الملائكة». وانتهى الأمر باتفاق الأساقفة والكهنة وغيرهم من الحاضرين على اقامة سيمون بطركا لهم، ووافق الوالى عبدالعزيز على رأيهم[١].

وكان قد حدث بعد وفاة الأب سيمون (٨٢هـ = ٧٠١م) أن خلا كرسى البطركية حوالى ثلاث سنوات، وتولى شئون الكنيسة خلالها الأسقف اغريفوريس. وفى ختام هذه السنوات الثلاث، اتفق الأساقفة والكهنة على ترشيح القس الاكسندروس بطركا، وكان راهبا بدير الزجاج، عالما بالكتب. وطبقا للعادة المتبعة، قدم القوم معه الى الوالى عبدالعزيز بن مروان الذى أجابهم الى رغبتهم، ووافق على اختيارهم، وأقيم هذا القس بطركا فى عيد القديس مارى مرقس فى (٨٦هـ = ٧٠٥م = ٤٢٠ ش)[٢].

....

(١) ساويرس ابن المقفع: المرجع السابق، ص ٥٤ وما بعدها جـ ٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: المرجع السابق، ص١٠٢ / ١٠٣ جـ ٢.

يغفر لك أيها الاخ الذى منعنى الا اشاهد مجد سيدتى ونورها وتركها ان تمضى عنى.

فلما نظر الطوباوى البطرك هذه الاسرار العظيمه التى ظهرت شهد ان ما يجلس احد من البطاركه على هذا الكرسى الا من يختاره الرب، لكن الشيطان يقاوم تقدمتهم ولا يدعهم ان يفعلو الخير، وقوم يقولون فى قلوبهم: إن تقدمنا واخذنا الدرجه، هو من مولدنا، وليس هو هكذا بل رب المجد هو الذى يختار. والاب انبا يعقوب القايل هذا

وتحفظ لنا النصوص التاريخية مثلا آخر، لتدخل الولاة فى اختيار البطرك، وضرورة موافقتهم على اقامة البطرك الجديد. فلما تولى حفص بن الوليد حكم مصر ـ للمرة الثانية ـ (١٢٥هـ = ٧٤٣م) ـ فى عهد الخليفة هشام بن عبدالملك ـ اجتمع اليه الأساقفة والكهنة من جميع أرجاء مصر، وسألوه أن يأذن لهم فى اقامة البطرك. فأذن لهم حفص، بترشيح من يرونه يصلح لهذا المنصب، واشترط عليهم أن يلقاه قبل ان يتم تعيينه بطركا. ولكن حدث بين الأساقفة والكهنة، اختلاف فى الرأى كاد يودى بالكنيسة القبطية[(١)].

وانتهى الأمر، باختيار القس (ميخايل) خايال ـ ويسمى أيضا كييل ـ ليكون بطركا. وكان قسا فى بيعة القديس أبى مقار. وبادر المجتمعون الى حفص بن الوليد ليعلموه بما تم بينهم، وأعطاهم كتابا، يطلب فيه من شيوخ وكهنة وادى هبيب، تسليم القس خايال اليهم. ثم أذن لهم باقامته بطركا بعد قدومهم به اليه[(٢)].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٦ / ١٦٧ وكانت الكنيسة القبطية بدون بطرك منذ وفاة الأب تادرس فى ولاية القاسم بن عبيدالله للخراج (١١٦ ـ ١٢٥هـ = ٧٣٤ ـ ٧٤٣م) حتى ذلك الوقت الذى تمت فيه اقامة أنبا خايال بطركا فى ولاية حفص بن الوليد، انظر المصدر نفسه، ص ١٩٢ جـ٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٥٨ جـ٢. وتشير الرواية القبطية الى أن الفريق الذاهب الى وادى هبيب لاحضار أنبا خايال تقابل مع وفد من شيوخ ورهبان هذا الوادى وكان من بينهم أنبا خايال. وكان هذا الوفد قادما=

قبل موته: ان الله [هو] الذى يختار من يقيمه والشيطان مضاد له والله الغالب.

وكانت عادته اذا اراد ان يقسم الاساقفه ان يسهر ويصوم ويطوى حتى يظهر الله له اعمالهم.

وكان يحفظ ايام نياح الابا[ء] من مرقس الانجيلى الى مرقس ابيه بالروح، ويعيد لهم ويلبس فيها ويقدس ان كان فى المدينه او فى الديارات او فى القرى مجدا لسيدنا المسيح وتذكارا لابايه.

فلما أراد الله ان يريحه من التعب وينقله الى

وهكذا كان لوالى مصر حق التدخل فى اقامة البطرك الجديد طوال العصر الأموى. وذكرنا من الأمثلة ما يوضح ذلك ويؤكده. ونجد فى العصر العباسى أيضا من الأمثلة ما يؤكد استمرار هذا الحق لولاة مصر.

لما توفى البطرك يوحنا فى ولاية الليث بن الفضل على مصر (١٨٢ ـ ١٨٧هـ = ٧٩٨ ـ ٨٠٣م) ـ فى عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) اجتمع الأساقفة والكهنة الأرثوذكس بالاسكندرية، واتفقوا على ترشيح القس مرقس بطركا، وكتبوا بذلك الى الأنبا (ميخايل) أسقف مصر[١].

= لتهنئة حفص ابن الوليد بالولاية، وليلتمس منه ازالة الظلم الذى نزل بهم فى ولاية سلفه ـ القاسم بن عبيدالله ـ وبعد عودة وفد الأساقفة ومعهم أنبا خايال، أخبروا الوالى حفص بن الوليد بما حدث مما أثار دهشته واعجابه. المصدر نفسه والصفحة.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٦٢٧ وما بعدها جـ٢ . وجاء فى هذا الكتاب: «أبوتك تعلم ما جرى علينا من اليتم فى مضى أبونا الطوبانى أبا يوحنا الرابع الى الرب فى هذا الزمان الصعب وتقلب الملوك وأبوتك تعلم أن قطيع خراف بغير راع يدخله الذئب فيشتته وكل مدينة بغير سور العدو يهلكها. ولأجل هذا اجتمعنا فى البيعة العظمى بالاسكندرية والآباء والأساقفة. فقد كتبنا نقول، واحد منا طلب به قلبنا على القس مرقس أن يكون لنا أباه».

مساكن النوارنيين السماويه فظهر له الرب وهو راكب سحابه من نور ومعه الاثنا عشر تلميذا فقال له: تقو ايها العبد الصالح الذى عمل فى وزنات سيده وربح، انا الان اخذك إلىّ واريحك من تعبك وتجلس مع اصحابك الذين جاهدو مثلك وكملت مثلهم.

وقبل هذه الرويا العجيب تنيح زخريا اسقف «تندا» وجلس موضعه الارشيدياقن الذى قدمنا ذكره وقلنا عنه ان يكون وعا[ء] مختارا لله.

ثم قدم انبا ميخايل على الوالى وفى صحبته جميع الرؤسا، القبط ليخبره بما حدث، ويلتمس منه الموافقة على اقامة القس مرقس بطركا. فأمر الوالى بكتابة اسمه فى الديوان وأذن لهم فى قسمته بطركا لهم(١).

وتذكر المصادر التاريخية، مثلا آخر، لدور الولاة العباسيين فى اقامة البطرك الجديد. فبعد وفاة الأب سيمون الثانى (٢١٥/٢١٦هـ = ٨٣٠/ ٨٣١م) بدأ أهالى الاسكندرية يفكرون فيمن يتولى البطركية بعده. وطمع فى البطركية صاحب ديوان مصر اسحق السيد بن اندونة، وكان فاحش الثراء، ووعد حاكم الاسكندرية عبدالله بن زيد بألف دينار، اذ ساعده فى اقامته بطركا للقبط(٢).

وكانت اقامة اسحق بطركا، أمرا يخالف قانون الكنيسة القبطية فى ذلك الوقت لأنه كان علمانيا، ومتزوجا. فرفض الأساقفة تنصيبه، واستقر رأيهم على ترشيح القس يوساب ـ أحد رهبان دير أبى مقارـ وطلبوا من عبدالله بن زيد حاكم الاسكندرية الموافقة

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢٨ جـ٢ . ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص ١٢٢ .
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٧٩٠ وما بعدها جـ٢ .

واعتل ابونا يعقوب البطرك وضعفت قوته، وفى اربعه عشر يوما من امشير تنيح وهو يوم تنيح فيه الاب القديس ساويرس [و] فى اربع ساعات من الليل سمعوه قايلا: جيد يا ابوى ساويرس وديسقرس مجيكما. ورجع قال: العالم كله فى حل بصلوات القديسين. واسلم الروح فى يد الرب ففاح من جسده بخور طيب حتى ملا جميع الموضع.

فلما اصبح الصبح كفنو جسده وقدمو القربان

على تنصيبه بطركا، الا أنه رفض ذلك طمعا فيما وعده به اسحاق من منحه ألف دينار[1].

وغضب الأساقفة من موقف عبدالله بن زيد منهم، وهددوه بالرحيل الى والى مصر بالفسطاط، ليحقق لهم رغبتهم. وانتهى الأمر بموافقة والى الاسكندرية على اقامة الأب يوساب بطركا فى ٢١ هاتور سنة ٥٤٧ش[2] = (٢١٦هـ ـ ٨٣١م). ونستخلص من هذه الرواية أن والى الاسكندرية كان يحل محل والى مصر فى الموافقة على اقامة البطرك وان كنا لم نلمس ذلك فى عصر الولاة الأمويين. ونستخلص أيضا أن الوالى المسلم فى هذا العصر لم يكن يشترط رؤية الشخص المرشح للبطركية قبل قسمته، كما كان الحال فى العصر الأموى.

وبعد أن تحدثنا عن دور القبط ـ بصفة خاصة ـ فى أعمال الحكومة والادارة، وما كان من دور ولاة مصر المسلمين فى اختيار بطركهم، نتساءل عن موقف الولاة المسلمين من كل من

(١) المصدر نفسه، والقس يوساب أصله من منوف العليا. وآباؤه من كبار رجال القبط، وقد خدم حاكم الاسكندرية ثم خرج الى وادى هبيب. ثم أقامة البطرك مرقص شماسا ثم قسا.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٢٧ وما بعدها جـ٢.

تذكارا للابوين المغبوطين ساويرس والاب يعقوب، وكملت رويا الراهب القديس عن الصورتين اللتين راهما تكرزانه بالانجيل.

وهكذا تمت سيرته بشيخوخة حسنه وهو ماسك الكرسى المقدس الانجيلى عشر سنين وثمانية اشهر، وسلم القطيع لرب الصباوت ثابت، واستحق ان يسمع الصوت القايل: تعالو الى يا مباركى ابى ارثو الملك المعد لكم من قبل خلق العالم.

المذهبين المسيحيين فى مصر. الملكانى واليعقوبى؟ وهل كان هؤلاء الولاة ينتصرون لليعاقبة دون الملكانيين؟ أم كانوا يعدلون بين الفريقين؟

كان عمرو بن العاص ـ عقب فتح مصر ـ قد كتب أمانا للبطرك اليعقوبى بنيامين فعاد الى كرسيه، بعد أن غاب عنه ثلاث عشرة سنة. ويصف المقريزى[1] أثر ذلك فيقول: «فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر، ودياراتها كلها، وانفردوا بها، دون الملكانيين».

ومما لا شك فيه أن القبط اليعاقبة كانوا قد تنفسوا الصعداء بعد زوال حكم البيزنطيين، وقيام الحكم الاسلامى فى مصر، نتيجة لما قاسوه من الاضطهاد والظلم فى عهد الرومان. وكان طبيعيا أن يتقرب القبط من الحاكم العربى، حتى يقوى أمرهم على الملكانيين، خصومهم فى المذهب، فقد جاء الوقت لتكون فيه كفتهم هى الراجحة.

وكان أكثر سكان مصر آنذاك من القبط اليعاقبة، وقد تقرب عمرو والمسلمون اليهم كثيرا، وتوددوا اليهم أكثر من الملكانيين أتباع كنيسة القسطنطينية وهم أقلية قليلة، وقد ضعف أمرهم بزوال حكم الرومان فى مصر. وقد سار خلفاء عمرو بن العاص على نفس منوال هذه السياسة.

(١) الخطط، جـ٤، ص٣٩٣ ـ ٣٩٤.

والاخ الذى كان قد تنبا عليه رسمه اسقفا قويا متقنا لا يكنز درهما واحدا غنيا باعمال الرب وبالكتب الروحانيه واستحق ان يغمض عينه بيده وياخذ بركته، ومن قوة امانته جعل جسده فى تابوت وتركه فى مدينته التى هى «تندا» ليتبارك به ويتشفع بقدميه. وبعد أيام يسيرة تنيح الاسقف بصلوات ابيه التى صلاها عليه امام السيد المسيح، له المجد مع ابيه وروح القدس المحيى السماوى من الان والى ابد الابدين امين.

وانتصر المسلمون غالبا للقبط اليعاقبة على الملكانيين. وأخذ القبط كثيرا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد خصومهم الملكانيين. كما انتهزوا فرصة حسن علاقاتهم بالمسلمين لكى يجذبوا بعض الملكانيين الى مذهبهم[١].

كان الملكانيون فى مصر، طوال عصر الولاة، ليس لهم بطرك الا فى فترات محدودة بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة للقبط اليعاقبة. ونذكر فيما يلى الفترات التى تمتع فيها بعض الملكانين بالحرية، وبعض النفوذ والسلطان.

استطاع تاوضوسيوس أحد الملكانيين الخلقدونيين ـ فى خلافة يزيد بن معاوية ـ أن يستصدر من الخليفة سجلا يمنحه السلطة والحكم على الاسكندرية ومريوط وما يليهما، بحيث لا يكون لوالى مصر، سلطان عليه، وقد توصل الى ذلك بعد أن أدى مبلغا عظيما من المال للخليفة يزيد. فتسلط هذا الحاكم الملكانى على القبط وبطركهم أغاثون وفرض عليه الغرامات المالية، ثم حجر على أموال الكنيسة القبطية وأملاكها بعد وفاة البطرك أغاثون[٢] البطرك ٣٩ .

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص١٩٦ ، الراهب البراموسى حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك، جـ١ ، ص٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، ستانلى لين بول: سيرة القاهرة، ص ٧١.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ٥ جـ٢ ، السنكسار، جـ١ ، ص١٢٧ ـ ١٢٨ .

الاب انبا سيمون البطرك وهو من
العدد الحادى والخمسون
٨٣٠م

ولما تنيح الاب القديس الجليل البطرك انبا يعقوب مصطفى الرب ومختاره العمود النير، ومضى الى الرب، وبصلواته التى قدمها له بدد الله العساكر والحروب والقوم الذين كانو يثيرونها فى كل وقت، الذين كانو على مدينة اسكندريه ومصر

كما اتخذ عبدالعزيز بن مروان ـ فى أثناء ولايته على مصر ـ فراشين له من الملكانيين. ولما انتقل من الفسطاط الى حلوان، واتخذها عاصمة له، سمح لهؤلاء الملكانيين ببناء كنيسة لهم فى هذه العاصمة الجديدة[١].

كذلك نجد الخليفة هشام بن عبدالملك، بعد أن تم الاتفاق بينه وبين الامبراطور البيزنطى[٢]، يسمح للملكانيين فى مصر، باقامة بطرك لهم. وتم اختيارهم للأب قزما، الذى أقام فى كرسى البطركية الملكانية ثمانى وعشرين سنة[٣]. وكان قزما أميا لا يعرف القراءة، ولا الكتابة،

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤١، أبو صالح الأرمنى، ص ٦٧.

(٢) قيل انه حدث فى سنة ١٠٧هـ ـ ٧٢٥م أن أرسل الامبراطور البيزنطى لاون، هدية الى الخليفة هشام فأتت هذه الهدية أكلها، وتمكن الخلقدونيون فى مصر من اقامة بطرك لهم. انظر: ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص ٨٢، ميخائيل شاروبيم: الكافى فى تاريخ مصر القديمة والحديثة، جـ٢، ص ١٢٤.

(٣) ابن بطريق: التاريخ المجموع. ص ٤٥. ويذكر أن الملكانيين كانوا بدون بطرك منذ هروب بطركهم الى القسطنطينية فى السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب الى أن أقيم قزمان هذا بطركا، وغلبت اليعاقبة على جميع الكنائس بمصر. انظر، المصدر نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٦. فى حين أشار ساويرس الى أن = الملكانيين كان لهم بطرك فى خلافة الوليه بن عبدالملك وولاية قرة بن شريك على مصر، وان كان لم يبق فى كرسيه طويلا. وتحول الى المذهب اليعقوبى. ثم يشير فى موضع آخر الى اقامة بطرك لهم فى ولاية القاسم بن عبيدالله وليس أبيه عبيدالله بن الحبحاب.

واعمالها . ومن بعد وفاته بمدة يسيرة قدمو عوضا
منه بامر الله تعالى شماسا راهبا اسمه سيمون من
مدينة اسكندريه من نسل طيب، وكان ولد الاب
انبا يعقوب وفى قلايته، وتربى منذ صباه عند الاب
البطرك انبا مرقس المتنيح. واقام على الكرسى
الانجيلى خمسة شهور وستة عشر يوما وتنيح فى
اليوم التالت من بابه. وكان مدة مقامة [مصابا]
بوجع النقرس يتوجع منه وجعا شديدا الى ان
تنيح. الرب يرحمنا بصلواتهم اجمعين.

ويعمل فى صناعة الأبر. ولما ولى البطركية للملكانيين خرج من الاسكندرية وقصد الخليفة هشام فى دمشق، وطلب منه أن يعيد للملكانيين الكنائس التى استولى عليها اليعقوبيون فى مصر. فعهد الى واليه بمصر عبيدالله ابن الحبحاب، أن يسلم للبطرك قزما، كل ما بيد اليعاقبة القبط من الكنائس الملكانية[١].

ووقع خلاف بين الملكانيين واليعاقبة فى مصر، فى خلافة مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢هـ = ٧٤٥ ـ ٧٥٠م) ـ آخر الخلفاء الأموين ـ وكان يتولى حكم مصر آنذاك عبدالملك بن مروان، وكان هذا الخلاف حول أحقية كل فريق منهما، فى ملكية كنيسة أبى مينا بمريوط. وتولى عبدالله الفصل بينهما فى هذا الخصام، وكان بطرك القبط فى ذلك الوقت هو الأب خايال (ميخايل)، فى حين كان بطرك الملكانيين الأب قسما[٢].

قضى كل من الفريقين، اليعاقبة والملكانيين، صوم الأربعين، وهم يترددون على قصر الوالى عبدالملك، كل يوم من الصباح الى آخر النهار، حتى يفصل بينهم، ويحكم بأحقية أى فريق منهما للكنيسة دون الفريق الآخر، وانتهى الأمر بأن عهد عبدالملك الى

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤٥ . ويسمى هذا الوالى عبدالله بن الجيحان السكوى.
(٢)ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٧٤ جـ ٢ .

السيره الحاديه والعشرين من سير البيعه المقدسه
الاب انبا يوساب(*) البطرك
وهو من العدد التانى والخمسون
[٨٣٠ / ٨٤٩م]

(*) هو من مدينة منوف. فى ايامة قامت عدة مشاحنات من الاهالى ضد بعض الاساقفة خاصة فى تنيس والفسطاط وطالبوا بعزلهم كما تعددت فى شمال الدلتا ثورات البشمور حتى ابادهم واحرقهم واحرق بلادهم الخليفة المأمون. ويقال أن الخليفة المأمون أعطى انبا يوساب تفويضاً بخط يده باقراره رئيساً عاماً روحانيا على الأمة القبطية وجميع كنايس مصر.

فلما تنيح الاب سيمون اجتمع الشعب الارتدكسى بمدينة اسكندريه وتشاورو فى ان يقيمو بطركا بحكم ان الكرسى خال، لانه كان قد اقام بغير [بدون] بطرك بعد الاب انبا يعقوب مده كبيره، وتسلو باقامة الاب انبا سيمون، فلما تنيح

صاحب الديوان ويسمى يسا بن يمن، أن يحكم بين الفريقين، ويدرس حجج كل منهما(١).

أمر يسا، صاحب الديوان، كل فريق بكتابة حججه وآرائه فى أحقيته فى ملكية الكنيسة الا أن الملكانيين أغدقوا عليه الهدايا والأموال، طمعا فى أن يحكم لهم يسا، بأحقيتهم للكنيسة على حين تقدم البطرك خايال، بالحجج التى تبرر أحقيته للكنيسة، وتحدث عن تاريخ بنائها، وكان كتابه الى صاحب الديوان، باللغتين العربية والقبطية. واستمر التحكيم بين الفريقين شهرا كاملا دون الوصول الى قرار حاسم(٢).

فلما ولى الديوان القاضى أبو الحسين وتولى التحكيم بين المتخاصمين، نيابة عن الوالى. سأل كل فريق عن رئيسيه الدينى، وأصل عقيدته، واطلع على الكتب التى قدموها، لسلفه الذى كان يتولى التحكيم بينهم. ويبدو أنه أدرك عدم أحقية الملكانيين فى الكنيسة، لأنه طلب

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٥ وما بعدها جـ ٢.

(٢) المصدر نفسه، وقد أشار بعض الأرثوذكسيين على الأسقف أنبا موسيس أن يشير على البطرك خايال بدفع مبلغ من المال لصاحب الديوان كما فعل الملكانيون، حتى ينصفهم ولكنه رفض ذلك وقال ان هذا التصرف لا يليق بالقبط المؤمنين، وعليهم جميعا الصبر وان الله لن يتخلى عنهم.

زاد قلقهم وكانو يقولون كما قال داود النبى: لا تذكر يارب اثامنا الاولى بل لتدركنا رافتك سريعا لانا افتقرنا جدا.

وكان كل منهم يتقصى بالمدينه، وبحثو جمع الاسكندرانيين والابا الأساقفه، وطلبو من يصلح ان يجلس على الكرسى، وانتم عارفون باهل اسكندريه انهم محبون لنعيم الجسد، فافتكرو فكرا رديا فى تلك الايام خارجا عن القوانين البيعيه، وكان بفسطاط مصر فى ذلك الزمان رجل ذو

من الفريقين، تقديم حجج وأسانيد أخرى. وحاول الملكانيون، وفى مقدمتهم البطرك قزما، أن يتفقوا مع اليعاقبة، على ما يرضى كلا من الفريقين. كما تحول بعض الملكانيين، ومنهم قسطنطين أسقف مصر الملكانى، الى المذهب اليعقوبى[١].

ثم جمع القاضى أبو الحسين، الفريقين المتخاصمين، وحضر الاجتماع أصحاب الدواوين والكتاب ووجوه القوم، ليصدر القاضى حكمه النهائى فى هذا الخصام. فطلب من البطركين أن يقسم كل منهما بأحقيته فى الكنيسة. فرفض ذلك أنبا خايال، فى حين أقسم الأب قزما. ثم سأل كليهما عن شهودهما. فأجاب الأب خايال، أن هذه البيعة، بنيت منذ ثلاثمائة وخمسين سنة، وأن القائمين على بنائها، هما تاوفيلس وطيماتاوس واسمهما مكتوب على الكنيسة. فلما تأكد القاضى من صدق البطرك خايال[٢]، وضع حدا لهذه الخصومة، وحكم بأحقية القبط اليعاقبة فى كنيسة أبى مينا بمريوط دون الملكانيين[٣]. وهكذا انتصر اليعاقبة وتسلموا بيعتهم، وهم فرحون، مسرورون.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٩٨ وما بعدها جـ ٢.
(٢) وجرت مناظرات بين البطرك خايال والبطرك قزما عن الاتحاد، وكتب الأب خايال: «أنه لا يجب أن يقال ان فى المسيح طبيعتين، متفرقتين بعد الاتحاد، ولا اثنين ولا شخصين» انظر أيضا السنكسار، جـ٢، ص ٣٥.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٠١ وما بعدها جـ٢.

جنس وذو مـال، له من الذهب والفـضـه والاثاث [مـالا يحـصـى] وكـان صـاحـب ديوان السلطان، الذى هو ملك مـصـر، اسـمـه اسـحق السـيـد ابن انـدونـه(*)، فلمـا نظروا الجمـاعـة اهل اسكندريه محله وغناه مع جاهه، كتبو اليه كتابا يقولون له : انا ما نختار احدا نقدمه بطركا سواك . وكان رجلا علمانيا وهو متزوج بامراه ، فانعزل بعض الاساقفه عن هذه النوبه التى فعلوها المراون [المراؤون] اهل اسكندريه واتبعو هذا لاجل مجد الناس ولم يذكرو

(*) قلده فيما بعد البطرك يوساب وكالة البطركية.

ثم كان العصر العباسى، وفى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ = ٧٥٣ ـ ٧٧٥م)، أصبح بلطيان بطركا على الملكانيين. وكان طبيبا حاذقا، وتولى كرسى البطركية ستا وأربعين سنة. وعظم نفوذه فى عهد الخليفة هارون الرشيد واسترد كثيرا من الكنائس الملكانية، بأمر من الخليفة نفسه[١].

كان والى مصر عبيدالله بن المهدى (١٧٩ ـ ١٨٠هـ = ٧٩٥ ـ ٧٩٦م) قد أهدى الخليفة هارون الرشيد، جارية مصرية. فمرضت، وطلب الخليفة أحد أطباء مصر لعلاجها، فبعث اليه عبيدالله، بلطيان البطرك الملكانى المعروف بمهارته فى الطب، ونجح هذا البطرك فى علاج جارية الخليفة. فسر لذلك الرشيد، وأعطى بلطيان كثيرا من الأموال والهدايا، كما كتب له منشورا، يحق له بمقتضاه، استرداد الكنائس الملكانية من أيدى اليعاقبة[٢].

ويرى بعض الكتاب المحدثين أن الشروط التى اشترطها عمر ابن الخطاب، فى العهد الذى

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤٩، ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢ المقريزى: الخطط جـ ٤، ص ٣٩٦ و
Le R. P. Antefage: Les Coptes, pp. 23-24.

مـا هو مكتـوب فى مـزمـور : ان الرب يـدد عظام المراين [المرائين] للناس. وايضا فيخرون لان الرب يرذلهم.

ثم مـضى بعض الاسـاقـفـه الى هذا اسـحق وساعدوه وقالو له ما لنا بطرك الا انت . واسماهم: زكـريا اسـقف وسيم، وتادرس اسـقف مـصـر، ثم انهـمـا جعـلاه ان يكتب كتـابا الى اسكندريه يعد كهنتها واهلها بجميل كتير يفعله معهم متى صار بطركـا ويقـول انى اذا جلست على هذا الكرسى

منحه لأهل الذمة، كانت نواة هذه المضايقات، وأساسا اعتمد عليه بعض الخلفاء والولاة فى التشديد على الذميين، والتضييق عليهم. فالخليفة عمر بن الخطاب، هو أول من وضعهم فى مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين فأمر أن تختم رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجـزوا نواصـيـهم، ويركـبـوا على الأكف عـرضـا، مما أدى أحـيـانا الى تعـرض أهل الذمـة للمضايقات[1].

والحقيـقـة أن عـمر بن الخطاب قد اشترط على أهل الذمـة بعض الشـروط، التى تتضـمن تحديد شكل الملابس، وطريقـة الركوب. فـقد اشتـرط عليـهم لبس الزنار، ونهاهم عن التشـبه بالمسلمين فى ثيـابهم. وسـروجـهم، ونعـالهم، وأن تكون قـلانسـهم مـضـربة، ومنع نسـاءهم من ركوب الرحائل[2].

وهناك أمـثلة كـثيـرة على هذه الأحـداث، نذكـر منهـا، مـا حـدث فى ولاية عـبدالعـزيز بن مروان، حينما قدم الى الاسكندرية، ولم يخـرج البطرك يوحنا لاستقباله والسـلام عليـه. وعند

---

(١) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ص١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢) على حسنى الخربوطلى: الحضارة العربية الاسلامية، ص ١٤٣.

بنيت لكم ما انهدم من بيعكم وجددت عمارة رباع البيع، وازيل عنكم الجوالى [و] جميع ايامى أقوم بها من مالى عن الكهنه وضعفا الشعب. ووعدهم باشيا اخرى كتيره.

فلما سمعو ذلك مالو اليه ورغبو اليه ونسو قول الانجيل: لا ياخذ احد كرامه من ذاته الا ان يعطاها من السما من عند الله.

وكان فى ذلك الزمان اساقفه قديسون ممن يقول الحق ممتلين من النعمه، وهو انبا خايال

ذلك سعى به قوم من الملكانيين، وأوغروا صدر عبدالعزيز، اذ زعموا له أن البطرك لم يخرج للقائه، لتكبره، وجبروته، ولا تساع ثرائه[1].

وغضب عبدالعزيز على البطرك أشد الغضب. واستدعاه. وعنفه، وفرض عليه غرامة مالية قدرها مائة ألف دينار. وعهد به الى رجل يدعى «سعد» يشتهر بالقسوة حتى يعذبه. حتى الموت ليرغمه على أداء الأموال للوالى. وهدد سعد البطرك يوحنا، اذا لم يدفع المبلغ المطلوب منه، بأنه يلبسه ملابس يهودى، ويلطخ وجهه بالرماد، ويطوف به أنحاء المدينة. وانتهى الأمر بقبول البطرك يوحنا دفع مبلغ عشرة آلاف دينار[2].

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٤ وما بعدها جـ٢. وأصل يوحنا من سمنود، وقد ولى البطركية بعد وفاة الأب أغاتون. المصدر نفسه، ١٦ وما بعدها جـ٢، السنكسار، جـ١، ص١٢٨.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٥ وما بعدها جـ٢. ويروى أن يوحنا قال لسعد: ليس حتى معى مائة درهم فما شئت ان تفعل بجسدى فافعل، فنفسى وجسدى معا بين يدى المسيح. فغضب لذلك سعد، وأمر بقصرية نحاس. مملوءة جمر نار، وتجعل رجلاه فيها حتى يقبل دفع المطلوب منه. ويشير ساويرس الى ان زوجة عبدالعزيز بن مروان، تعرضت فى هذا اليوم لشدائد عظيمة، وبعثت الى تأمره ألا يلحق أى أذى بالبطرك. كما قال الوالى نفسه لسعد: «اياك أن تمس جسده لاجل ما نالنا فى هذه الليلة بسببه. ولكن مهما قدرت عليه خذه منه بلطف. والا فلا تقربه بسوء، لأن الله قد أظهر لى أنه عبده». كما أشار ساويرس الى أن البطرك يوحنا، قال لسعد، لما هدده بلباس يهودى: «أن لم يخلصنى الرب الهى من يديك، والا فما لك قدرة أن تفعل بى شينا الا بأمره».

اسقف بلبيس، وانبا خايال اسقف صا، وانبا يوحنا
اسقف بنا، وكتير مثلهم كاملين فى الدين والامانه،
فلما بلغهم ما فعله الاسقفان وجماعة اهل
اسكندريه تحركت فيهم النعمه الالهيه، وجمعو
لهذين مجمعا وتوجهو الى اسكندريه على ما
يقتضيه القانون. ولما حققو راى الاسكندرانيين قالو
لهم: اين تركتم خوف الرب وخالفتم القوانين حتى
انكم عمدتم الى رجل علمانى متزوج بامراه
لتجلسوه على كرسى مارى مرقس الانجيلى

علم الكتاب والمتصرفون القبط بالاسكندرية، بأن الغرامة المالية المفروضة على البطرك يوحنا قد خفضت الى عشرة آلاف دينار، فأبدوا سرورهم، وطمأنوا البطرك بأن الأساقفة وكتاب الدواوين سيتحملون سدادها، وتعهدوا للوالى عبدالعزيز بن مروان بذلك، فأطلق سراح البطرك يوحنا، وعم الفرح والسرور قلوب القبط الأرثوذكس(١).

تعرض القبط وبطركهم اسحاق مرة أخرى فى ولاية عبدالعزيز بن مروان، لبعض الأذى والضيق فقد كانت كنيستا الحبشة والنوبة تابعتين للكنيسة القبطية بالاسكندرية، فلما وقع سوء التفاهم بين ملكى البلدين، رأى البطرك القبطى اسحق، أن يكتب اليهما ليزيل ما بينهما من

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٣ وما بعدها جـ٢. ويشير الى أن عبدالعزيز بن مروان لما أحضر البطرك للاتفاق معه على دفع عشرة آلاف دينار، أمر باحضار وسادة كبيرة ليجلس عليها البطرك، وقال له أما تعلم أن السلطان لا يقاوم؟ فأجاب البطرك: السلطان نسمع منه أمره فيما يجب، ونخالف أمره فيما يغضب الله. فقد قال ربنا فى الانجيل، لا تخافوا ممن يقتل الجسد، وليس له سلطان على النفس، ولكن خافوا ممن يقدر يهلك النفس والجسد جميعا، يعنى الله القادر على ذلك وحده. عند ذلك قال له الأمير: الهك يحب الصدق والحق. فأجاب يوحنا: الهى حق كله، ليس فيه كذب، بل يهلك كل من ينطق بالكذب. فقال له الأمير: انك صادق وثقة. وان ما دفعه لك القبط بسبب مطالبتى لك بالأموال، ادفعه لى ولا أطلب منك أكثر من ذلك. وبذلك أطلق سراح يوحنا وخرج من دار الامارة فى موكب حافل بالقراءة والترتيل حتى بلغ الكنيسة وقدس مع شعبه.

بخلاف ما جرت به العاده والقوانين. فعند ذلك سكنو ولم يجاوبوه بحرف واحد لعلمهم بغلطهم.

وبمعونة الله الذى يفتقد شعبه فى كل حين ويضى وجهه على ميراثه، ذكر إنسان قديس كامل فى فعل الخير، فثبت ذكره عند الجمع بتدبير نعمة الله، الذى هو المصباح المضى يوساب القس والقيم ببيعه القديس ابى مقار بوادى هبيب، وعند ذكره ابتهج قلبى وتهلل [وطاب قلوب الجميع به والاساقفه والكهنه لمعرفتهم به].

سوء تفاهم. فسعى قوم بالبطرك لدى عبدالعزيز، واخبروه بأن البطرك يراسل ملكى الحبشة والنوبة، فغضب عبد العزيز، وأمر باحضار البطرك ليقتله حتى يحول بينه وبين التخاطب مع ملكى دولتين أجنبيتين [١].

وبادر الكتاب القبط، بتحرير كتب أخرى، غير التى كتبها البطرك، وأعطوها للرسل المبعوثين الى ملكى الحبشة والنوبة، واستردوا الكتب الأولى التى كتبها البطرك ثم أخبروا الأمير عبدالعزيز، بأنهم استدعوا رسل البطرك واستردوا منهم الكتب التى كانوا يحملونها الى ملكى الحبشة والنوبة، وقرأ عبدالعزيز الكتب، فلم يجد فيها شينا يضر مصالحه، فهدأت ثورته وأطلق سراح البطرك[٢].

وتذكر الرواية القبطية أن الوالى عبدالعزيز بن مروان، قد أساء ـ آنذاك ـ الى القبط وبطركهم، اذ أمر بكسر جميع الصلبان فى كور مصر، سواء أكانت من الذهب أم الفضة كما كتب عدة رقاع، جعلها على أبواب كنائس مصر جميعها، وفيها: «محمد الرسول الكبير الذى لله وعيسى أيضا رسول الله، وان الله لم يلد ولم يولد»[٣].

(١) المصدر نفسه. ص ٢٤ جـ ٢.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٤٨ وما بعدها جـ٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩ جـ٢.

واردت ان اذكر يسيرا من سيرته فى رهبنته والاعمال التى فعلها فخفت ان اقطع ذكر صفه الحال فى جلوسه، ولكنى اذكر ذلك فيما بعد ليبتهج قلب من يسمع سيرة هذا القديس.

فلما طابت قلوب الجمع به مع الاساقفه والكهنة لمعرفتهم به عند كونه مصاحبا للاب انبا مرقس فانفذو بعض الاساقفه وكهنة الاسكندريه الى الوادى وبينما هم سايرون قالو هكذا: ان كان الرب يختار تقدمة هذا الانسان فانا نجد باب قلايته

وكان الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان، يلى كثيرا من أمور مصر فى ولاية أبيه. وكان يحوذ طاعة الجميع. الا أنه كان مبغضا أشد البغض للقبط، ينزل بهم كل أذى ممكن. وقد احتضن شماسا يسمى بنيامين، وكان يظهر للأصبغ جميع أسرار القبط، كما ترجم له الانجيل وكتب القيامة وغيرها من الكتب الدينية الخاصة بالقبط الى اللغة العربية. وكان الأصبغ يحرص أشد الحرص على قراءتها، لينظر هل يشتمون فيها المسلمين ام لا. واستمر الأصبغ على موقفه العدائى من القبط[١].

وجد الملكانيون المخالفون للعقيدة الأرثوذكسية الفرصة سانحة أمامهم للايقاع بخصومهم فقدموا كل مساعدة ممكنة للأصبغ للايقاع بالقبط، وحرضوه على رهبانهم، وذهبوا الى أنهم يمتلكون أموالا وأملاكا كثيرة. فأمر الأصبغ باحصاء الرهبان فى جميع أنحاء البلاد المصرية، وفرض عليهم الجزية لأول مرة فى مصر الاسلامية، ومنع الأديرة من قبول رهبان جدد، كما ألزم الاساقفة فى مختلف الأقاليم بدفع ألفى دينار، زيادة عن خراج وساياهم.. وأمام هذه الشدائد اضطر كثير من القبط، الى ترك دينهم المسيحى واعتناق الاسلام[٢].

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٦ جـ٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧ ، ١٠٨ جـ٢.

مفتوحا. فلما وصلو الى الدير بالغداه وقفو على باب قلايته فوجدوه قايما وقد خرج ليغلق الباب خلف اولاده، وقد مضو ليملو الما، فبهتو ونظر بعضهم الى بعض قايلين: قد تم ما قلناه ونظر اليهم المتمسك بالطهر والاتضاع سجد لهم وسلم عليهم ودخل بهم الى قلايته بسرعه. فلما سارو داخل بيته ضربو بيدهم اليه وطرحو القيد الحديد فى رجليه وقالو له : انت بالحقيقه مستحق البطريركيه. فبدا ان يبكى بكا عظيما ويقول: ما

وتعرض القبط أيضا لبعض المضايقات فى ولاية عبدالله بن عبدالملك الذى ولى مصر بعد عبدالعزيز بن مروان (٨٦ ـ ٩٠هـ = ٧٠٥ ـ ٧٠٩م) فقد انتهج هذا الوالى سياسة اضطهاد القبط، ولجأ أحيانا الى وسائل التعذيب، والى القتل أحيانا أخرى[١]. وتصف بتشر[٢] فترة حكم هذا الوالى، بأنها فترة شؤم، عانى القبط منها، فى حين كانوا ينتظرون منه العدل والانصاف، ولكنه خيب ظنهم.

جرت العادة ـ كما ذكرنا ـ على أن يخرج البطرك من الاسكندرية. الى الفسطاط، للسلام على الوالى الجديد وتهنئته. فلما ولى عبدالله ولاية مصر، خرج اليه البطرك الاكسندروس لتهنئته بامارة مصر والسلام عليه. ففرض عبدالله على البطرك غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار، وسلمه لأحد حجابه، وأمره باهانته والتضييق عليه، حتى يسدد هذه الغرامة[٣]. وحاول القبط تخفيض مقدار هذه الغرامة، ولكن دون جدوى. وانتشر القلق بين عامة القبط والرهبان والاساقفة، حتى اضطر أحد الشمامسة أن يطلب من الوالى عبدالله، ان يسلمه البطرك،

(١) المصدر نفسه، ص ١١٣ وما بعدها جـ ٢.

(٢) تاريخ الأمة القبطية، م٣، ص١٧٢.

(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١١٤ وما بعدها جـ ٢.

ربح رجل ناقص يدخل تحت هذا النيـــر العظيـم. فعزوه وطيبـو قلبـه، واجتـمعـو فى البيعـه واخـدو السـراير المقـدسـه، لانه كـان عيـد الملاك ميـخـايل التـانى عـشـر من هتـور. وتبـارك من الابا القـديسين وسـالهم ان يدعو له وان يتم الله سعيه، فدعـو له وباركـو عليـه جـمـيـعـا من عـمق قلوبهـم، وودعـوه باكين لانهم عـدمـو من ديرهـم انسـانا قـديسـا فيـه روح الله، فلمـا سـارو ووصلو ظهـر الصـخـره وهو معهم سمعو صوتا خلفه قايلا: الرب يصحبك يا

ليتجول به فى مدن الوجه البحرى لجمع المبلغ المطلوب من القبط ورؤسائهم فى هذه البلاد واستجاب الوالى لطلب الشماس وانتهى الأمر، بأن سدد البطرك الغرامة المالية[١].

وكان عبدالله يأمر أعوانه. بأن يجمعوا له الأساقفة والرهبان، فيسخر منهم. ويسمعهم ما لا يحبون، وكان يقول لهم: «أنتم عندى مثل الرومان. ومن قتل منكم واحدا، غفر الله له، لأنكم اعداء الله»[٢].

وبعد عبدالله، تولى حكم مصر، من هو أشد منه قسوة، فقاسى القبط فى عهده كثيرا من الشـدائد، وهو الوالى قـرة بن شـريك (٩٠ ـ ٩٦هـ = ٧٠٩ ـ ٧١٥م) الذى أسـاء معـاملة القبط، وسجن كثيرا منهم، كما ضيق على البيع والرهبان[٣].

حدث عندما قدم قـرة بن شريك الى مصر، أن خرج البطرك الاكسندروس ـ كما جرت العادة ـ للسلام عليه وتهنئته. ولكن قرة بن شريك ألزمه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار، كما دفع من قبل لسلفه عبدالله. وأصر قرة على طلبه، على الرغم من أن البطرك أكد

(١) المصدر نفسه، ص ١١٦ وما بعدها جـ ٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٦ وما بعدها جـ ٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٩ وما بعدها جـ ٢.

يوساب ويقويك لتصبر على البلايا التى تحل بك وبها تنال اكليل الحياه. فلما سمع القديس والذين معه هذا الصوت العظيم ولم ينظرو احد تعجبو وبهتو وعلمو ان سوف تناله تجارب عظيمه واحزان شديده.

ووصلو الى مدينة اسكندريه، فلما سمع الجمع خرجو للقاهم متهللين ممجدين الله، فعرفوهم ما جرى لهم فى الطريق وكيف وجدو باب قلايته مفتوحا، واخدهم اياه والصوت الذى سمعوه

له، أنه لا يمتلك منها شيئا، بل انه لا يقدر على أداء خراج الكنائس، وأنه انما جمع المبلغ الذى دفعه لسلفه من عامة القبط وغيرهم[١].

اضطر البطرك أمام اصرار والى مصر على دفع الغرامة التى حددها، الى التجول ثانية فى مدن وقرى الصعيد، ليجمع من القبط ما يقدرون على دفعه اليه. وقد رحب به شعب الصعيد ترحيبا كبيرا، لأنه البطرك الوحيد الذى زار الصعيد منذ عهد بنيامين وتمكن البطرك من دفع ألف دينار لقرة بن شريك، بعد سنتين، لحقه فيها كثير من الضيق[٢].

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٣ جـ٢. وما بعدها. ويذكر ساويرس أن البطرك الأكسندروس قال لقرة بن شريك عندما طالبه بالمال: «شرعنا يأمرنا أن لا يكون لنا قنية. ولا نكنز ذهب ولا فضة، بل تصرف حاجة يوم بيوم، لما نحتاجه من الكلف للفقراء والمحتاجين. وانما فعل بى عبدالله ما فعل بسعاية الناس السوء، حتى كلفنى وألزمنى ثلاث ألاف دينار. ولم يوجد معى منها شىء. حتى أخرجنى الى البلاد، كالمكدى اتصدق. حتى وفق الله لى. ما طيب به نفسى. وعلىّ الى الآن خمسمائة دينار، فمن أين يكون معى شىء». وامتنع البطرك أن يقسم على الا يوجد عنده أموال.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص١٢٣ وما بعدها جـ٢. ويقص أنه من سوء حظ هذا البطرك ان عثر راهبان. على خمسة كيزان نحاس مملوءة مالا من سكة الرومان. فأخفيا واحدا منها لهما، وأعطيا الأربعة الاخرى لأبيهما. وقد بادر بدوره الى ارسال هذه الأموال الى البطرك ليدفع منها الغرامة المطلوبة منه، فتسلمها وكيل البطرك الاكسندروس وكاتبه نيابة عنه فى أثناء تغيبه فى بلاد الصعيد. =

خلفهم عند طريق الشارويم ظهر الصخر. فمجدوا الله صانع العجايب وحده فى كل حين.

واعلموا الامير والى اسكندريه، وكان اسمه عبدالله بن يزيد، بوصولهم بهذا القديس لياخذو رايه قبل قسمته وامره كما جرت العادة فى كل زمان. فامتنع الوالى ولم يمكنهم من ذلك وقال: اسحق بن اندونه الذى من مصر انفذ الى ووعدنى بالف دينار اذا جلس على هذا الكرسى، فان كنتم قد اخترتم هذا فادفعو لى ما قد وعدنى به اسحق.

ولم تنته المضايقات التى سببها والى مصر قرة بن شريك للبطرك القبطى الاكسندروس عند هذا الحد. اذ ما لبث أن أوقع بعض المغرضين بالبطرك، فقد أبلغوا قرة بن شريك بأن لدى هذا البطرك من يضربون له الدنانير. فقبض قرة على البطرك وأغلق البطركية، وعاقب البطرك وأصحابه أشد عقوبة. ولما ثبت بطلان هذه السعاية وكذبها، أطلق سراحهم، وأمر بفتح البطركية[1].

ثم حدث بعد ذلك، أن ثار كهنة الاسكندرية وقبطها على البطرك، وألزموه بدفع رسوم مالية لهم، الا أنه لم يكن لديه الأموال الكافية للاستجابة لطلبهم، فأساءوا اليه وأهانوه، وحاول البطرك الدفاع عن نفسه، فقال لهم، ان أموال الكنائس قد نهبها الوالى قرة بن

= وحدث بعد ذلك أن ترك الراهبان الرهبنة، ولبسا لباسا فاخرا، مما لفت اليهما الأنظار. واضطر أحدهما الى الاعتراف بحقيقة الامر. فوصل الخبر الى الوالى قرة بن شريك فأمر بغلق الابسقوبية ـ الدار البطركية ـ والاستيلاء على ما فيها وفى غيرها من البيع من الأوانى والذهب والفضة والكتب. وأساء الى أصحاب البطرك، فأخذ أربعة الكيزان المذكورة. كما أحضر البطرك من الصعيد، وأراد قتله، الا أنه طرحه فى السجن وهو مكبل بالحديد، وبعد سبعة أيام أفرج عنه، وألزمه فى الوقت نفسه بدفع الغرامة المطلوبة منه.

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٩ جـ٢.

ومنعهم من قسمته اياما وكانو الابا الاساقفه ملازمين داره طالبين منه متضرعين فى تمكينهم، وهو لا يفعل لمحبته فى المال. فاجتمعو الاساقفه الذين من المشرق وقالو له: ليس نحن تحت سلطانك فان لم تمكنا والا مضينا الى فسطاط مصر ونقسمه هناك. فلما نظر ثباتهم وانهم يفعلون ما ذكروه فاذن لهم، فاجتمعو الى بيعة مرقس الانجيلى على ما جرت به العاده فى احد وعشرين يوما من هتور سنة خمس مايه وسبع واربعين

شريك، حتى انهم أصبحوا فى القداس يستخدمون كاسات من الزجاج بدلا من الكاسات الذهبية والفضية[1].

وكان الوالى أسامة بن زيد (٩٦ ـ ٩٩ هـ = ٧١٥ ـ ٧١٨م) أشد قسوة ممن سبقه من ولاة مصر فى العصر الأموى، كما كان أبغضهم للقبط خاصة، فقد أمر بعدم ترهب أى راهب جديد، وأحصى الرهبان فى مصر، وأمر أن يوسم كل واحد منهم بحلقة حديدية، توضع فى يده اليسرى، وعليها اسم بيعته وديره، وألا ينقش الصليب غلى هذه الحلقة وأن يكون التاريخ المسجل على الحلقة هو التاريخ الهجرى (سنة ٩٦هـ) وعاقب الوالى الرهبان الذين خالفوا هذه الأوامر، عقابا شديدا، وصل الى حد القتل أحيانا[2].

وكان أسامة بن زيد، مثله مثل بعض الولاة، حريصا على جمع المال بأية وسيلة فأمر عماله بالاستيلاء على بعض الممتلكات. وكان يقول لعماله: «سلمت لكم أنفس الناس، فاحملوا القماش والمال والبهائم، وكل ما تجدونه لهم، ولا تراعوا أحدا، وأى موضع نزلتموه، فانهبوه»[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣١ جـ٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٥٣جـ٢ ، المقريزى: الخطط، جـ٤، ص٣٩٥.
(٣) ابن المقفع: المصدر السابق، ص ١٥٥ جـ٢. ابن العميد، المصدر السابق، ص٦٩ ويقول ابن المقفع:=

للشهدا وكملو الصلاة على الهيكل وبدو ان يصعدو الى الرتبه البطركيه يباركون ويمجدون الله.

والان فاريد هاهنا ان اذكر سيرته منذ صباه ذلك الطوبانى القديس ليمجد الله كلمن سمعها قبل ان اذكر تمام قسمته وما جرى عليه من الشدايد وصبره عليها.

وهذا القديس من ابا[ء] اخيار مشهورين من مدينة منوف العليا معروفين من مقدمى مصر، فلما ماتو بقى القديس يتيما فنظره انسان ارخن محب

وطلب أسامة من الرهبان ألف دينار، وأغلق أبواب البيع. كما طلب من رؤسائهم دينارا عن كل واحد منهم، وعذبهم فى سبيل أداء ذلك. وهددهم بهدم جميع الكنائس والاديرة فى مصر. وانتهت هذه المظالم بنهاية عهد أسامة، فقد توفى الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك، وولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز الذى عزل أسامة عن حكم مصر[1] (فى سنة ٩٩هـ = ٧١٨م).

ورغم ما نعرفه من تسامح وعدل عمر بن عبدالعزيز، فان أهل الذمة عامة، والقبط منهم خاصة، تعرضوا فى عهده للمضايقات. فقد نهى عن استخدامهم فى الادارة وأعمال الحكومة ـ كما ذكرنا آنفا ـ وكتب الى ولاته، أن من أراد أن يستمر فى الاقامة فى العمل بالدواوين، فعليه اعتناق الاسلام[2]. كما شدد عليهم فى الملبس والركوب.

وأبدى ساويرس حيرته، من أوامر عمر بن عبدالعزيز، فهو يأمر دائما ولاته بالعدل والرحمة والتسامح، وقام بكثير من الاصلاحات التى عادت بالفائدة على المسلمين والذميين ورفع

= المصدر نفسه والصفحة ـ ان عماله كانوا تنفيذا لأوامره يقلعون الأعمدة والأخشاب. ويبيعون ما يساوى عشرة دنانير بدينار.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦١ جـ٢، ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٦٩.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦٣ جـ٢.

الله كان متولى كورة مصر اسمه تادرس من اهل نقيوس وهو يتيم، فاخذه اليه ليصيره له ولدا محبة للمسيح لعظم جنسه. واقام عنده مدة طويله ففكر فى نفسه وقال: هو دا انا اليوم يتيم وما لى اجود من البريه المقدسه، فهى دار اليتاما. فمضى الى الريس الذى هو عنده وقد رباه وساله بتواضع ان يفسح له فى المسير الى البريه المقدسه، فقال له: يا ولدى انت من جنس جيد وتربيت فى نعمه، فيلحقك تعب فى البريه ولا تقدر على شقاها. فلم يمكنه من الخروج وانفده الى مدينة اسكندريه الى

الخراج عن الكنيسة والأساقفة. ولكن الخليفة فى الوقت نفسه يدعو أهل الذمة الى اعتناق الاسلام، ويشجع على اعتناقه برفع الجزية عمن أسلم من الذميين ويضيفها على من يبقى على دينه. وعليه يشبهه ساويرس بالدجال، ويقول: ذلك لأنه يصنع خيرا كثيرا أمام الناس ويفعل السوء أمام الله[1].

ثم ولى الخلافة يزيد بن عبدالملك بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز (١٠١ ـ ١٠٥هـ = ٧١٩ ـ ٧٢٣م) وكان شديد العداء للذميين، وخاصة القبط، الذين عانوا الكثير من الشدائد فى عهده. وأمر يزيد (فى سنة ١٠٤هـ) بكسر الصلبان. وازالة الصور من البيع فى مختلف أرجاء الدولة الاسلامية[2].

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٢ جـ٢.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦٥ جـ٢. أبن العميد: تاريخ المسلمين، ص٧٠، المقريزى: الخطط، جـ٤، ص٣٩٥. ويجدر بنا الاشارة الى أن الامبراطور البيزنطى ليو الأيسورى، أصدر قرارا بحظر الصور والتماثيل الدينية، كما فعل الخليفة يزيد بن عبدالملك، ولكن قرار الامبراطور كان فى سنة ١٠٨هـ ٧٢٦م. انظر سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٠٢.
ويشير المقريزى ـ الخطط، جـ٤، ص٣٩٧ ـ الى أنه فى بطركية قسما أمر امبراطور الرومان نوفيل بن خائيل سنة ٢٤٤هـ بمحو الصور من الكنائس. لأنه سمع أن قيم كنيسة عمل فى صورة مريم شبه ثدى، يخرج منه لبن فى يوم عيدها. واتخذ ذلك وسيلة لجمع المال. فقتل هذا القيم، وأمر بمحو الصور من=

الاب البطرك انبا مرقس وكتب اليه كتابا يذكر فيه له قصة حاله وسلمه اليه مثل الوديعه.

ففرح به القديس مرقس وسلمه الى انسان شماس كان له [رعاية] ولد [أولاد] القلاية يومئذ وكان عالما ليعلمه الكتابة بلغة اليونانى(*). وكانت معونة الله معه ولا تدعه ان ينسى ما كان اراده من المضى الى الديارات. فلما اقام عند الاب القديس انبا مرقس اياما قلايل ضرب له المطانوه وساله ان ينفده الى الجبل المقدس، فنظر شهوته واظهر الله

(*) من الواضح أن تعليم اللغة اليونانية كان سببه أن معظم التراث الدينى المسيحى فى هذا الوقت كان مكتوب بها.

أما الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٦هـ = ٧٢٣ ـ ٧٤٤م) فقد أبدى عطفه، وبسط رعايته على القبط الأرثوذكس فى مصر. وكان يحرص على أن يراعى فى معاملتهم شروط العهد التى منحها عمرو بن العاص للقبط بعد الفتح العربى. وولى الخليفة عبيدالله بن الحبحاب على خراج مصر، وأوصاه بالقبط وغيرهم من المصريين[١]. ولكن هذا الوالى، لم ينفذ أوامر الخليفة ووصاياه. فحينما قدم عبيدالله الى مصر، أوقع الظلم على القبط وغيرهم من أهل الذمة فى مصر. وأمر بوسم جميع القبط على أيديهم، بعلامة صورة الأسد، وقطع يد من لم ينفذ هذا الأمر. الا أن البطرك الاكسندروس امتنع عن ذلك، وأصر على الخروج الى

= الكنائس، وكتب ذلك الى قسما بطريرك القبط فى مصر، ولكنه ما لبث أن سمح باعادة الصور الى الكنائس ثانية.

(١) ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص٧٠. ويقول انه ولى عبدالله ابن صفوان. فى حين يسميه ساويرس عبيدالله، فقط، انظر: تاريخ البطاركة، ص ١٦١ جـ١. ويقول المقريزى: ان الوالى المذكور هو حنظلة بن صفوان. الخطط، جـ٤، ص٣٩٥ ـ ونرى أن الأصح هو عبيدالله بن الحبحاب الذى ولاه الخليفة على خراج مصر (١٠٥ ـ ١١٦ هـ = ٧٢٣ ـ ٧٣٤م) فى حين كان حنظلة بن صفوان يلى أمرة مصر منذ سنة ١٠٢هـ = ٧٢٠م. ثم عزله هشام وجعل مكانه محمد بن عبدالملك، فى سنة ١٠٥هـ = ٧٢٣م. انظر سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص٣٧٠ (جدول بأسماء الولاة وعمال الخراج) ويذكر ساويرس أن الخليفة هشام كان ينتهج السياسة نفسها بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس فى بلاد الشام، وكان يقرب اليه بطركهم أثناسيوس. كما كان يقدم له الكثير من الأموال للكنائس والأديرة.

له ما يجده الصبى من النعمه فانفذه سريعا الى دير ابى مقار الى عند قس قديس اغومنس اسمه بولا، وكان يتعجب الناس من سيرته وان الله يظهر له اسرارا ونبوات، فلما نظر الى الصبى فرح به جدا وبحسن طريقته وتواضعه.

ولم يزل يغديه بالتعاليم المقدسه التى للابا الرهبان لاسيما لما نظر طريقته، وكان يبارك عليه ليلا ونهارا فاستحق ان يصير شماسا.

وبعد قليل استحق ان يكون قسا بيد الاب انبا مرقس البطرك.

الفسطاط لمقابلة والى مصر، لعله يعفيه من الوسم. ولكن عبيدالله أصر على ضرورة وسمه أسوة بجميع قبط مصر. وأصر البطرك على موقفه، ولم ينقذه من تنفيذ الأمر سوى وفاته(١).

والزم هذا الوالى أنبا صمول أسقف وسيم(٢) بدفع ألف دينار غرامة لبيت المال الا أنه كان فقيرا، ولا يصل الى قوت يومه. والتمس من الوالى اعفاءه من الغرامة، فأمر الوالى الشرطة بالقبض عليه، وسلمته الشرطة لنفر من البربر، ألحقوا به صنوفا مختلفة من العذاب، حتى جمع له القبط، ثلاثمائة دينار، قدمها للوالى، فأفرج عنه، بعد أن أوشك على الموت(٣).

والحقيقة التاريخية، أن المصريين الذين اسلموا نالوا من مظالم هذا الوالى الأموى، ما ناله القبط أيضا وكان عبيدالله بن الحبحاب عامل الخراج (١٠٥ ـ ١١٦هـ) يتبع سياسة ظالمة نحو أهالى مصر على اختلاف أديانهم. وتقدم بعض المسلمين، بشكواهم الى الخليفة هشام بن

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٧٤ وما بعدها جـ٢.

(٢) أوسيم قرية على بعد ميل من الفسطاط فى الطريق الى الجيزة. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢٠، ص٢٧٧.

(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٧٧ وما بعدها جـ٢. ويذكر أن سبب ذلك هو اتهام أنبا صمويل بتحريضه البطرك على ألا يقبل الوسم، وأشار عليه بالهروب الى الاسكندرية. وعليه طلب من عبيدالله مهلة ثلاثة أيام حتى يفكر فى الأمر، وبذلك يتمكن من الخروج الى الاسكندرية سرا. ولكن البطرك مات فى الطريق قبل وصوله الاسكندرية.

ولما كبر هذا الاغومنس بولس اعتل عللا مختلفه وكان هذا القديس يخدمه النهار والليل برجا وامانه لينال بركته. وكان هذا الشيخ يجعل يده على راسه ويباركه بركات عظيمه لا تحصى، فلما قربت وفاته بدا ان يقول للصبى الذى حلت روحه عليه: يا يوساب هو ذا الرب قد انعم عليك بنعمه وميراثه لترثه. ثم قال مثل قول الرب لبطرس: وانت ايضا ارجع زمانا وثبت اخوتك الذين هم قد صارو مشاركين لك فى تعب هذه الخدمه وقدمهم كهنه. وكان له اولاد عنده

عبدالملك الذى بادر بعزله عن خراج مصر، وجعل مكانه ابنه القاسم عبيدالله، الذى كان أكثر ظلما وقسوة من أبيه(١).

وتعرض القبط والبطرك أنبا خايال أيضا فى ولاية حفص ابن الوليد، لكثير من المضايقات ورأى بعض القبط الأرثوذكس الخلاص منها، اما بالهجرة من القطر المصرى أو باعتناق الاسلام. وبلغ عدد من من اعتنق الاسلام منهم، أربعة وعشرين ألف قبطى. وأبدى البطرك ألمه وأسفه لهذه الأحداث. ولكن هذه المضايقات، انتهت بنهاية ولاية حفص بن الوليد(٢).

نعمت مصر، بعد ذلك، بالهدوء والأمن فى ولاية حسان بن عتاهية (سنة ١٢٧هـ ـ ٧٤٥م) الذى بسط رعايته وحمايته على البيع والأساقفة والرهبان. وكان دائما على علاقة طيبة مع البطرك أنبا خايال. وقد انتهج من جاء بعده من الولاة هذه السياسة نفسها، حتى اذا ولى حكم مصر عبدالملك بن مروان فى (سنة ١٣٢هـ ـ ٧٥١م) ـ فى عهد الخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ـ عانى القبط كثير من المضايقات، ذلك أن عبدالملك كان

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٦ جـ٢.

ويشبه ساويرس ذلك بما جاء فى الانجيل: «ان كل شجرة رديئة تثمر ثمرة رديئة».

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٦ وما بعدها جـ٢. السنكسار، جـ٢، ص٣٤.

يخدمونه [و] غيره فتم قوله عند جلوسه على الكرسى واستحقو هولايك الاخوه له فى الخدمة النعمه الشماسيه والقسيسيه مدة فى بيعة القديس ابى مقار. وذكرت هذا ليكون منفعه لكلمن سمعه من الاولاد الرهبان ليعلمو ان الله يصطفى من يخدمه بنية صادقه.

والان فاعود الى بقية خبر هذا القديس الاب الجليل انبا يوساب. لما جلس على الكرسى الانجيلى

شديد الكراهية للقبط. وتفرغ عبدالملك لجمع أكبر قدر من الذهب والفضة وغيرهما. ليبعثها الى الخليفة(١).

واعتقل عبدالملك البطرك. وبعض الأساقفة، وأساء معاملتهم، كما اعتقل أيضا ثلاثمائة رجل وامرأة، وألقاهم جميعا فى السجن(٢). وبعد عدة أيام، استدعى عبدالملك اليه البطرك، وطلب منه دفع خراج البيع، وشدد فى التضييق عليه، فطلب البطرك من الوالى اطلاق سبيله، ليتجول فى مدن وقرى الصعيد، ليجمع الأموال المطلوبة منه، فكان ذلك. ثم أطلق عبدالملك سراح البطرك بعد أن قدم له الأموال التى جمعها من القبط(٣).

وحدث أن اعتقل عبدالملك البطرك مرة ثانية، مما أثار غضب ملك النوبة كرياكوس وجهز فرقة من الجند، ليتقدم بها الى مصر، لقتال عبدالملك، وليرغمه على أن يطلق سراح البطرك حتى أنه وصل إلى بركة الحبش جنوب الفسطاط، مما أثار مخاوف عبدالملك، فأطلق سراح البطرك، وعهد اليه بتحسين العلاقة بينه وبين ملك النوبة(٤).

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٠٩ وما بعدها جـ٢.، السنكسار، جـ٢، ص٣٤ ـ ٣٥.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣١٨ وما بعدها جـ٢..
(٤) السنكسار، جـ٢، ص٣٥ وكذلك ساويرس ص ٣٦٣ وما بعدها جـ٢. =

وكانت البيعه ليس لها شى فبدا ان يعمل تذكارات كروما وطواحين ومعاصر للبيعه، فلم يصبر عليه مبغض الخير الشيطان كعادته فاثار حربا عظيما فى بداية قسمته فى الاعمال التى شرقى مصر وغربيها، حتى انهم كانو ينهبون كل المواضع ويقتلون، وكان حرب عظيم فى كل مكان، كما قال عاموس النبى: ان هذا ما قاله الرب الضابط ان يكون نوح [بكاء] فى كل موضع. فلما نظر الاب القديس ذلك حزن وسال الرب ان يستر على

تعرض القبط أيضا لبعض المضايقات، فى أثناء الصراع بين الأمويين والعباسيين. فلما فر مروان بن محمد ـ آخر الخلفاء الأمويين ـ الى مصر، عاث جنده فى البلاد فسادا، ونهبوا رؤساء القبط، وسبوا النساء والأطفال، واستولوا على الأموال. كما هرب كثير من القسس والرهبان خوفا من بطش مروان وجنده[1].

واعتقل مروان البطرك اليعقوبى أنبا خايال، والبطرك الملكانى قزما. ودفع قزما مبلغا من المال، فأطلق مروان سراحه، فى حين بقى أنبا خايال فى معتقله يقاسى العذاب، وتردد مروان فى قتله. ثم قال: «ما فائدتنا فى قتل هذا الشيخ، وقد كان منع البشامرة عن قتالنا، وكتب اليهم فما قبلوا منه. لكن نحمله معنا، ونجعله أيضا يكتب لهم، ويقول: ان كل ما حل به لأجلكم»[2].

Quatrémere: Mémoire Géographiques et histoiriques sur l'Egypte, T. 2, pp. 56-57. et. = Fowler: Chris-tian Egypt, p. 61. and. Sanley Lane-Poole: A history of Egypt in the Middle ages, p. 27.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٩٧ وما بعدها جـ٢..

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٨ وما بعدها جـ ٢.

البـيـعـه ويحـفظهـا والشـعب الارتدكـسى فى كل موضع ،ويدعـو ويقـول كـمـا قـال داود فى المزمور: يارب أذكر مجمعك الذى كان من البدى ونجيت عصـا [سبط] ميراثك،جبل صهيون الذى سكنت فيه، ارفع يدك على كبرياهم [كبـرائهـم] إلى الأبد لان كتيرة هى الاسوا[ء] التى صنعها العدو.

ولم يفتـر الشـيطان من اثارة الحـروب والقـتل. وكـان مـتـولى الخـراج فى ذلك الزمـان رجـلان،

ولما وصل جيش أبى مسلم الخراسانى الى مصر، هرب جند مروان الى الصعيد. وهناك قتلوا كثيرا من القبط، ونهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم، وأحرقوا الديارات بمن فيها من الرهبـان والراهبـات[١]. ويشير بعض المؤرخين الى أن جند مروان كانت تدخل مدن الصعيد، فتقتل كثيرا من أهلها، وتهدم ما بها من الكنائس[٢].

وفى الحقيقة تعرض القبط جميعا وبطركهم أنبا خايال، خلال تواجد مروان بن محمد فى مصر، لشدائد عظيمة، فقد أراد مروان قتل البطرك عدة مرات، ولكنه كان فى كل مرة يتراجع عن قتله وقد انتقل مروان وبعض جنده الى الجيزة عندما وصل الجيش العباسى، ومروا فى أثناء ذلك على دير راهبات، فأسروهن جميعا[٣].

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠٢ جـ٢، ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص٩٩.
المقريزى: الخطط، جـ٤، ص٢٩٥.
(٢) أبو صالح الأرمنى، ص٩٨.
ويذكر من بين هذه المدن مدينة طما ويبلغ عدد سكانها خمسة عشر ألف قبطى، وليس بينهم يهودى واحد. وكان لهم ست وثلاثون كنيسة. وقد أرسل مروان بن محمد فرقه من الجند، قتلت الكثير من أهل طما، وشردت آخرين. كما هدمت الكنائس ما عدا كنيسة أبى مينا، فى نظير تأدية ثلاثة آلاف دينار فلم يتمكن القبط الا من أداء ألفى دينار، فأصبح ثلث الكنيسة مسجدا للمسلمين.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٤٠٣ وما بعدها جـ٢. ابن العميد تاريخ المسلمين، ص٩٩.

احدهما اسمه احمد بن الاسبط، والاخر إبراهيم بن تميم. هذان مع ما كانو الناس عليه من البلايا لا يدعان طلب الخراج بغير رحمه، وكانو الناس في ضيق زايد لا يحصى. اصعب ما عليهم ما يطلبه منهم متوليا الخراج، وطلب ما لا يقدرون عليه. وبعد هذا انزل الله، الكريم باحكامه الحق، غلا عظيما على كورة مصر حتى ان القمح بلغ خمس ويبات بدينار. ومات بالجوع خلق كتير من النسا والاطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن

ولما تغلب العباسيون على الخليفة مروان بن محمد فى مصر، وقامت الخلافة العباسية، أطلق العباسيون سراح البطرك، ومن معه من المعتقلين. وقد أحسن الجند العباسيون للقبط وبطركهم، وطلبوا من كل قبطى أن يعلق صليبا من الذهب أو الفضة أو النحاس على جبهته وعلى ثوبه بل وعلى باب بيته، حتى يمكن التعرف عليهم دون غيرهم من المصريين، لتوفير الحماية لهم[1]. ومع ذلك ما لبث أن ضوعفت الجزية والخراج على المصريين. فلما تقدم البطرك بالشكوى، قيل له: ان هذا أمر من الخليفة لأنه علم أن أهل مصر اذا وجدوا راحة سنة واحدة، نافقوا وحاربوا، كما حارب البشامرة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين[2].

والواقع، أنه كما تعرض أهل الذمة ـ وخاصة القبط ـ للمضايقات فى فترات معينة طوال العصر الأموى، تعرضوا أيضا لبعض الشدائد فى عهد الخلافة العباسية فى بعض الفترات. نذكر منها، فترة النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة ـ رغم أن المصريين لم يكن لهم أى شأن فى ذلك ـ ، بعد وفاة أبيهما هارون الرشيد (١٩٣هـ ٨٠٩م) وما صاحب ذلك من تنافس بين الزعماء على الرئاسة ومناطق النفوذ فى مصر وانقسمت البلاد المصرية بين الزعماء

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٤٥٦ جـ٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٦٥ وما بعدها جـ ٢.

جـمـيع النـاس مـا لا يحـصى عـدده، مـن شـدة الجوع.

وكان متولى الخراج يوذى الناس فى كل مكان واكثر النصارى البشموريين كانوا يعذبونهم بعذاب شديد مثل بنى اسرايل. الى ان باعـو اولادهم فى الخراج من كتر العذاب.

لانهم كـانو يربطونهم فى الطواحين بدلا من الدواب ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب.

المتنافسين من العرب، فصار لعبدالعزيز الجروى شرقى الدلتا، فى حين ساد نفوذ السرى بن الحكم من مصر الى أسوان. أما قبيلتا لخم وجذام، فقد سيطرتا على غربى مصر، والاسكندرية ومريوط والبحيرة وأعمالها، وضيقوا على أهالى الاسكندرية[١] وكل أهالى مصر.

وخلال هذه الاضطرابات نزلت جماعة من القراصنة الأندلسيين فى مدينة الاسكندرية، وجاءوا بأعداد ضخمة من الرقيق والسبى. وكانوا يبيعونهم فى أسواق الاسكندرية، واشترى منهم البطرك اليعقوبى مرقص، حوالى ستة آلاف، من بينهم رهبان وقسس وشمامسة ونساء وأطفال، وقد أعتقهم البطرك مرقص، وجعل لهم حرية البقاء فى مصر أو الخروج الى بلادهم فاذا اختاروا مغادرة البلاد، كان يدفع لهم نفقات الرحيل حتى يبلغوا بلادهم[٢]. ويبـدو أن الأندلسـيين، كـانوا يطردون سكان الاسكندرية من ديارهم، سـواء من القـبط أو اليـهـود - ويسكنون فيها[٣].

طمع الأندلسيون فى السيطرة على مدينة الاسكندرية. فحاربوا قبيلتى لخم وجذام وقتل فى

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٨٠ جـ٢.

(2) Chronique de Michel Le Syrien, T. 3, fasc. I, pp. 23-24.

(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٦٨١ وما بعدها جـ٢..

وكان الذى يعذبهم رجلا اسمه غيث. وتمادت عليهم الايام وانتهو الى الموت، فلما نظرو اهل البشموريين ان ليس لهم موضع يخرجون منه وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكترة الوحلات فيه وما يعرف طرقه الاهم، فبدو أن ينافقو ويمتنعو ان يدفعو خراجا واتفقو وتامرو على ذلك.

وكان الملك فى ذلك الوقت عبد الله المامون ابن هرون الرشيد، ولما انتهى اليه حال مصر وما

أثناء ذلك كثير من أهالى الاسكندرية، سواء من القبط أو اليهود أو المسلمين. كما أحرقت معظم أحياء المدينة، وكثير من الكنائس. وعاث الأندلسيون فى المدينة نهبا وسلبا. وقتلا وتخريبا، مما اضطر البطرك مرقص الى مغادرة الاسكندرية، وقضى خمس سنوات فى ضيق وعذاب[1]. وتمكن أحد رؤساء القبط ويسمى مقارة بن ثابت النبراوى - من أهل سمنود - من الحصول، من عبدالعزيز الجروى على تصريح، يسمح فيه للبطرك، بالقدوم الى نبروه فى أمن وسلام[2]. وبالرغم من ذلك واصل البطرك اهتمامه ببيع الاسكندرية، وبيعة أبى مينا بمريوط[3].

(1) Chronic de Michel, T. 3, fasc. I, p. 60.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٦٩٣ وما بعدها جـ٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٠٣ جـ٢، حاول عبدالعزيز الجروى أن يتدخل فى تعيين البطرك الجديد بعد وفاة الأب مرقص ورفض القبط هذا التدخل، وعينوا البطرك يعقوب. فغضب لذلك عبدالعزيز الجروى، وأقسم بضرورة قتل الأساقفة، وتخريب ما بقى من كنائس مصر اذا لم يسلم يعقوب نفسه، ولكنه توفى قبل أن يصله البطرك يعقوب. انظر بتشر: تاريخ الأمة القبطية، م٢، ص٢٢٠ . ويذكر ساويرس أن سبب العداء بين البطرك يعقوب وبين عبدالعزيز الجروى، أن الأخير طلب من البطرك تعيين أحد الأشخاص أسقفا فرفض البطرك لمخالفة ذلك للقوانين الكنسية. فغضب عبدالعزيز وطلب البطرك اليه، وهدده اذا رفض قبوله. ولكن لم يتم ذلك لوفاة عبدالعزيز الجروى. انظر: ساويرس : ص ٧٧٤ جـ٢.

فعلوه المتغلبون والمتولون، انفذ اليهم عسكرا مقدمه امير اسمه الافشين فقتل الذين نافقو [البشمور] والخوارج من شرقى مصر، الى ان انتهى الى المدينة العظمى اسكندريه فاراد ان يقتل كلمن فيها من اهلها، لانهم مكنو العدو من الدخول الى مدينتهم فمنعه الله من ذلك لاجل دموع المومنين وصلاة البطرك انبا يوساب.

وكان الأفشين يقتل حتى الابريا بجريرة

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تعرض الرهبان فى برية شيهات[1]، لكثير من الأذى والارهاب، من العرب القاطنين فى الصحراء. وقد أسر هؤلاء العرب، الرهبان وهدموا البيع والقلالى، فى حين تمكن بعض الرهبان والقسس من الفرار من وجه هؤلاء العرب، وتشتتوا فى كل موضوع من البلاد المصرية[2].

ويصف أحد المؤرخين هذه الشدائد التى تعرض لها القبط فى مصر عقب وفاة هارون الرشيد اذ اختلف أولاده، وقامت الخوارج وتغلبوا على الاسكندرية ـ يقصد بالخوارج الأندلسيين ـ وقتلوا الكثير، ونهبوا البلاد، وخرج البطرك مرقس من المدينة، وبقى غائبا عنها خمس سنوات وثار المغاربة، وأحرقوا الديارات بوادى هبيب، ونهبوها، ولم يبق بها من الرهبان الا نفر قليل[3].

---

(١) برية شيهات هو الاسم القبطى لمنطقة أديرة وادى النطرون، ومعناه ميزان القلوب، لأنه مكان عبادة ونسك واصلاح السريرة. كما تسمى هذه المنطقة باسم الاسقيط أى الناسك أو النساك أو محل النسك= = وتسمى أيضا باسم وادى هبيب. انظر الخطط، جـ٤، ص٤١٥، عمر طوسون: وادى النطرون ورهبانه وأديرته، ص٣٩، عبدالمسيح البراموسى: تحفة السائلين، ص٤٤ .

(٢) ساويرس ابن المقفع: مصدر سابق.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص١٢٣ .

المفسدين الى ان ما بقى احد يراه الا قتله. وقتل جماعه من اراخنه النصارى فى كل موضع. وكان البطرك انبا يوساب حزينا لمشاهدته ذلك، من الوبا والغلا والسيف.

وتمو البشموريون موامرتهم وصنعو لهم سلاحا وحاربو السلطان واحمو نفوسهم ان لا يدفعو خراجا. فكلما يمضى اليهم ليتوسط حالهم قامو عليه وقتلوه.

وتعرض القبط وبطركهم الأب يوساب، أيضا لبعض الشدائد فى خلافة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ = ٨٣٧ ـ ٨٤٢م) عندما دفع أحد القبط الطامعين فى أسقفية وسيم، ويسمى تادرس، مبلغا كبيرا من المال، ليأمر البطرك يوساب، بتعيينه أسقفا، الا أن البطرك رفض ذلك، مما أثار حنق الوالى وغضبه. فهدد البطرك بهدم كل كنائس مصر، وبدأ بهدم كنائس الفسطاط[1].

وألزم هذا الوالى أيضا البطرك بدفع غرامة مالية قدرها، ثلاثة آلاف دينار، حتى يوقف عملية التخريب والهدم فأقلق ذلك القبط، الا أنهم ـ وخاصة الكتاب والرؤساء منهم ـ طمأنوا البطرك، ووعدوا الوالى بسداد المبلغ، مما خفف من حدة غضبه.

تداعى أسقف مصر (الفسطاط) أمام القاضى محمد بن عبدالله ضد البطرك يوساب، وكان يساعده فى ذلك بعض الأساقفة. فكان القاضى يستدعى البطرك ـ وهؤلاء القوم مجتمعون عنده ـ ويسمعه كلاما مهينا، الا أن البطرك يوساب، كان يجيب على كلامه فى قوة وشجاعة، ويستشهد فى حديثه بعبارات من الكتاب المقدس. كما أظهر البطرك يوساب.

---

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.

لما نظر ابونا البطرك انبا يوساب حزن على اولايك الضعفا لأنهم لا يقدرون على مقاومة السلطان، وانهم باختيارهم اختارو الهلاك لنفوسهم.

فبدا المهتم بخلاص شعبه الامين بالحقيقه وكتب اليهم كتبا مملو خوفا ويذكر لهم ما يحل بهم ليعودو ويندمو ويرجعو عن خلافهم ويدعو [يتركوا] مقاومة السلطان. فلم يرجعو، فلم يفتر

للقاضى واعوانه سجلات من الخلفاء بتأييد حقه فى البطركية، وتنصيبه بطركا للقبط فى مصر، السجل الذى منحه اياه الخليفة هارون الرشيد، ثم السجل الذى منحه اياه الخليفة المأمون عندما قدم الى مصر، والسجل الآخر كان من الخليفة المعتصم أخى الخليفة هارون الرشيد، ثم إلى السجل الذى منحه أياه الخليفة المأمون الواقع، وصرف البطرك مكرما، معززا[1].

وكان هذا القاضى. يأخذ غلمان البطرك يوساب، القادمين اليه، كهدايا من أفريقية والحبشة والنوبة، ويضطرهم الى اعتناق الاسلام، وترك خدمة البطرك يوساب وكنيسته .

وكانت أشد الفترات قسوة بالنسبة لأهل الذمة، فى العصر العباسى، هو عصر المتوكل على الله، الذى ضيق على الذميين جميعا ـ المسيحيين على اختلاف مذاهبهم واليهود ـ وظهر هذا واضحا فى تحديد أشكال الملبس والمسكن، ومنع الخليفة استخدام أهل الذمة فى الوظائف: كما منعهم من بناء الكنائس، وأمر بهدم المستحدث منها.

وكان والى مصر آنذاك ـ عبدالمسيح بن اسحق ـ يمقت أهل الذمة من القبط واليهود مقت

(١) المصدر نفسه، ص٣٠١ وما بعدها.

من مكاتبتهم كل يوم. وكان يكتب اليهم فصولا من الكتب ويقول: قال لسان العطر بولس كلمن يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله، والذى يقاومه يدان(*).

ولما وصلتهم كتب البطرك مع اساقفته، ونظرو اولايك الاشرار الابا الاساقفه، وثبو عليهم ونهبو كلما معهم، واهانوهم. فعادو الى البطرك وعرفوه ما جرى عليهم فقال: ما يبطى عن

(*) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٣ / ١ ، ٢، ٣، «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونه. فإن =

شديدا، الا أنه «بدأ بالنصارى، وأنزل عليهم بلايا، وأذلهم جدا، بأحزان شتى». فأمر بمحو علامة الصليب، وكسر الموجود منه، وألزمهم بأداء الصلاة والطقوس الدينية بصوت خفي. كما منعهم من الصلاة على أمواتهم، ومن ضرب الناقوس. وحرم النبيذ في جميع أنحاء مصر، فصار القبط يبلون عيدان النرجون بالماء، ويعصرونها، ويجعلونها محل النبيذ فى القربان وعمل القداس(١).

أنزل هذا الوالى، كل ظلم ممكن بأهل الذمة، فأبعدهم عن أعمال الحكومة والدواوين واضطرهم الى صنع ثيابهم، حتى لا يتشبهوا بالمسلمين. وأمرهم بأن يضعوا على أبواب دورهم صورا مفزعة تمثل الشياطين، كما منعهم من ركوب الخيل، ولذا رأى كثير منهم اعتناق الاسلام(٢).

(١) المصدر نفسه، وكان القبط يقولون: «انك أسلمتنا فى يد أعداء أثمة منافقين ماردين، ويد ملك ظالم، أشر من كل من على وجه الأرض. والآن لا نقدر أن نفتح فانا، لأن حزنا وعارا، صار لعبيدك، والذين يعبدونك، ولا تسلمنا لاجل اسمك».

(٢) المصدر نفسه، وكان من بين القبط الذين اعتنقواى الاسلام، قبطى يسمى اصطفن بن أندونه وأهله. وصار يذكر القبط بكل سوء. ويقول انهم كانوا يلبسون ثيابا بدون اكمام مثل الرهبان فى ذلك العصر.

=الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل للشريرة.

هولا الهلاك بل يتم عليهم ما قال النبى اشعيا: انى اسلمكم للسيف ويقع جميعكم بالقتل، لانى ناديتكم فلمم تسمعو كلامى وخالفتم وفعلتم الشر امامى.

(*) البطرك يوساب لا يتمكن من كتابة سنوديقا إلى شريكه فى الامانة بطرك انطاكية بسبب ثورات البشمور.

ولاجل هذه البلايا (*) والاحزان المذكورة ما تمكن الاب البطريرك ان يكتب سنوديقا الى شريكه فى الخدمه والامانه بطرك انطاكيه وكان مهتما بذلك اكتر مما ناله من التجارب، فانه لم

وما لبث أن عزل الخليفة المتوكل، هذا الوالى، وجعل ابنه مكانه، ولكنه انتهج سياسة أبيه فى معاملة أهل الذمة، بالقسوة والارهاب[١]. وسخر القبط فى اصلاح مراكب الأسطول. مقابل اطعامهم، وبدون أجر.

كما أمر هذا الوالى باحصاء عام للمدن والقرى، وفرض على كل ضيعة، تقديم عدد من الرجال للعمل فى الأسطول. وكان على القبط أن يشتروا من أموالهم، الأدوات والعدة اللازمة لذلك، ومن خالف هذه الأوامر، فرضت عليه غرامة مالية. وكان الوالى يجند أحيانا لهذا العمل الضعفاء الذين ليس لهم قدرة على السير، ولا يعرفون صنعة البحر، فيضطر هؤلاء بدورهم أن ينيبوا عنهم من يقوم بذلك بدلهم، نظير دفع مبلغ من المال لهم.

ولما ولى المنتصر بن المتوكل الخلافة (سنة ٢٤٧هـ ٨٦١م) جعل على خراج مصر أحمد بن مدبر، الذى اشتهر بالقسوة والشدة، وحبه لجمع المال، فأحزن ذلك الأب شنوده بطرك

(١) المصدر نفسه، ويقص لنا بعض العجائب التى هى فى الواقع من صنع الخيال، فلا يعقل مثلا أن تنزف صور مرسومة دما ولا يسيل من عيونهه دموع. ويروى هنا المؤرخ أن سكان وادى هبيب، شاهدوا الدم ينزف من جنب صورة السيد المسيح فى بيعة القديس ساويرس، واستعمل هذا الدم فى شفاء المرضى. وفى رواية أخرى أن جميع صور أديرة وادى هبيب كانت تسيل الدموع من عيونها، بسبب ما أنزله ولاة مصر من ظلم بالقبط. انظر المصدر نفسه، ص .

يجد راحه يوما واحدا منذ جلس ليكتب الى كرسى انطاكيه باتحاد المحبه وثبات الارتدكسيه.

ولم يدعه محب البشر فى حزنه هكذا لاجل اتحاد الكرسيين اسكندريه وانطاكيه فدبر بأمر عجيب ان يصل الاب ديونوسيوس بطرك انطاكيه الى مصر ويشاهد بعضهما بعضا حسب ما نذكره فيما بعد.

ولما نظر الامير الافشين تمادى البشموريين على

القبط[١]. ولما قدم ابن مدبر الى مصر، وضع يده على أموال المسلمين، والقبط، واليهود، وضاعف عليهم الجزية والخراج. وأمر باحصاء الرهبان فى جميع أرجاء مصر، وألزمهم بدفع الجزية والخراج.

وقرر ابن مدبر أن يصحب معه البطرك شنودة الى وادى هبيب، ليضمن له ما على أديرته من جزية وخراج، وطبق ابن مدبر هذه القرارات أيضا على باقى أديرة وبيع مصر كلها ورأى الأب شنودة، الهرب نجاة بنفسه من هذه المضايقات، كما هرب كثير من الأساقفة.

انفذ ابن مدبر نوابا عنه، الى مختلف الأقاليم المصرية، فسلبوا من الأديرة والكنائس ما بها من الآلات والأدوات الخاصة بالقداس، وألزموا القومة[٢] بدفع ديارية الأساقفة وحملوا كل ذلك الى الديوان. كما أمر ابن مدبر باغلاق جميع الكنائس فى مصر الا كنيسة واحدة،

---

(١) المصدر نفسه، ويشير الى أن ابن مدبر أنزل كثيرا من البلايا بأهل فلسطين قبل قدومه أما البطرك شنودة فأصله من قرية البتنون، وعمل فى خدمة البطرك يوساب ثم عين أقنوما لبيعة القديس أبى مقار. وقد أقيم بطركا بعد وفاة البطرك قسما.

(٢) القومة: جمع قيم وهو الشماس. انظر القلقشندى: صبح الأعشى. جـ٥، ص٤٧٤. ويقومون بخدمة الكنيسة ومساعدة الأساقفة والقسس فى تقديم القداس. انظر:

Autefag.s: Les Copts, p.33.

شـرهم ونفـاقـهـم وانهم لا يعـودون عن فـعلهم ، كتب الى الخليفه عبد الله المامون يعلمه بماجرى.

فـاسـمعـو الآن ايضـا، كـان اسـقف على كـرسى تنيس اسمه اسحق وكان شعبه قد سعى به دفعات بكلام ردى وقـالو للاب يوسـاب: اذا لم تقطع هذا الاسـقـف وتزله عنـا والا خـرجنا عن ديـن الارتدكسيه.

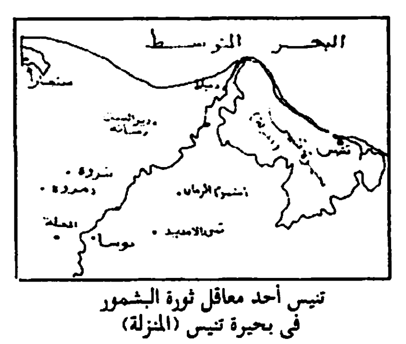
وكان ايضا بمصر اسقف اخر اسمه تادروس قد

ليقدموا فيها القربان[1] وأنزل نواب ابن مدبر، المظالم بالأساقفة والرهبان، وكانوا يحملونهم مقيدين بالحديد الى مصر، حتى يؤدوا ما عليهم للديوان، واستمر البطرك مختفيا نحو ستة أشهر، فى حين كان شعبه القبطى فى أشد حالات الحزن والألم، لما أنزله ابن مدبر ونوابه بهم جميعا.

ورأى البطرك شنودة أن يعاود الظهور من مكمنه، ويسلم نفسه لابن مدبر. فكتب يلتمس منه الأمان، فوعده ابن مدبر بذلك، اذا قدم قبل أن يقبض عليه أحد عماله، أما اذا قبض عليه قبل أن يسلم نفسه، فان ابن مدبر سينزل به وبالكنائس والأساقفة أشد أنواع العذاب[2]. فسلم البطرك شنودة نفسه لابن مدبر، الذى ما لبث أن طالبه بما عليه من خراج بلغ سبعة آلاف دينار. وقد تعاون جميع الأساقفة بمصر مع البطرك فى تسديدها «وكانت كورة مصر فى ضيق عظيم، وافتقر الأساقفة والرهبان، وكل واحد، من أجل الغرامات التى رتبها هذا الانسان المخوف، أكثر من جميع من تقدمه».

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.
(٢) المصدر نفسه، وذكر هذا المؤرخ أن ابن مدبر كان يكتب على ما يجمعه من الأموال، هذا ما كان يسرقه من تقدمتى، المصدر نفسه ص٢٨.

ذكر شعبه عنه مثل هذا، وكتبو المصريون الى البطرك يقولون له: ان لم تقطعه وتبعده عنا والارجمناه وقتلناه.



تنيس أحد معاقل ثورة البشمور
فى بحيرة تنيس (المنزلة)

فلما نظر البطرك القديس قيام الشعب حزن جدا وقلق وقال: ما الذى في هذا البلا[ء]. وكان يدعو ويقول يارب ثبت شعبك لرعاتهم، ولا تدع في ايامى بغضا.

ولم يفتر من مكاتبة الشعب [فى] تنيس ومصر

بعد وفاة الخليفة المنتصر، وقع نزاع بين المتنافسين على الخلافة (المستعين والمعتز) واستمر هذا النزاع ثلاث سنوات (حتى سنة ٢٥٢هـ = ٨٦٦م) وانتهى بتولية المعتز الخلافة. وفى أثناء هذا النزاع، كسدت التجارة بين مصر والمشرق، واستمر ابن مدبر عامل الخراج فى مصر، فى تشدده على جمع الأموال ومصادرتها من أهل الذمة وغيرهم فى مصر[١].

وعاثت العرب، القاطنون فى الجبال والبرارى فى أرض مصر من بقايا القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر ثم حرمهم الولاة من غير العرب امتيازاتهم فسادا ونهبا، وخاصة فى الصعيد، ونهبوا كثيرا من الأديرة، وقتلوا من بها من الرهبان والراهبات. عند ذلك قرر الكاتبان القبطيان ابراهيم وساويرس السفر الى بغداد، العاصمة العباسية، وتقديم شكواهم الى الخليفة المعتز، ورحب الخليفة بمقدمهما، وكتب لهما سجلاً، يسمح للقبط باعادة بناء الكنائس فى مصر، وضمان سلامتها. وثبت السجل فى الديوان، الا أنه توفى قبل أن يوقع عليه.

ابتهج البطرك شنودة والقبط فى مصر، وقاموا باعادة بناء الكنائس فى كل مكان من

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، جـ٢. كان المتوكل، قد أوصى بولاية أولاده الخلافة من بعده. فلما ولى بعده المنتصر، اعتقل أخويه المعتز والمؤيد، فلما ولى المستعين الخلافة (فى سنة ٢٤٨هـ ـ ٨٦٢م) أطلق سراحهما، الا أن المعتز حاربه من أجل الخلافة، فكان ما ذكرنا فى المتن.

المدينتين ، ويقول من قول بولس : ما تفرحون انتم اذا اعتللنا نحن، وتكونون انتم اقويا. هذا الذى ادعوه من اجلكم لتخلصو واكاتبكم به، ولا احضر عندكم كاننى حاضر عندكم، ولا اصنع حرما ومنعا، كما امرنى الرب ان ابنى ولا اهدم.

وبقى الشعب متمادين على فعلهم يقولون بقول واحد ولا يتغيرون عنه: انه ان لم ينقطع

أسوان الى الفرما وعم الفرح والسرور فى البلاد. ولكن ما لبث أن انقلب ابتهاجهم الى حزن، فقد ثار بعض المسلمين فى الاسكندرية، وانضم اليهم العربان، وعاثوا فى البلاد نهبا وسلبا، وأحرقوا الأديرة بمن فيها، ثم حاصروا الاسكندرية، ومنعوا وصول المؤن والمياه اليها. فساءت أحوال السكان داخل المدينة، وحرمت الكنائس من اقامة القربان، لعدم توفر الغلة والخمر «فأواس [أوقاف] البيع قد ملكها هؤلاء القوم، ونهبت مخازنها وأموالها وتقووا بها على محاصرة اسكندرية».

حزن البطرك شنودة لذلك أشد الحزن، واستقر به المقام فى مدينة المحلة الكبرى وكان يدفع للتجار الأموال، ليشتروا بها تجاراتهم، فاذا دخلوا مدينة الاسكندرية سلموا هذه الأموال للمسئول عن الكنائس بها ـ ويسمى الأقنوم ـ لينفق منها على البيع وبهذه الوسيلة استقامت أحوال كنائس الاسكندرية. واستمر العربان ومن معهم، ينهبون الأديرة والقلالى، والرهبان صابرون على ما حل بهم من ضيق وشدة.

فلما ولى مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ ـ ٢٥٤هـ = ٨٦٧ ـ ٨٦٨م)، صحب معه الى مصر قوما من الأتراك الأقوياء، وأعد العدة لقتال القوم الثائرين بمدينة الاسكندرية وحاربهم فى

هذان الاسقفان والا فما بقى منا انسان واحد فى الامانه الارتدكسيه، بل نعود الى المخالفين وانت المطالب عنا.

فلما سمع هذا اسرع الى تنيس وسالهم ان يعودو عن غضبهم فلم يفعلو، بل زادو فى غضبهم، وكذلك مدينة مصر ايضا مع اسقفهم.

فما راى ذلك انفذ واجمع الاساقفه من كل موضع وعرفهم الخبر وقال لهم انا برى من هذا

البر والبحر، حتى تمكن من اخماد ثورتهم والقضاء عليهم. واسترداد ما نهبوه من المتاع والأموال، فأمنت مصر من شرهم. وعاد اليها الأمن والهدوء[1].

---

(١) المصدر نفسه، وكان ذلك وابن المدبر مازال على خراج مصر. كثر الاتراك فى مختلف أنحاء الدولة الاسلامية منذ خلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ. وعلا أمرهم فى البلاد. فقد ضاق المعتصم من استئثار الفرس بالنفوذ كما ضاق بتيارات الشعوبية التى ثارت بين الفرس والعرب. كما كانت أم الخليفة تركية فاعتمد الخليفة على الاتراك، واتخذ منهم حرسا خاصا له، كما أسند اليهم مناصب الدولة، ومن ثم أصبح ولاة مصر معظمهم من الأتراك وكانوا يقيمون فى مقر الخلافة فى بغداد يرسلون الى مصر من ينوب عنهم فى حكم البلاد باسمهم، فيدعون لهم على المنابر، وينقشون أسماءهم على السكة. انظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسى، جـ٢، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

وانتم [كذلك]. اخيرا نكتب ونمنع الاسقفين اسحق اسقف تنيس وتادرس اسقف مصر وحطوهما عن كرامتها وابعدوهما عن الاسقفيه.

ولم يتخل ابونا الرحوم من دوام الصلاه وسكب الدموع الغزيره و التنهد على قطع هذين الاسقفين.

وكان الافشين بمصر ينتظر جواب ما كتب به الى المامون بسبب اهل البشمور. وكان المامون

مصريو النوبة عبر التاريخ(*)

من القرن الأول الميلادى حتى القرن ١٦م

مقدمة جغرافية. النوبة وأسماؤها المختلفة فى التاريخ. النوبيون ومراحل تاريخهم.

من الضرورى قبل أن نبدأ بدراسة تاريخ ممالك النوبة المسيحية، أن نتعرض فى شىء من الإيجاز، للمقومات الجغرافية للبلاد التى قامت فيها هذه الممالك المسيحية، لمعرفة ما لهذه المقومات من أثر فى تشكيل المجتمع النوبى، وتفسير بعض نواحى حياته ونشاطه وأسس حضارته.

يطلق لفظ «النوبة» على أجزاء وادى النيل الممتدة على جانبى النهر الأعظم بين مدينتى أسوان والخرطوم الحالية، وعلى الرغم من انكماش أوطان النوبيين فى الوقت الحاضر فإن ذلك لا يمنع من دراسة إقليم النوبة بوضعه الجغرافى القديم، لأنه كان مجالا لنفوذ تلك الممالك التى أسهمت بنصيب كبير فى تاريخ السودان فى العصور الوسطى.

ويبدو من وصف الكتاب القدماء لهذه البلاد، أنه لم يطرأ تغيير ظاهر على بيئتها الطبيعية،

(*) انظر كتاب الاسلام والنوبة. تأليف: د. مصطفى محمد مسعود. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة ١٩٦٠.

رجـلا حكيمـا فى فـعله ويبـحث عن مـذهبنا، ويجلس عنده قوم حكما يفسرون له كتبنا، وبهذا الحكم كان محبا للنصارى.

فجا[ء] الى مصر وجمع جيشه واستصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك انطاكيه.

فلما علم الاب البطرك انبا يوساب بوصول المامون وصحبته بطرك انطاكيه جمع الاساقفه

ما خلا ما تناولته يد الإنسان بالتعديل أحيانا، وبالتهذيب أحيانا أخرى[١] .

ويتصف هذا الجزء من وادى النيل بظواهر جغرافية هامة، أثرت فى تاريخ الجماعات البشرية التى استوطنته فى مختلف العصور. ومن أهم هذه الظواهر كثرة انحناءات المجرى فيما بين مدينتى أسوان والخرطوم، فضلا عن اعتراض الجنادل، وهو بهاتين الظاهرتين يمثل القطب الذى ترتبط به حياة السكان، الذين تجمعوا فى واديه الصحراوى الضيق[٢] وثمة ظاهرة أخرى هى اختلاف الأحوال الجوية بين جزأى هذا الاقليم، فبينما نرى منطقة يصيبها مطر صيفى محدود وتمتد من جنوبى بربر إلى الخرطوم، نرى منطقة نادرة الأمطار أو تكاد تكون عديمة الأمطار، وهذه تمتد من شمالى بربر إلى أسوان، لذلك قسم الجغرافيون إقليم النوبة إلى ثلاثة أقسام هى: وادى النوبة العليا ـ ووادى النوبة الوسطى ـ ووادى النوبة السفلى[٣] .

أما وادى النوبة العليا فيمتد من منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق إلى دنقلة، وتبتعد حافة الوادى بعض الأحيان قليلا على جانبى النهر فيتسع الوادى، وتصبح له صفة الحوض، الذى

(1) Kirwan, L. P. "The Ballana Civilization". Bulletin de la Societe Royale de Geographie d'Egypte XXV, P. 103.

(2) Tothill, J.D. : ed. Agriculture in the Sudan p. 740.

(٣) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ـص٢٨٥ .

وسار الى فسطاط مصر ليسلم عليه كما يجب للملوك.

فلما نظر الاب ديونوسيوس الاب انبا يوساب فرح فرحا عظيما روحانيا، وكان هذا تدبيرا من الله كما بدأت، وقلت انه ما قدر ان ينفذ السنوديقا الى دينوسيوس، وكان له منزله عند عبد الله المامون، فلما عرفوه بوصول انبا يوساب تقدم بدخوله اليه، فلما حضر عنده قبله بفرح بنعمه الله الحالة عليه، ثم عرفه انبا ديونوسيوس ان ابانا

تنغمر بعض أجزائه خلال أيام الفيضان. ويتمثل ذلك فى الجزء الذى يقع فيما وراء شندى[1] . وكذلك الجزء الذى يمتد إلى ما وراء الجانب الأيسر من النهر، فيما بين مروى وأبو فاطمة[2] . وتمثل هذه المناطق التى يتسع فيها الوادى على أحد الجانبين مركز تجمع السكان الذين تساعدهم البيئة الطبيعية على مباشرة الزراعة معتمدين على مياه النهر.

وتفهم أحوال المناخ فى النوبة العليا من موقع الإقليم على الحافة الصحراوية التى تتضاءل فيها كميات المطر السنوى إلى حد كبير، إذ يلاحظ المتجه شمالا من الخرطوم تناقص كمية المطرى السنوى، فهى فى الخرطوم ١٦٣ مليمترا سنوياً، وفى أتبرا ٧٥ مليمترا سنوياً، ومن ثم يزداد الجفاف شمالا فتنخفض كمية المطر السنوى فى كريمة إلى ٢٥ مليمترا سنويا، وتتساقط هذه الكمية المحدودة فى شهور الصيفى، فيما بين يوليو وسبتمبر[3] . وهى الشهور التى ترتفع فيها الحرارة بشكل ملحوظ وتسود فيها رياح الجنوب الساخنة. وهذه الكميات المحدودة من المطر لا تؤثر فى حياة السكان ونشاطهم، إلا فى حدود ضيقة، ولكنها مع ذلك تتجمع فى بطون الأودية الجافة والأخوار، وتسيل فى اتجاه الوادى من الصحراء التى تشرف على الجانبين،

---

(1) Tothill, J.D. - ed. op. cit. p. 744.

(٢) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ـ ص١٢١.

(3) Tothill., J.D. - ed. op. cit. p. 740.

لم يتاخر من مكاتبة البشموريين واردعهم ان لا يقاومو امرك.

ففرح المامون بهذا الامر ثم قال للبطرك انبا يوساب: هو ذا آمرك انت ورفيقك البطرك ديونوسيوس ان تمضيا الى هولا القوم(*)، وتردعاهم كما يجب فى ناموسكما، ليرجعو عن خلافهم ويطيعو امرى، فان اجابو فانا افعل معهم الخير فى كلما يطلبونه منى، وان تمادو على الخلاف فنحن بريون من دماهم.

(*) المأمون يرسل البطرك انبا يوساب والبطرك ديونوسيوس لتحذير البشمور من قوته وسطوته.

فتبعث بعض النشاط فى بطون تلك الأودية، حيث تمرح الحيوانات فى مناطق العشب القصير الذى يتبع فصل المطر. وتمثل هذه الأودية من ناحية أخرى طرق المواصلات التى تنساب من الشرق والغرب إلى الوادى. ومنها واد الملك الذى ينساب منحدرا من الجنوب الغربى إلى الوادى قرب الدبة. ووادى مقدم الذى ينساب فى قلب صحراء بيوضة نحو الشمال. أما من ناحية الشرق فهناك وادى عامور الذى ينساب من السفوح الغربية لتلال البحر الأحمر.

فى هذه المنطقية ـ أى فى وادى النوبة العليا ـ قامت دولة كوش، وكانت عاصمتها نباتا ثم بعدها مروى(١) ، التى تكونت فى منطقة يتسع فيها الوادى اتساعاً ملحوظاً، حتى أصبحت مركزاً زاول فيه السكان الزراعة. وكانت مروى تعتبر مركزاً هاماً للتجارة، لا بين الجنوب والشمال عن طريق النيل فحسب، بل كذلك بين سهول كردفان فى الغرب وموانى البحر الأحمر فى الشرق(٢) . ووصف سترابون وديودور الصقلى وبلينى هذه البلاد. فأشار سترابون إلى موقعها بين التقاء نهر Astaboras «الأتبرا» ونهر Astasobas «النيل الأعظم». وهى غنية بثروتها المعدنية والغابية، وكان سكانها يزاولون الزراعة والصيد. ولاحظ سترابون تجمع السكان

(١) مدينةنباتا وهى العاصمة القديمة لدولة كوش تقع عند سفح جبل البركل قريبا من الشلال الرابع، أما مروى فهى بخلاف مروى الجديدة والتى تجاور مدينة نباتا. ومروى القديمة تقع بالقرب من كبوشية الحالية ويسمى الإقليم الواقع بين الأتبرا والنيل جزيرة مروى.

(2) Triminghom, J.S. Islam in the Sudan. pp. 42 - 43.

ففعل ابوانا البطركان وسارا الى البشموريين وسالاهم ثم نصحاهم ووبخاهم ليتخلو عن افعالهم، فلم بجيبو ولا قبلو سوالهما[*] [ولا سلم لهم البشموريين]، فعادا واعلما المامون بذلك فامر حينذ المامون الافشين الامير بان يسير اليهم بعسكره وان يقاتل البشموريين.

(*) البشمور يرفضون وساطة البطركين يوساب و ديونيسيوس ويستمروا فى مقاومة جيوش المأمون بقيادة التركى افشين.

فلم يقدر عليهم لتحصين مواضعهم بالمياه، ومواضعهم تسمى التنفير[*] بل كانوا يقتلون من

(*) وهى ما نسميه الآن البرارى.

على امتداد هذا الجزء من وادى النيل فعلى الجانب الأيسر كان يعيش النوبيون والليبيون. وفى الناحية اليمنى كان يعيش الميجاباريون Megabari والبليميون Blemmyes . أما الصحراء فكانت خالية من السكان إلا فى بعض مواقع[١] كالواحات. وفى هذه المنطقة أيضاً قامت دولة علوة حوالى منتصف القرن السادس الميلادى، وكان طرفها الشمالى منطقة الأبواب (كبوشية الحالية) وتمتد إلى جنوب التقاء النيلين الأبيض والأزرق. وقامت العاصمة سوبا على الضفة اليمنى للنيل الأزرق.

أما وادى النوبة الوسطى، فيمتد من دنقلة إلى حلفا، وكان ولا يزال جزءاً أساسياً من أوطان النوبيين. واحتفظ النوبيون به عندما اضطرتهم الأحوال البشرية التى سادت إلى التخلى عن أغنى الأجزاء من وطنهم. ويتصف هذا الإقليم بضيق واديه وكثرة ما يعترض مجرى النهر من جنادل[٢] . ويقلل القيمة الإنتاجية لهذا الإقليم، ضيق الشريط الخصيب على جانبى النيل، وارتفاعه كثيراً عن مستوى النهر.ومما يزيد الحياة صعوبة كذلك وقوع هذا الإقليم فى وسط

(1) Budge, E. A. Wallis.: The Egyptian Sudan. p. 158.
نقلاً عن Strabo .

(٢) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ص١٢٢ ـ ١٢٣.

عسكر الافشين كان يوم جماعه ، فلما اتصل الخبر بالمامون سار بجيشه(*) وانحدر الى هناك، وامر ان يحشدو جميع من يعرف طرق البشموريين من اهل المدن والقرى المجاوره لهم ومن كل الاماكن ومن اهل تندا وشبرا سنبوط الذين يعرفون طرق تلك الاماكن. وكانت العساكر تتبعهم الى ان سلمو لهم البشموريين، فهلكوهم وقتلوهم بالسيف بغير اهمال ونهبوهم واخربو مساكنهم واحرقوها بالنار وهدمو بيعهم، وتم عليهم قول داود النبى فى

(*) المأمون يجمع جيوشه ويهاجم البشمور بعد فشل الأفشين فى القضاء عليهم.

النطاق عديم المطر، وتتراوح كمية المطر السنوى بين الصفروخمسة مليمترات. فلا يصيب الإقليم إلا بعض الرذاذ الذى يتساقط فجأة ودون أن يكون لسقوطه قيمة تذكر(١) .

وبهذا يمكننا تصوير مدى قسوة الأحوال الطبيعية فى هذا الإقليم، ومدى ارتباط حياة السكان تماما بالنهر، ونوع الفيضان والمستوى الذى يصل إليه ماؤه. ويمارس السكان زراعة السلوكا فى الأجزاء الضيقة المحدودة التى ينحسر عنها النهر فى مدة انخفاض المناسيب، وتزرع فى هذه الأجزاء المحاصيل دون ريّ معتمدة على ما تتشبع به من رطوبة فى موسم فيضان النهر. ويغلب عليها أن تكون من المحاصيل سريعة النضج. أما الزراعة الحقيقية فتعتمد على الساقية التى تروى مساحات محدودة لا تزيد على عشرة أفدنة. وامتدت المضخات إلى هذا الجزء، ولكنها لم تجد أرضا فسيحة لخدمتها إلا فى منطقة الأحواض التى تعرف باسم حوض دبيرة وحوض حلفا(٢) .

ويكتنف ذلك الإقليم على الجانبين صحراء جافة جرداء تنعدم فيها مظاهر الحياة إلا فى مناطق الواحات. وأهم هذه الواحات ما يمر بها درب الأربعين وهى واحة بيرنطرون ونخيلة وسليمة.

....

(1) Tothill, J.D. - ed. op. cit. pp. 74 - 750.

(2) Tothill, J. D. , ed. : op. cit. p. 749.

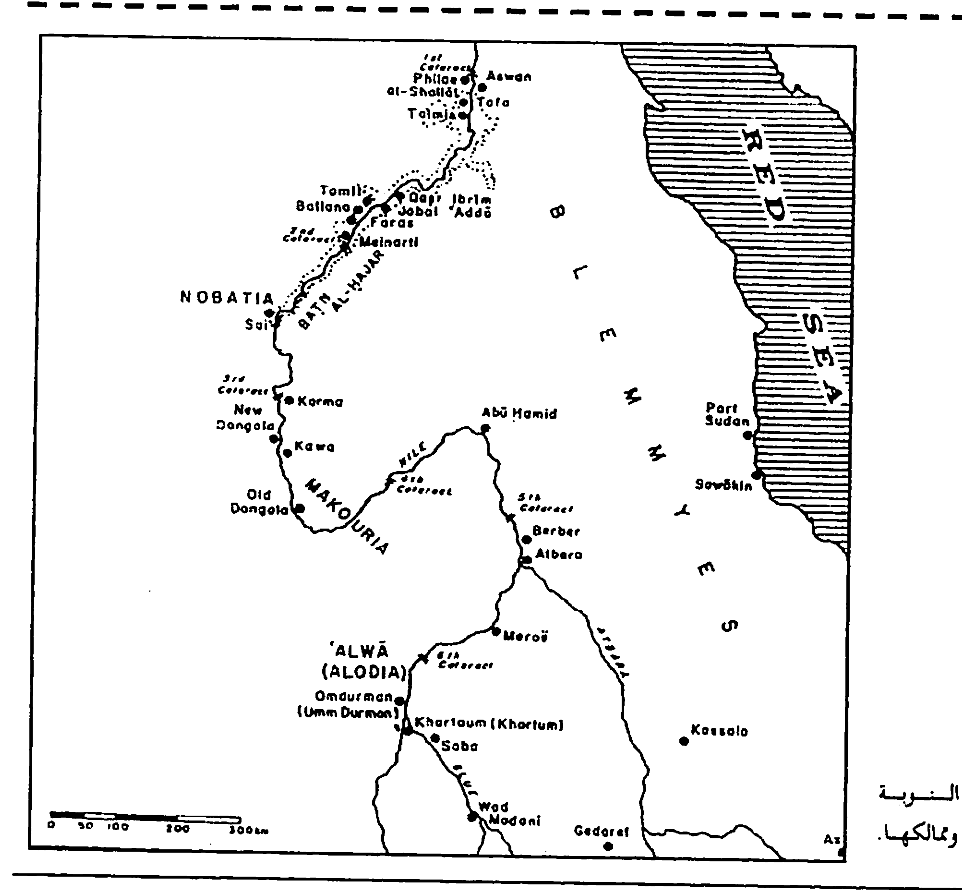
المزمور [٧٧] : اسلم قوتهم للسبى ومالهم لاعداهم واسلم شعبه للسيف ولم يشفق على ميراثه.

ولما نظر المامون كثرة القتلى امر العسكر ان ترفع السيف والذى بقى منهم اسره الى مدينة بغداد (*) من الرجال والنسا.

فسال الاب البطرك انبا ديونوسيوس(*) : اى شى كان السبب فى نفاق هولا القوم؟ فعرفوه انه بسبب ظلم متولى الخراج لهم أولا. فتوجع قلبه

(*) كان من تقاليد العباسيين الطواف بأسراهم فى الحروب بعاصمتهم بغداد.

(*) كان البطرك ديونوسيوس من المفاوضين للبشمور فكيف لا يعرف سبب ثورتهم؟



النوبة وممالكها.

على هلاكهم وتقدم الى المامون وقال له لمنزلته عنده، وكان مع المامون اخوه المسمى ابرهيم(*) الذى ملك بعده وقال له: السبب فى نفاقهم ظلم متولى الخراج لهم وعنتهما عليهم.

(*) ابراهيم: هو الخليفة المعتصم فيما بعد تولى فى سبتمبر ٨٣٣ م = رجب ٢١٨هـ.

فلما سمع منه هذا قال له اعف نفسك(*) ولا تقم بمصر بعد هذه الساعه، ان سمع اخى ابرهيم ذلك فهو يقتلك، لان جباة الخراج كانو من عنده.

(*) المامون يعفى البطرك ديونوسيوس ويأمره بالرحيل عن مصر بسبب نصيحة منه حول المعاملة القاسية للمصريين عند تحصيل الخراج.

وأما وادى النوبة السفلى فيمتد بين وادى حلفا وأسوان، ويمثل بذلك المرحلة الأخيرة للوادى الضيق. وهذا الجزء من الوطن النوبى محدود القيمة، ففى مدة ارتفاع المناسيب يبدو النهر منحصرا بين حائطين جبليين شديدى الانحدار، ويبدو هذان الحائطان عموديين فى بعض المواضع، ويشرف على النهر مباشرة بعض الثغرات التى تمثل فتحات للأخوار والوديان التى تنساب إلى النهر من الجانبين الشرقى والغربى.

أما فيما يتعلق بالنهر ذاته فهو معتدل الجريان صالح للملاحة[1] وفى مدة انخفاض المناسيب ينحسر النهر عن شريط ضيق، يظهر هنا وهناك فى أحد الجانبين، وفى هذا الشريط يكثر النخيل ويهبط السكان من حافتى الوادى ليمارسوا الزراعة، فيزرعون مساحات محدودة للغاية. أما فى موسم الفيضان فتغمر تلك المساحات، ويصعد السكان إلى قراهم فيما وراء مستوى التخزين ويباشرون زراعة مساحات أشد ضيقا فى مصاطب يعدونها. ويرفعون الماء إليها بالسواقى.

ويعتبر هذا الاقليم ـ وقد بدا فقره ـ موطنا من مواطن العزلة التى يعبر عنها العلماء بأنها مناطق الطرد. ونرى النوبيين جيلا بعد جيل يخرجون من أوطانهم الفقيرة متتبعين مجرى النهر شمالا وجنوبا، ولكنهم مهما طال بهم البعد عن أوطانهم يعودون إليها. ويعيش كثير من

(١) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ـ طبعة ثانية ص١٢٣.

فلمـا سـمع الاب ديونوسيـوس هذا خـرج وهو قلق وودع الاب انبا يوساب وقال له: ما يمكن ان اقيم ساعة واحده بمصر. واستعلم منه الخبر فاعاده عليه وودعه وهو باك.

فلمــا سـمع ابرهيـم هــذا الخــبر طلب البطـرك ديونوسيـوس وارسل اليـه فاعلم بمسيـره الى بلده فغضب جدا وتمكن الغضب منه اياما كتيره.

سكان القـرى النوبيـة اليـوم على المساعـدات المادية من أولئك الذين يعيـشـون فى مصـر والسودان(١)

وقامت فى هاتين المنطقتين ـ النوبة السفلى والوسطى ـ مملكة النوبة الشمالية وأطلق عليها اسم مَقُرَّة،وعاصمتها دنقلة، وامتدت هذه المملكة من جنوبى أسوان إلى منطقة الأبواب(٢). ويبدوى أن اختيار دنقلة عاصمة للدولة المسيحية فى الشمال،كان نتيجة لوقوعها فى منطقة يتسع فيها الوادى، بحيث يسمح بقيام حياة بشرية مستقرة.

* * *

عرفت هذه المنطقة جميعها ـ أى النوبة العليا والوسطى والسفلى ـ وهى التى تمتد من الشلال الأول فى الشمال إلى جنوبى إلتقاء النيلين الأبيض والأزرق باسم النوبة فى العصور الوسطى. ولكن ما مصدر هذه التسمية؟

ليس لدينا من الوثائق ما يشير إلى ظهور كلمة نوبة قبل العصر البطلمى فى مصر. وأول من أشار إليها إراتوسطينى Eratosthenes الجغرافى وأمين مكتبة الاسكندرية (٢٧٦ ـ ١٩٩

(١) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله. ص٢٨٥.

(٢) لا زال النهر ما بين الشلال الأول والسادس يعرف باسم النيل النوبى. ويعنى هذا أن النوبيين خلعوا اسمهم على النهر بعد أن تخلوا عن جزء كبير من واديه من الخرطوم إلى الدبة.

ولما توفى المامـون وجلس ابرهيم [المعتـصم] اخوه هرب البطرك ديونوسيوس ولـم يقم بانطاكيه ولا باعمالها حتى عاهده انه لا يقتله. فلما عاد الملك ابراهيم ايضا الى مصر وخرج البطرك ودعه كما يجب عليه للملوك ووصل اليها واقام بها.

وكان الاب البطرك انبا يوساب بمصر فنظر الى ذلك الارخن اسحق [السيد ابن اندونه وهو ليس اسحق اسقف تنيس] الذى كان طلب البطركيه

ق. م.)، ثم أخذها عنه سترابون. ويبدو مما ذكره سترابون عن هذه المنطقة وسكانها أنها أخذت اسمها من أحد الشعوب التى كانت تعيش على الضفة الغربية للنيل وهم النوبيون. ثم صار هذا الشعب فيما بعد سيداً عليها كما أن اسمه ظل علما على هذه المنطقة كلها طوال العصور الوسطى[١] . بيد أن سترابون ذكر أن النوبيين شعب مستقل عن الأثيوبيين، على حين ذكرهم بلينى على أنهم شعب من مجموعة الشعوب الأثيوبية التى تعيش فى وادى النيل [٢] .

وجاء فى النقوش المصرية القديمة ذكر كلمة نوب nubu ومعناها الذهب ـ أى بلاد الذهب ـ وهو أحد الاسماء التى أطلق المصريون القدماء على هذه البلاد، كما وصفت البلاد بهذا الاسم فى كتابه فى الأسرة الثانية عشرة فى عهد الملك امنحتب الأول[٣] .

وأقدم تعريف للبلاد الواقعة جنوبى مصر مباشرة، جاء فى نقوش الدولة القديمة. إذ أطلق المصريون على هذه البلاد اسم خنت، ومعناها الأراضى الجنوبية[٤] . ويقول ريزنر إن المصريين القدماء أطلقوا اسم الأراضى الجنوبية على الأقاليم المتاخمة لمصر من ناحية الجنوب وتمتد إلى أواسط أفريقيا وشرقها وتضم شعب بنت، والزنوج فى الجنوب، والنوبيين بوادى النيل،

---

(1) Beckett, H. W. : ASN. II, Report for 1907 - 8, p. 343.

(2) Kirwan. L. P. : "A Survey of Nubian Origins", SNR., XX Part II, 1937, , PP. 47 - 48.

(3) MacMich aeL, H. A. : AHistory of the Arabs in the.

(4) Budge, E. A. W. : A Hist. of Ethiopia Nubia, and (Abyssinia, I,p.1.

وهو متقد نارا بسبب سخرة الاسكندرانيين به والاساقفه، وعند اجتماعه به تلقاه ببشر كعادته مع كل احد يكلمه بكلام لين ليونسه من افكاره القلقه، ثم دبر امر الحكمة ليطيب نفسه فقال له: يا سيدى اسحق انا مشتاق اليك واودك جدا، واريد ان تكون عديل نفسى، واحب ان تكون تنوب عنى فى جميع اسبابى، ويكون معك خاتم البطركيه ليعلم كل احد انك المدبر لى فى جميع الامور البيعيه والسلطانيه.

والليبيين فى الصحراء الغربية، وبدو الصحراء الشرقية[1]. وأطلق المصريون القدماء على الجهات الجنوبية كذلك اسم تاستى، أى أرض القسى.

وجاء فى الآثار أن خشب الأبنوس كان يأتى من تاستى، وهذا لا يعنى بلاد النوبة السفلى، بل يعنى بلاد السودان الواقعة جنوبى الشلال الثانى[2] ثم تطورت هذه الأسماء، فأطلق على هذه البلاد فى الدولة الحديثة اسم خنت ـ هن - نفر. وتدل المتون على أن هذا الاسم كان يطلق على السودان حتى الشلال الثالث على الأقل، بل يحتمل أنه أطلق على كل البلاد التى خضعت لمصر فى هذه الجهات الجنوبية، ولم يكن يقتصر على جزء معين من بلاد النوبة [3].

وجاء فى الآثار كذلك ذكر اسم نحسيو، ويقصد به سكان الجنوب ولما دخل الزنوج لأول مرة بلاد النوبة - حوالى بداية الأسرة الثانية عشرة - واستوطنوا بعض جهاتها، كانوا كذلك يسمون نحسيو. وعلى هذا فإن اسم نحسيو أخذ بالتدريج يحمل المعنى الخاص بالزنوج [4].

وأطلق اسم كوش على الإقليم الواقع جنوبى وادى حلفا وعاصمته نباتا ويحكمه نائب ملك يحمل لقب ابن الملك صاحب كوش.

ولما ضعفت مصر حوالى منتصف القرن الثامن ق. م. ووقعت فريسة للغزاة، وأضحت

---

(1) Reisner, G. A.: "Outline of the Ancient Hist. of the Sudan", SNR. 1, No. I, 1918 P. 3.

(٢) سليم حسن ـ مصر القديمة. جـ١٠ ص ٨٠.

(٣) المصدر السابق ص ٧٨. (٤) المصدر السابق ص ٨١.

فلما سمع منه هذا فرح جدا وطاب قلبه فقال لابينا البطرك: انا عـبـدك وبين يديك فى كلمـا تامرنى به.

ولما حضرو فى بيعه السيده بمصر فى قصر الشمع يوم عيد الشعانين وسم الارخن اسحق شماسا، وكان فى البيعه جمع كتير فى ذلك اليوم لا يحصى عدده.


ايقونة الشعانين من مخطوطة قبطية من القرن ١١

فحضر المبغض للخير الشيطان واثار بلا[ء]

أرضها ميدانا للحرب بين المتنافسين عليها من ملوك آشور، وملوك نباتا، ورد ذكر هذا الصراع فى الوثائق الآشورية وأشير إلى ملوك نباتا باسم كوش. وعليه فإن كوش فى نظر الأشوريين امتدت وقتذاك إلى الشلال الرابع.(١).

أما اليونانيون فأطلقو على هذا الأقاليم كلها اسم إثيوبيا. وورد ذكر الأثيوبيين فى أشعار هوميروس، ونوه هذا الشاعر بمكانة الأثيوبيين عند الآلهة اليونانية. وحدد هيرودوت موقع أثيوبيا فى أقصى الجنوب، بيد أن نظرة هيرودوت لأوطان الأثيوبيين كانت أوسع من نظرة من جاء بعده من الكتاب، فشملت فى نظر هيرودوت، أراضى واسعة فى أفريقيا وجنوب غربى آسيا ، بل والهند كذلك. وعلى الرغم من أن هيرودوت زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد، ووصل فى رحلته جنوبا إلى أسوان، فإن وصفه لشعوب أثيوبيا وتحديد أوطانهم لا يستند على حقائق جغرافية أو أثنولوجية(٢).

وحدد سترابون موقع إثيوبيا بالأراضى الضيقة التى تحاذى النيل، وتمتد من جنوبى أسوان إلى منطقة المستنقعات التى يتعذر سكناها.

(1) Budge, E. A. W. : A Hist. of Ethiopia. op. Cit. P. 2.

(2) Beckett, H. W. : op. cit. P. 343.

أنظر كذلك:

Herodotus: The History, II, P. 148 I, PP. 218, 264.

عظيما ودخل فى الاسقفين المقطوعين [اسحاق اسقف تنيس وتادرس اسقف مصر] وجعلهما له وعا[ء]ين، فمضيا الى الافشين الامير من قبل الملك وقالا له: قد اسلم الله اليك اعداك واعدا[ء] الملك وافنيتهم ويجب ان لا تبقى احدا ممن كان سبب نفاقهم . فقال لهما: ومن هو الذى احوجهم للنفاق على الملك؟ فقالا له : البطرك يوساب فعل ذلك، اراد بذلك حتى أن يقتله، وهو ذا هو مجتمع

أما تقدير كل من بلينى وديودور الصقلى لأوطان الأثيوبيين، فتشمل إثيوبيا فى نظرهما جميع الأراضى المتدة جنوبى مصر إلى قلب أفريقيا والتى تمتد شرقا إلى البحر الأحمر. ويبدو أن إسم إثيوبيا كان من أختراع الكتاب اليونانيين ويقصد به وطن الزنوج، ولم يعرف لهذه المناطق حدود جغرافية واضحة(١).

وفى العصر الرومانى عرفت النوبة السفلى باسم دود يكاشينوس "Dodekaschoinos" وتريا كونتاشينوس "Hierosykaminos" وتمتد الثانية من المحرقة إلى عكاشه جنوبى الشلال الثانى، وتدل هذه الأسماء على امتداد التنظيم الرومانى إلى هذه الأقاليم وتقسيم الرومان لها إلى أقسام. وإلى الجنوب من الشلال الثانى قامت دولة كوش ، وظلت هذه الأقسام إلى قيام الممالك المسيحية فعرفت بأسماء أخرى.

(1) Arkell, A. J. : A History of the Sudan to 1821. p. 113.

أطلق ريزنر على دولة نباتا – مروى إسم اثيوبيا، مؤثرا طريقة الكتاب القدماء الذين عاصروا دولة مروى، وأطلقوا على ملكها اسم ملك الاثيوبيين، ولما كان تاريخ بعض أقاليم دولة مروى أو كوش أو اثيوبيا، كما سماها الكتاب القدماء، اختلط بتاريخ دولة اكسوم فى الحبشة، فإن الأحباش فى الوقت الحاضر يطلقون على دولتهم اسم اثيوبيا بدلا من الحبشة. ولهذا يحسن أن نحدد اسم مملكه نباتا – مروى باسم دولة كوش تمييزا لها عن اثيوبيا الحالية (الحبشة).

فى البيعه ومعه جمع كتير ما يخالفونه، وكلما فعل بامره حتى لحق الملك ولحق الأمير حفظه الله التعب العظيم.

ووقت دخول الاسقفين الى الافشين كان سكران فامتلا غيظا وانفذ اخاه الى البيعه ومعه جمعا كتيرا ليحضر اليه الاب البطرك ليقتله، وكان يمشى امامهم اسحق الذى كان اسقف تنيس مثل

وقبل أن ننتقل إلى دراسة النوبيين ومراحل تاريخهم، نرى من الضرورى أن نتعرف على أوطانهم وتوزيع سلالاتهم الحالية فى الوطن النوبى.

تمثل الأوطان الحالية للنوبين، تلك الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شمالى أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى [١]، وهم يستقلون أحيانا بهذه الجبهات النوبية، لا يشاركهم فيها أحد، يجاورهم أحيانا جماعات عربية [٢].

وينقسم النوبيون إلى خمس مجموعات رئيسية: الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبو فاطمة، ثم المحس والسكوت فى إقليم الجنادل، ثم الفديجة ما بين وادى حلفا وكرسكو، والكنوز فى الجزء الشمالى الممتد من كرسكو إلى أسوان [٣].

وعلى الرغم من أن النوبيين فى تاريخهم الطويل دخلت بلادهم عناصر مختلفة واندمجت فيهم، فإنهم ظلوا متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة [٤].

---

(١) هذا التحديد ينصب على الأوطان الحالية للنوبين، وهى تمثل نصف المساحة التى كانوا يحتلونه من قبل، فامتدت كما سبق أن أوضحنا إلى الجنوب من إلتقاء النيلين الأبيض والأزرق، بل أمتد نفوذها أحيانا إلى بعض جهات الجزيرة. ولكنها انكمشت إلى الحدود الحالية على أثر ضغط القبائل العربية التى احتلت أخصب بقاعها إلى الجنوب من الدبة كما سنوضحه فيما بعد.

(٢) محمد عوض محمد - السودان الشمالى - ص ٨٤.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٢ (٤) المصدر السابق ص ٢٨٥.

يهـودا الاسـخـريوطى الذى اسلم السـيـد المسـيح لليـهـود. فـدخل الى الهـيكل واومـا باصبـعـه الى البطرك لكي يعـرفـهم به ليـاخـدوه، فـجـرد اخـو الأفشين سيفه لياخذ راس البطرك، فعند ذلك مالت يده فوقع السيف فى عـمـود رخـام انكسر، فـازداد غـضـبا وكـان في وسطه سكين فاخذها من وسطه واوما بها الى جنب البطرك ليقتله، فيا لعظم تلك الاعـجـوبه فى تلك السـاعـه عند كل احـد التى

وتختلف لغة النوبيين اختلافا يسيراً من إقليم إلى إقليم، فلغة الدناقلة والكنوز تكون مجموعة متشابهة، ولغة السكوت والمحس والفديجة تكون مجموعة ثانية متشابهة [١].

هذا من حيث توزيع سكان النوبة الأصلية فى الوقت الحاضر، أما الجزء الممتد من الدبة إلى جنوبى التـقـاء النيلين الأبيض والأزرق، وهو الوطن القـديم للنوبيين المسـيحـيين فـيحـتله الآن الجعليون.

وفيـما يتعلق بموضـوع المراحل التاريخية للجماعات النوبية واستقرارها فى أوطانها حتى ظهـور ممالكهم فى القرن السـادس الميلادى، فإنه كـان ولا يزال موضـع خـلاف بين العلمـاء، وخـصـوصـا عندمـا تعرضـوا لأصل هؤلاء النوبيين، حتى أضـحى فى نظرهم مـشكلة تشـغل تفكيرهم. وخرج علينا كثير من العلماء بأبحاث وآراء متعددة متضاربة حول أصل النوبيين. ولا يهمنا من هذا الموضوع شئ بقدر ما يهمنا التعرف على المرحل التى مرت بها هذه الجماعات النوبية حتى اكتمل مجتمعهم عندما استقبلوا الدعوة المسيحية، والأسس التى أقاموا عليها حـضـارتهم وهل هم شـعب أصيل فى أوطانه أو هو عـنصر دخيل فـرض ثقـافـته على شـعـوب سبقته إلى هذه الأوطان؟.

---

(1) Hamilton' J. A. ed. : the Anglo Egytian Sudan from Within. P. 168.
أنظر كذلك Griffith. F L I. Ency. Brit. Art. Nubia.

اظهرها الله فى قديسيه لما ضربه بالسكين قطعت
الثياب التى عليه وانتهت الى المنطقة التى فى
وسطه فقطعتها ولم ينل جسده شى بالجمله،
فتبلبل جميع الشعب الذى فى البيعه وكثر
صياحهم وظنو انه قد مات، فلما نظر ذلك
المشتمل بالاعمال الصالحه وراى قلق الشعب
واضطرابه اوما بيده اليهم وقال هلم: لا تقلقو .
فلما علمو انه حى فرحو فرحا عظيما ومجدو الله

يحسن أن نستعرض فى إيجاز المناسبات التى ذكر فيها اسم النوبيين، وهل يمثلون العنصر الوحيد فى أوطانهم التى ورد ذكر اسمهم فيها أو شاركهم غيرهم من العناصر الأخرى؟.

عرف العرب سكان وادى النيل من أسوان إلى جنوبى الخرطوم الحالية باسم النوبة، وسبقهم فى الإشارة إلى النوبيين كثير من الكتاب القدماء أمثال أراتوسطينى وسترابون وبلينى [١].

وجاء بعد هؤلاء بطليموس الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد. وذكر أن النوبيين يعيشون على الضفة الغربية للنيل وفى جزيرة مروى[٢]، وجزر النيل[٣] كذلك.

---

(١) كان اراتوسطينى أول من أشار إلى النوبيين فى مؤلفه الجغرافى عن النيل (٢٠٠ق. م.) وتبعه سترابون وذكر أن النوبيين بأقسامهم الكثيرة يؤلفون وحدة مستقلة عن سلطان ملوك مروى، وهم يعيشون على الضفة الغربية للنيل، ويمتد وطنهم من شمال مروى إلى انحناءة النيل.

Strabo. " The Geogrephy of Strabo." VIII, P. 7,

أما بلينى، وهو أيضا من كتاب القرن الأول الميلادى فيشير إلى أن النوبيين كانوا يقطنون على بعد ثمانية أيام من جزيرة سمبرتى «Sembritae» و(هى غير معروفة لنا الآن) إلى مدينة يقال لها تنوبسس Tenupsis على النيل Arkell, A, J. oP. Cit. P. 178.

وتنوبسس هذه ربما يقصد بها بانوبيس Panubs فى جزيرة أرجو.

(2) Kirwan. L. P. :" A Survey of Nudian Origins" SNR, XX part I. 1937. p. 46.

(3) Arkell: A. J. : op. Cit. 178.

وعدو اليه لينظرو ما لحقه فوجدو سالما ولم ينقطع
غير الثياب والمنطقة فسبحو الله وصرخو قايلين
كقول داود النبى: الرب يحفظ اصفياه الرب
يحفظ الابرار وينجيهم من يد الخطاه. وشكرو الله
على خلاصه وقالو: لولا ان الرب نجانا كانت
نفسى تكون في الجحيم،وان قلت ان رجلى زلت
فرحمتك يا رب اعانتنى، ولكترة اوجاع قلبى
افرحنى عزاك.

وذكر أجاثيماروس Agathemarus، أنهم كانوا يسكنون على ضفتى النيل الشرقية والغربية[1].

وذكر بروكوبيوس Procopius (٥٤٥م) أن النباطين Nobatae سكنوا الواحة الخارجة فى القرن الثالث الميلادى عندما استدعاهم دقلديانوس (٢٨٤ - ٢٩٦م) للاستقرار فى منطقة النوبة السفلى الرومانية، ليدفعوا عن الرومان خطر البليميين. ثم تحدث عنهم مرة أخرى أنهم يسكنون النوبة السفلى فى منتصف القرن السادس الميلادى [2].

وفى القرن الرابع الميلادى نسمع عن غزوة قام بها عيزانا أول ملوك أكسوم المسيحية على مملكة كوش. وجاء فى اللوحة التى سجل عليها عيزانا انتصاراته، أن النوبيين يحتلون جزءاً من جزيرة مروى، وكانت لهم مدن على طول النيل.

وفى بردية ترجع إلى القرن الخامس الميلادى (٤٢٥ - ٤٥٠م) نرى أسقف فيلة يوجه نداء للأمبراطور تاوداسيوس الثانى ليحمى كنائسه من إغارات البليميين والنوباديين «Annoubades» وهذه الوثيقة المعاصرة تؤيد وجود النوباديين فى . منتصف القرن الخامس الميلادى[3].

(1) Kiewan, L.P. : op cit. 49.

(2) Procopius, : History of the Wars, transt. by. H. B. Dewing. P. 185.

(3) Kirwan, L. P. ; op. cit. p. 53.

فلما نظر اخو الافشين هذه الاعجوبه وعلم ان
الرب معه اخذه ليمضى به الى اخيه كما امره،
وفيما هم يجذبونه ليخرجوه والشعب متعلق به
فقال لهم: لا تمسكونى فما نحن مقاومون
السلطان. فخرج والشعب يتبعونه باكين يسجدون
على رجليه ويديه ويظنون انه يقتل، فلما نظرهم
اخو الامير يمسكونه غضب جدا ورفع يده وضربه
بمقرعه على راسه فانجرحت عينه، ودخل الى

وتحدث المؤرخ الرومانى برسيق «Priscus » عن نص المعاهدة التى فرضها مكسيمنوس «Maximinus» (٤٥١م) على النباطين والبليميين وهى معاهدة عدم اعتداء لمدة مائة عام[١].

ويذكر يوحنا الافسى فى كتابه «التاريخ الكنسى» أن النباطين يسكنون إلى الجنوب من أسوان، على حين يعيش البليميون فى الصحراء الشرقية. تشير الوثائق القبطية إلى أن المملكة المسيحية فى الشمال أطلق عليها اسم نوباتيا «Nobatia» أو نوباديا « Nobadia»[٢].

وعلى هذا فإن لدينا من معلومات عن النوبيين منذ القرن الثالث قبل الميلادى حتى القرن السادس الميلادى، لاتزيد على أن تصفهم بأنهم قبيلة أوشعب من الشعوب التى تسكن وادى النيل من الشلال الأول حتى جزيرة مروى، وهم أحيانا يسكنون غرب النيل وأحيانا أخرى على جانبى النيل، وأحيانا يحتلون بعض جهات الأتبرا وجزيرة مروى، ثم نسمع عن وجودهم فى الواحة الخارجة. وأخيرا نراهم فى القرنين الخامس والسادس يسكنون جهات النوبة السفلى.. وحتى عهد الملك سلكو - حوالى منتصف القرن السادس الميلادى على الأرجح - كانوا يمثلون عنصرا متمايزاً عن بقية الأثيوبيين.

(1) Arkill, A. J. : op. cit P. 179.

(2) Kirwan, L.P. : op. cit. P. 55.

الافـشين فـخـاطبـه بما ينبـغى، وبما قـالوه عـنه
الاسـاقـفـه وسـعـو به، فـقـال له : بنعـمـة الله امـر
الاسـقـفين امـر عـجـيب وذلك انى قطعتـهـمـا عن
اسقفيتهما. ثم اعلمه سبب قطعهما لقيام شعبهما
عليـهـمـا، فعلم الافـشين الحق وبطلان قـولهـمـا عنه
وبدا ان ينزل البلايا عليهما. وقال للحاضرين: لقد
اراد هذان الرجـلان ان يكسـبـانى خطيـه عظيـمـه

إن هذه الإشارات المختلفة إلى النوبيين فى خلال التسعة قرون التى سبقت الغزو العربى لمصر، أثارت الخلاف بين العلماء عن أصل النوبيين. هل هم فى الأصل قوقازيون حاميون، أم أقوام من الجنوب وتغلب عليهم الصفات الزنجية؟ الواقع أن بعض العلماء وقعوا فى خطأ كبير عندما بنوا نظرياتهم الخاصة بأصل النوبيين على أسس لغوية دون غيرها. وبذلك حدث خلط بين النوبيين على النيل وبين النوباوبين سكان جبال نوبا فى جنوب كردفان، رغم ما بينهما من فروق جثمانية وثقافية واضحة (١).

بيد أن البحث الأثرى فى المنطقة – التى غمرتها المياه بسبب تعلية خزان أسوان سنة ١٩٠٧ ـ على يد ريزنر وغيره من الأثريين، كشف عن ثقافات مختلفة فى منطقة النوبة، لعلها تفيد فى تفهم خصائص هذه الجماعات التى عمرت المنطقة منذ أقدم العصور، وصفاتها الطبيعية ونوع حضارتها ومدى اتصالها بغيرها من الجماعات المجاورة وتأثرها بها.

ونظراً لاستقرار الجماعات البشرية فى بلاد النوبة منذ عهد سحيق يرجع إلى ما قبل التاريخ، فإن العلماء لجأوا إلى تقسيم المقابر التى تحوى أثار هذه الجماعات وبقايا عظامها إلى مجموعات رمز لها بالأحرف .. A. B. C. D. X وتمثل كل مجموعة من هذه المجموعات الثقافية عصراً معيناً.

(١) محمد عوض محمد – السودان الشمالى – ص ٢٧٨.

واقتل ابا النصارى جميعا. فلما نظر القديس ان
الانتقام يحل بهما بسببه قال له: مذهبى يامرنى
بفعل الخير مع من يعمل معى الشر، والذى سعيا
به هذان قد طرح الله فى قلبك الصحيح،
فاسالك ان تفعل معهما خيرا برياستك وتركهما
كرامة لله. فلما نظر فعله تعجب واطلق الاسقفين،
فمجد الشعب الله وشكروه وقالو انه مستحق

وتشمل المجموعة الثقافية A (من حوالى ٥٠٠٠ ق. م. إلى ٣٠٠٠ ق. م.) عصر ما قبل التاريخ وعصر الأسرات الأول، وفيه تكونت السلالة النوبية الأولى، ودل البحث الأثرى بالنوبة السفلى على وجود سلسلة مراكز للسكان عند فتحات الأودية حيث كونت الرواسب مساحات مختلفة صالحة للزراعة، وقامت حياة سكانها على الزراعة، كما دلت بقايا هؤلاء السكان على أنهم من نفس سلالة قدماء المصريين الذين سكنوا مصر قبل ظهور الأسرات المصرية وهم جميعاً من الجنس الحامى، كما أن فخارهم ومصنوعاتهم من المعدن والحجر والعاج وغيرها كانت مطابقة فى مادتها وشكلها للمصنوعات التى وجدت فى نفس العهد المصرى [1]. كما أن طريقة الدفن تشبه تلك التى وجدت فى مصر فى ذلك العهد.

ولاحظ اليوت سمث أن المؤثرات الزنجية لم تصل إلى مصر ولا إلى بلاد النوبة قبل عهد الأسرة الثالثة المصرية، باستثناء النساء الزنجيات اللائى اتخذهن المصريون أو النوبيون أزواجاً لهم.. ويضيف إلى هذا قوله: «إن الأبحاث الأثرية تؤيد ما ذهبت إليه من أن سكان النوبة حتى الأسرة الثالثة كانوا امتداداً لسكان مصر نحو الجنوب [2]».

(١) سليم حسن ـ مصر القديمة ـ جـ١٠ ص ٢ ـ ٤.
وانظر Arlell, A.J. : op. cit. PP. 37 - 38.

(2) Illiot Smith, G.: "Anatomical Report" 'A' ASN B. 3, PP. 22- 23.

المجد لاقامته هذا الاب القديس العامل بوصاياه علينا مقدما.

ولما علم المامون الخبر من الواردين عليه امر ان يكتب له سجل بكرامته ورعايته ان لا يعترضه احد في احكامه ولا في من يوسمه او يقطعه.

ثم بعد ذلك امر المامون ان يطلب من بقى من البشموريين بكورة مصر وان يسيرو الى بغداد، فسيرو واقامو فى الحبوس مدة كبيرة حتى اراد الله

والمجموعة الثقافية «B» في بلاد النوبة، تقابل من حيث الزمن عصر بناة الأهرام حتى الأسرة السادسة. غير أنه لم يلاحظ عليها أى أثر مصرى بارز كالكتابة مثلا. والواقع أن ثقافة النوبيين فى هذا العهد تمثل صورة منحطة من ثقافة المجموعة A التى كانت فيما يبدو مخالفة لهـا [١]. ويرى فرث أن أهم ما يلاحظ على ثقافة المجموعة النوبية «B» ـ اختفاء الأوانى الفخارية، وأن العدد القليل الذى عثر عليه من نوع محلى ردئ يختلف عن الفخار المصرى[٢]. ويرى ريزنر أن طريقة الدفن عندهم تختلف عن تلك التى اتبعت فى عهد ثقافة المجموعة «A» ويدل هذا على أن مظاهر ا لاحتكاك الحضارى بين مصر والنوبة فى هذا العهد كانت ضعيفة [٣].

أما المجموعة الثقافية «C» (٢٤٠٠ – ١٦٠٠ ق. م.) فدلت الأبحاث الأثرية على أن سكان النوبة فى هذا العصر كانوا من الحاميين الذين اختلطت دماؤهم بدم الزنوج، وهم قوم من الرعاة اضطروا إلى ترك أوطانهم الأصلية والتقدم شمالا تحت ضغط جماعات أقوى منها[٤]. وإذا قورنت ثقافتهم بثقافة الدولة الوسطى المصرية وجدت متخلفة عنها.

(١) سليم حسن – مصر القديمة جـ١٠ ص ١٨ ـ ١٩.

(2) Firth, C. M. : ASN, Report for 1908 - 9, I, p. 1.

(3) Ibid, op, cit . p. 12.

(4) Ibid, op. cit. p. 14.

خلاصهم من يد ابرهيم الملك بعد اخيه، فمنهم من رجع الى بلده ومنهم من بقى هناك ببغداد وانشو بساتين واقامو هناك الى اليوم وهم الى اليوم يسمون أهل البشروديين(*).

ثم بعد ذلك اراد الاب يوساب ان يرسم اسقفين بمصر وتنيس عوضا من المقطوعين [اسحاق وتادرس] ليتمم قول السليح بولس: واعظم ما على الاهتمام بالبيع. فاما اسحق [ابن اندونه]

(*) تذكر بعض المصادر أن البشموريين تم توطينهم فى مستنقعات الأهواز (شط العرب) فى جنوب العراق المطل على الخليج الفارسى ليصلحوا أراضيها لحساب العباسيين، وذلك فى ظل ظروف مناخية سيئة وأمراض الملاريا والقحط الشديد، ولعل=

وفى عهد الدولة الحديثة نزحت أفواج كبيرة من مصر إلى بلاد النوبة. وظهرت فى بلاد النوبة نهضة ثقافية مركزها نباتا، وازدحمت البلاد بطوائف مختلفة حملت معها ألوانا من الحضارة المصرية. ويمكن القول إن بلاد النوبة مصرت تمصيرا تاما وانتشرت عبادة الآلهة المصرية جميعاً وخاصة آمون.

أما المجموعة الثقافية «X» (من ٣٠٠م - ٥٥٠م) فتشير تقارير العلماء الذين قاموا بفحص مقابر أصحاب هذه الثقافة فى بلانة وقسطل وفركة إلى وجود الأثر الزنجى واضحا [١]، ويرجع إلى هجرة زنجية من الجنوب واستقرار أصحابها فى بلاد النوبة واختلاطهم بسكانها[٢]، كما أثبت فحص الجماجم البشرية وجود عدد من النساء مساو تقريبا لمثله من الرجال، مما يدل على أن وجود هذه العناصر الزنجية لم يكن الغرض منه مجرد الغزو، بل كان الدافع لهم الاستقرار فى هذه الجهات وتعميرها، ويبدو من التقرير الذى وضعه الدكتور البطراوى أن هذه الهجرة كانت زنجية تحت قيادة حامية [٣]. وأهم ما يلاحظ على هؤلاء القوم، أنهم مارسوا الزراعة بوصفها حرفة أساسية تساندها حرفة الرعى، واختفاء الطابع

(1) Kirwan, L.P. : The Oxiord University Excaxations at Firka p. 36.

(2) Ibid, op. cit. p. 38.

(٣) محمد عوض محمد - السودان الشمالى ص ٢٩٨.

الارخن الذى صيره شماسا ونايبا عنه اوسمه اسقفا على وسيم، واوسم انسانا اسمه ديمتريوس على تنيس وبقى فسطاط مصر بغير اسقف، وبقى [اسحق ابن اندونه] اسقف وسيم مدبر كرسى مصر ، وجعل سلطانه عليه. ولم يكن احد يقدر ان يقاومه بقوة كلامه عند الولاه وعند اخوته وجماعته، وبقى على الكرسيين الى يوم وفاته.

فلما افاق البطرك قليلا اهتم بامر الحبشه والنوبه

= بقاياهم شارك بعد ذلك فى ثورات الزنج على الخلافة العباسية، نظراً لتمرسهم بأساليب القتال فى المستنقعات، عندما كانوا فى برارى شمال الدلتا بمصر.

المصرى فى بناء المقابر وطرق الدفن، وكثرة وجود الضحايا البشرية والحيوانية. وهى تمثل خليطا من حضارة بيزنطية ومروية لم تخل من الآثار البدائية (١).

واختلف العلماء فى أصل أصحاب هذه المجموعة الثقافية «X» ويرى فرث أنهم نباطيو دقلديانوس. ولا يسلم كروان بهذا الرأى لأسباب منها أنه لم يعثر على آثار أصحاب هذه الثقافة إلا منذ القرن الرابع الميلادى على حين أن النباطيين جاءوا إلى النوبة فى القرن الثالث الميلادى، كما أن النباطيين لم يتخطوا مدينة المحرقة، على حين وجدت آثار المجموعة «X» فى جهات تقع إلى الجنوب من الشلال الثانى عند فركه (٢).

واعتقد البعض اعتمادا على ما ذكر ه المؤرخ أوليمبيودوروس Olympiodorus أن البليميين هم أصحاب الثقافة «X» . لأن هذا المؤرخ لاحظ أن البليميين يحتلون خمس مدن على النيل من إبريم إلى فيلة فى أواخر القرن الخامس الميلادى. وفى هذه المنطقة ذاتها عثر على آثار المجموعة الثقافية «X»، مما يرجع معة نسبة البليميين إلى هذه الثقافة. ولكن يصعب التسليم بهذا الرأى لأن البقايا التى عثر عليها فى مقابر المجموعة الثقافية «X» تدل على أن أصحابها كانوا قوما مستقرين يمارسون الزراعة، على حين أن البليميين شعب رعوى متنقل، ثم أن

(1) Kirwan, L. P. : " The Ballana Civilization " op. Cit. P. 104.

(2) Kirwan, L. p. : Firka P. 39.

وانفذ اليهم كتبا وتفقدهم وتفقد بيعهم ولم يتمكن لخلف [الحروب] الملوك مع ولاة مصر المسلمين. وكان يطلب الى الله ان تكون السلامه بينهم ليبلغ غرضه فى عمارة المواضع التى للاب البشير مارى مرقس، فسمع الله دعاه واجاب طلبته.

وكان الحرب قد اقام اربع عشره سنه بينهم [بين ملوك الحبشه والنوبه من جهة والولاه المسلمين من

وجودهم فى هذه المنطقةن كان مؤقتا لم يلبثوا أن طردوا منها على يد الملك سلكو. وبفحص الجماجم وجود نسبة كبيرة من الدماء الزنجية، وهى تختلف عن تلك التى وجدت فى مقابر المجموعتين الثقافيتين "B, A" ، وهى كما سبق تنسب للجنس الحامى أيضا، وينسب إليه البليميون. وثالثهما يتعلق بتوزيع اثار هذه المجموعة إذ عثر عليها جنوبى الشلال الثانى، على حين أن البليميين لم يتخطوا إبريم فى المدة التى استقروا فيها موقتا على النيل ثم طردهم نهائيا على يد الملك سلكو[١].

ورأى آخر ينسب أصحاب هذه الثقافة إلى النوبا ـ النوباديين ـ "Noba Noubades" ، الذين خضعوا لسلطان الملك سلكو، الذى أطلق على نفسه لقب ملك النوباديين والأثيوبيين، وهذا اللقب يؤكد قيام التحالف بين النوبيين والمرويين، والذى ظهرت آثاره فى مخلفات المجموعة الثقافية «X»، وهى تحتوى ـ كما سبق أن بينا ـ على عناصر ثقافية مشتركة نوبية ومروية[٢] وتمكن النوباديون (النوبيون) بفضل ملكهم سلكو بعد طرد البليميين من منطقة إبريم ـ الشلال، أن يصبحوا سادة هذه المنطقة التى تمتد من فيلة شمالا حتى الشلال الثالث جنوبا، وأن يؤسسوا مملكه نوباتيا (النوبة) وعاصمتها بلانة[٣].

---

(1) Kirwan, L. P. : Firka op . Cit. P. 39.

(2) Ibid, Op. cit. P. 43.

(3) Kirwan, L. P. : "A Survey of Nubian Origins", SNR. XX Part, II. P. 59.

جهة أخرى] الى أن ملك ابراهيم [المعتصم] اخو المامون وجعل حفظه على طريق الحبشه والنوبه.

وكان الملك على النوبه زكريا، فانفذ ابراهيم يقول له: ان كنت تفعل كما كان يفعل غيرك من الملوك فانفذ خراج اربع عشره سنه سلفت والا نحن نحاربك.

وكان كاتب الوالى فى الصعيد انسان شماس اسمه جرجه، فكتب الى البطرك يعرفه ما صدرت

هذه هى مجموعة البحوث التى قام بها علماء الآثار، وهى وإن لم تقطع برأى صريح فى أصل النوبيين، فإنها مع هذا ألقت ضوءاً على المجموعات البشرية التى عمرت بلاد النوبة منذ أقدم العصور وتتابعها الزمنى.

ومن السهل أن نسلم ـ بعد دراسة نتائج أبحاث علماء الآثار والأجناس ـ بأن النوبيين بوضعهم الذى كانوا عليه عندما استقبلوا الدعوة المسيحية كانوا يمثلون خليطا من سلالات حامية مثل سلالة قدماء المصريين فى عصر الأسرات الأول وما قبلها، ومن سلالات زنجية، وذلك لأن بلاد النوبة منذ عهد الأسرة الثالثة المصرية استقبلت جماعات حامية من الشرق والغرب وجماعات مصرية من الشمال، كما أنها أخذت تستقبل من الجنوب جماعات زنجية[(١)].

ويرى كروان أن النوباديين "Annoubades" الذين ورد ذكرهم فى بردية ليدن [(٢)] والنباطين الذين عقد معهم مكسمينوس صلحا، ونوبادى سلكو، هم جميعا النوبيون الذين أغاروا على

(١) تمثل مروى فى رأى فرث نقطة التقاء هذه العناصر الحامية القادمة من الشرق والنيلية (الزنجية) القادمة من الجنوب، ثم أخذ هذا الخليط يهبط أرض النوبة السفلية
Firth, C. M: ASN Report for 1910 - 11, P. 37.

(٢) وهى البردية التى تشير إلى نداء أسقف فيلة إلى الامبراطور ناوداسيوس الثانى لحماية كنائس أسوان وألفنتين من البليميين و النوباديين.

به كتب الملك ابراهيم، فلما سمع هذا البطرك
مجد الله وفرح وقال: هذه الوسيله لأكتب ايضا
بمايتعلق بالبيعه الى الملوك. فكتب كتبا متضمنه ما
يجب من نعمة روح القدس يسلم عليهم ويفخهم
ويوجدهم [يخبرهم] ما يفعلونه معه ملوك
المسلمين من الجميل لما اجلسه الرب على الكرسى
الجليل المقدس، ويقول: وانا غير مستحق لذلك،
وكنت مشتاقا الى اخباركم، وكانت خطيتى
تمنعنى الا اكاتبكم لاجل الحروب التى كانت

مروى فى القرن الرابع الميلادى، ثم اندفعوا شمالا أمام الغزو الأكسومى إلى جهات النوبة الوسط. ومن الجائز أن هؤلاءعاشوا جنبا إلى جنب مع المرويين وأخذوا عنهم بعض ثقافتهم التى تتمثل فى ثقافة المجموعة «X» إلى جانب المؤثرات البيزنطية كما سبق ذكره [١]. ويبدو أن هؤلاء الطارئين يمثلون العنصر الزنجى فى ثقافة المجموعة «X» ومن الجائز أن يكون هؤلاء من سلالة العناصر الزنجية التى امتدت أوطانها جنوبى مروى، من أرض الجزيرة شرقا إلى جبال كردفان غربا. ويفسر هذا وجود أوجه شبه بين الفرجاب الذين يعيشون قرب بارة بكردفان وسكان جبل مويا. وأيضا بين النوباويين بجبال كردفان وسكان دار فونج بأرض الجزيرة، لا فى الصفات الطبيعية فحسب، بل فى بعض عناصر ثقافتها كذلك.. وهؤلاء هم الذين أغاروا على مروى، ثم تكون منهم بعد ذلك الحلف المروى النوبى تحت زعامة سلكو [٢].

بيد أن دى فيار يفرق بين النوبا Nuba، وهم فى نظره أصحاب البلاد الأصليين وبين النباطيين Nobatae الذين ظهروا فى بلاد النوبة السفلى الرومانية منذ عهد دقلديانوس. ويرى دى فيار أن أصل النباطيين من ليبيا، وأنهم نزحوا من شمال إفريقيا تحت ضغط الرومان الذين شنوا عليهم حربا لا هوادة فيها اقتضتها سياستهم التنظيمية الجديدة، وإزاء هذا الضغط الرومانى، اضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الصحراء، متخذين طريق الواحات، كما فعل أسلافهم

(1) Kirwan , L. P. : " The Oxford Excavations in Nubia" JEA, XXI, p. 197.

(2) Kirwan, L. P. : Firka op . cit. P. 43.

بارض مصر، ومخالفة اهل البشموريين لاوامر الملك الى ان قتلهم واخرب مواضعهم وهدم بيعهم، فوجدنا الوسيله بهذه المكاتبه ان نعلمكم ماجرى ، ويجب الان يا احباى ان تتمو ما يجب عليكم لهولا الملوك، وان كان لا يجب ان نامركم بشى من هذا فقد قاسيت عذابا من اخوتى كما قاسى يوسف بن يعقوب من اخوته، ويجب الان ان تطلبو السلامه تكون بينكم يا محبى الله، وتصير السلامه فى البيعه من اجلكم.

فى الطمحو وخلفاؤهم من الهوارة وغيرهم، وساعدهم ظهور الجمل (فى القرن الأول الميلادى) على سرعة تحركهم فى الصحراء. وعلى الرغم من هذا فإن علاقتهم بالرومان لم تنقطع، وكثيرا ما ترددوا على المدن الرومانية بشمال افريقيا ليغشوا أسواقها، كما أنهم قاموا بدور الوسيط فى نقل المتاجر الرومانية، واستقر بعضهم فى الواحة الخارجية، وعندما اضطر دقلديانوس إلى الاستعانة بهم ضد البليميين، استدعاهم إلى بلاد النوبة السفلى فى القرن الثالث الميلادى، وسيطروا على منطقة النوبة السفلى، واختلطوا بسكانها القدماء، وأخذوا عنهم بعض عاداتهم، ودخلوا فيما بعد فى المسيحية، وأسوا مملكة النوبة المسيحية. فهم يمثلون إذن فى رأى دى فيار الطبقة الارستقراطية فى المجتمع النوبى، على حين يمثل النوبيون الاصليون عامة الشعب، وهم الذين كشفت عنهم أعمال التنقيب فى مقابر المجموعة «X» التى سبق ذكرها (١).

ومع مافى هذا الرأى من طرافه إلا أنه لا يمكن قبوله، لأن معنى هذا أنه قبيل مجئ هذه الطبقة الاستقراطية من ليبيا إلى بلاد النوبة السفلى، كان جميع سكانها من الزنوج، وهذا مما لا يتفق والحقائق التاريخية ونتائج الابحاث الأثرية.

أما البحوث اللغوية التى قام بها بعض علماء اللغات لحل مشكلة أصل النوبين كما يدعون، فقد لا تفيد كثيرا بقدر ما تزيد هذا الموضوع تعقيدا. وذلك أن فردريك ملر ومدرسته

(1) De Villard, : Storia della Nubia Cristiana. PP. 133 - 139.

وهذه الرساله انفذها الى الوالى الذى فى المعدن باسوان لينفذها [إلى زكريا ملك النوبه].

فلما وصلت الكتب الى زكريا الملك وقريت عليه قال: ما الذى اصنع فى ما التمس منى الملك [ابراهيم]. من يجمع لى بقط اربع عشرة سنه انفسا [عبيدا] انفذهم اليه، و[أنا] لا اتمكن من مفارقة كرسيى ليلا [لئلا] يهلكونا البربر المخالفون لى، ويجب ان انفذ ابنى اليه. فاحضر ولده الاكبر

لاحظوا وجود نوع من التشابه بين اللغة السائدة فى بلاد النوبة وبين بعض اللغات الموجودة فى شمال تلال كردفان، فبنوا نظرياتهم على أساس أن النوبيين والنوباويين (سكان جبال النوبا فى جنوب كردفان) من سلالة واحدة، ورغم مابين الشعبين من خلاف كبير. ويرى عوض بناء على ما قام به سلجمان من دراسات فى هذا الموضوع أن ملر ومدرسته وقعوا فى خلط مزدوج. ذلك أن اللغة التى قد تشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين لم تكن سوى واحدة من ثلاث فى الجبال جنوب كردفان. وثمة خطأ كبير آخر هو أن السلالة النوبية قوقازية على حين أن النوبويين فى جبال كردفان تغلب عليهم الصفات الزنجية، كما أن ثقافتهم تختلف تمام الاختلاف[1].

يرى زيلارس أن لغة جبال النوبا بكردفان واللغة النوبية على النيل هما فرعان من لغة واحدة كانت منتشرة فى شمال كردفان ثم انتقلت بواسطة أصحابها إلى كل من الاقليمين[2].

(١) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
أنظر Seligman, S . G. "Some Aspects of the Hamitic Problem in the A. E. Sudan, JRAI, 43, 1913.

(٢) محمد عوض محمد ـ نفس المصدر ـ ص ٢٩٠ ـ ٢/١.
أنظر
Hillelson, S. : "Nubian Origins " , SNR, XIII, I, PP. 132- 146.
Henderson, K. D. D. : "Nubian Origins" SNR, XX, II, PP. 90 - 92.
Henderson, K. D. D: "Nubian Origns" SNR, XXI, I, PP.. 222 - 224.

وكان اسمه جرجه وضرب بالبوق وجعل مناديا ينادى «ان الملك له بعدى» ثم ا نفذه الى مصر صحبة الرسل الواصلين من مصر مع هدايا اعدها.

ولما وصل الى مصر اجتمع به الاب المغبوط انبا يوساب، فلما نظر اليه جرجه بن زكريا الملك فرح فرحا عظيما وسجد بين يديه فبارك عليه البطرك واعاد عليه بعض ما جرى عليه ليقيم عذره فى تاخر كتبه عن مملكتهم ، فقال له جرجه: مبارك الرب الذى لم يفعل معنا مثل خطايانا لكن خطيتنا

ومن الضرورى اذن أن نبحث أصل هذه اللغة، هل هى حامية أوزنجية؟ يرى راينش أن اللغة النوبية حامية الأصل ثم دخلتها مؤثرات أجنبية [1] ولعل هذه المؤاثرات الأجنبية من الجنوب.

وعليه فان النوبيين ـ كما وصفهم اليوث سمث ـ حاميو الأصل من نفس سلالة قدماء المصريين وتأثروا على مدى العصور بمؤثرات زنجية ظهرت بوضوح فى المجموعة الثقافية «X» وبالتالى يغلب على اللغةالنوبية أنها ذات أصل حامى تأثرت ببعض المؤثرات الزنجية. أما عن وجود شبة بين أحدى اللغات الثلاث الموجودة فى جبال كردفان الجنوبية وبين اللغة النوبية فان هذا لا يقوم دليلا على اشتراك هاتين السلالتين فى أصل واحد، فهو لا يستند على حقائق علمية، فالاختلاف واضح بينهما، والأرجح أن بعض الموجات النوبية سوءأ كان هذا قبل سقوط دنقلة أو بعدها هاجرت إلى بعض جهات كردفان أمام الضغط العربى المستمر، واستقرت بعض عناصرها فى شمال جبال كردفان، وفرضت أسمها ولغتها على سكان الجبال دون غيرهم، وهذه كانت واحدة من اللغات الثلاث الموجودة بهذه الجبال. وما لبث أن أطلق العرب اسم نوبا على سكان الجبال جميعاً. وربما كان هذا راجعاً إلى أن هؤلاء النوبيين المهاجرين كانوا عنصرا بارزا مما جعل اسمهم علما على الجبال جميعاً على الرغم من أن السكان الأصليين لا يطلقون على أنفسهم اسم «نوبا» ولكن «سكان الجبال».

(١) محمد عوض محمد - السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ، ص ٢٩١.

منعتك الى الان، وقدسك الذى جعلنى مستحقا ان اقبل يديك المقدستين ايها السراج المضى لجميع المسكونه وللارتدكسيين.

وبدا ان يمشى فى الطريق الى بغداد ساله ان يدعو له ان يعيده الله اليه بسلام. فوصل الى بغداد مدينة الملك فقبله الملك بفرح وقال له: قد وهب الله لك بقط جميع ما مضى من السنين لجل حضورك الى عندى وطاعتك لى . واقام عنده اياما كتيره مكرما ثم سرحه بكرامات كثير ذهب وفضه

بلاد النوبة قبيل دخول المسيحية

النوبيون وعلاقاتهم بالدولة الرومانية

دولة مروى. اضطراب الأمن بمناطق النوبة الوسطى والسفلى. تخلى الرومان عن منطقة النوبة السفلى. استمرار إغارات البليميين. موقف الدولة الرومانية، حملة مكسيمينوس. طرد البليميين من وادى النيل، اغلاق معبد فيلة.

* * *

كانت بلاد النوبة جزءا من دولة كوش التى امتدت من الشلال الأول جنوباً إلى جهات النيل الأزرق وكردفان[1].

ويرجع ظهور هذه الدولة إلى حوالى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، على يد سلالة من كهنة آمون، الذين هجروا طيبة حوالى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد،على أثر تولية الملك شاشانق الأول الليبى الأصل حكم مصر.

وأنشأت هذه السلالة الكهنوتية دولة جعلت عاصمتها نبات[2]، واستقلت عن حكم

(1)Arkell, A.J. : A History of the Sudan to AD. 1821. pp. 112 - 113.

(٢) اتين دريتون وجاك فانديه: مصر، تعريب عباس بيومى ص ٥٨٦.

Arkell, op, Cit, pp. 112 - 113.

وملبوس وانفذ صحبته عسكرا لكى يوصلوه الى بلاده بسلام.

فلما وصل إلى مصر ومن معه بمجد عظيم وتبحيل وصليب [ذهب] بيده يقبله كل احد موضع اكرام الملك له، وسال ابانا البطرك ان يحمل هيكلا مكرزا معمولا من خشب يتفصل [يفك] ويتركب الى داخل قصر الملك حيث كان نازلا فيه، وكانو معه اساقفه من بلاده يقدسون له

مصر. ولم تقف جهود ملوكها عند شئونهم الداخلية، بل يبدو أن فكرة تخليص مصر من يد الليبيين الأجانب غدت ركنا من أركان سياستهم رغبة فى توحيد القطرين.

وتحقيقا لهذه السياسة، قام ملوك هذه الأسرة الكوشية بمحاولات انتهت بضم مصر إلى كوش وتوحيدهما فى مملكه واحدة عاصمتها طيبة[١]. وأسس هؤلاء الملوك الكوشيون الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر، وهى الأسرة التى منعت الآشوريين مدة من دخول البلاد المصرية. ثم ما لبث الأشوريون أن استولوا على مصر واضطر تانوت آمون آخر ملوك هذه الأسرة فى مصر إلى التقهقر جنوباً إلى نباتاً عاصمة أجداده. وبهذا انتهى حكم الملوك الكوشيين الذى استمر فى مصر من سنة ٧١٥ق. م. إلى سنة ٦٦٣ق. م. وانتهت الأسرة الخامسة والعشرون[٢].

أما فى الجنوب فظلت دولة الكوشيين قائمة، وأضفى ملوكها على أنفسهم ألقابا مصرية ، وتشبهوا بفراعنة مصر، وظلت نباتا عاصمتهم تمثل مركزا لنوع من الحضارة المصرية، وظلت اللغة المصرية هى اللغة الرسمية للبلاد، وعندما حلت محلها لغة وطنية ظلت تكتب كذلك

(1) Arkell, A. J. : op. cit . p. 125.

(2) Ibid, op. cit. p. 128 - 136.

انظر كذلك اتين دريتون وجاك فانديه - «مصر» ترجمة عباس بيومى ص ٥٩٧ ـ ٦٠٣.

فيتقرب ابن الملك وكلمن معه. وامر بضرب الناقوس فوق السطوح الذى لقصر [الملك] فى وقت القداس كما يفعل فى البيعه، فتعجب كل احد من هذا وفرح جميع النصارى بهذا وجدو الله على ما اظهره بصلاة هذا القديس الاب البطرك.

وفى ايامه سافر ابن الملك المذكور واخذ فى هيئة المسير، فمشى معه ابونا البطرك الى موضع

باالخط الهيروغليفى، ودفن ملوك هذه الأسرة فى أهرام على الطريقة المصرية، وبنيت المعابد وانتشرت عبادة الآلهة المصرية إلى جانب المعبودات المحلية. ثم فقدت نباتا أهميتها منذ بداية القرن السادس قبل الميلاد، لانقطاع صلتها بمصر، ونفاذ مواردها من مناجم الذهب القريبة، وانتقل مركز الحكم والإدارة إلى مروى [١]، التى تمتاز بموقع جغرافى فريد وسط سهل غنى بموارده الزراعية،علاوة على وجود صناعة الحديد بالقرب منها. وظلت مروى عاصمة.دولة كوش من ٣٠٠ ق. م. إلى ٣٥٠م على وجه التقريب، أى أن الدور المروى من تاريخ هذه الدولة يعاصر حكم البطالمة ثم الرمان فى مصر.

وفى مروى أخذت الثقافة المصرية تتضاءل شيئاً فشيئاً ، حتى غدت مزيجا من ثقافات مختلفة، مصرية ويونانية وورمانية، فضلا عن ثقافات حبشية سبئية وخاصة فى ناحيتى الدين والفن [٢].

وفى الدور المروى من تاريخ دولة كوش يتحدث الكتاب القدماء عن ملكات (كنداكة) ،

---

(١) مدينة مروى قرب كبوشية الحالية.

Smith H. F. C. ; " The Transfer of the Capital of Kush From Napata to Meroe " Kush, III PP. 20 - 52.

(2) Hamiktom, J. A. - ed. : The Anglo Egyptian Sudan from Within p. 18.

يعرف ببولاق(*) بمجد عظيم . وتعزى بذلك الاب عما جرى عليه من التجارب، ومن لا يتعجل اذا سمع هذه العجايب، وهو ان كل بطرك يجلس على هذا الكرسى المقدس يصرف اهتمامه الى تلتة اقسام: الاهتمام بسنوديقا الى بطرك انطاكيه، التانى امرنا الذى يتعلق بالحبشه والنوبه، والتالت تنجز سجلات من ملك مصر له [للبطرك] وللاساقفة ليستقيم امر البيع الارتدكسيه. فجمع الله لابونا البطرك انبا يوساب هذه التلتة اقسم بالمشاهدة،

(*) بولاق: كلمة مصرية فرعونية تعنى الحدود. ولعل المقصود هنا وصول البطرك مع أبن ملك النوبة زكريا إلى ميناء بولاق المعروف قرب القاهرة العالية، هذا مع العلم بأنه كانت هناك مدينة بنفس الاسم جنوب اسوان على الحدود بينى مصر والنوبة، ولا يستبعد أن البطرك سار مع ابن الملك إليها.

يبدو أنهن حكمن أحيانا كوصيات على العرش نيابة عن أولادهن القصر(١). ويتضح من أخبار ذلك الدور من تاريخ كوش أن العلاقات الطيبة بين البطالمة وحكام كوش استمرت حتى نهاية العهد البطلمى، بدليل أن كليوبترة بعثت بابنيها من القائد الرومانى انطونيوس إلى الجنوب ليكونا فى مأمن من خطر الرومان الذين هددوا ملكها فى مصر، ولتنشد مساعدة الكوشيين لها ضد روما (٢). وربما كان مرجع هذه العلاقات الطيبة إلى أن الدولة البطلمية فى عز أيامها لم تجنح إلى التوسع جنوبى أسوان، بل شجعت المنطقة الممتدة من أسوان إلى المحرقة Hierosykaminos، وهى بلاد النوبة السفلى التى عرفت قديما باسم Dodekasch على أن تظل مستقلة عن مصر وكوش تحت حكم أمرائها الوطنيين (٣). على أن هذه المنطقة لم تلبث أن فقدت استقلالها زمن بطليموس السادس (١٨١ ـ ١٤٥ ق.م)، وظلت كذلك حتى نهاية الدولة البطلمية على يد الرومان عام ٣٢ ق. م. (٤).

* * *

(١) أطلق هؤلاء الكتاب على ملكة مروى اسم كنداكة، ويبدو أن هذا كان لقبا بمعنى ملكة . أنظر: Arkell, A. J. op . cit. p. 126.

(2) Woolley. and Maciver, : Karanog - The Romano - Nubian Cemetery P. 85.

(3) Beckett, H. W.: ASN, II, Report 1907 - 8, P. 349.

(٤) يبدو أن فراعنة مصر من أيام الأسرة الثانية والعشرين عجزوا عن دعم النفوذ المصرى القديم فى =

ووصـول الملك المامـون من بلاده، فـوصل اخـيـه ديونوسيوس بطرك انطاكيه. ومشاهدته له، ووصول ابن ملك النوبه كما ذكرنا ، واستقامة الامور ونظره المجد العظيم بالحقيـقـه كمـا قال داود النبى : ان تسجد له كل الامم.

وفعل له عجبا اخر حتى كمل الله له جميع ما طلبه حتى يتمجد كرسي الاب الجليل مارى مرقس البشير، بركات صلواته تحفظنا.

كان فى ذلك الزمان اسقف اسمه يوحنا، وكان

ويعد العهد الرومانى فى مصر بداية عهد جديد فى تاريخ العلاقات بين مصر الرومانية وبين ملوك كوش، إذا عـاد الكوشـيـون إلى بسط نفوذهـم على إقليم دوديكاشينوس ولم يعتـرفـوا للرومان بحقهم فى تلك البلاد، باعتبارهم ورثة البطالمة، كما لم يعترفوا بالحدود القديمه التى امتد إليها نفوذ البطالمة من قبل [1]، بل ساعدوا المصريين الذين ثاروا عام ٣٩ ق. م. على الرومان فى إقليم طيبة عندما ظهر جباة الضرائب من الرومانيين لأول مرة فى تلك المنطقه، ولذلك أوغل القائد الرومانى كورنيليوس جالوس Cornelius Gallus جنوبا حتى أسوان، بعد أن قضى على الثورة فى طيبة [2]، واستدعى إلى أسوان حكام إقليم تريا كونشتشينوى

= بلاد النوبة السفلى، ولذا صارت هذه البلاد جزءا من دولة كوش مع تمتعها بشئ من الاستقلال عنها ، وظلت هكذا حتى انتقل إليها آرك أمن الذى عرف باسم أرجمينيز Argemenes أحد ملوك مروى على أثر نزاع بينه وبين كهنة نباتا. وكان هذا الملك معاصراً لبطليموس الثانى والثالث والرابع، وتلقى علومه فى جامعة الإسكندرية وتثقف بالثقافة اليونانية واتخذ هذا الملك مدينة دكة Pseleckis عاصمة له، وبنى بها معبدا، وأنشأ علاقات ودية بدولة البطالمة، وخلفه على عرش هذا المملكة النوبية أخوه أركرا من Arkharaimen, فسار على سياسة سلفه، وبموت أركرامن ، انتقلت هذه المملكة الصغيرة إلى بطليموس السادس وأصبحت جزءا من مصر.

Firth . C. M. : ASN. Report for 1910 - 11, 11, O, 29.

Beckett H. W. : ASN. Report for 1907 - 1908. 11, p. 349.

(1) Wooley - Maciver: K aranog, P. 85.

(2) Budge, E. A. W. : The Egyptian Sudan, II P. 166.

الاب انبا يعقوب قد وسمه لبلاد الحبشه، وكان
ملك الحبشه قد خرج فى حرب فعمدو اهل البلاد
فاخرجو الاسقف واقامو اسقفا باختيارهم بخلاف
القانون، فعاد المذكور الى مصر ونزل فى دير
برموس بوادى هبيب، لنه [لأنه] كان ترهب فيه
اولا، والرب محب البشر الذى يريد خلاصهم
ويردهم الى معرفة الحق لم يجعل تلك الكورة ومن
فيها ان يقيمو على الخلاف الذى فعلوه، لكن اثار
عليهم الكرسى الانجيلى دفعة أخرى ليظهر الرب
عجايبه هكذا فانزل عليهم وبا وفنا عظيما

Triakontachoinoi [١]، وأوضح لهم أن هذا الاقليم منطقة نفوذ رومانية، على أن تظل تحت حكم أمرائها من الكوشيين [٢]. ويعتبر هذا أول اتفاق بين الرومان والكوشيين على تحديد مناطق النفوذ والحدود بينهما.

بيد أنه لم يقدر لهذا الاتفاق أن يدوم طويلا، ولم يتح للرومان أيضا فرصة التمتع بثمرة ما أحرزوه من كسب فى هذه المنطقة، إذ شجعت أخبار الفشل الرومانى فى اليمن طوائف الكوشيين على الثورة على الحكم الرومانى، واحتلوا الفنتين وأسوان، وحطموا تماثيل أغسطس قيصر، وهزموا الحامية الرومانية [٣].

كان من الطبيعى أن يرد الرومان هذا الهجوم، فقاد جالوس بترونيوس Gallus Petronius حملة تعقب فيها الكوشيين جنوبا وطاردهم حتى دكة، ثم دارت بين الجانبين مفاوضات غير مجدية، فعاد القائد الرومانى إلى الحرب، ونشبت معركة انتهت بهزيمة الكوشيين وأسرقادتهم وارسالهم إلى الأسكندرية، ثم استولى بترونيوس على دكة وإبريم، ووصل فى زحفه جنوبا حتى نباتا فحاصرها. وعلى الرغم من العرض الذى تقدمت به كنداكة إلى بترونيوس برد الأسرى الرومانيين وإعادة تماثيل قيصر إلى أسوان، فان بترونيوس هاجم نباتا واستولى عليها،

(١) وهى المنطقة التى تمتد من المحرقة إلى عكاشة جنوبى الشلال الثانى أنظر الفصل السابق.
(2) Milne, J. G. : A History of Egypt Under Roman Rule V. P. 17.
(3) Strabo: op. Cit. P. 137.

وعلى بهايمهم، وجعل ملكهم مغلوبا من كلمن
يقاومه ويقتل اصحابه. فلما عاد من الحرب لحقه
حزن عظيم ولم يعلم بما جرى على الاسقف ولا
كيف انفوه من بلدهم وكانت الملكة [هى] التى
فعلت هذا كما فعلت اوضوكسية ذلك الزمان مع
يوحنا فم الذهب. فلما علم الملك بذلك اسرع
وكتب الى الراعى الصالح انبا يوساب يقول له انا
اسجد للكرسى الانجيلى الذى استحقت ابوتك
الجلوس عليه، وبنعمته ثبت ملكى، والان فان قوما
من كورتى ضلو عن نور الكرسى المقدس وجعلو

ثم قفل راجعا إلى الإسكندرية. وفى طريق عودته قوى بترونيوس حصون إبريم، وترك فيها حامية من أربعمائه جندى مزودة بمؤن تكفيها ثلاث سنوات[1].

لم يكد بترونيوس يصل إلى الاسكندرية حتى سمع بنبأ الاغارة من جديد على حامية إبريم، فعاد مسرعا وخلص هذه الحامية من الحصار الذى فرضه الكوشيون عليها [2]. وانهزمت جيوش كندا كة، وقبلت دفع جزية وارسال عدد من الرهائن [3]. ثم سعت كندا كة إلى الصلح، وأرسلت سفراءها إلى الإمبراطور، واستغلت الدولة الرومانية هذه الحال، فأ كدت حقوقها فى منطقة دوديكاشينوس واحتلتها القوات الرومانية. ودام السلام بين الرومان وبين الكوشيين مدة غير قصيرة [4]. ثم بدا فى منتصف القرن الأول الميلادى كأن الدولة الرومانية تريد غزو بلاد كوش كلها، إذ أرسل الامبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨م) بعثة إلى بلاد كوش لاستطلاع أحوالها، ووصلت البعثة جنوبا حتى إقليم السدود. بيد أن تقريرها جاء مخيبا لآمال الامبراطور فعدل عن مشروعه [5].

(1) Ibid : op. Cit. p. 139.

(2) Ibid : op. Cit. p. 141.

(3) Woolley - Maciver: op. cit. P. 86.

(4) Milne, J. G. op cit. P. 36.

(5) Ibid: op. Cit. p. 36.
Pliny: Natural History, II, P. 475.

ارجلهم فى الطريق المملوه شوكا لما اخرجو خليفتك، فانزل الرب مجازاة ذلك على روسنا فاذاقنا عنه الانتقام بموت الناس والبهايم بالوبا [ء]. ومنع السما [ء] من المطر علينا، والان يا ابانا القديس فاغفل عن جهلنا وانفذ الينا من يدعو الى الله فينا ويصلى عنا لنخلص بصلوتك المسموعه.

لما وقف الاب على الكتب فرح بامانته وانفذ سرعه واحضر ذلك الاسقف من دير برموس، وعزاه وتبته وسيره اليهم، وانفذ معه قوما مامونين

وفى مدة قرنين (من ٦٠م إلى ٢٦٠م) قام الرومان بسلسلة من مشاريع التعمير فى هذه المنطقة، غرضها توسيع التجارة بين مصر وبلاد دارفور وكردفان. ولهذا أقيمت المعابد فى فيلة وكلابشة، وكشف الرومان طريق القوافل القديم الذى يؤدى إلى هاتين المقاطعتين الغنيتين بمواردهما الطبيعية، كما أقيم معبد فى الواحة الداخلة. ومما لا شك فيه أن الرومان كانوا يهدفون إلى قيام علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التى تعيش فى الغرب والجنوب لتحقيق أغراضهم التجارية[١]

غير أن هذه السياسة السلمية لم تلبث أن طرأ عليها ما أفسدها بسبب إغارات البليميين[٢]. ويبدو أن البليميين كانوا يستوطنون بعض جهات النوبة السفلى. جنوبى المحرقة

(1) Budge: A Hist. of Ethiopia.., I. P. 8.

(٢) أطلق الكتاب القدماء منذ القرن الأول الميلادى – على سكان الصحراء. الشرقية اسم البليميين Blemmyes (Strabo : op. cit.; P. 5). وذكر بروكوبيوس فى القرن السادس الميلادى أنهم يكون المنطقة الممتدة من حدود مصر إلى أكسوم (Procopius op.cit.p. 185)، على حين أن كوزمس التاجر المصرى الذى عاش فى هذا الوقت أيضا أطلق على سكان هذه المنطقة اسم بجا. Bega.
(Cosmas. Christian Topography of Cosmas - ed. Mac Crindle Haklyot Society P. 62.
والظاهر أن البليميين هم البجة أو شعبة منهم. ففى القرن الرابع عشر الميلادى يشير كل من الادريسى وابن الوردى إلى وجود جماعة تسكن الصحراء الشرقية يقال لها البليون، ويشير الرحالة البرتغالى الفارز إلى وجود جماعة تدعى Bellones (بلونيون) ولا يبعد أن يكون هؤلاء وأولئك هم البليميون الذين أشار=

لجل الطريق، ودفع له ما يتسفر به وما يكفيه وشيعهم وهو يبارك عليهم يسهل الله طريقهم، فسمع الله له ووصلو الى الملك المحب ففرح بهم وكلمن فى كورته.

فرمى الشيطان عدو السلامه فى قلب قوم من اهل تلك الكورة الى ان وقفو للملك وقالو له نحن نطلب من امرك ان تامر هذاالاسقف ان يختتن لن [لأن] كلمن فى كورتنا مختتنون سواه. ومن قوة فعل الشيطان طاب قلب الملك بهذا ان

منذ زمن البطالمة [١]. ولكننا لا نعرف إذا كانوا قد خضعوا لنفوذ دولة مروى فى الجنوب بعد ضم منطقة دوديكاشينوس للإدارة الرومانية فى مصر. أما المعروف فهو أن البليميين لم يستقلوا بهذه المنطقة تماما على الرغم من احتلالهم لها [٢]. ومن هذه المنطقة بدأت سلسلة الإغارات التى شغلت الرومان وضايقتهم وكلفتهم الكثير من الجهد، وكانت أولى هذه الاغارات عام ٢٥٠م. ومما شجع المغيرين على القيام بهجومهم على الأطراف الرومانية، حالة الفوضى والانقسام فى جوف الدولة الرومانية، وقلة حاميات الأطراف[٣]، وكذلك تصفيةالحكم

= إليهم الكتاب فى العهد الرومانى، ولو صح هذا، ونسبوا إلى البجا لأصبحوا يعتبرون من الجنس الحامى. ويرى سلجمان أنهم من نفس سلالة قدماء المصريين واقتبسوا من حضارتهم وتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان. ويبدو أن لفظ البجا، أو البجه هو الاسم الحديث للقبائل القديمة التى كانت معروفة لقدماء المصريين تحت إسم ميجا أو ميجوى، واستعان بهم قدماء المصريين منذ الأسرة السادسة (٢٥٠٠ق م) فى مختلف الأعمال وعلى الأخص كانوا يؤلفون منهم فرقا عسكرية تستخدم للبوليس والحرب. ومن أهم أقسام البجا فى الوقت الحضار. البشاريين، الهدندوة، الأمرار، وبنى عامر، الحلانقه، قارن.

Paul, A. : A History of The Beja Tribes, PP. 20 - 57.

Kirwan, L. P. : "Studies in the Later History of Nubia" L.A.A.A. XXIV, PP. 1- 11.

Kirwan, L. P. : Firka, P. 41.

محمد عوض محمد - السودان الشمالى . ص ٣١ - ٣٣.

(1) Beckett, H. W. : ASN. II, Report for 1907 - 8,p. 350.

(2) Emery, W.B.; The Royal Tombs of Ballana and Qustul, I. P. 5.

(3) Budge, E.A. Wallis: The Egyptian Sudan op. cit, p. 175.

يوخد ذلك الشيخ الاسقف ويختن والا فيعود إلى المكان الذى جا منه. فلما تذكر [الاسقف] صعوبة الطريق التى سلكها فى مضية وعودته، ثم ما يلقاها ايضا [فهان عليه ذلك و] خاف من صعوبة الطريق فى البر والبحر فقال: انا افعل هذا لخلاص الانفس التى اقامنى الرب راعيا لهم بغير استحقاقى، والآن فقد قال بولس الرسول ووصانا وقال: اذا دعى احد بغير ختان فلا يختتن. فلما ساعدهم على ذلك اظهر الله فيه امرا عجيبا بما

العسكرى فى منطقة دوديكاشينوس، وإلحاقها بالإدارة المدنية الرومانية بالفنتين. ثم أنه ليس من المستبعد أن يكون البليميون اندفعوا شمالا نحو دوديكاشينوس تحت ضغط قبائل النوبا الذين كانوا مصدر تهديد لدولة مروى فى الجنوب [١].

وفى الواقع أن الإمبراطورية الرومانية قبيل عهد دقلديانوس واجهت مشاكل عديدة فى الداخل والخارج . ففى مصر مثلا قامت حركات قومية تدعو إلى الثورة ضد الرومان للتخلص من نفوذهم. وتركزت هذه الحركات فى الدلتا بزعامة فيرموس المصرى. واشتعلت ثورة قومية أخرى فى طيبة كذلك. وانضم إلى هؤلاء وأولئك أهل تدمر الذين جاءوا إلى الصحراء الشرقية، والليبيون بالصحراء الغربية، واشترك البليميون فى هذه الحركة العامة. ومما زاد هذه الحركات اشتعالا، قيام يوليوس أيميليانوس Marcus Julius Aemilianus [٢]. بحركة غرضها الاستقلال بمصر. ذلك أن البليميين انتهزوا فرصة انشغال الجيوش الرومانية بالقضاء على حركة إيميليانوس والقبض عليه واندفعوا شمالا من قواعدهم بالنوبة السفلى وانضم إليهم أهل طيبة واحتلوا قفط ثم انضم إليهم أهل تدمر بقيادة ملكتهم الزباء Zenobia، وما لبث هؤلاء الحلفاء أن أصبحوا سادة مصر العليا [٣].

(1) Emery, W.B. op. cit. p. 5.

(٢) نادى الرومانيون المتوطنون بالاسكندرية بهذا القائد ملكا على مصر كلها ولم يلبث أن قبض عليه.
Woolley. Maciver. op. cit. P. 90.

(3) Miln, J. G. op. Cit. p. 79.

قد كتب به الى ابينا البطرك انبا يوساب، وهو انه لما مسكوه ليختتوه وكشفوا عنه فوجدو علامة الختان فيه كانه مختون من تامن يوم من ولادته، واقسم فى كتابه انه لم يعرف هذا قط الا ذلك اليوم. وطاب قلب الملك واهل الكوره وفرحو فرحا عظيما بهذه العجوبه قبلوه بفرح.

ولما وصلت الكتب الى البطرك بذلك فـــرح كتيرا لعودة هولا الضالين الى راعيهم، وبالاعجوبة التى ظهرت قايلا: مبارك الرب الذى رد سبى شعبه

ثم استتب الأمر للدولة الرومانية بالتخلص من أيميليانوس، وشرع القائد الرومانى بروبوس Probus فى القضاء على الثوار جميعاً، فأوقع هزيمة بفيرموس، ثم قضى على أهل تدمر، ورد البليميين إلى ما وراء الشلال الأول فى عام ٢٧٤م [١]، وأحرز النصر النهائى على الليبيين بالصحراء الغربية [٢]. ولم يأت عام ٣٨٠م حتى عاد الرومان إلى احتلال دوديكاشينوس مرة أخرى. ولم يشأ القائد الرومانى أن يخاطر بقواته بالتوغل إلى الجنوب من المحرقة، ولذا لم يستطع أن يقضى على البليميين، فظل خطرهم قائماً [٣].

* * *

أما المرحلة الثانية من مراحل الصراع بين الرومان والبليميين، فتبدأ بعهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، إذ وجه هذا الامبراطور عنايته لحل مشكلة الحدود الجنوبية لمصر، وكانت ما تزال موضع تهديد البليميين. فرأى أن منطقة النوبة الرومانية (دوديكاشينوس) منطقة فقيرة لضيق واديها وأن إنتاجها لا يوازى بحال ما يصرف على الدفاع عنها، وأن الاحتفاظ بقوات كبيرة فيه يكلف الخزانة الرومانية ثمنا كبيراً [٤]. ولهذا قرر إخلاء منطقة دوديكاشينوس ونقل

---

(1) Emery, W. B. op. cit. p. 6.

(2) Milne, J. G. op cit p. 81.

(3) Woolley - Maciver op. cit. p. 91.

(4) Ibid. op. cit P. 91.

Procopius op cit p. 185.

وانقذهم من يد العدو ولم يجعلهم فى الضلالة الى الأبد.

ومن كثرة اهتمام هذا الراعى الصالح وبذله نفسه عن خرافه، اصلح اساقفه كتيرا وانفذهم الى كل موضع من كرسى مارى مرقس الانجيلى وهى افريقيه و الخمس مدن والقيروان واترابولس [طرابلس الغرب] وكورة مصر والحبشه والنوبه لنه [لأنه] قال: اذا لم يكن الرعاة كتيرا لحفظ الرعيه والاهلكت فما اغفل عنها ليلا [لئلا] يضيع منها

الحامية الرومانية من المحرقة إلى أسوان والفنتين. ثم أغرى دقلديانوس النباطيين Nobotae بترك الواحة الخارجة ليستقروا بهذه المنطقه التى انسحب الرومان منها على أن يمنحهم ملكيتها. واستهدف بذلك أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فان انتقال النباطين إلى منطقة النوبة السفلى سينهى أعمال الفوضى التى كان النباطيون يقومون بها فى الواحة الخارجة، ثم أن نظرتهم لوطنهم الجديد سوف تدفعهم إلى مقاومة إغارات البليميين. وقبل النباطيون عروض الإمبراطور واستقروا على كلتا الضفتين فيما وراء الفنتين [١]. وقرر دقلديانوس للنباطيين أتاوة سنوية ومثلها للبليميين على ألا يقوموا بعمل عدائى ضد روما [٢]. لم تقف جهود دقلديانوس عند ذلك، علما منه بأن هذه القبائل لا سبيل إلى إرغامها على أحترام مواثيقها إلا بالقوة، فاختار جزيرة بالنيل قرب الفنتين، وأقام قلعة حصينة تقوم بالدفاع عن الحدود الجنوبية لمصر ضد المغيرين [٣]، وبالإضافة إلى كل هذا، رأى دقلديانوس أن يستغل عاطفة البليميين الدينية، فأقام معبدا جمع فيه رموز عقائد البليميين، والنباطيين والرومان ليدل على أن رابطة دينية تجمع بين الرومان وهذه القبائل وتذكرهم باحترام مواثيقهم [٤].

....

(1) Ibid - op. cit. PP. 183- 187.

(2) Ibid. op. cit. P. 187.

(3) Procopius op. cit. P. 187.

(4) Wolley - Maciver op . cit. P. 92.

شى او يهلك ولو واحـــد كنت مطلوبا بـه من
المسيح، فلاى شى اقامنى الا لحفظ قطيعه من
السبع القايم يطلب غفلة الراعى ليخطف ويفترس
ويهلك ، ثم اقول امام الرب ان الذين سلمتهم لى
لم يهلك منهم ولا واحد . وفيما هو فى ذلك تحرك
العدو المناصب ليقيم عليه بلايا واحزانا، والرب
كان مع هذا الانسان الاب القديس يخلصه فى
كل حين ويريه ضعف اعداه واعدا[ء] البيعه يوما
بعد يوم كقول الرب الذى قال: ابواب الجحيم لا
تقهر بيعتى.

وبمقتضى المعاهدة التى أبرمت بين دقلديانوس والنباطيين قام النباطيون بدورهم الذى كلفوا به وهو أن يصبحوا المنطقة الحاجزة بين البليميين فى الجنوب وبين الرومان فى ا لشمال. ويبدو كذلك أن ملوك النباطيين سيطروا على المنطقة التى انسحب منها الرومان [١].

وعلى العموم يمكن القول إن دقلديانوس نجح إلى حد كبير فى وقف الاغارات التى شنها البليميون على جنوب مصر طوال القرون الثلاثة التى سبقت حكمه [٢]. وفى عهد قسطنطين الأكبر (٣١٣ - ٣٣٧م) ساد السلام بين الرومان والبليميين، ودل ظهور رسل البليميين وسفرائهم فى بلاط قنسطنطين [٣] على استمرار ذلك السلام[٤].

* * *

أما عن سياسة الرومان فى حوض النيل الأوسط والأعلى، فإنها ارتبطت بالاتجاه العام نحو بسط نفوذهم على تجارة الشرق، والإعتماد على حليف قوى لتنفيذ أغراضهم التجارية والسياسية. وذلك أن تجارة الهند والصين وشرق أفريقيا تحولت من أيدى التجار الرومانيين أواخر

(1) Milne, J. G. op. cit p. 99.

(2) Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan, II, P. 177.

(٣) إن تاريخ هذه البعثة النوبية إلى القسطنطينية غير معروف تماماً.

(4) Woolley - Maciver op. cit. p. 92.

ولما كان فى ذلك الزمان انفذ الملك ابراهيم [المعتصم] الى مصر ان توخد من البيع فى كل مكان العمد والرخام. وكان الواصل فى هذا الطلب انسانا مخالفا مبغضا من النسطوريه اسمه العازر، فلما وصل الى مصر اجتمع اليه اهل مذهبه النجس الذين هم الهراطقة الخلقدونيون المقيمون باسكندريه، ولم يزالو يسعون بالبيع ليلا ونهارا وحسنو له ان يهدم بيع مدينة الاسكندريه، وكانو يدلونه على المواضع التى فيها العمد والبلاط فياخذهم غصبا بيده.

القرن الثانى الميلادى، إلى وسطاء من الفرس والأحباش والحميريين على أثر الاضطرابات التى شملت أنحاء الامبراطورية الرومانية حوالى ذلك الوقت [1]. وفضلا عن هذا فان دولة مروى - التى تمتعت بمركز تجارى ممتاز لتحكمها فى الطرق التجارية المؤدية إلى مصر فى الشمال عن طريق النيل وتجارة وسط أفريقيا المتجهة إلى البحر الأحمر - أخذت فى الاضمحلال التدريجى منذ منتصف القرن الثالث الميلادى عندما أخذ يغير عليها النوبا [2]. وكذلك عندما هدد البليميون منطقة النوبة السفلى وجنوبى مصر فى الشمال ومروى فى الجنوب . ولم يعد النيل طريقا صالحا لمرور التجارة بين الجنوب والشمال، ففقد الرومان وارداتهم من وسط أفريقيا وخاصة الرقيق والعاج وريش النعام والأبنوس عن طريق النيل [3]. ولهذا حاول الرومان توثيق علاقاتهم بدولة أكسوم، واستخدامها فى قمع حركات البجا الشماليين (البليميين) والنوبا، لفتح طرق التجارة من جديد إلى قلب أفريقيا. وتم أول اتصال لهذا الغرض فى عام ٢٧٥م على عهد الامبراطور أورليان Aurelian[4] واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم حيث توجد ميناء عدول أعظم سوق لتجارة الرقيق ومنتجات شرق ووسط أفريقيا. ومن بين هؤلاء

(1) Bury, J. B.: History of the Later Roman Empire, II. p. 318.

(٢) وربما كان مصدرهم من الجنوب.

(3) Bury, J.B.: op. cit . P. 318.

(4) Paul, A. : A History of The Beja Tribes of the Sudan, P. 41

فلما اخرجوه الى بيعة الشهيد مار مينا بمريوط، من كترة حسدهم لها، وقالو له ليس بشبهها شى من البيع، وان كلما توجهت لطلبه تجده فيها. فقام ذلك النسطورى مسرعا بمشورة السعاه ودخل الى بيعة الشهيد مارى مينا بمريوط، فلما نظر اليها والى زينتها وحسن ما فيها من العمد والرخام الملون تعجب وبهت وقال: هذا الذى يحتاج اليه الملك، هذا هاهنا ولم اعلم به.

فلما سمع ابونا انبا يوساب البطرك ان ذلك

التجار فرومنتيوس المصرى Frumentius الذى أوفدة قسطنطين الأكبر لعقد معاهدة تجارية مع عيزانا ملك أكسوم، الذى اعتنق المسيحية على يدفرومنتيوس حوالى ٣٤٠م. ومنذ ذلك الحين أخذت المسيحية فى الإنتشار فى بلاد أكسوم بعد أن مهدلها التجار اليونانيون الذين وفدوا على هذه الديار من قبل. ورسم البطريرك أثناسيوس فرومنتيوس أسقفا لأكسوم [١].

يبدو أن مهمة فرومنتيوس لم تقف عند التبشير بالمسيحية فى بلاد أكسوم، بل حمل عيزانا على تجريد حملته المشهورة على مروى حوالى ٣٥٦م. وذكر عيزانا فى اللوحة التى تركها تخليداً لانتصاره، غرضه من هذه الحملة وهو تأديب النوبا الذين يغيرون على جيرانهم ولم يحترموا عهودهم، فأحرق بيوتهم المبنية من القش والطين، وخرب مزارع القطن ، وألقى بتماثيلهم إلى النهر. ومن بين المدن التى ذكرها عيزانا، مدينتا علوه، ودارو [٢] وترتب على هذه الحملة القضاء على البيت الملكى المروى، ولكنها ـ على ما يبدو ـ لم تترك أثراً للمسيحية فى تلك الجهات.

* * *

ثم أن السلام الذى ساد مدة بين البيزنطيين والبليميين ما لبث أن تزعزع منذ أواخر عهد

(1) Trimingham, J.S.: op. cit

(٢) وهذه المدينة الأخيرة «دارو» تقع جنوب أسوان.

الانسـان السـو لـم [لن] يمنع يده لما في قلبـه من السو والبغضه وما لقوه المخالفون: فقال له : هو ذا كل البيع التى بحكمى بين يديك فافعل فيـها ما امرك به الملك وهذه البـيـعه فـقط احب منك الا تعترضـها، ومهـما التمسته منى سلمته اليك. فلم يقبل المخالف قوله ولا سواله بل جاوبه مواجهة بما لا يجب . ثـم بدا واخرج من البيعـه الرخام الملون والبلاط المعدوم [النادر] الذى هو قايم من كل لون وليس له نظيــر ولا يعــرف له ثـمن، فلمــا وصل

الامـبـراطور تاوداسـيـوس الأول Theodosius (٢٧٨ - ٣٩٥م). ويمكن تفـسـيـر هذا بأن البليميين بدأو يحسون بخطر المسيحية التى تهدد معبوداتهم ومعتقداتهم، وبأنهم شعروا بهذا الخطر من ناحية أكسوم بعد أن اعتنق ملكها عيزانا الدين المسيحى. كما أصدر تاوداسيوس الأول مرسومه الشـهير عام ٣٨٥م وهو المرسوم الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الديانات المصرية المخالفة. وفى هذا يتضح أن الضغط المسيحى المزدوج عن طريق أكسوم وعن طريق مرسوم تاوداسيوس خلق عند البليميين ضرورة الدفاع وشن الإغارات.

وأول مـا قـام به البليـمـيـون هو احـتـلالهم جـزءاً كـبـيـرا من أرض النوبة الرومـانيـة (دوديكاشينوس) وتحديهم قـرارات تاوداسـيـوس واظهـار الميل إلى أنصـار الديانات المصـرية ودعاتها، كالاحتفال بالمؤرخ اليمبيودرس Olympiodorus الذى زار المنطقـة المحتلة فى أرض النوبة الرومـانيـة عـام ٤٢١م [١]. وحـوالى ذلك الوقت بدأ البليـميـون سلسلة إغاراتهم على منطقة طيبة والواحة الخارجة فاحتلوا الواحة الخارجة سنة ٤٢٩ ونهبوا مدنها وأسروا سكانها ومن بينهم نسطورس الذى كان منفيا بها. بيد أن البليـمـيين اضطروا إلى إطلاق أسراهم [٢]

(1) Woolley - Maciver: op. cit. P. 94.

(2) Ibid, : op. cit. P. 95.

الرخام الى مدينة اسكندريه لينفذوه الى مدينة
الملك فحزن الاب حزنا عظيما على البيعه وقال:
انا اعلم انك تقدر ايها الشهيد القديس ان تاخذ
حقك من هذا المخالف الذى لم يوقر بيتك الذى
هو عزا لجميع المومنين. ولم يفتر الليل والنهار من
هذا الحزن للذى حل لهذه البيعه المقدسه. وكان
مهتما بعمارتها سرعة وانفذ احضر صفايح مزوقه
من مصر واسكندريه وبدا ان يتعمر المواضع التى

لعجزهم عن الاحتفاظ بهم أمام ضغط قبيلة ليبية قوية تدعى مازيكى Mazici [١] التى كانت تهدد خطوط انسحابهم [٢].

ومنذ حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى لم يصبح البليميون وحدهم عنصر الشغب ومثيرى الاضطراب فى الأطراف الجنوبية المصرية، بل شاركهم النباطيون وكانوا من قبل حماة هذه المنطقة والمدافعين عنها ضد البليمين . ومعنى هذا أن مشروع المنطقة الحاجزة الذى ابتكره دقلديانوس لم يعد صالحا فى هذا الوقت. ويؤدى اتفاق البليمين والنباطيين وقيامهما بعمل مشترك إلى الاعتقاد بأن هاتين القبيلتين أجمعتا رأيهما على الوقوف فى وجه الامبراطورية الرومانيه فى بادئ الأمر[٣].

ومن الدلائل على ذلك بردية معاصرة لأواخر عهد تاوداسيوس الثانى، إذ تخبر هذه البردية عن إغارة مشتركة قام بها البليميون والنباطيون على كنائس فيلة التى أقيمت محل معابدها. ولهذا التمس أبيون Appion أسقف أسوان والفنتين من هذا الامبراطور أن يكلف القائد الرومانى الذى ترابط قواته فى تلك المنطقة أن يحمى هذه الكنائس من إغاراتهم [٤]. ومع

(١) المزيكى ربما كانوا من قبيلة الطوارق التى تعيش فى الصحراء الليبية.
Arkell, A. J. op. cit. p. 179.
(2) Milne, J. G. : op. cit . P. 99.
(3) Emery: op. cit. p. II.
(4) Ibid: op. cit. p. II.
Kirwan, L. P. : " The Ballana Civilization". SGE. XXV 1953, P. 107.

قلع منها البلاط بكل زينه حسنه حتى ان كل من يشاهدها ما يعلم ان قد مضى منها شي.

وفى تلك الأيام والعازر المخالف باسكندريه تم عليه القول المكتوب «من الذى قاوم الرب فخلص؟. فضربه الرب عاجلا بضربة هكذا، وهو ان جسده تنفخ و احشاه بالمرض المسمى الاستسقا، وتغير لون وجهه وبقى مطروحا لا يقدر ان يرفع راسه، وكان قد ناله فقر عظيم حتى انه ما وجد من يقوم بقوت نفسه ودوابه أو يتداوى به.

هذا يبدو أن البليميين استقروا فى منطقة طيبة، وخضعت لهم الحامية الرومانية فى هذه المنطقة، وأقاموا نوعا من الحكم المستقر، واتخذوا بطلمى قاعدة لجيوشهم التى كانت تشن إغاراتها على مايلى طيبة شمالا[١].

لم يسكت الرومان طويلا على هذه الحال، بل أصدر الإمبراطور مارقيان Marcianus (٤٥٠ - ٤٥٧م) أوامره إلى القائد مكسيمينوس Maximinus بضرورة إخضاع البليميين والنباطيين بالقوة [٢]. فزحف القائد الرومانى نحو بلادهم وما زال يحاربهم حتى عقد هدنة بينهم وبين الرومان لمدة مائة عام [٣]. وفى شروط هذه المعاهدة نقلا عن برسيق Priscus نص: أن يرد البليميون وحلفاؤهم الأسرى الرومان، وأن يدفعوا تعويضا لما أصاب الأفراد والممتلكات من أضرار خلال أغاراتهم، وأن يرسلوا عددا من الرهائن[٤]. وفى مقابل هذا سمح لهم بالحج إلى فيلة وحمل تمثال معبودتهم إيزيس إلى بلادهم. والتقى مكسيمينوس بمبعوثى البليميين والنباطيين فى الجزيرة المقدسة (فيله)، حيث نقشت نصوص هذه المعاهدة على جدران هيكل الإلهة إيزيس [٥]. ولم يوقف الرومان ما كانوا يمنحونه لكل من البليميين

(1) Woolley - Maciver, : op. cit. P. 96.

(2) Emery, W. E. : op. cit. p.13.

(3) Kirwan. L.P. : LAAA. XXIV, P. 82.

(4) Budge, E.A.W. : Ethiopia, op. cit . p. 102.

(5) Woolley - Maciver: op. cit. p. 96.

فسال الاب البطرك فيما ينفقه عل نفسه وان
يصلى عليه ففعل الاب هذا كالمكتوب الذى هو :
«ان جاع عدوك فاطعمه وان عطش فاسقيه».
وكان الوجع يتزايد عليه كتيرا وهو مطروح، وكل
ما يشاهده يمجد الله وشهيده مار مينا ويعطى
الطوبى للراعى الصالح لنه [لأنه] كان يعمل الخير
مع كل من يسعى اليه.

وصار لسان الاب كالسيف القاطع ، فمن لا

والنباطين من أتاوة منذ عهد دقلديانوس [١]. ومع أن موافقة الرومان فى وثيقة رسمية على السماح للبليميين والنباطين بالحج إلى فيلة وحمل تمثال معبودتهم، يدعو إلى الدهشة بعد أن أصبحت الدولة الرومانية مسيحية، فيبدو من تنازل الرومان وقبولهم هذا الشرط على أنهم كانوا غير راغبين فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم حتى هذا العهد. وبمقتضى هذه المعاهدة انسحب البليميون من منطقة طيبة إلى منطقة دوديكاشينوس، واتخذوا كلابشة Talmis عاصمة لهم. أما النباطيون فاستقروا فى المنطقة الواقعة جنوبى أبريم.

بيد أنه لم يكد يصل البليميين وحلفاءهم خبر موت القائد الرومانى مكسيمينوس، حتى عادوا إلى شن إغاراتهم من جديد، وأطلقوا سراح رهائنهم بالقوة [٢]. ثم استطاع القائد الرومانى فلورس Florus أن يوقع بهم هزيمة ساحقة احترموا بعدها شروط الصلح التى عقدوها مع سلفه مكسيمينوس.

والمعتقد أن معاهدة الصلح نفذت بعد ذلك بحرص شديد، بدليل عدم تجدد الإغارات على منطقة طيبة مدة قرن تقريبا، واستمرار البليميين على ولائهم لمعبودتهم ايزيس. على أن المعابد الوثنية فى منطقة طيبة أصابها التدمير والانهيار. كما أن المسيحية بدأت تتسرب إلى

(1) Ibid. : op. cit. p. 98.

(2) Emery, W.E.: op. cit. p. 13.

نقلا عن. Priscus, - ed. Meubuhr, p. 153.

يتعجب من سماع فضايل هذا الاب القديس السعيد انبا يوساب.

وايضا عجبا اخر اسمعو يا احبا لهذا الاب، كان باسكندريه رجل مخالف من الخلقدونيين غنى جدا، وكان له سواق(*)، فلما خرج فى بعض الايام ليتفرج فى بعض كرومه بظاهر اسكندريه راى ساقيه مكسورة فالتمس نجار، وكان شيخ قس نجار فقال له الخلقدونى: تقوم تمضى معى لتعمل

(*) سواق: جمع ساقية. آلة تدار بالثيران لجلب الماء اللازم لرى الحقول، وهى مازالت مستعملة حتى اليوم فى الريف المصرى.

النباطين الذين لم يستمروا - فيما يبدو - على تحالفهم مع البليميين، بل أطلقوا على أنفسهم أصدقاء روما. وعلى الرغم من أن المسيحية وجدت لها أنصارا بين النباطين، فإن البليميين ظلوا على تشبثهم لدينهم المصرى [١]، ولم يظهروا أى ميل للدين الجديد حتى بداية القرن السادس الميلادى.

* * *

أما العبادات التى مارسها كل من البليميين والنباطين قبيل دخول المسيحية إلى بلاد النوبة، فيبدو واضحا أنها كانت خليطا من مصرية قديمة، ومروية. وفى الدليل على ذلك قول بروكوبيوس، أن البليميين والنباطين عبدوا إيزيس وأوزوريس. لكن إيزيس تمتعت بمكانة سامية تفوق ما كانت تتمتع به الالهة الأخرى عند تلك القبائل من التبجيل والتعظيم. ولا غرو فإن معبد فيلة شهد مواكب الحجاج من البليميين والنباطين كل عام تحمل تمثال إيزيس إلى أراضيهم لتمنحهم الخصب والثروة [٢].

ولعل ضخامة هذه المراسم الاوزيرية وتجمع القبائل كل عام فى فيلة منذ أيام دقلديانوس،

(1) Woolley - Maciver: op. cit. p. 97.

(2) Kirwan, L.P. : LAAA. XXIV, P. 88.

لى الساقيه. فقال له القس: اليوم يوم الجمعه العظيم وما اعمل فيه شيا، لانه يوم صلب فيه كلمة الله مخلص العالم . فاجابه الملعون الهراطقى وفتح فاه المخالف وجدف على الله الكلمه وقال ما لا يجب ذكره، فوبخه الشيخ القس ومضى وتركه، وكان ابونا البطرك فى البرية بوادى هبيب يعيد فى الدير عيد الفصح ويكمل عيد قيامة المسيح ، ولما عاد الى اسكندريه حكى له الشيخ القس ما جرى من



طبق خزف عليه رسم المسيح

هما اللذان أثارا جستنيان إلى القيام بحركه لخدمة المسيحية، وخاصة وأن هذه المواسم الاوزيرية الكبرى كانت تروح وتغدو بمواكبها الصاخبة فى قلب أسقفية أسوان وألفنتين،حيث توجد الكنائيس والأديرة المسيحية الجديدة، ثم إن تجمع هذه القبائل فى فيلة أثار القلاقل على الحدود المصرية مع قرب انتهاء أجل الهدنة (١)، ولا سيما بعد أن أخذ النزاع يدب بين البليميين والنباطيين (٢).وسواء أكان جستنيان مدفوعا بعوامل سياسية أودينية، فإنه انتهز فرصة انقضاء أجل الهدنة ليقضى على الاوزيرية فى فيلة، كعبة البليميين والنباطيين. ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الغاية ومنطقة النوبة السفلى من الشلال الأول حتى أبريم تحت سيطرة البليميين الذين يتحكمون فى المسالك المؤدية إلى فيله ؟.

يبدو أن جستنيان كان على صلات بالعناصر النوبية التى أخذت تميل إلى المسيحية، فشجعها على حرب البليميين وطردهم من وادى النيل(٣) . وانبرى «سلكو» أحد ملوك النباطين لهذه المهمة. وليست لدينا الوثائق الخاصة بجهود هذا الملك ضد البليميين إلا وثيقة

(1) Budge, E. A.W.: The Egyptian Sudan II P. 178.

(2) Beckett H. W.: ASN., Report for 1907 - 811, p. 365.

(3) Budge : op cit. p. 294.
Beckett H. W.: op. cit. p. 367.

تجديف المخالف، فاجاب بصوت النبوه المشتمل
بروح القدس وقال: تخرس الشفاه الناطقه
بالتجديف على المسيح الاهى. وقال ايضا كما قال
داود : عدو افترى على الرب وشعب جاهل
اغضب اسمك. فيا لهذه العجوبه العظيمه، عند
ذلك صار المخالف اخرس لا يتكلم ، وانفلج الى
يوم وفاته. وكل من شاهد هذا من الاسكندرانيين
المخالفين صار فى خوف عظيم، حتى ان ريسهم
غير البطرك المسمى صفرون صار له فى ابينا

واحدة تتمثل فى النقش الذى تركه محفوراً على أحد جدران معبد كلابشه تخليدا لانتصاره على البليميين [١].

ومما جاء فى هذا النقش أن «سلكو» حضر مرتين إلى كلابشة وتافه، وحارب البليميين فى ثلاث مواقع، وانتصر عليهم فى الرابعة واستولى على مدنهم. ثم أقسموا بآلهتهم يمين الطاعة والولاء له. فصالحهم. ثم عاد إلى الأجزاء العليا من مملكته ليقضى على حركات العناصر المعادية له من بين النوباديين، ثم عاد لشن حرب جديدة ضد البليميين، فاكتسح أراضهم، وطاردهم من أبريم حتى الشلال الأول [٢]. ويبدو أن حملته الأولى كانت ناجحة، ولكنها لم تكن حاسمة [٣]. ولهذا اضطر للقيام بحملته الثانية بعد عودته من الجنوب، فأحرز نصرا حاسما ضد البليميين، واحتل كلابشة وتافه اللتين لم يتح لملك نوبى من قبل أن استولى عليهما منذ احتلال البليميين لهذه المنطقة أواخر القرن الرابع الميلادى، كما قضى على منافسيه من زعماء النوبة. ولهذا أطلق على نفسه ملك النوباديين وجميع الأثيوبيين [٤].

(١) وأول من قام بنشر هذا النقش هو «جو» Gau فى كتابه «آثار النوبة» وناقش نوبهرNiebuhr محتويات هذا النقش. وهناك نسخة أخرى حصل عليها كل من لبسيوس وكايو، وشرحه كل من ليترون Latronne وربفيو Revilleot شرحاً وافياً. أنظر ملحق رقم ١ .Budge, op cit. p. 292

(2) De Villard, : op. cit. pp. 56 - 57.

(3) Woolley - Maciver. P. 98.

(4) Budge: op. cit. p. 293.

اعتقاد وامانه وكان يجى اليه عدة دفوع فيتواضع
له ويسلم عليه.

وفى سابع سنة من بعد تقدمته وهى خمس مايه
واربع وخمسين للشهدا، اظهر الله علامة عظيمة
فى السما، وظهر نجم عظيم فى المشرق وينتهى إلى
المغرب مثل السيف الذى يلمع، واقام اياما كتيره
وكانو الناس يقولون: ما راينا مثل هذا قط فما
عسى ان يكون من هذا النجم.

وعلى الرغم من أن سلكو عزا انتصاراته على البليميين إلى الله، إلا أن النص لا يشير صراحة إلى اعتناقه المسيحية. ومن المرجح أن كاتبا قبطيا على جانب عظيم من الثقافة تولى كتابة هذا النقش على جدران معبد كلابشه [١]. ومما يزيد الشك فى تنصره أن النقش يحمل صورة ملك النوباديين فى زى فرعونى تزينه صور الآلهة [٢]. ولا يشير النص أيضا، إذا كان سلكو صالح البليميين بعد حملته الثانية كما فعل عقب حملته الأولى واستولى على بعض مدنهم وترك لهم بعضها، أم طردهم نهائيا من تلك المنطقة. ومما لاشك فيه أن البليميين لو تركوا بهذه المنطقة أو بعضها، لما سمحوا بوجود هذا النقش على جدران معبدهم [٣]. والأرجح أنه تم لسلكو طرد البليميين من النوبة السفلى ومنها اتجهوا إلى الصحراءالشرقية. ويؤيد هذا ما ذكره بروكوبيوس أن شعوبا كثيرة من بينها النباطيون والبليميون تعيش فى المنطقة الممتدة من أكسوم إلى الحدود المصرية عند الفنتين، بيد أن البليميين يسكنون الجهات الوسطى ويحتل النباطيون ضفتى النيل [٤]. وعليه فإن النباطيين أصبحوا السكان الجدد لمنطقة النوبة السفلى. ويرى رفيو Revillout أن أحتلال النباطيين لهذه المنطقة ما كان ليتحقق دون

(1) De Villard; op. cit. p. 57.
(2) Kirwan, L.P.: LAAA. op. cit. P. 85.
(3) Beckett, H. W. : ASN, op. cit. P. 365.
(4) Procopirs: op. cit. P. 185.

وبعد ايام جا[ء] وبا[ء] عظيم على البهايم، وكانت الدواب تموت للوقت فى الغيطان وفى ساير المواضع الى ان لم يبق لحد من اهل مصر دابه، ولم يجدو ما يعملون عليه اعمالهم، ولا يقدر احد ان يمشى فى الازقه الابعد ان يسد انفه من كترة جيف الدواب، حتى ان الزرع انقطع وقلت الثمره،و كانت ارض مصر فى حزن عظيم.

ثم عاد الوبا على الناس وفنو مثل البهايم كما

طرد البليميين عنوة. ذلك أن بروكوبيوس وهو المعاصر لهذه الاحداث حدد مواطن البليميين تحديدا جغرافيا يختلف عما ذكره أوليمبيودوروس [١].

ويبدو أن البليميين يمثلون الشعبة الشمالية للبجا الذين ظل اسمهم عاما على هذه المنطقة كلها طوال العصور الوسطى [٢]. وأخذ البليميون (البجا) ينظمون حياتهم الجديدة فى الصحراء الشرقية بالسيطرة على وسائل النقل والتجارة بين النيل والبحر الأحمر. [٣].

وعلى هذا يمكن القول إن الانقسام بدأ يدب فى صفوف البليميين منذ هزيمتهم على يد فلورس [٤]، على حين استفاد النباطيون بعد أنفصالهم عن البليميين، فمارسوا سياسة مستقلة وحصنوا مراكزهم فى بلادهم وتوسعوا ناحية الجنوب. ثم بدأ اتصالهم من جديد بالبيزنطيين

---

(1) Woolley - Maciver: Op. cit. p. 98.
Trimingham, G. S. : op. cit. P. 47.
Beckett, H. W.: op. cit. P. 366.

(2) Ibid: op. cit. p. 351.

جاء فى اللوحة التى تركها عيزانا ملك أكسوم بعد هجومه على مروى أسماء الشعوب التى خضعت له ومن بينها البجا، وهو الإسم الذى عرف به سكان الصحراء الشرقية فى العصور الوسطى. (أنظر حاشية رقم ٢٢ ص ٢٩) .De Villard: p . 60

(3) De Villard: op. cit. P. 59.

(4) Morie, L.J. : Histoire de l'Ethiopie, Tome I, er. P. 410.

قال داود عن اهل مصر: انه لم يوفرهم من الموت ولا دوابهم .

وكان ابونا لا يفتر من البكا على الناس والبهايم ويطلب من الله بدموع ويقول : يارب لقد حولت وجهك عن شعبك لجل ذنوبى، ولا تفعل معهم مثل اثامى وادركهم عاجلا برحمتك وخلص شعبك وجدد وجه الارض، الهم محب البشر. فسمع الله صلاة عبده ونقل [بدل] غضبه الى

بفضل ثيودور أسقف فيلة، وهو الذى قام بدور الوسيط بينهم وبين البيزنطيين، وسواء أكان هذا التوسط عن طريق الاقناع أو بذل المال، فإنه نجح فى حمل سلكو على مسايرة البيزنطيين مما دعاه إلى محاربة حلفائه القدامى وطردهم من وادى النيل[1]. وربما تم هذا بمساعدة القوات البيزنطية بقيادة نارسيس Narses.

لا شك أن الوفاق البيزنطى النوبى الجديد، شجع جستنيان على القضاء على آخر مظهر من مظاهر العبادات المصرية فى فيلة، فما كادت تنقضى مدة الهدنة حتى أمر قائدة نارسيس باغلاق معبد فيلة، وارسال تماثيل الالهة إلى القسطيطينية، وسجن جميع كهنته[2] حوالى عام ٥٤٣م. ثم عهد إلى ثيودور الإشراف على الطقوس الدينية فيه بعد تحويل هيكله إلى كنيسة.

ولا شك أن الوفاق البيزنطى النوبى أدى إلى كسر شوكة البليميين الذين كانوا عقبة فى سبيل تقدم المسيحية إلى بلاد النوبة التى أصبحت بعد طردهم مهيأة لقبولها[3].

....

(1) De Villard: op. cit. P. 58.

(2) Procopius: op. cit . P. 189.

(3) Maspero, J. : "Theodore de Philai", Rev, de l'hist. des rel, 49. PP. 299 - 317.

سلامه على الناس والبهايم وعرفهم انه القادر على كل شي.

وكترت الناس فى ارض مصر والبهايم، ونسو ما كان، حتى البهايم كانت تلد زوجا زوجاحتى صار الناس والبهايم كان لم يمت أحد ولا هلك شى منهم.

اريد ان اذكر لكم شيا من جهاد هذا الاب وتعبه الذى تعبه لكى تسمعو وتمجدو الله الذى

دخول المسيحية بلاد النوبة

انتشار المسيحية فى مصر ■ الاضطهادات الدينية والصراع المذهبى وأثرهما فى بلاد النوبة ■ المسيحية المبكرة عند النوبيين والبجه ■ أثر كنيسة أسوان ■ التبشير فى بلاد النوبة، وسائله ومراحله ■ طبيعة المسيحية فى بلاد النوبة ■ تحويل المعابد إلى كنائس ■ المسيحية فى أوطان البجه.

* * *

يحيط هذه المرحلة من مراحل التاريخ النوبى كثيرمن الغموض لقلة المصادر [١]. والقليل الذى كتب عن بلاد النوبة فى العهد المسيحى، إنما جاء فى إشارات عرضية على لسان بعض مؤلفى العصور الوسطى، وبالقدر الذى يتطلبه تحديد علاقة هذه البلاد بمصر أو بالعالم الخارجى. وهذه الإشارات العرضية القليلة لم تخل أحيانا من مبالغات أو تحريفات قد تتعارض أحيانا مع الآثار الباقية من العهد المسيحى فى بلاد النوبة، وهى آثار قليلة لم تدرس بعد دراسة كافية [٢]. أما كتابات أهل النوبة أنفسهم باللغة النوبية، أو النصوص اليونانية أو القبطية ــ سواء كانت مكتوبة على البردى أو الرقاق أو شواهد القبور – فمعظمها قصص قصيرة أو أدعيات للترحم على الميت فى قبره. يضاف إلى هذا جملة الأخبار القليلة المبعثرة فى جوف

(1) Griffith, F. Ll. : "Pakhoras - paknaras - Faras in Geography and History" JEA. XI. P. 268.

(2) Crowfoot, J.W. ; " Christian Nubia " JEA. XIII. P. 141.

صنع مع هذا الاب عجايبه وخلصه من احزانه وشدايده.

فلما تنيح انبا اسحاق [ابن اندونه] اسقف وسيم الذى كان تمسك كرسى مصر، وهو الذى كان يطلب اولا البطركيه، قدم عوضه «بنه» الشماس بسوال رويسا مصر، وقدم على كرسى وسيم اخر من اولاده اسمه بقيره، وتنيح بعد ايام قلايل، وكان ولد لأسحاق المتنيح اسمه تاودرس،

المخطوطات الكنسية بالاسكندرية أو القسطنطينية، وهى كذلك محدودة القيمة من الناحية التاريخية[١].

ويحتاج دخول المسيحية بلاد النوبة إلى كثير من الحذر فى معالجته، ولا سيما عند شرح الطريقة التى دخلت بها المسيحية، وتحديد تاريخ دخولها ومعرفة دعاتها الأول، لأن شيئا من هذا لم يعرف على وجه التأكيد، مع العلم بأن معظم الروايات التاريخية ترجح دخولها عن طريق مصر[٢].

دخلت المسيحية مصر حوالى منتصف القرن الأول الميلادى على يد القديس مرقس الإنجيلى [٣]الذى بنى أول كنيسة مصرية بالاسكندرية، ورسم إينيانوس أسقفا لها[٤]. واجتذبت المسيحية عددا من يهود الاسكندرية وبرقة وغيرهم من سكان البلاد من اليونانيين والمصريين[٥]. وحوالى نهاية القرن الثانى زاد عدد المسيحيين زيادة تطلبت إنشاء ثلاث

(1) Roeder, G. : "Die Christiche Zeit Nubiens und des Sudan" ZK. XXX III. P. 365.

(2) Somers Clarke: Christian Antiquities in the Nile Valley P. 8. Budge. E.A.W. : P. The Egyptian Sudan, II. P. 288.

(3) Ibid. : op. Cit. P. 288.

(4)Butcher. E.L. : The Story of The Church of Egypt, I. PP 19 - 21.

(5) Budge, E.A.W.: op cit p. 278.

وهو الاسم المتفق لتلاته اساقفه جلسو على كرسى مصر، وهذا كان يطلب كرسى وسيم وما يرضى به الشعب، ولم يرد الاب ان يوسمه بغير اختيار الشعب، وكان فى مصر فى ذلك الزمان وال اسمه على ابن يحيى الارمنى(*) من قبل ابى اسحاق ابرهيم المعتصم ابن هرون الرشيد اخى عبد الله المامون، فترك تاودرس خوف الله ومضى الى الوالى ووعده بمال لكى يقهر [يغصب] البطرك

(*) تولى صلاة مصر من قبل اشناس التركى وزير المعتصم فى يوم الخميس الرابع من فبراير سنة ٨٤١ = ٧ ربيع ثانى ٢٢٦ . انظر الهامش السفلى الوالى رقم ٩٦ .

أسقفيات[١] فى الاسكندرية والوجهين القبلى والبحرى. وانبرت المدرسة الفلسفية بالاسكندرية للوقوف فى وجه الدعوة الجديدة، ونشطت فى جمع الكتب الفلسفية وتأليفها لصرف الناس عن المسيحية[٢]. ثم بدأ الأباطرة يحسون بالخطر الذى يهدد الدولة الرومانية من هذا الدين الجديد، فأصدر الامبراطور ساويرس مرسوما ٢٠٧م، يحرم فيه على رعاياه الدخول فى الديانة المسيحية والدين اليهودى[٣].

لم يضعف هذا المرسوم من قوة الدعوة، بل أدى إلى ازدياد إقبال المصريين عليها. ولم يكد ينتصف القرن الثالث الميلادى حتى زاد عدد الأسقفيات إلى عشرين أسقفية فى الوجهين البحرى والقبلى[٤].

لقيت المسيحية فى مصر بيئة صالحة للنمو والانتشار، لأنها كانت تعبيرا قويا لنزعة قومية ضد الرومان، بدليل تمسك المصريين بلغتهم القبطية التى غدت فيما بعد لغة الكنيسة[٥]، فضلا عن التظيم الكنسى الذى انفردت به الكنيسة المرقسية منذ نشأتها وخاصة فى ترتيب

(1) Ibid. : op. cit. p. 288.

(٢) بتشر - كتاب تاريخ الأمة القبطية وكنيستها - تعريب تادرس شنوده ص ٥٨- ٥٩.

(٣) المصدر السابق ص ٦٤.

(4) Budge, E. A.W. : op. Cit . P. 289.

(5) Bonet - Mauray : L,Islamisme et le Christianisme en Afrique. p. 37.

على ان يقيمه اسقفا، فارسل الوالى يسال عن
الاب البطرك ويساله فيه، وكان يقول: انه لا يصير
اسقفا ابدا. وقاوم الوالى وقال: ما اتمكن من هذا،
فحنق عليه حنقا عظيما لاجل ما وعده به وبدا ان
يهدم بيع فسطاط مصر، فاول ما ابتدا جا الى
البيعه التى فى قصر الشمع التى تسمى المعلقه
فهدمو اعلاها حتى وصلو الى الاسطوان، وكان
الاب البطرك يحزن حزنا عظيما ويقلق ويبكى
بدموع مرة كما قال داود النبى: ايها الرب الاله

الوظائف الكهنوتية وهى الأسقفية والقسيسية والشماسية [١]، علاوة على انتشار الديرية والرهبنة، ظهور مدرسة اللاهوت بالاسكندرية، التى انبرت للرد على مدارس الفلسفة اليونانية. ومن هذه المدرسة اللاهوتية، قاد رواد المسيحية الأول البعثات التبشيرية إلى البلاد المجاورة [٢].

* * *

تعرض المسيحيون فى مصر لسلسلة من الاضطهادات الدينية على عهد الامبراطور دسيوس Dicius سنة ٢٥٠م، ثم فى عهد فالريان Valerian (٢٥٣ ـ ٢٦٠م) ودقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) الذى كان أشدهم عنفا فى محاولة القضاء على المسيحية وأنصارها[٣]، لما فى الدين الجديد من تهديد للوحدة الامبراطورية، وفى عهد دقلديانوس خاصة هجر المصريون المسيحيون مساكنهم واتجه بعضهم إلى منطقة طيبة الممتدة من الأقصر الحالية إلى أسوان، وهى المنطقة التى لم يستطع الرومان إتمام السيطرة عليها، بسبب الحركات البليمية المعادية لهم منذ القرن

(١) بتشر – نفس المصدر ص ٢٩.

(2) Bonet -Mauray : op. cit. p. 37.

(3) Budge. E.A.W. : op. cit. PP. 289 -290.
Bell, H. I. : HTR, 37, PP. 185 - 208

اله القوات حتى متى تغضب على صلاة عبدك، اطعمتنى خبزا بدموعى، وسقيتى دموعا، وجعلتنى مقالة [عبرة] لمعارفى وهزو[ء] وطنزا [سخرية] لاعــدائى، يارب الاه القــوات ارجع يارب واضى وجهك علينا فنخلص .

جزء من عتبج الكنيسة المعلقة من القرن الرابع ـ الخامس يمثل استقبال المسيح.



الثالث الميلادى (١). واتجهت جماعات أخرى من المهاجرين المصريين إلى الصحراء الغربية، فضلا عمن اتجه منهم إلى منطقة النوبة السفلى والوسطى، واستقروا فى جزر النيل وبين ثنايا التلال والصخور على جانبى النيل، حيث مارسوا عبادتهم الجديدة فى اطمئنان بعيدا عن ضغط الرومان(٢).

وغدا إقليم طيبة مركزاً للدعوة المسيحية فيما حوله من أقاليم، وخاصة بلاد النوبة السفلى. وأنشئت فيه الأديرة، التى ازداد عددهم منذ القرن الثالث الميلادى ، ومنها دير أخميم «بانوبوليس». والراجح أن المصريين المسيحيين، لم يركنوا إلى حياة العزلة والانطواء فى طيبة، بل اختلطوا بالسكان وزينوا لهم الدخول فى المسيحية.

أما فى الصحراء الغربية حيث توجد الواحة الخارجة، فإن المسيحية شقت طريقها إليها منذ القرن الثالث الميلادى، ولجأ إليها كثير من الأقباط فراراً بدينهم وحياتهم، وشارك المسيحيون القدامى إخوانهم المهاجرين فى مشاعرهم، ومدوا لهم يد المساعدة، وفى القرن الرابع الميلادى، زاد عدد المسيحين فى تلك الواحة زياده تطلبت إنشاء أسقفية بها (٣).

---

(١) أنظر ماسبق ذكره.

(٢) تعتبر منطقة النوبةالوسطى جنوبى الشلال الثانى أنسب الأقاليم لحياة هؤلاء المهاجرين لصعوبتها و خاصة المنطقة المعروفة ببطن الحجر .
Budge, E. A.W P. 290.
أنظر كذلك.
Dunbar, J.H. : "Betwixt Egypt & Nubia". AE. XIV P. 109.

(3) Ahmad Fakhry: the Necropolis of El Bagawat in Kharga Oasis. P. 12.

وكان يتنهد بتنهد عظيم بحزن قلب لاجل هدم البيعه. وان قوما تقدمو الى الاب وقالو له: الى متى تمسك ولا تصلح هذا الانسان اسقفا حتى يتهدم جميع البيع وقد نظر الله حرصك واجتهادك على الحق فافعل مع هذا الذى جعل توكله على السلطان فيما طلبه والله يستفل به وظلمه على راسه.

فرضى بما قالوه الشعب. ولم يتخل الوالى عن الغضب وطالب الاب بمال وقال: ما ارفع الهدم

وللواحة الخارجة أهمية خاصة فى نظر الرومان، لوقوعها على الطريق التجارى بين مصر والسودان (درب الأربعين) من ناحية، وبين وادى النيل وشمال أفريقيا من ناحية أخرى. لهذا أقيمت بها القلاع لتأمين القوافل المارة به، كما حفرت بها الآبار، وأنشئت بها المعابد. ومن الواضح أن دخول المسيحية إلى تلك الواحة فى هذا الوقت المبكر أتاح للمبشرين فرصة التعرف والاتصال بالتجار من النوبة وغيرهم، وأن رجال القوافل التجارية المارين بالواحة الخارجة، قاموا بالدعوة للدين الجديد بين من اتصلوا بهم من سكان النوبة، ونقلوا أخبار الصراع بين الرومان والمسيحية فى الإسكندرية إلى عملائهم وذويهم فى الجنوب [١]. ولا يبعد أن يكون هؤلاء التجار سهلوا للفارين من المصريين أمر الهروب والالتجاء إلى أقاليم النوبة، وأن التبشير للمسيحية بين النوبيين يرجع إلى هذا الوقت المبكر من تاريخ المسيحية.

وفى أوائل القرن الرابع الميلادى، اجتذبت المسيحية إلى صفوفها أعدادا كبيرة برغم مانزل بهم من اضطهاد فى هذا الحين على يد كل من جاليريوس Galerius (٣٠٥ - ٣١١م) ومكسنتيوس Maxintius (٣٠٥ - ٣١٣م) بدليل ما لقية أنطونيوس الكبير فى عام ٣١١م من نجاح منقطع النظير فى التفاف المريدين حوله حتى أمس قوة يخشى بأسها فى مصر [٢].

....

(1) Budge, E.A. W. : AHist. of Ethiopia..., op. cit. L., p. 113.

(2) Budge, E.A.: The Egyptian Sudan. op. cit p. 290.

عن البيع الا بتلته الاف دينار، فقلق الشعب والاساقفه الحاضرون معه وقالو: يا ابانا لا يضق صدرك نحن نقوم بهذا المال فقسطه علينا لتسلم البيع ولا يلحقها شى فتقدمو الاراخنه الى الوالى وضمنو له القيام بتلته الاف دينار، فهدا غضبه وامر بقسمة الاسقف فاقسمه الاب، وقال من عمق قلبه على الوالى كما قال داود النبى فى المزمور الخامس: «الانسان الظالم يرذله الرب وهو يصنع حكم الفقرا» . وقال ايضا الكلمة التى فى

ثم كانت أيام قسطنطين الأكبر (٣١٣ ـ ٣٣٧م) الذى لم يكد يحرز النصر على منافسه وخصيمه مكسنتيوس حتى أظهر ميله للمسيحية، وأصبحت الكنيسة متمتعة بحماية السلطات المدنية. ومع أن الامبراطور لم يعتنق المسيحية رسميا ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧م، فانه بذل كل مالديه من سلطة ونفوذ فى خدمة الديانة التى جاءت له بالظفر فى أرجاء ايطاليا[١]. ففى مصر جاهر الأقباط بدينهم، ومارسوا عبادتهم فى غير ضغط أو إكراه، وحولوا معظم المعابد المصرية إلى كنائس[٢] واستولوا على أوقافها واملاكها. وجاء فى كتاب حياة قسطنطين الذى ألفه يوسيبيوس Eusebius أن المسيحية دخلت أثيوبيا على يد البعثات التبشرية الدينية التى أوفدتها كنيسة الاسكندرية على عهد قسطنطين الأكبر[٣]. ومعنى هذا أن البعثات التبشيرية الرسمية بدأت نشاطها فى بلاد النوبة، فى عصر مبكر يرجع إلى القرن الرابع الميلادى[٤].

(١) فشر: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى القسم الأول ـ تعريب الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٦ ـ ٧.

(٢) دليل المتحف القبطى: جـ٢، ص ١٤٠.

(٣) انظر الفصل السابق، وانظر: Trimingham, J.S.: op, cit. P. 49:
نقلا عن Eusebios: vit. Constantini P. 8.

(٤) تبدأ أخبار البعثات التبشرية الرسمية فى القرن السادس الميلادى ـ كما سيجئ بعد ـ انظر ص ٥٦ وما بعدها، واختلط على الكاتب أن اثيوبيا تشمل بلاد النوبة أيضاً ، لأنها كانت فى نظر القدماء كذلك. على أن المقصود هنا هو دولة أكسوم (الحبشة).

ناموس موسى: «فى يوم النقمه اجازيهم فى يوم تزل اقدامهم». وقال ايضا: «فى يوم هلاكهم انا اجازيهم وادين الاعدا والمبغضين». وكان كل احد يعلم ان كلامه كالنبوه، وكانو يقولون ما ترى يكون بعد هذه النبوة.

ثم ان هذا الوالى بعد قليل ارسله السلطان الى بلاد الروم يغزو فيهم، فسبى منهم واخذ بلادا ثم عاد فارسله تانى دفعه، فخرج عليه قوم من الروم فقتلوه اشر قتله وجميع عسكره، كما كان الاب

وكيفما كان المحتمل وغير المحتمل، فان المسيحية أخذت تتسرب تسربا نظيما بطيئا إلى بلاد النوبة منذ أواخر القرن الثالث الميلادى، ولم ينقطع سيل الوافدين المسيحيين إلى بلاد النوبة. وأخذت هجرة الجماعات المصرية المسيحية إلى الجنوب تزداد تدريجيا لما نالها من اضطهاد بسبب الخلاف الذى نشب بين المسيحيين حول طبيعة المسيح [1]، حتى تطلب الأمر أنشاء

(١) اختلف كل من آريوس وأثناسيوس حول طبيعة المسيح، وتدخل قسطنطين لحسم هذا الخلاف، وعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٦م، حيث نجح قساوسة مصر وتأيد مذهبهم ثم أثار قساوسة القسطنطينية هذا الموضوع من جديد، ونجح كيرلس بطرك الكنيسة المرقسية على خصيمه نسطورس بطريرك القسطنطيينية فى مجمع افسس آلأول سنة ٤٣١م، بعد أن استمال إليه الإمبراطور تاوداسيوس الثانى روما، ثم مالبث أن ثار الموضوع مرة أخرى، ونال قساوسة مصر والشام وعلى رأسهم ديوسقورس بطريق الاسكندرية نصرا جديداً فى مجمع افسس الثانى سنة ٤٤٩م وشجع هذا النصر قساوسة الاسكندرية، فبالغوا فى تقدير ديوسقورس إلى درجة أحفظت بابا روما ليو الكبير. ولهذا أصدر ليو قراراً يتعارض مع مذهب الكنيسة المرقسية، وانحاز الامبراطور مارقيان إلى هذا الرأى، وتقرر عقد مجمع دينى فى خلقيدونية سنة ٤٥١م، وفيه تقرر عزل ديوسقورس، وأقر المؤتمرون الصيغة البابوية. ومن أخطر نتائج خلقيدونية تكفير رجال الدين فى كل من مصر والشام. فتكونت فيهما شيع معادية للامبراطور وتحول النفور الدينى إلى نفور سياسى. وبخروج كنيسة الإسكندرية منهزمة أتاح الفرصة للامبراطور لبسط سيطرته على الكنسية البيزنطية. وأطلق على الأقلية المصرية التى قبلت قرارات خلقيدونية اسم ملكانيين. واشتدت معارضة المصريين لقرارات خلقيدونية، واضطرت الدولة إلى تجريد حملات حربية لقمع حركاتهم، ونزل بالمصريين اضطهاد شديد، استمر حتى الغزو العربى لمصر. أنظر:

Groves, C.P. : The Planting of Christianity in Africa, I. PP. 4f3 - 46.

قال من اجله. وعند [ذلك] زوال التعب عن البيع وتجديد ماقدم هدم منها، واهتمام المومنين بها وعمارتها إلى أن صارت خيرا مما كانت أولا وابهج، لان البيعه هي التي على الصخره لا يقهرها شى وهى تقهر وتهلك من يعاندها.

كان الاب يقول كما قال داود النبى: يارب من يشبهك اوريتنا شدايد عظيمه ورجعت احييتنا، ومن عمق الارض اصعدتنا، وايضا نزع الرب مسحي والبسنى سرورا وجعل نوحى الى فرح.

أسقفية فى فيلة فى القرن الرابع الميلادى (١). هذا فضلا عن إنشاء عدد من الأديرة والكنائس فى منطقة طيبة وأسوان.

* * *

لكن إلى أى حد تأثر النوبيون والبليميون بهذه المراكز المسيحية التى نشأت بالقرب من أوطانهم فى القرن الرابع الميلادى، مع العلم بأنه ليست لدينا وثائق أو أخبار موثوق فى صحتها عن نشاط تبشيرى رسمى ببلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى؟ أما المعلومات السابقة لهذا التاريخ فمنها ماورد فى كتاب الكاتب العربى أبى البركات من قيام آنى Ani أسقف الإسكندرية بتعميد بعض النوبيين فى القرن الأول الميلادى، وربما كان المقصود بهم أولئك النوبيين الذين يعيشون فى مصر للعمل بها كما يفعلون اليوم، أو ربما كانوا ممن يعيشون فى جهات الأطراف مثل فيلة وأسوان، أو بعض أفراد مثل وصيف كنداكة ملكة مروى، الذى عمدة الأسقف قليبوس فى القرن الثانى للميلاد (٢). وفضلا عن هذا توجد مجموعة من

(1) Laturette, K. S. : AHistory of The Expansion of Christianity, II. P. 232.

(2) Roeder. G. op. : cit. PP. 376 -77.

تذكر بعض الروايات أن المسيحية دخلت بلاد النوبة على يد المبشرين المصريين فى القرنين الأول والثانى للميلاد بدليل أن بطريرك الكنيسة المصرية منذ عهد المسيحية الأول يحمل لقب بطريرك الإسكندرية =

وكـان اسـقف مـصـر [بنه] يلتـمس من الاب البطرك زيادة تقدمه.

وكان انسان قاض بمصر اسمه محمد بن عبد الله، وكـان ذلك الرجل فى كلما يعـانيـه يرا[ء]يه فيه، وكان مخوفا لا يقدر احد ان يقاوم كلامه لانه كان عند جميع المسلمين مثل الفقيه والامام وعـارف بمذهبـهم، ويفـعل افعـالا مذمـومـه سـرا، وكان محبا لشراب النبيـذ وسماع الغنى، واقتنى

القصص التى تصور حياة الرهبان فى الأديرة المصرية على أطراف مصر الجنوبية وعلاقاتهم بالنوبيين والبليميين. ويبدو أن لهذه القصص أساسا تاريخيا يتصل بحركات هذه الجماعات ضد الرومان منذ القرن الثالث الميلادى، وتعرض الأديرة المصرية أحيانا لهجمات تلك الجماعات. وتصور هذه القصص وغيرها محاولات الرهبان كسب ود هذه الجماعات ومحاولة تنصيرهم والتمتع بحمايتهم وتجنب أذاهم. ومن هذه القصص أربعون قصة نشر منها كرم Crum ثلاثا وثلاثون. وتروى القصة الثانية والثلاثون منها نبوءة راهب يدعى مرقوريوس بإغارة النوبيين على إحدى الأديره المصرية، ونصحه أنستاسيوس كبير رهبان الدير بضيافة أولئك

= والديار المصرية والنوبة والحبشة والخمس مدن الغربية تجمعها الكلمات الثلاث المنقوشة على خاتمه «بطريرك الكرازه المرقسية» أنظر دليل المتحف القبطى جـ٢ من ١٤٠، وجاء فى كتاب: Maspero, J. Histoire des Patriarches D'Alexandrie. p. 382 أنه أطلق عليه لقب بطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة والخمس مدن الغربية والبلاد الأخرى التى بشر فيها القديس مرقس» وتأيد هذا اللقب فى مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م ومجمع القسطنطينية الثانى سنة ٣٨١م. وذكر أيضا فى تاريخ البطاركة والسنكسار فورد فى تاريخ حياة الأنباء ديمتريوس البطريق الثانى عشر (١٨٩ - ٢٣١م) أنه رئيس أساقفة مصر والخمس مدن الغربية والنوبة والحبشة. وأما الخمس مدن فهى برقه وتونس وطرابلس الغرب وفريجيا (أفريقيا) والقيروان. عن كتاب السلم الكبير، لشمس الدين بن كبر قسيس المعلقة. غير أن أخبار هذا التبشير المزعوم لم يرد عن نص صريح فى المراجع الكنيسة.

الجـوارى الحسـان، واحب اللذه والزنا بلا خـوف من الله ولا حـيـا من الناس، كـقـول الانجيل عن مثله: وكان الله يصبر عليه ويمهله ويزيده يوما مقداره الف سنه. وهو مستمر على جهله وشتمه لاهل هذا المذهب الارتدكسي وغيره من مذاهب المسيح، ويحلف عليه، ففاتح الاب البطرك عدة دفعات ويخزى عليه فانزل الله فعله على هامته كقول داود فى المزمور: افض غضبك على الامه التى لا تعرفك.

المغيرين، لأن أميرهم سوف يصبح راهبا وقديسا. وفى القصة الثالثة والثلاثين تتحقق النبوءة كاملة. وتتحقق حماية الدير على يد هذا الأمير النوبى. ويتضح فى نهاية القصة أن مرقوريوس هذا هو الذى تولى تنصير هذا الأمير النوبى وأتباعه خلال رحلة تبشرية قام بها فى بلاد النوبة[1]. وعلى الرغم من أن تاريخ هذه القصص غير معروف تماما، وأنها مكتوبة بلغة عربية فى عصر متأخر [2]، إلا أنها تعتبر ترديدا لنوع من الروايات التى احتفظت بذكرى التبشير فى بلاد النوبة فى وقت مبكر ربما يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى، وهو الوقت الذى طفح بأخبار الإغارات النوبية البليمية المشتركة على أطراف مصر الجنوبية قبل أن يعقد معهم القائد الرومانى مكسيمينوس صلحا فى عهد الإمبراطور مارقيان[3].

(1) Crum, B. W. E. : ANobian Prince in an Egyptian Monastery in Studies Presented to Griffith, F. L. I. PP. 137 - 148.

وتعرف هذه القصص باسم بساتين الأبا الرهبان ـ فردوس النعيم ـ الأربعين خبر التى للأبا الرهبان بوادى هيب وغيره.

(٢) الراجح أن هذه القصص قديمة ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى وأنها مكتوبة باللغة القبطية أو اليونانية ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية حين ترجمت بعض طقوس الكنيسة المصرية إلى اللغة العربية.

(3) Kirwan, L, P. : LAAA., XXIV. PP. 92 - 94.

فلمـا نظر «بنه» [يوحنا] اسـقف مـصـر قـوة
القاضى ومكانتـه من الوالى وامرا المسلمين صادقه
لكى يفعل بما يهـواه، ولا يقاومـه احد فى حكمـه
مثله فى المسلمين فيما يحكم به، صحيحا كان او
خطا[ء] ام محالا. والاب انبا يوساب ما كان يفتر
عن الجـهـاد فى الحق ويقـول: انا اتوكل على الله.
فلا يخاف الا من الله الذى خلقه.

والبطرك قد عرف ما صار بين الاسقف والقاضى

وثمة دليل على نشاط الجماعات المسيحية الأولى بمنطقة أسوان وجزيرة فيلة وجهودهم بمنطقة النوبة السفلى، هو ما تذكره وثيقة قبطية (١) عن بعثة تبشرية (٢) إلى تلك البلاد فى القرن الرابع الميلادى، ولهـذه القصـة أهميـة خاصـة لأنها توضح العلاقـة بين رجـال الدين المسيحيين وجيرانهم النوبيين (٣).

* * *

(1) Ibid. op. cit, PP. 95 - 96:

(٢) إن هذه البعثة التبشرية ـ لوصحت ـ فهى بعثة غير ر سمية، أى أنها غير صادرة عن الكنيسة العامة أو الحكومة البيزنطية.

(٣) تشير هذه الوثيقة إلى زيادة راهب اسمه بافنوليوس لراهب آخر عجوز يعيش فى جزيرة بالجنادل الأولى ويدعى إسحاق، وهو وتلميذ لناسك مشهور فى هذا الإقاليم اسمه أنبا هارون. و حدث إسحاق زائره عن أن سكان فيلة واوزوريون وقليل منهم مسيحيون، و هؤلاء هم المضطهدون من جيرانهم. ويزورهم رهبان أسوان وفيلة مرة فى كل أسبوع لتعليمهم قواعد الدين، فأرسل مقدونيوس وهو موظف رومانى تقريراً بهذه الأخبار إلى أثاناسيوس بطريرك الإسكندرية (٣٤٤ ـ ٣٩٠م) فعينه أسقفاً حتى يستطع أن يقوى من شأن المسيحية فى هذه المنطقة ، ثم خلفه مرقس واسحاق.

Kirwan, L,p. : op. cit. P. 95.

Maspero, J. : op. cit. P. 382.

فـبـدا القـاضى ان يتـفكر مـاذا يفـعل بالبطرك من السو، فـامر القاضى فى بعض الايام باحـضـار الاب البطرك وكان عنده اساقفه يوميذ وهم مساعدون «لبنه» اسقف مصر واسما هم : انبا بخوم اسقف بـسـطـه(*)، وجرجه اسقف طحا، وجرجه ايضا اسـقف اهناس(*)، وزخريا اسقف البحيره، ومينا اسقف البهنسا وقوم اخرون فقال القاضى للبطرك عند حضوره اليه: من جعل لك السلطان ان تكون ريسا على جميع النصارى . فقال له البطرك: الله.

(*) تل بسطه: قرب الزقازيق.
طخا: قرب سمالوط.
البهنسا : مركز بنى مزار.

(*) أهناس: اسم لموضعين بمصر فى الصعيد. ويذكر ياقوت الحموى فى تعريفه لها ما يلى: وأهناس هذه قـديمة أزليـة... وهى على غـرب النيل ليـست بعـيـدة عن الفـسطاط. وذكـر بعـضـهم أن=

وفـضـلا عن هذا فإن ثيودور Theodore أسـقف فيلة وأسـوان (١) قام بدور هام فى التمهيد لدخلو النوبيين جميعاً فى الدين المسيحى فى القرن السادس الميلادى. وذلك أنه عاش فى هذه المنطقة أكثر من خمسين عاماً تعرف خلالها إلى زعماء النوبيين وتوثقت الصلة بينه وبينهم خلال زياراته المتعددة لبلادهم. ويبدو أنه قام بدور الوسيط بين هذه العناصر النوبية التى تزعمها سلكو وبين الدولة البيزنطية، وأنه ساعد بذلك على طرد البليميين من منطقة النوبة (٢)، لاستمرار مقاومتهم للبيزنطيين فى منطقة طيبة(٣).

من الوسائل التى لجأ إليها البيزنطيون لترغيب البليميين فى المسيحية، أنهم أقطعوهم إقطاعاً بمنطقة طيبة، يؤيد ذلك ثلاث وثائق مكتوبة باليونانية على رق غزال، وربما ترجع إلى القرن

(١) De Villand : op. cit. P. 56. وتولى تيودور أسقفية أسوان بعد أن . كرسه البطريرك تيموتاوس أسقفا سنة ٥٢٦م. وقد ظل يباشر سلطته حتى وفاته سنة ٥٨١م وعمر نحوا من ثمانين سنة.

(2) De Villard : op. cit . P. 56.

(٣) كثيراً ما هدد البليميون سكان منطقة طيبة المسيحيين، وفى القرن الخامس الميلادى مثلا، اضطر المشردون منهم إلى الالتجاء إلى دير إخميم للاحتماء فيه من هجمات البليميين. ويقال أن الأنبا شنودة آوى آلافاً من المسيحيين المشردين إلى دير إخميم حيث رحب بهم وكان يقدم لهم الطعام والشراب مدة ثلاث شهور.

ثم التفت القاضى الى الاساقفه المذكورين واسقف مصر معهم وقال لهم: لاتسمعو من هذا البطرك من اليوم ولا تسموه ابا، بل اجعلو لكم هذا ابا، يعنى «بنه» اسقف مصر، ويكون مقدمكم . فاجابوه الاساقفه: هذا الجيد ما قلت ايها القاضى يكون ما امرت به. وكان ذلك بتقرير منهم مع القاضى ووعدوه بمال يدفعونه اليه. فقال زخريا اسقف البحيره لابينا البطرك: ما قد قلت لك بالامس لا تمنع الاسقف انبا «بنه» يعنى اسقف

=المسيح عليه السلام وُلد فى أهناس وأن النخلة المذكورة فى القرآن المجيد «وهزى إليك بجذع النخلة» موجودة هناك وأن مريم عليها السلام أقامت بها إلى أن نشأ المسيح عليه السلام وسار إلى الشام .. انظر : معجم البلدان. المجلد الأول ص ٣٧٩ . مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٠٦ = ١٣٢٣هـ. وينسب إليها دحية ابن مصعب ابن الأصبغ ابن عبدالعزيز ابن مروان ابن الحكم،

السادس الميلادى. وفى الوثيقة الأولى، أن الملك البليمى شاراشن منح أولاده الثلاثة حكم جزيرة تنارى، كما منحهم حق جباية الضرائب بها (١). ويلاحظ أن اسمى الشاهدين البليميين على هذه الوثيقة يحملان علامة الصليب. وفى الوثيقة الثانية أصدر ملك بليمى آخر اسمه باكيتمن قراراً بتعيين القسيس IEPEUS حكم جزيرة تنارى، وهذا اللقب من الألقاب المعتادة فى الوثائق المسيحية. وقد اقترن اسم الملك فى هذه الوثيقة الثانية بعلامة الصليب، مما يرجح إعتناق أولئك البليميين فى هذه المنطقة للديانة المسيحية (٢). أما الوثيقة الثالثة فهى إيصال باستلام عشرة صلادى ذهباً.(٣)

ويبدو أن منح البليميين إقطاعا فى الأرض المصرية كان جزءاً من سياسة البيزنطيين فى البحر الأحمر للقضاء على نفوذ الحميريين التجارى فى هذا البحر بالتعاون مع دولة أكسوم المسيحية، فضلا عن إغراء البليميين بالدخول فى المسيحية والسيطرة على أوطانهم الممتدة جنوب شرقى مصر إلى حدودا أكسوم (٤) ولهذا أرسل الإمبراطور جوستن الثانى Justin, II

(١) تقع جزيرة تنارى مقابل قرية الجبلين على بعد خمسة وعشرين ميلا جنوبى الأقصر الحالية. Emery, W. E. : op. cit PP. 11- 12.

(2) Kirwan, L.P. : op. cit. pp. 87 - 91.

(3) Emery, W. E. : op. cit. P. 12.

(4) Kirwan, L.P.: op. cit. p. 87.

مصر ، ان لا يعمل جميع ما يهواه بامر القاضى. فاجابه ابونا القديس أنبا يوساب وقال له بصوت مملو خوفا بالقبطى: يا غير فهمين كيف ضللتم هذه الضلاله ؟ كيف قبلتم هذا الكلام الذى ليس له كمال لكن حق ما تنبا به عليكم بولس الرسول واظهر جهلكم لما قال: انا لم نفعل حق الله بفهم ان نتوب من ذاتنا . ولم تطيعو حق الله. وكان قوم من الفقها جلوسا عند القاضى ومنهم من يفهم لغة القبطى وكانو يميزون قوة كلام

خرج منها على السلطان وقصد الواح (الواحات) وغيرها ثم قتل سنة ١٦٩هـ. وأهناس الصغرى فى كورة البهسنا أيضاً قرية كبيرة.

وبطريرك الإسكندرية تيموتاوس رسلهما إلى ملك أكسوم لهذا الغرض وهو حرب الحميريين[١]. وفى رواية أخرى أن الإمبراطور هدد بإرسال جيش من البليميين والنوبيين لحرب الحميريين إذا أبطأت أكسوم عن هذا الواجب المسيحى[٢]. ولا يبعد أن تكون جزيره تنارى التى أقطعها الرومان لفريق من البليميين ثمنا لخدماتهم للدولة البيزنطية [٣]، وقبولهم الدعوة المسيحية. ومما يدل على أن بعض البيلميين اعتنق المسيحية ماجاء فى بردية نشرها ماسبيرو[٤]، وهى تشتمل على شكوى موجهة إلى حاكم طيبة البيزنطى فلا فيوس ماريانوس Flavius Marianus ضد الفيلارك فى منطقة طيبة واسمه كلوذوس Kallothos أتهم فيها بتحريض البليميين على إعاده فتح معبد فيلة من جديد والارتداد عن الاعتقاد فى الديانة

(1) Bury, J. B.: History of The Later Roman Empire,, II. P. 324.

(2) De Villard: op. cit , PP. 57 - 58.

استغل الإمبراطور جوستن حادثة نجران باليمن لإثارة عاطفة ملك أكسوم الدينية ليحرضه على حرب اليمن، واستعان فى ذلك بالبطريرك تيموتاوس. أما عن حادثة نجران فيقال إن ذا نواس الحميرى اليهودى حاصر جماعة من المسيحين فى نجران باليمن. ولما رفضوا الارتداد عن المسيحية قتل منهم حوالى ٢٨٠ شخصا فى ليلة واحدة. انظر:

Bury, J, B. : op. cit. p. 324.

(3) Kirwan, L.P. : op. cit. p. 86.

(4) Ibid. op. cit. p. 89.

البطرك وما يخاطب به الاساقفه، فاعادو على القاضى جميع ما قاله البطرك، فلما سمع غضب وقال للاب: انت تظن ان امرى لا يتم . فقال له ابونا بصوت متضع : هل لك ان تقدر ان تجعل يدك على الشمس وتستر ضو ها؟ فان كنت تقدر ان تفعل هذا فانت تستطيع ان تفعل ما قلت، او تقدر ان تقاوم الله وامر مولاى الملك الذى انت من قبله، وقد قلت انفا ان تقدمتى من الله ليس من انسان، والان معى سجل من الملك بتقويه يدى

المسيحية والعودة إلى الأوزيرية والراجح من هذه الوثيقة أن فريقاً من البليميين اعتنق المسيحية بعد إغلاق معبد فيلة سنة ٥٣٥م وأن كلوذوس أراد تحويلهم إلى الأوزيرية من جديد(١). وكيفما كان الأمر فالواضح أن المسيحية والأوزيرية عاشتا جنباً إلى جنب فى طيبة وأسوان وفيلة. ولم يشأ البيزنطيون أن يقضوا على الأوزيرية بالقوة قبل منتصف القرن السادس الميلادى، بل أنهم سمحوا للبليميين والنوبيين بممارسة عباداتهم على الرغم من وجود الكنائس فى أسوان والفنتين (٢). وينهض دليلا على وجود هذه الكنائس ما جاء على لسان برسيق Priscus، وما تذكره بردية أبيون، وما ذكره اليمبيودورس Alympiodirus حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى، وبروكوبيوس فى منتصف القرن السادس الميلادى (٣). وذكر كوزمس Cosmas التاجر المصرى الذى كتب كتابه المعروف (٤) ما بين سنتى (٥٣٧ -

(1) Ibid. op. cit. p. 89.

(٢) يؤيد هذا ما ذكره برسبق حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى عن معاهدة مكسيمنوس والسماح للبليميين والنباطين بالحج إلى فيلة، وماجاء على لسان اليميبودورس من ممارسة البليميين للأوزيرية واحتفالاهم به. وفى منتصف القرن الخامس الميلادى أى حوالى ٥٤٥م يحدثنا بروكوبيوس عن ممارسة هذين الشعبين للأوزيرية ثم يعود ويذكر كيف أنهى جستنيان هذه العبادة بإغلاق معبد فيلة لإيزيس.

(٣) راجع الفصل السابق ص ٣٧ ـ ٣٩.

(4) Cosmas Indicopleusets. : The Christian Topography. ed. Mc Crindal, Hakluyt Soc. p. 120.

وانت هو ذا تقول هذا الكلام لهولا الاساقفه الذين
ليس لهم على سلطان بل سلطانى عليهم من الله
والملك، وانفاذ حكمى فى شعبى ورعيتى، ولى ان
اقطع كل من حاد عن الطريق المستقيمه وانفيه.
فلما سمع القاضى هذا منه قال له: كان بيدك
سجل من الملك ان تفعل ما تريد؟ [فقال له
ابونا: نعم] فقال له القاضى احضره الى لاقراه.

وكان له سجلات من الملوك من المامون عبد

٥٤٧م) «أن فى بلاد الحبشة وفى أكسوم ذاتها وفى البلاد المجاورة وعند النوباديين Nobades الجرمنتيين Garamentes توجد كنائس مسيحية وأساقفة ورهبان ونساك[١].» ويتضح من هذا النص اعتناق جماعات من النوبيين للمسيحية منذ القرن السادس الميلادى. ولا يمكن أن تكون المسيحية وصلت إلى تلك الأوطان فجأة بل بالتدريج وعلى مراحل ترجع إلى عهد الإضطهادات الأولى فى مصر[٢].

* * *

ثم بدأت المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوة للمسيحية فى بلاد النوبة زمن الإمبراطور جستنيان (٥١٧ - ٥٦٥م). وذلك أن هذا الإمبراطور لم يقنع بأن ينسب إليه القضاء على معاقل الأوزيرية فحسب - كما فعل فى فيلة عندما أغلق معبدها، أو كما فعل فى أثينا عندما أغلق المدرسة الفلسفية بها - بل رغب كذلك فى أن يدخل القبائل الأوزيرية على أطراف إمبراطوريته فى حظيرة الدولة البيزنطية. ولهذا سعى إلى اجتذاب البليميين والنوبيين إلى الديانة

---

(١) الجرمانتيون هم القرعان وهم شعب رعوى تمتد أوطانهم من فزان جنوباً إلى النوبة مشتملة على صحراء بيوضة التى كانت تعرف حتى القرن السابع عشر باسم صحراء جوران أو جورهام. وهم يعيشون الآن فى شمال دارفور.

Kirwan, L. P. : "Christianity and the Kura'an."JEA., XX, PP. 201 - 3.

(2) Trimingham, J.S. : op. cit. PP. 50 - 51.

الله بن هرون الرشيد عند وصوله الى مصر، ومن ابرهيم [المعتصم] اخيه، ولما ولى هرون الواثق ولد إبرهيم سالوه فى تجديد سجل لابينا فكتب له، وهرون الواثق هو الذى ولى هذا القاضى مصر، فسلم اليه ابونا السجلات ووقف عليهن وعلم منهن ثبات من يرشد ممن يحيد عن الواجب والطريق المستقيمه، وخزى القاضى وامتضح، وامر ابانا بالانصراف مكرما فعجب كل الحاضرين. وكان جماعه من الاساقفه لا يرضون بهذا وهم

المسيحية ليتسنى له السيطرة على وادى النيل الأوسط [١]. ووضح هذا الاتجاه السياسى عندما بدأت عملية التبشير الحقيقى ببلاد النوبة على يد رسل الكنيسة المصرية. على أن التبشير بالمسيحية فى بلاد النوبة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى كان إنعكاسا لصورة النزاع المذهبى بين الكنيستين المصرية والبيزنطية، وسباقا بينهما لكسب الأنصار. ولما كانت الكنيسة المرقسية فى مركز لا يسمح لها بخوض هذه المعركة التبشيرية بسبب عزل بطريركها ثيودوسيوس Theodosuis [٢] ونفيه إلى إحدى مدن تراقيا سنة ٥٣٩م فإن رجالها عزموا على الاستعانة بالإمبراطورة ثيودورا التى تميل إلى مذهب الكنيسة المصرية وتعطف على رجالها[٣]. ولذا لم يكد يصل ثيودوسيوس من منفاه فى تراقيا إلى القسطنطينية بمساعدة ثيودورا، حتى أخذ يعمل على ما سبق أن عزم عليه وهو تحويل النوباديين Nobades إلى المسيحية. وممن شاركه هذا الشعور إثنان من رجال الكنيسة المصرية هما يوليان Julian ولونجينوس Longinus وهما اللذان قاما بالدور الأول فى نشر المسيحية فى ممالك النوبة التى قامت على أنقاض دولة مروى. وانقسمت إلى ثلاث ممالك مستقلة - مملكة نوباتيا Nobatia فى الشمال، وتمتد من أسوان إلى قرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس، ومملكة مقرة

(1) Kirwan, L.P. : LAAA. op. cit . P. 87.

(2) De Villard : op. cit . P. 54.

(3) John of Ephesus Ecclessiastical Histery. Beck IV Part III. ed. by Payn Smith,. P. 254.

مطيعون له واسماهم: مينا اسقف طانه، وشنوده اسقف صا(*)، وبقية الاساقفه. وكان يدفع لهم ثمرة شفتيه فيدعو لهم ويباركهم، وكان الاب البطرك يقول عن الاساقفه المخالفين يارب لا تحسب عليهم خطيه.

ثم ان الشيطان جاب عليه تجربه اخرى [بفعل اوليك]، وهى ان الاب انبا يوساب كان رحوما لا يريد هلاك احد من الناس، فجعل الشيطان فى

(*) صا: هى صا الحجر بمركز كفر الزيات. وهى من المدن القديمة. بها آثار للمعابد المصرية القديمة لا تزال مرئية فى جهتها الشمالية. أما طانه فقد اندثرت وحل محلها طنايا التى اضيفت إلى منية جنان مركزه القمح بمحافظة الشرقية، ثم حذف اسم طنايا واصبحت الناحية كلها بأسم منية جنان.

Makoritae وتمتد من قرب الشلال الثالث إلى قرب كبوشية الحالية، ثم علوة Alodia وتمتد من قرب كبوشية إلى جنوبى الخرطوم الحالية وعاصمتها سوبا (١).

والمصدر الرئيسى لهذه المرحلة من مراحل التاريخ النوبى هو يوحنا الأفسى (٢). ومما جاء فى كتابه «التاريخ الكنسى» بشأن البعثات التبشيرية إلى بلاد النوبة فى منتصف القرن السادس الميلادى، أن يوليان عرض على الإمبراطورة ثيودورا مشروعا للتبشير بين النوباديين Nobades، وقابلته الإمبراطورة بسرور عظيم وحماسة شديدة، ووعدته بالمساعدة. وأخبرت ثيودروا زوجها الإمبراطور بما اعتزمت القيام به على يد يوليان فى بلاد النوبة. بيد أن الإمبراطور ساءه أن يكون يوليان على رأس هذه البعثة التبشيرية، لأنه من الحزب المعادى لقرارات خلقيدونيه(٣)،

(1) Kirwan, L. P. : "A Contemporary Account of the Conversion of the Sudan to Christianity" SNR., XX, Part II. P. 290.

(٢) يوحنا أسقف أفسس - ولد فى أميدا شمال العراق حوالى سنة ٥١٦م. كتب كتابه التاريخ الكنسى باللغة السريانية، استقر ما يقرب من ثلاثين سنة فى مدينة القسطنطينية. وعلى الرغم من أنه من أتباع الكنيسة المصرية إلا أنه تمتع بثقة وصداقة جستنيان، وتقلب يوحنا فى كثير من الوظائف فى البلاط الإمبراطورى واستفاد من هذا المركز فى تدوين ما يقع عليه بصره ويصل إليه سمعه فى البلاط الملكى فى بيزنطة. وأوفده الإمبراطور فى عدة بعثات إلى القبائل الغير مسيحية فى ليدبا وكيريا وفريجيا.

(٣) كان يوليان من رجال الكنيسة المصرية التى عارضت قرارات خلقيدونية وهى القرارات التى لا تتفق ورأى الكنيسة المصرية فى طبيعة المسيح.

قلب القاضى الظالم الذى قد صار له وعا[ء] ان ياخذ غلمان البطرك من الروم والحبش الذين هم دون البلوغ ويستسلمهم، [يؤسلمهم] وكانو كتير من الناس لهذا السبب يرفعون [يرشدون] بعضهم على بعض بسبب الغلمان الذين عندهم، وياخذهم القاضى يردهم الى دين الإسلام تحت القلق والتهويل، فقام بحبس مواليهم الى زمان، ويصانعونه ويفرج عنهم. واستقصى عن غلمان البطرك الروم والحبش الذين يهدون اليه من افريقيه

ولهذا عزم جستنيان على أن يبعث سفارة إمبراطورية خاصة تحمل هدايا للملك النوباديين وخطابات لحاكم طيبة البيزنطى (١). وعلمت ثيودورا بعزم الإمبراطور على أن يضمن لبعثته النجاح والسبق، فأسرعت بتحرير رسالة إلى حاكم طيبة، وطلبت إليه أن يحجز سفارة الإمبراطور حتى تصل سفارتها هى إلى بلاد النوبة (٢)، وهددته بالقتل إذا خالف أوامرها. وأطاع الحاكم أوامر ثيودورا وحجز سفارة الإمبراطور عند وصولها، وبرر عمله هذا لرئيس البعثة الإمبراطورية بعدم وجود وسائل النقل، وطلب إليه الانتظار حتى يدبر له الدواب والمرشدين الخبيرين بمسالك الصحراء. أما سفارة الإمبراطورة فوجدت الدواب والمرشدين اللازمين لها فى الانتظار (٣). على أن حاكم طيبة لم يخف حقيقة الأمر عن مبعوث جستنيان وأبدى مخاوفه من الإمبراطورة ووعده بإعداد وسائل السفر، ثم واصلت البعثة الإمبراطورية سيرها مقتفية أثر يوليان دون أن يعبأ رئيسها بما دبر له من خيانة (٤).

وصل يوليان وصحبه أطراف النوبة حوالى عام ٥٤٣م (٥) ومعهم ثيودون أسقف فيلة،

(1) John of Ephesus. op . cit . pp. 251- 252.

(2) John of Ephesus: op. cit. p. 252.

(3) Ibid op. cit . PP. 252 - 253.

(4) Ibid. : op. cit. p. 253.

(5) De Villard: op. cit. P. 55.

والخمس مدن والحبشه والنوبه، وقالو له : ان له
غلمانا باسكندريه فى المكتب يتعلمون . فانفذ
اعوانه اليها مع اسقف مصر المقطوع واسمه بنه،
والذى تفسيره النار ، حتى دخل مدينة اسكندريه
الى الموضع الذى كانو فيه الغلمان واخذهم،
وساقهم كمثل الخراف الى الذبح وهم باكون بلا
مغيث، حتى جابوهم الى مصر، وكانو تمنماية
نفر، فلما راهم قاضى الظالم فرح وقال: وهذا شئ
يكيد البطرك ويحزنه. وقال القاضى لابونا البطرك:

الذى رأى فيه يوليان خير معين له فى مهمته لخبرته بأحوال البلاد وأهلها [١]. وعند الأطراف النوبية التقت البعثة برسل ملك النوباديين الذين تولوا حراسة القافلة إلى عاصمتهم باخوراس Bakhoras، فرس [٢].واستقبل الملك أعضاء البعثة أحسن استقبال وقبل هدايا الإمبراطورة بسرور بالغ، ولم يلبث أن أعلن هو وأمراؤه ترك ما كان عليه أجدادهم وأقروا جميعاً «أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له [٣]». ورأى يوليان أن يشرح للنوباديين قواعد النزاع الذى نشب بين المسيحيين حول مسائل العقيدة، واضطهاد الإمبراطور ليثيودوسيوس وعزله ونفيه لرفضه الاعتراف بقرارات خلقيدونية [٤]، على حين أن الإمبراطورة تؤيده وتؤازره لتمسكه بعقيدته التى ضحى بمنصبه فى سبيلها «ولهذا أوفدتنا جلالتها إليكم لتسلكوا طريق البابا ثيودوسيوس وتذهبوا مذهبه وتثبتوا ثباته، أما الإمبراطور فإنه بعث بسفرائه إليكم وهم فى طريقهم إليكم[٥]». ثم وصل رسل الإمبراطور، فقدموا الهدايا ودعوا الملك النوبى إلى قبول المسيحية،

(1) Ibid: op. cit. P. 55.

(2) John ef Ephesus : op. cit. p. 253.

(3) Ibid: op. cit. P. 254.

يشبه هذا الشهادة عند المسلمين. وفى الواقع أن موضوع طبيعة المسيح كان شغل رجال الكنيسة الشاغل فى مثل هذا الوقت من تاريخ الصراع بين أنصار المذهبين.ويبدو من روح هذا النص معنى الطبيعة الإلهية الواحدة.

(4) John of Ephesus : op. cit . p. 254.

(5) Ibid: op. cit. P. 254.

لا يجوز لك ان تقاوم امر الملوك وتدوس اوامرهم ، ولا يجوز ان تستعبد هولا الصبيان وتنصرهم. فقال له البطرك: انا ما اقاوم امر الملك، ولا اقاوم كلمه صالحه، بل ما كان من كلام الظلم. قال له القاضى : فانا ظالم كما تقول؟ فقال له : انت عارف بان كل من تقدمك ما كان يلزم مثل هولا الذين هم نصارى اولاد نصارى باسلام، لانهم يقدمونهم للبيع هدايا، وهولا فمن عند ملك الحبشه والنوبه والروم جونى هدية اهديت الى.

على أن يتبع الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها، وألا يضل كما يضل أولئك الذين طردوا منها[١]. بيد أن الملك النوبى قبل الهدايا ورفض ما عرضته عليه السفارة الإمبراطورية وآثر مذهب الكنيسة المصرية[٢].

أما يوليان فظل فى نوباتيا نحواً من سنتين وقام بتعميد الملك والأمراء، وعاونه فى أعماله الأسقف ثيودور الذى عهد إليه يوليان برعاية النوباديين بعد سفره إلى القسطنطينية، حيث استقبلته ثيودورا استقبالا حسناً [٣].

وظل ثيودوسيوس مشغولا بأمر النوباديين وخاصة بعد وفاة يوليان. وأصدرت ثيودورا أمرا بتعيين القس لونجينوس أسقفا لبلاد نوباتيا سنة ٥٦٦م وبهذا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل التبشير فى بلاد النوبة.

حاول لو نجينوس السفر إلى بلاد النوبة غير أن أعداءه أو غروا صدر الإمبراطور جوستن

---

(1) Ibid: op. cit. P. 254.

(2) Ibid. : op. cit. P. 255.

تحدث يوليان عن شدة الحرارة فى الصيف بقوله «إنه من الساعة التاسعة صباحا إلى الرابعة بعد الظهر كان يضطر إلى أن يلجأ إلى الكهوف المليئة بالماء، ويجلس فيها دون ملابس اللهم إلا الثوب الكتانى الذى كان يلف به جسمه كما يفعل أهل تلك البلاد».

(3) Ibid. : op. cit. p. 256.

وكان القاضى مما ملكه الشيطان لا يسمع كقول داود : مثل الافعى الصما[ء] التى تسد اذنيها لا تسمع صوت الراقى . فامر القاضى باحضار الصبيان قدام البطرك وخوفهم حتى اسلمو قدامه وابونا حاضر ينظرهم، فقال وهو باك: الويل لى ، تجدد حزنى وحمى قلبى فى باطنى، ونظرت انتقامى وانفصلت منى اعضاى، الان يارب عرفنى تمامى [موتى] لان احزان الجحيم احاطت بى. فقال القاضى للاب: ليس بقى بينك

- -

الثانى ضده، وأوهموه أن لونجينيوس سيؤلب النوبادين ضد الدولة البيزنطية فيعودون لحر بها وشن الرغارات على أطرافها، فقبض عليه [1]. ولما كانت العيون تترصده فى كل مكان فإنه لجأ إلى حيلة تمكنه من الفرار، فخرج متنكرا بوضع شعر مستعار على رأسه الأصلع ثم وصل سالما إلى بلاد النوبة حوالى سنة ٥٦٩م [2]. واستقبل النوبيون لو نجينوس استقبالا عظيما، ولقى منهم مساعدة كبيرة لبناء كنيسة [3]. وتبدو لباقة لو نجينوس ودهاؤه عندما أوعز إلى الملك النوبى بإرسال هدية للإمبراطور ليبرهن على نبل مقصده. ووصلت السفارة النوبية حاملة الهدايا، واستقبلها الإمبراطور بحضور رجال البلاط ومن بينهم يوحنا الإفسسى، وأخذ رسول الملك النوبى يمتدح لو نجينوس فى حضرة الإمبراطور [4].

وأقام لونجينوس بين النوبادين حوالى ست سنوات ، ثم رحل إلى الإسكندرية ليشترك فى انتخاب بطريرك للكنيسة المرقسية. ولما علم الملك النوبى وأمراؤه بعزم لونجينوس على السفر

....

(1) Ibid. : op. cit. P. 257.

(2) Kirwan, L. P. : SNR. , XX. Part II, P. 292.

(٣) أخذ لونجينوس يعلم النوبادين الإنجيل وتطلب إنشاء الكنيسة تأليف هيئة كهنوتية تتولى تلقين طائفة من رجال الدين التعاليم اللازمة لأداء واجبهم المقدس

John of Ephesus : op. cit. P. 257.

(4)Ibid. : op. cit. pp. 257 - 258.

وبين هولا معامله فقد صارو مسلمين خد تمنهم
واتركهم. اجاب وقال له : ان كان غرضك ان
تستعيد الاحرار فما لى انا فى هذا غرض لان هولا
احرار واعضا[ء] من جسمى والله يدينك عنهم
وتعطى عنهم جوابا بين يدى الله الاه الكل. فامر
القاضى بقسمة الغلمان فاقتسموهم المسلمون.
فلما راى الاب الرحوم هذا تنهد وقال امام الرب:
طلبت الدما[ء] وذكرتهم لا تنس صوت الفقرا.
وقال: اذلو شعبك وميراثك، ضرو وقتلو اليتامى

إلى مصر، حاولوا أن يستبقوه بينهم وأظهروا له حاجتهم إليه، التي يوضحها قول ملكهم «ستتركنا كاليتامى دون أب» (١). ثم سمحوا له بالرحيل، وفى طريق عودته مر بجزيرة فيلة وعرض على الأسقف ثيودور ـ وهو كهل فى الثمانين ـ أن يصحبه فى رحلته، ولم يمنع ثيودور من السفر سوى كبر سنة (٢).

لم ينته الدور الذى قام به لو نجينوس فى بلاد النوبة عند هذه الحوادث، بل كانت تنتظره مهمة لا تقل خطورة عما قام به فى نوباتيا ، وهى تنصير أهل مملكة علوة Alodia ، ذلك أنه حوالى سنة ٥٧٨م بعث ملك علوة رسالة إلى ملك نوباتيا يعلن فيها رغبته فى الدخول فى المسيحية، ورجاه أن يسمح للأسقف لونجينوس بالسفر إلى مملكتة لتعميده هو رعاياه، وذلك بعد أن غادر لونجينوس بلاد نوباتيا. فأرسل ملك نوباتيا رسله إلى مصر لإقناع لونجينوس بالعودة إلى النوبة وزيارة علوة تلبية لرغبة ملكها (٣). ولماعلم الملكانيون بنبأ هذه الدعوة الجديدة أخذوا يدسون الدسائس، وأوعزوا إلى بطرس بطريرك الكنيسة الملكانية بالإسكندرية بإصدار قرار بعزل لونجينوس، وأرسلوا صورة هذا القرار إلى ملك نوباتيا لتحويله عن لونجينوس ومذهبه.

....

(1) Ibid. : op. cit. P. 258.

(2) Ibid; op. cit.

(3) Trimingham, J.S.: op. cit. p. 55.

والغـربا وقـالو ان الله لا ينظر . ولم يكن يفتـر من البكا والتنهـد والنوح، وكـان يقـول: ان كل من يبغى هولا الصبيان الرب يهلكه. ويقول: انا يارب انسـان خـاطى لكن يارب تاتى على هذا القـاضى الظالم بالانتقام عوضا من فعله السو، وتتم عليه كلمـة سليـمـان الحكيم «ان يوم الانتـقـام يهلك المنافـقـون». وصبـر الاب على هذا الحـزن ويصلى ليـلا ونهـارا ويقـول: يارب ليس من اجل خطيـتى ترفض شعبك.

بيد أن الملك لم يستجب لهذه الدعوة وأصر على عودة لونجينوس لأنه لا يقبل له بديلا، وطرد رسل الملكانيين من بلاده [1].

وصل لو نجينوس إلى بلاد النوبة حوالى عام ٥٨٠م [2]، حيث وجد رسالة ثانية من ملك علوة بدعوته لزيارة بلاده. ولم يكد الملكانيون يسمعون بخبر هذه الدعوة الثانية حتى أرسلوا أسقفين ملكانيين إلى ملك علوة يحملان رسالة مشحونة بالطعن فى حق لونجينوس لأنه على قولهم «هرطقى مطرود من الكنيسة ، ومن ثم فهو غير جدير بتعميد أحد» [3]. بيـد أن ملك علوة رد هذين الأسقفين خائبين بعد أن قال لهما «إننا لا نعرفكم ولا نقبل التعميد إلا من هذا الذى عـمـد النوباديين من قـبل. ثم أننا لا نصـدق مـا تقـولونه فى حـقـه لأننا نعـرف أنكم أعداؤه [4]».

اما لونجينوس فلم يسعه إزاء هذه الدعاية ضده إلا أن يلبى دعوة ملك علوة وبهذا تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل التبشير فى وادى النيل الأوسط، وهى المرحلة المعروفة بتنصير مملكة

(1) John of Ephesus : op. cit. p. 317.

(2) Ibid: op. cit . p. 326.

(3) Ibid : op. cit. PP. 317- 318.

(4) Ibid: op. cit. P. 318.

وكـان فى زامنه قـوم مـومنون رهبـان قـديسـون يدعـون له بان يرزقـه الصبـر على مـا يناله من هذه التجارب.

وكان انسان سايح من جملتهم اسمه «امونه» فى دير ابى يحنس، وانبـا مـينا السـايح فى جـبل ارمـون(*)، اعطى روح النبوه وكان يشفى جميع المرض، وشـهـد له جـمـاعـه ان له سلطانا على الارواح النجسه يخرجها من الناس. وانا الحقير

(*) ارمون : قرية قديمة عرفت باسم ارميـون بمركز كفر الشيخ . تم تدميرها غالباً فى ظل قمع ثورات البشـمور. وحوالى سنة ١٧٨٥م نزل أهلها فى قرية محلة الشيخ بالبحيـرة واعطوها اسم منشأة أريمون.

علوة. وغادر لونجينوس مملكه النوبة بصحبة بعض الأمراء ورجال ذوى خبرة بمسالك الصحراء. وتعرض فى هذه الرحلة لمصاعب لم تخل من تضحية ، أوضحها ملك علوة فى خطابه إلى أورفيلا Awarfiula [١]. ذلك أنه كان على لونجينوس أن يسلك طريق الصحراء الشرقية وأن يتجنب النيل فى المنطقة الواقعة جنوبى مملكة نوباتيا حيث توجد مملكة مقرة لعداء ملكها لملك نوباتيا. وربما كان هذا بتحريض من الملكانيين [٢]. وفى هذا يقول ملك النوبة فى رسالة بعث بها إلى تيودور بطريرك الكنيسة المصرية «ولكن بسبب المكيدة الخبيثة الى دبرها ذلك الذى يقيم بيننا [٣]، فقد أرسلت أبى البار إلى ملك البليميين ليوصله إلى داخل البلاد». ولكن أهل المقرة سمعوا بهذا أيضاً وأرسلوا عيونهم للبحث عنه فى جميع الممالك فى الجبال والسهول [٤]. ويبدوا أن قافلة لو نجينوس عرجت ثانيا إلى النيل جنوبى الشلال الرابع [٥]، حيث استقبله أيتيكيا Aitekia مبعوث ملك علوة واستأنف الجميع الرحلة فى سفينة نيلية

---

(١) أورفيلا اسم محرف لملك نوباتيا. ويقول ما سبيرو فى كتابه تاريخ البطاركة إن اسم هذا الملك إيربانومى Eirpanome وربما كان هذا الملك خليفة الملك سلكو. حاشية رقم ٤.
Maspero. J: op cit. P. 289.

(2) John of Ephesus : op. cit . p. 319.

(٣) يقصد به هنا ملك مقر، لأن مملكته تتوسط نوباتيا ومملكة علوة.

(4) John of Ephesns : op. cit . p. 325.

(5) Kirwan, L. P. SNR, vol. XX. Part II, P. 294.

العاجز حضرت عنده وخاطبنى بسبب البيعه، وكان خصيا من بطن امه طاهرا لله، وكان راهبا من صباه في دير ابى يحنس، وفى زمان خراب البريه، في اخر سنى البطرك انبا مرقس وقد ذكرناه انفا، التجى هذا الراهب الى بيعه على اسم [الأباء] التلاميذ فى قريه ، كان يظهر عجايب كثيرا من اشفا[ء] المرضى واخرج الشياطين، وحضرت انا الحقير عنده وكان يعلمنى الكتابه وذلك فى عاشر سنه من بطركية الاب انبا يوساب.

حتى سويا. ثم بدأ لونجينوس عمله فى الحال، فعمد الملك وأسرته المالكة والأمراء ومن بين من عمدهم بعض الأحباش كذلك [1]. ومما يدل على نجاح لونجينوس فى مهمته الدينية ماجاء فى الرسالة التى بعث بها ملك علوة إلى زميله ملك نوباتيا يحييه فيها باعتباره أخا فى الدين ويشكره على مساعداته القيمة ، ويطلب المزيد من المساعدة فى تأثيث كنيسة [2].

* * *

والخلاصة أن مملكتين من ممالك وادى النيل الأوسط ثم تنصيرهما على مذهب الكنيسة المصرية، لكن ماذا كان مصير المملكة الثالثة ـ مقرة ـ، هل اعتنق إهلها المسيحية ، أو ظلوا

---

(١) قابل لونجينوس بعض الأحباش المسيحيين فى علوة. وهم ممن يعتنقون بعض الآراء الهرطقية التى تنسب إلى قس اسمه يوليان الهاليكارناسى. Julian of Halicarnasus وقد أعاد لونجينوس تعميدهم وتلقينهم مذهبه، ويرى البعض أن وجود أولئك الأحباش المسيحيين فى علوة قبل قدوم لونجينوس يعنى وصول المسيحية إلى علوة عن طريق الحبشة.
Trimingham, J.S. :op. cit P. 57 Nete. غير أنه - فيما يبدو- لم يكن لهؤلاء الأحباش أثر يذكر فى بلاد علوة . .Kirwan, L. P.: Firka. p. 55 وإذا وجدت مظاهر الفن الحبشى فى كنيسة دنقلة كما يقول كروفوت . فإن هذا الأثر ضعيف ، كما أن حملة عيزانا لم تترك أى أثر للمسيحية، لأن عيزانا نفسه لم يشر إلى رغبته فى نشر الدعوة الجديدة التى تلقاها على يد فرومنتيوس. وعلى هذا فان مصر - كما كانت دائما - مصدر الثقافة.

(2) John of Ephesus: op. cit. p. 321.

وكان هذا الشيخ القديس جالسا في يوم من الايام يقرا في سير البيع القديمه وما جرى على الابا في سابع عشر سيره للبيعه، فقلت له انا بسذاجه ولا ادرى ما اقول: ما هذا الذى تقول؟ فقال لى بكلمة روح القدس: يا ابنى طوبى لمن كتب واهتم بسيرة البطاركه . وقال لى : يا ابنى صدقنى فيما اقوله لك ان لا يبتدى احد بثامن عشر سيره للبيعه حتى ياتى الذى اسمه ثمنيه عشر، وانت الذى تهتم بكتابتها لان الرب يدعوك.

على دينهم؟ على الرغم من الأهمية التى نعلقها على رواية يوحنا الإفسسى فى دراسة موضوع دخول المسيحية بلاد النوبة على اعتبار أنه كاتب معاصر، غير أنه مما يقلل من أهمية روايته أنه من مؤيدى مذهب الكنيسة المصرية، ومن المعادين لقرارات خلقيدونية [١] ولم تخل هذه الرواية بطبيعة الحال من مبالغة فى تعظيم رجال الكنيسة المصرية ومهاجمة منافسيهم أتباع المذهب الملكانى. مثال ذلك أنه لم يشر أية إشارة إلى تنصير مملكة مقرة[٢]. كما أنه فيما يبدو تعمد ألا يذكر شيئاً عن نشاط بعثة جستنيان إلى بلاد النوبة حوالى سنة ٥٤٣م، مع أنه لا يبعد أن تكون هذه البعثة عرجت على مملكة مقرة وأصابت فيها بعض النجاح [٣].

على أن هنالك كاتبا آخر يدعى يوحنا البكلرى Lohn of Biclarum وهو ملكانى المذهب ومعاصر لوحنا الإفسسى. ذكر أن أهل مملكة مقرة اعتنقوا المسيحية فى سنة ٥٦٩م، ثم تلاهم الجرامنتيون «القرعان» [٤]، ولا يبعد أن تكون البعثة الملكانية وهى فى طريقها إلى علوة ما بين (٥٧٠- ٥٨٠م) لتحويلها عن لونجينوس مرت بمملكة مقرة وإقليم القرعان،

---

(1) Kirwan, L. P. : SNR. XX, Part II., P. 295.

(2) Ibid : op. cit. P. 295.

(3) Ibid : op. cit. P. 295.

(4) Kura'an , L.P. Christianity and the Aure 'an' JEA., XX, P. 201.

فصرت كانني في غفله ولم أقدر ان اساله عن شي اخر.

وكان هذا الشيخ قد اقام كل زمانه سايحا وبارك على دفعات.

وقد اختصرت فيما كتبت وتركت كثيرا خوفا ممن يقرا فيما كتبته من خبر هذا القديس الشيخ السايح وتركت سيرة الابا وامسكت عن اخبارهم،

ووضعت أسس المذهب الملكانى [١]. وربما كان هذا هو سر العداء بين ملك مقرة وملك نوباتيا ولونجينوس كذلك [٢].

وعلى الرغم من اختلاف هذين الكاتبين فى المذهب وعدم اتفاق روايتيهما فالراجح أنه أصبح لكل من المذهبين المصرى والملكانى أساس فى بلاد النوبة (الممالك الثلاث). لكن إلى أى حد تأثرت بلاد النوبة بأحدهما أو بكليهما، وأيهما كانت له الغلبة وأصبح هو المذهب السائد؟ يقول دى فيار أنه لا يأخذ برواية يوحنا الإفسسى لتعصبه لمذهبه، ويرى اعتمادا على نتائج الأبحاث الأثرية التى قام بها يونكر فى بلاد النوبة، أن شواهد القبور التى عثر على كثير منها تبرز صورة مخالفة. ذلك أن الأدعية المكتوبة عليها باللغة اليونانية تشبه أدعية الكنيسة البيزنطية، ولا يوجد لها شبيه فى مصر، مما يقوم دليلا على أن مصدرها بيزنطة ويعزز الرأى القائل بضعف الحركة المونوفيزية فى بلاد النوبة فى بدء الحركة التبشرية [٣]. وفضلا عن هذا فإن اللغة اليونانية كانت اللغة التى تكتب على شواهد القبور، كما أن الكتب النوبية القديمة ترجمت عن اليونانية لا عن القبطية [٤]. وثمة دليل آخر على ازدياد النفوذ الملكانى وهو وجود

---

(1) Kirwan, L. P. : Firka P. 50.

(2) Ibid. op. cit, p. 50.

(3) De Villard, : op. cit . PP. 61.

(4) Kirwan, L. P. : Firka P. 51.
Griffith, F. L, : LAAA., XIII, P. 52.

وقد شرح انبا سويرى اسقف سنبو فى بعض ميامره خبر هذا السايح.

فلنعود الان الى ما فعله الله على يد الاب البطرك انبا يوساب فاذكر اعجوبه. وهى انه لما كان هذا الاب بمصر فى زمان قاضى الظلم الذى شرحنا حاله معه، حضر عنده انسان نصرانى قال له: انا يا ابى الروحانى ترأف على فان لى ولدا وقد اعتراه روح شيطان يعذبه منذ أيام كثيره، ثم انه

أسقف ملكانى فى وقت من الأوقات فى تافه بالنوبة السفلى، كما أن بعض ألقاب حكام النوبة مثل لقب إبارك eparch ودو مستيكرس Domesticus مأخوذة من المصطلحات البزنطية الإدارية.[1]

غير أن نتائج أبحاث يونكرن لا تقلل من قيمة أثر الكنيسة المصرية فى بلاد النوبة. وربما كان المسئول عن وجود الأثر البيزنطى فى المقابر النوبية، نشاط الحركة الملكانية فى مملكة مقرة، وهذا يتفق مع رواية يوحنا البكلرى [2].

لكن أى المذهبين كانت له الغلبة فى النهاية ؟ المعروف أن كتابات القبور أخذت الطابع المصرى تماما حين حلت اللغة القبطية محل اللغة اليونانية فى الطقوس الدينية [3]. وفضلا عن هذا فإن رواية سعيد بن بطريق يوتيخا بشأن خلو الكرسى البطريركى للكنيسة الملكانية بالاسكندرية مدة ٩٧ عاما - من خلافة عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك - أتاح الفرصة لبطريرك الكنيسة المرقسية لا نتخاب أساقفة النوبة، بحيث أضحت كل بلاد

(1) Shinnie, P. L. : Medieval Nubia, P. 5.

(2) Kirwan, L.P. : JEA. XX. P. 202.
Kirwan, L.P. : Firka. P. 56.

(3) De Villard : op. cit . p. 62.

يصرخ ويقول ما ازول عنه حتى يامرنى انبا يوساب البطرك ، فارحم عبدك ولدى ايها الاب.

وكان الاب كتير التواضع، قال للرجل بقلب نقي متواضع : واى شى عملى انا يا ولدى مع هولا الذين ذكرتهم، لكن بامانتك يخلص ولدك . فاخذ الرجل قوله بقبول مثل ما اخذ قايد المايه قول الرب الذى قال: انى لا استحق ان تدخل [تحت] سقف بيتى بل قل كلمه فقط فيبر[أ]

النوبة على مذهب الكنيسة المصرية [1] وثمة دليل على التحول من المذهب الملكانى إلى المصرى وهو ما جاء فى حياة إسحاق بطريرك الكنيسة المرقسية (٦٩٠ - ٦٩٣) من أن ملك مقرة يشكو قلة عدد الأساقفة فى مملكته لأن ملك موريتانيا لا يسمح بمرور رجال الدين من مقرة إلى الإسكندرية لتكريزهم، ويدل هذا على رغبة النوبيين من أهل مقرة فى اتباع مذهب الكنيسة المصرية. أما المؤلفون العرب فإنهم أجمعوا على أن المسيحية فى النوبة كانت على مذهب الكنيسة المصرية. فيقول المسعودى «لليعاقبة كرسيان لاثالث لهما أحدهما بأنطاكية والآخر بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها ومايليها من أرض النوبة يعقوبية» [2]. ويقول ابن الفقية «والنوبة يعقوبية وكذلك أهل علوا» [3].

---

(1) Ibid, : op. cit. p. 62.

Kirwan, L. P. : Firka. P. 49.

ويقول شنى أصبح انتصار اليعاقبة أمرا واقعاً بعد الغزو العربى لمصر إذ اعتبر الملكانيون انصار الإمبراطورية البيزنطية ، على حين لقيت الكنيسة القبطية كل عطف من العرب الحاكمين. وفى مدة تقرب من مائة عام من ٦٣٧م إلى ٧٣١م لم يكن للملكانيين بطرك ملكانى. وعلى هذا لم يستطع النوبيون الحصول على أساقفه ملكانيين. ووجد أنصار الكنيسة المصرية الفرصة سانحة لتدعيم سلطانهم.

Shinnic, P. L.: op. cit. P. 5.

(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٥١.

(٣) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٧٧.

فـتـاى. كـذلك هذا الإنسـان المومن لم يفـتـر من السوال اليه والتضرع قايلا: ترا[ء]ف علي يا ابى. فقال له الاب: ماذا تريد ان افعله معك. فقال له: استحق ان تمشى معى ولا تدخل بيتى بل تكتب لى بيدك خطا باسمك لاغير يامر الشيطان بالخروج من ولدى.

فلما سمع ابونا هذا منه تعجب منه ومن عظم امـانتـه، ولـم ير ان يدعـه ان يمضى عنه الا بما

ثم إلى أى حد تأثر النوبيون بالمسيحية، وهل كان اعتناقهم لها على نطلق واسع، أو شمل بعض طبقات الشعب دون البعض الآخر؟ الواضح مما كتبه يوحنا الأفسسى أن يوليان ولونجينوس بدءا بتعميد الملوك ثم الأمراء ثم بعض أفراد النوبيين. ومن غير المعقول أن يتم تعميد النوبيين جميعاً فى المدة القصيرة التى قضاها كل منهما فى بلاد النوبة[١]. ولابد أن قراراً صدر من ملوك النوبة باعتبار المسيحية دين الدولة الرسمى، فاعتنقها الناس لا عن فهم واقتناع ولكن الناس على دين زعماء قبائلهم وملوكهم وفضلا عن هذا فإن عملية التبشير بالنوبة لابد أنها أخذت أبسط أنواع صورها لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان. واعتمد المبشرون على سرد القصص المحببة إلى نفوس السامعين أكثر من الاعتماد على الحجج المنطقية والمناقشات اللاهوتية. وبهذا يمكن تصور نوع التعاليم التى تلقاها النوبيون على يد مبشريهم الاول ولابد أن تكون هذه التعاليم خرجت أحيانا عن أصولها للحصول على كسب سريع [٢]. ثم أنه لابد أن النوبيين لم يعتنقوا المسيحية دفعة واحدة، ولكن على مراحل، بدليل وجود بعض العادات القديمة بين النوبيين فى الوقت الذى كان يقوم فيه كل من يوليان

(١) نعلم أن يوليان بقى فى نوباتيا حوالى سنتين من ٥٤٣ إلى ٥٤٥م ثم ترك تيودور بها حتى سنة ٥٥١م عاد بعدها إلى أسقفيته. ثم جاء لونجينوس وبقى بنوباتيا حوالى ست سنوات من ٥٦٩ إلى ٥٧٥م ثم عاد مرة أخرى سنة ٥٨٠م إلى نوباتيا. وظل يمكث بها طويلا بل أتجه إلى علوا. ويبدو أن إقامته بها كانت قصيرة.

(2) Kirwan, L.P. : LAAA. op. cit. p. 103.

طلبه. فلما سمعت انا الخاطى كاتب هذه السيره هذا فصرت مثل الشماس المحب لله تاوفسطس، عند كونه مع الاب القديس ديسقرس فى جزيرة جاجرا (*) بسبب الرجل الاعسم الذى عوفى بدم يد المعترف، امنت ان الرب يفعل مع هذا الاب ما يرى ولد هذا الانسان.

وفيما انا متفكر فى هذا اراد الرب ان يزيدنى فى هذا القديس ايمانا، فامرنى ان اخذ ورقه ودواه

(*) البابا ديسقرس البطرك ٢٥ من العدد: انظر الجزء الاول حيث يذكر أنه نفى إلى جزيرة جاجرا بسبب موقفه من مجمع خلقدونيه.

ولونجينوس بالتبشير بينهم. مثال ذلك عادة وضع الأوانى الفخارية التى يحفظ فيها طعام الميت وشرابه فى القبور [١]. ثم ازداد انتشار المسيحية ببلاد النوبة حتى أصبحت عامة تقريباً بسبب هجرة الأقباط من مصر إلى بلاد النوبة على أثر الغزو الفارسى لمصر عام ٦١٩م واضطهاد الملكانيين للأقباط بعد استرداد البيزنطيين مصر. وفضلا عن هذا فإن التنظيم الإدارى لمملكة النوبة المتحدة [٢]، وتقسيمها إلى مديريات تحت سلطة حكام خاضعين للملك مباشرة بدنقلة أدى إلى ازدياد سلطة الحكومة ، وبالتالى ساعد على إحكام رقابتها على الحياة الدينية وأدى إلى أنتشار المسيحية[٣].

* * *

غير أنه لم يكن فى وسع النوبيين أن ينشئوا إلا القليل من الكنائس الجديدة بعد تنصيرهم، فبدأوا بتحويل المعابد الفرعونية إلى كنائس، وأول من استن هذه السنة هو الأسقف ثيودور. ففى حوالى أوائل القرن السادس الميلادى حول معبد فيلة لايزيس إلى كنيسة باسم القديس اسطفانوس[٤]. وفى النوبة حيث يوجد كثير من المعابد المصرية التى تحمل جدرانها نقوشاً فرعونية تحولت هذه المعابد إلى كنائس بعد طمس هذه النقوش بطبقة من الجص، ونقشت

(1) Ibid : op. cit. p. 103.

(٢) مملكة النوبة المتحدة هى التى تكونت من مملكة نوباتيا ومقرة.

(3) Kirwan. L.P. ; LAAA. op. cit. p. 105.

(4) Roeder. G. : op. cit . p. 379.

واكتب فيها: يقول يوساب الحقير اصغر البطاركه جميعهم يامرك ايها الروح النجس ان تخرج من عبد المسيح الاهنا، ولا تعود اليه فيما بعد بقوة الاب والابن وروح القدس الاله الواحد .

فاخذ ابو الصبى الكتاب ومضى مسرعا الى بيته وقراه على ولد وللوقت خرج منه الشيطان ولم يعد إليه.

ومدة مقامه بمصر كان يأتى الى ابينا ويسجد له

صور تمثل السيد المسيح والحواريين [١]. وحوالى سنه ٥٥٩م حول الملك إربانم Erpanome معبد دندور إلى كنيسة. ونقش على جدارها كتابات ذات أهمية خاصةتوضح علاقة هذا الملك النوبى بأسقف فيلة. كما توضح علاقة الملك بمندوبه وممثله فى كلابشه، والذى يحمل لقب hezarch أو eparch «نائب ملك» [٢] أما معبد كلابشه فيبدو أنه حول أيضاً إلى كنيسة حوالى ذلك الوقت، وعلى جداره نقشت كتابتان تخليداً لهذه الذكرى[٣].

وهذه هى المعابد التى عرف تاريخ تحويلها إلى كنائس. أما بقية المعابد الأخرى مثل معبد دكة وأمادا ووادى السبوع وأبو سمبل فلا نعرف تاريخ تحويلها. ومن الكنائس التى ظلت فى حالة معقولة تلك التى تحتل قلب معبد وادى السبوع الذى بناه رمسيس الثانى وطليت جدارانه بالجص وكتبت عليها كتابات قبطية وصور تمثل ميلاد السيد المسيح وتلاميذه الإثنى عشر. وصورة للملاك ميخائيل وبجانبه صورة امرأة قد تكون إحدى المتبرعات لإنشاء هذه

(1) Ibid : op. cit. P. 380.
Kirwan, L. P. : LAAA. XXIV P. 93.

(٢) والراجح أن هذا الموظف hezarch كان يمثل الإمبراطور البيزنطى Kraus Johann. S.V. D. : Die Anfange, Des Christ. in Nubien. p. III.
Revillout : Memoire sur les Blemmye, P. 121.

(٣) عثر على نقشين على جدار هذا المعبد وجاء فيهما : «أنا بولس صليت فى هذا المكان للمرة الأولى»، «باسم المسيح عيسى ـ أنا القسيس بولس وضعت الصليب فى هذا المكان لأول مرة». انظر: Roeder, G. : op cit.

بامانة عظيمه ويقول : انا اشكر الرب بصلواتك لان بكلامك عوفى ولدى. وكان ابونا ينهيه ويجعل عليه قانونا [حلفان] للبيعه ان لا يقول لاحد هذا الكلام واما الرجل فحلف لنا ان الشيطان لم يعد الى ولده من ذلك اليوم.

وفى تلك الايام تنيح الاب ديونوسيوس بطرك انطاكيه، فاهتم المطارنه والاساقفه والشعب الارتدكسى، وقدمو عوضه انسانا كاملا فى

الكنيسة، وكذلك صورة القديس بطرس وبيده مفتاح كبير مازالت واضحة المعالم (١).

أما الكنائس التى بناها النوبيون، فأولها كنيسة مارى بإبريم، وربما يرجع تاريخ بنائها إلى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع. والكنيسة الثانية هى التى أشار إليها يوحنا الأفسسى وقال إن لونجينوس بناها للنوبيين أثناء إقامته بينهم فى المرة الأولى من سنة ٥٦٩ ـ٥٧٥م. والكنيسة الثالثة هى كنيسة دنقلة. أما كنيسة فرس وبوهن فربما يرجع تاريخ بنائهما إلى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الميلادى (٢). أما سائر الكنائس المنتشرة على طول النيل من أسوان فى الشمال إلى القطينة على النيل الأبيض فى الجنوب، فلم يعرف تاريخ إنشائها لعدم وجود نصوص مكتوبة على جدرانها، ولم يبق من هذه الكنائس إلا أطلالها، ومعظمها اندثرت معالمه لأنها كانت مبنية من الطين. ولهذا فإن ما تبقى منها معظمه إلى الشمال من أبو حمد حيث تندر الأمطار. ويقول أبو صالح فى الوقت الذى وضع فيه كتابه حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى إن مدينة علوة بها أربعمائة كنيسة (٣)، ويضيف بتلر (٤) أن فرنسسكو الفارز مبعوث ملك البرتغال إلى بلاط ملك الحبشة فى القرن السادس عشر الميلادى، ذكر أن شخصا سوريا يدعى يوحنا السورى حدثه أن ببلاد النوبة مائة وخمسين كنيسة مزينة جدرانها بصور السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين. وعثر سومرز كلارك على سبع وأربعين كنيسة

(1) Roeder, G, : op. cit. p. 381.

(2) Kirwan, L. P. LAAA. XXIV p. 100.

(٣) أبو صالح : ص ١٢٠.

(٤) المصدر السابق ص ٢٦٤ حاشية ١.

الخصال اسمه يوحنا، وكان [ذلك] فى السنة الخامسة عشر من بطركيته، اعنى الاب انبا يوساب.

وفى سنة خمس مايه واتنين وستين للشهد، ولما جلس على كرسى انطاكية كتب الى ابينا سنوديقا كالعاده بالاتحاد وانفذها مع مطرانين، وهما اتناسيوس مطران افميه، وطيماتاوس مطران دمشق وكهنة معهما،فلما اجتمع الاب انبا يوساب

فى النوبة فى جهات مختلفة على طول النيل من أسوان إلى جنوبى الخرطوم. ووصف هذه الكنائس ووضع لها رسوما فى كتابه عن الآثار المسيحية بوادى النيل. وعثر دى فيار أخيراً على بقايا عشر كنائس أخرى منها اثنتان بقصر إبريم.

بقى هنا أن نشير إشارة خفيفة إلى البليميين ومدى تأثرهم بالمسيحية بعد القرن السادس الميلادى، فلا يبعد أن يكون لونجينوس عمد بعض زعمائهم أثناء مروره ببلادهم. غير أننا لا نسمع عن البليميين شيئا إلا بعد الفتح العربى بحوالى مائة سنة، حين عرفوا باسم البجا وهو اسمهم القديم، ووصفهم الكتاب العرب بأنهم وثنيون، ويقول اليعقوبى «ليس لهم شريعة إنما كانوا يعبدون صنما يسمونه ححاخوا» [1] ويقول أبو الفدا «إنهم يعبدون الأوثان[2]» أما الإدريسى فيقول بأنهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية [3].

ويمكن القول إن المجموعة البجاوية ظلت على دينها المصرى السابق للمسيحية باستثناء جماعات قليلة منها اعتنقت المسيحية بحكم اتصالها بالجماعات المسيحية. ومنذ الفتح العربى لمصر أخذت المسيحية تمتد رويداً رويداً إلى أوطان البجة، وبقى بعضهم على دينهم المصرى حتى دخل الإسلام ديارهم .

---

(١) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص ٣٣٦.
(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ص ١٩٦.
(٣) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ٢٧.

بوصولهم، الى قريب مصر، وصحبتهم السنوديقا
سار الى اسكندريه كيما يجتمعوا به هناك بمجد،
فلما قربو من المدينه انفذ يستقبلهم باساقفه وكهنة
يقرون قدامهم الى ان دخلو بهم الى القلايه
البطركيه بمجد وكرامه . فلما اخد ابونا السنوديقا
امر بقرا[ء]تها على الشعب الارتدكسى ففرحو
فرحا عظيما .

فلما نظر الشيطان المناصب هذه النعمة بدا ان
يثير على ابينا البطرك بلايا من جهة من هو له

النظم والحضارة فى ممالك النوبة المسيحية

التنظيمات الإقليمية ■ التنظيمات السياسية ■ طبقات المجتمع ■ التظيمات الكنسية ■ الاقتصاد النوبى ■ بعض مظاهر الحضارة النوبية.

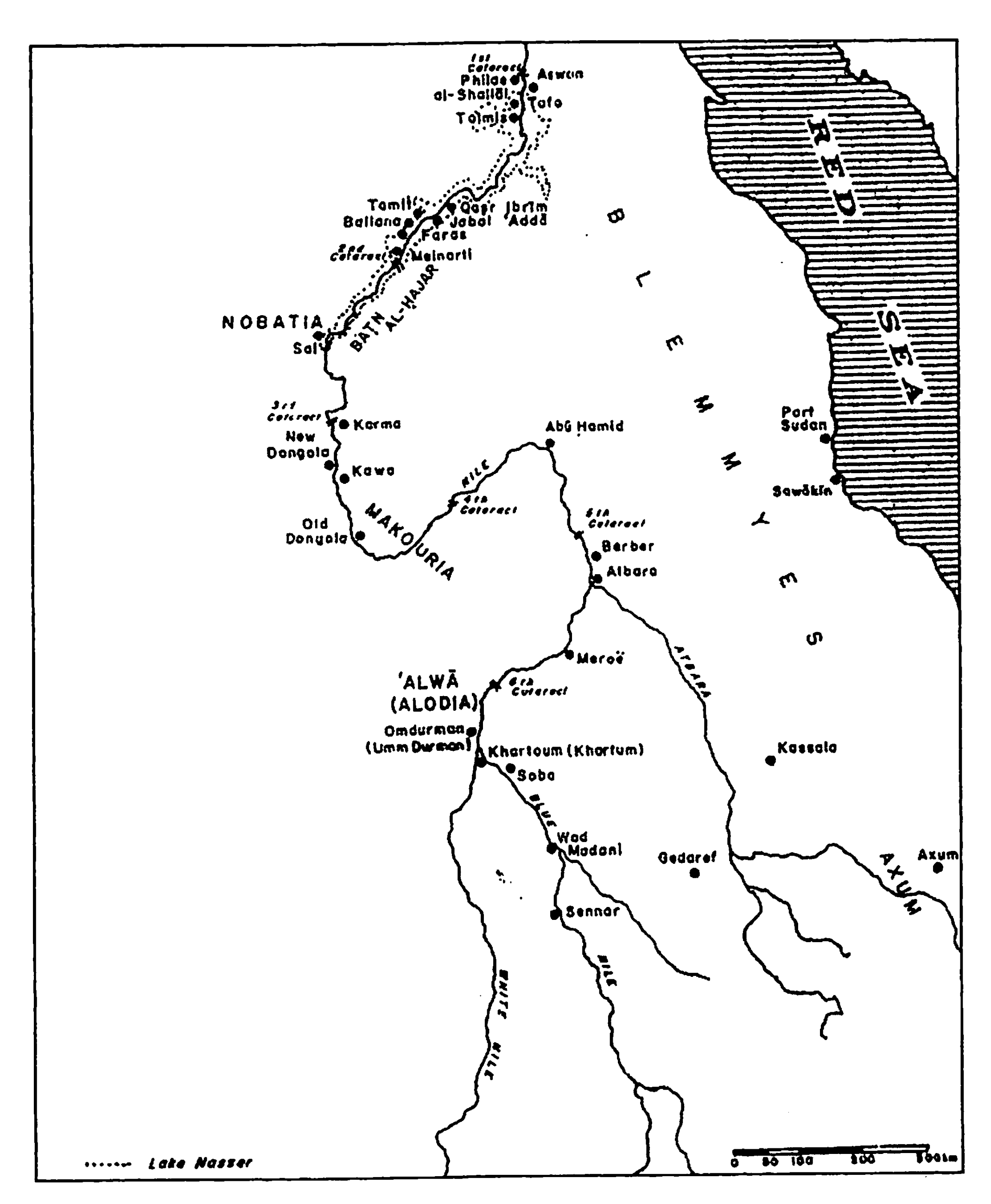
* * *

يرجع ما وصل إلينا من تاريخ ممالك النوبة المسيحية إلى قطع من نصوص مكتوبة بواحدة أو أخرى من اللغات القبطية أو اليونانية أو النوبية، وإلى إشارات قليلة فى المؤلفات القبطية، وإلى ما ذكره بعض المؤلفين العرب الذين جاء ذكر النوبة عرضا فى مؤلفاتهم [١]. ولهذا جاءت هذه المعلومات إما ناقصة أو غامضة فى كثير من الأحيان[٢].

والممالك المسيحية التى استقبلت المبشرين المصريين والبيزنطيين الرسميين حوالى منتصف القرن السادس الميلادى كانت ثلاثا، تحدث عنها يوحنا الأفسسى دون أن يعين لها حدوداً جغرافية واضحة. أولاها: مملكة النوبادين Nobadae جنوبى الشلال الأول، وثانيتها: مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alodaic ، وهى فى أقصى الجنوب من بلاد النوبة، وثالثتها:

(1) Kirwan. L. P. : "Note on the topography of the Christian Nubian Kingdoms". JEA. XXI, 1934. P. 57.

(2) Quatremere, E. : Memoires, II p. 1.



ممالك النوبة المسيحية

وعا[ء] كما فعل فى قاضى الظلم بمصر، وكان
لذلك القـــاضى رجل ينوب عنه باسكندريه
واعمالها، وكان اشر منه وكان اسمه محمد بن
بشير ، فمضو اليه [المخالفين] الذين احرمهم اولا،
واشارو عليه ان يهينه قدام المطرانين، وكانو مهتمين
بهذا اولاد النار ويظنون ان هذاالامر ينتقل عليه،
وهو المشتمل بالاتضاع لا يبالى ولا يفكر فيما
يفكرون فيه، لنهم كانو مفكرين فى قلوبهم انهم

مملكة الماكوريين Makoritae – أى مقرة – وموقعها بين المملكتين السابقتين (١). أما المملكة الأولى، فهى التى أسسها الملك سلكو حوالى ٥٣٠م . ويبدو أنه تمكن من إخضاع الماكوريين(٢) أصحاب المملكة الثالثة مدة قصيرة (٣). أما المملكة الجنوبية التى يسكنها Alodaie فهى التى نشأت على أنقاض مملكة مروى بعد سقوطها على يد الملك عيزانا حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى. وورد فى نقش الملك عيزانا اسم مدينة علوة alwah ضمن المدن المبنية بالطوب الأحمر والتى وقعت فى قبضته. وهى تقع على نهر سيدا Seda جنوبى إلتقائه بنهر تكازى Takkazi(أتبرا).

ومنذ عام ٥٨٠ ظلت هذه الممالك الثلاث المسيحية مستقلة بشئونها تحت حكم رؤساء وطنيين (٤). غير أن المراجع العربية تخبر بأنه بعد استيلاء العرب بقيادة عمرو بن العاص على

---

(1) John of Ephesus, : op. cit. P. 319.

(٢) ربما كان هؤلاء الماكوريون هم الذين أشار إليهم سترابون باسم Meya Bapoi وأشار إليهم بطلميوس الجغرافى باسم Malloupai. Kirwan, L. P. op. cit. P. 57.

(٣) من الواضح أن خضوعهم لم يدم طويلا بدليل موقفهم العدائى أثناء بعثة لونجينوس التبشيرية.

(4) Kirwan L. P. : op. cit. p. 58.

والراجح أن علوة مدينة قديمة ترجع إلى حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. ولا يبعد أن تكون مدينة (t) IL التى ورد ذكرها على لوحة تركها الملك ناستاسن Nastasen ملك مروى ٣٢٨ ق . م.=

اذا اهانوه قدام المطرانين ينقص جاهه، ولم يعلمو ان موامرتهم مرذوله عندما يظفر الظافر كل حين، وينال الاكليل على الجهاد، وينال الطوبى على صبره، وينتهى به ذلك الى اقصى المشرق، وصورته عندما يشاهده الابرار المطارنه فيما يجرى عليه.

حينذ انفذ القاضى ، قاضى اسكندريه، ان يحضر الاب القديس انبا يوساب البطرك ويحضر معه المطرانين. فقال له لما حضر عنده: قد اعلمونى

مصر سنة ٦٤٠م، قامت حملتان عربيتان من الأراضى المصرية سنة ٦٤٠ - ٦٥٢م بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبى السرح لغزو تلك الممالك المسيحية، كما تخبر بأن عهد الصلح الذى عقده عبد الله بن سعد كان «لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته... من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة[١]» ومعنى هذا أن المملكتين نوباديا ومقرة أصبحتا مملكة واحدة عرفت باسم النوبة. أما المملكة الأخرى وهى علوة فيبدو أن المسلمين لم يتعرضوا لها على أن موضع الأهمية هنا، هو معرفة متى حدث هذا الاتحاد؟ أما المؤرخون فاختلفوا حول تاريخ اتحاد هاتين المملكتين، فهناك قول بأن هذا الاتحاد حدث فيما بين ٥٨٠ - ٦٥٢م وأن دنقلة أصبحت بذلك عاصمة للمملكة النوبية المتحدة، على حين ظلت فرس عاصمة المقاطعة الشمالية [٢].

=Kirwan, L. P. : op. cit. p. 57.

أنظر أيضا Shinnie, P. L. : "Excavations at Soba" SAS. No. 3, 1955. p. 11

وكذلك Cammerer, A. : Essai Sur l'histoire Antique d'Abyssinie p. 82.

ويقول كامرير: إن علوة اسم قديم لأنها ذكرت على نقش هيروغليفى فى النقعة (قرب شندى) تحت اسم Alut.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص٢٠٠ ، سيرد ذكر هذه الحملات تفصيلا فيما بعد.

(2) Crawford, O. G. S. : op. cit. p. 23.

وانظر أيضا : Kirwan, L. P. : op. cit. p. 61.

ان لك غلمانا الذين امرك القاضى صاحبى ان لا تقبلهم اليك دفعة اخرى بعضهم عندك وقد اعدتهم الى دينك . فاجاب القديس وقال له : ما عندى شي مما ذكرته وانى لم اشاهد وجه واحد منهم من ذلك اليوم. فامر به ان يضرب على قفاه بغير رحمه(*)، ويلكمونه لكما كتيرا، ولم يتخلو عن ضربه وقتا كتيرا، وكانت راسه مطاطيه لا يشيلها لاجل ضعفه ولم يفتح فاه ينطق بلفظه الا قوله هكذا: اشكرك يا سيدى يسوع المسيح. فبكينا

(*) الضرب على القفا من وسائل التعذيب والاهانة.

وثمة قول آخر وهو أن اتحاد المملكتين «نوباديا ومقرة» حدث بعد مضى خمسين عاما على عقد هذا الصلح[1]. ويستند صاحب هذا الرأى إلى أمرين: أولهما ماورد فى بعض المراجع القبطية [2] بشأن نزاع نشب بين ملك مقرة وملك موريتانيا سنة ٦٩٠م بسبب حاجة الأولى إلى أساقفة ومنع الأخير إياهم من المرور بمملكته، وملك موريتانيا فى نظره هو ملك نوباديا. ومعنى هذا ـ فى رأيه – أنه حتى سنة ٦٩٠م كانت لا تزال المملكتان مستقلتين. وثانيهما ما ورد فى هذه المراجع كذلك [3] من أن الملك مرقوريوس سلك مسلكاً جديداً نال عليه ثناء الكنيسة المصرية واستحق من أجله لقب قنسطنطين الجديد. وربما كان هذا المسلك الجديد هو تحوله إلى المذهب المونوفيزى وتحويله معبد تافه فى نوباديا إلى كنيسة سنة ٧١٠[4]. وبهذا يكون مرقوريوس جمع بين حكم المملكتين بعد إخضاع المملكة الشمالية وتوحيدهما دينيا وسياسياً كذلك.

---

(1) De Villard, : op. cit. p. 76.

(٢) اعتمد دى فيار فى إيراد هذا الرأى على ما جاء فى سيرة البطريرك إسحق (٦٩٠ – ٦٩٣م) والتى جمعها الأسقف مينا. Ibid, : op. cit. p. 79.

(٣) واعتمد هذا المؤلف أيضاً على ما ورد فى سير بطاركة الإسكندرية Ibid. : op.cit. p. 80.

(٤) يقول دى فيار: إنه عثر على حجر فى معبد تافه يحمل نقوشاً يونانية مؤرخة ١٤ ديسمبر سنة ٧١٠م تمجد مرقوريوس لإتمامه هذا العمل الجليل. وربما كان هذا العمل. الجليل هو تحويل معبد تافه إلى كنيسة. وتافه تقع فى نوباديا ومعنى هذا أن مرقوريوس ملك مقرة، يحكم نوباديا كذلك.

نحن اولاده بكا[ء] مر لمشاهدتنا ما جرى عليه من ذلك القاضى السو، ولم ييأس من الرحمه بل كان شجيع [شجاع]، فتعجب هو ليك المطرانان وقالا: تبارك الله الذى جعلنا مستحقين ان نشاهد جهاد هذا الاب. وكان ابونا المبارك يقول قول الرب لاجل قاضى الظلم: ان الرب يظهر فيه الانتقام الذى يحل به كما قال لوقا: الله ينتقم لاصفياه سريعا، الداعين له ليلا ونهارا ويطول روحه عليهم.

غير أن هذا الرأى لايمكن قبوله، لأنه لايتفق وما جاء فى عقد الصلح سنة ٦٥٢م [١] ثم إن اعتماد هذا الرأى على المراجع القبطية وحدها لا يعد دليلا كافيا على صحته، لعدم اتفاق رواياتها. إذ أن بعض هذه المصادر القبطية تقول إن النزاع كان بين ملك مقرة وملك الحبشة[٢]. ومع التسليم بصحة ماجاء بشأن ملك موريتانيا. فالمعروف أن موريتانيا هى ليبيا وأن الأساقفة كانوا يستخدمون الطريق الليبى - لا طريق النيل - فى سفرهم من الإسكندرية إلى دنقلة[٣]. ثم أن تحول مرقوريوس إلى المذهب المونوفيزى وتوحيد المملكتين دينيا، لايعنى أن المملكتين لم تتحدا سياسيا من قبل. والراجح أن الوحدة السياسيه تمت قبل الوحدة الدينية فى وقت سابق لحملة عبد الله بن سعد على بلاد النوبة سنة ٦٥٢م، أو فى وقت معاصر لها

(١) ونص الصلح على أن المملكة النوبية تمتد من أسوان إلى حد علوة.

(٢) يقول بتلر فى كتاب تاريخ أبى صالح الأرمنى (حاشية ١ ص ٣٦١) وان البطريرك إسحق تدخل لحسم النزاع بين ملك النوبة وملك الحبشة مما أدى إلى غضب عبد العزيز بن مروان والى مصر على البطريرك إسحق. انظر متن ساويرس أعلاه ص ٤٨ جـ٢ . وورد فى كتاب رينودو «تاريخ بطاركة الإسكندرية» ما يؤيد رأى بتلر الذى استقاه من مصدر قبطى هو سيرة البطريرك إسحق التى جمعها ساويرس بن المقفع آسقف الأشمونيين.

Renaudot, E, : "Hist. Patriarcharum Alexandrinarum." P. 178.

Conti Rossini : Note Ethiopiche - 1 - Una Guerra fra la Nubia e l. Ethiopie. Nel Seclo XII. p. 1.

(3) Maspero ; op. cit . p. 348.

Roeder , op. Cit. pp. 383- 484.

وبعد ذلك كتب الى البطرك انبا يوحنا كتب السنوديقا وودعهم بمجد وكرامه تصلح لهم وهم يعطون الطوبى لابونا يوساب، وجعلوا يشرون بفعله فى جميع بلادهم.

وكانت فى ايامه نعمه وسلامه. وكان فى زمانه اعجوبه، ونظر الى الديارات فى كل موضع تنمو وتتزايد كل يوم بصلواته وصلوات القديسين الذين كانو فى ذلك الزمان، وبالخاصه الديارات بوادى

على الأقل، فإن حاجة الدفاع عن البلاد والوقوف فى وجه الغزو الإسلامى فرضا هذه الوحدة السياسية [١] ، على أن تحتفظ كل من الدولتين بسيادتها على أراضيها واستقلالها الداخلى. ولابد أن هذا كان أشبه باتحاد فيدرالى أو تعاهدى، احتفظ فيه ملك المملكة الشمالية بسلطاته على أن يكون بمثابة نائب ملك ـ كما سيجئ تفصيله بعد - ولعل تحول ملك مقرة إلى المذهب المونوفيزى تضمن تأييداً وتأكيداً لهذه الوحدة السياسية التى سبقته.

أطلق الكتاب العرب على هذه الأقاليم جميعا اسم النوبة.و يتفق فى هذا كل من اليعقوبى (٨٩٤م) والمسعودى (٩٣٥م) . بيد أن اليعقوبى جعل الحد الشمالى لمقرة عند بلدة إسمها ماوا [٢] . على حين جعل المسعودى الحد الشمالى لمقرة عند أسوان. ومعنى هذا أن المملكة

(1) Arkell, A.J.; Ahist. of the Sudan. p. 186.

(٢) اليعقوبى: كتاب البلدان ، ص ٣٣٦ «ومن أسوان أول بلاد النوبة الذين يقال لهم مقرا وهو موضع يقال له ماوا». وفى موضع آخر «فأما من قصد من العلاقى إلى بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة...» - أى أن اليعقوبى أطلق النوبة على كل الأقاليم جنوبى أسوان بما فيها مقرة وعلوة وجعل ماوا الحد الفاصل بين نوباديا ومقرة، بيد أنه لم يذكر شيئاً عن الحدود بين مقرة وعلوة. ومدينة ماوا غيرمعروفة، وربما قصد بها ماما وهى فى رأى كروفورد تقع قرب جبل فركة جنوبى الشلال الثانى، وهى تمثل نهاية اقليم السكوت، واعتبار الحد الفاصل بين نوباديا ومقره جنوبى ماما بحوالى ١٤ ميلا لهو أمر مقبول Crawford, op. cit. p. 23.

هبيب، كانت مثل فردوس الله لا سيما دير ابى مقار. ومعونة الله مع جميعهم وبالخاصه الاقنوم شنوده القس القديس الذى اظهر الله منه افعالا حسنه لا تحصى من امانته فى القديس ابى مقار، وجعل له تذكارات كروما وبساتين وبهايم وطواحين ومعاصر وخيرات كتيرا لا تحصى.

ولما شاهد الشعب المومن فعله ابتهجو بذلك وكانو يحسدونه على فعله ويساعدونه بحسن نياتهم.

الشمالية «نوباديا ومقرة» عرفت باسم مقرة. وعرفت الآخرى باسم علوه [1]، وأن الجزء الشمالى من مقرة والمتاخم لمصر عرف باسم مريس دون تعيين حدود سياسية واضحة لهذه الممالك. ويضيف المسعودى أن المملكتين مقرة وعلوة كانتا تحت حكم ملك واحد اسمه كبرى بن سرور، غير أن هذا الاتحاد لم يسمع عنه، وهو - إن صح - لم يدم طويلا. ويشير المسعودى إلى وجود عاصمتين هما دنقلة عاصمة مقرة، وسويا عاصمة علوة. ويتفق عبد الله ابن أحمد بن سليم الأسوانى [2] (٩٦٩م) مع كل من اليعقوبى والمسعودى، ولكنه يضيف كثيراً من المعلومات الجغرافية والتاريخية لهاتين المملكتين، فذكر الأسوانى أن الحد الشمالى

(١) المسعودى : مروج الذهب. جـ٣، ص ٣٣ «فأما النوبة فافترقت فرقتين، فى شرقى النيل وغربيه، وأناخت على شطيه، فاتصلت ديارها بديار القبط أرض صعيد مصر من بلاد أسوان وغيرها. واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة، ولحقوا بقريب من أعاليه، وبنوا دار مملكة تدعى دنقلة. والفريق الآخر من النوبة يقال لها علوة وبنوا مدينة للملك سموها سوبة... والبلد المتصل من مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس».

(٢) عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى كان مبعوث الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى ملك النوبة ليدعوه إلى الدخول فى الإسلام ويذكره بدفع البقط وكتب كتابه «أخبار النوبة ومقرة وعلوة والبجة والنيل» وهذا الكتاب مفقود ولكن المقريزى حفظ لنا فى كتابه المواعظ والاعتبار شيئا منه.

وكان فى الدير المقدس خلايق لا تحصى، ليس الارتدكسيون فقط بل هراطقه، (*) لاجل العجايب التى تظهر فى هذه البيعه . وفعل هذا الاقنوم شنوده وكان يرجو المجازاة من الله، كقول بولس الرسول: نحن بالروح بالامانه ننظر رجا[ء] حقيقيا. ولما راى الرهبان يتزايدون بنعمة الله التى تدعوهم، بدا وبنى بحرى البيعه الكبيره بيعه باسم الابا[ء] التلاميذ، وكملها وزينها بكل زينه، ودعا ابانا القديس انبا يوساب البطرك الى هذه البيعه،

(*) كان أصحاب المذاهب المخالفة يقيمون فى الدير المقدس بوادى هبيب.

لمريس[1] يقع عند مدينة القصر، بينها وبين أسوان خمسة أميال، وبينها وبين جزيرة بلاق (فيلة) ميل واحد، وإلى بلاق تنهى مراكب النوبة أما الحد الجنوبى لمريس فيقع عند المقس الأعلى[2]، بينها وبين الشلال الأول [3] ست مراحل، والعاصمة نجراش. ويتفق هذا التحديد مع ما ذكره أبو صالح الأرمنى (١٢٠٠م). ويرى دى فيار أن هذا الحد يقع عند قرية عكاشة جنوبى الشلال الثانى [4] وتبدأ مقرة بأقاليم ثلاثة هى : سقلودا وبقون وصفد

(١) مريس معناها فى اللغة القبطية الجنوب. وتنسب إليها الريح المريسية، وهى رياح الجنوب الباردة التى تهب على جنوبى مصر فى فصل الشتاء. أنظر عبد اللطيف البغدادى كتاب الإفادة»، ص ١٣.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص ١٩٠ «... وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى وهو ساحل، واليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم، ومنها إلى المقس الأعلى ست مراحل».

(٣) الشلال الأول هنا المقصود به أول الشلال فى الأراضى النوبية، ولم يدخل إبن سليم الجندل الأول (الشلال الأول) فى أرض النوبة لأنه داخل فى الحدود المصرية. وعلى هذا فإن الجندل الأول حسب قول ابن سليم يقابل الجندل الثانى (الشلال الثانى قرب حلفا) ومنها أى من تقوى (عند الشلال الثانى) إلى المقس الأعلى ست مراحل - حوالى ٧٢ ميلا - وهى منطقة الشلال الثانى.

(٤) أبو صالح: الشيخ أبو صالح الأرمنى، ص ١٢٠ . ويعتمد دى فيار فى تحديد هذا الموقع على ما ذكره أبو صالح من أن فى جهة المقس الأعلى يوجد السنباذج Corundum وهو حجر ساخن يوجد قرب عين ماء ساخنة. ومن تقرير لهيوم وجد أن هذه العين لاوجود لها فى وادى النيل كله إلا عند عكاشة ويسميها السكان هناك حمام عكاشة أنظر. De Villard :op. cit. p. 136.

فلما نظرها امتلا قلبه سرورا وكرزها فى اول يوم
من برموده فى السنة السابعه عشره من بطركيته
ولم يفتر الاب من البركه على ابونا القس شنوده
الاقنوم من عمق قلبه. وينظر التذكارات التى
يعملها يوما بعد يوم وباخاصة هذه البيعه المقدسه
الجامعة الحسنه ، وكان لنا نحن اولاد هذا الاب
محبه ابينا له، وكان الاب يقول لنا : بقوة روح
القدس الحال فيه، يا اولادى صدقونى ان لهذا الأخ
تذكارات كثيره يفعلها، وبنا[ء] بيع وكنايس ،

بقل [1] وهى جميعا شمال مقر، تمتد جنوبا بعد انثناءة النيل الكبرى بحث تشمل إقليم شنقير [2]. وتنتهى جنوبا عند حد الأبواب (كبوشية الحالية) حيث تبدأ مملكة علوة. ويذكر مفضل بن أبى الفضائل أن مريس تنقسم إلى قسمين: بلاد العلى وتنهى عند مهندى (جنوبى المحرقة الحالية) وبلاد الجبل وتنهى بنهاية حد مريس فى الجنوب (٢٨). ويشير ابن سليم إلى

(١) المقريزى : جـ١ ص ١٩١. سقلودا معناها فى اللغة المصرية السبع ولاه. ويبدو أنها تتفق مع إقليم السكوت. وبا كون مع إقليم المحس وصفد بقل مع إقليم الجوايرة Crawford .op. cit pp.. 24 - 25 :
وجاء فى رواية أخرى لابن سليم «أن وستو آخر قرى مريس آخر عمل متملكهم». والواقع أن هذه الرواية تتعارض مع ما سبق أن ذكره أن المقس الأعلى هى اخر مريس من ناحية الجنوب، ولكن إذا علمنا أن وستو أو باستو تقع شمالى دنقلة الأوردى بحوالى ٢٧ ميلا Burckhardt, J.L: Travels in Nubia, P. 523. أى قرب أبو فاطمة التى تنتهى عندها لغة الدناقلة التى تشبه لغة الكنوز وهى اللغة المريسية، نرى أن ابن سليم ربما قصد الحد الشمالى للغة مريس الدنقلاوية لا الحد الجنوبى لإقليم مريس.
أنظر Kirwan, L. P. :op. cit. p. 60.

(٢) منطقة شنقير هى منطقة أبو حمد – بربر حيث يبدأ منها الطريق البرى إلى سواكن.
Crawford. :op. cit. p. 26.

(٣) إن مهندى غير معروفة تماما لكن دى فيار يرى أنها تقع إلى الجنوب من المحرقة وبهذا يمكن القول إن هذه التقسيمات تتفق تماما والتقسيمات الرومانية بأراضى النوبة ـ نقلا عن مفضل بن أبى الفضائل ، «النهج السديد».

De Villard, : op. cit. pp. . 137 - 138.

وكنا نسمع هذا منه فنقول ترى انه بنى بيع اخر في هذا الجبل. وكان كلامه كالنبوه ونحن لا نعلم حتى ظهر لنا بعد ذلك ما سوف نذكره.

وكان في يد ابونا عكاز لطيف دفعه لشنوده الاقنوم وقال له: خذ هذا يا ولدى تذكارا لك. فلما راينا هذا قلنا ان هذا بسبب امور تظهر لأن كل أفعاله بنعمة روح القدس.

ولما كان في السنة الثامنة عشره من بطركيته

صعوبة الانتقال بين جميع تلك الأقاليم بسبب وجود الجنادل التى تعترض سير النهر فى كثير من المواضع[1].

اتفقت كتابات المؤلفين العرب على أن حد علوة من ناحية الشمال يبدأ عند منطقة تعرف بالأبواب [2] غير أن أحداً من الكتاب العرب أو غيرهم لم يعط صورة واضحة لمدى اتساع هذه المملكة أو يعين لبقية جهاتها حدوداً جغرافية واضحة. فيكتفى ابن سليم بقوله« إن مملكة علوة أوسع وأخصب من مملكة مقرة [3]». ولم يكن ابن سليم فى تحديده لعلوة دقيقاً كذلك. إذ يشير إلى الحد الشرقى لعلوة مثلا بقوله «وعليه أى النيل الازرق جنس مولد من العلوة والبجه يقال لهم الديجيون وجنس يقال لهم بازة... وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة[4]». ومعنى هذا ـ فى قوله ـ أن مملكة علوة تمتد شرقاً فى اتجاه النيل الأزرق إلى حدود الحبشة.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ١٩٢ والأبواب هى كبوشية الحالية: Crawford op. cit. p. 24. ويرى دى فيار أن الأبواب هى الإقليم المحاذى للنيل من نقطة التقائه بنهر أتبرا إلى الشلال الرابع.
De Villard, : op. cit. p. 153.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩٣.

(٤) الديجيون والبازة غير معروفين تماماً وربما البازة هم الباريا الذين كانوا يحتلون هذه المنطقة قبل أن ينتقلوا جنوباً.

ولى على مدينة اسكندريه امير اسمه مالك بن ناصر الحدر، وكان انسان سو ظالما. فلما دخل المدينه بدا ان يفعل سو بكتير من الناس اكتر من الوالى الذى كان قبله، فاعترض اصحاب الصنايع والتجار الكبار، والبزازين والباعه،و تقدم الى التجار الكبار والبزازين ان لا يبيعو ويشترو الا حدا يحده لهم، وعمل قياسا كبيرا [للأطوال] وجعل ينادى مناد ويقول: من وجد عنده توب ناقص عن هذا القياس انا اعتقله واهينه واقتله.

وقدر ابن حوقل [1] طول علوة بحوالى شهر وعرضها من النيل مشرقاً بثمان مراحل (حوالى ٩٦ ميلا)، على حين أن ياقوت[2] قدر المسافة من عاصمة مقرة إلى حدود علوة بثلاثة أشهر وقال: إن إلى الجنوب من علوه توجد أمه أخرى من السودان تدعى تكنة [3]. والخلاصة أن هذه الأقوال فى جملتها غير دقيقة ولا توضح إلى أى الجهات امتد نفوذ ملوك علوة المسيحين. غير أن ما جاء فى مخطوط تاريخ قلاون [4] قد يوضح ولو قليلا الأقاليم التى تتألف منها

(١) ابن حوقل: كتاب صورة الارض، ص ٥٦.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، ص ٣٢٣.

(٣) ربما كان هؤلاء التكنة هم الدنكاء والراجح أنه فى هذا الوقت تقدموا شمالا على النيل الأبيض متجاوزين أوطانهماالحالية.

(٤) مخطوط تاريخ قلاون المعروف باسم تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور جـ٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٣ ب.

أنظر كذلك Quatremere, E. : Memoircs hist. ct. geog... II. PP. 109 - 112..

ومعظم هذه الأقاليم (الممالك) غير معروفة ، وحاول بعض الكتاب تحقيق أسمائها فيرى دى فيار أن بارة هم الباريا قبل انتقالهم من نهر أتبرا إلى أوطانهم الحالية. والتاكة هو الإقليم المحيط بكسلا، وكرسه ربما هم الذين أشار إليهم ابن سليم وكانوا يسكنون أرض الجزيرة، أما دنفوا ويقال وآرى فغير معروفة. أما الأنج فربما كانوا فى جبل حرزا، ويقول دى فيار: إن الأنج شعب قديم واسع الانتشار ، وبعد سقوط سويا أطلق عليهم «القدماء». وفى الرصيرص تطلق كلمة الهمج على العنج. أنظر:

Mac Michael, H. A. : Ahist. of the Arahs in the sudan, I. P. 183.

Arkell, A. J. : op. cit. p. 196.

فلما شاهدو اهل اسكندريه هذا حزنو، و قالو: قد علمنا الان ان الله قد اذل هذه المدينه وسكانها بيد هذا الرجل الظالم. فاما الضعفا [ء] والحاكه والقراريون [النساجون] فكانوا يصيحون من قطع معايشهم وبطلو اولادهم حتى عدمو قوتهم، وعولو على الغربه والخروج الى البلدان ليعيشو، وكانو يصرخون ليلا ونهارا بان ينقذهم الله من هذا الظالم، فلم يغفل الله عن دعاهم، لكن سمعهم سريعا لانه قال على لسان داود النبى فى مزموره

مملكة علوة. ومن هذه الأقاليم بارة ـ التاكة ـ كدروا ـ دنفوا ـ آرى ـ بفال ـ الأنج ـ كرسه. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأقاليم على كثرتها لا تعطى لنا صورة واضحة تماماً عن مدى اتساع مملكة علوة. ولعل الأبحاث الأثرية التى تمت فى منطقة النيل الأوسط حيث قامت مملكة علوة المسيحية، يمكن أن تعطى صورة أدق لحدود هذه المملكة . ذلك أنه عثر على بقايا كنائس فى مناطق مختلفة على النيل الأبيض عند بلدة القطينة وقوز رجب على نهر أتبرا، وجبل سجدى بأرض الجزيرة وقرب خزان مكوار على النيل الأزرق.و ربما امتدت حدود علوة إلى أبعد من هذه المراكز شرقاً وغرباً وجنوباً بحيث شمل نفوذ ملك علوة جهات لم تبن فيها كنائس، أما لعدم اهتمامهم بينائها لضعف عقيدتهم، وأما لأن أثار هذه المناطق زالت بفعل عوامل التعرية. وعلى كل حال فالراجح أن مملكة علوة امتدت من الأبواب (كبوشية) شمالا إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً وشملت جهات الأتبرا والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقاً وبعض جهات دارفور كردفان غرباً [1] .

* * *

أما عن التظيمات السياسية فى ممالك النوبة المسيحية، فالمصادر لا تعطى سوى صورة ضئيلة

----

(1) CrWford, : op. cit. p. 25. De Villard, : op. cit. op. cit. p. 156.
Arkell. A.J. : op. cit. p. 196

[٩٠] : اصرخ الى وانا انجيك واخلصك. وقال ايضا :الرب قريب من الذين يدعونه.

فلما كان بعض الايام ركب ذلك الامير وجا[ء] الى قلاية البطرك ومعه سرارى، ثم انه قام وطاف جميع مساكن البطرك حتى انتهى إلى المخدع الذى ينام فيه البطاركه كل زمان، فطرد الاب منه وادخل سراريه اليه واكل معهن وشرب هناك ونام معهن فيه، وهو الموضع الممتلى بخورا وطيبا من صلوات

باهتة لما كان عليه حكم هذه الممالك فى تاريخه الطويل. غير أن هذه المصادر على قلتها وغموض بعضها لا تخلو من فائدة فى التعريف بألقاب الملوك وسلطاتهم ونظام وراثة العرش، والتعريف بحكام الولايات وألقابهم وسلطاتهم .

ولنبدأ هنا بدراسة نظم الحكم فى مملكة مقرة ثم ننتقل بعد ذلك إلى دراستها فى مملكة علوة.

بعد نقش سلكو المكتوب باللغة اليونانية على جدران معبد كلابشة أول مصدر سجل عليه اللقب الذى اتخذه سلكو لنفسه [١] وهو Basilikos أى ملك صغير. وهذا اللقب يتفق وما ادعاه سلكو لنفسه من سلطة على النوباديين وجميع الأثيوبيين. وربما يرجع هذا التخبط فى اختيار اللقب الفعلى للملك إلى الجهل باللغة اليونانية الدخيلة عليهم[٢].

أما نقش دندور ٥٥٩م فيشير إلى تطور الألقاب الملكية فى نوباديا، إذ يتخذ إرجامنز

(١) على الرغم من أن سلكو لا يعرف عنه تماماً اعتناقه للديانة المسيحية فإنه على الأقل يعتبر المؤسس الأول لمملكة نوباديا المسيحية.

(2) Emery, W. E. : The Royal Tombs of Ballana & Qustul I. p. 12.

ويتفق هذا اللقب مع لقب ملك أى حاكم إقليم وهو اللقب الذى حمله حكام الأقاليم الخاضعة لسلطان الفونج، وهناك كثيرون لا يزالون يحملون هذا اللقب حتى الآن.

De Vjllard, : op. cit. p. 83.

القديسين البطاركه، فلما شاهد هذا الانبا القديس حزن وبكى جدا وقال قول داود النبى فى المزمور [٧٨]: يا الله دخلت الامم الى ميراثك ونجسو هيكل قدسك. فلما فعل هذا الافعال الطمثه بغير حق خرج وعاد الى موضعه، والله صانع حق خرج وعاد الى موضعه، والله صانع العجايب فى كل حين انتقم منه، لحقه فى ذلك اليوم ضربان فى احشاه وقارب الموت عاجلا. ولم يتخل عن ظلمه وفعله السو.

Ergamenes لنفسه لقب ملك، وهو لقب يفوق فى المرتبة لقب Basilikos. ويوضح هذا النقش حقيقة أخرى، وهى أنه يوجد إلى جوار الملك عدد من الموظفين، وأعظم هؤلاء الموظفين خطرا هو الذى يحمل لقب هيزارك Hezarch أو إيبارك Eparch، وهو يعادل لقب (Dux) فى الألقاب البيزنطيه، ومعناه هنا نائب الملك أومندوب الملك [١]. وكان هذا الموظف الكبير ينوب عن الإمبراطور البيزنطى فى حكم نوباديا بالاشتراك مع إرجامنز، واتخذ هذا المندوب الإمبراطورى بلدة تالمس مقرا له [٢]. وفى ذلك دليل على اشتراك البيزنطيين مع الملك سلكو فى طرد البليميين من نوباديا إلى الصحراء الشرقية.

ومن الألقاب الأخرى التى ورد ذكرها مسبوقة بأسماء حامليها من الموظفين الملكيين Neciorp أى خصى أو أغا، وCipua Repitapio ومعناها البريدى أو حامل الرسائل، Cauata ومعناها أمين الأختام. وليس لدينا ما يوضح طبيعة العمل الذى مارسه أولئك الموظفون سوى ألقابهم التى يحملونها، وهى ألقاب بيزنطية أستعارها النوباديون وأطلقوها على موظفين فى بلادهم [٣].

(1) De Vllard, : op, cit. p. 85.

(2) Moric, L. J. : Hist. de l'Ethiopie et la Nubic Tomler p. 412.

أنظر أيضا : Beckett. H. W. : ASN, II. Roport 1907 - 8 p. f366.

(٣) يبدو أن النوباديين استعملوا هذه الألقاب البيزنطية ومنحوها لأشخاص ربما لم يسبق لهم ممارسة=

ثم مضو اولاد النار وسعو بالاب قايلين: هذا يكاتب ملوك الروم وينفذون اليه مالا كتيرا فانفد [الوالى] سرعه واحضر ابانا وامر باعتقاله فى موضع ضيق، ووكل به حفظه يحفظونه، وعول على عقوبته الى ان يدفع له الف دينار. وهو صابر ولم يزل يهدده الى ان استقر الحال على اربع مايه دينار، وفى جميع هذا الضربان يتزايد عليه والدم يجرى من تحته ولا ينام ليلا ولا نهارا ، ولم يقدر له على طبيب يداويه، ولم ينفع فيه دوا.

وعرفت نوباديا ومقرة بعد اتحادهما باسم النوبة، كما عرف ملك المملكتين باسم عظيم النوبة وعاصمته دنقلة [١] غير أن نقش تافه الخاص بالملك مرقوريوس والمكتوب سنة ٧١٠م يدل على أن هذا الحاكم يحمل لقب «ملك» ويشمل نفوذه جميع أجزاء مملكة النوبة المتحدة ـ نوباديا ومقرة. وإلى جانبه حاكم يحمل لقب نائب ملك Eparch [٢] ويباشر سلطاته فى نوباديا (مريس). وجاء فى سيرة البطريرك ميخائيل (٧٤٤ - ٧٦٨م) التى جمعها ساويرس أن الملك كيرياكس Cyriacus (٧٥٠م) يسيطر على ثلاثة عشر ملكا [٣]. ولهذا أطلق عليه

= مثل هذه الوظائف التى تحمل ألقابها. إذ لا يمكن أن نتصور مملكة حديثة النشأة لم يمض على تأسيسها أكثر من ١٥ عاماً أن تطبق النظم البيزنطية بنصها وفصها، على حين أن حضارتهم التى سبق أن أشرنا إليها ، فى حضارة المجموعة الثقافية لا توحى بمثل هذا النظام الذى لابد أن يمر فى مراحل حضارية طويلة وأن يعتمد على أسس ثقافية عميقة.

De Villard op. cit. p. 86.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص ٢٠٠ ، نص عقد الصلح الذى عقده عبد الله ابن سعد لعظيم النوبة «وأهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة».

(٢) إن اتحاد المملكتين نوباديا ومقرة تم على أساس أن تحتفظ كل من المملكتين باستقلالها الداخلى . ويظل حاكم المملكة الشمالية نوباديا أو مريس فى منصبه يحمل لقب eparch «نائب ملك». والظاهر أن النوبيين احتفظوا بهذا اللقب حتى بعد أن شغر هذا المنصب بانسحاب نائب الإمبراطور البيزنطى فى نوباديا على أثر خروج البيزنطيين من مصر ، ثم أطلق هذا اللقب على ملك نوباديا بعد اتحاد مملكته مع مقرة. أنظر:

De Villard, ;op. cit. p. 86.

(3) Griffith, FLI. Christ. Documents from Nobia. P. 28.

وكـان الاب مـعـتـقـلا على الاربع مـاية دينار، ويدعـو لله ليـلا ونهـارا قـايلا: ليـدخل اليك يارب ابتـهـالى وتنهـدات المعلولين الاسـرى. واقـام تحت الضيق اياما وهو يهدده ويخوفه بسبب احـضـار المال . وكـانو تلاميذه واصحابه تحت حزن عظيم وقلق، فاشـارو عليـه بدفع المال، فـقـال لهـم الذى عليـه روح النبـوه: ان كـان مـا نخـرج من هذا الموضع حتى ندفع ما طلبه هذا الظالم، ففى اليوم السابع من دخولنا اليه يظهر ما يتعجب كل احد

لقب «الملك الكبير» [١] أوملك الملوك [٢] وعرف باسم ملك النوبة[٣] أو كابيل ملك مقرى ونوبة [٤] وعرف أحيانا باسم كاسل [٥].

واتخـذ ملوك النوبة عـادة شـارات للملك منهـا: السرير (العـرش) ويصنع فى الغـالـب من خشب الأبنوس، والتاج وهو مرصع بالأحجار الكريمة يعلوه صليب ذهب [٦]، ثم المظلة ترفع على رأس الملك فى المواكب[٧].

---

(١) أبو صالح ص ١٢٥.

(2) De Villard, :op. cit. PP. 97 - 99 - 172.

(٣) المسعودى : نفس المصدرجـ٣ ص ٣١.

(٤) ياقوت معجم البلدان: ص ٣٢٣ -- «وملوكهم يزعمون أنهم من حمير ولقب ملكهم كابيل وكتابته إلى عماله وغيرهم: من كابيل مالك مقرى ونوبة» وربما كان أصل كلمة كابيل من قبل. وهو لقب أطلق على بعض أمـراء اليـمن، ابن هـشـام سـيـرة النبى جـ٤ ص ٢٥٨. ويقـول دى فـيـار ص ١٧١: وليس بمستبعد أن الأسرة المالكة النوبية ترجع فى أصلها إلى جنوبى الجزيرة العربية، واذ عبر الحميريون البحر الأحمر واستقروا فى السـودان حيث نقلوا أسـماء أجدادهم - مثل كوة - دارو - سبأ ولايبعد أن تكون الأخيرة حرفت إلى سويا (العاصمة).

(٥) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٩.

(٦) أبو صالح ص ١٢٥.

(7) De Vill ard: op. cit . p. 178.

منه من احكام الله التى تظهر سرعا، ثم دفع
الاربع مايه دينار واطلقوه هو من كان معه فى
الحبس. وانا كاتب هذه السيرة الحقير كنت معه فى
السجن، الرب الشاهد لقد اتم كلام هذا القديس
فى اليوم السابع من وزنه الدنانير ونحن عنده حتى
دخلو اليه قوم اعلموه بوفاة الوالى، وأن مناديا
ينادى فى الأسواق للناس قومو ادفنو الوالى، فمجد
كل احد الله صانع العجايب مع قديسه. وصارو

وتمتع ملوك النوبة بسلطان مطلق على رعاياهم، فالملوك يملكون الأرض ومن عليها، ورعاياهم عبيد لهم، لاحق لهم فى امتلاك الأرض أو التصرف فيها ببيع أو شراء[١].

ولا خلاف بين الروايات التاريخية على أن نظام وراثة العرش النوبى كان يسير على نظام الأمومة [٢]. ومن الدلائل على هذا قول أبى صالح «إن عادتهم جارية بأنه إذا مات ملك وخلف ولداً وكان له ابن أخت فيملك بعد خاله دون ولد الملك، وإن لم يكن له ابن أخت يملك ولده بعده بلاد النوبة» [٣]، وسواء تمسك النوبيون بهذا النظام أو خالفوا بعض قواعده، فالمعروف أن وراثة العرش لم تخل من وقوع اضطرابات لسبب أو لآخر، بدليل ما جاء فى سيرة الأنبا ميخائيل من أم الملك زكريا بن مرقوريوس الذى خلف أباه على عرش النوبة سنة ٧١٠م آثر التفرغ للعبادة واختار لعرش النوبة أربعة ملوك تولوا الحكم واحدا بعد الآخر آخرهم كرياكس، ولم تخل هذه العملية من حوادث قتل واغتيال ذهب فيها أحد الملوك المتنافسين على العرش[٤]. وارتقى عرش النوبة ملوك لا تعرف صلتهم بهذه السلسلة حتى جاء الملك

(١) المسعودى : نفس المصدر، جـ٣، ص ٤١.
(٢) نظام الأمومة – أى توريث ابن البنت أو ابن الأخت Matrelineam System وهو نظام حامى قديم ولازالت بعض الجماعات السودانية تسير عليه حتى الآن.
(٣) أبو صالح ص ١٢٥.

(4) De Villard : op. cit. p. 96 - 97.

اهل البلد يبجلون الاب ويكرمونه لما صبر عليه من الشدايد، الاحزان والضيق. وان الله قد خلصه من جميعها ويظهر على يديه العجايب.

ولما ناله من الضيق والحزن والشده و اراد الله ان يريحه من هذا العالم ويدعوه الى المساكن النيره ليكون فى الحياة الابديه كما وعد القديس وقال تتنعم الى الابد وتحيا الى الدهر. فاعتل بعد ذلك البطرك بحمى، وفى اليوم السابع من مرضه افتقده الرب واخذه اليه وتنيح فى اليوم الثالث

زكريا بن يوحنا [١] ٨٢٣٠م) الذى عهد بولاية العهد لابنه جورج [٢] وتشير بعض المصادر السورية [٣] إلى زواج الملك زكريا هذا من أميرة من بيت الملك لكى يضفى على نفسه صفة الصلة الملكية، وأنه ظل يباشر سلطاته نيابة عن ابنه القاصر حتى بلغ سن الرشد. ومن الجائز أن زكريا هذا أحدا أفراد البيت الملكى بعلوة، وانتهز فرصة الاضطراب فى مملكة النوبة وضمها إليه، بدليل ما جاء فى بعض النصوص النوبية الخاصة بهذا الملك بأنه «نادى بنفسه ملكا» وهذه عباره غريبة على البروتوكول الملكى النوبى. والراجح أن اتحاد المملكتين «مقرة وعلوة» كان مؤقتا وتم بقوة السلاح [٤] ويبدو أن هذه العملية تكررت أكثر من مرة بدليل ما جاء فى قول المسعودى وأبى صالح من أن مقرة وعلوة كانتا تحت حكم ملك واحد [٥]. ثم أن ثمه

(١) تطلق المراجع العربية على هذا الملك اسم زكريا بن بخنس ، بيد أن هذه التسمية خطأ وربما كان اسم أبيه يحنس (يوحنا) وقرئت خطأ بعد قلب الياء باء والحاء إلى خاء

Ibid : op. cit. p. 106.

(٢) هو جورج الأول ابن زكريا وهو الذى قام برحلة إلى بغداد وحصل من الخليفة . المعتصم على وعد بتخفيف البقط كما سيجئ ذكره بعد، ويطلق عليه المقريزى اسم قيرقى.

(3) Michel Le Syrien : Chronique .. III. PP. 94 - 95.

(4) De Villard :op. cit. p. 100 - 106.

(٥) المسعودى: جـ٣ ص ٣١ «فأخبرت أن الملك للنوبة فى مدينة دنقلة كبرى ابن سرور وهو ملك ابن ملك فصاعدا وملكه يحتوى على مقرى وعلوة». أنظر أبو صالح ص ١٢٥ . «ملك النوبة له النوبة وأعمالها وأرض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها».

والعشرين من بابه سنة خمس ماية وست وستين(*) للشهدا، وكان يوم احد، وقت تناول السراير المقدسه.

(*) ٥٦٦ قبطية = ٨٥٠م = ٢٣٦هـ.

وكان مدة مقامه على الكرسي الإنجيلى الرسولى تمانى عشره سنه واحد عشر شهرا. وحملو جسده الى مدينة اسكندريه وجعلوه عند ابايه القديسين بمجد وكرامه، بكى الشعب عليه بدموع كتيره من اهل اسكندريه رجال ونسا لعدمهم رجلا ثبتا مجاهدا ونال أكليل الغلبة.

نزاعاً نشب داخل البيت الملكى النوبى على عهد جورج الأول. إذ ثار عليه ابن أخته وزوج ابنته نيوتى. بيد أن الملك جورج رصد له من يقتله [١]. فطالب ابن نيوتى بالعرش وبدأ صراع عنيف بينه وبين ابن الملك جورج.

الخلاصة أن ملوك النوبة توارثوا عرش آبائهم مخالفين فى هذا المبدأ الوراثى القديم الذى قام على أساسه المجتمع النوبى، على أن مخالفتهم لهذه القاعدة لم تدم. طويلا. ومنذ القرن الحادى عشرالميلادى أمست عملية انتقال الملك إلى ابن الأخت هى الظاهرة التى سادت التاريخ الملكى النوبى. ويذكر أبو صالح أن أحد ملوك النوبة ويدعى سلمون تنازل عن العرش لابن أخته زهدا فى الدنيا ورغبة منه فى التفرغ للعبادة فى إحدى الكنائس المصرية [٢].

(١) المقريزى: المقفى، مخطوط ، جـ٤، ص ١٦٦.

(٢) نزل هذا الملك ضيفاً على الخليفة المستنصر بالله الفاطمى الذى أحسن وفادته . وبعد موته دفن فى دير مارى جرجس - أبو صالح ص ١٢٤ - ١٢٥ «...كان يتعبد فى البيعة سلمون ملك النوبة لما نزل على الملك وخلع نفسه وقال من ذا الذى من الملوك يخلص من الحكم بين الناس من قبل الله تعالى ولم يميل مع الهوا ولم يسفك الدما ظلماً ولم يغتصب الناس لما لم يستحقه عليهم. فأنهى حاله إلى والى الصعيد الأعلا وهو سعد الدولة القواس فى خلافة المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش بدر، فسير من أخذه من هناك ووجه به إلى القاهرة. ولما وصل إلى الباب أكرم كرامة عظيمة... وبعد إقامته مدة تنيح ودفن فى دير القديس مارى جرجس بالخندق فى بطركية كيرلس وهو السابع والستين فى العدد وقبره من داخل سور البيعة مجاور الباب على يمين الداخل إليها.» أنظر روفيلة : تاريخ الأمة القبطية ص ١٤٠ ـ ١٤١.

وهذا ما شهدته بعينى واقتصرت على ما شرحته من كترة عجايبه ونحن ندعو الى الرب ان يجعل صلواته معنا.

ويجب عليكم يا ساداتى القديسين ويجب على ايضا ان اعلمكم تمام نبوته مما كان قاله لى وهو فى الحياه، وتممه الرب بعد وفاته ليتعجب من يسمع ويمجد الله الممجد بمختاريه، وقد بديت وقلت ان فى الزمان الذى انزل قاضى الظلم على الاب البلايا بمصر قال: ان كنت انا خاطيا فان

والراجح أن النوبيين تمسكوا بمبدأ توريث ابن الأخت أو ابن البنت. وثبت مبدأ الوراثة على هذا النحو، وأضحى ركنا من أركان سياستهم التى ساروا عليها فيما بعد. غير أن هذا النظام لم يؤد إلى استقرار علاقة المتملكين وأولياء عهودهم من البيت الملكى النوبى، بل خلق مشاكل لم يكن من الهين عليهم حلها لصالح مملكتهم، فظهر الانقسام والتخاصم بينهم، مما أدى فيما بعد إلى سقوط المملكة المسيحية فى الشمال.

وجرى حكم الأقاليم على ما تقدمت الإشارة إليه من تعين ثلاثة عشر حاكما إقليميا أطلق عليهم جميعاً لقب الملوك الخاضعين للملك الكبير بدنقلة [1]. وناب أولئك الحكام (الملوك) عن الملك الكبيرفى حكم الأقاليم، وكان عليهم إقامة الطقوس الدينية مثلما يفعل الكبير تماما، حتى وصفهم أبو صالح بأنهم «جميعهم كهنة [2]». أما طبيعة وظائفهم الإدارية فلم يصلنا عنها شئ لعدم تعرض المؤرخين العرب أو غيرهم لهذا الموضوع، ومما لاشك فيه أن

(١) يفرق أبو صالح ص ١٢٥ بين هؤلاء الملوك وملك مقرة فأطلق على الأخير لقب الملك الكبير، أما هؤلاء الملوك الذين تحت طاعته فهم أشبه بالمكوك (جمع مك) الذين تولوا حكم الأقاليم فى عهد دولة الفونج وكانوا خاضعين للسلطان أو المانجل.

(٢) أبو صالح - ص ١٢٥ «وعدة ملوك النوبة ثلاثة عشر ملكا هؤلاء ضابطين البلاد وجميعهم تحت طاعة كريا كوس الملك الكبير وجميعهم كهنة...».

الله ينزل على هذا الرجل الظالم انتقاما لجل فعله ولكن ليس فى ايام حياتى بل بعد وفاتى.

ولما تنيح كان فى ذلك الزمان ملك للمسلمين اسمه جعفر بن إبرهيم(*)، فانفد الى مصر رجلا اسمه يعقوب بن إبرهيم ليكشف احوال مصر ويعرفه بها، فلما وصل اليها عرفوه بامر من الله حال القاضى الظالم وافعاله الرديه التى فعلها سرا وجهرا، فعند ذلك اخذه متولى الترتيب بغته ولم

(*) هو الخليفة هارون أبو جعفر الملقب بالواثق. تولى الخلافة بعد وفاة المعتصم فى ٧ فبراير ٨٤١م = ١٨ ربيع ثانى ٢٢٧هـ = ٥٥٨ قبطية.

حاكم مريس، كان أعظم هؤلاء الملوك وأكثرهم خطرا، وسماه المؤلفون العرب باسم صاحب الجبل [١].وأتخذ مدينة نجراش [٢] (فرس) عاصمة له. واتخذ هذا الملك فى اقليمه شارات خاصة وهى العمامة ذات القرنين والسوار الذهبى [٣]. وعثر على صورتين تمثل صاحب الجبل فى زيه وشاراته: الأولى فى كنيسة عبد القادر والثانية فى فرس. وتمثل الصورة الأولى صاحب الجبل لابسا على رأسه عمامة يبرز منها قرنان، والعمامة مزينة فى واجهتها الأمامية بمثلثين متعاشقين، وهما رمز سليمان وفوقهما هلال صغير . وتمثل الصورة الأخرى صاحب الجبل

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٩٠ يقول ايمن سليم: «... ولهذه الناحية (مريس) وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام». وأطلق أبو صالح ص ١١٩على هذا الملك لقب جوسار، ثم أطلق عليه صاحب الجبل. وربما ذكر أبو صالح اسم جريس الذى تولى منصب صاحب الجبل سنة ١٢٨٧ أى زمن أبى صالح ثم حرف إلى جوسار بدلا من جريس:
De Villard : op. cit. p. 135.

(٢) أطلق المقريزى جـ١ ص ١٩٠ على عاصمة مريس اسم نجراش على حين أن أبا صالح ص ١١٩ يطلق عليها اسم بجراس Bujaras والاسمان يطلقان على فرس الحالية قرب الشلال الثانى Griffiih, FLI: Faras... JEA. XI. p. 267.

(٣) أبو صالح : ص ١١٩) «بجراس Bujaras مدينة المريس.. وبها مقام جوسار اللابس العصابة Turban والقرنين والسوار الذهبين» ثم يعود فيقول «... مدينة تعرف بمدينة بوسقا مدينة حسنة.. وبها مقام صاحب الجبل» . أما بوسقا فغير معروفه.

يعلم فظهرت جميع أعماله المرايه [المرائية] التى يرا [يرائى] بها الناس، وافعاله الباطنه النجسه الذميمه. فاخذه واشهره فى جميع شوارع مصر وحلق لحيته ونظف راسه. وكل احد يشاهده، ورماه الحبس نهب ماله.

وكل من كان ينطوى عليه من اصحابه تبددو فى كل موضع حتى اولاده، ثم نفاه الى مدينة الملك ومات هناك بموتة سو.



صورة إيبارك (هيزارك) صاحب الجبل، حاكم أقليم مريس وجدت قرب كنيسة فرس التى بنيت بالحجر على خلاف بقية كنايس النوبه. ويبدو الملك هنا حاملاً بيده نموذج كنيسة يبدو أنه مؤسسها والقديس راعى هذه الكنيسة أعلاها. كما أن السيد المسيح يحتضن إيبارك ويسانده.

ومن الملاحظ على هذه الصورة اشتمالها على عدة رموز هامة منها تاج الملك الذى يحتوى على هلال وقرنين ونجمة سداسية. أما القرنان فيبدو أن استعمالهما كان استمراراً لعبادة أمون، الهلال هو فى الغالب أحد الرموز للأله القمر القادم من اليمن. والنجمة هى رمز سليمان ملك اليهود، ونحن نعرف أن اليهودية دخلت اليمن فى القرن الخامس الميلادى على وجه التقريب.

والقـاضى النايب عنه باسكندريه الذى امـر بضرب الاب انبا يوساب، عمل به مثل صاحبه واسـر وهرب بعـد ذلك ولم يرجع احـد يراه فى المدينه، ولم يعـاينه احـد الى الان. وكل من نظر هذا او سمع به تعجب ومجد الله بسبب هذين الظالمين اللذين تم عليهما استحقاقهما والانتقام منهما كما هو مكتوب: جاهل وغير فهم يهلكان جميعا.

لابسا سواراً فى كلا ذراعيه لا تختلف كثيراً عن الأولى، ماعدا بعض زخارف على شكل قلب[1].

وتمتع صاحب الجبل فى إقليم مريس بسلطة لا تقل عن سلطة الملك الكبير، فكان عليه الدفاع عن حدود المملكة النوبية فى الشمال ضد أى غزو خارجى، وعدم السماح لأحد بالدخول إلى ما وراء الشلال الثانى مهما كان مركزه إلا بإذنه [2] ولهذا أقيمت مراكز

(١) تعتبر عادة لبس السوار الذهبى مظهراً من مظاهر السلطة، وهى عادة مأخوذة عن ملوك مروى الذين تبدو صورهم وأذرعتهم مضمومة وتحمل أساور ضخمة على جدران معبد النقعة قرب كبوشية وكذلك فى أهرام مروى، وهى تمثل ملوك مروى. ونسمع عن أسرة تعرف بسوار الذهب فى العصر الحاضر فى دنقلة. أما القرنان فيبدو أن استعمالهما كان استمراراً لعبادة آمون . ويرى دى فيار أن العمامة ذات القرنين و والمظلة والتاج من الشارات الملكية الساسانية التى وصلت إلى النوبيين إما عن طريق مصر أيام احتلال الفرس لها ما بين (٦١٦-٦٢٧م)، وإما وصلت عن طريق اليمن، لأنهم احتلوها مدة غير قصيرة ، وأن وجود الطاقية أم قرنين عند ملوك الفونج يؤيد وصولها من ناحية الجنوب. أما عن رمز سليمان فهو أثر يهودى، ونحن نعرف أن اليهودية دخلت اليمن فى القرن السادس وربما قبل ذلك أيضا. ولا يبعد ان يكون هذا الرمز مأخوذا عن الحميريين الذى وصلوا إلى وادى النيل الأوسط. أنظر الصورة فى الصفحة السابقة.

(٢) المقريزى : جـ١ ، ص ١٩٠ «وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هى ساحل واليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم، ولا تتجاوزها المراكب ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بأذن من صاحب جبلهم» وفى موضع آخر «... ولا يطلق لأحد أن يجوزها إلا بأذن الملك (صاحب الجبل) ، ومن خالف كان جزاؤه القتل كائنا من كان . وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتى أن العسكر منهم يهتم على البلد إلى البادية وغيرهم فلا يعلمون به».

ذكرنا لمحبتكم جهاد الاب القديس انبا يوساب ونذكر لكم فعله طول زمانه ومدة مقامه على الكرسى.

لم يشغل قلبه ولا شغله ما نزل عليه من الامور الصعبه بل كان مداوم الصلوات ليلا ونهارا، وكان يختم قراية المزامير فى كل يوم، خمسه وسبعين مزمور بالنهار، وخمسه وسبعين مزمور الى نصف

عسكرية لمراقبة المرور ومنع تسرب أخبار البلاد إلى الخارج.وربما كان هذا الاحتياط الشديد لمنع تسرب العرب إلى ماوراء أطراف مريس جنوباً [١].

لم يقتصر مقام صاحب الجبل على مدينة فرس وحدها، بل كان مضطراً لأسباب حربية أو إدارية أن ينتقل من مدينة لأخرى. وذكر أبو صالح عدة مدن جرت عادة صاحب الجبل أن ينتقل بينها وهى: إبريم [٢]، ونجراس ويوسقا والدو [٣] وجزر ميخائيل [٤].

وإلى جانب الحكام الإقليميين فى مملكة النوبة كانت هناك طبقة أخرى من صغار الموظفين يحملون ألقاباً بيزنطية. ومن بين هؤلاء الموظفين من كان فى خدمة الملك مباشرة، ومنهم من كان فى خدمة صاحب الجبل . غير أن معظم ألقاب هؤلاء الموظفين غير واضحة ومنها: خادم

(1) De Villard, : op. cit. p. 187.

(٢) أبو صالح ص ١٢١ «ومن بلاد النوبة مدينة إبريم وهى سكن صاحب الجبل». وكانت هذه المدينة طوال الاحتلال العثمانى لمصر مكان لنفى المغضوب عليهم من الامراء المماليك، وقد استوطنها عدد من المماليك بعد مذبحة القلعة فى عهد محمد على.

(٣) جاء فى المواعظ والاعتبار ذكر بلدة أدواء التى ينسب إليها لقمان وذو النون المصرى، وأطلق عليها بورخـــارت اسم Adda أو الدر. غير أن دى فيار يرى أنها داود نسبة إلى شيخ بهذا الاسم سكن فيها وأخذت اسمه وهى تقع عند مدخل وادى الزرقاء.

(٤) وهى ذات أهمية استراتيجية هامة لوقوعها عند مدخل الشلال الثانى
De Villard, : op. cit. p. 140.

الليل، خارجا عما كان يقول من التسابيح بابتهال
للرب ومسكنه وخشوع. وهذه التى كان عليها
طول ايام حياته، اعنى التواضع والرحمه والسكينه
والعفاف، وملازمة الصلوات واعطا الصدقات.
حتى انه بعد هذه السنين التى اقامها بطركا كان
همه وفكره وحواسه مثل من هو فى ركن من
قلايه بوادى هبيب. فنال بذلك اكليل اعماله من

الملك أو أمين خاص الملك Domesticos، وأمين أول القصر الملكى Protodomesticos، وهى وظيفة كبيرة كان يشغل صاحبها إما منصب حاكم، أو أن يقوم بعمل القاضى أو يباشر بعض الشئون المالية. هذا فضلا عن حكام المدن، كحاكم مدينة درمس [(١)] الذى أشار إليه أبو صالح. ولابد أنه كان فى بلاد مريس موظف لمراجعة أوزان العملة حيث كانت العملة متداولة، بدليل ما جاء فى وثيقة عثر عليها فى مهندى «تسلمت ثمن أربع عملات طيبة ووزنها صحيح»، وأخرى فى نفس المدينة تدل على وجود موظف للإشراف على إصلاح المنازل. ومهما يكن من أمر فإن العدد الكبير من ألقاب الموظفين لم يعرف لها نظير، وتدل على مدى التعقيد فى الإدارة النوبية [(٢)].

(١) أبو صالح ص ١٢٥ « مدينة درمس من بلاد النوبة بها بيعة جليلة القدر حسنة الوضع مطلة على البحر فيها صفة صورة الملك الكبير وصورة صاحب درمس» ودرمس هذه هى تالمس (كلابشة الحالية).

(٢) كتبت هذه الألقاب باللغة النوبية وليست باليونانية أو القبطية، ومن عوامل تعقيدها واضطرابها أنها أخذت أصلا النظم البيزنطية وطبقت على الوظائف التى خلفها العهد المروى وما دخل عليها من تقاليد بدائية، على حين أن الشعب ظل محتفظاً بالألقاب والوظائف القديمة. وبمضى القرون اختفت التقاليد البيزنطية من مصر بعد دخول العرب فيها واختفت معها الألقاب التى تخلفت فى بلاد النوبة ولم يكن لها أساس أو معنى فى أذهان الناس، ثم حلت محلها أسماء وألقاب نوبية مما يستعملها الشعب وعادت بعض الألقاب المروية إلى الظهور من جديد فى الإدارة النوبية وهذا هو سر تعقيدها.
أنظر De Villard : op. cit. pp. 193 - 194.

الرب يسوع المسيح وصار مع القديسين فى كورة الاحيا، والمجد للاب والابن وروح القدس الى الابد امين.

تم الجز التانى من سير البطاركه القديسين صلواتهم تكون معنا وطلباتهم تحرسنا امين.

أما عن التنظيمات السياسية فى مملكة علوة فإن المراجع لا تذكر عنها شيئا يستحق الاهتمام. ويغلب على الظن أن نظمها السياسية تشبه ـ إلى حد بعيد ـ نظم الحكم فى مملكة النوبة (مقرة) ، فكبيرها عرف باسم «ملك علوة» وعاصمته صوبة [1] ، التى أطلقت عليها بعض المراجع المتأخرة اسم كوسة [2]. واتبع ملوك علوة نظام الأمومة فى وراثة العرش [3]. والراجح أن ملوك علوة تمتعوا بسلطة مطلقة على رعاياهم مثل ملوك مقرة. فالملك هو صاحب الأرض والشعب كله عبيده لا يخالفون له أمرا ولا يعصونه بدليل قول ابن سليم «وملكهم يسترق من شاء من رعيته بحرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره [4]». ولا نعرف من شارات ملكه سوى التاج.

---

(١) المقريزى : جـ١ ، ص ١٩٣.

(٢) الدمشقى : ص ٢٦٨ «النوبة صنفان أحدهما يقال لهم علوا وملكهم يسكن مدينة تسمى كوسة والآخر يسمى مقرا وملكهم يسكن دنقلة».

(٣) يؤكد ابن حوقل ، ص ٥٦ هذه الظاهرة بعد أن حققها بنفسه خلال زيارته لعلوة فيقول «ومن أعمر بلادهم فى أرض علوة... وكان ملكهم وأنا بالناحية أسانيوس ارجوه بن حوقى وقد خلا له فى ملكه سبع عشرة سنة، وتوفى فى مجلس ابن أخته أسطانيوس ابن بركى وهو مقيم فيهم إلى وقتنا هذا . ومن سنة جميع السودان إذا هلك الملك أن يقعد ابن اخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل».

(٤) المقريزى: جـ١ ص ١٩٣.

لا محل للخلاف فى أن الطابع العام لحكومة الأقاليم فى مملكة علوة يشبه ما كان معمولا به فى دولة مقرة. اذ انقسمت المملكة إلى ولايات عرفت كل واحدة مها بالمملكة وعلى رأس كل منهـا ملك [١]. وكان ملك إقليم الأبواب الواقع فى شمال المملكة (منطقة كبوشية الحالية) ، أعظم أولئك الملوك الإقليمين قدراً وأعلاهم مقاماً.

* * *

وفيما يتعلق بالمجتمع النوبى المسيحى فقد اتفقت جميع الروايات التاريخية على أنه كان يتألف من طبقتين : الأولى وهى الطبقة الحاكمة، وتشمل الأسرة المالكة وعلى رأسها الملك الكبير سواء فى دنقلة أو فى سوبا، هذا فضلا عن حكام الأقاليم (الملوك). والطبقة الثانية هى طبقة العبيد، وهم عامة الشعب النوبى. وبين هاتين الطبقتين قامت فئة الموظفين، وقد تولى أفراد هذه الفئة مختلف الوظائف الملكية فى العاصمة والأقاليم، ولابد أن عددهم كان محدوداً . ومن الواضح أن الطبقة الحاكمة الشاملة للأسرة المالكة وفروعها هى وحدها التى مارست حقوقا سياسية ودينية [٢].

ويزعم بعض الكتاب ومنهم يوحنا النقيوسى والمسعودى وابن سليم والمهلبى أن ملوك النوبة يرجعون إلى أصل حميرى [٣] ويبدو أن المجتمع النوبى يشكل نوعا من الاقطاع غريبا فى تركيبه، ولم يعرف له نظير فى الإقطاع الأوربى أو غيره. فالملك هو صاحب الأرض، ولابد أن طبقة الحكام فى الأقاليم كان لهم نفس هذا الحق. أما الشعب فلا أملاك له، وهم عبيد الملك،

---

(١) سبق أن أشرنا إلى الأقاليم التى تتكون منها مملكة علوة والتى جاء ذكرها فى مخطوطه قلاوون، ولا حظنا أن حكام هذه المقاطعات عرفوا جميعاً باسم ملوك، كما عرف حكام مقاطعات مقرة بهذا اللقب كذلك. ومعنى هذا أن هاتين المملكتين الكبيرتين - مقرة وعلوة - كانتا تحتويان على عدد كبير من الممالك.

(٢) أشرنا من قبل إلى أن ملك النوبة وملوك الأقاليم مارسوا إقامة الطقوس الدينية وقاموا بأعمال القسس.

(٣) المسعودى: مروج الذهب جـ٢ ، ص ٣٧٢، ٣٨٣ جـ٣ ص٣١، ٣٣، ٣٤ «ملوكهم تزعم أنها من حمير».

المقريزى : جـ١ ص ـ١٩١ ، يقول ابن سليم «ويقال إن سلحا جد النوبة ومقرى جد المقرة من اليمن . وقيل النوبة ومقرى من حمير «أنظر .De Villard : op. cit. p. 160 وانظر كذلك Michael : op, cit. I. p. 168. ويرى دى فيار أن الشارات الملكية النوبية جاءت من بلاد اليمن على يد الحميريين الذين هاجر فريق منهم إلى النوبة حيث كونوا طبقة حاكمة، أنظر ص ٨٦. وكذلك De Villard p. cit. p. 185.

يعملون فى الأرض لصالح سادتهم [١]، يباعون ويشترون ويهدى بهم ويقومون مقام العملة.ويوضح ذلك أن العملة لم تعرف ببلاد النوبة إلا فى منطقة مريس، أماما وراءها جنوبا فالرقيق يقوم مقام العملة فى البيع والشراء. فيقول ابن سليم الأسوانى «ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه فى تجارة أو هدية إليه (صاحب الجبل) أو إلى مولاه، يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق»، ثم يضيف «ولا يجوزها دينار ولا درهم ، إذ كانوا يتبايعون بذلك إلا دون الجنادل مع المسلمين، ما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء، إنما هى مقايضة بالرقيق والمواشى والجبال والحبوب» [٢].

* * *

وفيما يتعلق بالتنظيمات الكنسية تشير جميع كتابات المؤرخين العرب والمصادر القبطية كذلك إلى أن بلاد النوبة اتجهت فى زعامتها الروحية إلى الكنيسة المصرية [٣]. ويقصد بالنوبة هنا جميع بلاد مريس ومقرة وعلوة، وبدليل أن المقاطعات الكنسية التى أوردها فانسليب Vansleb [٤] فى قائمته تشتمل على مقرة وعلوة وهاتان المقاطعتان الكنسيتان تشتملان على ثلاث عشرة أسقفية تابعة للكنيسة المصرية ومن هذه الأسقفيات : سبع فى مريس وهى كورته وإبريم وفرس ودنقلة وساى و تالمس (كلابشة) وشنقير[٥]. وأسقفيات علوة هى : بورا وجاجورا ومارتن وأروديـاس وبنازى ومنكيزا[٦].

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٣، ص ٤١.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ، ص ١٩١.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ، ص١٩٣.
انظر أيضاً Roeder: op. cit. p. 384.
وكـــــذلك Renaudot : op. cit . pp. 178, 222.
(4) Vansleb, J.M. : Hist de I'Eglise D' Alex. Fonde par S. Marc. PP. 29-30.
لا شك أن قائمة فانسليب تحتوى على تحريف كثير لأسماء المدن والمقاطعات النوبية وهى تحتاج إلى تحقيق أنظر Crawford : op. cit. p. 26.
(٥) ذكر فانسليب هذه الأسقفيات محرفة وقد حاولنا تحقيقها كما هو واضح فى المتن. وبعد أن ذكر فانسليب أن بالنوبة مقاطعتين كنسيتين هما مقرة وعلوة ، عاد فذكر أن أسقفيات مريس هى كذا وكذا. على حين أنه كان يجب عليه أن يذكر مقرة بدلا من مريس، وذلك لأنها تحتوى على أسقفيات لاتقع فى حدود مريس ومنها . دنقلة، وساى، وشنقير. وهذا خلط فى الأسماء.
(٦) من الصعب تحقيق هذه الأسماء فلا يوجد الآن ما يشبهها أو ماهو قريب منها. وموضع الصعوبة فى قائمة فانسليب هو أنه نقل هذه الأسماء من مخطوط عربى أو قبطى، غير أنه لم يتمكن من مقابلتها=

غير أن الكنيسة الملكانية لم تتخل عن حقوقها الدينية القديمة فى بلاد النوبة، وجاءت قوائم أقاليمها الكنسية متضمنة وجود أسقفية مريس ومطرانية نوبة [١]. لكن إذا جاز للكنيسة الملكانية أن تدعى نفوذا دينيا فى بلاد النوبة فهذا النفوذ لم يشمل مريس (نوباديا) بل اقتصر على مقرة ولمدة لم تتعد أوائل القرن الثامن الميلادى، بسبب تحول أهلها إلى مذهب الكنيسة المصرية . وبهذا أصبح لبلاد النوبة كلها «مريس - مقرة - علوة» كنيسة موحدة على رأسها مطران يعينه بطريرك الكنيسة المرقية ويتولى المطران رسامة أساقفة وقساوسةالبلاد جميعاً [٢].

والراجح أن أساقفة الكنيسة فى بلاد النوبة كانوا يرسلون من مصر، فيقول أبو صالح «ملك النوبة له النوبة وأعمالها وأرض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها.. وهى كرسى مارى مرقس الإنجيلى ومنه يقسم لهم» [٣] ويذكر أبو صالح أنه استمر العمل بهذا التقليد حتى أبطله الحاكم بأمر الله الفاطمى على عهد البطريرك زكريا (١٠٠٠ - ١٠٢٩م) [٤].

وشملت وظائف الاكليروس النوبى القسوس والشمامسة والمرتلين [٥]. وقد تقدمت الإشارة إلى ممارسة حكام الأقاليم (الملوك) وظائف كهنوتية علاوة على أعمالهم الإدارية. فكان من حقهم إقامة الطقوس الدينية داخل الهيكل، ويحرمون من ممارسة هذا الحق إذا ارتكبوا جريمة القتل [٦]. وقد يشغل القسيس أو الشماس منصباً إدارياً آخر إلى جانب وظيفته الدينية كموثق عقود أو أمين مخازن[٧].

=وتحقيقها، وثمة صعوبة أخرى وهى أنه نقلها بالأحرف اللاتينية فحدث تحريف وخطأ هجائى جعل من العسير مطابقتها على ما هنالك من أسماء، وعلى هذا فإن هذه المدن لا يعرف عنها شئ الآن.

De Villard. pp. 155 - 156 Crawford. p. 26.

(1) De Villard : op. cit. p. 130.

(2) De Villard :op. cit. p. 159.

(٣) أبو صالح ، ص ١٢٥ ، وترجمها بتلر فى حاشية ص ٢٧٢ من نفس الكتاب كما يلى:

"...Which consecrates (their bishops) for them".

(4) Roeder : op. cit. p. 386.

(5) De Villard : op. cit. pp. 166 - 167.

(٦) أبو صالح، ص ١٢٥ ، ويرى دى فيار أن هذه الصفة الدينية لملوك النوبة ربما ترجع إلى أصل فرعونى، وتسربت إلى الشعوب الإفريقية وظلت حتى العهد المسيحى فى بلاد النوبة. وأن فكرة النجاسة الناشئة عن قتل رجل منتشرة انتشاراً واسعاً. De Villard , P. 174 ولا تزال فكرة تقديس الملك أو الرئيس منتشرة عند الشعوب النيلية مثل رث (زعيم) الشلك.

(7) Ibid : op. cit. p. 167.

ويرأس الرهبان في الأديرة النوبية أرشمندريت «رئيس رهبان» . وورد في بعض النصوص أن الأسقف كان يتولى أحياناً منصب أرشمندريت[١] .

* * *

ويتضح من قول أبي صالح أن الطقوس الدينية بالكنائس كانت تودى باللغة اليونانية[٢] ، غير أنه في خلال القرن الثامن الميلادى أخذ النوبيون يترجمون الطقوس الدينية عن اليونانية إلى اللغة النوبية [٣] . ويقول جريفث إن أول نص كتب باللغة النوبية يرجع إلى سنة ٧٩٥م[٤] . غير أنها لم تصبح لغة مدونة إلا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى على الأقل[٥] .

ودخل اللغة النوبية عدد من الكلمات اليونانية والقبطية [٦] ، وكتبت بحروف ذات طابع قبطي، فضلا عن استعمال كثير من الحروف القبطية [٧] . وباستثناء بعض النقوش والكتابات المبعثرة هنا وهناك، فإنه لم يعثر إلا على سبعة مخطوطات باللغة النوبية تحمل الطابع الدينى ما خلا واحداً منها [٨] . وهذه المخطوطات وإن كانت عديمة القيمة من الناحية التاريخية فهى تلقى ضوءاً على طبيعة الأدب المسيحى في اللغة النوبية[٩] ، واهمها المخطوط الذى كتبه الملك سلمون وأشار إليه أبو صالح [١٠] . ويوضح هذا المخطوط ما كان يتمتع به هذا الملك النوبى

(١) يشير دى فيار إلى لوحة عثر عليها في قبر توماس أسقف فرس وتدل على أنه كان يشغل أيضاً وظيفة ارشمندريت في دير موراج
De Villard : op. cit.

(٢) أبو صالح ص ١٢٥ ، «وقداسهم روميا»ويرى بتلر حاشية ص ٢٧٢ . ونعرف من هذا الكتاب أن استعمال اللغة اليونانية في الطقوس الدينية ببلاد النوبة دليل على دخول المسيحية إلى هذه البلاد قبل أن تترجم الطقوس الدينية من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية في مصر أنظر

Budge, E, W. : Ethiopia, ... I, p. 117.

Budge, E. W. : The Egypt. Sudan II. P. 301.

Bulge, E. W.: Nubian Texts,pp. 7-10.

(3) Griffith. FLI : op. cit. p. 17.

(4) Griffith, FLI. : Oxford Ex. in Nubia, p. 55.

(5) Shinnie, P. L. ; Med. Nubia, P. 6.

ويرى شنى Shinnie أن اللغة النوبية القديمة ذات علاقة وثيقة باللهجة المحلية الحديثة المنتشرة ما بين الشلال الثانى وأبو فاطمة عند الشلال الثالث.

Ibid. : op. cit. pp. 6-7.

(6) Griffith, F. Ll.: The Nubian texts of Christian period. pp. 5-6.

(7) Shinnie, P. L. : op. cit.

(8) Ibid. : op. cit. p. 70.

(9) Roeder, : op. cit. p. 392.

(١٠) أبو صالح ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

من علم ومعرفة. وتشتمل بعض هذه المخطوطات على ترجمة فقرات من الإنجيل وترانيم عن صلب السيد المسيح ومناقبه إلى اللغة النوبية (١). ويحتوى بعضها الآخر على أعمال تشبه المعجزات قام بها الأسقف مينا، كما يحتوى على صورة تمثل هذا الأسقف، ممتطياً صهوة جواد وبيده رمح (٢)، وعلى الرغم من أن اللغة النوبية حلت محل اليونانية فى الصلاة إلا أن اليونانية ظلت تستعمل فى كتابة شواهد القبور حتى عهد متأخر يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى، على حين أنه لم يعثر على شاهد قبر واحد باللغة النوبية (٣).

ومما لاشك فيه أن اللغة القبطية كان لها نفوذ واسع فى بلاد النوبة. فهى علاوة على أنها كانت لغة الوثائق الرسمية حتى القرن العاشر الميلادى على الأقل (٤)، نجدها قد استخدمت فى أغراض دينية كذلك. وكثير من شواهد القبور التى عثر عليها مكتوب باللغة القبطية. وأحياناً تسود اللغة القبطية على اليونانية فى كتابة شواهد القبور فى بعض جهات النوبة. ويرجع ذلك فى الغالب إلى هجرة جماعات من الأقباط واستقرارهم فى جهات النوبة المختلفة(٥). ويبدو ذلك واضحاً فى منطقة دير الغزال قرب مروى (٦).

غير أن معلوماتنا عن لغة أهل علوة قليلة جداً لضياع معظم آثارها. ويبدو مما ذكره ابن سليم أن أهل علوة ترجموا الطقوس الدينية إلى اللغة النوبية (٧). بيد أن الدمشقى يقول أنهم يقرأون الإنجيل بلغة الروم (٨). ومهما يكن من أمر فإنه لم يصلنا من مخلفات علوة اللغوى سوى شاهدى قبر عثر عليهما فى سوبا، يرجع أحدهما إلى سنة ٨٩٧م. وبفحص نقوشه وضح بما لايدع مجالا للشك أنها لغة نوبية مكتوبة بحروف ذات طابع متميز عن حروف اللغة النوبية فى المملكة الشمالية. ويقول جريفث ليس فيها أى أثر للغة اليونانية أو الحروف

(١) عثر على بعض هذه المخطوطات بادفو فى صعيد مصر واشتراها ملك ألمانيا وهى الآن بمتحف برلين. Roeder : op. cit. p. 392.

(2) Ibid op. cit. pp. 392-3.

(3) Griffith, FLI. : Oxford Ex, in Nubia. p. 53.
Sbinnic, P. L. : op. cit. p. 7.

(٤) يقول جريفث إن الوثائق الرسمية كانت تكتب بالقبطية حتى القرن ١٠م ثم حلت محلها اللغة النوبية.
Griffith, F.LI. ; Christ. Doc. from Nubia pp. - 18.

(5) Griffith, F.LI. : Oxford Ex in Nubia. p. 53.

(6) Shinnie, P. L. : op. cit. p. 7.

(٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٩٣.

(٨) الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٩٩.

القبطية [١]. غير أن لبسيوس - اعتماداً على مخطوط بمتحف برلين يشتمل على أنواع الكتابة المستعملة عند الشعوب التى تتكلم اللغات الحامية - يرى أن الكتابة التى يستعملها أهل علوة تعرف باسم كيليكيا [٢] كما يرى لبسيوس أن الكتابة التى أمكن العثور على نموذجين منها بالمتحف البريطانى تشبه الكتابة القبطية باستثناء بعض الزيادات التى دخلت عليها [٣]. ويوافقه شنى على هذا، ويضيف أن الكتابات التى عثر عليها فى سوبا لا تحمل دعاء لله أو اسم صاحبها [٤]. والخلاصة أن لغة علوة تختلف فى طبيعتها وفى نوع كتابتها عن اللغة النوبية فى مملكة مقرة [٥].

وإذا كانت رغبة أهل مقرة فى الاستقلال بنوع خاص من الكتابة، هى التى دفعتهم إلى ترجمة الطقوس الدينية إلى لغة نوبية عامية كتبوها فيما بعد، فمن الصعب تفسير تمسكهم باللغة القبطية واليونانية دون النوبية فى كتابة شواهد القبور [٦]. وهناك احتمال أن استمرار كتابة شواهد القبور بالحروف القبطية واليونانية عائد إلى أن محترفى كتابة هذه الشواهد كانوا من مصر ولا يجيدون نقش الحروف النوبية. ومن الطبيعى أن هذه القبريات سواء القبطية أو اليونانية لم تخل من تحريفات لغوية إملائية، فضلاً عن أنها لا تعبر إلا عن اسم المتوفى وعمره وتاريخ وفاته وطلب المغفرة له من الله، وقد تشير إلى منصبه الكنسى ، لكنها لا تذكر شيئاً عن تاريخ حياته أو نسبه [٧].

أما عن علاقة الكنيسة النوبية بالكنيسة المصرية، فلا شك أنها كانت طيبة. وفضلا عن إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة فإن ثمة علاقة نشأت بين ملوك النوبة المسيحيين وبطاركة الكنيسة المرقسية. ولعل مصدر هذه العلاقة هو ما اجتمع لملوك النوبة من سلطة سياسية ودينية معاً. وهذه السلطة الدينية جعلت منهم ممثلين للكنيسة النوبية. واختلفت طبيعة هذه العلاقات من حين إلى آخر تبعا لما تقتضيه مصالح الطرفين . مثال ذلك أن البطريرك إسحق تدخل حوالى سنة ٦٩٠م لفض نزاع نشب بين ملك النوبة وملك الحبشة ، غير أن

(1) Griffith, F. Ll. : Christian Documents from Nubia p. 14.

(2) Budge, E. W.: Nubian Texts pp. 7-8.

(3) Ibid : op. cit. p. 8.

(4) Shinnie, P. L. : Excavations at Soba, SAS. , III. P. 50.

(5) Budge, : op. cit. p. 8.

(6) Growfoot. J, W. : Christian Nubia, JEA. XIII, P. 146.

(7) Crowfoot, J. W. : op. cit. P. 146.

وساطته لم يقدر لها النجاح لخوفه من بطش عبد العزيز بن مروان والى مصر إذ ذاك[١].
ومثال آخر أن خلافا نشب بين الملك زكريا ملك النوبة والأسقف كيرياكوس، وطلب الملك عزله، ولما لم يسفر التحقيق عن إدانة الأسقف . طلب البطريرك إلى الأسقف أن يقيم فى إحدى الأديرة ، وعين من يقوم بعمله[٢].

وتتحدث المصادر القبطية عن حملة قام بها كيرياكوس ملك النوبة سنة ٧٥٠م على مصر لإرغام واليها على إطلاق سراح البطريرك ميخائيل[٣]. وتفسر هذه الحملة من وجهة النظر النوبيــة[٤] أن البطريرك بات متمتعاً بحماية ملوك النوبة. لكن يبدو أن الملك النوبى انتهز فرصة ثورات الأقباط فى إقليم الحوف بسبب نزع الصور المقدسة من الكنائس، وفداحة الضرائب، وقام بحملته على مصر.

ولما توترت العلاقات بين زكريا بن يحنس (يوحنا) ملك النوبة ووالى مصر بسبب امتناع زكريا عن تنفيذ التزاماته للخليفه، تدخل البطريرك يوساب لحسم هذا الخلاف ونصح زكريا بتنفيذ شروط العقد بين ولاة مصر وملوك النوبة. واستجاب الملك النوبى لهذه النصيحة وبعث بابنه جورج إلى بلاط الخليفة المعتصم ببغداد. وفى طريق عودته كرز له البطريرك مذبحاً نصب فى القصر الذى نزل فيه بالجيزة، وأقيم عليه القداس وسمح الوالى بدق الناقوس من سطح القصر[٥].

---

(1) Renaudot : op. cit. p. 178.

(2) Ibid. : op. cit. p. 221.
De Villard. : op. cit. pp. 96-97.

(٣) اختلفت المصادر القبطية حول تاريخ هذه الحملة واسم والى مصر إذ ذاك. أنظر الآراء المختلفة حول هذه الحملة فى أبى صالح وكذلك .
De Villard,: op. cit
pp 97- 98.
Griffith. FLl. : Christ.Doc. p. 28.
Lane - Poole: op. cit. p27.

(٤) يشك بعض المؤرخين فى مقدرة ملك النوبة على تجريد هذه الحملة لفقر النوبة وضعفها. ويرى رينودو أن الحبشة لابد آزرت النوبة فى هذه الحملة.
Renaudot: op. cit. p. 222.
أنظر التفاصيل فى
MacMichael: op. cit. I. p. 168.

(٥) علق رينودو على هذا المذبح بقوله: إنه الأول من نوعه إذ لم يكن هناك مذابح متنقلة ولم يسمح بإقامة الطقوس فى أماكن بعيدة عن الكنائس.
Renaudot, op. cit. p. 285.

وجاء فى سيرة الأنبا فيلوتاوس البطرك ٦٣ (٩٧٠ - ٩٩٥م) أن الملك جورج ملك النوبة توسط لدى البطريرك لإعادة العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية والحبشة بعد انقطاعها مدة. وقبل البطريرك رجاء الملك النوبى[١].

وجاء فى تاريخ بطاركة الإسكندرية ما يشير إلى تجدد الاعتداء على البطريرك. ذلك أن اليازورى قبض على البطريرك كرستودولس وزج به فى السجن وصودرت أمواله بسبب ما ترامى إليه أن البطريرك يحرض ملك النوبة على عدم دفع التزاماته للخليفة، ونال الأقباط اضطهاد شديد. ولما وصلت أنباء هذه الحوادث إلى ملك النوبة أرسل معونة مالية للبطريرك ليستعين بها على تفريج أزمته[٢]. وثمة تهمة أخرى وجهت إلى البطريرك كرستودولس فى وزارة بدر الجمالى، ومجمل هذه التهمة أن البطريرك أرسل الأسقف فيتورى إلى بلاد النوبة وكلفه بهدم جميع المساجد الموجودة بها، لكن أظهر التحقيق الذى أجرى ببلاد النوبة كذب هذه التهمة وحكم على صاحبها بالاعدام[٣]. ولا يبعد أن يكون ملك النوبة تدخل لحسم هذا الخلاف لتمتعه بمكانة طيبة فى البلاط الفاطمى فى عهد المستنصر فجاء التحقيق فى صالح البطريرك.

غير أن تأثير الكنيسة النوبية فى حياة الناس لم يكن - فيما يبدو - قوياً، بل ظل المجتمع النوبى يعيش فى مثل ما عاش قبل دخول المسيحية. وربما كان بعض السبب فى هذا أن الطقوس الدينية تؤدى بلغة أجنبية لكبار رجال الدولة الذين اعتنقوا المسيحية أولاً وعلى رأسهم الملك الذى أمر النوبيين باعتناقها بأعتبارهم عبيده. وهو نفس الوضع الذى أدى إلى اسلامهم فيما بعد، فلم تختلط العقيدة الجديدة بقلوب الناس، وأخذت هذه الطقوس مظهراً تقليدياً رسمياً. فانحطت الروح الدينية ولم تظهر حركة إصلاح دينى، بل اكتفى النوبيون بترجمة الطقوس إلى اللغة النوبية التى لم تتخل عن بعض المعتقدات القديمة[٤].

ولم تنجب الكنيسة النوبية علماء متخصصين فى اللاهوت أو الفلسفة الدينية، أو رجال

(١) ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية،

(2) Renaudot. op. cit. p. 435.

(3) Renaudot. op. cit. pp. 443 - 445.

De Villard: op, cit. p. 128.

(4) Trimingham, J.S.: Islam in the Sudan. p. 70.

دين ذوى مثل مستمدة من تجارب القديسين والشهداء ـ مثلما كان الحال فى الكنيسة المصرية[١]. ولهذا ظل الجهاز الكنسى بيد رجال مصريين مبعوثين من الكنيسة المصرية. واقتصر العنصر الوطنى على تقلد الوظائف الدينية القليلة الخطر. وتحدد مستقبل الكنيسة النوبية بنوع العلاقات بين الكنيستين ـ غير أن هذه العلاقات لم تلبث أن خضعت لعوامل سياسية، فتأثر مركز الكنيسة النوبية تبعاً لهذا التدخل من جانب السلطات الحاكمة فى مصر. إذ منع الحاكم بأمر الله إرسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسية السنوية إلى كل من الحبشة والنوبة. وتبع هذا توقف إرسال الأساقفة مدة من الزمن، حتى إذا جاء العهد المملوكى وتعرضت الكنيسة المصرية لنوع من الضغط من جانب بعض سلاطين المماليك، فقدت بهذا نفوذها القديم فى بلاد النوبة. ومن الواضح كذلك أن اعتناق النوبيين للمسيحية كان صورياً، واقتصر أثرها حيث توجد المدن والقرى الكبيرة. وظلت الغالبية العظمى من النوبيين يمارسون عاداتهم القديمة[٢]. بدليل ما لاحظه ابن سليم من أن بعض سكان النوبة يعرفون الله ولكنهم يشركون معه بعض مظاهر الطبيعة كالنجوم والكواكب والأشجار ويعتقدون فى السحر[٣]. ويؤيد هذا وجود بعض التقاليد الموروثة عن العهد السابق للمسيحية. ومنها توريث ابن الأخت أو البنت، والطاقية أم قرنين كرمز للسلطة، ولبس السوار الذهبى، والختان الفرعونى، وبعض الشعائر الخاصة بحفلات الزواج والختان. ولابد أن هذه العادات لعبت دوراً هاماً فى حياة المجتمع المسيحى[٤].

* * *

وفيما يتعلق بالاقتصاد النوبى، فمعلوماتنا عنه قليلة وتعتمد أساساً على ما ورد فى كتب المؤرخين والجغرافيين العرب مثل ابن سليم الأسوانى وابن حوقل والإدريسى. ويبدو من كتابات هؤلاء أن الاقتصاد النوبى فى العهد المسيحى اعتمد على نوعين من الحرف هما الزراعة والتجارة. فضلا عن وجود الرعى فى مملكة علوة. ففى المملكة الشمالية (مقرة) تنحصر مواضع الخصب فى شريط ضيق يحاذى النيل، ويختلف ضيقا واتساعا من مكان إلى آخر.

---

(١) لم يسجل تاريخ الكنيسة النوبية استشهاداً أو اضطهاداً كما حدث فى مصر إبان عهدها الأول بالمسيحية. بل إن النوبيين قبلوا الدعوة الجديدة بأمر من ملوكهم.

(2) Crowfoot, J.W. : op. cit. pp. 142 - 143.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٣.

(4) Crowfoot, J.W. : op. cit. pp. 142 - 143.

ففى جزئها الشمالى «مريس» ـ على حد قول ابن سليم ـ يضيق الوادى وتحفه الجبال من الجانبين، وتمتد القرى على حافة النهر. ويزرع النوبيون مساحات محدودة على شكل مدرجات تتراوح مساحتها من فدان إلى ثلاثة أفدنة اعتمدوا فى ريها على الساقية. ونظراً لضيق الرقعة الزراعية اضطر النوبيون إلى زراعتها مرتين فى السنة[1]. ويبدو أنهم عرفوا طريقة التسميد ليحافظوا على خصوبة التربة. واقتصرت زراعتهم على أنواع محدودة من الذرة وقليل من الشعير والسمسم واللوبيا، هذا فضلا عن انتشار أشجار النخيل فى المدرجات العليا.

والجزء الجنوبى من مريس حتى المقس الأعلى، أشد أجزائها فقراً. إذ يمتد النيل بين حافتين جبليتين شديدتى الانحدار وصحراء قاحلة، «وبرها مجاوب ضيقة وجبال شاهقة وطرقات ضيقة حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ورمال فى غربها وشرقها، وفى جزائرها نخل يسير وزرع حقير وأكثر أكلهم السمك[2]».

وإلى الجنوب من ساى حتى دنقلة يختلف عرض الوادى من منطقة لأخرى ويعترض مجرى النهر عدد من الجزر العامرة. ويكثر شجر النخيل والبقل. وتظهر أحيانا بعض حدائق الكروم.

وإلى الجنوب من دنقلة حتى حدود علوة تزيد المسافة بينها وبين أسوان. ويبدو أن هذه المنطقة، أغنى جهات مقرة حيث يتسع الوادى قليلا فتكثر قطعان الماشية. وتتسع حقول القمح وحدائق الكروم وأشجار النخيل[3]. فيقول ابن سليم «ومسافة ما بين دنقلة إلى أول بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان، وفى ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والبقل والزرع والكرم أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام...».

ومما لا شك فيه أن مملكة علوة أغنى وأوسع ثروة من مملكة مقرة، لا تساع واديها وخصوبة أراضيها التى تعتمد فى ريها على النيل أو مياه الأمطار الصيفية ويكثر فيها شجر النخيل ويزرع

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٩١. تعرف هذه المنطقة الجنوبية من مريس باسم، الجنادل وهى المنطقة الممتدة من تقوى إلى المقس الأعلى، وتعرف الآن ببطن الحجر.

(٣) المصدر السابق، ص١٩٠.

الذرة[1]. «وسائر بقولهم من السلجم والبصل والفجل والقثاء والبطيخ»[2]. وعلى الرغم من اتساع الرقعة الزراعية فى مملكة علوة إلا أن سكانها كانوا دون أهل مقرة فى المستوى الحضارى، فلم يستغلوا خصوبة أرضهم استغلالا اقتصاديا، ولم يبذلوا جهداً فى الاكثار من المحصول واتباع وسائل التسميد أو طرق الزراعة واعتمدوا على السحر[3].

والراجح أن الزراعة لم تكن من الوفرة والتنوع بحيث يمكن استغلال فائض منها فى أغراض تجارية. أما التجارة فيبدو أن دور النوبيين فيها كان دور الوسيط للحصول على عمولة أو رسوم حماية التجارة وطرق القوافل[4]. ولم تعرف العملة الذهبية أو غيرها من أنواع العملات المعروفة آنذاك إلا فى منطقة مريس. أما إلى الجنوب منها فكان يتم التبادل عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشى والحبال والحديد والحبوب[5]. وتحدث بعض الكتاب العرب عن نقط تنتهى عندها التجارة على طول النيل. وهى بمثابة محطات يتم عندها التبادل التجارى مثل مدينة بلاق (جزيرة فيلة) التى كانت تنتهى عندها مراكب النوبة شمالا. وبلدة تقوى عند الشلال الثانى حيث تنتهى عندها مراكب النوبة المصعدة من القصر[6]. ويشير الإدريسى إلى ميناء نوبى آخر اسمه بلاق لا نعرف مكانه تماماً ويضعه بين ذراعى النيل وربما يقع قرب التقاء النيل بأتبرا. وفى هذا المكان يلتقى تجار النوبة ومصر والحبشة[7].

* * *

ولننتقل الآن إلى رسم صورة مبسطة لأهم مظاهر الحضارة النوبية فى العهد المسيحى، ولعل أهم آثارها المادية تلك الكنائس المبعثرة هنا وهناك من أسوان شمالا إلى جبل سجدى بالقرب من سنار جنوبا. ويغلب عليها جميعا طابع عام مشترك، فهى من النوع المعروف باسم باسيلكا Basiliks والكنيسة النوبية بصفة عامة على شكل مستطيل توجد فيها ممرات فى الجهة الشمالية والجنوبية تفصلها عن صحن الكنيسة سلسلة من الأعمدة. وفى الطرف الشرقى من

(١) المصدر السابق، ص١٩٣.
(٢) الإدريسى: المغرب. وأرض السودان ومصر والأندلس ص٢٠.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١، ص١٩٣.
(٤) الشاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وادى النيل ص٧.
(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩١.
(٦) المصدر السابق، ص١٩٠.
(٧) الإدريسى: نفس المصدر ص٢٠.

الكنيسة من الداخل يوجد الهيكل، ويقع المنبر عادة بالقرب من آخر عمود بالناحية الشرقية من الممر الشمالى[١]. إلا أن كنيسة دنقلة ذات طابع مختلف. فهى مكونة من طابقين، ربما استخدم الطابق السفلى كمخزن لحفظ أدوات الكنيسة. ويتصل بالطابق العلوى بسلم حلزونى. ويرى كروفوت، أن طراز الطابق العلوى لهذه الكنيسة يشبه طراز كنيسة حبشية قرب عدوة، وحول هذا الطابق العلوى أخيرا إلى مسجد[٢].

ويرى سومرز كلارك أن فن البناء فى وادى النيل يختلف من مكان لآخر باختلاف المواد الطبيعية ودرجة كثافة السكان ومستواهم الحضارى. ويبدو من طابع البناء النوبى أنه متأثر بفقر البلاد وقلة مواردها الطبيعية وضعف المستوى الفنى[٣]. وإذا كان النوبيون استعانوا ببعض الفنانين المصريين لبناء كنائسهم وزخرفتها، إلا أن مادة البناء ـ ومعظمها من الطوب واللبن والطين ـ ظل الطابع السائد للعمارة النوبية[٤] باستثناء بعض الكنائس المبنية من الحجر مثل كنيسة فرس وكنيسة دير الغزال.

واقتصرت الزخرفة على الرسوم والنقوش على جدران الكنيسة الداخلية، غير أن معظمها اندثر بطبيعية الحال. ولعل أجمل هذه النقوش ما عثر عليه فى كنيسة عبدالقادر وكنيسة فرس. وعثر بجوار كنيسة عبدالقادر على نقش يمثل نائب ملك eparch فى نوباديا فى ملابسه التقليدية حاملا نموذج كنيسة يبدو أنه مؤسسها[٥].

وفضلا عن هذا فإنه يوجد عدد من النقوش التى هى فى الواقع عبارة عن صور القديسين. ومشاهد من الإنجيل وأخرى لميلاد المسيح. ويرى جريفث أن طابعها العام يشبه الطابع البيزنطى[٦] ويقول شنى. إن الطابع العام لهذه النقوش يدل على البساطة وعدم النضج ولكنها توضح فى الوقت نفسه رغبة الفنانين وتحمسهم لفنهم[٧].

---

(1) Shinnie, p. L. : Medieval Nubia. pp. 8 - 9.

(2) Crowfoot, J. W. : op. cit. pp. 144 - 145.

(3) Somers Clarke. : Christian Antiquities in the Nile Valley p. 7.

(4) Griffith, F. Ll. : Oxford Ex. in Nubia, p. 52.

(5) Shinnie, P. L. : op. cit. pp. 12 - 18.

(6) Crowfoot, J.W. : op. cit. p. 146.

(7) Shinnie, P. L. : op. cit. p. 13.



أيقونه للسيدة الست مريم فى حالة تعبد (أيقونه حبشية)

ولم يعثر على بقايا مساكن إلا بأطلال سويا. وهى مبنية من اللبن وطرازها بسيط ساذج.

ويمكن التمييز بين نوعين من الفخار، فخار دنقلة وفخار سويا، إذ يشتمل الأول على أوانى صغيرة من طينة ناعمة ذات طلاء أبيض أو أصفر أو برتقالى. وكثير من هذه الأوانى يحمل رسوما لحيوانات أو رموزا مسيحية، وهى جميعا متأثرة بالفن القبطى، وأجود أنواع هذه الفخار يرجع إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادى. أما فخار سويا فمن الآجر المطلى بطلاء أسود وبه زخارف على شكل زهور صغيرة صفراء وحمراء، وهو يمثل طابعا مستقلا لا وجود لمثله فى مقرة أو فى مصر.

النوبيون والعرب

الاتصال القديم بين الجزيرة العربية ووادى النيل ■ الهجرات العربية إلى مصر ■ أول اتصال بين المسلمين من ناحية وبين النوبيين والبجة من ناحية أخرى ■ توغل العرب جنوبا فى أرض النوبيين والبجة، عوامله ودوافعه المختلفة فى التاريخ ■ بعض آثاره السياسية والاجتماعية والثقافية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ■ أثر الرق.

* * *

لقد صحب اتصال العرب بالنوبيين دخول لون جديد من الثقافة إلى بلاد النوبة، فصبغ سكانها بصبغة جديدة، وطبعهم بطابع خاص، مختلف عن الطابع القديم الذى اتصف به المجتمع النوبى فى العهد المسيحى. أما هذه الثقافة الجديدة فهى الثقافة الاسلامية.

وثمة ظاهرة أخرى هى نزوح بعض الجماعات النوبية من بلادها وتأثرها بتلك الثقافة خارج الوطن النوبى. وهذا العامل الأخير سنتعرض لذكرة فيما بعد.

أما عن صلة النوبيين بالعرب فقديمة وترجع إلى ما قبل ظهور الاسلام، وهذه حقيقة تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية. ذلك أن البحر الأحمر لم يكن فى وقت من الأوقات حاجزاً يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية وشواطئه الإفريقية، ولا يزيد اتساع البحر على المائة والعشرين من الأميال عند السودان. وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة.

وفى الجنوب يضيق البحر الأحمر جداً عند بوغاز باب المندب حتى لا يزيد على عشرة

أميال وهو الطريق الذى سلكته السلالات والأجناس من وإلى القارة الإفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين[١].

ولعل التجارة كانت أهم وسيلة هذا الاتصال، إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وبين موانى مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى، واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الإفريقي مراكز لهم، يوغلون منها بسلعهم وبضائعهم فى قلب القارة الإفريقية حتى وادى النيل على الأقل[٢]. وفى الألفى سنة قبل الميلاد هاجرت جماعات عربية من جنوب غربى الجزيرة العربية إلى الحبشة. وبلغت هذه الهجرات أقصاها ما بين ١٥٠٠ ق م - ٣٠٠ ق م فى عهد دولتى معين وسبأ. وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة فى البحر الأحمر ووصلوا فى توغلهم غربا إلى وادى النيل[٣]. ونشطت حركة التجار العرب خاصة زمن البطالمة والرومان. ولاشك أن عدداً غير قليل من هؤلاء استقروا فى أجزاء مختلفة من حوض النيل، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم. وفى القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميريين (أهل اليمن) مضيق باب المندب فاستقر بعضهم فى الحبشة وتحرك بعضهم الآخر متتبعا النيل الأزرق ونهر أتبرا ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة[٤].

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون فى وادى النيل الأوسط وشمال إفريقيا، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت فى بلاد النوبة وأرض البجه وشمال أفريقيا[٥]. ويرى ريد Reid أن هؤلاء الحميريين اختلطوا بالحاميين سكان

(١) محمد عوض محمد: السودان ووادى النيل ص ٣٨.

(2) MacMichael, H. A. : A History of the Arabs in the Sudan, I. pp. 3 - 4.
اتخذ هؤلاء التجار هذه المراكز كنقط ارتكاز تبدأ منها قوافلهم إلى مراكز التجارة الأساسية على النيل النوبى والنيل الأعظم. وكان لهؤلاء التجار وكلاء تجاريون فى كل هذه المراكز التجارية حيث يستقبلون القوافل التى ترد إليها من دارفور وليبيا وقلب إفريقية.

(3) Mac Michael, H. A. : op. cit. p. 4.

(4) Hamilton, J.A., ed: The Anglo Egyptian Sudan from Within p. 42.

(٥) ابن خلدون: العبر جـ١، ص١٧٦. تشير هذه الروايات الخيالية إلى حملة قادها أبرهة ذى المنار بن ذى القرنين الحميرى على السودان وبلاد النوبة والمغرب حوالى أوائل القرن الأول قبل الميلاد، ثم إلى حملة أخرى قادها ابنه أفريقش إلى شمال إفريقيا، واستقرت فى بلاد النوبة جماعات حميرية، ولعل وجود=

شرق السودان، وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم حسبما يقضى به نظام التوريث المعروف عند الشعوب الحامية وهو توريث ابن الأخت أو ابن البنت[١]. ويرى بول Paul أن ممن انتفع بهذا النظام الوراثى من العرب جماعة من الحضارمة ـ سكان حضر موت ـ الذين عبروا البحر الأحمر إلى ساحله الإفريقى فى القرن السادس الميلادى ثم اختلطوا بالبجة وكونوا طبقة حاكمة خضع لها هؤلاء البجة المعروفون بالزنافج، وتعلموا لغتهم واعتنقوا المسيحية حتى يسهل عليهم قيادتهم والسيطرة عليهم[٢]. وعلى الرغم أن عدد هذه الجماعات العربية المهاجرة لم يكن كبيرا، فما لا شك فيه أنها تركت بعض آثارها الثقافية ولا سيما فى ناحيتى الدين والفن[٣].

أما الطريق الشمالى وهو طريق برزخ السويس، فهو ذو دور خطير فى تاريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادى النيل الأدنى منذ فجر التاريخ ولم تخل الآثار المصرية القديمة من الإشارة إلى بدو سيناء وفلسطين وسوريا وغيرهم من العرب الشماليين الذين عرفتهم مصر منذ عهد الأسرات الأول إما تجاراً يختلفون إلى الأسواق المصرية، أو غزاة

=العمامة ذات القرنين التى كانت شارة من شارات السلطة عند eparch نوباديا يفسر هذا الأثر الحميرى بدليل أن أبا أبرهة عرف بالصعب ذى القرنين. انظر MacMichael: op. cit. pp. 7-8. ويشير دى برسفال إلى حملة قادها أبو مالك ابن شمرير عش الحميرى إلى معادن الزمرد فى أرض البجه. ومن المحتمل أن يكون لقى حتفه هو ومعظم رجال جيشه حوالى منتصف القرن الأول الميلادى.

Causin de perseval, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, I. p. 82.

هذا ويدعى سلالة ملوك البرنو الانتساب إلى سيف بن ذى يزن الحميرى. انظر القلقشندى جـ١، ص١١٧.

(1) Reid, J. A. : "Some Notes on the Tribes of the White Nile Tribes," SNR" XIII, part II., 1930, p. 150.

(2) Paul, A. : A History of the Beja Tribes of the Sudan. PP. 64 - 67,

ويضيف بول أن هؤلاء الحضارمة عرفوا عند العرب الحدارية الذين استقروا فى إقليم العتباى فى الشمال، ثم اضطروا إلى الانتقال جنوباً فى القرن الخامس عشر الميلادى حيث أسسوا مملكة البلو (مملكة بنى عامر) فى إقليم طوكر. أنظر المقريزى، المواعظ والاعتبار، حـ١، ص١٩٥.

(3) MacMichael, H.A. : op. cit. I. p.9.

يقول ماكمايكل MacMichael إن عبادة الشمس ظلت قائمة فى تالمس (كلابشة) حتى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى وهى العبادة التى كانت منتصرة فى جنوب بلاد العرب والمستعمرات الحميرية فى شمال الحبشة. أما عن الفن فيبدو أنه كان للسبئيين فيه بعض الأثر كما يبدو فى الطابق العلوى من كنيسة دنقلة. فهو يشبه الطراز الحبشى المتأثر بالفن السبئى. هذا فضلا عن العمامة ذات القرنين كما سبق أوضحنا.

كالهكسوس، أو مهددين لمصالح الإمبراطورية المصرية فى سوريا، أو لاجئين يرغبون العيش فى كنف الفراعنة[1].

اتجهت سياسة المسلمين ـ منذ أن تم لهم غزو مصر ـ إلى فتح النوبة، وتلاقت رغبة الخليفة عمر مع رغبة قائده عمرو بن العاص فى مصر لضرورة غزو النوبة لضمان المحافظة على أطراف مصر من ناحية الجنوب وتأمين طريق التجارة[2] القديم بين البلدين. فأرسل عمرو فرقة من الفرسان بقيادة عقبة ابن نافع لفتح النوبة سنة ٦٤١م[3]. والراجح أن عدد المسلمين فى هذه الحملة لم يكن كبيرا بينما كانت خسائرهم كثيرة لشدة المقاومة التى أبداها النوبيون، فضلا عن مهارة هؤلاء فى الرمى بالسهام، حتى أطلق عليهم المؤرخون العرب اسم رماة الحدق[4] ولذا لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا جنوبا.

بيد أن النوبيين بعد وفاة الخليفة عمر، أرسلوا سراياهم إلى الصعيد فخربوا وأفسدوا. واستعد عبدالله ابن أبى السرح الذى خلف عمرا فى ولاية مصر لملاقاتهم، رغبة منه فى تقليد الغزوات التى قام بها سلفه ومنافسه عمرو[5]. وتمكن جيش ابن أبى السرح من التوغل جنوبا حتى دنقلة عاصمة المملكة المسيحية الشمالية «مَقُرَّة» سنة ٦٥٢م وحاصرها حصارا شديدا واستخدم المنجنيق فى ضرب المدينة فخربت كنيستهم. ويقول المقريزى نقلا عن ابن سُلَيْم الأسوانى فبهرهم أى (النوبيين) ذلك وطلب ملكهم واسمه قليدورُوث (قليدور) الصلح وخرج إلى عبدالله وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعا فتلقاه عبدالله ورفعه وقربه...» وقرر القائد العربى عقد صلح عرف باسم البقط[6]، مؤداه أن يدفع ملك النوبة لبيت مال المسلمين ٣٦٠ رأسا من الرقيق، ووعده عبدالله بن سعد بهدية سنوية من حبوب وملابس لما شكا له الملك النوبى قلة الطعام فى بلده. وكتب عبدالله بن سعد للنوبيين عهدا يعتبر أساسا للعلاقات بين عرب

---

(1) Breasted, J. H. : A History of Egypt from the earliest times to the persian Conquest, pp. 25 - 26, 214 - 219, 388.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٣، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٣) ابن عبدالحكم: كتاب فتوح مصر وأخبارها، ص ١٦٩.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٣٦.

(5) Lane - Poole (S.): A History of Egypt in the Middle Ages, p. 21.

(٦) البقط ما كان يؤخذ من النوبة فى كل عام فى قرية القصر على بعد خمسة أميال جنوبى مدينة=

مصر والنوبة المسيحية. وقد نص فيه على حدود معلومة للمملكة التى عقدت الصلح مع المسلمين، وتمتد من أسوان شمالا إلى حد أرض علوة جنوباً أى إلى منطقة الأبواب (كبوشية الحالية). وبهذا لا يشمل الصلح دولة علوة المسيحية لعدم وصول جيوش المسلمين إليها، فضلا عن أن العقد لم يشر إلى البجة.

وينص هذا العقد كذلك على تأمين أهل النوبة وتأكيد بعدم محاربتهم ما داموا قائمين على تنفيذ الشروط التى بينهم وبين المسلمين، ومنها: إرسال ٣٦٠ رأساً من أفضل رقيق بلدهم، وحفظ من نزل بلدهم من مسلم أو معاهد، وحفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتهم، ولا يلتزم المسلمون بدفع عدو أو مغير على بلادهم[١].

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الصلح جعل النوبيين والمسلمين على قدم المساواة فلا غالب هناك ولا مغلوب بدليل ما يدفعه المسلمون من أشياء مساوية تقريبا لما يدفعه النوبيون، وأنها مصلحة متبادلة[٢]، وهى أشبه بمعاهدة تجارية.

وعلق بعض المؤرخين العرب على هذه المعاهدة: فقال البلاذرى[٣] «ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هى هدنة بيننا وبينهم». ويمكن أن يفسر هذا العقد بأنه معاهدة حسن جوار يحقق للمسلمين الاطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب، وفتح البلاد

=أسوان، ولفظ البقط حسب اجتهاد بعض الباحثين لفظ مشتق من أحد أصلين: الأول لاتينى يونانى الأصل ومعناه الاتفاق أو الموادعة، والثانى مصرى قديم وهو باق ومعناه الضريبة التى تدفع عيناً. أنظر ملحق رقم ٧.

Trimingham, J.S.: op. cit. p. 62 Note 3.

أما المقريزى فى المواعظ والاعتبار جـ١ ص١٩٩ فيذكر أن «البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم، ومعناه بعض ما فى أيدى النوبة. أنظر ملحق رقم ٧.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٩.

(2) Becker, C.H. : Ency. Isl. L.,p. 6082. MacMichael, H.A.: op. cit. p, 158.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٣٣٦، أخذ البلاذرى هذه المعلومات عن يزيد ابن أبى حبيب أحد سبى النوبة وكان يعيش فى مصر. وحفظ هذه الرواية شيوخ عن شيوخ ممن اهتموا بأمر النوبة، ومنهم، ابن أبى لهيعة وعبدالله بن صالح.

للتجارة، والحصول على سواعد النوبة القوية فى خدمة الدولة، وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية، ونشر الثقافة الإسلامية فى بلاد النوبة بالطرق السلمية. ومهما يكن من أمر هذه المعاهدة، فإنها ظلت تمثل نوعا من الاتصال الدائم بين المسلمين والنوبيين المسيحيين مدة ستة قرون[١].

* * *

ومن الملحوظ فى هذه المعاهدة أن البجة[٢] لم يرد عنهم نص فيها، ويرجع هذا كما يقول ابن عبدالحكم[٣]، إلى عدم اكتراث عبدالله بن سعد بهم. غير أنهم ما لبثوا أن أغاروا على صعيد مصر حوالى سنة ٧٢٥م. فصالحهم ابن الحبحاب وكتب لهم عقداً[٤] ينص على دفع ثلثمائة من الإبل الصغيرة، على أن يجتازوا الريف تجارا غير مقيمين، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً وألا يؤووا عبيد المسلمين، ويظل وكيلهم فى الريف، رهينة فى يد المسلمين.

غير أنه لم يكد يمضى قرن على هذه المعاهدة حتى عاد البجة إلى شن الإغارات من جديد على جهة أسوان وكثر إيذاؤهم للمسلمين فرفع ولاة الأمور فى أسوان خبرهم إلى المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) فجرد عليهم حملة بقيادة عبدالله بن الجهم سنة ٢٣٢هـ (٨٤١م) فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وكتابة عقد جديد بينه وبين رئيسهم كنون بن عبدالعزيز[٥]، ومن أهم شروطه:

---

(١) استمر العمل بهذه المعاهدة حتى قيام الدولة المملوكة الأولى فى مصر، وعندها تأخذ العلاقات بين المسلمين والنوبيين شكلا آخر سنتعرض لذكره فيما بعد، وهو الدور الذى سيؤدى إلى سقوط المملكة المسيحية الشمالية (مقرّة).

(٢) أطلق المؤلفون العرب هذا الاسم على الشعوب الحامية التى تسكن الصحراء الشرقية ما بين النيل والبحر الأحمر، وتمتد أوطانهم من جنوبى مصر فى الشمال إلى حدود الحبشة فى الجنوب، وهم ما يعرفون الآن باسم البشاريين والهدندوة والامرار وبنى عامر. وآثرنا أن نتعرض للحديث عنهم هنا لارتباط تاريخهم بتاريخ جيرانهم النوبيين، وأن التسرب. العربى جنوبى مصر لم يشمل النوبة فقط بل أرض البجة كذلك. وتحدث اليعقوبى عنهم وعما سماه ممالكهم، فى كتابه: تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢١٧ ـ ٢١٩.

(٣) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٩.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٥.

١ـ أن تكون بلاد البجة من حد أسوان إلى حد ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ، وأن كنون بن عبدالعزيز وأهل بلده عبيد لأمير المؤمنين على أن يبقى كنون ملكا عليهم.

٢ـ أن يؤدى ملك البجة الخراج كل عام مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار لبيت المال.

٣ـ أن يحترم البجة الإسلام ولا يذكروه بسوء، وألا يقتلوا مسلما أو ذميا حرا أو عبدا فى أرض البجة أو فى مصر أو النوبة، وألا يعينوا أحدا على المسلمين.

٤ـ إذا دخل أحد من المسلمين فى بلادهم للتجارة أو الإقامة، أو مجتازا للحج، فهو آمن لآخر حدهم.

٥ـ إذا دخل البجه صعيد مصر مجتازين، أو تجارا لا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى.

٦ـ ألا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر.

٧ـ وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجه.

وفى رواية لابن حوقل أن أفرادا من البجه «أسلموا إسلام تكليف وضبطوا بعض شرائط الإسلام وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض»[١] ولهذا سامحهم عبدالله بن سعد ولم يحاربهم.

وفى نهاية القرن السابع الميلادى عبرت جماعة من عرب هوازن البحر الأحمر واستقرت فى أرض البجه حيث عرفوا باسم الحلانقة، ثم انتقلت إلى منطقة تاكة. ويرى بول أن هؤلاء الحلانقة كانوا أول من استقر من العرب المسلمين فى الوطن البجاوى[٢].

ويقال إن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجه فى منتصف القرن الثامن الميلادى هربا من مذابح العباسيين، واستقر عدد منهم فى ميناء باضع (جزيرة الريح)[٣]. وفضلا عن

---

(١) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص٥٠ ـ ٥١.

(2) Paul, A.: A Hist. of the Beja Tribes of the Sudan, p. 73.

(٣) المسعودى: كتاب التنبيه والاشراف ص٣٠، ويرى بلوس أنه عثر على مقابر هؤلاء الأمويون على طول الطريق الذى سلكوه. Bloss, J.F.E.: The Story of Suakin," SNR., XIX., II., 1936., p. 279.

هذا فإن الأبحاث الأركيولوجية أثبتت وجود جاليات إسلامية فى منطقة خور بنت الواقعة على مسافة ٧٠ ميلا غربى سواكن. إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى (٧٦٠م)، ودل البحث الأثرى كذلك على وجود مسجد فى سنكات يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٨٣١م(١).

ويرى بلوس Bloss أنه بعد الغزو العربى لمصر هاجرت جماعات عربية على طول الساحل الإفريقى للبحر الأحمر واستقرت فى أرض البجه واختلطت بهم وتزوجت من بناتهم على الرغم من أن موجة الفتوح الإسلامية كانت لا تزال على شدتها على طول ساحل البحر المتوسط(٢).

وفى رواية لابن حوقل أن جماعات من عرب الحوف وخاصة من قيس عيلان قامت بهجوم على البجة لتعديهم على أهل مدينة قفط قبل أن تغزوهم قوات ابن الجهم بحوالى ٣٠ سنة، ولا يبعد أن يكون هؤلاء استقروا فى العلاقى حيث توجد آثارهم. ويضيف ابن حوقل إلى أن بعض الذين اشتركوا فى حملة ابن الجهم ضد البجه آثروا البقاء فى العلاقى حيث بهرتهم معادن الذهب، ثم لحقت بهم ـ فى نفس الوقت ـ جماعات من أهل اليمامة، بسبب ضغط جماعات عربية أخرى.

ولم يكد يمضى أكثر من ست سنوات على حملة ابن الجهم على البجه حتى وفدت جماعات من ربيعة وجهينة سنة ٢٣٨هـ (٨٣٧م) إلى العلاقى بعد أن وصلتها أنباء المعادن التى تحويها تربة هذا الوادى(٣).

ومما لا شك فيه أن هذه الجماعات الإسلامية المختلفة تركت لونا من التأثير فيمن اختلطت بهم من البجه، بل أن بعضهم تخلف فى بلاد البجه وتعلم اللغة البجاوية ليسهل عليه التعامل مع البجاويين والتأثير فيهم. والدليل على ذلك أن زكريا ابن صالح المخزومى من سكان جدة وعبدالله بن إسماعيل القرشى قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية(٤).

* * *

(1) Crawford, O. G.S.: The Stone Tombes of the N. E. Sudan, Kush. No. 2, 1954. p. 86.
Combe, E.T. : "Four Arabic Inscriptions from the Red Sea", SNR, XIII. PP. 288 - 291.

(2) Bloss, J.F.E.: op. cit. p. 278.

(٣) ابن حوقل: كتاب صورة الارض، ص٥٣.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٦.

وإذا كانت الحملات الحربية التأديبية التى وجهها ولاة مصر ضد البجه أتاحت الفرصة لبعض الجماعات العربية للتعرف على خصائص البيئة البجاوية فاستقرت فيها واختلطت بسكانها فضلا عن وضع هذه الجهات من الناحية الرسمية ضمن النفوذ الإسلامى، فإن ثمة حملات حربية وجهها ولاة مصر المسلمون إلى بلاد النوبة كذلك لمثل هذا الغرض، وكانت هذه أيضا فرصة لبعض الجماعات العربية للاستقرار إلى جوار النوبيين والاختلاط بهم وخاصة فى منطقة النوبة السفلى. وترجع أسباب هذه الحملات الإسلامية نحو النوبة ـ فى الغالب ـ إلى اجبار النوبيين على دفع البقط. على أن ولاة مصر تمسكوا بهذا البقط وشروطه لما فيه من مبررات للاحتكاك والاعتداء لبسط نفوذهم على تلك الجهات، وكانوا من ناحيتهم لا يتأخرون فى مهاجمة النوبة كلما ماطلت أو ساومت فى دفع البقط. وربما كان البقط فى ذاته حملا ثقيلا ضاق به النوبيون ذرعا لما استتبعه من إعداد الرقيق الذى يرسل شخصيا للوالى أو لنائبه فى أسوان، أو إلى الوفد الذى كان يذهب لتسلم العدد الرسمى، فضلا عن حرمان النوبة من أفضل عناصرهم فى الجيش والأرض وذهابه للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر، ولم تخل عملية إعداد الرقيق سنويا من صعوبة لاضطرار النوبيين لشن الإغارات على جيرانهم للحصول على العدد المطلوب أو تعويضه من أبنائهم فيقول البلاذرى[1]، «وقد ادعوا (النوبيون) حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة، وأنهم كانوا طولبوا بذلك فى خلافة المهدى، فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئا، عادوا على أولادهم فأعطوا فيه منهم بهذه العدة»، وفى كلتا الحالتين استنزاف قوى النوبيين، ولهذا حاولوا التخلص من هذه التبعية المذلة للدولة الإسلامية.

ومع هذا فإن النوبيين ظلوا يؤدون البقط سنوياً ويدفع لهم ما يقابله من جهاز. وكانوا إذا عجزوا عن دفع البقط يرغمهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم على دفعه بشن الإغارات عليهم، والامتناع عن إخراج الجهاز إليهم حتى إذا كانت أيام الخليفة المعتصم بالله (٨٣٣ ـ ٨٤٣م) وعظيم النوبة وقتذاك زكريا بن يوحنس (يوحنا) أنكر عليه إبنه وولى عهده جورج (قيرقى) بذل الطاعة للمسلمين واستعجزه فيما يدفع، وطلب إليه عصيانهم وشن الحرب عليهم. وامتنع النوبيون فعلا عن إرسال البقط مدة أربعة عشر عاماً واجه النوبيون خلالها ضغطاً حربياً متواصلا من جانب ولاة الصعيد الأقصى. غير أن زكريا رأى أن يوفد ابنه جورج

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٦٦.

إلى بلاط الخليفة فى بغداد ليعاين بنفسه قوة المسلمين ومدى استعداد النوبة لمقاومتهم «حتى يحاربهم على خبرة» أو يحاول كسب ود المسلمين وعطفهم[1]. فشخص جورج إلى بغداد، وأتاحت له هذه الرحلة فرصة التعرف على مدى قوة المسلمين، «فبهره كثرة الجيوش وعظم العمارة» وأدرك ألا طاقة له بمخالفتهم، لاسيما وأن المعتصم أحسن وفادته وأكرمه[2]. وتم الاتفاق[3] على أن يدفع بقط سنة كل ثلاث سنين على ألا ينقص المسلمون ما سبق أن تعهدوا بدفعه من حبوب وثياب وغيرها. ولبى الخليفة طلب ولى عهد النوبة بالإفراج عن المسجونين النوبيين ولم يجبه إلى إزالة المسلحة التى أقامها المسلمون بمدينة القصر[4].

* * *

غير أن البجة عادوا إلى الفتنة، فأغاروا على الصعيد وامتنعوا عن دفع الخراج وقتلوا كثيرا من المسلمين بمناجم الذهب بالعلاقى، وكتب عامل البريد فى مصر إلى الخليفة المتوكل ٢٣٢هـ ـ ٢٤٧هـ (٨٤٧ ـ ٨٦١م) فندب لحربهم محمد بن عبدالله القمى سنة ٢٤١هـ (٨٥٤م). وكتب الخليفة إلى واليه على مصر عنبسة بن إسحاق الضبى بأن يمده بالرجال. فسار القمى فى عشرين ألفا من الجند والمتطوعة[5]. وسار إلى أسوان وأتى العلاقى فأخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل من كل بطن ألف رجل»[6]. ووافته المراكب من البحرحاملة المؤن إلى ميناء عيذاب. ولجأ ملك البجه إلى المطاولة لتجويع المسلمين، غير أن القمى لجأ إلى حيلة حربية بارعة[7]، انهزم بسببها البجة، وأثخن فيهم القمى حتى طلب

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠١.

(٢) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص٢٠١.

(٣) ليس من المعروف تماماً تاريخ هذا الاتفاق، ولكن المقريزى ذكر أنه كان فى عهد المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٣م) وورد أيضاً فى كتاب «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع فى حديثه عن حياة البطريرك يوساب البطرك ٥٢ (٨٣٠ ـ ٨٤٩م) أنظر MacMichael, H.A.: A Hist. of the Arabs in the Sudan, I. d. 164. Note 3.

(٤) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص٢٠١.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٣٩.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض. ص٥٣، يدل هذا العدد الذى اشترك فى حملة القمى من ربيعة ومضر واليمن على اتساع أعمال المسلمين فى إقليم المناجم وكثرة عددهم.

(٧) البلاذرى. نفس المصدر، ص ٢٣٩.

ملكهم على بابا[١] الصلح، على أن يدفع الخراج لما سلف ولما يأتى، وألا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن. فصالحهم القمى «على أن يطأ على بابا بساط الخليفة فى سر من رأى» حيث أكرمه الخليفة[٢].

وعلى الرغم من أن على بابا يظل على دينه ولم يعتنق الإسلام[٣]، فإن صلحه مع العرب سنة ٨٥٤م كان تأكيدا لما سبق أن تعاقد عليه العرب والبجه واستغلال مناجم الذهب والزمرد[٤]. وبات العرب متمتعين بحماية الدولة الإسلامية وعين عليها وال من قبل الخليفة[٥] فاجتذبت هذه المعادن إليها جماعات عربية قامت على استخراجها والاتجار فيها. واحتكر العرب هذه الصناعة[٦]. بعد أن دعم ولاة مصر بالتمكين للعرب من استغلال هذه المعادن مشاطرتهم أرباحها. مما أدى إلى هجرة جماعات كثيرة منهم إلى أرض المعادن بعد أن كشف عن كثير من مناجمها[٧]. ولا ريب فى أن الحملات الحربية التى وجهها العرب إلى أرض البجه أتاحت الفرصة لكثير من الجماعات العربية للتخلف والاستقرار فيها للمشاركة فى خيراتها بعد أن راجت سوقها[٨].

ازداد إقبال العرب إذن على أرض المعادن وغيرها منذ عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣-

---

(١) يبدو من اسم هذا الملك أنه ينسب إلى أصل عربى اللهم إلا إذا كان لفظ على بابا تحريفاً لاسم أو لباب البجاوى. Sanders, G. E. R: "The Bisharin," SNR., XVI., part II. 1933. p. 124.

(٢) البلاذرى: نفس المصدر، ص ٢٣٩.

(٣) البلاذرى نفس المصدر، ص٢٣٩.

(٤) كان لوجود معدنى الذهب والزمرد أثر كبير فى اجتذاب القبائل العربية المختلفة إلى أرض البجه والاختلاط بهم. ووصف كثير من المؤرخين العرب هذه المعادن وأماكنها فى الصحراء الشرقية وطرق استخراجها.

(٥) ابن حوقل. كتاب صورة الأرض، ص٥٤.

(٦) المقريزى: للوعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩٤.

(٧) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص١٩٦.

(٨) زاد الإقبال على هذه المعادن وخاصة الذهب والزمرد بسبب ما طرأ على أحوال الدولة الإسلامية العامة من تحول من حياة البساطة إلى حياة الترف والرفاهية. فظهر البلاط الخليفى بمظهر العظمة، وبنى الخلفاء قصوراً فخمة أثثوها بأفخم الرياش. وشاركهم فى هذا الولاة والأمراء وبعض ذوى اليسار من المسلمين. وأن ثروة الفاطميين وكنوزهم وخاصة ما ظهر منها فى عهد المستنصر بالله الفاطمى لدليل واضح على مدى ما علقته الدولة من أهمية لاستخراج هذه المعادن لتزيين بلاطهم وقصورهم.

٨٤٢م)، لأن الخليفة استكثر من الجند الأتراك وأثبتهم فى الديوان وأمر واليه فى مصر كيدر بن نصر الصَفْدى بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم(١). وأدى هذا القرار الخطير إلى تمردات عربية ضد الوالى وانتهت بأسر زعماء العرب(٢). ومنذ عزل عنبسة بن إسحاق فى عهد المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١م) لم يعد حكام مصر يختارون من العرب، بل من الأتراك الذين يكرهونهم ويحقدون عليهم(٣). وبهذا فقد العرب نفوذهم القديم(٤). وعانوا ضيقا اقتصاديا شديدا بسبب ما فرض عليهم من أتاوات وضرائب مختلفة ابتدعها ابن المدبر والى الخراج فى مصر من سنة ٨٥٢م إلى سنة ٨٦٧م. وأثارت التدابير المالية الجديدة حفيظة العرب على الأتراك فقاموا بعدة تمردات فى أنحاء مختلفة قمعها الأتراك بعنف وقسوة، وزج بزعمائهم فى السجون، وفرضت عليهم غرامات باهظة(٥).

كان لهذا الضغط السياسى والاقتصادى أسوأ الأثر فى نفوس العرب، وبدأت جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة. ولم يكن أمامهم إلا الانسياب جنوبا وغربا بعيداً عن ضغط الأتراك فى مصر(٦). وحانت لهم هذه الفرصة عقب تأسيس الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون سنة ٨٦٨م حينما أعلن عن إعداد حملة حربية إلى بلاد النوبة وأرض البجه بقيادة أبى عبدالرحمن عبدالله بن عبدالحميد العمرى(٧)، فاشترك فيها كثير من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة.

وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل انتشار العرب إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية،

---

(١) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص ٩٤.
(٢) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٢٣.

(3) Lane - Pooles S. : op. cit. p. 42.

(٤) المقريزى. نفس المصدر والصفحة. يقول المقريزى «فانقرضت دولة العرب فى مصر وصار جندها العجم من عهد المعتصم إلى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون فاستكثر من العبيد».

(5) Lane - Poole, S. : op. cit. p. 43.

(6) MacMichael, H. A.: A Hist. of the Arabs in the Sudan. I. p. 166.

(٧) إن شخصية العمرى كانت من أعظم العوامل التى أدت إلى تحويل أنظار العرب إلى جهة الجنوب فى النوبة وأرض البجه حيث استقرت أعداد كبيرة منهم. ولد العمرى فى المدينة المنورة وترعرع فيها، ثم رحل إلى مدينة الفسطاط حيث اشتغل بتدريس الحديث، ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة القيروان، ثم عاد إلى مصر. وهناك وصلته أنباء مناجم الذهب بالنوبه والعلاقى فسال لعابه. وهكذا تحول رجل الدين إلى=

ورودادها من أولئك الساخطين على الحكم التركى فى مصر والمغامرين الذين يجرون وراء الثروة حيثما وجدوا إليها سبيلا. ويظهر من رواية المقريزى فى كتابه المقفى الكبير[١]. أن هدف هذه الحملة لم يكن مجرد تأديب البجه كما يقول ابن خلدون[٢]، أو تأديب النوبيين كما يزعيم ما كمايكل[٣]، بل كان هدفها الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب فى أرض البجه[٤].

تقدم العمرى جنوبا سنة ٨٦٨م متجاوزا العلاقى إلى إقليم شنقير[٥]. واهتدى إلى مواقع جديدة للتبر تعرف بالشلة قرب شنقير[٦]. وتمكن من الحصول على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لحياة مستقرة فى هذا الإقليم، بعد تغلبه على قوات جورج الأول ملك القوبة[٧].

غير أن بعض القبائل العربية من بلاد الشام وبخاصة سعد العشيرة وقيس عيلان خرجت على العمرى، بعد أن حصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة فى منطقة مريس ما بين أدندان وجبل عدة. فانهزم العمرى وانسحب بقواته شمالا إلى منجم قريب من منطقة

=مغامر كبير. واجتمع إليه كثير من طلاب المعدن، وسار على رأسهم نحو بلاد النوبة وأرض البجه. أنظر المقريزى: المقفى. مخطوط، المجلد الرابع، ص١٦٤ب. وانظر كذلك الملحق الموجود بآخر الكتاب عن «لعنة الحرس».

Quatremére. E. T. :Memoires geog. Hist. sur. l' Egypte.... II. pp. 59 - 80.

(١) المقريزى. المقفى، نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن خلدون. العبر، جـ٤، ص٣٠٢.

(3) MacMichael. H. A. : op. cit. p. 166.

(٤) وفى موضع آخر يقول ماكمايكل MacMichael إن هدفهم البحث عن المعادن والتخلص من الضرائب الثقيلة التى فرضت عليهم.

(٥) منطقة شنقير هى منطقة أبو حمد. وهى المنطقة التى تقع بين بربر ومروى الجديدة أنظر: Crawford. O.G. S. : Fung Kingdom of Sennar p. 26.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، حـ١، ص١٩١. يقول ابن سليم «والنيل ينعطف من هذه النواحى (دنقلة) إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف بالشلة. وهو بلد يعرف بشنقير. ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية إلى أن كان أمره ما كان.

(٧) انتهز العمرى فرصة النزاع داخل البيت الملكى النوبى بسبب وراثة العرش وحصل من نيوتى الثائر. على هذا الحق.

مـــريس[1]، واتسعت أعمال العمرى وامتد نفوذه شرقا حتى عيذاب وشمالا إلى أسوان، فكثرت بهم العمارة فى البجه حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب[2].

ويظهر أن العمرى كان يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية تحت زعامته فى هذه المنطقة، بدليل أن ابن طولون شك فى نوايا العمرى نحوه وخشى ازدياد نفوذه فى هذه البلاد فيطمع فى مصر. فأرسل ابن طولون جيشا لمحاربة العمرى بقيادة صباح بن حركام البابكى. غير أن العمرى تغلب عليه وهزمه ولم يكتف بهذا بل تقدم بجيوشه شمالا حتى أدفو سنة ٨٦٩م، لكنه آثر العودة إلى المناجم[3]، وهناك خرجت عليه قبيلة ربيعة ونشبت الحرب بينها وبين قوات العمرى التى ظلت على ولائها له، وتمكن العمرى من هزيمتها. غير أن العمرى ما لبث أن قتل على يد أحد أفراد قبيلة مضر[4]. وبهذا انتهت قصة هذا المغامر.

واستقر كثير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم حول أسوان، غير أن الشقاق ما لبث أن دب فى صفوفهم وبدأ صراع عنيف بين هؤلاء جميعا بعد موت العمرى على امتلاك المعادن بالعلاقى، وتمكن فخذ من ربيعة أن يخرج من خالفه من العرب بعد أن استمال إليه البجه «وتصاهروا إلى رؤساء البجه وبذلك كف ضرهم عن المسلمين[5].

وإذا كان اليعقوبى وهو المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث (٨٧١م) فانه لم يشير إلى أثر هذه الجماعات الإسلاميه المختلفه ـ وهم كثيرون كما قال بأرض البجه[6] ـ ودورهم فى نصر

---

(١) المقريزى. المقفى. المجلد الرابع، ص١٦٦ب. يرى دى فيار أن هـذا المنجم هو منجم أم جاريات. أنظر De Villard: op. cit. p. 113.

(٢) المقريزى: المقفى. المجلد الرابع، ص ١٦٧أ.

(٣) المقريزى المقفى: المجلد الرابع، ص١٦٦ب. لا نعرف سبب تردد العمرى فى التقدم شمالا إلى الفسطاط رغم أن الطريق كان مفتوحاً أمامه. وربما أحس بقرب وقوع خلاف بين رجاله وبينه فآثر العودة إلى مركز أعماله، وقد تحقق ظنه فخرجت عليه ربيعة وهزمها.

(٤) المصدر السابق، ص١٦٨ أ.

(٥) يبدو من قول ابن سليم أن ربيعة تحايلت على كهان البجه للدعوة بطاعة ربيعة والانضواء تحت لوائها لتتخذ منهم أعواناً ضد مخالفيها من العرب للانفراد بحكم هذه الجهات وإقامة إمارة إسلامية فيها. أنظر المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

(٦) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص٣٣٤ ـ ٣٣٥. ذكر اليعقوبى مواضع كثيرة بأرض البجه ليس من اليسير تحقيقها. غير أن موضع الأهمية فيما ذكره هو إشارته إلى جماعات عربية إسلامية كثيرة فى مواضع مختلفة بأرض البحه.

الثقافه الإسلاميه بين البجه، فإن أبا الحسن المسعودى الذى زار مصر حوالى ٣٣٢هـ (٩٤٠م) أى بعد حملة العمرى بحوالى سبعين سنة فقط، يتحدث عن الأثر الواضح لهذه الجماعات العربية الإسلامية فى نشر الثقافة الإسلامية فى إقليم البجه وبلاد النوبة كذلك. ويبدو من رواية المسعودى[١] أن الإسلام ظهر وانتشر بعد أن سكن جماعة من المسلمين أرض البجه، وممن سكن مناجم الذهب والعلاقى وعيذاب عرب ربيعة الذين اختلطوا بالبجه وتزوجوا من بناتهم، فاشتد ساعد البجه على من ناوأهم من النوبيين وغيرهم، كما اشتد ساعد ربيعة بالبجه على من خالفها من العرب، وتحالفت ربيعة مع البجه، وكان أميرهم زمن المسعودى أبا مروان بشر ابن إسحق بن ربيعة، الذى بلغ عدد جيشه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها من العرب وثلاثين ألف محارب على الإبل من الحدار بة[٢]، وهم المسلمون من سائر البجه. والراجح أن جماعة من عرب ربيعة نجحوا فى وضع أساس أول إمارة عربية إسلامية بالعلاقى بعد أن استمالوا إليهم البجه وجماعات عربية من قبيلتى مضر وتميم فخضع لهم الجميع، ويقول المقريزى «واستولوا على معدن الذهب العلاقى فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجه واختطوا قرية تعرف بالنماس وحفروا بها آبارا»[٣]. ويتحدث المسعودى عن وصول الإسلام جنوبا حتى جزيرة سواكن حيث تسكن جماعة من البجه اعتنقت الإسلام تعرف باسم الخاسّة[٤].

* * *

أما بلاد النوبة فإن حديث المسعودى واضح تمام ولا سيما فيما يتعلق بتسرب بعض

---

(١) المسعودى: مروج الذهب، جـ٣، ص٣٢ ـ ٣٤.

(٢) الحدارية. فى رأى بول Paul,A.: A Hist. of the Beja Tribes p. 64. هم الحضارمة من حضر موت، جاءوا من بلاد العرب فى القرن السادس الميلادى وكانوا وثنيين ثم اعتنقوا المسيحية تشبهاً ببعض البجه. وهاهم يعتنقون الإسلام فى القرن العاشر. ويرى بول أن الحدارية هم البليون الذين أشار إليهم الإدريسى. ومعناها فى لغة البجا العربى. Paul, A. : op. cit. 64. ويقول أحد أفراد قبيلة الأمرأر: إن البليون جاءوا أصلا من الحجاز. Crawford: op. cit. p. 110. ويقول بول: إنه مما يؤيد صحة نسبهم العربى استعمالهم الحصان الذى يكرهه البجه، ويضيف أنهم اضطروا للهجرة جنوباً ووضعوا أساس مملكة البليون. ويرى كروفورد. Crawford: op. cit p. 110. أن البليين ربما يرجعون إلى قبيلة بلى التى هاجرت بعض جماعاتها إلى إقليم البجه قبل الإسلام.

(٣) المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص٤٨.

(٤) نقل المقريزى هذا النص عن المسعودى. المقريزى جـ١، ص١٩٧.

الجماعات العربية من مصر إلى جزئها الشمالى المعروف باسم مريس، وما استتبع هذا التسرب العربى الإسلامى من ظهور بعض الأفكار الجديدة التى لا عهد للنوبيين بها من قبل. فيشير المسعودى(١) إلى أن جماعات من عرب قحطان وربيعة وقريش سكنوا أسوان، ثم أخذوا فى التقدم جنوبا فى أرض مريس حيث اشتروا أراضى من النوبيين استغلوها لصالحهم، وأثارت هذه الحالة ثائرة بعض ملوك النوبة(٢)، وحاولوا تسوية هذه المشكلة وديا، وحجتهم فى ذلك هى أن النوبيين عبيد للملك، ولاحق لهم فى بيع هذه الأراضى، لأنها ملك خاص للملك ولا أملاك لهم. ولما أحيلت هذه المشكلة إلى حاكم أسوان وشيوخها وأهل العلم بها للفصل فيها لجأ العرب إلى حيلة تحفظ لهم حقوقهم فى بلاد النوبة، فأوعزوا إلى النوبيين ألا يعترفوا لملكهم بالرق ففعلوا، ومضى البيع وتأكدت حقوق العرب المادية فى أرض مريس، وتوارثوا هذه الأراضى جيلا بعد جيل. ومعنى هذا أن العرب أضحى لهم حق الإقامة الدائمة فى هذه الجهات.

غير أن ثمة ظاهرة تستحق الالتفات وهى أن هؤلاء العرب المسلمين كانوا يدفعون خراج هذه الأراضى لملك النوبة المسيحى(٣). ويدل هذا على اعتراف هذه الجماعات العربية بامتداد نفوذ هؤلاء الملوك إلى هذه المنطقة التى يعيشون فيها، وتنظيم العلاقات الاقتصادية بينهم وبين ملوك النوبة(٤). غير أن هذا النفوذ لم يعد أن يكون اسمياً فقط. ذلك أن سكانها من النوبيين أنفسهم أصبحوا أحراراً غير عبيد شأنهم فى هذا شأن العرب الأحرار الذين اختلطوا بالنوبيين وتأثروا بهم وأخذوا عنهم بعض أفكارهم ونظمهم الاجتماعية. ولم يعترف لملك النوبة بالعبودية سوى أهل مقرة الأصليين، وهم من يسكنون إلى ما وراء الجنادل الثانية جنوباً وهى المنطقة التى يحرم على العرب الدخول فيها إلا للتجارة «وصارت النوبة أهل مملكة هذا الملك

(١) المسعودى مروج الذهب، جـ٣، ص٤١. انظر ملحق رقم ١١.

(٢) أثيرت هذه المشكلة مرة فى عهد الخليفة المأمون ومرة أخرى فى عهد المعتصم، وموضع الأهمية هنا أن النوبيين لم يقروا لملكهم بالعبودية فى كلتا المرتين.

(٣) لم يسمع عن مثل هذه الحالة فى تاريخ العلاقات بين الدولة الإسلامية ورعاياها، وبين الممالك المسيحية أو غيرها من الممالك التى تجاور أرض الدولة الإسلامية.

(٤) نلاحظ أن هذه الحالة التى نشأت عن ابتياع العرب المسلمين أراضى فى النوبة تخالف ما جاء فى عقد عبدالله بن سعد لملك النوبة سنة ٦٥٢م «وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه». غير أن هذه المنطقة المتاخمة لمصر جنوباً لم تقو على الصمود فى وجه القبائل العربية التى ازدحم بها إقليم أسوان فبدأوا بالانسياب جنوباً.

في نوعين: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان». ومعنى هذا أن حوالى نصف سكان مملكة مقرة، وهم المريسيون لم تعد تربطهم بملكهم تلك الرابطة القديمة القائمة على أساس العبودية والطاعة العمياء له.

لكن هل مارس العرب حقوقهم الاقتصادية في بلاد النوبة من أسوان، أو أنهم انتقلوا إلى بلاد النوبة لاستغلال أملاكهم؟ على الرغم من أن نص المسعودى لا يعطى إجابة صريحة، إلا أن ابن سليم (٩٧٥م) يشير في صدد حديثه عن النوبة أن المنطقة من أسوان حتى الشلال الثانى هى الجهة التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها أملاك[١]. هذا وتؤيد الأبحاث الأثرية في منطقة مريس وجود جاليات عربية إسلامية مستقرة في هذه المنطقة. ذلك أنه عثر في غير قليل من الأماكن بأرض مريس على كثير من الكتابات العربية يرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وتدل كثرة شواهد القبور المكتوبة بالخط العربى وتحمل أسماء عربية في كل من تافه (٢١٧هـ - ٨٣٢م) وفي كلابشة (٣١٧هـ - ٩٢٩م) على حياة هادئة مطمئنة لجاليات عربية إسلامية في بلاد مريس[٢]. ويرى دى فيـــار أن تنقل الجماعات العربية المختلفة بين منطقة مريس وأرض البجه كان أمراً مألوفاً، بدليل وجود كتابات عربية بالخط الكوفى على جدران قلعتين من دير يهيب بالقرب من منجم للذهب في هذه المنطقة. ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى (٩٨٢ - ٩٨٣م)، فضلا عن كتابات أخرى في نيزارى على بعد ٣٠ كيلو مترا جنوبى دير يهيب. ويرجع تاريخها إلى هذا العهد كذلك[٣].

لا شك أن اختلاط هذه الجماعات العربية المهاجرة بالعناصر النوبية والبجاوية، أدى إلى تأثرهم بالدماء العربية التى كانت تتجدد باستمرار مع توالى وصول عناصر عربية جديدة إلى هذه الجهات، بسبب اضطراب بعض أجزاء العالم الإسلامى وقيام الفتن والثورات. ولم تسلم مصر ذاتها أواخر عهد الإخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٩م) من التعرض لأخطار خارجية. فالفاطميون أخذوا يطرقون أبواب مصر من ناحية الغرب بعد أن ثبتوا أقدامهم في بلاد

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ص١٩٠.

(2) De Villard: op. cit. p. 118.

(3) Ibid. : op. cit. p. 115.

المغـرب[١] . وقام النوبيون كعادتهم بإغارة على الواحة الخارجة سنة ٩٥١م وأتبعوها بحملة أخرى على أسوان سنة ٩٥٦م حيث قتل ملك النوبة جمعاً من المسلمين. فخرج إليه محمد بن عبدالله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور بن الاخشيد (٣٤٥هـ - ٩٥٧م) فهزم النوبيين وتقدم جنوبا حتى إبريم وسبى كثيراً من أهلها وقدم بهم إلى مصر[٢]. بيـد أن هذه الهزيمة لم تضع حدا لهجمات النوبيين على حدود مصر من ناحية الجنوب فتجددت إغاراتهم على صعيد مصر زمن كافور، وتقدموا شمالا حتى إدفو منتهزين فرصة اضطراب الأحوال فى مصر، وقيام المجاعة فيها بسبب انخفاض مياه النيل وتعرضها من الشرق لتهديد القرامطة[٣].

وليس من المستبعد أن تكون هذه الإغارات النوبية نتيجة لدعاية فاطمية واسعة. الغرض منها إضعاف الإدارة المصرية وشغلها فى أكثر من جهة حتى لا تركز جهودها ضد الزحف الفاطمى من الغرب[٤]. ويظهر أن ملك النوبة امتنع عن دفع البقط.

* * *

ثم تأسست الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٩٦٩م فأرسل جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، أحمد بن سُلَيْم الأسوانى مبعوثا إلى جورج الثانى ملك النوبة، يطلب إليه دفع البـقط[٥] . ولابد أن الملك جورج شعر بالوضع الجديد فى مصر بقيام الدولة الفاطمية، فعاد إلى دفع البقط. أما ما يقال من أن جوهرا دعا ملك النوبة إلى اعتناق الإسلام فيرجحه أن الدولة الفاطمية قامت على مبدأ الدعاية والتوسع، وليس من غير المحتمل أن يكون جوهر فكر فى هذه الناحية من النوبة وفى أن يمتد الإسلام إليها على المذهب الشيعى.

وعلى الرغم من أن الملك جورج لم يقبل دعوة جوهر، وكذلك على الرغم مما سبق هذا من اضطراب العلاقات النوبية المصرية أواخر عهد الإخشيديين، فقد ازداد رسوخ قدم

(1) Lane Poole: op. cit. p. 8

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩٨.

(٣) المقريزى: نفس المصدر، ص ٣٢٩ أنظر:

Lane Poole: op. cit. p. 88.

(٤) يحيى بن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٧٤.

Quatremére: op. cit. p. 81.

(٥) المقريزى: المقفى، المجلد الرابع، ص٢٢٧أ.

Lane poole: op. cit p. 185.

الجماعات المسلمة ببلاد النوبة السفلى. فيذكر ابن سليم: أن المسلمين يتمتعون بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة التى استقروا فيها حيث توجد أملاكهم[١]، فضلا عن أن كثيرا من النوبيين أنفسهم اعتنقوا الإسلام رغم جهلهم باللغة العربية[٢]. والراجح أن العرب تعلموا لغة النوبيين بعد أن اختلطوا بهم واستطاعوا بذلك نشر ثقافتهم الإسلامية فى النوبة[٣].

وتدل الأبحاث الأثرية التى قام بها دى فيار فى جهة مريس على تأثير هذه الجماعات العربية فى النوبيين، إذ أنه عثر فى مقابر نوبية على كتابات باللغة القبطية تحمل تأريخا مزدوجا من التقويمين القبطى والهجرى، وترجع معظم هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى (٩٠٦ ـ ٩٠٧م). ثم تظهر بعد هذا كتابات من هذا النوع أيضا لا تحمل سوى التأريخ الهجرى، وهى جميعا ترجع إلى نفس هذا القرن[٤]. ويتضح كذلك مما جاء فى ابن سُلَيّم عن مملكة علْوة أن المسلمين يختلفون إليها للتجارة ولابد أن عددهم كان كبيراً بدليل أنه أصبح لهم رباط خاص بهم يأوون إليه[٥].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ص١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٠، ويقول ابن سليم: «وفيها (مريس) جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم «بالعربية». وهؤلاء بطبيعة الحال من النوبيين الذين اعتنقوا الإسلام، وظلوا محافظين على لغتهم النوبية التى لا تزال حية إلى اليوم. والراجح أن اعتناقهم الإسلام سبق تعلمهم للغة العربية.

(٣) يرى الأستاذ محمد عوض: السودان ووادى النيل، أن الجماعات السودانية اعتنقت الإسلام واتصلت بالنسب العربى، ولكنها احتفظت بلغتها الأصلية بعد أن دخلتها ألفاظ ومفردات وتراكيب عربية كثيرة، وهؤلاء هم النوبة والبجا وسكان الجبال فى دارفور. وقد كان من سياسة بعض العرب حباً فى سهولة نشر الإسلام أن تعلموا لغة البجة مثلا حتى يخالطوا السكان بسرعة ويؤثروا فيهم.

(٤) يدل استعمال التأريخين، ثم التأريخ الهجرى فى وثائق نوبية باللغة القبطية على مدى تأثر النوبيين بالثقافة الإسلامية، وعثر على معظم هذه الكتابات فى مقبرة ساكينيا بالنوبة السفلى. نشر دى فيار نتائج أبحاثه فى مقال خاص عن مقبرة ساكينيا وأشار إليها فى كتابه تاريخ النوبة المسيحية.
أنظر: De Villard, : op. cit. p. 119.

(٥) المقريزى: المواعظ، جـ١، ص١٩٣، يقول ابن سليم: «... وهذه الحكاية (عادات أهل علوة وتقاليدهم) صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه...» وفى موضع اخر: «... ولها (سوبا) رباط فيه جماعة من المسلمين...» وربما كان هذا الرباط بمثابة دار ضيافة يلجأ إليها المسلمون عند مرورهم بمدينة سوبا، أو لوكلائهم التجاريين المستقرين فيها، أنظر أيضاً: MacMichael, H.A. : op. cit. p. 171, Note 6.
ويقول اليعقوبى: البلدان، ص٣٣٥ ـ ٣٣٦: «... ثم مدينة علْوة العظمى التى تسمى سوبا وبها ينزل ملك علْوة، والمسلمون يختلفون إليها...» وسنتعرض فى شىء من التفصيل عن النفوذ العربى فى علوة فى ص ١٠٠٦.

ويتسم عهد الفاطميين فى مصر (٩٦٩ ـ ١١٧١م) بقيام علاقات دالة على حسن الجوار والمسالمة بين مصر الفاطمية والنوبة المسيحية. غير أن هذا العهد شهد ميلاد إمارة عربية قوية اتخذت مدينة أسوان مركزاً لها، وامتد نفوذها جنوبا فى أرض مريس، وأنشأ هذه الإمارة زعيم من عرب ربيعة اسمه أبو مروان بشر بن إسحق[١]، ثم لم يلبث النزاع أن نشب فى العلاقى وعيذاب بين بطون ربيعة ذاتها، وقتل بشر بن إسحق وخلفه على زعامة القبيلة ابن عمه أبو عبدالله محمد بن على المعروف باسم أبى يزيد بن اسحق. واختلط عرب ربيعة بالنوبيين وتزوجوا من بنات رؤسائهم، فأضحت لهم مصالح مادية فى بلادهم، لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف عند النوبيين، وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت.

والراجح أن هذه العشيرة كونت طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل مريس الذين يزال عنهم السلطان الفعلى لملك النوبة المسيحى، لاسيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام. ثم اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة العربية النوبية، وذلك حين استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بأبى المكارم هبة الله أمير ربيعة فى القبض على أبى ركوة[٢] الخارج على الدولة الفاطمية وهو يلوذ بالفرار من مصر من ناحية الجنوب[٣]. ونجح أبو المكارم فى القبض على أبى ركوة سنة ١٠٠٦م، ولذا كوفىء بلقب كنز الدولة. وتوارث أبناؤه هذا اللقب «ولم تزل الإمارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة»[٤]. وعرف بنو ربيعة ببنى كنز[٥]. وقصد الكتاب والشعراء

---

(١) هاجرت ربيعة إلى مصر حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى، وانتشروا فى جهات القطر المختلفة، فاستقر فريق منهم حول أسوان، وفريق آخر فى العلاقى وعيذاب، وثالث حوالى بلبيس. ونجح فريق العلاقى فى وضع نواة إمارة عربية إسلامية فى العلاقى رئيسها أبو مروان بشر بن إسحق.

(٢) أبو ركوة هو الوليد بن هشام بن عبدالملك من بنى أمية وسمى أبو ركوة لأنه كان يحمل ركوة لوضوئه على عادة الصوفية، ولجأ إلى القيروان ثم اتجه نحو مصر ونزل على ابى قرة فى برقة ودعا للثورة ضد الحاكم لظلمه، فتبعه بنو قرة وبايعوه وهزموا والى برقة من قبل الحاكم وملكوها، وانضم إلى أبى ركوة جماعة من كتامة وانتصر على جيوش الحاكم، ووصل إلى أهرام الجيزة، غير أنه هزم فى الفيوم لتخلى بنى قرة عنه وفر إلى النوبة، فبعث الحاكم فى طلبه. أنظر ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٤، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٧٠.

(٤) عمدت الدولة الفاطمية إلى الألقاب الضخمة تنعم بها على الناس مع باب المكافأة والاعتراف بالخدمات، وتلك عادة نشأت فى بعض الدول الإسلامية بشكل واضح منذ أيام البويهيين فى بغداد. أنظر المقريزى، البيان والإعراب، ص٥٠؛ وانظر ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٥، ٢٨٨. أنظر كذلك MacMichael, H.A. op. cit. p. 150.

(٥) بنو كنز هم الكنوز الحاليون الذين يمتد وطنهم من أسوان فى الشمال إلى كرسكو فى الجنوب.

أمراء بنى كنز ومدحوهم، ومن أولئك الشديد أبو الحسن بن عرام وأبو محمد الحسن بن الزبير[١].

ومن الطبيعى أن يحسب الأيوبيون، الذين خلفوا الفاطميين فى حكم مصر سنة ١١٧١م كل حساب لأبناء هذه الإمارة. ويتضح هذا فى ثنايا العلاقات بين مصر الأيوبية زمن صلاح الدين والنوبة المسيحية. ذلك أن الجند السودانيين فى جيش الخليفة العاضد الفاطمى قاموا بحركة لإقصاء صلاح الدين من الوزارة العاضدية أواخر أيام الفاطميين، فجرد عليهم صلاح الدين حملة بقيادة شجاع الدين البعلبكى سنة ١١٧٢م. ودارت بين الفريقين معارك عنيفة فى شوارع القاهرة انهزم بعدها الجند السودانيون إلى الصعيد[٢].

وإذا كان كنز الدولة اشترك مع قائد صلاح الدين فى القضاء على حركة المتمردين السودانيين، فإن ولاء بنى كنز لم يلبث أن تحول ضد صلاح الدين. ففى سنة ١١٧٢ - ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس حملة لغزو النوبة. وربما كان أحد أهداف هذه الحملة الامعان فى القضاء على نفوذ بنى كنز، ظنا من صلاح الدين «أنهم شيعة للعلوية بمصر»[٣] غير أن هناك من المؤرخين من يرى أن صلاح الدين رغب فى فتح النوبة لتكون موئلا له ولأسرته إذا هاجمه نور الدين فى مصر[٤]. وربما كان صلاح الدين يفكر فى إيجاد بعض المكملات الاقتصادية لمشروع الاستقلال بمصر. أو ربما كان لهذه الحملة دوافع أخرى تتصل بمشروع غزو اليمن، إذ أن صلاح الدين أراد أن تكون طريقا قريبا لبلاد اليمن، وتوغل توران شاه فى بلاد النوبة حتى إبريم. غير أن تقرير توران شاه إلى صلاح الدين جاء مخيبا لذلك المشروع[٥].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٨.

(2) Lane Poole: op, cit. p. 192.

(٣) يزعم ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٥، ص٢٨٨ - أن بنى كنز شيعة للفاطميين، وربما فسر ابن خلدون قيام علاقات طيبة بينهم وبين الفاطمين منذ عهد الحاكم الذى منحهم الألقاب الضخمة أنهم شيعة للفاطميين. غير أن استعداد بنى كنز للتعاون مع صلاح الدين أوائل عهده لا يؤيد ما ذهب إليه ابن خلدون، وأن خروجهم عليه فيما بعد لم يكن بسبب تشيعهم للفاطميين بل لرغبتهم فى الاحتفاظ بنفوذهم فى إقليم أسوان. ذلك النفوذ الذى أراد صلاح الدين الانتقاص منه.

(٤) ابن خلدون: نفس المصدر، ص٢٨٦، العمرى: مسالك الأبصار مخطوط، جـ٢، ورقة ٤٩٢.

(5) Lane Poole: op. cit. p. 197.

وإذا كانت أنباء هذه الحملة ليس فيها ما يدل على قيام توران شاه بعمل عدائى ضد كنز الدولة، فالمعروف أن صلاح الدين أقطع هذا الاقليم إلى أحد أمرائه وهو أخو أبى الهيجاء السمين. ولهذا ثار كنز الدولة على صلاح الدين وجمع جيشا من النوبيين والعرب وهجم على أخى أبى الهيجاء وقتله(١). والراجح أن كنز الدولة كان على اتصال ببقايا العناصر العاملة على إعادة الدولة الفاطمية، فدعا للأمير دواد بن العاضد(٢). غير أن هذه المحاولة لم تنجح واستطاع صلاح الدين القضاء على هذه العناصر الثائرة فى مصر وأرسل أخاه الملك العادل على رأس جيش هزم كنز الدولة وقبض عليه وقتله(٣). وأدت هذه الهزيمة إلى رحيل بنى كنز عن أسوان(٤)، فلم تعد مركز إمارتهم، بل نقلوا مركز نشاطهم إلى الجنوب فى بلاد مريس واندمجوا اندماجا تاما فى سكانها(٥).

* * *

ويفسر خروج النوبيين فى مصر على صلاح الدين حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها. ذلك أن صلاح الدين عزف عن استخدام النوبيين فى الجيش الأيوبى، واستبدلهم بعناصر شمالية، كردية وتركية وديلمية. ولهذا قام النوبيون بعدة محاولات لإعادة سلطان الفاطميين ليستردوا مركزهم الذى كان لهم فى الجيش الفاطمى، غير أن موضع الأهمية هنا ليس تذمر النوبيين من النظام الجديد، بل إن وجود أعداد ضخمة منهم فى مصر فى هذا الوقت هو الظاهرة التى تسترعى الالتفات، وقد يكون لها ثمة أثر فى ضعف النوبة المسيحية واضمحلالها. فمنذ أن فقد العرب سلطانهم القديم فى الدولة الإسلامية على أيام المعتصم بالله، بدأ الولاة فى مصر يستخدمون عناصر غير عربية فى الجيش. وكان ابن طولون أول من استخدم السودانيين فى الجيش الطولونى . وبلغت عدتهم ٤٠ ألف سودانى(٦)، وهو عدد لا يستهان به، وأقطعهم

(١) ابن خلدون نفس المصدر، جـ٥، ص٢٨٨.
(٢) المقريزى: البيان والإعراب، ص٥٠.
(3) MacMichael H.A. : op. cit. p. 177.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، حـ١، ص١٩٨.
(٥) سنرى فيما بعد كيف أصبحت هذه الإمارة الإسلامية قوة ذات خطر فى بلاد النوبة ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.
(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٩٤.

إقطاعاً خاصاً عرف باسمهم[1]. وبلغ من كثرة عددهم حداً استوجب معه تعيين حاجب خاص لصرف جراياتهم[2]. لكن كيف حصل ابن طولون على هؤلاء النوبيين للعمل فى جيشه؟ يقول المقريزى إنه حصل عليهم بطريق الشراء[3]. ولو صح هذا فإن بلاد النوبة تعرضت لحملات عنيفة من جانب تجار الرقيق وخاطفيهم[4].

وبهذا يمكننا أن نخرج باستنتاج مطمئن وهو أن من ضمن عوامل اضمحلال ممالك النوبة ما يمكن أن نسميه تبادل فى الجماعات والثقافات[5] بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية. فخرج من النوبة جماعات نوبية مسيحية التحقت بجيش مصر. ولفظت مصر بعض عناصر الشغب فيها ـ فى نظر ولاتها الأتراك ـ وهم جميعاً من العرب المسلمين فانسابوا إلى النوبة. ثم أخذ هؤلاء يؤثرون تأثيراً بشرياً وثقافياً فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة، على حين أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر لابد أن تكون تحولت إلى الإسلام، بدليل ما تردد فى بعض المراجع من «شكوى أهل مصر من ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند السودانيين»[6].

ولم تتوقف عملية جلب النوبيين للخدمة فى الجيش المصرى بعد وفاة ابن طولون، بل استمرت فى جيش الإخشيديين وخاصة فى عهد كافور[7] النوبى. ثم ازدادت أعدادهم فى عهد الفاطميين لا سيما فى عهد المستنصر بالله، وشجعت أم المستنصر وهى سودانية الأصل

(١) المصدر السابق، ص٣١٥: «... ثم قطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من يسكنها فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم».

(٢) المصدر السابق ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(4) Walkely, C.E. J.: "The Story of Khartoum," SNR. XIII. part II. p. 224.

(٥) لم يكن التبادل هنا عملية مقصودة ومرتبة، بل هو محض الصدفة. ثم أن الأثر الإسلامى كان هو الغالب على هذا التبادل، سواء فى النوبة ذاتها أو مصر. ولم يتأثر المسلمون بالنوبيين إلا قليلا فيما سنشير إليه من تسرب بعض العادات القديمة إلى المسلمين بعد أن يتم تحويل النوبيين جميعاً إلى الإسلام.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٣٢٠، يقول المقريزى: «وشكا أهل مصر إلى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه. فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر».

(٧) المصدر السابق، ص٩٤:

على جلب أبناء جلدتها، وبلغت عدتهم حسب رواية ابن ميسر ٥٠ ألفا[١]. هذا فضلا عن طوائف سودانية (نوبية) كثيرة اتخذت أسماءخاصة وسكنت حارات خاصة بها كذلك[٢]. وشارك أولئك النوبيون فى حوادث الدولة الفاطمية، فاستعان بهم الحاكم فى القضاء على الثورات[٣] واستعانت بهم أم المستنصر بالله على الأتراك[٤]. وتدخلت فئاتهم فى النزاع الذى نشب بين الخليفة الحافظ وابنه الأمير الحسن بسبب الخلاف على ولاية العهد[٥]. هذا وكان للنوبيات دور هام فى الحياة المصرية. فكثيرات منهن تخصصن فى تربية أولاد السلاطين وتنظيم الأفراح والأعياد وترتيب شئون الحريم السلطانى[٦].

* * *

ومما لا شك فيه أن العناصر النوبية النازحة إلى مصر لم يقتصر دورها فى الحياة المصرية على ما سبقت الإشارة إليه من الانخراط فى صفوف الجيش المصرى أو ممارسة الأعمال الحرة فى أحيائهم الكثيرة المنتشرة فى القاهرة، أو العمل فى بيوت السلاطين والأمراء، بل قدر لبعض فئاتهم أن يشارك مشاركة إيجابية فى الحياة العربية الإسلامية فى مصر قبل أن ينتشر الإسلام فى بلادهم[٧]. فتشير المراجع العربية إلى بعض شخصيات نوبية ممن اشتغل بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد بن أبى حبيب، أو ممن سلك طريق التصوف مثل ذى النون المصرى النوبى الأصل وتحية النوبية.

---

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٤. ومن هذه الطوائف الريحانية وسكن فريق منهم حارة بهاء الدين (داخل باب الفتوح) وفريق آخر بالحسينية، وطائفة المنصورة وسكنت حارة تعرف بهذا الاسم (قرب بركة الفيل، خارج باب زويلة) وطائفة الفرجية والوزيرية وغيرها. وقد اتسعت أحوالها جميعاً.

(3) Lane Poole: op. cit p. 132.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٣٣٥.
أنظر: Lane Poole: op. cit. p. 145.

(٥) المصدر السابق، جـ٢، ص١٧ ـ ١٨ أنظر: Lane Poole: op. cit. p. 168.

(٦) المصدر السابق: جـ٢، ص١١٦.

(٧) عبدالمجيد عابدين: الهجرات بين السودان والبلاد العربية، ص٥٧.

أما يزيد بن أبى حبيب، فأبوه أبو حبيب، وأسمه سويد، كان من سبى النوبة الذين أسرهم العرب فى حملتهم الثانية على النوبة سنة ٦٥٢م. وقد أفادت ابنه يزيد صلته بعدد من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم، فى أن أصبح محدثا ومؤرخا وفقيها كذلك. وتتلمذ على يديه عدد من التلاميذ أضحوا من أشهر فقهاء مصر الأوائل منهم: الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة.

أما أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصرى فأصله من النوبة، ونشأ فى مصر فى القرن الثانى للهجرة. وقد تلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس حين خرج إلى الحجاز حاجا. ولما عاد ذو النون إلى مصر مال إلى حياة الزهد والتصوف(١).

سقوط مملكة مقرة المسيحية

انتشار الاسلام والعرب فيها

ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ■ الحملات المملوكية على النوبة، حملتا بيبرس، أسبابهما ونتائجهما ■ النزاع بين أفراد البيت الملكى النوبى ■ حملات قلاوون على النوبة: أسبابها. النزاع بين ملوك مقرة وملوك علوة ■ أول ملك نوبى مسلم. ظهور بنى كنز وازدياد نفوذهم ■ انتشار الإسلام وأثر العرب فيه ■ سقوط مملكة النوبة المسيحية الشمالية ■ بعض الآراء فى عوامل سقوطها، مناقشة رأى ابن خلدون ■ أحوال بلاد النوبة الداخلية بعد سقوط المملكة المسيحة.

* * *

لا شك أن استقرار بعض الجماعات العربية فى إقليم العتباى، واستغلال مناجم الذهب بالعلاقى، بعث نوعاً من النشاط التجارى فى هذه المنطقة. ويشير بعض جغرافى القرن العاشر الميلادى ومنهم ابن حوقل إلى أن عيذاب كانت ميناء للذهب(٢). وذاعت شهرة عيذاب منذ القرن الثانى عشر الميلادى، بعد تحول قوافل الحجاج من مصر وبلاد المغرب، عن طريق سيناء إلى الصعيد الأعلى (قوص) فعيذاب، بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين،

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٢٨٠ ـ ٢٨٣.

(2) Murray, G. W: "Aidhab," GJ. p. 235.

وقيام الإمارات الصليبية بها. وبلغت عيذاب ذروة مجدها وشهرتها حينما وصلتها كذلك سفن من اليمن والهند حاملة الأخشاب والتوابل. وبهذا أضحت صحراء عيذاب «عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل الحجاج والتجار»(١). وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر منذ أواخر الدولة الفاطمية إلى أوائل دولة المماليك الثانية(٢). وبلغ من أهميتها أن أشرفت عليها إدارة مصرية، فعينت الدولة المملوكية ـ إلى جانب واليها الحدربى ـ واليا مصريا وقاضياً مصرياً كذلك(٣).

لفتت شهرة عيذاب أنظار الصليبيين، فحاولوا توجيه الضربات إليها، لقطع الطريق على الحجاج المسلمين من ناحية، والقضاء على مركزها التجارى من ناحية أخرى. وعلى الرغم من فشل الحملة الصليبية بقيادة أرناط ضد الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز سنة ١١٨٢، فإن سفن هذه الحملة حطمت ست عشرة سفينة للمسلمين فى عيذاب(٤). غير أن هذا الهجوم الصليبى لفت الأنظار إلى أهمية عيذاب، فازداد اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك بها كلما ازدادت التجارة المصرية فى البحر الأحمر.

ويتضح اهتمام سلاطين المماليك بتجارة البحر الأحمر وساحله الأفريقى من علاقات الدولة

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢.

(٢) المقريزى: نفس المصدر، ص٢٠٢، يقول المقريزى عن عيذاب «فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتى سنة، من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر وانقطاع الحج فى البر، إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحاً، ثم أخرج قافلة الحجاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة، فقل سلوك الحجاج لهذه الصحراء، واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك سنة ست وستين وسبعمائة». أى أنها ظلت ميناء للتجارة وطريقاً للحجاج كذلك منذ حوالى ١٠٥٨م إلى ١٣٠٠م ـ ثم أضحت فى خدمة التجارة حتى خربها السلطان برسباى سنة ١٤٢١م أنظر: Leo Africanus: The Hist. and Desc. of Africa III, p. 837.

(3) Bloss, J. F.E. "The Story of Swakin," SNR., II., p. 280. وانظر:
Paul, A. : "Aidhab: A Medieval Sea Port" SNR., XXXVI, Part, I, 1955. p. 66.

(4)Newbold, D.: "The Crusades in the Red Sea and the Sudan", SNR, XXVIII. part I, p. 220 - 6.

المملوكية بميناء سواكن المطل على ممالك النوبة المسيحية. ففى سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٤م) احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك[١]، لتعرضهما لأموال المتوفين من التجار المصريين[٢]. والراجح أن متملك سواكن لم يستجب للاحتجاج المملوكى، ولم يكد يمضى عام وبعض عام، حتى بعث والى قوص - تنفيذاً لأمر السلطان بيبرس - حملة حربية لتأديب صاحب سواكن سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م). ومن نتائج هذه الحملة، انهيار نفوذ صاحب سواكن وفراره واستقرار حامية مملوكية بسواكن نفسها[٣]، فضلا عن فرض أموال الزكاة على سكانها لحساب الدولة المملوكية[٤] وهى الأموال التى أشرف على جمعها والى عيذاب وقاضيها.

ويرى البعض أنه كان لسقوط سواكن فى يد مصر، مغزى سياسى بعيد الأثر على ممالك النوبة المسيحية. لأنه أدى إلى إحكام الرقابة والسيطرة الإسلامية على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر، مع التهديد المباشر لمعاقل المسيحية فى النوبة[٥].

ويبدو أن هذه السيطرة المملوكية الجديدة على المنفذ البحرى لممالك النوبة المسيحية، أدت إلى قلق حكامها، فبدأوا يحسون بما نزل بمصالحهم الاقتصادية من أضرار، فضلا عن عزلهم عن العالم الخارجى، ولا سيما الأراضى المقدسة بفلسطين[٦]. وربما كان هذا هو الدافع للنوبيين للإغارة على أطراف مصر الجنوبية سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) فى السنة العاشرة من عهد بيبرس.

ذلك أن داود ملك النوبة أغار على ثغر عيذاب ونهب متاجرها وقتل عددا كبيرا من أهلها،

(١) أكبر الجزر المعروفة بأرخبيل دهلك بالبحر الأحمر، وموقعها قبالة مصوع - أنظر المقريزى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة) جـ١، القسم الثانى، ص٥٠٦، حاشية رقم ١.

(٢) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق: ص٥٥٠.

(٤) المصدر السابق: ص٥٥٨. ويتضح من هذا أن المسلمين كثر عددهم فى سواكن إلى درجة أوجبت على السلطان استخراج الزكاة منهم.

(٥) صلاح الدين الشامى - التوجيه البحرى للسودان وأثره فى طرق التجارة والمواصلات، ص١٢٦. رسالة لم تنشر.

(6) Crowfoot, J. W. : Christian Nubia, J. E. A. : XIII., pp. 148 - 149.
Kraus: op. cit, p. 1.

من بينهم الوالى والقاضى، ثم أغار داود على مدينة أسوان، وخرب عددا من السواقى، وأسر كثيرا من الأسوانيين وسخرهم فى بناء كنيسة سوس (المسيح) بدنقلة[١].

وثمة رأى[٢] فى أسباب حركة الملك داود ضد عيذاب وأسوان، وهو أن النوبيين تأثروا بما أصاب الأقباط فى مصر من بعض حوادث اضطهاد. ولو صح هذا فإن الأقباط تعرضوا لموجة من الاضطهاد على عهد السلطان بيبرس، لا تهامهم بحرق بعض أحياء القاهرة سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٤م)[٣]. ولا يبعد أن يكون هذا أحد الأسباب التى أدت إلى حركة دواد ضد عيذاب وأسوان وسكانهما.

وكيفما كان الأمر فإن السلطان بيبرس أرسل حملة بقيادة والى قوص سنة ٦٧١ (١٢٧٣ - ١٢٧٣م) لغزو النوبة. ووصلت الحملة المملوكية فى تقدمها جنوبا إلى دنقلة. غير أنها لم تستطع الظفر بداود، فعادت بعدد من الأسرى إلى القاهرة ومن بينهم صاحب الجبل[٤].

غير أن هذه الحملة كانت ضئيلة. ويبدو أن بيبرس أرسلها وفى نيته أن يجهز غيرها. وسنحت الفرصة حين أقبل أحد المطالبين بعرش مقرة ويدعى شكندة إلى القاهرة متظلما من خاله داود لا نتزاعه الملك منه «وكان له دونه»[٥]، فصادفت تلك الاستغاثة هوى فى نفس بيبرس، الذى كان موتورا من داود. فجرد السلطان معه جيشا سنة ٦٧٤هـ (١١٧٦م)

---

(1) Quatremére, Et: "Memoires Geographiques et Historiquea sur I' Egypte et sur Quelques Contrees Vosines II., pp. 96. 149.

(2) Beckett, H. W. : ASN., II., Report 1907 - 8. p. 253.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص٨.

(٤) المصدر السابق: جـ١، ص٢٠٢. أطلق المقريزى على هذا الأسير اسم صاحب الخيل. غير أن كتر مير فى ترجمته لهذا النص ذكره باسم صاحب الجبل:

Quatremére: op. cit: p. 96.

(٥) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٤. يطلق المقريزى على هذا المدعى اسم مشكذ على حين أن مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جـ٢، ص٣٩٨ يطلق عليه اسم شكندة، وقال: إنه ابن عم الملك داود. ويطلق عليه ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص٤٠٠، اسم منتشكيل ويقول إنه ابن أخى داود. أما القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٧٧ يطلق عليه اسم مرقشنكز ويقول إنه عم داود. «واستنجده على ابن أخيه (داود)».

- -

بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقانى الاستادرا وأيبك الأفرم أمير جاندار[١]. واشتملت الحملة على ثلثمائة فارس وأجناد الولايات وعدد من الرماة ورجال الحراريق والزردخاناة. واشترك فيها عربان الوجه القبلى[٢]. وأوغل الجيش المملوكى فى بلاد النوبة. وخرج النوبيون إلى لقائه فى ملابس سود يطلقون عليها اسم الدكاديك[٣]، وقاتلوا الجيش المملوكى قتالا عنيفا انتهى بهزيمة النوبيين وفرارهم. واستولى الأفرم على قلعة الدو (الدر) وزحف الفارقانى برا وبحرا لاستئصال ما تبقى من شأفة عناصر المقاومة النوبية، حتى وصل إلى جزائر ميكائيل، قرب الشلال الثانى، وتمكن من اختراق الجنادل بمراكبه. ففر النوبيون إلى الجزر. وحاول صاحب الجبل واسمه قمر الدولة أن يفرّ من وجه المماليك. غير أنه قبض عليه ثم أخلى سبيله على أن يستمر فى تبعيته لشكندة. وكُتب له أمان بعد أن حلف لشكندة بالطاعة[٤]. ثم أوغلت الحملة فى بلاد النوبة، حتى إذا اقتربت من دنقلة، خرج الملك داود للقائها فى جيشه ومعه أخوته وبنو عمه[٥] واشتبك الفريقان فى معركة انتهت بفرار داود، وقتل عدد من النوبيين وأسر عدد آخر من بينهم أخ لداود ويدعى سنْكُوَا[٦]. ثم عادت الحملة المملوكية إلى دنقلة بعد أن تم إخضاع النوبيين. وتقرر تعيين شكندة ملكا للنوبة بدلا من داود. وتم تتويجه فى دنقلة فى نفس العام[٧].

ومما يدعو إلى الالتفات هنا، أن هذه الحملة تختلف فى طابعها العام عما سبقها من حملات ضد النوبة. فهى ـ على قول ابن الفرات ـ تعتبر فتحا حقيقياً للنوبة[٨]. لأنها وضعت أسسا جديدة للعلاقات بين البلدين، بدليل الشروط الجديدة التى قطعها الملك شكندة على نفسه للسلطنة المملوكية[٩]، ومن هذه الشروط:

....

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢. ومفضل، نفس المصدر، جـ٢، ص٣٩٨.
(٢) المقريزى ـ المواعظ والاعتبار جـ١، ص٢٠٢.
(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة، ومفضل، نفس المصدر، ص٣٩٩.
(٤) المقريزى: نفس المصدر والصحفة. وابن خلدون. نفس المصدر جـ٥، ص٤٠٠.
(٥) مفضل: نفس المصدر، ص٣٩٩.
(٦) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوطة، جـ٢٨، ورقة ١٠٩، والمقريزى، السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٣٢.
(٧) المقريزى: السلوك، نفس المصدر، ص١٢٢.
(٨) ابن الفرات: جـ٧، ص٤٥.
(٩) النويرى: نفس المصدر، جـ٢٨، ص٢٥٩ب. المقريزى. نفس المصدر، القسم الثالث، ملحق رقم ٥، مفضل، نفس المصدر، ص٣٩٩.

١ـ أن الملك شكندة أصبح تابعا للسلطان المملوكى، ونائبا عنه فى حكم بلاد النوبة.

٢ـ أن يرسل ملك النوبة نصف حصيلة ما يجمعه من بلاد النوبه خالصا للسلطان، فضلا عن عدد من الهدايا، تشتمل على عدد من الفيلة والزرافات الخ.

٣ـ أن يدفع كل فرد من العقلاء البالغين دينارا عينا للسلطان ما بقوا على النصرانية.

٤ـ أن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل ملكا خاصا للسلطان.

٥ـ أن يسلم ملك النوبة ما كان لسلفه داود، وأخيه سَنْكُوا وأقاربه، ومن قتل من عساكره، من المتاع والعقار إلى السلطان.

٦ـ ألا يترك شكندة أحدا من العربان فى بلاد النوبة، ومن وجده أرسله للسلطان.

٧ـ أن يطلع ملك النوبة السلطان بكل ما يصل إليه من أخبار.

وتأكدت هذه الشروط جميعا بيمين حلف عليها شكندة[١].

وموضع الأهمية هنا أن مقرة أضحت جزءا من السلطنة المملوكية، وأن السلطان المملوكى أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم. ثم أن حصيلة البلاد النوبية أصبحت مناصفة بين السلطان والملك النوبى. ولا يعنى عدم الإشارة إلى البقط هنا، أن النوبيين توقفوا عن دفعه بل الراجح أن عملية إرسال الرقيق النوبى إلى مصر استمرت بدليل قول المقريزى «والتزم (شكندة) أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم[٢]». ثم أن السلطنة المملوكية طبقت على النوبيين لأول مرة الأسس الإسلامية الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة. فعرضت الإسلام أو القتال أو الجزية. وأختار الملك النوبى دفع الجزية[٣]. وأصبح النوبيون أهل ذمة. ولهذا أنشأ السلطان بيبرس فى مصر ديوانا سماه ديوان النوبة. ومهمته مراقبة جمع الجزية والخراج. وتعيين العمال لذلك[٤]. ثم أن بلاد العلى وبلاد الجبل[٥]، أضحت تابعة تبعية يحتمل أن

(١) النويرى: نفس المصدر والصفحة، المقريزى نفس المصدر والصفحة. مفضل: نفس المصدر، ص٤٠٠.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١، ص٣٠٢.
(٣) النويرى: نفس المصدر، ص٢٥٩ب.
(٤) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٣.
(٥) بلاد الجبل هى الجنادل الأولى. والعلا هى التى تليها جنوباً حتى جنوب المحرقة تقريباً وهى التى أطلق=

تكون إقطاعية او استغلالية مطلقة للسلطان، وهى حسبما ورد فى المراجع تقدر بربع بلاد النوبة[١].

ثم رأى الأميران آقسنقر الفارقانى وأيبك الأفرم، ضرورة تأكيد هذه اليمين التى حلف عليها شكندة بيمين أخرى تتضمن ولاءه للسلطان. وجاء فى هذه اليمين الثانية «متى ورد علىّ مرسوم السلطان فى ليل أو نهار يطلبه (أى شكندة) إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته، ولا يتأخر بوجه من الوجوه إلا بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر»[٢].

وكما هى العادة فى العصور الوسطى، فإن نسخة ثالثة لتلك اليمين حلف عليها أهل النوبة، تعهدوا فيها بالطاعة لملك النوبة، بشرط ولائه للسلطان، صاحب السلطة العليا فى البلاد. ولا طاعة له عليهم إذا خرج على السلطان. وأن يطالعوا السلطان إذا علموا على نائبه (الملك) أمراً يخالف المصلحة. والتعهد للملك بدفع دينار عيناً كجزية لإرسالها إلى القاهرة[٣].

وعلى هذا أتمت الحملة مهمتها، بعد أن أطلقت أسرى عيذاب وأسوان. ويقال إن الحملة خربت كنيسة سوس (المسيح) بدنقلة[٤]. وأخذت ما فيها من أدوات ذهبية ونفسية[٥]. ثم غادرت دنقلة فى ذى الحجة من نفس العام ٦٧٤هـ (١٢٧٦م) إلى القاهرة مصطحبة معها عشرين أميراً نوبياً لضمان وفاء النوبيين بالتزاماتهم إزاء السلطنة المملوكية.

ومما يسترعى الإنتباه هنا، ما يتردد فى بعض المراجع بشأن الرقيق الذين غنمهم المماليك، فيقال إنه بلغ من كثرتهم أن بيع الرأس بثلاثة دراهم. ويقول المقريزى إنه «فضل بعد القتل،

=عليها فى العصر الرومانى اسم Dodekaschoinos ويعنى ذلك إعادة الحقوق القديمة لمصر فى هذه المنطقة والتى ضاعت منها عقب انسحاب القوات الرومانية منها على عهد دقلديانوس.

أنظر: MacMichael, H.A.: A Hist. of the Arabs in the Sudan, I. p. 182.

(١) يرى ما كمايكل Ibid,: op. cit. p. 181 وكذلك Arkell: op. cit. p. 195, أن المقصود بالنوبة هنا هو النوبة الأصلية Nobatia (مريس).

(٢) مفضل: نفس المصدر، ص٤٠٣.

(٣) النويرى: نفس المصدر، جـ٢٨، ص٢٥٩ب.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢.

(٥) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٣.

والبيع عشرة آلاف نفس»[١]. ولو صح هذا، فإن هذا العدد يدل على مدى ما تعرضت له بلاد النوبة من الخراب ونقص الرجال والأموال نتيجة لهذه الحملة.

لم تقتصر أهمية هذه الحملة على مقرة فقط، بل ترددت أصداؤها جنوباً، إذ أنها أثارت مخاوف ملك الأبواب وأقنعته بقوة المماليك وخطرهم على بلاده كذلك. يوضح هذا ما تذكره بعض المراجع[٢] من أن الملك داود لجأ إلى مملكة الأبواب هرباً من وجه المماليك. غير أن ملكها لم يوافقه، بل قاتله وقبض عليه وأرسله مقيداً إلى القاهرة حيث اعتقل بالقلعة إلى أن مات[٣].

وعلى الرغم من المواثيق والعهود التى حصل عليها بيبرس، فإنه ـ فيما يبدو ـ لم يكن مطمئنا تماما إلى إخلاص شكندة له. فيقول صاحب مخطوطة تاريخ قلاون، إن السلطان بيبرس عهد إلى أحد الإسماعيلية الفدائيين ويدعى سلامة، بالتردد على بلاد النوبة لمراقبة أعمال ملكها. ويقال إن سلامة اصطحب معه فى إحدى رحلاتة إلى النوبة شاباً آخر إسماعيليا. وظل الإثنان يعملان عيوناً للسلطان بيبرس مدة طويلة[٤].

وكيفما كان الأمر، فالواضح أن السلطان بيبرس وطد للسيادة المملوكية فى النوبة توطيداً تاماً، بدليل أن التقاسيم الإدارية المصرية لم تشتمل على شىء من بلاد النوبة إلا منذ عهد السلطان بيبرس[٥]. ومن ضمن هذه التنظيمات إنشاء طريق للبريد يبدأ من قوص، ثم يتشعب شعبتين، إحداهما إلى أسوان والنوبة، والأخرى إلى عيذاب. هذا فضلا عما ورد فى شأن أخذ البيعة للملك السعيد بن السلطان بيبرس، وتحليف الناس له بالطاعة. «ولم يتخلف أحد عن اليمين من دنقلة إلى الفرات»[٦].

ثم مات شكندة قتيلا سنة ١٢٧٧م، وهى السنة التى توفى فيها السلطان بيبرس. ووثب على عرش النوبة أمير يدعى بِرك. غير أن الطريقة التى وصل بها إلى الحكم عقب قتل شكندة

---

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص٤٠٠. والقلقشندى، نفس المصدر، جـ٥، ص٢٧٧.

(٣) ابن خلدون: نفس المصدر السابق والصفحة.

(٤) مخطوطة تاريخ قلاون، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، جـ٢ ،ص ٣٠٩أ ، ٣١٠ف. ويقال إن سلامة من مواليد الأبواب . أى أنه نوبى وربما جاء اختيار السلطات بيبرس له لخبرته بأحوال البلاد.

(5) Stanley Lane - Poole : op. cit. p. 272.

(٦) مفضل: نفس المصدر، ص ٤٥٤.

جعلت السلطان قلاون ـ الذى اعتلى عرش السلطنة المملوكية سنة ١٢٧٩م ـ لا يطمئن إليه. ولا يبعد أن يكون هذا الملك حاول التخلص من السيادة المملوكية. وربما كان هذا هو السبب الذى حرك السلطان قلاون ضده. فيشير صاحب مخطوطة تاريخ قلاون، أن حملة مملوكية ـ لا يذكر تاريخها ـ قادها الأمير سنجر المسرورى المعروف بالخياط، إلى بلاد النوبة. وانتهت هذه الحملة بالقبض على الملك برك وقتله. ثم خلفه على عرش النوبة أمير يدعى سَمامون[1]. ويفسر لنا هذا، أن تعيين ملك للنوبة لابد أن يتم بموافقة السلطان المملوكى.

وبلغ النفوذ المملوكى فى النوبة حداً أقنع ملوك علوة بقوة السلطنة المملوكية، فتقربوا إليها بالهدايا. وبعثوا إلى السلطان قلاون سفراءهم ليعلنوا له ولاءهم وحكموه فيما ينشب بينهم وبين ملك دنقلة من نزاع. ومن ذلك ما ذكره صاحب مخطوطة تاريخ قلاون[2]. أن نزاعاً نشب بين أدور ملك الأبواب، وملك دنقلة. وأرسل أدور سفراءه إلى السلطان قلاون سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٧م)، حاملين إليه هدايا، فيها فيلة وزرافة. وأكد أدور فى رسالته إلى السلطان ولاءه وخضوعه التام، وشكا إليه سوء المعاملة التى يلقاها ملك الأبواب من ملك دنقلة. وعلم سمامون ملك دنقلة بذهاب سفارة ملك الأبواب إلى مصر فبادر هو أيضاً بإرسال سفارة من قبله، لتدافع عن وجهة نظره، ولتشرح أسباب النزاع. ويقال إن هذه السفارة حملت معها إلى السلطان هدية مقدارها مائة وتسعون رأسا من الرقيق، ومائتا بقرة. ولا شك أن اهتمام الملك سمامون بإرسال سفرائه إلى السلطان قلاون مما يدل على السلطة التى صارت للدولة المملوكية على بلاد النوبة.

استمع السلطان قلاون إلى حجج كل من الطرفين. ويبدو أنه لم يقتنع بما أدلى به كل منهما، فأرسل من القاهرة رسولا إلى كل من المملكتين ليحقق مواضع الخلاف فى جوها. فاختار سنجر المقدمى رسولا إلى ملك الأبواب. وملوك بارة، والتاكه، وكدروا، ودنفوا، وآرى، وبفال، والأنج، وكرسه، وهى الممالك التى تتألف منها مملكة علوة وعاصمتها سوبا. ويقال إن الأمير سنجر صحب معه سفراء ملك الأبواب، وأنه سلك معهم جميعا طريق البحر الأحمر

---

(١) مخطوطة تاريخ قلاون: جـ٢، ص ٣١٠أ.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٠ب.

أنظر كذلك. Quatremere : op. cit. pp. 100 - 101.

وعيذاب خشية أن يتعرض لهم رجال ملك دنقلة، إذا هم ذهبوا جنوباً بطريق النيل. واختار السلطان قلاون علم الدين الحصنى رسولا إلى ملك دنقلة.

ويبدو أن الرسول الأول، أتم مهمته وعاد مصر. أما الحصنى فلا يعرف عن مصيره شئ. ويبدو أنه أنهى مهمته، وأنه عاد إلى القاهرة حيث أقنع السلطان بأن سمامون هو الجانب المعتدى. ويؤيد هذا ما ورد فى مخطوطة تاريخ قلاون أيضاً، أنه على الرغم من محاولة الأمير سنجر المقدمى تجنب طريق دنقلة، وهو فى طريق عودته إلى مصر فقد قبض عليه جواسيس الملك سمامون، وأراد الملك قتله. غير أن رجال حاشيته ورعاياه ثاروا عليه خوفا من بطش السلطان. وقالوا «أتريد أن تكون سببا فى خراب ديارنا، وإحلال المصائب بنا» [(١)]. وربما كان هذا وحده كفيلا بإقناع السلطان قلاون بسوءنية الملك سمامون نحوه، ورغبته فى الخروج عليه كذلك.

وكيفما كان الأمر، فقد أعد السلطان قلاون سنة ٦٨٥ - (١٢٨٧م) حملة حربية كبيرة لغزو النوبة بقيادة الأمير سنجر المسرورى المعروف بالخياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين الكورانى. وغادرت هذه الحملة القاهرة فى نفس العام. وكتب السلطان إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفى السلاح دار متولى قوص بأن يشترك فى هذه الحملة بمن تحت يده من المماليك السلطانية، وأجناد مركز قوص، والعربان القاطنين فى هذا الإقليم [(٢)]، وهم حسبماجاء فى المراجع [(٣)] : أولاد أبى بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف،وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وبنو هلال، فضلا عن طائفة من أجناد الولايات بالوجه القبلى، والقراغلية. ووضع قادة الحملة خطة الزحف على النوبة. فانقسمت إلى قسمين، سار أحدهما بقيادة الأمير علم الدين سنجر الخياط متتبعا البر الغربى من النيل، وسار القسم الآخر بقيادة عز الدين أيدمر فى البر الشرقى، حيث توجد المدن الهامة، غير أن سمامون - وهو رجل تصفه المراجع بالمكر والدهاء وسعة

---

(١) ورد فى هذه المخطوطة أن رعايا الملك خلعوه وعينوا بدله ملكا آخر. غير أن هذه الرواية بنصها لا تتفق وما تلا ذلك من أحداث اشترك فيها سمامون نفسه. ويبدو أنهم وفقوا على خلعه وتعيين ملك غيره عقب الحملة التى بعث بها قلاون للقبض عليه سنة ١٢٨٧م وهى حملة قلاون الثانية..Quatremere : op. cit. p. 101.

(٢) المقريزى: السلوك ، جـ١ ، القسم الثالث، ص ٧٣٦ - ٧٣٧.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة، وابن خلدون، نفس المصدر ، جـ٥، ص ٤٠٠.

- -

الحيلة[١] - قرر ألا يلتحم بالجيش المملوكى فى معركة حاسمة، إلا قرب عاصمته دنقلة، بعد أن يكون الجيش المملوكى قد حلت به نتائج السفر البعيد. ولهذا كتب سمامون إلى نائبه جريس صاحب الجبل بمقره بجزائر ميكائيل والدو (الدر)، يأمره بإخلاء البلاد التى تحت يده أمام الجيش الزاحف. ثم بلغ الجيش المملوكى بقيادة أيدمر دنقلة، حيث برز إليه سمامون، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة النوبيين وفرار سمامون ، بعد أن قتل كثير ممن معه [٢]. وتتبع أيدمر حركات سمامون خمسة عشر يوما جنوبى دنقلة دون أن يظفر، ولم يقع فى أسره سوى جريس صاحب الجبل وابن خالة الملك كذلك.

ثم عاد أيدمر إلى دنقلة، حيث ثم تعيين ابن أخت سمامون ملكا على النوبة، وأفرج عن جريس وأعيد إلى منصبه [٣]، بعد أعلن ولاءه للملك الجديد والسلطنة الملوكية. وتعهد الملك الجديد بدفع البقط القديم والجزية السنوية وسائر الحقوق السلطانية، بدليل ما ذكره القلقشندى [٤] أن نسخة يمين أخذت على ملك النوبة الجديد عند استقراره نائباً عن السلطان قلاون فى حكم بلاد النوبة. وهى لا تخرج عما سبق أن أعطاه شكندة من تعهدات والتزامات للسلطان بيبرس.

وفى سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وردت كتب الأمير علم الدين سنجر الخياط إلى السلطان قلاون تنبئ بما تم . وقرر السلطان أن يبقى الأمير أيدمر، وهو صاحب الفضل فيما ناله الجيش المملوكى من انتصارات، ليكون أميرا مملوكيا مقيما، إلى جانب الملك النوبى الجديد . وتسهيلا لمهمته فى بلاد النوبة بعث إليه السلطان قلاون من القاهرة أميراً نوبيا يدعى سعد الدين ابن أخت داود «ليكون مع الأمير أيدمر لخبرته بالبلاد وأهلها [٥]» . هذا وتقرر أيضا أن تعسكر حامية مملوكية بدنقلة تحت قيادة أيدمر وعاد الأمير علم الدين ببقية الحملة المملوكية إلى القاهرة يصحبه عدد من ملوك النوبة ونسائهم فضلاً عن عدد كبير من الأسرى[٦].

---

(١) المقريزى نفس المصدر، جـ١ ، القسم، القسم الثالث ، ٧٣٧.

(٢) المقريزى : نفس المصدر، جـ١ ، القسم الثالث، ص ٧٣٧.

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر، جـ١٣، ص ٢٩٠ - ٢٩١. على الرغم من انفراد القلقشندى بذكر هذه اليمين، فإن هذا لا يعنى الشك فى صحتها لتمسك سلاطين المماليك بحقوقهم فى بلاد النوبة، ولاسيما بعد النصر العظيم الذى أحرزته الحملة القلاونية على ملك النوبة.

(٥) المقريزى: السلوك، نفس المصدر، ص ٤٧٣.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

غير أنه لم تكد الحملة المملوكية تغادر البلاد حتى ظهر سمامون مرة أخرى، وأخذ يعد العدة لاسترداد ملكه، وانتهى الأمر بفرار ملك النوبة الجديد، وكذلك جريس صاحب الجبل إلى القاهرة. ثم لم يلبث السلطان قلاون، أن أعد حملة ضخمة لإخضاع سمامون، وبلغت عدتها أربعين ألفا، واشترك فيها عربان الوجهين القبلي والبحرى. وامتازت هذه الحملة بوفرة عدد الحراريق التى بلغت عدتها خمسمائة ، لحمل الزاد والسلاح والأثقال.

غادرت هذه الحملة القاهرة فى سنه ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) بقيادة عز الدين أيبك الأفرم. واشترك معه عدة من الأمراء من بينهم قبجاق المنصورى، وبكتمر الجو كندار، وأيدمر والى قوص، وصحبهم ملك النوبة الجديد وجريس. ثم مات هذا الملك فى الطريق إلى أسوان فدفن بها ، فعين السلطان قلاون بدله أحد أمراء النوبة الموجودين بالقاهرة،وهو ابن أخت الملك داود[١]، وألحقه بالحملة قبل أن تغادر أسوان. وتبع الجيش نفس الخطة التى سار عليها جيش الحملة السابقة، فانقسم إلى قسمين. فسار أيدمر والى قوص فى نصف العسكر فى البر الشرقى، وهو الطريق الذى سلكه فى الحملة السابقة، على حين سار الأفرم على رأس النصف الآخر فى البر الغربى، وتعاون بنو كنز تعاونا صادقا مع الحملة المملوكية، فتقدموا الجيش بصحبة جريس، لتأمين أهل البلاد وتجهيز الإقامات. وبدا هذا التعاون واضحا فى منطقة مريس حتى جزائر ميكائيل، حيث خرج المشايخ والأعيان للقاء الحملة، وإعلان ولائهم للسلطان. أما فى المنطقة التى ليس لجريس ولاية عليها، وهى الواقعة جنوبى الشلال الثانى حتى دنقلة، فإن أهلها هجروها إطاعة لسمامون، الذى اعتصم هذه المرة بجزيرة فى النيل، لا تذكرالمراجع عنها شيئا سوى أنها تبعد خمسة عشر يوما عن دنقلة. وبعث أيدمر إلى سمامون رسالة يطلب منه المفاوضة للدخول فى الطاعة، ووعده بالأمان. غير أن سمامون لم يقبل المفاوضة، وفر من الجزيرة جنوبا إلى جهة الأبواب، خوفا من وصول المراكب المملوكية للقبض عليه [٢]

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن سمامون لم يكن فى حال تشبه الحالة الأولى من حيث وفرة الملتفين حوله. بل أن حاشيته وأتباعه من السواكرة، انفضوا من حوله، كما فارقه الأسقف

---

(١) المصدر السابق: ص ٧٤٩. يقول ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٠٠، إنه داود بن أخى مرتشكين (شكندة).

(٢) المقريزى: السلوك ، نفس المصدر، ص ٧٤٩ - ٧٥١.

Quatremere : op. cit. PP. 105 - 106.

والقسوس وطلبوا الأمان من أيدمر، وعادوا جميعا صحبة الجيش المملوكى إلى دنقلة، بعد تطهير البلاد من مظاهر العصيان(١).

واحتفل أمراء المماليك بهذا النصر فى دنقلة وألبسوا الملك النوبى الجديد تاج الملك، وبعد أن حلف هو وكبار رجال دولته على الولاء للسلطان ودفع الالتزامات المقررة من قبل. عسكرت بدنقلة طائفة من العسكر السلطانى، وعلى رأسها بيبرس العزى مملوك الأمير عز الدين والى قوص (٢). ثم عادت الحملة إلى القاهرة بعد أن وطدت للسيادة المملوكية فى بلاد النوبة مرة أخرى.

أما سمامون، فلم يكد يعلم بخروج الحملة المملوكية من النوبة حتى عاد إلى دنقلة متخفيا، واستمال إليه السواكرة، ولم يلبث أن قبض على الأمير المملوكى المقيم فى دنقلة، وهو بيبرس العزى، وأرسله هو ورجاله إلى القاهرة. أما الملك الجديد الذى عينه السلطان قلاون، وكذلك جريس، فانه قبض عليهما وقتلهما (٣). ثم أعقب سمامون ذلك برسالة إلى السلطان يسأله العفو ويتعهد بحسن السير والسلوك ودفع الالتزامات المقررة. ولكى يثبت للسلطان حسن نواياه، فإنه على قول المقريزى «بعث رقيقا وغيره تقدمة فقبل منه» (٤).

ورضى السلطان قلاون بتأكيد سمامون وتعهداته وأقره على ما بيده فى بلاد النوبه (٥). وربما كان مشاغله الداخلية والخارجية هى التى حملته على هذا الرضى (٦). ذلك أن قلاون، كان قد عزم على مهاجمة عكا بعد أن استطاع أن يقضى على الإمارة الصليبية بجهات طرابلس وأعمالها. ولم يبق من الولايات الصليبية سوى عكا مركز مملكة بيت المقدس الرمزية.

غير أن سمامون لم يكن عند العهد الذى قطعه على نفسه بصدد علاقاته بالسلطنة المملوكية. فلم يكد يسمع بوفاة قلاون، حتى امتنع عن إرسال البقط والجزية سنة ١٢٩١ وبعث إلى السلطان خليل بن قلاون فى تلك السنة يعتذر له عن تأخير البقط إلى السنة التالية

(١) المقريزى: نفس المصدر، ص ٧٥٢.

Quatremere : op. cit. PP. 107.

(٢) المقريزى: نفس المصدر والصحفة.
(٣) المقريزى : نفس المصدر، ص ٧٥٣.
(٤) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٥) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٠٠.
(٦) المقريزى: نفس المصدر ، جـ٢٩، ص ١٢٧٤أ.

متعللا بما أصاب بلاده من التخريب بسبب إغارات ملك الأبواب «التى زادت البلاد خرابا إلى خرابها وذهابا إلى ذهابها وسوادا إلى سوادها وفسادا إلى فسادها». وذكر سمامون فى تلك الرسالة أن دخول العسكر الإسلامية إليها فى الحملات السابقة لم يساعد على نهضة البلاد، بل كلفها غاليا.

بيد أن السلطان خليل لم يقبل هذه الاعذار، فأوفد إليه الرسل تنذر بعواقب تأخير البقط، وأسرع سمامون فسأل الأمان ووعد بإرسال البقط سريعاً. فقبل السلطان خليل هذا الوعد، كما قبل والدة سمامون وبقية أهله رهائن فى دار الضيافة بالقاهرة. وبعد ذلك بقليل أرسل سمامون أخاه جريس - وهو غير جريس الذى تقدمت الإشارة إليه - برسالة استعطاف يطلب إرسال والدته إليه. ومما جاء فى رسالته «أن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء» كما أرسل الشكوى من ملك الأبواب. ولم يفته أن يبعث بهدايا من الجمال والتمر والشب والسنباذج [١].

غير أن هذه المراوغة. أثارت السلطان خليل إلى استخدام القوة لعزل سمامون وتعيين ملك آخر للنوبة، والمرجع الوحيد الذى يدل على هذا الاتجاه هو مخطوطة تاريخ قلاون [٢] إذ تخبر أن حملة حربية - لم تذكر تاريخها [٣]. قامت لغزو النوبة، بقيادة عز الدين الأفرم [٤] وتدل حوادث هذه الحملة وما قامت به من أعمال، أن الغرض منها هو عزل الملك سمامون، والقبض على أمير نوبى آخر يدعى آنى [٥]، لخروجه على السلطان. ويقال إن الأفرم تقدم

(١) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) مخطوطة تاريخ قلاون: جـ٢، ص ٣١٠أ.

(٣) يرى ماكمايكل أن هذه الحملة ربما أرسلت إلى بلاد النوبة ما بين ١٢٩٠ - ١٢٩٣م

MacMichael, : op. cit. p. 185.

(٤) كان عز الدين الأفرم أحد قواد الحملة التى جردها السلطان بيبرس سنة ١٢٧٦م فهو إذن صاحب خبرة ببلاد النوبة وأحوالها.

(٥) يطلق عليه صاحب مخطوطة تاريخ قلاون اسم الملك آنى. ويبدو أنه كان ملكا تابعاً للملك الكبير سمامون. وربما كان هذا الأمير حاكما على المنطقة المجاورة لمملكة الأبواب Quatremere : op. cit. p. 112. وربما يكون هذا الأمير هو الذى خلف سمامون على العرش بعد ثورة النوبين ضده غير أنه ظل على عدائه للسلطان:

De Villard : op. cit. p. 218.

بقواته جنوبي دنقلة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً [1]. غير أنه لم يظفر بالأمير الثائر آني لهروبه إلى بـلاد الأنج [2]. قبل وصول الجيش المملوكي بيومين، وعلى هذا عاد الأفرم إلى دنقلة بعد أسر كثير من النوبيين ونهب متاعهم. أما سمامون فليس يعرف عنه شئ. ويغلب على الظن أنه هرب إلى مكان مجهول ، لم يرجع منه، أو أنه مات قتيل، وأن الأمير آني خلفه في مملكة النوبة وفي عدائه للسلطان خليل.

ولهذا أرسل السلطان خليل من القاهرة أميراً نوبياً يدعى بدمة لمحاربة الأمير آني، وعقد الأمير الأفرم اجتماعاً كبيراً بحضور أمراء النوبة وأعيانها في كنيسة سوس بدنقلة، وتم في هذا الاجتماع تعيين بدمه ملكا حسبما تقضي به التقاليد النوبية. فألبس التاج بعد أن أقسم يمين الولاء والإخلاص للسلطان وتبعه جريس - ولعله كان أخا لسمامون - فأقسم يمين الولاء والطاعة. ويبدو أن جريس هذا كان نائبا لبدمة. ثم تلا ذلك صيغة يمين أخرى حلف عليها الاثنان بأنه لو ثار أحدهما ضد السلطان، جرد الآخر ضده السلاح للمحافظة على حقوق السلطان. ثم تبعهما الأمراء ورجال الدين [3]. وكما هي العادة، فإن صيغة يمين أخرى حلف عليها النوبيون بالولاء للملك الجديد بشرط ولائه للسلطان المملوكي. ومن جملة ما قالوه: «لولا مولانا السلطان ما أطعناك، ومتى تغيرت أمسكناك، ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان ملكا فلاحا أو جبليا. فإن بلاد النوبة مالها ملك إلا مولانا السلطان، ونحن رعيته» [4].

ويمكن الحكم على أثر هذه الحملة في بلاد النوبة، على ضوء ما قامت به من أعمال، وما

(١) يرى ما كمايكل أن الأمير عز الدين الأفرم ربما توغل جنوباً حتى منطقة الأبواب (كبوشية) MacMichael : op. cit. p. 185.

(٢) Quatremere :op. cit. p. 109. ويرى ما كمايكل أن آني هرب إلى جبل حرزا بشمال كردفان. ويتفق هذا مع ما جاء في تاريخ قلاون، إذ يشير مؤلفه إلى أن الملك آني، هرب إلى بلاد الأنج، ولم يمنع المسلمين من المسير خلفه إلا قلة الماء لأن الطريق الذى كان عليهم أن يسلكوه عبارة عن صحراء تلجأ إليها الفيلة والقردة والخنازير والغزلان والنعام. MacMichael : op. cit. p. 185. ويرى آركل Arkell : op. cit. p. 197. أن اسم الأنج يطلق على سكان شمال كردفان الذين قطنوا هذا الإقليم قبل مجئ العرب إليه ،وربما أطلق على المرويين. وهي في لغة الطوارق telanag أى ناس الشرق لأنهم أتوا من النيل.

(٣) مخطوطة تاريخ قلاون : جـ٢، ص ٣١١أ.

Quatremere : op. cit. p. 112.

(٤) المخطوطة تاريخ قلاون : ص ٣٠٨ ف - ٣٠٩أ.

حصلت عليه من نتائج. فهى فضلا عما قامت به من تطهير البلاد من عناصر الثورة، وتثبيت السيادة المملوكية عليها، فإنها عادت بعدد كبير من الأسرى والغنائم. والواضح مما ذكره صاحب مخطوطة تاريخ قلاون، أن كثيراً من النوبيين هجروا بلادهم بعد تخريب دورهم، وأن هذه الحملة ألقت الرعب والخوف فى قلوب جيرانهم، فأعلن ملك الأبواب ولاءه وخضوعه للسلطان ذلك أنه بعد مغادرة عز الدين الأفرم دنقلة إلى القاهرة بخمسة أيام - فيما يرويه صاحب مخطوطة تاريخ قلاون - وصلت رسالة إلى قائد الحملة من الملك بدمه يستأذنه فى السماح للهاربين النوبيين بالعودة إلى بلادهم وإصلاح دورهم [١]. وثمة رسالة أخرى وصلته من ملك الأبواب يعتذر له فيها عن عدم لقائه، لأنه كان مشغولا هو الآخر بمطاردة الأمير الثائر آنى، وأضاف ملك الأبواب فى رسالته، أن بلاد الأنج تعرضت لغزو أجنبى، ولكنه سوف يبذل جهده لتخليصها من هذا الغزو. وإذا تم له ذلك، فإن جميع بلاد السودان ستخضع للسلطان المملوكى. وعلق صاحب هذه المخطوطة، على هذه الغزوة المملوكية بعد توغلها إلى أقصى الجنوب بقوله: «ودخل فى قلوب أهل البلاد من عساكر مولانا السلطان رعب عظيم، لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط إلا إن كان جيش الاسكندر ذى القرنين»[٢]

ومما لا شك فيه أن اختلاف الطامعين من أفراد الاسرة المالكة النوبية، واستمرار التجائهم إلى السلطنة المملوكية كان ضمينا ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة، حتى فى الحالات التى لم يكن للدولة المملوكية قوة كافية أو وقت كاف لليقظة والمراقبة فى بلاد النوبة، وليس أدل على ذلك من استمرار السيادة المملوكية فى السنوات الأولى من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون. إذ المعروف أن هذا السلطان كان طفلا، وأن أمور الدولة كانت بيد فئة من المماليك الراغبين فى عرشها لأنفسهم. ومع هذا ظلت مملكة النوبة المسيحية على حالها من التبعية للسلطنة المملوكية. من الأدلة على ذلك قدوم أماى متملك النوبة إلى القاهرة [٣] سنة ٧٠٤هـ بهدية إلى السلطان الناصر وطلب مساعدته ضد أعدائه. فأنزله السلطان الناصر بدار الضيافة

---

(١) المصدر السابق: ص ٣١١أ.

(٢) المصدر السابق:

لم يسمع عن مثل هذه الغزوة التى ينسبها المؤلف إلى الإسكندر. وربما كان هذا من باب التشبيه بقوة الحملة ومدى ما وصلت إليه من أقاليم غير مطروقة.

(٣) المقريزى: السلوك، جـ٢، القسم الأول، ص ٧، أطلق المقريزى على هذا الملك اسم أياى على حين أن ابن خلدون، نفس المرجع، جـ٥، ص ٤٢٩ يطلق عليه اسم أماى (Amai). op. cit. p. 114.

وأمر بإعداد حملة حربية تلبية لطلبه بقيادة سيف الدين طقصبا والى قوص، واشتراك فيها جماعة من العربان. وغادرت الحملة قوص فى نفس هذا العام. وبعد أن أتمت مهمتها بالقضاء على عناصر الثورة النوبية، عادت إلى القاهرة. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الحملة أمضت مدة تسعة عشر شهراً خلال سنتى ٧٠٦ - ٧٠٧هـ (١٣٠٦ - ١٣٠٧م)، وهى أطول مدة قضتها حملة مملوكية فى بلاد النوبة. وربما يكون بعض السبب فى هذا، هو شدة المقاومة النوبية وتعرض الحملة لمصاعب الطريق وقلة الزاد[١].

ظل الأمر على هذه الحال الدالة على ضعف المملكة النوبية وقنوعها بتبعيتها للسلطنة المملوكية، غير أن بعض العناصر النوبية الثائرة ظلت تسعى للفتنة بدليل ما تذكره بعض المراجع من أن أماى مات قتيلا ٧١١هـ (١٢١١م) وأن أخاه كرنبس[٢] خلفه على العرش. ويبدو أن الملك الجديد كان لا يزال فى حاجة إلى تأييد السلطنة المملوكية ضد هذه العناصر الثورية. ولهذا أعلن ولاءه للسلطان محمد الناصر، وقدم إلى القاهرة حاملا الجزية والضرائب المقررة على بلاده [٣].

غير أنه يبدو أن الملك كرنبس نجح فى تثبيت نفوذه فى الداخل بعد أن تخلص من منافسيه على عرش النوبة، وأنه لهذا اتجه إلى التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية، فأظهر عداءاً واضحا نحوها وامتنع عن أداء الجزية سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م) [٤]. غير أن حركته وافقت استقرار الأمر فى الدولة المملوكية ببلوغ الناصر سنا مؤهلا للسلطنة واستطاعته التغلب على جميع عناصر الفتنة. وهذا هو سر إرسال الحملة الناصرية الأولى سنه ٧١٥هـ (١٣١٥م) إلى بلاد النوبة [٥].

(١) المقريزى : نفس المصدر، جـ٢ ، القسم الأول ، ص٧.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٧ ، وذكر ابن خلدون جـ٥ ص ٤٢٩ أن اسم هذا الملك كريش، وذكر أنه خلف أخاه آى (أماى) الذى توفى سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) ويوافقه القلقشندى، جـ٥، ص ٢٧٧ ، أن وفاته كانت سنة ٧١٦هـ.

(٣) المقريزى: نفس المصدر والصفحة.

(٤) ذكر القلقشندى: جـ٥، ص ٢٧٧ ، وابن خلدون، جـ٥، ص ٤٢٩ : أن تاريخ امتناع كرنبس عن إرسال الجزية كان سنة ٧١٦هـ. غير أن المقريزى فى نفس المصدر يشير إلى حملة مملوكية فى عهد السلطان الناصر سنة ٧١٥هـ. ويعنى هذا أن حركة كرنبس هذه إما أن تكون سابقة لهذا التاريخ الأخير أو على الأقل معاصرة لها. ولعل ما ذكره كل من ابن خلدون والقلقشندى كان خاصاً بحملة ثانية تاريخها ٧١٦هـ.

(٥) المقريزى: نفس المصدر، ص١٤٥ ، ١٤٦ .

بيد أن هذه الحملة لم تظفر بكرنبس لهروبه إلى مملكة الأبواب[1] ولا تشير المراجع - كما هي العادة - إلى عودة هذه الحملة إلى مصر، ولعلها بقيت في دنقلة إلى أجل غير مسمى لتقوم على تنفيذ أوامر السلطان، فيما يتعلق بتنصيب ملك جديد لبلاد النوبة.

وهنا تبدو ظاهرة جديدة هي في الواقع نقطة التحول في تاريخ بلاد النوبة. ذلك أنه كان من الأسرى النوبيين الذين أتت بهم الحملات الحربية السابقة على بلاد النوبة، عدد كبير من الأمراء، وأفراد البيت المالك وبعض المطالبين بالعرش النوبي، وأن هؤلاء وأولئك أودعوا سجن القلعة. واتجهت سياسة السلطنة المملوكية إلى استمالة أولئك الأمراء، فأعادت بعضهم إلى النوبة صحبة الجيوش المملوكية لتعيينهم ملوكا عليها [2].و لاسيما بعض الذين أسلموا منهم ومن أمثلة هؤلاء أمير تطلق عليه بعض المراجع سيف الدين عبد الله برشمبو النوبي وهو ابن أخت داود ملك النوبة [3]. ويقول عنه النويري إنه تربى «في البيت السلطاني من جملة المماليك السلطانية » [4]. ويذكر القلقشندي أن عبد الله برشمبو هذا أسلم وحسن إسلامه وأقام بمصر بالأبواب السلطانية وأجرى عليه السلطان محمد بن قلاون رزقا [5].

غير أن سياسة تعيين ملك مسلم حكم بلاد النوبة نقطة تحول خطيرة في تاريخ هذه البلاد، وهي أحد العوامل الحاسمة في سقوط مملكة النوبة المسيحية. ذلك أن اختيار السلطان الناصر لعبد الله برشمبو سنة ٧١٦هـ ١٣١٦٠م) لكي يكون ملكا على النوبة، أدى إلى ظهور بني كنز بصورة واضحة على مسرح الحوادث في بلاد النوبة، بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبي، وتزوجوا من بنات ملوكها. وإذ ادعى أميرهم كنز الدولة بحقه في مملكة النوبة، فهو فضلا عن أنه أمير مسلم، فإن الملك ينتقل إليه بعد خاله الملك كرنبس حسبما يقض به نظام

---

(١) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٢٩. أنظر كذلك القلقشندي، نفس المصدر، جـ٥، ص ٢٧٧.
(٢) أرسل السلطان قلاون واحداً بعد آخر من أولئك الأمراء لتعيينه ملكاً على النوبة بدلا من سمامون. انظر ص ١٥٦، ١٥٨ من هذا الفصل.
(٣) المقريزي: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٥. وجاء في إحدى النسخ الخطية لكتاب السلوك، جـ٢ القسم الأول، ص ١٦١، حاشية رقم ٤: أن اسم هذا الأمير برشنبوا وفي نسخة أخرى سنبوا، والأخيرةهي التي نقلها كترمير في كتابه. op. cit. p. 115 على حين أن النويري ذكر اسمه سيف الدين عبد الله برشنبو النوبي. أما ابن خلدون، جـ٥، ص ٤٢٩، وكذلك القلقشندي جـ٥، ص ٢٧٧ ذكر أن اسمه عبد الله نشلي.
(٤) النويري: نفس المصدر والصفحة
(٥) القلقشندي: نفس المصدر، جـ٥ ص ٢٧٧.

الوراثة المعروف عند النوبيين. بدليل ما ذكره النويرى[1]، أن الملك كرنبس لما علم برغبة السلطان فى اختيار ملك مسلم لبلاد النوبة «أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز إلى الأبواب السلطانية، وسأل شموله بالإنعام السلطانى فى توليته الملك». ومما جاء فى رسالته للسلطان الناصر قوله «إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن أختى والملك ينتقل إليه بعدى»[2].

وإذا كان الملك كرنبس أدرك الاتجاه الجديد للسلطنة المملوكية بصدد تعيين ملك مسلم بدلا من ملك مسيحى، فرشح ابن أخته كنز الدولة، إلا أن هذا العرض لم يجد قبولا لدى السلطان الناصر. بدليل ما تذكره المراجع من أن السلطان قبض على كنز الدولة، ومنعه من العودة إلى بلاد النوبة، كما أعد حملة مملوكية سنة ٧١٦هـ ١٣١٦٠م) بقيادة الأمير أيبك جهاركى عبد الملك، لتأييد الأمير عبد الله برشمبو وتعيينه ملكا على بلاد النوبة[3]. أما كرنبس فيقال إن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام واحترز عليهما فى جزيرة وبعث إلى قائد الحملة المملوكية يطلب إليه إرسال من يتسلمهما . فسار إليه جماعة من رجال الحلقة فتسلموهما وأحضرا إلى الأبواب السلطانية فى حراسة شديدة. وعادت الحملة إلى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م)[4]. وهكذا استقر عبد الله برشمبو - وهو أول ملك نوبى مسلم - فى حكم بلاد النوبة.

غير أن الأمر لم يستتب للملك عبد الله برشمبو فى بلاد النوبة، فخرج عليه النوبيون، ولم يعترفوا به ملكا عليهم. وبعض السبب فى ذلك - حسبما ورد فى النويرى - «أنه غير قواعد البلاد وتعاطى نوعا من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمثله، وعامل أهل البلاد بغلظة

---

(١) النويريك نفس المصدر.

(٢) يبدو أن ماكمايكل MacMichael : op. cit. p. 186. لم يطلع على النص الذى انفرد بذكره النويرى، بصدد اعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، وصلة هذا الأمير بآخر ملك نوبى مسيحى وهو كرنبس. والراجح أنه استعان بترجمة كترمير لما أورده المقريزى فى كتابه السلوك من إشارة عابرة لصلة كنز الدولة بكرنبس. ومع أن المقريزى ذكر أن كرنبس بعث بابن أخته كنز الدولة إلى السلطان يسألة فى أمره إلا أنه لم يتنبه لهذه العلاقة بدليل قول ماكمايكل «وسواء أكان كنز الدولة يتصل بالعائلة المالكة النوبية بصلة المنسب أوأنه لم يكن له من الأمر شئ سوى اعتماده على القوة فهذا ما نجهله».

(٣) النويرى: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٦.

(٤) المصدر السابق.

وشدة فكرهوا ولايته» [١]. والراجح أن بنى كنز ومن انحاز إليهم من القبائل العربية فى بلاد النوبة وغيرهم من النوبيين هم الذين ثاروا عليه، إذ لم يكد يصل كنز الدولة إلى بلده الدو (الدر)[٢] سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) - بعد الافراج عنه [٣] حتى التف حوله النوبيون وأعلنوا ولاءهم له ونادوا به ملكا بدليل قول النويرى: «إنهم حيوه تحية الملك وهى قولهم موشاى موشاى. فهذه لفظة لا يخاطب بها غير الملوك» [٤].

وأكبر الظن أن احتفال النوبيين بكنز الدولة شجعه على محاولة الوصول إلى العرش مرة أخرى، فتقدم وحارب برشمبو وهزمه بعد أن خذلته جماعته. وقتل برشمبو وتولى كنز الدولة عرش النوبة. ويقال إن كنز الدولة «لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله وتعظيما لهم وحفظا لحرمتهم» [٥].

غير أن السلطان الناصر رفض الاعتراف باعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، لسبب واضح وهو أن تولية ملك مسلم حكم النوبة، يؤدى إلى زوال نفوذ السلطنة المملوكية. ولهذا أطلق السلطان سراح أخيه كرنبس وإعادته إلى عرش النوبة [٦]. ولما وصل أبرام إلى دنقلة، خرج إليه كنز الدولة طائعا [٧]. ويقال إنه «سلم إليه الملك وصار فى خدمته» [٨]. ثم سار معه شمالا ليحث النوبيين على طاعة خاله أبرام. غير أن أبرام لم يرع العهد، فقبض على ابن أخته كنز الدولة ليرسله مقيداً إلى القاهر. ولم ينقذه من هذا المصير سوى موت أبرام بعد ذلك بثلاثة أيام [٩].

وهنا يلتف النوبيون حول كنز الدولة للمرة الثانية، ويصرون على أن يملكوه البلاد. ولم

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المقريزى: السلوك ، نفس المصدر، ص ١٦١.
(٤) النويرى: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٦.
(٥) المصدر السابق: نفس الصفحة. تظاهر كنز الدولة بحفظ كرامة أخواله فامتنع عن لبس التاج. والراجح أنه لم يفعل ذلك إلا لأن التاج يحمل علامة الصليب. الأمر الذى لا يتفق وعقيدته الإسلامية.
(٦) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٧) المقريزى: السلوك، جـ٢، القسم الأول، ص ١٦١.
(٨) النويرى: نفس المصدر، جـ٣٠، ورقة ٩٦.
(٩) المصدر السابق: نفس الصفحة.

يسع كنز الدولة - بعد أن غدر به خاله - إلا أن يلبس تاج الملك ويمارس حقوقه الملكية سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م)[١]

وكيفما كان الأمر، فإن الدور الذى قام به الكنوز لم يرق فى نظر سلطان مصر. ومن الطبيعى أن تعمل السلطنة المملوكية على الحد من سلطانهم. وهذا هو سر الحملة التى بعث بها السلطان الناصر محمد إلى النوبة سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٢م) بقيادة الأمير علاء الدين بن على قراسنقر، لخلع كنز الدولة وإعادة كرنبس إلى العرش. وأتمت الحملة عملها بإجلاس كرنبس على العرش بعد هروب كنز الدولة من دنقلة[٢].

وهنا تبدأ عملية المراوحة التقليدية المشابهة لما حدث فى النوبة منذ أيام بيبرس، وهى أنه لم تكد الحملة تنسحب شمالا حتى ظهر كنز الدولة من جديد وحارب كرنبس «وملك منه البلاد»[٣]. على أن موضع الأهمية هنا هو انتقال ملك النوبة من أيدى ملوكها المسيحيين إلى أيدى بنى كنز ٨٢٣هـ (١٣٢٣م)[٤]. ولكن هل يكفى انتقال الملك من أسرة إلى غيرها للدلالة على سقوط هذه المملكة؟ الواضح أن بنى كنز لم يكونوا يمثلون العنصر النوبى الأصيل، فهم من عرب ربيعة، وإذا كانوا اختلطوا بالنوبيين وتزاوجوا من بناتهم وتعلموا لغتهم فإن هذا لم يؤثر فى عروبتهم. إذ أنهم احتفظوا بلغتهم العربية إلى جانب اللغة النوبية. ثم أن نسبهم العربى واضح من اسم أول ملك تولى حكم النوبة منهم سنة ١٣٢٣م «كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز»[٥]. ومعنى هذا أن ركنا هاما من الأركان التى يعتمد عليها نظام الحكم فى المملكة النوبية المسيحية قد انهار من أساسه. فالمعروف أن حكم النوبة انحصر فى أسرة أو أسر ملكية نوبية، ومارس ملوكها سلطات سياسية ودينية

---

(١) المقريزى: نفس المصدر، ص ١١٦.
(٢) االمصدر السابق : ص ٢٥٠.
(٣) الصدر السابق : نفس الصفحة.
(٤) يرى البعض أنتقال الملك إلى بنى كنز يعد نهاية المملكة النوبية المسيحية، سنة ١٣٢٣م، وبداية لمرحلة جديدة فى تاريخ هذه البلاد.

MacMichael, H. A. ; op. cit. p. 187.

Arkell, A. J. : "Fung Origins," SNR. XV, Part. II. p. 204.

(٥) النويرى: نفس المصدر، جـ١، ورقة ٩٥ - المقريزى، نفس المصدر، ص ١٦١.

مطلقة على رعاياهم، ولاسيما فيما يلى منطقة مريس جنوبا. بيد أن هذه السلطة المطلقة تضاءلت منذ أن تدخلت السلطنة المملوكية فى شئون النوبة الداخلية. وأضحى ولاء النوبيين قسمة بين ملوك النوبة والسلطنة المملوكية، بدليل كثرة الإيمان التى حلفوا عليها لسلاطين المماليك [١] وظل مبدأ سيادة الملك على رعاياه باعتبارهم «عبيد الملك» معمولا به فيما وراء الشلال الثانى جنوبا على الأقل فى عهد السيطرة المملوكية على بلاد النوبة، بدليل الاستمرار فى دفع البقط من ناحية، وكثرة الهدايا من الرقيق إلى سلاطين المماليك من ناحية أخرى[٢]. ولا شك أن بقاء هذا النظام فى النوبة يعنى استمرار أحد الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية حتى سنة ١٣١٣م، وهو تاريخ انتقال الملك إلى بنى كنز. وكان من الطبيعى أن يقضى على هذا المبدأ وأن تتغير نظرة ملوك النوبة العرب إلى رعاياهم كذلك.

إن بلاد النوبة منذ الربع الأول من القرن الرابع عشر، لا تعد وطن النوبيين فحسب بل شاركهم فيها قبائل عربية كثيرة من غير بنى كنز، ولم يعد الشلال الثانى - كما كان من قبل - حاجزا يمنع تدفقهم على ما يليه جنوباً. بل الواضح أن كثيراً من الجماعات العربية التى تعيش فى مصر، اشتركت فى الحملات المملوكية على بلاد النوبة مدة نصف قرن [٣] من عام ١٢٧٦ إلى عام ١٣٢٣م. ولا بد أن كثيراً من هذه الجماعات فضلت البقاء فى بلاد النوبة عقب كل انسحاب للقوات المملوكية إلى مصر، ومن هذه الجماعات، بنى بكر وبنى عمر وبنى شيبان وبنى هلال وغيرهم كثير. وربما كان الدافع لهم على البقاء فى بلاد النوبة، شدة الضغط المملوكى عليهم فى مصر [٤].

(١) راجع ص ١٤٧ - ١٥٠ من هذا الفصل.

(٢) راجع ص ١٤٩ - ١٥٧ من هذا الفصل.

(٣) راجع الحملات المملوكية على عهد بيبرس وقلاوون والناصر محمد وغيرهم، والتى اشترك العربان فى كل حملة منها على بلاد النوبة.

(٤) قد يكون من بين الأسباب التى دفعت السلطنة المملوكية إلى أخذ المواثيق على الملك شكندة وخلفائه بتسليم العربان فى النوبة إلى السلطنة المملوكية، هو خروج أولئك العربان على السلطنة والانفصال عن بقية الجيوش المملوكية عند انسحابها. ومع هذا فإننا نلاحظ اشتراك العربان فى كل حملة مملوكية على النوبة. والراجح أن السلطنة المملوكية لم تكن تمنع مثل هذا الاتجاه من جانب بعض العربان إلا من تخشى ثورتهم عليها.

والواضح أن كنز الدولة استعان بالعرب المقيمين ببلاد النوبه للوصول إلى العرش، إذ يقول النويرى: «فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم، فملك البلاد حينئذ ولبس تاج الملك واستقل بالمملكة وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه» [١]، والواضح كذلك من هذا النص أن العرب كانوا من القوة والكثرة العددية بحيث تمكنوا من التغلب على بقايا بيوت الإمارة النوبية القديمة، فضلا عن تحدى السلطان المملوكى، وإعلان الاستقلال عنه، وما كان يفيد كنز الدولة فى كثير أو قليل حقه المشروع فى ملك النوبة – عن طريق وراثة الأم – لولا ما اجتمعت إليه من قوة العرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين الذين تأثروا بهم وامتزجت دماؤهم بدمائهم.

وإذا اقتصر دور العرب الذين استقروا فى بلاد النوبة، على القضاء على أحد مظاهر الملكية النوبية المسيحية ، وبإزالة البيت الملكى النوبى القديم وإحلال العنصر العربى محله، لكان دورهم فى سقوط الدولة وزوالها، ضئيلا بالقياس إلى ما هنالك من مظاهر أخرى اتصفت بها الملكيه النوبية المسيحية ومنها الديانة المسيحية، دين البلاد الرسمى، إذ لا يكفى لسقوط الدولة أن يحل ملك مسلم محل ملك مسيحى فى ظل النظم القديمه[٢].

المعروف أن العرب اختلطوا بالنوبيين واعتنق كثير من هؤلاء الدين الإسلامى، منذ القرن التاسع الميلادى فى أرض مريس، ثم فيما يليها جنوبا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل . ويذكر بعض المؤلفين العرب أن الإسلام انتشر فى بلاد النوبة ولاسيما بعد أن أضحى ملوك النوبة من المسلمين فيقول ابن خلدون. «وبحثوا عن كربيس (كرنبس) ببلد الأبواب فألفوه بمصر، ووصل الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها. وانقطعت الجزية بإسلامهم»[٣].

ويتضح من هذا النص، أن النوبيين أعفوا من دفع الجزية للسلطنة المملوكية لاعتناقهم

---

(١) النويرى: نفس الصفحة.

(٢) إذا لم يستتبع انتقال الملك من يد ملوك النوبة المسيحيين إلى ملوك مسلمين اعتناق النوبيين الإسلام. فلا يحق لنا القول بسقوط المملكة النوبية المسيحية. بل مجرد تغيير الأسرة المالكة.

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٢٩.

الإسلام . غير أن القلقشندى، [١] يقول «فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم» . فهل يفهم من هذا النص أن كرنبس اعتنق الإسلام فانقطعت الجزية بإسلامه؟ لم يرد نص صريح فى مولفات السابقين كالنويرى والمقريزى عن اعتناق كرنبس الإسلام. ومع هذا فإن اعتناق الملك النوبى الإسلام لا يعفى رعياه المسيحيين من دفع الجزية للسلطنة المملوكية. فإن أنقطاع الجزية كان نتيجة عاملين: أولهما انتقال الملك إلى كنز الدولة الذى يقول عنه النويرى «إنه استقل بالمملكة»[٢] . والثانى اعتناق النوبيين الإسلام حسبما ذكره ابن خلدون [٣].

غير أن فضل الله العمرى (١٣٤٥م) يحدثنا عن علاقة ملك النوبة بالسلطنة المملوكية فيقول: «إنه رعية من رعايا صاحب مصر، وعليه حمل مقرر يقدمه فى كل سنة. ويخطب فى بلاده لخليفة العصر وصاحب مصر [٤]». والظاهر أن هذا التعريف الذى وضعه العمرى لبلاد النوبة يرجع إلى تاريخ سابق قليلا لوضع مؤلفه. أى إلى عهد السلطان الناصر، وقبل أن يستقل بها كنز الدولة ١٣١٣م، بدليل قول: القلقشندى «هذا (ما يقوله العمرى) كان فى الدولةالناصرية «محمد بن قلاون». وهذه الأتاوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح... وهى (أى النوبة) الآن (أى نهاية القرن الخامس عشر) مملكة مستقلة بذاتها)[٥].

---

(١) القلقشندى : نفس المصدر، جـ٥. ص ٢٧٧.

(٢) النويرى: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٦.

(٣) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٢٩.

(٤) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٩. يبدو أن العمرى أخذ هذه المعلومات عن سجلات ديوان الإنشاء أوغيره من الدواوين. وقد وضعت هذه السجلات فى عهد السلطان الناصر محمد عندما تولى عبيد الله بن برشمبو وكرنبس مرة ثانية حكم النوبة، ثم انقطع إرسال الجزية للسلطنة المملوكية بعد تولية كنز الدولة حكم النوبة سنة ١٣٢٣م، وربما لم تقطع الخطبة للخليفة بعد هذا التاريخ ١٣٢٣م باعتباره زعيما عاماً للمسلمين، وربما كانت عبارة العمرى «رعية من رعايا صاحب مصر» - استمرار لادعاء السلطنة المملوكية حقوقاً فى النوبة. ولابد أن الجامع الذى أشار إليه المقريزى، المواعظ، جـ١، ص ١٩٣، وقال إن كنز الدولة بناه فى دنقلة، قد كان أول جامع تقام فيه الصلاة الجامعة فى بلاد النوبة. والراجح أن كنز الدولة حول الطابق الثانى لكنيسة دنقلة إلى جامع وظل الطابق الارضى يمثل دار ضيافة بدليل قول المقريزى إنه كان يأوى إليه الغرباء، ولم يذكر تاريخ إنشاء هذا الجامع غير أنه يقال إنه أنشئ حوالى سنة ١٣١٨ وهو فى حكم كنز الدولة الأول للنوبة - نعوم شقير، جـ٢، ص ٥٥.

(٥) القلقشندى : نفس المصدر، جـ٨، ص ٦٠.

لكن هل يعنى هذا أن المسيحية قضى عليها تماما فى بلاد النوبة؟ الراجع أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل، كانت لا تزال فى بلاد النوبة بقايا من الديانة المسيحية، لأسباب ترجيحية من بينها: أن بعض النوبيين ظلوا على المسيحية، أو أن بعض من أسلم ظل محتفظا بقليل أو كثير من العقائد المسيحية، لقرب عهدهم بالإسلام(١).

ولا تذكر المراجع اسم ملك مسيحى لبلاد النوبة بعد كنز الدولة والراجح أن خلفاءه جميعاً، إما أنهم كانوا عربا أو نوبيين مستعربين. أماما ذكره ابن فضل الله العمرى (٢). بصدد رسم المكاتبة بين السلطنة المملوكية وملوك النوبة، والذى فرق فيه بين نوعين من المكاتبة، أحدهما إذا كان الملك مسلما، والآخر إذا لم يكن كذلك، فإنه يغلب على الظن أن رسم المكاتبة الذى أورده العمرى فى مؤلفه، وضع أيضا فى عهد السلطان الناصر حين تعاقب على حكمها ملكان أحدهما مسلم والآخر مسيحى (٣). ثم نقلها العمرى كما هى عن ديوان الإنشاء.

والخلاصة أنه لم يكد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادى حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام باستثناء أقلية نوبية ظلت على المسيحية، حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حيث ظلت تحج إلى بيت المقدس(٤).

وثمة عوامل أخرى مباشرة عجلت بسقوط مملكة النوبة المسيحية ومن بينها، ما ذكره ابن خلدون (٥)، بصدد هجرة عرب جهينة من مصرإلى بلاد النوبة حيث يقول: «إن الجزية انقطعت بإسلامهم ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم. واستوطنوها، وملكوها. وملئوها عبثا وفسادا. وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم. فعجزوا ثم ساروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة، فافترق ملكهم، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم فى

---

(1)Trimingham, J. S. : Islam in the Sudan, P. 71. Note 3.

(٢) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٣٠، أورد العمرى رسم المكاتبة بين السلطنة المملوكية وملوك النوبة فيما يلى: «صارت هذه المكاتبة إلى المجلس الجليل الكبير الفارس المجاهد المؤيد الأوحد العضد مجد الإسلام زين الأنام... هذا إذا كان مسلماً وان لم يكن مسلماً فمكاتبته كمكاتبة صاحب سيس ولا يعلم له السلطان بخطه».

(٣) كان عبد الله برشمبو أول ملك نوبى مسلم، ثم خلفه الملك كرنبس. وكان لا يزال مسيحياً.

(4) Crowfoot, J.W. : op, cit. p. 149.

(٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ٥، ص ٤٢٩.

تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم، واستولى أعراب جهينة على بلادهم، وليس فى طريقه شئ من السياسة الملوكية للآفة التى تمنع انقياد بعضهم إلى بعض. فصاروا شيعا لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وإنما هم رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بواد الأعراب. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام».

ومعنى هذا أن عرب جهينة هاجروا إلى بلاد النوبة أوائل القرن الرابع عشرالميلادى، بعد أن قطعت الجزية عن النوبيين لإسلامهم، وأن هجرتهم بدأت إما بعد انتقال ملك النوبة مباشرة إلى بنى كنز، أوقبله بقليل. ويعنى هذا أن دورهم فى إسقاط البيت الملكى النوبى غير أكيد. بل إنه كان من عمل بنى كنز، وغيرهم ممن سبقت الإشارة إليهم. وإذا كان المقصود بملوك النوبة - فى قول ابن خلدون - هم بنو كنز فإن هذا يجعل رأيه غير مقبول. والراجح كما يقول كروفوت [١]، أنه قد ينسب إلى عرب جهينة ضياع كثير من المظاهر التى امتازت بها الملكية النوبية. ومنها أن اللغة النوبية، لم تعد لغة الكتابة، بل ظلت تمثل لغة التفاهم بين النوبيين. وينسب إلى عرب جهينة كذلك تخريب كثير من الكنائس النوبية. فضلا عن زوال المبانى التى امتاز بها الفن المعمارى المسيحى النوبى.

أما ما يقوله ابن خلدون بأن عرب جهينة صبغوا النوبيين بصبغة البداوة فأصبحوا رحالة يتبعون مواقع الغيث، فهذا لا يتفق وما هو معروف عن جو بلاد النوبة الجاف. والراجح أن عرب جهينة بعد أن استقروا فى بلاد النوبة مدة تقرب من قرن ، اندفعوا جنوباً إلى الحبشة وغربا إلى جهات كردفان ودارفور. وصحبوا معهم بعض النوبيين أو النوبيين المستعربين إلى هذه الجهات حيث عاشوا جميعا عيشة البداوة متتبعين مواقع الغيث فيها [٢].

ويرجع بعض الباحثين سقوط مملكة النوبة المسيحية إلى عوامل منها، أن الكنيسة النوبية كانت دائما فى حاجة لأن تتصل بمنبعها وهى كنيسة الإسكندرية، للحصول على الأساقفة.

---

(1) Crowfoot, J. W. Op. cit. p. 148.

(2) Ibid. : op. cit. p. 148.

Kirwan, L. P. : Oxford Univ. Exc, at Firka, p. 45.

غير أن هذه الصلة الدينية قطعت نهائيا منذ عهد البطريرك ٧٥ كيرلس الثالث سنة ١٢٣٥م[١]، فتركت الكنيسة النوبية دون عون خارجى، فتضعضع مركزها وجاءت نهايتها حوالى سنة ١٣٥٠م[٢]. ومنها أن دور رجال الدين النوبيين كان سلبيا. فكثيرا ما تخلوا عن ملوك النوبة وانضموا إلى الغزاة[٣].

ثم أن سوء حال الكنيسة المصرية، وما تعرض له الأقباط فى مصر منذ سنة ١٣٣٢م على يد السلطنة المملوكية، كان له أثره فى النوبة كذلك. ويقال إن هذا الاضطهاد، امتد إلى بلاد النوبة كذلك، على يد القبائل العربية. فخربت كنائس النوبيين، وحول الكثير منها إلى مساجد، من بينها كنيسة دنقلة التى حولت إلى مسجد [٤].

من الملحوظ أن مملكة النوبة المسيحية ظلت تقاوم وحدها الضغط العربى والمملوكى، ودون عون خارجى، فلم يتعاون معها أى من الممالك المسيحية المجاورة. فمثلا كان ملوك علوة حرباً عليها، ولا شك أن النزاع الذى نشب بين ملوك النوبة وملوك علوة كان من أهم العوامل التى عجلت بسقوط مملكة النوبة المسيحية [٥]. ثم أن ملوك الأبواب تعاونوا مع السلطنة المملوكية ضد ملوك النوبة، ورفضوا إيواء الهاربين منهم. وكثيراً ما حاربوهم وسلموا الفارين منهم إلى سلاطين المماليك.

أما ملوك الحبشة من البيت الزغوى فلم يمدوا يد المساعدة لملوك النوبة ضد السلطنة المملوكية أو القبائل العربية التى ملكت ديارهم [٦].

* * *

....

(1) Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan, II. P. 130.
Beckett. H.W. : ASN., II 1907 - 8p. 353.

(2) Budge, E. A. W. : Nubian Texts p. 4.

(3) Budge, E.A.W. : AHist. of Ethiopia, I, P. IIS.

(4) Budge. E. A. W. : The Egyptian Sudan, op. cit, II, P. 130.

ويرى أن تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد كان حوالى سنة ١٣١٨ على يد كنز الدولة، وربما كان هذا هو الجامع الذى أشار إليه المقريزى.

(5) Budge, E.A.W.: The Egyptian Sudan, op. cit. p. 139.

(6) Henderson. K. D. D.: "Fung Origins" SNR. XVII.. Part I- 1935 p. 150.

أما عن أحوال بلاد النوبة الداخلية بعد سقوط المملكة المسيحية بها سنة ١٣٢٣م فلم يصلنا عنها شئ حتى ٧٦٧هـ ١٣٦٦م [١]. وكل ما يمكن استخلاصه من رواية المقريزى[٢]. أن المنطقة ما بين عيذاب شرقا والواحات غربا، فضلا عن بلاد النوبة نفسها، أضحت مسرحا للاضطرابات التى كانت من عمل الكنوز وغيرهم من القبائل العربية التى استقرت فى بلاد النوبة مثل بنى جعد وبنى عكرمة.

وليس لهذا الاضطرابات أهمية سوى ما تدل عليه من تكاثر القبائل العربية جنوباً بسبب اضطراب الأحوال فى السلطنة المملوكية نفسها فى المرحلة الأخيرة من أيام الدولة المملوكية الأولى. وثمة أهمية أخرى توجب الإلتفات، وهى أن هذه القبائل العربية كانت تنقسم على نفسها لأسباب قد يكون من بينها التنافس على السلطة فى بلاد النوبة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره المقريزى [٣]، من أن سفارة نوبية مؤلفة من ركن الدين كرنبس [٤]، أحد قواد جيش النوبة، وياقوت أحد التراجمة بها، وياقوت فارس الدين، وصلت إلى القاهرة سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٦)، تخبر أن ثمة نزاعا نشب بين ملك النوبة وبين ابن أخيه [٥]. فقدم الأمير الثائر يعاونه عرب بنى جعد إلى دنقلة، حيث دارت معركة قتل فيها الملك ولاذ جيشه بالفرار. غير أن بعض الموالين للملك، أقاموا أخاه ملكا فى مدينة الدر تاركين دنقلة تحت رحمة الأمير الثائر وبنى جعد. غير أن هذا الأمير، دبر مكيدة تخلص بها من زعماء بنى جعد. ويقال إنه انتقل شمالا إلى الدر، حيث تم الصلح بينه وبين عمه، على أن يكون الأمير الثائر نائباً للملك. وطلب الأمير معاونة السلطان الأشرف ضد العرب لاسترداد ملك بلادهما على أن يدفعا له جزية سنوية[٦].

أرسل السلطان حملة مملوكية بقيادة الأمير عبد الغنى إلى بلاد النوبة. ويقول

---

(1) MaMichael, H.A.: op. cit. I. p. 187.

(٢) المقريزى: السلوك، مخطوط، المجلد السابع ص ١٤٨.

Quatremere : op. cit. p. 116.

(٣) المقريزى: السلوك مخطوط، المجلد السابع، ص ١٤٨أ.

(٤) المصدر السابق.

(٥) لم يذكر المقريزى اسم الملك ولا اسم ابن أخيه. غير أننا نستنتج من اعتماد الأمير الثائر على بنى جعد أنه من إحدى القبائل العربية وربما كان من فرع بنى كنز.

(٦) المصدر السابق : ص ١٤٩أ. وانظر:

Quatremere : op. cit. p. 118.

ماكمايكل[1]، وإن هدف هذه الحملة هو تأييد الملك الشرعى، وتأديب بنى كنز وبنى عكرمة، فضلا عن إعادة النفوذ المملوكى على هذه البلاد، ويقال إن زعماء بنى كنز أعلنوا ولاءهم للحملة المملوكية، بعد أن منحهم قائدها الأمان. وتقدمت الحملة جنوبا فى أرض النوبة قاصدة الدر، لإنقاذ ملك النوبة من الحصار الذى فرضه عليه بنو عكرمة. وعند مدينة إبريم قبض قائد الحملة على زعماء بنى كنز وبنى عكرمة. ثم قصدت فرقة مملوكة إلى جزائر ميكائيل، حيث يعكسر بنو عكرمة، ودارت موقعة قتل فيها كثير من بنى عكرمة وفر الباقون إلى الجبال[2].

وتدل أنباء هذه الحملة وما قامت به من أعمال فى بلاد النوبة، أنها لم تحرز نصرا حاسماً، وأن نجاحها كان جزئيا [3]. بدليل أنه تقرر أتخاذ مدينة الدر مقرا للملك بدلا من دنقلة، لسببين واضحين هما هجر سكانها لها كما يقول المقريزى [4]، وحتى لا يقع الملك فى أيدى بنى عكرمة، الذين كانوا يسيطرون عليها فيما يظهر.

اتمت الحملة مهمتها فى بلاد النوبة على هذا النحو بعد أن أجلست الملك على العرش ولبس الحلة الملكية [5] ، ثم عادت إلى مصر فى نفس العام، يصحبها أسرى بنى كنز وبنى عكرمة الذين أودعوا السجن. ويقال إن الملك بعث بهدية قيمة إلى السلطان. أما ابن أخيه فإنه أقام فى قصر إبريم [6].

ويبدو أن السلطنة المملوكية كانت موتورة من بنى كنز وبنى عكرمة، فبعث بأسراهم إلى أسوان حيث قتلهم جميعاً واليها المعروف بالدم الأسود سنة ١٣٦٦م. غير أن هذا الحادث أثار بنى كنز وبنى عكرمة كذلك، فساروا فى قوة كبيرة نحو أسوان واشتبكوا فى معركة ضد القوات المملوكية قتل فيها الدم الأسود ، وانتهى الأمر بتخريب أسوان ونهبها وقتل عدد كبير من سكانها [7].

---

(1) MacMichael, H. A. : op. cit. p. 187.

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٩أ، وانظر:
Quatremere : op. cit. pp. 119 - 120.

(3) MacMichael, H. A. : op. cit p. 188.

(٤) المقريزى: السلوك، مخطوط، المجلد السابع، ص ١٩٤أ، وانظر:
Quatremere : op. cit. p. 120.

(٥) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٦) المصدر السابق:

(٧) المصدر السابق: ص ٥٢ب، وانظر:
Quatremere : op. cit. pp. 120 - 126.

وظلت الأمور فى هذه المنطقة على حال من الفوضى حتى إذا كان عام ٧٨٠هـ (١٣٧٩م) عاد النفوذ المملوكى مرة أخرى إلى هذه المنطقة، وتمكن حاكم أسوان من القبض على أحد عشر زعيما من زعماء بنى كنز وقتلهم وبعث برؤوسهم إلى القاهرة حيث علقت على باب زويلة، كما أرسل مائتان من أبناء هذه القبيلة مكبلين بالحديد إلى القاهرة [١].

ويقول المقريزى إن سياسة العنف والقسوة التى اتبعتها السلطنة المملوكية نحو بنى كنز وغيرهم أدت إلى إضعاف نفوذها فى هذه المنطقة فأضحت تحت رحمة. بنى كنز الذين خربوا بعض جهاتها ولم تتمكن السلطنة المملوكية أن تبسط سلطانها على هذا الإقليم بصفة دائمة[٢]، وظل يتجاذبها بنو كنز حينا وسلاطين المماليك حينا آخر. ويشير المقريزى إلى إغارات قام بها بنو كنز على ثغر أسوان كان يقابلها سلاطين المماليك بتجريد الحملات عليهم[٣] وظلت عملية المراوحة التقليدية فى هذه المنطقة هى العملية الوحيدة التى تسترعى الانتباه.

ووجدت السلطنة المملوكية فرصتها فى استعادة إقليم أسوان وبسط نفوذها القديم على النوبة حينما لجأ نصر الدين ملك النوبة عام ٨٠٠هـ (١٣٩٨م) إلى القاهرة مستنجدا بالسلطان المملوكى برقوق ضد ابن عمه [٤]. ويبدو أن هذا الملك النوبى الهارب كان من أبناء بنى كنز، ويقال إن السلطان عين على أسوان واليا يدعى إبراهيم الشهابى، وأمره بتقديم المساعدة إلى نصر الدين، غير أننا لا نعرف عن أمر هذه المساعدة شيئا. وكل ما يمكن استنتاجه هو أن سلطنة المملوكية استعادت نفوذها على أسوان مؤقتا، «إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة (١٤٠٤م) وخرب إقليم الصعيد ، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان. ولم يبق للسلطان فى مدينة أسوان وال واتضع حاله عدة سنين[٤]». وفى سنة ٨١٥هـ. (١٤١٣م) هاجمت قبيلة هوارة - التى كانت تعيش فى صعيد مصر - ثغر أسوان وهزمت بنى كنز [٥]. والظاهر أن هذه القبيلة تقدمت جنوبا كذلك فى أرض النوبة.

(١) المصدر السابق: المجلد الثامن. ص ١١٥أ. وانظر:

Quatremere : op. cit. p. 122.

(٢) االمصدر السابق: ص ١١٩أ.
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٢أ - ١٥٢ب.
(٤) المصدر السابق: المجلد العاشر، ص ٢٦٠أ.
(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص ١٨٩ .

والواضح أن الاضطرابات التى شملت جهات مصر الجنوبية وبلاد النوبة منذ حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، وارتفاع يد السلطنة المملوكية عنها، وما صارت إليه الأحوال فى مصر نفسها، شجعت القبائل العربية فى مصر على الهجرة جنوبا إلى بلاد النوبة ليعيشوا كيفما يطيب لهم العيش بعيدا عن ضغط المماليك، لا سيماوأن بلاد النوبة فى ذلك الحين كانت تفتقر إلى حكومة قوية تكبح جماحهم [١]. ومن هذه الهجرات هجرة جهينة وفزارة الذين اندفعوا جنوبا وغربا تاركين وراءهم بنى كنز وبنى عكرمة والهوارة وغيرهم فى بلاد النوبة [٢].

وفى هذا القرن (أى الخامس عشرالميلادى). تم اختلاط هؤلاء وأولئك جميعا بالنوبيين من أسوان حتى دنقلة . وفى هذا القرن تكونت كذلك المجموعات النوبية المستعربة والتى لا تختلف فى صفاتها الطبيعية وملامحها عن النوبيين الحاليين ، وهم الكنوز الفديجة والسكوت والمحس والدناقلة[٣].

وظل بنو كنز يمثلون أقوى العناصر النوبية المستعربة فى بلاد النوبة، حتى نهاية الدولة المملوكية الثانية فى مصر والشام سنة ١٥١٧م على يد السلطان سليم.

سقوط مملكة علوة المسيحية
وانتشار الإسلام

عوامل سقواط مملكة علوة،النزاع بينها وبين جيرانها ■ أثر الرق ■ قطع العلاقات الدينية بينها وبين كنيسة الإسكندرية ■ الهجرات العربية إلى حوض النيل الأوسط وأثرها ■ الحلف السنارى وقيام مملكة الفونج ■ جهود العلماء ورجال الصوفية فى نشر الاسلام فى مملكة الفونج حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى.

* * *

(١) المصدر السابق ص ١٩٩ .

(2) MacMichael : op. cit. p. 188.
Arkell. A. J. : op. cit. p. 199.

(3) MacMichael, H.A.: op. cit. I. p. 187.
Arkell, A.J. : op. cit. p. 199.

اكتنف تاريخ مملكة علوة المسيحية كثير من الغموض بالقياس إلى تاريخ مملكة مقرة، وذلك لضياع معظم آثار علوة من جهة بفعل عوامل التعرية الجغرافية، ومن جهة أخرى بسبب بعدها عن مصر [١].

غير أن هذا لا يعنى أن مملكة علوة كانت فى عزلة عن مصر تماما، فكنيسة علوة ظلت تابعة للكنيسة المصرية منذ نشأتها فضلا عن وجود علاقات تجارية قديمة بين البلدين، بدليل تمسك السلطنة المملوكية بمدينة سوا كن للإشراف منها على حقوق مصرالتجارية فى جهات حوض النيل الأوسط. ثم أن رغبة ملوك علوة فى استمرار العلاقات بينهم وبين السلطنة المملوكية تبدو واضحة من شكوى أدور ملك الأبواب للسلطان قلاون من تعرض ملك مقرة لرسله المسافرين إلى مصر.

وكيفما كان الأمر ، فالواضح أن مملكة علوة المسيحية تعرضت لما سبق أن تعرضت له جارتها مقرة فى الشمال، من عوامل أدت إلى تفككها وانحلالها وزوال الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فيها، ثم صبغ هذه الملكية بصبغة إسلامية. غير أن ثمة عوامل أخرى خارجية أدت إلى سقوطها ومن هذه العوامل، أن مملكة علوة تعرضت لإغارات مملكة الزغاوة منذ القرن الثانى عشر الميلادى على طرق القوافل التجارية ما بين بحيرة تشاد غربا إلى النيل شرقا [٢]. وظلت مملكة علوة موضع تهديد الزغاوة حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى[٣]. وقد سبقت الإشارة إلى أن الملك أدور ملك الأبواب شكا من تعرض بلاد الأنج لغزو أمير أجنبى ، ولا يعد أن يكون هذا الأمير هو أمير الزغاوة ثم أن طمع جيران مملكة علوة فى الحصول على الرقيق منها، أدى إلى نزاع مستمر بين ملوك علوة وأولئك الجيران فى الشمال أو الغرب. فالمعروف أن ملوك مقرة لجأوا إلى شن الإغارات على جيرانهم للحصول

---

(1) Griffith, F. Ll. : Christian Documents from Nubia p. 2.

Arkell, A.J."Fung Origins", SNR. XV. part II. 1932 p. 203.

(٢) امتدت مملكة الزغاوة حسبما ورد فى المهلبى من بحيرة تشاد فى الغرب إلى أطراف النوبة فى الشرق، ويرى آركل أنها شملت الكانم ودافور فى القرن الرابع عشر.

Arlell, A. J. : A Hist. of the Sudan p. 199.

(3) De Villard : op. cit. pp. 198 -210.

على الرقيق لدفع البقط، إذا لم يتوافر لديهم منه عدد كاف، فضلا عن الاتجار فيه كذلك[١]، ولعل استمرار حاجةالسلطنة المملوكية إلى الرقيق هى التى أدت إلى استمرار هذا النزاع الذى بدا واضحاً فى القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادى [٢].

أما فى الغرب فإن أعراب جذام وغيرهم المهاجرين من مصر جنوبا اجتاحوا مملكة الزغاوة حتى سيطروا على منطقة دارفور [٣]. واتخذ أولئك الأعراب من هذه المنطقة قاعدة لشن إغاراتهم على ما جاورها من أقاليم حتى مملكة برنو فى الغرب، بدليل ما جاء فى شكوى سلطان برنو إلى السلطان الملك الظاهر ابى سعيد برقوق سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م) ضد أولئك الأعراب[٤]، جاء فيها «... فإن الأعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين... وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها فى بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ويختدمون ببعضهم...».

وليس من المستبعد - بعد أن اقترب أولئك الأعراب من أطراف علوة - أن يكونوا شنوا عليها حربا لهذا الغرض كذلك.

وكان لقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنائس علوة، توقف إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أثر خطير فى حياة النوبيين الدينية، فأهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس النوبية وخرب معظمها. وقد حفظ قسيس برتغالى يدعى الفارز الذى زار الحبشة بين سنتى ١٥٢٠ - ١٥٢٧م - صورة عن أحوال النوبيين (أهل علوة) الدينية أوائل القرن السادس عشر الميلادى بقوله «... إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين أو اليهود. ويقال إنهم كانوا على النصرانية، غير أنهم فقدوا دينهم، ولم تبق لهم عقيدة».[٥] ويظهر من قول الفارز أن النوبيين

---

(١) كان الرقيق إحدى وسائل التعامل التجارى بين ممالك النوبة المسيحية وغيرها بدل العملة التى لم تكن معروفة عندهم.

(2) Walkely, C. E. J. : "The Story of Khartoum". SNR. XVIII. part II. p. 224.

(3) Arkell, A.J. : A Hist of the Sudan to AD. 1821. pp. 199 - 200.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٨، ص ١١٦.

(5) Father Francisco Alvarez, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia. p. 65.

فشلوا فى الحصول على قساوسة من كنيسة الإسكندرية[١] فبعثوا إلى نجاشي الحبشة سنة ١٥٢٢م ليرسل إليهم من يرشدهم فى دينهم، غير أن النجاشي اعتذر عن تلبية هذه الرغبة «إذ أنه يعتمد على البطريرك فى بلاد المسلمين فى إرسال «أبونا» فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره» [٢]. ومما زاد فى عزلتهم سقوط مملكة مقرة فى الشمال واعتناق أهلها الإسلام. وذكر الفارز نقلا عن بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف النوبة (علوة) منذ أمد بعيد لم يخلفه غيره بسبب الحروب بين القبائل العربية فى بلاد النوبة الشمالية، فتركت كنائسهم دون رعاية رجال الدين، فنسوا كل شئ عن المسيحية[٣]. وثمة دليل على هجر النوبيين كنائسهم وتخريب الاعراب معظمها، ما ذكره الفارز كذلك نقلا عن حنا السورى الذى زار علوة قبل ذلك بقليل حيث يقول« إنه كان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء» [٤] وهذا عدد قليل بالقياس إلى ما عرف عن عدد كنائس علوة حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى والتى بلغ عددها على قول أبى صالح ، حوالى ٤٠٠ كنيسة[٥].

أما الروايات التاريخية الوطنية فأجمعت على أن نهاية مملكة علوة وسقوطها أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) تم على يد جماعة من العرب والفونج. ويعنى هذا أن العرب وحلفاءهم استطاعوا اسقاط هذه المملكة عن طريق الغزوات العديدة أو أن أحوال

---

(١) ذكر الفارز خطأ أن العادة جرت فى الماضى بأن ترسل روما القسس لهؤلاء القوم. وأن آخر قسيس جاء من روما مات منذ أمد بعيد. ولم يتمكنوا من الحصول على غيره بسبب الحروب بين المسلمين. والحقيقة بطبيعة الحال أن الإسكندرية لا روما هى التى كانت تبعث بهؤلاء الأساقفة. ثم توقف إرسالهم بسبب الحروب فى النوبة الشمالية «مقرة» وتعنت السلطة المملوكية ضد الكنيسة المصرية.

(٢) وبلاد المسلمين هنا يقصد بها مصر Ibid, op. cit. p. 352.

(3) Alvarez : op. cit. p. 352.

ويرى شنى Shinnie P. L. : Exxav, at Soba p. 13. أن رواية الفارز تشير إلى مملكة علوة أما Crawford. O. G. S. ; op. cit. p. 149. فيرى أن هذه الرواية تنطبق على مملكة مقرة أكثر من علوة. غير أن هذا لا يتفق وما عرف عن إسلام مقرة منذ قرنين مضيا، والراجح أن هؤلاء النوبيين الذين أشار إليهم الفارز تابعون لعلوة بدليل ما ذكره أن العرب يسيطرون على البلاد الواقعة جنوبى مصر وهى مقرة بطبيعة الحال فضلا عما ذكره أنهم يجاورون البلو. وهى مملكة البلو المجاورة للحبشة.

(4) Alavarez, F. : op. cit. p. 352.

(٥) أبو صالح : ص ١٢٠.

هذه المملكة كان اضمحلالية بحيث لم تقو على مواجهة هذه القبائل[١]. وإذا سلمنا بصحة هذه الروايات التاريخية فيما يتعلق بدور العرب وحلفائهم ضد هذه المملكة المسيحية، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه سبق سقوطها وصول جماعات عربية فى أعداد وفيرة حتى تسنى لها طبع هذه البلاد وسكانها المسيحيين بطابع مخالف هو الطابع العربى الإسلامى.

وإذ أشار المؤلفون المسلمون إلى هجرة بعض الجماعات العربية من مصر إلى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) وأوطان البجة، فإن أحدا من أولئك المؤلفين لم يشر إلى مثل هذه الهجرات العربية إلى بلاد علوة، بل إن أخبار هذه الهجرات واستقرار الجماعات العربية المختلفة فيها جاء من مصادر سودانية، وهى عبارة عن أوراق النسبة التى تحتفظ بها كثير من الأسرات السودانية فى الوقت الحاضر[٢].

يضاف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من هجرة بعض الجماعات العربية من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر، سواء أكان هذا قبل الإسلام أو بعده على أثر وقوع أحداث هامة فى بلاد العرب [٣]. فالمعروف أن عددا من الهجرات العربية استقرت فى جهات متفرقة فى النيل الأزرق والأتبرا والحبشة. وإذا كانت هذه الهجرات العربية السابقة للإسلام قليلة العدد محدودة الأثر فلا شك فى أن أعدادها زادت زيادة واضحة عقب الغزو العربى لمصر حتى سمح للعرب - المهاجرين أو المترددين على علوة للتجارة وغيرها - ببناء مسجد فى سوبا[٤].

وموضع الأهمية هنا هل ظلت الجزيرة العربية هى المصدر الوحيدة لتلك الهجرات العربية الإسلامية إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة، أو كانت هنالك مصادر أخرى

---

(١) سبق أن أشرنا إلى بعض عوامل اضمحلال مملكتى مقرة وعلوة.

(٢) جمع ماكمايكل معظم أوراق النسبة العربية فى السودان ونشرها فى مؤلفه الضخم المعروف باسم A History of the Arabs in the Sudan. II. غير أن هذه الوثائق الوطنية تحتاج إلى تمحيص وغربلة حتى يتسنى الانتفاع بها، وذلك لأن معظم عرب السودان يميلون دائماً إلى الانتساب إلى بيت الرسول أو أحد الصحابة ، وأدى هذا إلى اصطناع كثير من هذه النسبة التى تجعل الاعتماد عليها وحدها أمراً غير مقبول.

(٣) ومن بين هذه الأحداث تخريب سد مأرب واضطهاد قريش للمسلمين وحروب الردة والنزاع على الخلافة بين الأمويين والعلويين وسقوط الدولة الأموية كذلك.

(٤) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٠٠.

شاركت ، أو انفردت بتعريب هذا الجزء من حوض النيل ؟ أن ثمة رأيا يقول «هناك ثلاثة أبواب دخلت منها الدماء العربية إلى السودان : فالباب الشرقى من السودان كان واحدا من هذه الأبواب ... والباب الثانى هو الباب الشمالى فى وسط السودان الذى يفضى إلى مجرى النيل ومصر.. أما الباب الثالث فهو الطريق الشمالى الغربى أو الطريق الليبى ... ولعل هذا الباب لم يكن مصدرا للهجرات والغزو إلا بعد الإسلام [1]. ويعنى هذا أن كلا من الجزيرة العربية ومصر كانا مصدرا الهجرات العربية التى حملت الغزوات والهجرات الإسلامية إلى حوض النيل الأوسط . ومع تسليم الأستاذ عوض بأهمية مصر كمصدر للثقافة العربية فى وادى النيل الأوسط إلا أنه لم يقلل من أهمية الجزيرة العربية كمصدر مباشر للهجرات العربية التى قامت بنصيبها فى نشر العروبة فى هذا الاقليم.

غير أن هنالك من يرى أن الجزيرة العربية - كمصدر مباشر للهجرات العربية إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة - كانت قليلة الأهمية ضعيفة الأثر بالقياس إلى المصدر الشمالى وهو مصر. فيقول الأستاذ عمار «إذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربية القليلة التى وصلت إلى السودان رأسا عبر البحر الأحمر، سواء كان ذلك قبل الإسلام أم زمن التوسع الإسلامى، أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل الرشايدة إلى حيث ينزلون الآن فى الشمال الشرقى للسودان. فإن تعريب السودان فى الواقع إنما تم عن طريق مصر إذ لا يسجل التاريخ - فى أى عهد من عهوده - وصول موجات هامة أو هجرات عنيفة إلى السودان عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب» [2]. ونجد للرأى الأخير تأييدا فيما ذكره ما كمايكل إذ يقول «إن بعض القبائل العربية فى السودان تدعى أن أجدادها وصلوا من جزيرة العرب مباشرة إلى السودان عبر البحر الأحمر لتأييد دعواهم فى الانتساب إلى أصل شريف أموى أو عباسى أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله . ومع التسليم بوصول بعض الأسر العربية من حين إلى آخر عبر هذا الطريق إلى السودان إما للتجارة أو

---

(١) أنظر محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص ١٥٩ - ١٦٠ حيث يقول: «وحسبنا أن نقرر أن الباب الشرقى من السودان كان واحداً من الأبواب التى دخلت منها الدماء العربية ومعها الثقافة العربية إلى السودان، وأن تأثيرها لم يكن مقصوراً على الجهات التى تقابل الجزيرة العربية بل تجاوزتها إلى السودان الأوسط والسودان الغربى أيضا».

(٢) عباس عمار: وحدة وادى النيل . أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ ص ٨٠.

اتخاذه مكان هجرة أو بحثا عن المراعى كما فعلت قبيلة الرشايدة حديثا فإن التاريخ لم يسجل وصول هجرات واسعة عبرهذا الطريق مثلما سجل عن هجرة هذه القبائل العربية إلى مصر (١).

وكيفما كان الأمر فالمعروف أن كثيرا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا حيث استقرت فى بلاد النوبة الشمالية وأرض البجه عقب الغزو العربى لمصر، واختلطت الجماعات بعضها ببعض اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكناها بين النوبيين والبجه حينا بعد حين، ولا سيما بعد منتصف القرن التاسع الميلادى. وزادت جموع العرب المهاجرين من مصر جنوبا زيادة واضحة عقب قيام السلطنة المملوكية فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، ثم سقوط مملكة مقرة المسيحية بعد ذلك فى يد العرب أوائل القرن الرابع عشر الميلادى. ومرجع ذلك فى الغالب على قول ما كمايكل، أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام فى مصر ولاسيما بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة وأصبح ينظر إليهم كعنصر غير مرغوب فى بقائه، فاستبدلوا بقوات حربية نظامية مدربة لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم فضلا عن مماطلتهم فى دفع الضرائب وإثارة القلاقل. وفى القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون. ثم أن رغبة العرب - فى العيش عيشة البداوة التى تعودوها فى بيئتهم الأصلية والبحث عن مراعى واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام والتى لا يتوفر وجودها فى مصر - دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوباً حيث البيئة الرعوية التى تشبة بعض جهاتها البيئة الأصلية فى الجزيرة العربية. هذا فضلا عن رغبتهم فى الحصول على الرقيق (٢) ثم أن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيل من مصر، وأكثر من هذا أنها أمعنت فى مطاردتهم جنوبى مقرة ذاتها بدليل ما ذكره النويرى أن حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٦١٧هـ (١٣١٧م) ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكى. وأوغلت هذه

(1) Hamilton J. A. de C. ed. : The Anglo Egyptian Sudan From Within. "The Coming of The Arabs in the Sudan" by MacMichael, PP. 64-47.

(2) Hamilton ed. : op. cit. PP. 47-50.

أنظر أيضا:

Reid, J. A. : "Some notes on the tribes of the White Nile Province " SNR. XIII. part.II. 1930. P. 151.

الحملة جنوبا حتى سواكن، واتجهت غربا إلى التاكة ، والى جهة الأبواب ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة[١].

والواضح تماماً أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، أدى إلى ازدياد موجة الهجرات العربية، ولا سيما بعد أن بات السابقون من العرب فى شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد، وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفاً، هجرة جهينة التى أشار إليها ابن خلدون، وهى واحدة من خليط هائل من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التى تجمعت فى أنحاء النوبة الشمالية، على حين تجمع خليط آخر منها عقب سقوط دنقلة فى أرض البطانة والجزيرة ونشأت على أثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية[٢]. والراجح أن معاينة هذه الجماعات للمراعى الغنية ترامت أخبارها إلى ذويهم فى الشمال فاندفعت جموعهم جنوبا ولاسيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم [٣]، بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم فى النوبة الشمالية، بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها[٤].

لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم نحو الجنوب؟ هل اضطروا إلى شن الإغارات على الوطنيين والدخول فى حرب ضد مملكة علوة المسيحية، يقول ابن خلدون: «وانتشروا (أى جهينة) ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هنالك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة، وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد [٥]. والمفهوم من هذا أنه بعد سقوط دنقلة فى يد العرب أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية إلى شمال غربى الحبشة مسرحا لأعمال النهب والتخريب مدة لا تقل عن ثلثمائة عام [٦] وأن العرب فى تقدمهم جنوبهم قتلوا كثيراً من النوبيين وأسروا بعضهم حتى اضطر كثير من النوبيين إلى الهجرة غربا إلى تلال نوبا فى جنوب كردفان، وجبل حرزا وكاجا وغيرها فى شمال

(١) النويرى: نهاية الأرب، جـ٣٠، ص ٩٦ - ٩٧، المقريزى : السلوك، جـ٢، القسم الأول ، ص ١٦٢: انظر ملحق رقم ١٦.

(2) Henderson, K. D. D. : "Fung Origins" SNR. XVIII part I. 1933 p. 150.

(3) Hamilton, : ed. op. cit. p. 48.

(4) Trimingham, J. S. : Islam in the Sudan. P. 71.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ٢٤٧.

(6) Walkely. C. E. J. : "The Story of Khartoam", SNR. XVIII. part II. 1935 p. 124.

كـردفـان[1] غير أنه يبـدو أن العرب لم يقابلوا فى تقدمهم جنوبا إلى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة لعجز ملوكها عن دفعهم . وإذا كانوا اضطروا أحياناً إلى استخدام العنف، فإن الطابع العام لهذه الهـجرات كان طابعا شبـه سلمى ونجحوا فى تحقيق مآربهم بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم. ويقول ما كما يكل «إن كل الدلائل تشير إلى أن النصر - باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبا، حيث لا يزال العرب يمتلكون السهول، على حين يسكن الزنوج التلال - قد تم غالبا بالاتفاق والتزاوج مع بعض العنف بسبب ضعف مقاومة النوبيون. ويمكن القـول إن الظاهرة الأسـاسية فى التاريخ الجنسى لشـمال السـودان ووسطه منذ أواخـر القـرن الثـالث عـشـر الميـلادى كـانت ظاهرة الاندمـاج التـدريجى بين العـرب والسود»[2].

لا شك أن لهذا الرأى وجاهته فهو يتفق وما ذكره ابن خلدون فى صدد هجرة جهينة إلى بلاد النوبة (علوة)[3]. أما عن اضطراب الأمن فى بلاد النوبة وأوطان البـجه حتى الحدود الحبشية، فكان بسبب التنازع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر. وتشير بعض الروايات التاريخية إلى وجود مثل هذا النزاع بين قبيلتى جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قرب عيذاب[4]. ولعل فى إشارة ابن خلدون إلى انقسام العرب على أنفسهم ، ما يزيد فهمنا لما صار إليه هذا الجزء من حوض النيل أوائل القرن الخامس عشر الميلادى. إذ يقول «واستولى

---

(1) Sager , J. W. : "Notes on The history, religion and Customs of the Nuba", SNR. V. part III. 1922 p. 139.

ويشبـه سجر Sager تقدم العرب فى شمال السودان بتقدم الانجلوسا كون فى بريتانى حيث قضوا على البريتون ومن نجا منهم فر إلى جبال كرنول وويلز.

(٢) عباس عمار - وحدة وادى النيل ، ص ١٦ ، نقلا عن:
Hamilton, : ed. op. cit. p. 59.

(٣) أنظر الجزء الخاص بسقوط مملكة مقره المسيحية ص٠٠٠١ حيث ورد فيها نص ابن خلدون الذى يشير فيه إلى عجز ملوك النوبة عن صدهم، فاستمالوا إليهم العرب عن طريق المصاهرة،ابن خلدون : العبر، جـ٥ ص ٤٢٩.

(٤) المقريزى: السلوك ، جـ١ ، القسم الثالث ص ٧٠٠، أنظر كذلك:
Bloss. J. F. E. : "The of Suakin " . SNR. XIX, part II, 1936 p. 281.

أعراب جهينة على بلادهم (أى النوبيين فى علوة)، وليس فى طريقه شئ من السياسة الملوكية للآفة التى تمنع انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعا لهذا العهد» [١].

أما عن الطرق والمسالك التى سلكتها الجماعات العربية المختلفة، إلى حوض النيل الأوسط، فمن بينها الطريق الذى يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكرسكو عبر أوطان البجه، الموازية للبحر الأحمر. غير أن أهمية هذا الطريق محدودة بالقياس إلى الطرق الأخرى لقلة الماء وفقر المرعى. والغالبية العظمى من العرب المهاجرين من مصر إلى حوض النيل الأوسط سلكت الطريق الذى يتبع مجرى النهر إلى منطقة دنقلة. وإذا كانت بعض القبائل آثرت أن تستقر على جوانب النهر، فإن منها من انتقل غربا بطريق وادى القعب، ونزل الأراضى المحيطة به، وسلك الآخرون الطريق الذى يبدأ من كورتى على طول وادى مقدم وعبر الدبة على طول وادى الملك إلى كردفان، حيث تتفرع الهجرات على شكل المروحة، فمنها ما يتحرك إلى دارفور وما يليها غربا وجنوبا، ومنها مايسير على جوانب النيل الأعظم وعبر صحراء بيوضه وأعلى الأتبرا و النيل الأزرق فى اتجاه جنوبى شرقى إلى حدود الحبشة [٢].

وثمة رأى آخر يقول إن الجماعات العربية التى هاجرت من مصر جنوبا إلى السودان بطريق النيل، لم تلازم النهر فى كل جزء منه، بل سلكت طريقا يتابع النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو أو قبلها ثم يخترق صحراء العتمور مباشرة إلى أبو حمد حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب [٣]. غير أن هذا الطريق إذا صح وسلكته بعض الجماعات العربية فلا بد وأن يكون هذا حدث قبل سقوط دنقلة أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، لمنع العرب أو غيرهم من غير النوبيين التقدم جنوبى الشلال الثانى إلا للتجارة [٤] وبسقوط دنقلة انفتح الباب أمام الجماعات العربية المختلفة للانسياب جنوبا على طول النهر، الذى كان دائما الطريق الطبيعى للهجرات منذ فجر التاريخ، وذلك لا حاطتة بصحراء قاحلة جرداء، على حين أن واديه الضيق يسمح بمرور القطعان حيث يوجد الماء والعشب كذلك [٥].

---

(١) ابن خلدون: العبر ، جـ٥، ص ٤٢٩.

(2) Hamilton, : ed. op. cit. p. 55.

(٣) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ١٦٠ - ١٦١.

(٤) أنظر ص٩٠٧ من كتابنا هذا.

(5) Firth, C. M. ASN. Roport 1910 - II. p. 1.

أشتملت الجماعات العربية التى هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على مجموعتا العدنانيين والقحطانيين. ويمثل العدنانيين فى الوقت الحاضر الكواهلة والمجموعة الجعلية وبعض القبائل الصغيرة الأخرى كالرشايدة. ويمثل القحطانيين، المجموعة الجهنية. إذن متى دخلت هذه الجماعات العربية حوض النيل الأوسط؟ وكيف تم انتشارها على هذه الصورة؟ إن أول إشارة إلى بنى كاهل وردت فى رحله ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (١٢٥٣م[١])، فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن، وهم مختلطون بالبجة عارفون بلسانهم[٢]. وليس من المعروف تماماً متى استقر أولاد كاهل بين البجة والراجح أن هجرتهم إلى هذا الأقليم لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) بدليل معرفتهم لغة البجة.

ويقال إن الكاهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة، وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة عبر البحر الأحمر واستقروا فى الإقليم الساحلى بين سواكن وعيذاب[٣] غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية[٤]. والأرجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر. إذ تقول روايات العبابدة[٥]، إنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام، وأن جدهم عبادا قدم من جزيرة العرب إلى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى، ثم مات ودفن فى وادى عباد قرب أدفو، وأن عبادا هذا جد كاهل[٦]، ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة. واختلط أولاد كاهل بالبجة عن طريق المصاهرة ونالوا مركز الزعامة فيهم. وعلى الرغم من أن كثيرا من الجماعات العربية اختلطت بالبجة وتصاهرت معهم منذ القرن التاسع الميلادى حيث اعتنق كثير منهم الإسلام، فإن البشارين

---

(1) MacMichael, H. A. : A Hist. of The Arabs in the Sudan . I. p. 324.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة جـ١، ص ١٥٤.

Murray, G. W. : Sons of Ismail, p. 303.

(٣) محمد عوض محمد : السودان الشمالى، ص ١٤٣.

(4) MacMichael, H. A. : op. cit. p. 324.

(٥) وهم شعبة من البجة يسكنون صحراء مصر الغربية وتلال البحر الأحمر.

(6) Murray, G. W. : op. cit. op. 30.

والأمرار وبنى عامر [1] ينتسبون كذلك إلى كاهل، مما يدعونا إلى الاعتقاد أنه كان لبنى كاهل الأثر الأكبر فى نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم [2].

ومن المؤكد أن أولاد كاهل عاشوا زمنا فى الأقاليم الساحلية الشرقية والمناطق التى تليها، واشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل بين النيل والبحر الأحمر، ثم انتشروا انتشاراً تدريجياً نحو الغرب؛ وعرف هؤلاء جميعاً باسم الكواهلة. ويمكن تقسيم هذه الحركة كلها إلى مراحل تمثل الأولى منها نزولهم فى الساحل واستقرارهم فيه فى القرن الثالث عشر الميلادى حيث رآهم ابن بطوطة مختلطين بالبجة فى منتصف القرن الرابع عشر [3]. وتمثل المرحلة الثانية انتقال شعب منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق فى القرن الخامس عشر الميلادى واحتشدوا فيه. وتمثل المرحلة الثالثة انتقال جماعات منهم آتية من الشرق ونزحت إلى جهات النيل الأبيض ثم إلى كردفان فى أزمنة متعاقبة [4]. وبهذا أضحى للكواهلة أوطان ثلاثة [5]. والواضح أن معظم هذه الأوطان التى استقروا فيها منذ القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل كانت جزءاً من مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا. غير أنه لم يصلناشئ عن تاريخ هذه المرحلة من تاريخهم، ومع هذا فإن القليل الذى عرف عن رواياتهم وقصصهم فى وقت متأخر (القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين)، ولا سيما شعبة النيل الأبيض يدل على

---

(١) البشاريون الذين تقسمهم الحدود الإدارية بين مصر والسودان ، فتترك جزءاً منهم داخل الحدود المصرية وتترك جزءاً أخر يسكن إقليما يمتد حوالى ٨٠ ميلا إلى الجنوب (حتى البطانة) أما الأمرار فيحتلون مساحة من الأرض تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع ترتكز من ناحية الشرق على البحر الأحمر ابتداء من خط عرض ٢١ شمالا إلى قرب بور سودان جنوب ويسكن بنو عامر المنطقة جنوب خور بركة ويمتدون فى أرض رترية.

(٢) محمد عوض محمد : نفس المصدر، ص ١٤٤.

(٣) من الملاحظ أنه ليس للكواهلة أوطان فى أرض البجه فى الوقت الحاضر إذ زال أثرهم لاندماجهم التام فى قبائل البجه. وأوطانهم اليوم مبعثرة فى جهات متعددة أخصها إقليم النيل الأبيض وأواسط كردفان.

(٤) محمد عوض محمد : السودان الشمالى، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، يقول الدكتور عوض: إن انتشار الكواهلة فى جهات كردفان استغرق حوالى ثلاثة قرون من القرن السابع عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر. وعلى الرغم أن قسماً واحداً من العرب على النيل الأبيض يسمى الكواهلة إلا أن الحسانية والحسنيات ينتسبون إلى الكواهلة كذلك وهم يمتدون من خط عرض ١٢ جنوباً إلى جبل الأولياء. نفس المصدر ص ١٤٨.

(٥) وهذه الأوطان هى : الأولى النيل الأزرق والأتبرا، والثانية فى منطقة النيل الأبيض ، والثالثة فى كردفان.

أنهم استعملوا الحيلة أحيانا والحرب أحيانا أخرى لتوطيد أقدامهم. وتدل الأمثلة السائرة عند بعض شعبهم (١)، أنهم اتبعوا سياسة يبدو أنها متأصلة فى بنى كاهل وهى أن ينزلوا غرباء ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً عن الأرض التى يحتلونها، حتى إذا كثر عددهم، أدعوا الحق فيها، والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم(٢).

أما المجموعة الجعلية فتركزت على النيل الأعظم من جنوب الخرطوم الحالية حتى دنقلة. وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسى، الذى انتشرت منه فى شعب وفروع نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ونحو الغرب إلى كردفان ، وفى الشمال حيث يعيش بعضهم مثل الجوابرة والركابية وسط الجماعات النوبية (٣).

وليس من المعروف تماما متى بدأت هجرة هذه الجماعات إلى حوض النيل الأوسط. ومن الجائز استنادا على بعض الروايات الوطنية أن تكون بدأت هجرتها من مصر إلى هذا الإقليم، منذ حوالى أواخر القرن العاشر الميلادى (٤)، سالكة طريق العتمور لتجنب مملكة مقرة المسيحية. ثم لحق بها عدد كبير فى العهد المملوكى ولا سيما بعد سقوط دنقلة (٥)، سالكين طريق النيل من الشمال إلى الجنوب، حيث استقروا فى أوطانهم الحالية على النيل الأعظم(٦).

ويقال إن الجعليين ينتسبون إلى ابراهيم الملقب بجعل، من نسل العباس عم النبى صلى الله وسلم . وترجع سبب هذه التسمية إلى أن ابراهيم هذا كان جوادا مضيافا، وأنه كان يقول للوطنيين وغيرهم من العرب «إنا جعلناكم منا» أى أصبحتم منا (٧). وتدل هذه العبارة وكثرة

---

(١) ومن الأمثلة التى يرويها مستر ريد عن الحسانية وهم من كواهلة النيل الأبيض «لا تأمن الحسانى إن كان غريب بلدانه». محمد عوض محمد: نفس المصدر ص ١٥٠، نقلا عن Reid. J. A. : op. cit. p. 149. وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ١٤٨ى – ١٥٠.

(٣) محمد عوض محمد : نفس المصدر ، ص ١٦٤.

(4) MacMichael, H. A. : AHist. of the Arabs in the Sudan, II. p. 348.

ويقول ما كمايكل فى موضع آخر إن أسلافهم هاجروا إلى مصر حوالى ٩٦٩م ثم هاجروا إلى السودان حوالى ١١٧١م Ibid. : op. cit. pp. 9- 10.

(5) Ibid. : op. cit. pp. 9- 10.

(6) MacMichael, H.A. : "Nubian elements in Darfour" SNR. I. No. I. p. 31.

(7) MacMichael, H. A. : A Hist : of theArads in the Sndan; I. p. 197.

ترديدها أن التوغل العربى فى هذه المنطقة كان توغلا شبه سلمى مبنيا على التودد إلى السكان الوطنيين [١]. ويقول ما كمايكل إن انضواء كثير من الجماعات العربية وغيرها من الوطنيين تحت لوائه، جعل ذريتهم من هذا الخليط يدعون جميعا النسب إلى العباس [٢].

والراجح أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل ذات نسب متقارب، وهاجرت على دفعات وعلى مدى قرون وبسطت نفوذها على هذه الجهات قطراً بعد قطر إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدت القبيلة، فضلا عن إدماج المجموعة كلها بعضها فى بعض وإدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية [٣].

وتشتمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل منها الجعليين الأصليين الذين ليس لهم اسم آخر، وتمتد مواطنهم من خانق سبلوقة إلى الأتبرا - والميرفاب إلى شمال الأتبرا حول بربر - والرباطاب من بربر إلى أبو حمد - والمناصير من أبو حمد إلى آخر الشلال الرابع - والشايقية من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة - والجوابرة (بنى جابر) بين الدناقلة والمحس - والركابية ويشك فى نسبتهم إلى الجعليين وهم من العرب الشماليين ومواطنهم وسط بلاد المحس- والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الكواهلة - والجمع قرب النيل الأبيض إلى الجنوب من بلاد الكواهلة - والبديرية، بعضهم فى بلادالنوبة والبعض فى كردفان. هذا فضلا عن قبائل أخرى مبعثرة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة[٤].

وثمة ظاهرة توجب الالتفات، وهى أن الإقليم الذى تحتله المجموعة الجعلية على النيل من جنوب الخرطوم حتى دنقلة، غلبت عليه الصبغة العربية، مما يدل على أن هذه الجماعات التى هاجرت إلى هذا الاقليم على مدى القرون كانت قوية كثيرة العدد، حضرية لا تميل إلى حياة البداوة، ولهذا فضلت الاستقرار فى مدن على طول النيل [٥]، على حين أن غيرها من الجماعات التى حافظت على بداوتها انتشرت غربا وشرقا وجنوبا فى طلب حاجات الرعى.

(١) محمد عوض محمد : نفس المصدر، ص ١٦٦.

(2) MacMichael, H.A. : SNR, I. Part I. 1918 p. 31.

(٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالى ، ص ٢١١.

(٤) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ١٦٨.

(5) Chatway, J.D.P. : "Notes on the hist. of Fungs", SNR.. XIII. part II., 1939. p. 252.

والمجموعة العربية الثانية - فى حوض النيل الأوسط بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون - هى المجموعة الجهنية التى تدعى الانتساب إلى عبد الله الجهنى[1]. وإن كان يشك فى صحة هذه النسبة، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية ا لتى عاشت حول ينبع من حوالى ١٣٠٠ سنة، ومن هذا المركز توالت هجراتها إلى مصر [2]، ثم توالت هجراتها جنوبا إلى بلاد النوبة وأوطان البجة منذ منتصف القرن التاسع الميلادى [3]. وانتشرت جماعات من جهينة فى أوطان البجة حتى وصلت سواكن فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، بدليل ما أشار إليه المقريزى من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١هـ (١٢٨١م) قرب سواكن [4]، ثم انتشروا جنوبا إلى أرض الحبشة. ولا بد أنها كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

أما الجماعات الجهنية التى انتقلت إلى أرض مقرة فإنها احتشدت فيها حتى إذا كان منتصف القرن الرابع عشر، أخذت فى الإنتشار جنوبا متتبعة مواقع الغيث. ويدل هذا على أن جهينة سلكت فى تقدمها جنوبا مسالك مختلفة، أهمها الطريق الشرقى عبر أوطان البجة، والآخر طريق النيل، ومنها احتلت أقاليم موزعة بين الأتبرا والنيل الأزرق شرقا إلى أقاصى دارفور غربا.

وتنقسم القبائل الجهنية فى السودان إلى ثلاث مجموعات رئيسية: الأولى وتشمل رفاعة (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبد اللاب والعركيين وغيرهم) - اللحويين - والحلويين - والعوامرة - والخوالدة - والشكرية، ومواطنهم جميعا فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة، أى فى النصف الشرقى من السودان. وتشتمل المجموعة الثانية على دار حامد - وبنى جرار - والزيادية - والبزعة - والشنابلة - والمعاليا. ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة، ويعيشون فى المنطقة الوسطى والشرقية من كردفان. أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الدويحية - والمسلمية

---

(1) MacMichael, H. A. : A Hist, of the Arabs in the Sudan. I. 237.

(2) Ibid. : op. cit. I. pp. 237 - 238.

(٣) سبق أن أشرنا إلى هجرة جهينة إلى جهات مختلفة من حوض النيل إلى أوطان البجة وبلاد النوبة منذ منصف القرن التاسع الميلادى إلى القرن الخامس عشر.

(٤) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثالث، ص ٧٠٠.

- والبقارة - والحاميد - والماهرية - والكبابيش - والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب)- والحمر. وهم منتشرون فى كردفان ودارفور.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن هذا الانتشار الواسع لم يتم دفعة واحدة، بل استغرق عدة قرون، وأن هذه الجماعات استقرت على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة، محافظة على نظامها القبلى [١]. ولابد أنهم كانوا يدفعون أتاوة لملوك علوة [٢]. ومن توالى وصول هجرات جديدة على مر القرون كثرت أعدادهم كثرة واضحة . فتقول إحدى الروايات الوطنية إنه كان لجهينة ٥٢ وحدة قبلية قرب سوبا على النيل الأزرق، وأكثر منها فى الأقاليم الغربية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى [٣]. ثم اشتد ضغط أعراب جهينة على ملوك علوة الذين حاولوا دفعهم أوصدهم على قول ابن خلدون، ولما لم يستطيعون لهم دفعا استمالوهم إليهم بالمصاهرة، فانتقل الملك إلى أبناء جهينة من بنات ملوك علوة حسبما يقتضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين جميعاً، «فافترق ملكهم حتى هذا العهد» (أى القرن الخامس عشر الميلادى).

والمعروف أن مملكة علوة المسيحية تألفت من عدة ممالك صغيرة خاضعة للملك الكبير فى سوبا، وهذه الممالك الصغيرة هى التى انتقل سلطانها - دون سلطان الملك الكبير - إلى أبناء جهينة. ويذكر الدمشقى (١٢٥٦ - ١٣٢٧م) أن ملك علوة يسكن مدينة تسمى كوسة [٤] لا مدينة سوبا العاصمة القديمة وليس من المستبعد أن يكون ملك علوة اضطر أمام ضغط الجماعات العربية المختلفة ومن بينها جهينة إلى نقل مقر ملكة فى القرن الرابع عشر الميلادى

(1) Morie, L.J. ; Hisoire de l'Ethiopie, la Nubie Tome Iere, p. 413.

(٢) أنظر ص ٩١٢ وما بعدها.

(3) MacMichael : op. cit. II, p. 28.

(٤) الدمشقي: كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٢٦٨ . أما كوسة فموقعها غير معروف تماماً، ولكن الإدريسى يقول: «إن من بلاد النوبة مدينة كوسة الواغلة (أى الداخلة) وبينها وبين مدينة نوابية ٦ أيام وهى تبعد عن النيل يسيراً وموضعها فوق خط الاستواء. والإدريسى : المغرب، وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ١٩ .

Crawford, O.G.S.: The Fung Kingdom, p. 27 Note 29.

إن كوسة تقع قرب موضع يعرف بزانكور عند بدء وادى الملك حيث عثر على بقايا فخار ومبانى تشبه ما كان موجوداً فى مملكة علوة المسيحية.

على الأقل إلى مدينة كوسة واتخذها عاصمة له [١]، وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها القديم كعاصمة لمملكة علوة، فأضمحل شأنها وخربت دورها[٢].

وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا إلى كوسة واستيلاء القبائل العربية على معظم أقاليم علوة، فإن هذا لا يعنى سقوط تلك المملكة حتى القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل. ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها سائر الأقاليم، لأسباب واضحة منها «عدم انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعا لهذا العهد[٣]».

والواضح تماما أن قبائل جهينة لم تكن الوحيدة التى أفادت من تداعى مملكة علوة وانحلالها، بل شاركتها القبائل العربية الأخرى التى استقرت فى جهات متعددة من مملكة علوة. وعلى هذا نشأت فى جوفها عدة إمارات عربية مستقلة. ويذكر القلقشندى أن من بين الإمارات التى نشأت فى أوطان البجة حتى الحدود الحبشية وبلاد النوبة كذلك ثمانى إمارات كان بين أمرائها والسلطنة المملوكية فى مصر مراسلات فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد [٤]. غير أنه ليس من الواضح تماما إن كانت هذه الإمارات يقع بعضها فى إحدى جهات علوة أو قريبا منها.

وكيفما كان الأمر، فالمعروف أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية فى حوض النيل الأوسط [٥]، وكان لظهورها أثر خطير فى تطور

---

(1) Crawford, O.G.S.: op. cit. pp. 27- 28.
De Villard : op. cit. p. 220.

(٢) زار داود روبينى الرحالة اليهودى اليمنى الأصل، مملكة سنار سنة ١٥٢٢م، ومر بمدينة سوبا سنة ١٥٢٣، فوجد أنها مخربة، وكل ما فيها عدة مساكن مبنية من القش والخشب.
Hillelson, S.: Reubini, SNR. XVI. part. I. 1933. p. 60.

(٣) ابن خلدون العبر ، جـ٥، ص ٤٢٩.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٨، ص ٥-٦، أورد القلقشندى أسماء ثمان من الأمراء كانت بينهم وبين السلطنة المملوكية مكاتبات وهم: سمرة بن كامل العامرى ـ وعباد بن قاسم ـ وكمال بن سوار ـ وجنيد، شيخ الجوابرة، الهكارية بأبواب النوبة ـ وشريف شيخ النمانمة بابواب النوبة أيضاً ـ وعلى شيخ دغيم، وزامل الثانى، وأبومهنا العمرانى. أما دنقلة فعليها ملك ولهذا أورد مكاتبة صاحبها فى جملة الملوك. أنظر ملحق رقم ١٨.

(٥) نعوم شقر : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، جـ٢، ص ١٠٣، ١٠٧، أورد المؤلف أسماء عدد من المشيخات والممالك التى دخلت فى حلف مع ملك الفونج، أوائل القرن السادس عشر الميلادى، ومن بينها: مشيخة الشنابلة، ومملكة الجموعية، ومملكة الجعليين فيما بعد لمشايخ العبد اللاب. هذا فضلا عن الممالك والمشيخات الأخرى التى خضعت لملوك الفونج رأساً. أنظر ملحق رقم ١٨.

الحياة الاجتماعية والسياسية كذلك، مما ساعد على زوال بعض الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى علوة. ذلك أن اختلاط العرب المهاجرين بتنظيماتهم القبليه المفككة بالسكان الوطنين ساعد على تفكك هذه الممالك المسيحية إزالة بعض التقاليد الاجتماعية القديمة ولاسيما بعد اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة، وأضحت الأرض ملكا للجماعة القبلية بعد أن كانت ملكا لنظام ملكى، وصارت الأرض توزع على الجماعة القبلية يقومون على استغلالها ودفع الضريبة عنها لشيخ القبيلة أوزعيم الدار.

وثمة تطور آخر طرأ على الحياة السياسية. ذلك أن الحكم أضحى وراثياً فى بيت شيخ القبيلة أو الدار، وتكونت من مجموعات القبائل - فى الإقليم الذى اتخذته داراً لها - زعامات إقليمية تولاها شيخ المشايخ وهو عادة شيخ أقوى قبيلة المجموعة وعرف باسم المانجل[١]. وبهذا أختفى نظام الوراثة القديم، أى نظام الأمومة.

ولعل أهم أثر لقيام هذه المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط، هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد، وذلك أنه لما رأت القلة التى بقيت على النصرانية أن لا أمل لها فى قيام حركة للإصلاح فى مجتمعهم بسبب انقطاع علاقاتهم الدينية بكنيستهم الكبرى فى الاسكندرية، كان من الطبيعى أن ينشدوا ما يسد رمقهم الروحى فى الدين الجديد الإسلامى [٢].

وقد أدت هذه الاحداث فى هذا الجزء من حوض النيل، إلى عدم استقرار الأحوال فيه بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى [٣]، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. وزاد الأمور تعقيداً تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر، واختلال سير القوافل بينهما، بسبب اضطراب

(١) ربما أخذت هذه الكلمة عن الاثيوبية ومعناها عظيم.

Budge: The Egyptian Sudan. II, p. 212.

أما المانجل فأصلها غير معروف وكانت من أرفع الألقاب فيما بعد فى مملكة الفونج، وكذلك. لقب أرباب.

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٠٠ .

(٣) نعوم شقير: نفس المصدر، جـ٢ ، ص ٧٢.

الأحوال فى منطقة النوبة الشمالية[١]. ولهذه الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاءحكومة مركزية تخضع له شتى الجماعات والقبائل المتنازعة، لإقرار الأمن وحماية طرق التجارة القديمة. وتذكر المراجع الوطنية، أن عمارة دونقس زعيم الفونج جمع رجاله فى جبل مويا [٢]. ثم تحالف مع عبدالله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وأصحابه الآخرين، على إخضاع ملك العنج وملك الغرب [٣]. ودارت فى أربجى[٤]. معركة سنة ٩١٠هـ ١٥٠٥م [٥] انتصر فيها الحليفان، و فر العنج إلى جبال فازوغلى وكردفان، ومن بقى منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام [٦].

أما الفونج فاختلف المؤرخون حول أصلهم، ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك مستندين فى هذا على ما ذكره بروس الرحالة الاسكتلندى الذى زار سنار سنة ١٨٧١[٧]. وقيل إنهم قوم أتوا من الغرب، ويحتمل أن يكونوا فرعا من الأسرة المالكة فى مملكة برنو [٨] وثمة رأى ثالث يقول إنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة بطريق النيل الأزرق [٩]. أما الفونج أنفسهم فيقولون إنهم من ذرارى الأمويين الذين لجأوا إلى ملك الحبشة، فرارا من بنى

---

(١) أنظر ص ٩٦١ وما بعدها.

(٢) يقع جبل مويا على بعد عشرة أميال غرب سنار الحالية . والراجح أن عمارة لم يقم فى جبل مويا، بل إنه كان يقيم فى لمول Lamul حسبما ذكره روبينى الرحالة اليهودى الذى زار السودان سنة ١٥٢٢ .ولمول هى التاكة الحالية Crawford : op. cit. p. 153 ويرى الأستاذ شبيكة أنها تقع فى مكان بين كوكوج والرصيرص. تاريخ ملوك السودان، نشر شبية ص ٥.

(٣) أحمد كاتب الشونة: تاريخ ملوك السودان، نشر مكى شبيكة، ص ١ . ويقصد بالعنج هنا السكان السابقين للفونج، أما ملك الغرب فربما يكون ملك علوة المقيم فى كوسة كما ذكر الدمشقى.

(٤) يقال: إن أربجى أسسها رجل يدعى حجازى بن معين حوالى سنة ١٤٤٧م.
Jackson, H. G. : Tooth of Fire, pp. 17 - 18.

(٥) يرى الأستاذ الشاطر أن تأسيس مملكة الفونج لا يرجع إلى سنة ١٥٠٥ بل إلى حوالى ١٥٢٣ لعدة أسباب من بينها أن روبينى زار عمارة فى عاصمته لمول ولم تكن سنار قد أنشئت بعد ، راجع معالم تاريخ سوادان وادى النيل ص ٢٣.

(٦) أحمد كاتب الشونة. تاريخ ملوك السودان ص ٢.

(7) Arkell, A. J. : "Fung Origins " SNR., XVII, PP. 208 - 243.
نقلا عن Bruce : Travels to discover the Source of The Nile IV. p. 458.

(8) Arkell, A. J. : A Hist. of The Sudan. pp. 206 - 207.

(9) Chatway, J. O. P. : "Notes on the Hist. of the Fong". SNR, XIII, II. pp. 247 - 257.

العباس[1] ونجد لذلك تأييدا فيما أشار إليه كل من المسعودى [2] والمقريزى عن هجرة بقايا الأمويين إلى بلاد النوبة وساحل البحر الأحمر، ولا يبعد أن يكون بعضهم استقر إما فى بلاد النوبة الشمالية ثم انتقل إلى أرض الجزيرة، أو أن بعضهم لجأ إلى الحبشة ومنها إلى أرض الجزيرة كذلك.

وكيفما كان الطريق الذى سلكه الفونج إلى جزيرة النيل الأزرق، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب عامة أو بنى أمية خاصة، فموضع الأهمية فى الواقع فى هذه المرحلة من تاريخ الفونج أن أولئك القوم، سواء هبطوا جزيرة النيل الأزرق من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، عرضوا أنفسهم على قاعدة أنهم عرب ووافقهم الناس على نسبتهم هذه[3]، لا سيما وأنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية [4]، أو يدينون بدين سوى الإسلام.

وتدل شروط الحلف بين الحليفين عمارة وعبد الله، أن يكون عمارة هو المقدم على زميله فى الزعامة وحمل لقب ملك. وأن يحل عبد الله محله مدة غيابه، أى أنه كان بمثابة نائب ملك،وحمل لقب شيخ. وانتقل هذا النظام الذى وضع أساسه الخليفان إلى أولادهما من بعدهما [5].

اتخذ عبد الله مدينة قرى (قرب خانق سبلوقة) مقرا له، واختط عمارة مدينة سنار [6] لتصبح عاصمة مملكة الفونج التى إمتدت مساحتها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبا إلى الشلال الثالث شمالا. أى أنها اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة). ويقال إن حملة حربية أرسلها ملك سنار لإخضاع النوبة السفلى، ووصلت حتى الشلال الثالث ولما أراد قائد الحملة التقدم

---

(1) MacMichael, H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, II. BA., PP. 36 - 37.

(٢) المسعودى : التنبيه والإشراف، ص ٣٢٩ - ٣٣٠، المقريزى:المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩١. أنظر الملحق رقم ١٢.

(٣) أعلن عمارة هذه النسبة وغيرها فى رسالة بعث بها إلى السلطان سليم سنة ١٥٢٠م ليثنيه عن غزو سنار لأنها أرض إسلام وسكانها عرب، شقير، جـ٢، ص ٧٣.

(4) Nadler, L. F. : " Fang Origins" SNR, XIV, part I. 1391. p. 61.

(٥) نعوم شقير: نفس المصدر، جـ٢، ص ٧٣.

(٦) ومدينة سنار التى أسسها عمارة خلاف سنار الحالية وهى تبعد عنها بحوالى ثلاثة أميال.

شمالا هزمته جيوش الغز الأتراك عند حنك وظلت حنك تمثل حدا فاصلا بين نفوذ الفونج جنوبا وبين نفوذ الغز الأتراك الذى شمل النوبة [1] السفلى من حنك إلى أسوان.

وأضحت مدينة أربجى (قرب المسلمية) الحد الفصل بين نفوذ عبد الله الذى امتدت سلطته على جميع الوحدات القبلية حتى حنك (شمال دنقلة)[1]، على حين أن سلطة عمارة امتدت على ما يلى هذه الأقاليم جنوبا. هذا ولم يباشر ملوك سنار أو حلفاؤهم سلطاتهم على مملكة الفونج بصفة مباشرة، بل عن طريق المكوك (شيوخ القبائل) الذين تمتعوا بشئ من الاستقلال، على أن يدفعوا الضرائب المقررة لخزانة الملك فى سنار [2]. واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم فى قرى بحق تنصيب الملك أو المانجل من بين أفراد أسرة الملك المتوفى[3].

وفى أيام عمارة امتد النفوذ العثمانى إلى الشام ومصر. وقام العثمانيون بعملية تأمين الحدود الجنوبية على غرار ما فعل جميع السابقين . غير أن الامتداد العثمانى اهتم بالناحية البحرية، لأن استيلاء العثمانيين على مصر كان مختلطاً فى عوامله ودوافعه بما لمصر من سيطرة على تجارة البحر الأحمر، وكانت تلك التجارة مهددة تمام التهديد من ناحية البرتغاليين . وهذا هو تفسير اهتمام العثمانيين بالناحية الجنوبية، مما جعلهم يقيمون قواعد فى سواكن ومصوع سنة ١٥٢٠م. وخشى عمارة من هذا الامتداد العثمانى من ناحية البحر، فبعث إلى الباب العالى يذكر له أن دولته إسلامية، وأن رعيته عرب بادية لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان. وعزز عمارة هذه الرسالة بكتاب يحوى أنساب قبائل العرب فى مملكته جمعه له السمر قندى أحد علماء سنار. ويقال إن السلطان العثمانى اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة فعدل عن حرب سنار [4].

---

(١) شقير: جـ٢ ، ص ١٠٨. (٢) نعوم شقير: نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٧٣.

(٣) الملك أو المانجل ، هو شيخ إحدى الوحدات القبلية التى تضمها مملكة الفونج. وتقام حفلة تنصيب الملك أو المانجل الجديد بأن يجلسه ملك سنار أو شيخ قرى على الككر (الكرسى) ويلبسه طاقية ذات قرنين ويقلده سيفاً . ويلاحظ أن هذه التقاليد قديمة ترجع إلى عهد ملوك مقرة المسيحية. ولا نعرف إذا كان هذا متبعاً عند ملوك علوة أم لا.

jacKson, H. C. : op. cit p. 92.

(٤) لا نعرف شيئا على وجه التحقيق عن السمر قندى الذى ينسب إليه جمع أوراق النسبة أو روايات زعماء القبائل عن نسبتهم وضمنها جميعاً فى كتاب بعث به عمارة إلى السلطان سليم. وربما كان السمر قندى أحدى الفقهاء الذين أتوا من مصر للعيش فى كنف ملوك الفونج والحصول على هباتهم : MacMichael op. cit. II, P. 7.

هكذا تم ميلاد هذه الحكومات الإسلامية أوائل القرن السادس عشر الميلادى على أنقاض مملكة علوة المسيحية. غير أن المعروف أن هذه الحكومات اشتملت على عناصر مختلفة، عربية وحامية وشبه زنجية، فضلا عن خليط منها جميعاً، وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك. وهذا ما يوضحه بعدهم الشديد عن الاسلام المعهود وسيطرة المعتقدات السابقة من مسيحية وفرعونية ويصف صاحب الطبقات حال هؤلاء وأولئك جميعاً عقب تأسيس مملكة الفونج بقوله «أعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٥م) وخطت مدينة سنار ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن. ويقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عدة »[١].

تصور هذه الحالة التى وصفها صاحب الطبقات نوع الثقافة التى سادت جهات حوض النيل الأوسط أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى). وهى تدل دلالة واضحة على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية، فشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين فى الجهل بقواعد الإسلام. ومرجع هذا فى الغالب إلى أن العرب لم تكن تهتم حتى هذا الوقت بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام[٢]، بل كان الهدف بسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى. هذا والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين كانوا على حال من البداوة، فنسوا الكثير من تعاليم الدين الاسلامى لبعد صلتهم بمواطن العلم والعلماء [٣].

غير أن بعض المصادر السودانية تشير إلى وجود نوع من النشاط الثقافى فى بلاد النوبة قبل قيام السلطنة السنارية. ومن الأمثلة على هذا ما تذكره إحدى الوثائق أن غلام الله بن عايد اليمنى الأصل، هبط أرض دنقله أواخر القرن الرابع عشر الميلادى واستقر فيها ، لأنها كانت فى غاية الضلالة والحيرة، لا فتقارها إلى العلم والعلماء. فعمر غلام الله هذا المساجد وعلم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن وعلمهم كذلك بعض العلوم الأخرى [٤]. ثم

---

(١) محمد ضيف الله: طبقات ود ضيف الله، نشرها ابراهيم صديق، ص ٥. والمقصود بالعدة المدة التى تقضيها المرأة بعد طلاقها أو وفاة زوجها، وبين عقد زواجها من آخر وهى ٤ شهور.

(٢) عبد المجيد عابدين: دراسات سودانية ، ص م.

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان ، جـ١ ص ٥٦.

(4) MacMichael, H. A. op. cit. II. manusc. B. A. p. 36.

عرفت الدراسات الدينية فى السودان باسم العلوم وأطلق على الفقهاء العلماء أو رجال العلم لأنه لم يكن هنا علم سوى دراسة العقيدة.

ظهر فى نواحى أبو حليمة على النيل الأزرق - قبل قيام السلطنة السنارية - أولاد عون السبعة، وتولى أحدهم ويدعى الضرير منصب القضاء فى زمن الفنج[1].

وإذا استثنينا الحالات التى استخدم فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات السودانية والقضاء على العادات القديمة [2]، فإن أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج كانت ضعيفه. وتميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة بظهور طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية الذين تعهدوها بأساليب جديدة قامت أساسا على شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس. والواضح مما ذكرته بعض المراجع السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية مصدرها مصر والحجاز وبلاد المغرب وغيرها. ويرجع هذا فى الغالب إلى هجرة أفراداً وأسرات مثقفة من هذه الدولة الإسلامية إلى جهات حوض النيل الأوسط لينزلوا فى كنف ملوكها رغبة فى عطائهم وإكرامهم، أو ليعيشوا فى خيراتها وأراضيها الواسعة، أو ليتخذوه مأوى جديدا بعد أن ضاقت بهم أوطانهم [3]. وفضلا عن هؤلاء فإن كثيرا من أبناء مملكة سنار كانوا يرحلون إلى مصر لتلقى العلم بالأزهر ثم يعودون إلى بلادهم. ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن أحد فقهائها أو يأخذ الطريقة عن أحد مشايخ الطرق. وهؤلاء وأولئك جميعاً كان لهم أثر واضح فى نشر الثقافة الإسلامية الدينية فى مملكة سنار.

ومن الأمثلة الدالة على هذا ما تذكره المراجع بصدد هجرة بعض السناريين إلى مصر فى طلب العلم أوائل القرن السادس عشر الميلادى. ومن بين هؤلاء محمود العركى الذى أخذ العلم عن ناصر الدين اللقانى وأخيه شمس الدين [4] ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة ما بين الحسانية (توتى) وأليس (الكوة). ويعد محمود العركى أول من طبق أحكام الدين الإسلامى فى هذه المنطقة بتفقيه الناس وأمرهم بالعدة [5] فى حدوده الضيقة.

---

(١) ذكرهم نعوم شقير، جـ٢، ص ٧٦، أولاد ضيف الله، والحقيقة أنهم أولاد غلام الله. أنظر عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان فى السودان، جـ١، ص ٥٩، حاشية ١.

(٢) ومن أمثلة هذا ما ذكره جاكسون، أن الملك عبد القادر الذى خلف أباه. الملك عمارة حوالى ١٥٣٧م ذهب إلى قتال السكان الوطنين فى جبل مويا وجبل سقدى لأخراجهم من دينهم واحتلال بلادهم.
Jackson, H. C. : op. cit. p. 21.

(٣) عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان، جـ١، ص ٥٥.

(٤) توفى شمس الدين اللقانى فى سنة ٩٣٥هـ ١٥٣٠م.

(٥) محمد ضيف الله : طبقات ود ضيف الله، ص٥، ص ١٦٣.

وامتاز النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) بازدهار الثقافة الإسلامية فى مملكة سنار. إذ أن عددا من السناريين ارتحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر، ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة (١) فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد تفقه على الشيخ محمد البنوفرى إمام المالكية فى مصر، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو ثم عاد إلى ترنج مسقط رأسه فى أرض الشايقية وكان أول من درس مختصر خليل فى مملكة الفونج «وتخرج على يديه أربعون إنساناً صاروا كلهم أولياء وأقطاباً» . ومن إخوة إبراهيم، عبد الرحمن الذى نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتتلمذ على الشيخ البنوفرى. ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر للاتصال بعلمائها كما فعل الأخ الثالث إسماعيل، الذى أجازه الشيخ البنوفرى كذلك وغدت بلاد الشايقية مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة فى مملكة الفونج فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى (٢).

وحوالى سنة ٩٥٠هـ (١٥٤٣م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوى المصرى الأزهرى الثقافة، تلميذ الشيخين سالم السهورى (٣)، ويوسف بن عبد الباقى الزرقانى.ودخل بربر وأربجى وسنار، غير أنه فضل سكنى بربر وبنى بها مسجدا لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر والعلوم، وولى القضاء فباشرة بعفة ونزاهة (٤). وتخرج على يديه عدد من أبناء بربر

(١) وهم أولاد جابر بن عون سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية، ولدوا فى ترنج بأرض الشايقية. ويقول صاحب الطبقات إن أولاد جابر كالطبايع الأربع، أعلمهم إبراهيم وأصلحهم عبد الرحمن وأودعهم إسماعيل وأعبدهم عبد الرحيم. والواضح أن هذه الأسرة احتفظت بمركزها العلمى منذ عهد جدها الأكبر غلام الله بنن عايد أواخر القرن الرابع عشر الميلادى.

(٢) طبقات: ص ٦.

(٣) عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان جـ١ ص ٦٤.

(٤) طبقات ، ص ٣١.

إن معظم ما جمعته عن الشيخ المصرى القناوى مأخوذ عن حفيده الشيخ مجذوب مدثر كبير مدرسى معهد أم درمان العلمى وشيخ الطريقة التيجانية فى السوادن . والشيخ المصرى من مدينة إدفو بصعيد مصر من قبيله النابية. ولما استقر فى بربر تزوج من قبيلة الميرافاب. وتعرف طبقة الفقهاء التى أخذت عنه وعن أولاده واتلاميذه فى مدينة بربر حتى الآن اسم المصاروة. وللشيخ المصرى مؤلفات عديدة منها شرحه على البسملة فى المنطق وشرح على العقيدة المعروفة بالسنوسية الصغرى وشرح على العشماوية.

وغيرهم منهم حفيده الشيخ. المضوى [1] المصرى، والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة [2].

ومن العلماء المصريين الذين قدموا إلى مملكة سنار فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى كذلك - الشيخ محمد بن على بن قرم الكيمانى المصرى وهو شافعى المذهب وتلميذ الخطيب الشربينى. فأقام فى بربر ودرس المذهب الشافعى فى بربر وأربجى ومن تلاميذه ابنه الشيخ الشكاك [3]، والقاضى دشين قاضى أربجى فى عهد الشيخ عجيب المانجلك، وغيرهم كثير [4].

ثم وفد من الحجاز أحد أئمة الصوفية ويدعى تاج الدين البهارى البغدادى، وهو خليفة الطريقة القادرية الجيلانية. واستقر تاج الدين فى أرض الجزيرة سبع سنين تمكن فيها من إدخال الطريقة الجيلانية بعد تسليك خمسة من المريدين منهم الشيخ محمد الهميم. ثم تولى هولاء تسليك غيرهم بعد عودة شيخهم إلى الحجاز [5].

وفى هذا الوقت أيضاً (أى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى) قدم التلمسانى المغربى على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم وعلمه علم الكلام، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها. وانتشر علم التوحيد والتجويد فى الجزيرة. وممن أخذ عنه عبد الله الأغبش من بربر [6].

(١) اتصل الشيخ المضوى بالمتمة وشندى القديمة وعلم بمسجدها كثيرا من الناس حتى قيل إن عدد من يحضر عليه بلغ الثلثمائه. وله مؤلفات منها «شرحه المطول على القصيدة المعروفة ببدء الآمال فى فن التوحيد. وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة المعهد العلمى. وله رسالة على البسملة تكلم فيها عن نواحى كثيرة تقع فى ٢٠ كراسة من القطع المتوسط. انظر الطبقات، ص ٣٢.

(٢) طبقات، ص ١٦٥.

(٣) ويعد الشيخ الشكاك صاحب المدرسة الثانية فى بربر بعد مدرسة الشيخ المصرى القناوى. وله مسجد فى حلة السيد غرب بربر. قام الشيخ الشكاك بنشر الفقة الشافعى وأخذ عليه جماعة منهم أولاد الحاج. ومن الشايقية الذين تأثروا بمدرسة ابن قرم المصرى جماعة تدعى الخفاف (الذين يلبسون خفا) وكانوا على صلة تامة بعلماء الأزهر.

(٤) محمد ضيف الله: طبقات ص ١٦٩.

(٥) المصدر السابق ص ٤٤، ٤٥، ٣٥.

(٦) طبقات، ص ٥. يقول الشيخ مجذوب مدثر إن الشيخ عبد الله الأغبش قدم من دنقلة فى القرن العاشر وأسس مسجده غرب مدينة بربر وعلم فيه القرآن وتخرج عليه عدد يقدر بالمئات. ومدرسة الغبش كانت مشهورة بعلم القراءات.

وتمتع أولئك المشايخ بنفوذ واسع فى مملكة سنار، فأقطعوا الإقطاعات الواسعة، ولم يرد لهم طلب عند الحكام والملوك، ومن استجار بهم [١] فهو آمن غضب السلطان،

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد أن مصر هى المصدر الأساسى للثقافة التى ظهرت فى مملكة سنار فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) [٢]. ومن الملاحظ هنا أن الأثر المصرى يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمى فى معظمه يتجه إلى عموم الناس. فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر «بالمباشرة أو الواسطة» [٣]، ا تجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم، على حين أن الطابع الصوفى كان غالبا على تعليم الثقافة الحجازية والمغربية [٤].

ومن الملحوظ هنا كذلك أن الطابع العلمى الذى تأثر به السناريون اتجه إلى حصر الانتباه فى العلوم النقلية، التى سادت العالم الإسلامى منذ القرن العاشر الهجرى بعد أن تغيرت أساليب التربية الإسلامية على يد الأتراك، انصراف العلماء إلى التأليف والتحرير لا إلى الاجتهاد والتخريج، وميل معظم علماء هذا العصر إلى اختصار ينقصه الشرح والتعليق [٥].

أما عن المذاهب الدينية، فالسناريون غلب عليهم مذهب مالك بسبب أتصالهم بأهل صعيد مصر الذين غلب عليهم هذا المذهب [٦] وأما الدراسة العلمية لهذا المذهب فقد ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى، وانتقلت دراستها إلى بلاد الفونج على يد خريجى الأزهر، سناريين ومصريين مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوى المصرى وغيرهما.

وعلى الرغم من أن انتشار المذهب الشافعى كان محدودا إلا أن القليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا فى الأزهر وتلاميذهم، كان لهم أثر واضح فى نشر تعاليم الإسلام . ومن هؤلاء

---

(١) عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٥٨.
(٢) عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان ، جـ١ ، ص ٧٠.
(٣) المباشرة : يقصد بها هنا السودانيون الذين رحلوا إلى مصر وأخذوا العلم عن علمائها هناك أو العلماء المصريين الذين قدموا إلى السودان حيث نشروا علومهم، أما الواسطة فتعنى أولئك الذين أخذوا العلم عن السودانيين الذين جاءوا من مصر.
(٤) عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص٥٦ - ٥٧.
(٥) عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان ، جـ١ ، ص ٥٢.
(٦) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٣٦.

محمد بن قرم الكيمانى المصرى تلاميذه عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعى قاضى أربجى وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ ابراهيم الفرضى وغيرهم (١).

وانتشرت علوم القرآن فى مملكة سنار أواخر القرن العاشر الهجرى، ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة تلقى علوم القرآن على التلمسانى المغربى (٢) كما تلقاها من قبل على الشيخ محمد القناوى المصرى فى بربر (٣). وليس من المعروف تماما أيهما كان أقوى أثرا. غير أن انتشار قراءة ورش فى دنقلة وأبى عمرو فى معظم جهات مملكة سنار - وهما القراءتان الشائعتان فى بلاد المغرب - يدل على تأثر السناريين ببلاد المغرب فى علوم القرآن أكثر من تأثرهم بمصر(٤).

وإلى جانب الثقافة العلمية، ظهرت فى مملكة سنار منذ القرن العاشر الهجرى بوادر ثقافة دينية صوفية كذلك. وهى الثقافة التى كانت شائعة فى هذا الحين فى بلاد العالم الإسلامى مثل الحجاز والعراقى ومصر وبلاد المغرب، ومنها تسربت إلى مملك سنار على يد بعض الدعاة أو الموطنين الذين اتصلوا بمنابعها. وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ولا سيما فى موسم الحج لطلب العلم على علماء الحرمين ، ثم أن بعض قادة الصوفية فى الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملكة سنار حيث طاب لهم فيها المقام (٥)، لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم (٦). ولقيت الطرق الصوفية فى مملكة سنار منبتا خصبا ، ويرجع هذا فى الغالب إلى أن كثيراً من المشايخ أظهروا من الصفات ما جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا فى ساعات الضيق والعسرة (٧)، كما أن الحروب والانقسامات الداخلية التى سبقت عصر الفونج أورثت فى نفوس السناريين فى هذا العهد رغبة شديدة فى حياة مستقرة، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ الذى ظهروا مع قيام مملكة الفونج للانتظام فى سلك العبادة(٨).

---

(١) محمد ضيف الله: طبقات ، ص ١٦٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ٥. (٣) المصدر السابق: ص ١٦٥.

(٤) هذا هو رأى فضيلة الشيخ محمد المبارك عبد الله شيخ علماء السودان.

(5) Trimingham . J. S. : Islam in The Sudan, p. 195.

(٦) عبد المجيد عابدين: نفس المصدر، ص ٦١.

(٧) عبد المجيد عابدين: نفس المصدر، ص ٦٢.

(٨) المصدر السابق: ص ٦٣.

ويقال إن الطريقة الشاذلية [١] ، دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج، على يد الشريف حمد أبى دنانة سنة ١٤٤٥م. ثم رسخت دعائمها زمن الفونج على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م والذى كان أول أمره قادريا ثم تحول شاذليا[٢].

ويظهر أن هاتين الطريقتين عندما دخلتا بلاد سنار، لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه، بل كانت الطريق تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين فى أنحاء البلاد مستقلين عن بعضهم إلا من حيث الرباط الروحى الذى يربطهم جميعا باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة. ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى.

ومن الملحوظ هنا أن بعض الفقهاء السناريين أصبحوا شيوخا صوفية ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العركى. على أن أغلب رجال الصوفية فى هذا العهد (القرن العاشر الهجرى) كان من غير العلماء ومن هؤلاء خليل بن على الصاردى الذى كان فى أول أمره خمارا شرابا [٣]. ومنهم الشيخ محمد الهميم الذى كان من أكبر قادة الصوفية فى مملكة سنار «مع كونه أميا لم يقرأ إلا لغاية الزلزلة [٤]» . وقد يكون بعض السبب فى هذا راجعا إلى أن الناس فى هذا الوقت (القرن العاشر الهجرى) كانوا لا يزالون فى مستوى ثقافى لم يتوافر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية وتدبر أصول الدين مما جعلهم لا يميزون بين ما هو من أصل الدين وما هو بدعة فيسهل التأثير فيهم، ويتملكهم كل شئ طريف غير مألوف، كالتحدث بالغيب والكرامات وادعاد الطب الروحانى ، ولا سيما إذا جاء هذا عن طريق الدين [٥].

وكيفما كان الأمر فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحا فى التقريب بين الجماعات الجنسية،

---

(١) تنسب الطريقة الشاذلية إلى أبى الحسن الشاذلى ١١٩٦ - ١٢٥٨م ولد فى شاذلة فى تونس وانتشرت طريقته فى مراكش فى القرن الخامس عشر الميلادى على يد أبى عبد الله محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات. ويقال. إن إحدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبى دنانة الذى نزح إلى السودان ومعه ابنة السيد بن الحسن وسكنا البقعة المسماة بالمحمية وحينئذ عرف الناس الطريقة الشاذلية.

(2) Triminghgn, : op. cit. pp. 196 - 197.

(٣) محمد ضيف الله: طبقات ، ص ٨٤.

(٤) المصدر السابق : ص ١٥٠.

(٥) عبد العزيز عبد المجيد: نفس المصدر، ص ٢٣٤.

لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية وايجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة [١].
ومن ذلك أن التجمع الصوفى كان نواته شيخ الطريقة، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحدة تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم.

وهكذا يمكن القول إن القرن السادس عشر الميلادى كان عهد انتقال من المسيحية إلى الإسلام البدوى على أيدى جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة ، أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين.

خاتمة

مما سبقت دراسته يمكن القول إن الجزء الممتد من أسوان فى الشمال إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق فى الجنوب ، عرف كله أو أجزء منه – فى العصور القديمة بأسماء مختلفة. غير أنه ظل يعرف فى العصور الوسطى باسم النوبة. وهو اسم سبق العرب فى الإشارة أليه المؤلفون اليونانيون والرومان وغيرهم منذ القرن الثالث قبل الميلادى . ولعل كلمة نوب (ذهب) كانت من بين الأسماء التى أطلقت على هذه الأقاليم منذ أقدم العصور التاريخية المصرية .

ويدو من وصف الكتاب القدماء ومؤلفى العصور الوسطى كذلك لهذه المنطقة ، أنه لم يطرأ تغيير ظاهر على بيئتها الطبيعية ، ماخلا ما تناولته يد الإنسان بالتعديل أحيانا وبالتهذيب أحيانا أخرى.

أما النوبيون فهم شعب قديم فى أوطانه، وهم حاميو الأصل مثل قدماء المصريين فى عصر الأسرات الأول وما قبلها . ثم أخذت بلاد النوبة منذ عهد الأسرة الثالثة المصرية، وعلى مدى العصور، تستقبل،جماعات حامية من الشرق والغرب وجماعات مصرية من الشمال، كما أنها أخذت تستقبل من الجنوب جماعات نيلية (زنجية). وظهرت آثار هذا الخليط بوضوح فى مخلفات المجموعة الثقافية (X) ببلاد النوبة وهى ثقافة الجماعات النوبية التى استقبلت الدعوة المسيحية فى القرن السادس الميلادى . أما عن حضارة أصحاب هذه المجموعة الثقافية فتدل

(١) محمد عوض محمد: السودان الشمالى، سكانى وقبائله، ص ١٧ – ١٨.

آثارها على أنهم قوم مارسوا الزراعة بوصفها حرفة أساسية تساندها حرفة الرعى، ولوحظ اختفاء الطابع المصرى فى بناء المقابر وطرق الدفن ، وكثرة وجود الضحايا البشرية والحيوانية. وهى تمثل خليطا من حضارات بيزنطية ومروية لم تخل من الآثار البدائية . ثم أن اللغة النوبية ذات أصل حامى ثم دخلتها بعض المؤاثرات الزنجية. وأن وجود بعض الشبه بين اللغة النوبية على النيل وبعض لغات جبال النوبا بكردفان وغيرها، لا يعنى أن سكانهما يرجعون إلى أصل واحد يل يرجع – فى الغالب – إلى هجرة نوبية من النيل إلى بعض جهات كردفان، حيث تركت بعض آثارها اللغوية. وربما كان للاتصال التجارى بين النوبيين وغيرهم من سكان الجبال أثر فى نشر اللغة النوبية بينهم.

خضعت بلاد النوبة لنفوذ دولة كوش وعاصمتها نباتا التى ظلت تمثل مركزا لنوع من الحضارة المصرية حتى فقدت أهميتها منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد فورثتها مروى من سنة ٣٠٠ ق. م. إلى سنة ٣٥٠م. ويلاحظ أنه فى هذا الدور، أخذت الثقافة المصرية تتضاءل شيئا فشيئا حتى غدت مزيجا من ثقافات مصرية ويونانية ورومانية فضلا عن ثقافات حبشية. ويظهر أن ملوك مروى لم يستطيعوا بسط نفوذهم بصفة دائمة على جميع الأقاليم التى خضعت لهم من قبل بل إن بعض جهاتها استقل تحت حكم أمرائها الوطنين ولاسيما المنطقة الممتدة من جنوبى أسوان حتى المحرقة، وهى المنطقة التى عرفت باسم دوديكاشينوس. ومع هذا لم يجنح البطالمة إلى التوسع جنوبا، فنشأت بين الدولتين علاقات طيبه كان من نتيجتها أن أعلن حكام هذه المنطقة الانضمام إلى مصر.

وإذا خلف الرومان فى حكم مصر سنة ٣٢ ق. م.، ادعوا حقوقا فى تلك المنطقة، باعتبارهم ورثة البطالمة، وقد تغلبوا على محاولات الكوشيين لا ستردادها مدة من الزمن. ويظهر أن الرومان كانوا يهدفون إلى توسيع العلاقات التجارية بين مصر وجهات حوض النيل الأوسط، فأقاموا بمنطقة دوديكاشينوس حاميات عسكرى، وقاموا بسلسلة من مشاريع التعمير فيها، وحاولوا كذلك إقامة علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التى تعيش فى الجنوب والغرب (فى كردفان ودارفور) لتحقيق أغراضهم التجارية. وهذا هو سر تمسكهم بمنطقة دوديكاشينوس . غير أن هذه السياسة لم يقدر لها النجاح بسبب إغارات البليميين الذين استقرت بعض شعبهم فى جهات النوبة السفلى جنوبى المحرقة منذ عهد البطالمة . ويظهر أن الحركات البليمية ضد الرومان اصطبغت بصبغة قومية بدليل اشتراكهم فى بعض الحركات

القومية المصرية ضد الرومان سنة ٢٥٠م. واتسعت دائرة هذه الحركات البليمية فشملت جهات طيبة وأسوان . ومع أن الرومان استطاعوا التغلب على هذه الحركات المعادية لهم سنة ٢٨٠م، إلا أنه بدا لهم صعوبة الاحتفاظ بمنطقة دوديكاشينوس لا ستمرار إغارات البليميين من ناحية وفقرها من ناحية أخرى . واتجهت سياسة الامبراطور دقلديانوس إلى التخلى عنها، على أن يحل النباطيون محل الرومان فى المنطقة التى انسحبوا منها ، ليقوموا بدورالمنطقة الحاجرة بين البليميين فى الجنوب وبين الرومان فى الشمال. ولا يعنى انسحاب الرومان من منطقة دوديكاشينوس، أنهم تخلوا عن مشروعاتهم التجارية فيما خلفها جنوبا، بل حاولوا البحث عن حليف قوى والاعتماد عليه فى الحصول على تجارة الشرق (الهند والصين وشرق أفريقيا) وفتح طريق التجارة إلى قلب أفريقيا . فاتجه الرومان إلى دولة أكسوم، لتوثيق علاقاتهم بها واستغلالها فى قمع حركات البليميين والنوبا كذلك. وبدت بوادر هذه السياسة منذ سنة ٣٨٥م على عهد الامبراطور أورليان. واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم، حتى إذا كان عهد الامبراطور قنسطنطين الأكبر (٣١٣ - ٣٣٧م) تم عقد معاهدة تجارية بين الرومان وملك أكسوم على يد التاجر الصورى فرومنتيوس. ثم اعتنق عيزانا ملك أكسوم المسيحية سنة ٣٤٠م، على يد فرومنتيوس الذى عمده البطريك أثناسيوس أسقفاً لأكسوم. غير أن الغرض التجارى لمهمة فرومنتيوس، يبدو واضحا، حين قام الملك عيزانا بحملته المشهورة على مملكة مروى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى، لتأديب النوبا والبجا (البليميين) الذين يغيرون على جيرانهم. وليس من المستبعد أن يكون هذا تم بإيعاز من فرومنتيوس، لفتح الطريق للتجارة من جديد.

غير أن هذه السياسة لم تضع حدا لحركات البليميين المعادية للرومان، بل على العكس من هذا فقد زادت حدتها. ذلك أن البليميين بدأوا يحسون بالخطر المسيحى المزدوج عن طريق أكسوم بعد اعتناق الملك عيزانا المسيحية، وعن طريق مرسوم تاوداسيوس (٣٨٥م)، الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الديانات السابقة للمسيحية فى الامبراطورية الرومانية، ولهذا، بدأ البليميون سلسلة إغاراتهم على الأطراف الرومانية، فاحتلوا معظم إقليم دوديكاشينوس، وأغاروا على إقليم طيبة والواحة الخارجة سنة ٤٢٩م. ويدل اشتراك النباطين مع البليميين على الخلود إلى السكينة مدة مائة عام بعد هزيمتهم على يد القائد الرومانى مكسيمنوس ثم فلورس فى منتصف القرن الخامس الميلادى، إلا أن السماح لهاتين القبيلتين بالحج إلى فيلة، وحمل تمثال

معبودتهم إيزيس إلى أوطانهم يحمل على الظن أن الرومان لم يرغبوا حتى هذا الحين (منتصف القرن الخامس الميلادى) فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم. وكيفما كان الأمر فإن البليميين والنباطيين حافظوا من جانبهم على تنفيذ معاهدة الصلح التى عقدوها مع مكسيمينوس وفلورس، وظلوا على ولائهم لمعبوداتهم وخاصة إيزيس التى كانوا يحجون إلى معبدها فى فيلة كل عام. ولعل ضخامة هذه المواكب وتجمعها كل عام فى قلب أسقفية فيلة وأسوان - حيث توجد الكنائس والأديرة المسيحية - أثار القلاقل من جديد مع قرب انتهاء أجل الهدنة، لا سيما وأن النزاع بدأ يدب بين البليميين والنباطيين.

ورأى جستنيان ضرورى القضاء على العبادات الايزيسية فى فيلة، على أن يسبق هذه الحركة طرد البلميين من منطقة دوديكاشينوس، لتحكمهم فى المسالك المؤدية إلى فيلة. وانبرى لهذه المهمة سلكو ملك النباطين الذى - فيما يبدو - كان على علاقة بالبيزنطيين بفضل ثيودور أسقف فيلة وأسوان، وشن سلكو على البليميين حربا شعواء سنة ٥٣٥م. تمكن بعدها من طردهم إلى الصحراء الشرقية. ولا يبعد أن يكون تم له هذا بمساعدة البيزنطيين. وبهذا تم ميلاد مملكة نوباتيا التى أضحت فرس عاصمتها.

ثم كانت الخطوة الطبيعية وهى إغلاق معبد فيلة، وقد قام القائد البيزنطى نارسس بهذه المهمة تنفيذاً لأمر الامبراطور جستنيان حوالى سنة ٥٤٣م. وتم تحويل هذا المعبد إلى كنيسة، وبهذا أضحى الطريق ممهدا لدخول المسيحية بلاد النوبة بصفة رسمية فى منتصف القرن السادس الميلادى.

وعلى الرغم من أنه لم يرد نص صريح عن نشاط تبشيرى رسمى ببلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى، إلا أن معظم الروايات التاريخية ترجح دخولها عن طريق مصر، أما الطريقة التى دخلت بها المسيحية بلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى، ومعرفة دعاتها الأول، فإن شيئا من هذا لم يعرف على وجه التأكيد، مع العلم بأن بطريرك الكنيسة المصرية يحمل لقب بطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة وبنتابوليس (الخمس المدن الغربية) منذ عهد المسيحية الأول (القرنين الأول والثانى) . هذا والمعروف أن المسيحية حين ظهرت فى مصر فى القرن الأول الميلادى، اجتذبت إلى صفوفها عددا من المصريين وغيرهم من سكان البلاد. غير أن الاضطهادات التى حلت بهم وخاصة منذ منتصف القرن الثالث الميلادى أدت إلى هجرة كثير

من المسيحيين المصريين إلى منطقة طيبة والصحراء الغربية وجهات النوبة السفلى والوسطى. وغدا كل من أقليم طيبة والواحة الخارجة مراكزا هاما لنشر الدعوة المسيحية فى بلاد النوبه منذ منتصف القرن الرابع الميلادى. ولم يكد يرفع الاضطهاد عن المسيحيين المصريين على عهد قسطنطين الأكبر لاعترافه بالمسيحية ديانة رسمية حتى واجهوا اضطهادا جديدا بسبب مانشب بين المسيحيين أنفسهم من خلاف حول طبيعة المسيح. فازدادت هجرة المسيحيين المصريين إلى جهات طيبة وأسوان، حيث أنشئت الأديرة والكنائس. وتطلب الأمر إنشاء أسقفية فى فيلة فى منتصف القرن الرابع الميلادى. ويبدو أثر هذه المراكز المسيحية الجديدة التى نشأت بالقرب من أوطان النوبيين ساهمت فى نشر المسيحية بينهم، فيما تذكره بعض القصص عن جهود الرهبان فى التبشير للمسيحية فى بلاد النوبة، ومحاولة أولئك الرهبان كسب ود الجماعات من النوبيين والبليميين، كما فعل الانبا شنودة كبير رهبان دير اخميم فى منتصف القرن الخامس الميلادى. وهذا فضلا عن الدور الذى قام به ثيودور أسقف فيلة فى التمهيد لدخول النوبيين جميعاً فى الدين المسيحى فى القرن السادس الميلادى. ثم أن البيزنطيين ، لجأوا إلى إغراء البليميين إلى المسيحية بأن أقطعوا بعضهم اقطاعا فى منطقة طيبة ليتسنى لهم السيطرة على أوطانهم والاتصال بدولة أكسوم المسيحية لتنفيذ مشاريعهم التجارية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى والقضاء على نفوذ الحميريين ا لتجارى.

ثم بدأت المرحلة الحاسمة لإدخال النوبيين جميعاً فى المسيحية فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، حيث أخذت صورة النزاع المذهبى بين الكنيستين المصرية والبيزنطية والسباق بينهما لكسب الأنصار تنعكس على النوبة كذلك. فقامت بعثة الكنيسة المصرية برئاسة يوليان، وقدر لها الوصول إلى مملكة نوباتيا قبل البعثة الامبراطورية بفضل نفوذ الامبراطورة ثيودورا وموضع الأهمية هنا أن الملك النوبى وأمراءه وأفراد أسرته، قبلوا التعميد على مذهب الكنيسة المصرية والذى مهد له من قبل على يد المهاجرين المصريين وثيودور أسقف فيله، على حين أن بعثة الامبراطور جستنيان قد لحقها الفشل فى نوباتيا. وأتم القس لونجينوس ما بدأه سلفه يوليان فى نوباتيا ٥٦٩م. وعلى الرغم من الدسائس التى حاكها له الملكانيون فقد لبى دعوة ملك علوة لزيارة مملكته وتعميده ورجال دولته سنة ٥٨٨م. وبهذا تم تنصير مملكتين من ممالك وادى النيل الأوسط على مذهب الكنيسة المصرية. أما المملكة الثالثة - مقرة - فلم يشر إليها يوحنا الأفسى - وهو المؤرخ المعاصر لهذه الحوادث جميعاً. غير أن

- -

صمت يوحنا الأفسسى – المونوفيزى المذهب – يوحى بنجاح البعثة الملكانية فى تحويل ملك مقرة إلى المسيحية على المذهب الملكانى، ونجد لذلك تأييدا فيما ذكره يوحنا البكارى الملكانى المذهب. إذ يشير إلى اعتناق أهل مقرة والجرمنتيين (القرعان) للديانة المسيحية سنة ٥٦٩م.

أما المذهب الذى ساد أخيرا ممالك النوبة المسيحية الثلاث فهو مذهب الكنيسة المصرية، بسبب خلو الكرسى البطريركى للكنيسة الملكانية بالإسكندرية ما يقرب من قرن، ومنع إرسال أساقفة ملكانيين إلى مقرة أو غيرها.

ويمكن رسم صورة تقريبية لمدى تأثر النوبيين بالمسيحية من الطريقة التى تلقوا بها تعاليم هذا الدين الجديد، ونوع هذه التعاليم. ذلك أن يوليان ولونجينوس بدءا بتعميد الملوك والأمراء ثم بعض أفراد الشعب. ومن غير المعقول أن يتم تعميد جميع النوبيين فى المدة القصيرة للتى قضاها كل منهما فى بلاد النوبة. والواضح أن النوبيين اعتنقوا المسيحية بأمر ملوكهم. ولابد أن عملية التبشير أخذت أبسط أنواع صورها لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان. ولابد أن تكون التعاليم التى تلقوها خرجت أحيانا عن أصولها للحصول على كسب سريع. ولكن على الرغم من بقاء بعض النوبيين على وثنيتهم فى الوقت الذى كان يقوم فيه يوليان ولونجينوس بعملهما فى بلاد النوبة فان للاقباط – الذين هاجروا من مصر على أثر الغزو الفارسى لها سنة ٦١٩م، واضطهاد الملكانيين لهم بعد استرداد البيزنطيين مصر – فضل كبير فى نشر الديانة المسيحية بينهم.

أما عن تنصير البليميين (البجا) فالمعروف أنهم ظلوا على وثنيتهم باستثناء جماعات قليلة منهم اعتنقت المسيحية. ولا يبعد أن يكون لو نجينوس عمد بعض زعمائهم أثناء مروره بأوطانهم فى طريق سفره إلى علوة سنة ٥٨٨م.، ثم.أخذت المسيحية تتسرب إلى ديارهم رويداً رويداً بعد الغزو العربى لمصر.

* * *

أما عن اضمحلال ممالك النوبة المسيحية فيرجع إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية. أما العوامل الداخلية فإنها ذات علاقة بالمستوى الحضارى الذى وصل إليه النوبيون بعد أن استقبلوا الدعوة المسيحية والنظم التى أقاموا عليها مجتمعهم المسيحى، وظروف البيئة الطبيعية

التى عاشوا فيها. والمعروف أن النوبيين حين استقبلوا الدعوة المسيحية كانوا ذوى حضارة معينة كشفت عنها الأبحاث الأثرية فى بعض جهات النوبة السفلى وهى التى عرفت باسم ثقافة المجموعة (X) وهى مجموعة ثقافات أجنبية مختلطة بآثار بدائية. والواضح أن عوامل الاضمحلال من الداخل قديمة، وقد لازمت هذه الممالك منذ مولدها فى القرن السادس الميلادى أو قبله بقليل. ولا يرجع بقاء هذه الممالك المسيحية - ما يقرب من ألف عام - إلى قوتها أو إلى ما اجتمع لديها من عناصر حضارية عريقة. بل يرجع - فى الغالب - إلى أن الحكومات التى تعاقبت على حكم مصر منذ االغزو العربى لها، لم تكن لها سياسة موسومة لإخضاع هذه الممالك بالقوة وصهرها فى الإطار العربى الإسلامى العام، إنما تركت لعوامل التسرب البشرى والحضارى التدريجى حتى اكتملت عناصر قوتها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فكانت نهاية هذه الممالك. وأول ما نلاحظه أن هذه الممالك المسيحية لم تستطع أن تؤلف من بينها وحدة سياسية واحدة، بل ظلت منفصلة عن بعضها . وعلى الرغم من اتحاد الملكتين الشماليتين نوباديا ومقرة لمواجهة خطر الغزو الإسلامى من الشمال، فإن انفصال المملكة الجنوبية (علوة) عن جارتها فى الشمال (مقرة) كان سبباً فى إثارة النزاع بينهما مما أدى إلى اضمحلالهما وذلك بسبب الطبيعة القبلية التى كانت سائدة فى هذا الاقليم.

وثمة ملاحظة أخرى هى التخبط فى اختيار اللقب الفعلى للملك وموظفيه كذلك. ومرجع هذا - فى الغالب - إلى أن هذه الألقاب أخذت أصلا عن النظم البيزنطية وطبقت على الوظائف التى خلفها العهد المروى وما دخل عليها من تقاليد بدائية، مما أدى إلى تعقيدها وعدم فهمها فى أذهان الناس. ثم أن ملوك النوبة (مقرة وعلوة) تمتعوا بنفوذ مطلق على رعاياهم. فالملوك يملكون الأرض ومن عليها، ورعاياهم عبيد لهم.

وجرى العرف فى وراثة العرش النوبى على نظام الأمومة . وسواء تمسك به النوبيون أو خالفوا بعض قواعده فالمعروف أن هذا النظام لم يؤد إلى استقرار علاقة المتملكين وأولياء عهودهم.

وعرف حكام الأقاليم باسم الملوك. ومارسوا سلطات إدارية ودينية. فجميعهم كهنة.

أما المجتمع النوبى فيشكل نوعاً من الإقطاع غريبا فى تركيبه. فالطبقة الحاكمة الشاملة

للأسرة المالكة وفروعها وحكام الأقاليم كذلك يمثلون طبقة السادة أصحاب الأرض، أما الشعب فهم عبيد الملك، يباعون ويشترون ويهدى بهم، ويقومون مقام العملة.

واتجهت بلاد النوبة (مقرة وعلوة) فى زعامتها الروحية إلى الكنيسة المصرية ونشأت بينهما علاقات طيبة مصدرها حاجة الكنيسة النوبية إلى أساقفة، فضلا عما اجتمع لملوك النوبة من سلطة سياسية ودينية معاً. وهذه السلطة الدينية جعلت من ملوك النوبة ممثلين للكنيسة النوبية كذلك. وتبعاً لهذه الصفة الدينية لملوك النوبة فقد نشأت بينهم وبين بطاركة الكنيسة المصرية علاقات ودية، أختلفت طبيعتها من حين إلى آخر تبعاً لما تقتضيه مصالح الطرفين. غير أن موضع الأهمية هنا هو مدى تأثير الكنيسة النوبية فى حياة الناس.

الواقع أن المجتمع النوبى ظل يعيش فى مثل ما عاش قبل دخول المسيحية، ولم تختلط العقيدة الجديدة بقلوب الناس. واحتفظ النوبيون بكثير من عاداتهم القديمة. ولم تنجب الكنيسة النوبية علماء ذوى مثل مستمدة من تجارب القديسين - كما فعلت الكنيسة المصرية مثلا - فظلت تعتمد فى الحصول على الأساقفة على ما يرد إليها من الكنيسة المصرية الأمر الذى جعل الكنيسة النوبية تخضع لتطور الظروف السياسية فى مصر.

والغريب أن مقرة لم يكن تسودها لغة واحدة. فالطقوس الدينية كانت تؤدى باللغة اليونانية حتى القرن الثامن الميلادى إلى أن ترجمت إلى اللغة النوبية. ولم تصبح النوبية لغة مدونة إلا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى، على حين أن القبريات النوبية ظلت تكتب باللغتين اليونانية والقبطية دون سواهما وهما كذلك لم تسلما من أخطاء لغوية إملائية. وتختلف لغة أهل علوة فى طبيعتها ونوع كتابتها عن اللغة النوبية فى مقرة.

وثمة ظاهرة هامة ذات أثر بعيد فى تاريخ بلاد النوبة، هى فقر البيئة - فمواضع الخصب تنحصر فى شريط ضيق بحاذى النيل يختلف ضيقاً واتساعا من مكان إلى آخر . وعلى الرغم من اتساع الرقعة الزراعية فى مملكة علوة عنها فى مملكة مقر، إلا أن أهل علوة كانوا دون أهل مقرة فى المستوى الحضارى، فلم يستغلوا خصوبة أرضهم استغلالا اقتصاديا، بل اعتمدوا على ا لسحر.

وأهم ما يلاحظ على التجارة فى بلاد النوبة أن العملة مثلا لم تكن معروفة إلا فى منطقة مريس. أما إلى الجنوب منها فكان التبادل يتم طريق المقايضة بالرقيق والمواشى وغيرها.

وتأثرت حضارة النوبيين بفقر البيئة وقلة الموارد الطبيعية. فالكنائس النوبية من النوع المعروف باسم باسيلكا. ومعظمها من الطوب واللبن والطين. ويغلب على النقوش والزخرفة البساطة وعدم النضج . وحتى بقايا المساكن التى أمكن العثور على قليل منها مبنية من اللبن وهى ذات طراز بسيط ساذج.

* * *

ويمكن تفسير أثر العوامل الخارجية فى اضمحلال ممالك النوبة المسيحية من تأثر النوبيين بالثقافة العربية الجديدة عليهم، إذ طبعتهم بطابع مختلف عن الطابع القديم الذى اتصفوا به فى العهد المسيحى. وإذا كان وادى النيل قد استقبل بعض الجماعات العربية من جزيرة العرب قبلى الإسلام عبر باب المندب أو البحر الأحمر، أو عن طريق برزخ السويس، سواء لغرض التجارة أو الهجرة أو الغزو فإن أثر هذه الجماعات العربية فيمن اختلطت بهم من سكان وادى النيل كان ضئيلا بالقياس إلى أثر الهجرات العربية الكبرى الى شقت طريقها إلى وادى النيل من الشمال (مصر) عقب ظهور الإسلام. وتعد حملة عمر بن العاص على مصر سنة ٦٣٩م إحدى طلائع هذه الهجرات الكبرى. وعلى الرغم من أن المسلمين فى محاولتهم الثانية غزو النوبة سنة ٦٥٢م - بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح - دخلوا دنقلة العاصمة واستولوا عليها، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم كما فعلوا فى مصر وغيرها من البلاد التى غزوها،ولم يطبقوا عليها القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة، بل اكتفوا بالبقط الذى ضمن للمسلمين حرية التجارة والعبادة فى بلاد النوبة ونشر الدعوة الإسلامية التى لا تفرض بحد السيف بل بالحجة والبرهان على يد التجار المسلمين. ويدل تمسك المسلمين فيما بعد بالبقط وشروطه على إدعاء نوع من السيادة فى بلاد النوبة لاسيما وأن المسلمين لم يلتزموا بدفع شئ رسمياً للنوبيين. ولا يعنى حرص النوبيين على الاستمرار فى دفع التزاماتهم إلى الدولة الإسلامية وقبض ما يقابلها من جهاز على رضى النوبيين بالبقط وشروطه، بل يدل على عجزهم عن ممارسة سياسة خارجية قوية. وإذا كان النوبيون حاولوا أحياناً الامتناع عن دفع البقط والإغارة على أطراف مصر للتخلص من هذه التبعية المضطربة لضيقهم ذرعا بالبقط وصعوبة الحصول على العدد المطلوب من الرقيق، إلا أنهم لم يحاولوا هذه المحاولات إلا فى حالات نادرة كانوا يستشعرون خلالها ضعف السلطة المركزية فى مصر

وتعرض البلاد للقلاقل الداخلية. ومع هذا فإن ولاة مصر كانوا يقابلون المحاولات النو بية بردهم وغزو بلادهم وإرغامهم على الوفاء بشروطهم.

وثمة ملاحظة توجب الالتفات هنا هى أنه على الرغم مما نص عليه عهد عبد الله بن سعد للنوبة من عدم السماح للعرب بالدخول إلى بلاد ا لنوبة إلا للتجارة، فإن الجماعات العربية المختلفة التى ازدحم بها إقليم أسوان - بعد الغزو العربى لمصر - لم تتقيد بهذا الشرط، بل أخذت فى التسرب التدريجى إلى بلاد النوبه السفلى (مريس) حيث استأجروا فيها أراضى استغلوها لصالحهم ثم استأثروا بها وتوارثوها جيلا بعد جيل. وتأثر النوبيون من أهل مريس بهذه الجماعات الإسلامية وأخذوا عنهم بعض أفكارهم ونظمهم الاجتماعية، خاصة النظام القبلى الذى أدى فى النهاية إلى تفكك ممالكهم واعتنق كثير منهم الإسلام. ولم يعد للملوك النوبة فى هذه المنطقة سوى نفوذ اسمى.

وللصحراء الشرقية - حيث تعيش قبائل البجة - دور خطير فى تاريخ بلاد النوبة . إذا المعروف أن تنقل الجماعات المختلفة بين أوطان البجة وبلاد النوبة كان أمراً مألوفا فى العصور الوسطى. ومع أن ولاة المسلمين فى مصر لم يهتموا بادئ الأمر بأمر البجة، إلا أن اعتداءات البجة على صعيد مصر منذ منتصف القرن الثامن الميلادى، أدى إلى تجريد الحملات العسكرية عليهم لتأديبهم. وموضع الأهمية هنا أن هذه الحملات لم تؤد فقط إلى حفظ مصالح المسلمين الذين سبق أن استقروا فى أرض البجة للتجارة، وحفظ المساجد القائمة فعلا، ووضع بلادهم ضمن مناطق النفوذ الإسلامى وفرض الخراج والزكاة، بل أدت كذلك إلى استقرار كثير ممن اشتركوا فى هذه الحملات للعمل فى المعادن التى بهرتهم خاصة الذهب ، وأدت كذلك إلى هجرة قبائل عربية مختلفة إلى أرض المعادن والذهب بعد أن وصلتهم أنباؤها وخاصة بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم بقطع العطاء عنهم وضغط الأتراك عليهم فى مصر.

ومن ثم فإن حملة العمرى سنة ٨٦٨م لم تكن فى الواقع حملة يقصد بها تأديب النوبيين أو البجة، بل الكشف عن مواطن جديدة للتبر والبحث عن مهاجر تتسع للقبائل العربية التى اشتركت فيها مثل ربيعة وجهينة وغيرها فى أوطان البجة وبلاد النوبة كذلك. واختلطت هذه الجماعات العربية المهاجرة بالعناصر النوبية (فى مريس) والبجاوية مما أدى إلى تأثرهم بالدماء العربية التى كانت تتجدد باستمرار مع توالى وصول عناصر عربية جديدة إلى هذه الأوطان بسبب اضطراب بعض أجزاء العام الإسلامى وقيام الفتن والثورات.

ويدل تأسيس أول إمارة عربية - حوالى أواخر القرن التاسع الميلادى - بزعامة ربيعة، فى أرض العلاقى وإقليم أسوان على مدى ما صار للعرب من قوة فى هذه المناطق حتى اعترفت بها الدولة الفاطمية، فاستحق زعيمها أبو المكارم هبة الله لقب كنز الدولة. ثم حسب الأيوبيون لأمراء بنى كنز كل حساب وخشوا خطرهم وأدت هزيمة بنى كنز على يد العادل أخى صلاح الدين ١١٧٤م إلى رحيلهم عن أسوان التى لم تعد مركز إمارتهم، واستقروا فى جهات مريس حيث اندمجوا اندماجا تاما فى سكانها وخضع لهم النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى لملك مقرة.

ويفسر وجود النوبيين بأعداد ضخمة فى مصر للخدمة فى جيشها منذ عهد ابن طولون - على الاقل - ظاهرة هامة كانت ذات أثر فى اضمحلال ممالك النوبة المسيحية. فخروج هذه العناصر النوبية المسيحية بطريق الشراء أوغيره استنزاف لقوى هذه الممالك المسيحية على حين لفظت مصر بعض عناصر الشغب بها - فى نظر ولاتها الأتراك - وهم جميعا من العرب المسلمين الذين انسابوا إلى النوبة فأثروا تأثيرا بشريا فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة ثم أن هذه العناصر النوبية المسيحية النازحة إلى مصر لابد تحولت إلى الإسلام وأصبحت عنصرا بارزا فيها واتسعت أحوالها وشارك أولئك النوبيون فى حوادث الدول الإسلامية التى تعاقبت على حكم مصر.

* * *

وفى العهد المملوكى تبدأ مرحلة حاسمة فى تاريخ النوبة الشمالية «مقرة» وتبدأ هذه المرحلة باغارة ملك النوبة داود على ثغر عيذاب وأسوان سنة ١٢٧٢ . بسبب ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر، والضغط على ممالك النوبة المسيحية وبسبب ما نال الأقباط فى مصر من اضطهاد على يد السلطان بيبرس، فإن السلطان بيبرس أرسل حملة مملوكية سنة ١٢٧٣م إلى بلاد النوبة لتأديب داود.

وإذا كانت هذه الحملة لم تظفر بداود، فأن النزاع الذى نشب فى داخل البيت الملكى النوبى بسبب وراثة العرش والتجاء شكنده إلى السلطان، شجعه على إرسال حملة مملوكية ثانية لغزو النوبة سنة ١٢٧٦م. وموضع الأهمية فى هذه الحملة أنها جعلت بلاد النوبة الشمالية (مقرة) جزءا من الدولة المملوكية، وطبقت عليها لأول مرة القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوه، وأصبح بيد السلطان المملوكى حق تعيين وعزل من يشاء من ملوك النوبة. وتمسكت السلطنة المملوكية بهذا الحق، إذ تدل الحملات التى جردها السلطان

قلاون مرة بعد أخرى على الرغبة فى تأكيد هذا الحق على الرغم من مراوغة ملك النوبة سمامون ومحاولته التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية.

ومن أهم نتائج هذه الحملات القلاونية على بلاد النوبة أنها أقنعت ملوك علوة بقوة السلطنة المملوكية ،فتقربوا إليها بالهدايا وحكموا السلطان المملوكى فيما نشب بينهم وبين ملوك مقرة من نزاع.

وثمة ظاهرة أخرى، هى كثرة الرقيق والأسرى النوبيين الذين أرسلوا إلى القاهرة، وكثرة عدد اللاجئين من بيوت الإمارة النوبية ومدعى العرش النوبى، وثمة ظاهرة أخرى هى اشتراك عربان الوجه البحرى والقبلى فى هذه الحملات المملوكية كلها ، واستقرار كثير منهم فى بلاد النوبة، وعدم العودة إلى مصر صحبة الجيوش المملوكية.

وإذا كانت مشاغل السلطان قلاون فى بلاد الشام جعلته يقبل الوضع الذى خلقه ملك النوبة سمامون بعد استعطافه السلطان واسترضائه، فإن ابنه السلطان خليل لم يسمح باستمرار هذا الوضع وقبول مراوغة سمامون، بل أرسل حملة لتوطيد السيادة المملوكية فى بلاد النوبة وتعيين أحد الأمراء اللاجئين إلى مصر ويدعى يدمة - نائبا للسلطان فى حكم البلاد.

ولا شك فى أن اختلاف الطامعين من أفراد الأسرة المالكة النوبية كان ضمينا ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة حتى فى السنوات الأولى من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى كان لا يزال طفلا. وإذ حاول أحد ملوك النوبة ويدعى كرنبس الخروج على السلطان فإن حركته وافقت بلوغ الناصر سنا مؤهلا للحكم فرأى تعيين أحد الأمراء النوبيين - الذين تربوا فى البلاط السلطانى - ويدعى عبد الله برشمبو النوبى الذى اعتنق الإسلام ملكا على بلاد النوبة ونائبا عنه فى حكمها. والواقع أن سياسة تعيين ملك مسلم حكم بلاد النوبة، نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد. إذ أدى ذلك إلى ظهور بنى كنز على مسرح الحوادث فى بلاد النوبة بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبى وتزوجوا من بنات ملوكها. فادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى الملك. فهو فضلا عن أنه أمير مسلم فإن الملك ينتقل إليه بعد خاله الملك كرنبس حسبما يقضى به نظام الوراثة عند النوبيين.

ويدل تحدى كنز الدولة للسلطنة المملوكية والتخلص من عبد الله برشمبو، على ما صار لبنى كنز من قوة لا يسندها حقهم الطبيعى فى حكم بلاد النوبة فقط، بل تسندهم قوة العرب

المتوطنين، ولم تنجح الحملات الناصرية فى القضاء على نفوذ بنى كنز. والواضح أن دور العرب المستقرين فى بلاد النوبة لم يقتصر على إسقاط البيت المالك النوبى سنه ١٣٢٢م فحسب ، بل نشر الثقافة الإسلامية بين النوبيين الذين انقطعت عنهم الجزية بإسلامهم لاسيما بعد قطع صلتهم بكنيسة الإسكندرية من ناحية وانعكاس صور اضطهاد الاقباط فى مصر عليهم من ناحية أخرى.

* * *

ومن الطبيعى بعد أن سقطت المملكة المسيحية فى الشمال أن تنعكس صورة الأحداث التى وقعت فى بلاد النوبة الشمالية على مملكة علوة أيضا. وتتشابه العوامل التى أدت إلى سقوطها مع تلك التى أدت إلى سقوط جارتها فى الشمال . فتعرض علوة لغزو جيرانها من الغرب والشمال للحصول على الرقيق، فضلا عن قطع علاقاتها بالكنيسة المصرية وفشل أهل علوة فى الحصول على أساقفة من الحبشة أدى إلى تفككها وانحلالها.

ويدل سقوط علوة سنة ١٥٠٤ على يد جماعة من العرب والفونج على أنه سبق سقوطها وصول جماعات عربية فى أعداد وفيرة. فنشأت عدة إمارات ومشيخات عربية فى جهات حوض النيل الأوسط بعد تغلبها على الملوك الإقليميين فى مملكة علوة . ولا شك فى أن تلك الجماعات العربية المختلفة كان مصدرها مصر، باستثناء بعض الأسر العربية أو الأفراد الذين جاءوا عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية، أو بعض الجماعات العربية التى هاجرت من بلاد المغرب عن الطريق الليبى. فالمعروف أن كثيراً من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا، حيث استقرت فى بلاد النوبة الشمالية (مريس) وأوطان البجة. وزادت جموع العرب المهاجرين إلى هذه الجهات زيادة واضحة عقب قيام السلطنة المملوكية بسبب الضغط المتواصل عليهم فى مصر. وساعد على ذلك اضطراب الأحوال فى بلاد النوبة الشمالية. ثم أخذ كثير من هذه الجماعات ولا سيما جهينة فى الهجرة جنوبا إلى جهات النيل الأزرق حتى الحبشة وغربا إلى جهات دارفور وكردفان.

وتدل كثرة الوحدات القبلية العربية فى جهات حوض النيل الأوسط وانتقال مقر الملك من سوبا إلى الغرب فى (كوسة) على ما صار لهذه الجماعات العربية من قوة . ويبدو أثر هذه الجماعات العربية واضحاً فى تطور الحياة الاجتماعية والسياسية، وزوال الأسس التى قامت

عليها الملكية المسيحية فى علوة، لا ختلاطهم بالسكان الوطنيين وازالة التقاليد الاجتماعية القديمة واختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة. ولعل أهم أثر لقيام المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد بأعتبار أن ذلك كان مظهراً لقبول سيادة زعيم القبيلة على افرادها.

ومع هذا لم يؤد هذا التطور إلى استقرار الأحوال فى هذا الجزء من حوض النيل، بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية وبينها وبين الاهالى من ناحية أخرى، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية . فظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية يخضع لها الجميع وحماية طرق التجارة القديمة، فكان الحلف السنارى الذى جمع بين الحليفين عمار دونقس زعيم الفونج وعبد الله جماع شيخ القواسمة من العبد اللاب. فقضى الحليفان على البيت الملكى النوبى فى علوة وتأسست دولة الفونج الإسلامية سنة ١٥٠٤م. وشملت هذه السلطنة جميع بلاد علوة وجزءا كبيراً من أرض النوبة الشمالية.ووضع الحليفان أساس النظام الذى جرى عليه حكم هذه السلطنة . ثم انتقل هذا النظام إلى خلفائهما من بعدهما.

والمعروف أن هذه السلطنة اشتملت على عناصر مختلفة عربية وحامية وشبه زنجية فضلا عن خليط منها جميعا، وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك. وتشير الروايات الوطنية إلى اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية، والجهل بقواعد الإسلام، إذ أن الدعوة الإسلامية حتى هذا الوقت (أول القرن السادس عشر) لم تكن تهتم بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام، بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة ليسهل بسط نفوذهم عليهم، لاسيما وأن أولئك المهاجرين كانوا من البدو الجاهلين بفقه الإسلام، فظهرت الحاجة إلى علماء يتوفرون على شرح قواعد الإسلام.

الملاحق [1]

أولا ملحق رقم ١

نقش الملك سلكو باللغة اليونانية على جدران معبد كلابشة

وقد قام بعض العلماء على نشر هذا النقش، أولهم:

Gau, Antiquites de la Nubie, pI. 1, No. 1.

ثم ناقش نوبهر محتوياته في Neibuhr, Inscriptiones Nubien

سنة ١٨٢٠، ثم نشره كل من كايو ولترون ولبسيوس في مؤلفاتهم وهي:

Cailliaud : Voyage aMeroe, tom, 3 eme P. 379.

Letronne : Oeuvres Choisies, tom. 1 ere , p. 3 tf.

Lepsius : Denkmaler, Abt. VI, B. 1 95.

وأخذ بدج عن الأخير Budge, E. A. wallis : The Egyptian Sudan, Vol. II, PP. 318 - 319.

النص الوارد هنا مأخوذة ترجمته عن بدج بعد مقابلتها لترجمة كروان لهذا النص وليس بينهما خلاف يستحق الذكر.

Kirwan, L. P. : LAAA. P. 94.

الترجمة العربية:

أنا سلكو رئيس[2] النوباديين وجميع الأثيوبيين . لقد جئت إلى تالمس [3]وتافه، حاربت

---

(١) بعض هذه الملاحق مأخوذ من مراجع مطبوعة معروفة، غير أني أوردتها هنا مع الملاحق المأخوذة من مراجع مخطوطة لأجعل منها كلها مجموعة واحدة للنصوص الهامة الخاصة بتاريخ السودان والنوبة.

(٢) على الرغم من ادعاء سلكو الزعامة على جميع النوباديين والأثيوبيين، إلا أنه اتخذ لنفسه لقب Basilikos أى ملك صغير. وهذا لا يتفق وما ادعاه سلكو لنفسه من سلطة . ويدل التخبط في اختيار اللقب الحقيقى لسلكو على الجهل باللغة اليونانية أنظر:

Emery, W. E. : The Royal Tombs of Ballana and Qustul, Vol., I, P. 12.

(٣) تالمس هى كلابشة الحالية حيث يوجد المعبد الذى نقش سلكو على جدرانه هذا النقش تخليداً لانتصاره على البليميين.

البليميين، ثم أعدت عليهم الكرة مرة أخرى، ونصرنى الله عليهم فى المرة الثالثة [١]. ثـم قهرتهم نهائيا، فأصبحت بذلك سيدا على مدنهم، بعد أن سيطرت عليهم بقواتي[٢] ثـم هاجمتهم (مرة خامسة) حتى توسلوا إلى، فعقدت معهم صلحا بعد أن حلفوا لى بآلهتهم[٣]. وقد وثقت فى إيمانهم هـذه لأنهم رجال شرفاء. ثم عدت إلى الجزء الأعلى من مملكتي، ولما تمت لى السيادة عـليه، لم أشأ أن أكون فى مؤخرة ملوكه، بل أصبحت فى مقدمتهم[٤].

أما عن أولئك الذين نازعونى الزعامة فإننى لم أسمح لهم بأن يعيشوا فى بلادهم إلا إذا التمسوا منى المغفرة، لأننى أصبحت أسدا فى الجهات الدنيا من مملكتى وظبيا فى الجهات العليا منها [٥].

لقد حاربت البليميين فى المنطقة من ابريم إلى تالمس (الشلال [٦]). أمـا عن رؤسـاء

---

(١) ينسب سلكو إلى الله انتصاره على البليميين فى الموقعة الثالثة. فهل يدل هذا على أن سلكو اعتنق المسيحية؟ يرى البعض أنه اعتنق المسيحية - أنظر:

Budge, E. A. Wallis: The Egyptian Sudan. Vol., II. P. 294.

Budge, E. A. Wallis : Hist of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia, Vol, I. P, 116

Kirwan, L. P. ; LAAA. Vol, XXIV, pp. 88. غير أن كروان

استناداً إلى ما ذكره بركوبيوس حوالى ٥٤٣ يذكر أن البليميين والنباطيين يعبدون إيزيس وأوزوريس ويرى أنه ليس هنالك ما يدل على اعتناق سلكو المسيحية، بل أن ظهور صورته فى النقش فى زى فرعونى تزينه صور الآلهة يحمل على الظن أنه لم يكن مسيحياً. Ibid. op cit. p. 85.

(٢) الواضح من هذه العبارة أن سلكو احتل المنطقة الى يحتلها البليميون فى بلاد النوبة وهى الممتدة من الشلال الأول حتى إبريم.

(٣) اضطر سلكو إلى شن حرب خامسة ضد البليميين ثم عقد معهم الصلح بعد أن حلفوا له بآلهتهم إيزيس وأوزوريس. والواضح أن سلكو وثق فى هذه اليمين لتمسكهم بآلهتهم.

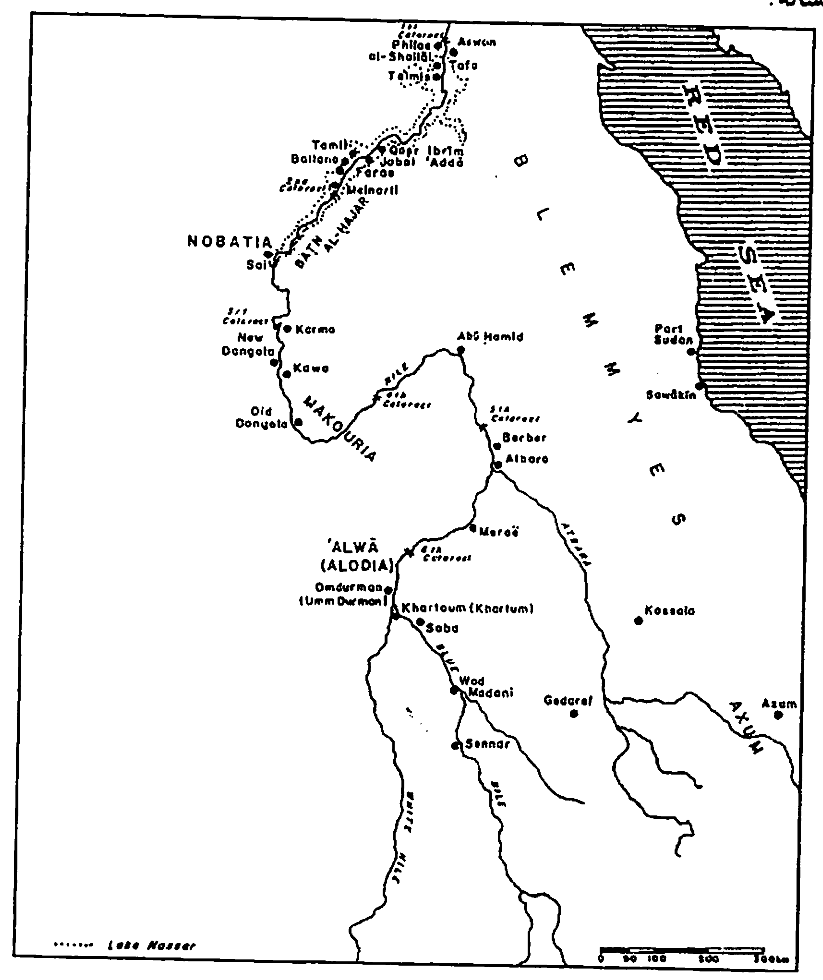
(٤) اطمأن سلكو إلى البليميين بعد أن أقسموا له يمين الطاعة فعاد إلى الجهات العليا من مملكته أى جنوبى إبريم وتم له إخضاع منافسيه ملوك النوباديين فأضحى زعيما بلقب رئيس وهو منصب لم يسبقه إليه غيره من ملوك النوباديين. أنظر:

Budge, E. A. Wallis: The Egyptian Sudan, op. Cit. p. 308.

(٥) بعد أن أخضع سلكو منافسيه أضحى شديد الباس، فهو أسد مخيف لكل السهل، وظبى قوى نشيط ضد سكان الجبال. Ibid : op. cit. p. 309.

(٦) يقول بدج: إنها تالمس (كلابشة) غير أنه من الواضح أن البليميين لم يكونوا عند العهد الذى قطعوه على أنفسهم ولهذا حاربهم سلكو مرة ثانية بعد عودته من الجهات الجنوبية، واكتسح بلادهم من إبريم إلى تالمس. والراجح أنهـا Tilelis أى الشلال الاول كـما يقـول كروان : Kirwan, L. P. op. cit. p. 84. =

الشعوب الآخرين الذين نازعونى الرئاسة فإنى لم أدعهم يجلسون فى الظل بل فى الشمس، ولم يتمكنوا من أخذ شربة ماء إلى دورهم [١] ومن قاومنى منهم قضيت على أولاده ونسائه.



=اعتماداً على ترجمة جرفت لهذا النص: Griffith, F. Ll., Mer. Inscriptions، ومعنى هذا أن سلكو اضطر لحرب البليميين مرة ثانية بعد عودته من الجهات الجنوبية لعدم تمسكهم بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم فيما يظهر، واكتسح بلادهم من إبريم إلى الشلال الأول. غير أن النص لا يشير صراحة إلى طردهم من هذه المنطقة.

(١) لا شك أن سلكو اضطر إلى خوض حرب ضد بقية النوباديين الذين خرجوا عليه حتى تم له إخضاعهم جميعاً تحت زعامته فاستحق اللقب الذى ادعاه لنفسه.

الملحق رقم ٢

بساتين الآباء الرهبان - فردوس النعيم -

الأربعين خبر للاباء الرهبان بوادى هبيب وغيره

مأخوذ عن كرم، Crum. B. W. E. : "A Nubian Prince in an Egyptian Monastery" in Studies Presented to Griffith F. Ll., PP. 137 - 145.

نقلا عن نسخ مودعة بالمتحف البريطانى والمكتبة الأهلية بباريس.

... ولكن كن على حذر من قوم بنى حام[١]. ياتوك عراة الأجساد فى أوساطهم جلود المعزى. وسلاحهم من جريد النخل . وطعامهم من دبيب الارض. ياكلون النار والثعبان والفرس والورل والسحلفة والذيب والنمر. والكلب والقط. ولا ينجسون شيا من اللحوم الخبيثة النجسة. وهم أقوياء شجعان. لا يطيق بهم ا حد من سكان هذه الارض. فيملكون اكثرها. ويسبون اهلها ويقتلون ابطالها. ويرعون بافواههم كرومها وبساتينها. ويكون على هذه الاعمال منهم وبالاعظيما. ويأتون اليك يا ابى انسطاسيوس وقد طعنت فى السن. لا قدرة لك على الطعام مستويا. وتنظرهم بعيناك. وبعد ذلك تموت قبل مخاطبتهم. ويمدون ايضا ايديهم فى هذا الدير. ويريدون فساده ومن فيه من الرهبان فلا يقدرون. فاندر [فاندرا الريس الذى بعدك أن يعد لهم طعاما وشرابا من جميع الاطعمة الحلال والحرام. فاذا هم اكلوا من الطعام وشربوا من الشراب فانهم يعطوك امانا لهذا الدير. ولا يفسدون أحدا فيه. لان الذى يأتى اليه ابن اخوا المقدم فيهم . واصحابه. وفيه رحمة. واعرف واوصى ولدك الذى له الرياسة بعدك. يميز وجهه ويعرفه بشخصه، فهو ياتيه ليلا. ويدخل الى هذا الدير ويصير فيه راهبا ويكون قديسا. ويكون لهذا الدير رحمة من الله عظيمة الذى ارسله اليه. لان هولا الجند يقيموا فى هذه الارض ثلثه سنين ويجعلوها مثل القفار ولايتركوا فيها اثمار ولا اشجار لأنهم خلق كثير لا يحصى عددهم. فاذا كان اليوم الرابع عشر من ابن[٢]. تاتى إلى فتجدنى فى عنجق[٣]. وهذا مكان فى صدر البرية. يسكن فيه طير السما و يأوى اليه وحش البرية وما فيها من السباع والوحشه. وذلك لاجل ما فيها من الما المتجمع من الامطار والسيول.

....

(١) المقصود ببنى حام هنا هم النوبيون.

(٢) ابن هنا يقصد به أبيب فى الشهور القبطية: أنظر: Crum. B. W. E. op. cit. p. 142

(٣) عنجق : واحة خيالية لا وجود لها Ibid op. cit.

واد [إذا] قوما قد وصلوا من ارض النوبه فملكوا ارض النخل والسدر والسنط وهى اسوان واسنا وارمنت وابيود [١] وجميع تلك الاعمال وكان كما قال هذا الراهب وما صار اليه.

الخبر الثالث والثلثون لنسطاسيوس ايضاً. قال نسطاسيوس الاب، انه لما أتى بنوا حام إلى ارض ابيود واسوان وغيرها من الاعمال كما كان وصف لى الولد القديس جعلت أفكر فى امرهم ورايتهم ياكلون ما كان من الحرام اكثر من الحلال ولا يحرمون شيا من سائر اللحوم. ويعبدون وحش البحر [فرس النهر] أيضاً فيأكلوه ويأكلون من السمك مالا ياكله احدا من الناس ولا يوديهم [يؤذيهم]، فعلمت انهم كما قال لى القديس مرقوريس. وبقيت مترقبا ما ينالنى من اولا يك، لأنهم كانوا قد افسدوا فى الارض وثمارها، واكلوا زرعها، واحرقوا بالنار غاباتها وسبوا أهلها وقتلوا ابطالها، وغنموا اموالهم، ولم يبق الا هذا الدير لاجل ما كان فيه من القديسين، ولما كان فى بعض الليالى واد [إذا] قد أتى الينا سياره عظيمه من هذا الجنس الحبشى بنى حام[٢]. وهم عراة الاجساد، وفى اوساطهم من جلود المعز ما يسترون به عورتهم وفى ايديهم سلاح من جريد النخل، فنزلوا خارجا من هذا الدير. ولم ينالنا منهم سوا، اخرجنا اليهم طعاماً فاكلوا وشراباً فشربوا. ولما ارادوا المسير، دفع المقدم فيهم امانا لهذا الدير وهو لوحا من النحاس الاصفر مكتوبا فيه ثلثه اسطر بالقلم اليونانى، وفيه هكذا ، انا قفرير بن اخى غايان بن مروا ابن صلبان، كتبت هذا الوح لهذا الدير احدر فيه من يوديه، ويغصبه مالاً. او طعاما أو غير ذلك. فيكون من الهالكين وانصرف هو ومن معه. وبقى اللوح فى هذا الدير، وكان مقام هولآ ا لقوم ثلثة سنين، وكان فى هذه المده اذا اتى الينا قدما يريدون الفساد، فنخرج اليهم ذلك اللوح فيصقعون له ويرجعون إلى ورايهم ذاهبين. ولما كان آخر السنة الثالثة من مملكة هولاى القوم. اتى الينا رجل ومعه ثلثه غلمان يخدموه، ويرفعون اثوابه ان تقع على الارض. وبيده عصا من جريد يتوكا عليها ، وبيده الاخرى سيف يحمله . وعلى راسه مقدار ذراع واحد خرقه حرير مشدوده بها. كما يكون النسا. فلما رايناه تعجبنا منه وقلنا ما هذا الشيطان الذى اتى الى هذا الدير . وماذا يريد. وأنا علمت من ولدى الراهب القديس ان المدة

---

(١) أبيود. قرية من قرى صعيد مصر تقع جنوبى مدينة قفط ويبدو أنها كانت ذات أهمية فى الوقت الذى ترجع إليه حوادث هذه القصص.

(٢) ورد فى بعض النسخ الأخرى ذكر نوبى، وفى بعضها الآخر ذكر حبشى . والواقع أنه كثيرا ما يحدث الخلط بين هذه الأسماء جميعاً . Kirwan, L.P. LAAA. op. cit.

قد انقظت ولم يبق لهم ملكا. لان هذا الانسان كان من بني حام وانه اراد الدخول الى الدير. ففتحوا له الباب فدخل واراد البيعه فدللناه عليها. وانا نسطاسيوس كنت امامه ماشيا. لانى من ولدى الراهب ما كان انبانى به. ولما دخل الى البيعه وقف امام الهيكل وصلى. ولما فرغ من صلاته التفت إلى وقال. انا اريد ان ترينى مقدم هذا الدير. لانه كان عجميا وان واحد من غلمانه كان يترجم له، فقلت له وما الذى تريده منه. فقال اذا رايته انا اخاطبه بالدى اريده منه، فقلت له انا هو. فجلس واجلسنى واخرج من بين ثيابه مما كان معلقا فى عنقه. على صدره صوره من الذهب الاحمر منقوشه بالقلم. وكانت صوره ابينا القديس انبا بخوم، فتعجبت وقلت يا هذا المولا وانتم تعرفون فى ارضكم القديس انبا بخوم . فقالوا نعم لان شابا راهبا لابس الثياب الصوف طرق ارضنا ورابنا له قدس عظيم . واكرز فى ارضنا. وقال ان روحى صارت إلى السموات ورايت اهل العذاب وماهم فيه. ورايت اهل النعيم وماهم فيه. واظهر عجايب كثيرة. كان يقول ان روحى بعد قبضها عادت إلى جسده واندرنا انا ناتى إلى هذه الارض ونملكها ثلثه سنين ونعود إلى ارضنا. وكنت انا قد القيت نفسى اليه ورغبت إلى قدسه وبشرنى انى اصير راهبا واسكن فى دير انبا بخوم. المكان الذى كان فيه راهبنا. واسكن منزله. واصلى على قبره. واورانى كيف صوره القدس الجليل انبا بخوم وصنعها لى فى لوحا من الخشب. واذا عملتها فى هذا اللوح الذهب . وان ذلك الراهب مضى الى جبل عنجق من ارضنا. وهو ذا قد تم ما قاله. ولم يخل منه شيا . فعلمت أنا نسطاسيوس انه والدى القديس مرقوريس الراهب. فتعجبت واطرقت بوجهى الى الارض . وكنت ساهيا زمانا طويلا. فلما رفعت راسى. قال لى الترجمان يا ابى الراهب ماهو ذا أنت فيه مفكرا فقلت. سبحان الله الذى اعطى قدسيه ومختاريه واصفياه الراغبين اليه هذه العطية واجلهم بها. يا ولدى هذا الراهب الذى ذكرت وصوله إلى ارضكم هو فى هذا الرير كان راهبا. وارضا الله باعماله. وهو دا ما كان من حاله. فسبح ذلك الرجل الله كثيرا. وقال ان هذا هو العجب. انه انبانى بما كان كذلك هذا الاب. ثم التفت إلى وقال لى انى اتيت لالبس الثوب والاسكيم. واكون من اولاد القديس انبا بخوم. الى حين انقضى مدتى . فبادر يا ابى الراهب والبس الثياب . فقلت انك راهباً من قبل اليوم. لان مرقوريس اندرك بدلك واندرنى وانى لا اشك انك ابن اخى الملك . قال نعم . واذا اعطيتك امانا فى هذا الدير. وفى هذا اليوم وهو السابع والعشرين من ايلول عادوا بنى حام إلى ارضهم . وانا بعد ذلك فى اليوم الثالث عشر من كانون الاول البسته الثياب

والاسكيم. واسكنته بيت ذلك الراهب مرقوريس. واريته قبره. وكان فيه يصلى ويذكر قدس مرقوره وقوله. وانه لم يكذب فى لفظة واحد. انظروا الى قدس هذا الراهب ونضايله . وهدا ما كان من امر بنى حام... انه ما يبقى احد منهم فى هذه الارض الا هدا الراهب. وكان قديساً كثير الصوم والصلاه. وهذا ماكان من أمر هذا الراهب وكنت وقت لباسه الثياب اسميته قفرى. كما كان فى اللوح مكتوب. الذى اعطانى اياه اماناً على هذا الدير. اسمعوا يا اخوتى واحبابى انا نسطاسيوس المسكين. بينما انا جالس فى ديرى واذا سياره قد اتت يطلبونى طلبا عنيفا فخرجت اليهم وقلت ماذا تريدوا . فقالوا نريد نسطاسيوس اب هذا الدير. فقلت انا هو. فقالوا ان عندك رجل من اولاد حام وهو ابن أخو ممروا ابن صلبان الملك الذى افسد هذه الارض . وقد جعلته راهبا وهو يكاتب عمه باخبار هذه الارض. وانا نريده. والا نحن نقتل جميع من فى هذا الدير ونطلق فيه النار. ولا نترك فيه شياً من العماره. وكان جميع ذلك من الشيطان عدو الخير. [فقلت] هو ذا الدير امامكم وجميع من فيه. وهو دا انا قايماً فى وسطكم . فادخلوا واكشفوا وفتشوا جيدا . فادا ما قدر تم عليه فخدوه ولا تخافوا احداً. فانى ما اعرف من هذا الانسان الذى انتم تدكروه. وانهم دخلوا وفتشوا الدير ولم يتركوا فيه مكانا. ولم يدخلوا الى منزل هذا الراهب قفرى. ولا علموا به. ولا المنزل الذى كان فيه . فخرجوا وقالوا ان هدا عظيما.وان الساعى الينا قد كدب ولم يرشدنا. والتفتوا إلى رجل كان معهم . من ناحيه تسمى صفيرة كما أسمها. وكان ساعيا. لانه كان شريرا كذاباً قتالا سفيهاً . نماماً مقاطعاً. لا يخاف الله. ولا يعرف الاه. وكان لاهياً بالزنا وشرب الخمر. واكتساب المال من غير حل. فسلط عليه هولآ القوم عند وصولهم . فاخذوا جميع ما يملك. وسبوا له ثلثه بنات . وقتلوا له ثلثه اولاد من الرجال الاشدآ الاقويا. ولم يرجع عن طغيانه ولا اعتبر بما ناله. وكان يقول انه ياخذ قفرى الراهب ابن اخى الملك فيقتله عوضا عن بنيه وبناته ولم يدرى انه بعض الانتقال وفى اخرته جهنم. فاخدوه وربطوا فى عنقه حبل من شعر المعزا وعلقوه على حايط الدير فمات لوقته.

* * *

تدل الشواهد الداخلية لهذه القصص الثلاث (الحادية والثلاثين والثانية والتلاثين والثالثة والثلاثين) أن حوادثها وقعت فى أديرة مصر على أطراف مصر الجنوبية. غير أن تاريخ هذه

القصص غير معروف تماما. وتدل اللغة التى كتبت بها أنها دونت فى عصر متأخر قد يرجع إلى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى .

والراجح أن هذه القصص ترديد لروايات قديمة تداولها الرهبان فى الأديرة. وهى تمثل جهود أولئك الرهبان القدامى فى نشر المسيحية بين النوبيين . وهى تشبه إلى حد كبير ما تردده الروايات عن الأنبا شنودة رئيس دير أخميم فى منتصف القرن الرابع الميلادى بصدد علاقته بالنوبيين والبليميين.

والراجح أن حوادث هذه القصص ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى حين كان النوبيون لا يزالون على دينهم. وهو الوقت الذى نشط فيه الرهبان للتبشير للمسيحية بينهم. وقد ظهرت آثار هذه الجهود التبشيرية فيما بعد حين أضحت المسيحية الدين الرسمى للنوبيين فى القرن السادس الميلادى وقبولهم مذهب الكنيسة المصرية دون المذهب الملكانى الذى شحذت الدولة البيزنطية جهودها لنشره بينهم.

ملحق رقم ٣

الوثائق الدالة على استقرار البليميين فى منطقة طيبة

عثر فلاح مصرى سنة ١٨٨٧م فى قرية الجبلين على بعد ٢٥ ميلا جنوبى الاقصر عل ثلاث وثائق مكتوبة باللغة اليونانية على رق غزال - نشرها كرال وهى محفوظة بالمتحف المصرى تحت رقم. 107 60 - 107 61. 107 62. Gen. du. Musee du Caire

وقد نقلها كروان إلى الإنجليزية وعلق عليها فى :

KirWan L. P. : LAAA. op cit. p. 87.

وكـذلك Emery. W.E. The Royal Tombs of Ballana and Qustul i. Text PP. II - 12.

ولا خلاف بين الترجمتين يستحق الذكر.

وفيما يلى نص الترجمة العربية للوثيقة رقم 10760 عن إمرى.

- ١ -

الترجمة العربية:

أنا شارشن ملك البليميين . أكتب إلى أولادى شاراشن وشاراتكور وشاراهيت، أنه طبقا لأمرى هذا قد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تنارى، وألا يقف فى سبيلكم أحد. وإذا أثار الرومان مشاكل وامتنعوا عن دفع الأتاوة العادية لكم فإنه ، لا الفيلارك ولا الهيبوتيرانوس، يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتى.

شارشن: الملك.

(+) تنتكنا : أمين القصر - شاهد.

(+) كتبه سانسانوس الكاتب فى اليوم الرابع والعشرين من شهر...

تقع جزيرة تنارى جنوبى الجبلين ، أى أنها فى أرض مصرية. ويقول كروان Kirwan. LP. op cit. P. 87 لا يبعد أن يكون الامبراطور جستنيان أراد أن يتصل بدولة أكسوم ليستعين بها ضد الدولة الحميرية اليهودية باليمن. ورأى أن استخدام البليميين كجنود مرتزقة فى الجيش

البيزنطى يتيح له الفرصة لمد حدود امبراطوريته إلى الحبشة ، فأقطعهم هذه الجزيرة ثمنا لخدماتهم من ناحية، واجتذابهم إلى المسيحية من ناحية أخرى. ويدل رسم الصليب أمام اسمى الشاهدين البليمين على أن المسيحية وصلت إلى هذه الشعبة من البليميين على الأقل، على الرغم من أن الملك البليمى لا يحمل علامة الصليب.

أما امرى .Emery, W. E. op. cit فيرى أن استقرار البليميين فى الجزيرة يدل على ضعف النفوذ البيزنطى فى هذه المنطقة التى أقام فيها البليميون نوعا من الحكم المدنى على حساب البيزنطيين.

ويرى وولى وما سيفر Woolley - Maciver op. cit. p. 96 أن البليميين لم يكونوا مجرد غزاة بل أنهم استقروا فى منطقة طيبة حيث أقاموا حكومة مدنية وأن القوات البيزنطية خضعت لهم واتخذوا من بطليمى قاعدة لهم يرسلون منها قواتهم لإثارة الرعب فى المنطقة التى تقع إلى الشمال من طيبة.

- ٢ -

وثيقة رقم 10761 متحف الآثار المصرى - وهى خاصة بتعيين قسيس لجزيرة تنارى الخاضعة لنفوذ ملك البليميين نقلا عن:

Emery. W. E. : op. cit.

الترجمة العربية:

أنا (+) باكتمن أشهر الملوك. قد عينت باو القسيس المعروف لإدارة جزيرة تمسير المعروفة باسم تنارى. وقد سلمتها إليك من هذا اليوم فصاعدا . وأوافق على ماسطرته عاليه.

كتبه الكاتب أجاثونوس فى اليوم الثالث والعشرين من السنة من السنة الحادية عشرة.

ليس من المعروف تماما تاريخ تحرير هذه الوثيقة. وربما كانت لاحقة للوثيقة السابقة أى حوالى أواخر القرن السادس الميلادى. وموضع الأهمية فى هذه الوثيقة أن ملك البليميين يحمل هنا علامة الصليب. ثم أنه يعين قسيسا على حكم هذه الجزيرة نفسها ويقول كروان Kirwan, L. P. op. cit. P. 90. إن لفظ IEPEUS ومعناها قسيس، من الألقاب المعتادة فى الوثائق الكنيسة، وتدل الشواهد الداخلية بأن البليميين المستقرين فى هذه المنطقة قد اعتنقوا المسيحية حوالى ذلك الحين (أواخر القرن السادس الميلادى).

ملحق رقم ٤
نقش دندور

فى سنة ٥٥٩م حول معبد دندور إلى كنيسة . وقام الملك أرجمنيز بتسجيل هذه المناسبة على جدران هذا المعبد باللغة القبطية وقام على نشره كل من:

Bevillout, : Mem. Sur les Blemmyes, P. 121.

Kraus, J. Die Anfaoge Des Christiontams in Nubien. P. III.

وقد أخذ عنهما كروان Kirwan, L. P. LAAA : op. cit. p. 99.

وبكت Beckett. H. W. ; ASN. Vol. II. Report, 1907 - 8. p. 366

ولاتختلف ترجمة كل من أولئك العلماء لهذا النص كثيراً وفيما يلى ترجمته عن بكت

Beckett, H. W. op. cit. p. 366.

الترجمة العربية:

بمشيئة الله وبأمر الملك أرجمنيز (اربانم) ويوسف نائب الملك فى تالمس، بعد أن تسلمت الصليب من يد ثيودور أسقف فيلة، قد وضعت أنا ابراهام القسيس المسكين هذا الصليب فى اليوم الذى وضع فيه أساس هذه الكنيسة وهو اليوم السابع والعشرين من طوبة من السنة السابعة (٢٣ يناير سنة ٥٥٩م) بحضور (شاى)[١] الخصى وباقنوتى مندوب الملك[٢] وأبيفانس حامل أختام ا لملك وماركوس [٣] البريدى [٤]. وأرجو ممن يقرأون هذه السطور أن يصلوا من أجلى إحساناً منهم.

يشير هذا النقش إلى أن أرجمنيز ملك نوباديا اعتنق المسيحية وأنه أخذ ينشئ الكنائس ويحول المعابد إلى كنائس كذلك بالتعاون مع ثيودور أسقف فيلة. ويدل هذا النقش كذلك على أن نوباديا أضحت بلاداً مسيحية. ومعنى هذا أن البليميين الذين قال بروكوبيوس

(١) ذكر كروان فى ترجمته لهذا النص أن اسم الخصى، Shai
Kirwan, L. P. : op. cit. p. 99.

(٢) ذكر بكت هذا اللقب بمعنى Stephor وذكره كروان بمعنى Stepharis مندوب . Ibid. op. Cit.

(٣) ذكر بكت أن اسم هذا الموظف Marcus على حين أن كروان ذكره باسم Sirma

(٤) يقول بكت: إن لقب هذا الموظف Veredarius ، أما كروان فترجمها Courier ، بريدى.

أنهم حتى ذلك الحين (منتصف القرن السادس الميلادى) كانوا لا Procopius, op. cit. يزالون على اوزيريتهم، قد تركوا هذه المنطقة التى عاشوا فيها حوالى قرنين. كما يدل على ذلك نقش سلكو الذى سبق ذكره . ومما يدل على تعاون البيزنطين مع سلكو على طرد أولئك البليميين من هذه المنطقة أن الدولة عينت إلى جوار ملك نوباديا موظفاً كبيراً يحمل لقب hezarch أو eparch ومقره مدينة كلابشة ويقتسم هذا الموظف السلطة مع ملك نوباديا، نيابة عن الامبراطور البيزنطى . انظر.

Moric. L. J. Histoire de. l' Ethiopie et la Nubie. tome. lere P. 412.

ويشتمل هذا النقش على اسماء عدد من الموظفين يعاونون نائب الملك فى حكم هذه المنطقة. والراجح أن أرجمنيز أول ملك نوبى مسيحى.



راقصتان داخل مربع وزخرفة نباتيه. سجادة قبطيه
من القرن ٩ . متحف اللوفر

ملحق رقم ٥

العهد الذى اعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر

وهو يطلق عليه الطبرى «صلح عين شمس»

مأخوذ عن الطبرى، طبعة زوتبرج، الجزء الثالث، ص ٤٩١

«هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينتقص، ولا تساكنهم النوبة.وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح و انتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف. وعليهم ما جنى لصوتهم (لصوصهم) فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة. وان نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك.ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليهم مثل ما عليهم. ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على مافى هذا الكتاب عهد ا لله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين و ذمم المومنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا فرساً على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة» وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد أبناه وكتب وردان وحضر.



ملحق رقم ٦

عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبه

مأخوذ عن المقريزى . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

طبعة بولاق الجزء الأول ص ٧٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم. عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة، ولجميع أهل مملكته.عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة. أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة. أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم. أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم. وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه. ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم. ولا تمنعوا منه مصليا. وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته. وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران واناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان. وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا، أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأسا، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمانة ، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين.

ملحق رقم ٧

البقط حسبما ورد فى كتب المؤلفين العرب

مأخوذ عن البلاذرى: فتوح البلدان

نشره، De Goeje طبعة ليدن ١٨٦٦م

(٣٦٦)... لما فتح المسلمون مصر بعث عمروبن العاص إلى القرى التى حولها الخيل ليطأهم فبعث عقبة بن نافع الفهرى - وكان نافع أخا العاصى لأمه - فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقى المسلمون بالنوبة قتالا شديدا. لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة فسموا رماة الحدق. فلم يزالوا على ذلك حتى ولى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح فسألوه الصلح والموادعة فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدنة ثلثمائة [رأس] فى كل سنة وعلى أن يهدى المسلمون إليهم طعاما بقدر ذلك... حدثنى محمد بن سعد، قال: حدثنى الواقدى، قال حدثنا ابراهيم بن جعفر عن عمر بن الحرث عن أبى قبيل حيى بن هانئ العافرى عن شيخ محمد حميد . قال شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب، فلم أرقوما أحد فى حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمى منك فربما عبث الفتى منا فقال فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمى بالنبل فما يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شئ. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معاملتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين فعدت مائة وخمسين عينا مفقودة والهاولاء خير من الصلح. إن سلبهم لقليل وإن نكاتهم لشديدة . فلم يصالحهم . قال عبد الله بن صالح عن أبى لهيعة عن يزيد بن حبيب قال: ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هى هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ويعطونا رقيقا فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم. حدثنا أبو عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال: إنما الصلح بيننا وبين النوبة على ألا نقاتلهم ولا يقاتلونا وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما. فإن باعوا نساءهم وأبناءهم لم أر بذلك بأسا أن يشترى.

ومن رواية البحترى وغيره أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح صالح أهل النوبة على أن

يهدوا فى السنة أربعمائة رأس يخرجوا بها يأخذون بها طعاما. وكان المهدى أمير المؤمنين أمر بإلزام النوبة فى كل سنة ثلثمائة رأس وستين رأسا وزرافة على أن يعطوا قمحا وخل [١] وخمر [٢] وثيابا وفرشا أو قيمته.. وقد ادعوا حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة وأنهم كانوا طولبوا بذلك فى خلافة المهدى فرفعو إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شينا عادوا على أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة، فأمر بأن يحملوا فى ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلث سنين بقط سنة. ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت فى دواوين الحضرة ووجد فى الديوان بمصر.

---

(١) وخلا.
(٢) وخمرا.

ملحق رقم ٨

هجرة القبائل العربية إلى مصر، ومنها إلى السودان [١]

أولا : القبائل القحطانية:

بنو جذام: سكن بنو جذام الحوف منذ الغزو العربى لمصر حتى سنة ١٤٠٠م، ومنهم بنو عقبة الذين انفصلوا عن بقية الجذاميين ليلحقوا ببنى هلال فى شمال أفريقيا. وقد اضمحل شأن جذام زمن صلاح الدين (١١٧١م) وحلت محلها طئ.

بنوطئ: هبط بنوطئ مصر عقب الغزو العربى لها بنحو قرنين أو ثلاثة، وسكنوا جهات الدلتا المختلفة، حيث لحق بهم عدد كبير من أهليهم. ومن طئ بنو ثعلبة.

بلي: ان بلى فروع من قضاعة من حمير، جاءوا مصر مع الغزو العربى. وقد قام نزاع بينهم وبين جهينة ثم تم الصلح بينهما. واستقرت بلى فى صحراء عيذاب وسكن بعضهم جهات إخميم.

جهينة: سكنت جهينة جنوبى ينبع، ثم دخلوا مصر مع الفتح، واشتركوا مع ربيعة فى حملة العرب على البجا حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى وانتقل معظمهم إلى الصعيد واشتركوا فى الحملات على النوبة.

لخم: فرع من طئ، أسسوا مملكة الحيرة سنة ٢٨٦م ونشب نزاع بينهم وبين غسان وبنى بكروبنى تميم وغيرهم من عرب سوريا. واعتنقوا المسيحية فى نهاية القرن الخامس الميلادى وانتهى حكمهم بالحيرة عقب ظهور الإسلام . ومن بطون لخم، يشكر الذين جاءوا مع الغزو العربى لمصر واستقروا فى الجبل الذى يعرف باسمهم (جبل يشكر) ثم لحقت بهم بطون أخرى فى القرنين السابع والثامن الميلاديين. واستقروا حول الإسكندرية. وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر استقر كثير من بطون لخم فى إقليم الصعيد.

ثانيا : القبائل العدنانية:

كنانة وقريش: ومن هؤلاء أولاد عدى بن كعب وبنو مخزوم وبنوامية وبنو العباس

---

(١) ملخصة عن .MacMichael. H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan. I. PP. 133 - 150

MacMichael. H. A. " The Coming of the Arabs to the Sudan, AESW. PP. 42 - 46.

وغيرهم. وجاءت إلى مصر أعداد كبيرة منهم مع الغزو العربى لها. والمعروف أن معظم ولاة مصر كانوا من قريش. سكن كثير منهم الصعيد بجوار عرب جهينة . وفى نهاية القرن العاشر غادر جماعة من سلالة جعفر بن أبى طالب مكة واستقروا فى مصر - بين قوص وأسوان - حيث عرفوا باسم الأشراف الجعافرة.

قيس عيلان: استقدم عبد الله بن الحبحاب صاحب الخراج فى مصر سنة ٧٣٧م أعداد وفيرة من قيس عيلان الذين يسكنون نجد، ومنح بعض عائلاتهم أرضا حول بلبيس، وجمعوا ثروة طائلة من نقل المتاجر بين البحر وداخل البلاد، ولهذا لحق بهم عدد كبير من أقاربهم حتى بلغ عددهم فى عام واحد ١٥٠٠ أسرة معظمهم من بنى سليم، وهم بطن من قيس عيلان، وقد قام هؤلاء بعدة ثورات لم تقتصر على أقليم الحوف، بل امتد شررها حتى شمل معظم جهات الدلتا (٨٠٢ - ٨٠٨م).

فــزارة: ينسب إلى فزارة معظم رعاة الإبل غربى النيل الأبيض، وكانوا يمثلون أيام الغزو العربى لمصر شعبة مستقلة عن غطفان. وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى قيس عيلان. كانوا ينزلوا حول مكة. ثم هاجرت جماعات منهم إلى مصر فى القرن السابع الميلادى، ولحق بهم أقاربهم فى القرن الحادى عشر الميلادى، مع بنى هلال.

بنو هلال وبنو سليم: وهم فرع من قيس عيلان، وتشمل بطوناً من هوازن وعكرمة. انفصل بنو هلال عن القبيلة الأصلية فى زمن متقدم. وفى بداية القرن السابع كانوا يسكنون مع أقاربهم بنى سليم قرب الطائف. ولما ضعف نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب، أصدر المستنصر بالله سنة ١٠٤٩م أمراً لبنى هلال بالزحف على بلاد المغرب للقضاء على الروح الانفصالية فيها. وفى سنة ١٠٥١م نزح كثير من بنى هلال وبنى سليم وبنى قيس، ومعهم بنوقرة ، إلى شمال أفريقيا، وغزوا تونس وطرابلس، وحتى زمن ابن خلدون ١٣٣٢ - ١٤٠٥م وكذلك ليو الأفريقى ١٥٥٣م، ولم نعد نسمع عن بنى هلال شيئاً فى بلاد المغرب، وبدأنا نسمع عن وجودهم فى الجنوب ولاسيما بعد حملة السلطان قلاون على دنقلة سنة ١٢٨٧م. ويذكر ابن خلدون أنهم يسكنون صعيد مصر. ويذكر المقريزى أنهم كثيرون حول أسوان وفى الصحراء الشرقية حتى عيذاب وهناك من الأدلة ما يثبت أن من بنى هلال من نزح إلى السودان.

ربيعة وبنو كنز: إن الوطن الأصلى لربيعة فى الحجاز ومرتفعات نجد وتهامة. هاجر كثير من عرب ربيعة إلى بلاد الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى حيث اعتنقوا المسيحية فى القرن السابع الميلادى. وفى سنة ٨٥٤م بدأت هجرتهم الكبرى إلى مصر ثم اندفعوا جنوباً واستقر عدد كبير منهم حول أسوان وشمال النوبة، وانضموا إلى جهينة فى حملاتهم ضد البجة. واستقر كثير منهم فى أرض البجة للعمل فى المعادن. كان زعيمهم فى هذا العهد (القرن التاسع الميلادى) إسحاق بن بشر. ثم انتقلت الزعامة إلى أبى يزيد بن إسحاق الذى فضل الإقامة فى أسوان. وبهذا انتقل مركز القبيلة من العلاقى إلى أسوان حيث اختلطوا بالنوبيين وتزوجوا من بنات رؤسائهم، فأضحت لهم مصالح مادية فى بلاد النوبة. ومن هؤلاء بنو كنز وهم من ربيعة. عرفوا بهذا الاسم زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى. ولهؤلاء يرجع الفضل فى تعريب بلاد النوبة الشمالية تعريباً جزئياً. ولعبوا دوراً خطيراً فى إسقاط مملكة النوبة المسيحية «مقرة» ثم اندمجوا اندماجاً تاماً فى النوبيين. وهم الذين يعرفون فى الوقت الحاضر باسم الكنوز، ويمتد وطنهم من أسوان إلى كرسكو.

ملحق رقم ٩

عهد عبد الله بن الجهم لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان

منقول عن المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

طبع بولاق ص ١٩٥ - ١٩٦.

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم، مولى أمير المؤمنين، صاحب جيش الغزاة، عامل الأمير أبى اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومايتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان، انك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة، وأعقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى، وشرطت لى فى كتابى هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى. وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك تكون فى بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجة، وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة. وذلكماية من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول الله (صلعم) وكتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أوعبدا، فقد برئت منه الذمة، ذمة الله وذمة رسوله (صلعم) وذمة أمير المؤمنين أعزه الله، وذمة جماعة المسلمين، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم، وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال ، أو دله على عورة من عورات المسلمين، أو أثر لعزتهم، فقد نقض ذمة عهده وحل دمه، وعلى أن أحداً منكم إن قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرا وعبد أو أحدا من ذمة المسلمين، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالاً ببلد البجه، أو ببلاد الإسلام، أو ببلاد النوبة أو من شئ من البلدان براً أو بحراً، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعاف. وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً، أو مقيما،

- -

أو مجتازا، أو حاجا، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤوا أحدا من آبقى المسلمين، فان أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين. وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم بلا مؤنة تلزمهم فى ذلك، وعلى أنكم إذا نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحا ولا تدخلوا المداين والقرى بحال، ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا، ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمى مالا، وعلى ألا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصحن (مدينة) هجر وسائر بلادكم طولا وعرضا، فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة. وعلى أن كنون بن عبدالعزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفى للمسلمين بما شرط للمسلمين من دفع الخراج، ورد ما أصابه البجه للمسلمين من دم ومال. وعلى أن أحدا من البجه لا يعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حد الاعمدة. عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجه الأمان على ما سمينا وشرطنا فى كتابنا هذا، وعلى أن يوافى به أمير المؤمنين فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة، وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجة ، وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق. ولكنون بن عبد العزيز ولجميع أهل البجه عهد الله وميثاقه، وذمة الأمير أبى اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ماوفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه. وان غير كنون أو بدل أحد من البجه فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبى اسحاق أمير المؤمنين الرشيد وذمه عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم. وترجم جميع مافى هذا الكتاب حرفا حرفا زكريا بن صالح المخزومى من سكان جده وعبد الله بن اسماعيل القرشى، ثم نسخه جماعة من شهود أسوان.

ملحق رقم ١٠

مناجم الذهب والزمرد باوطان البجه

عن اليعقوبين كتاب البلدان. نشردى خوية، ليدن ١٨٩١م.

ص ٣٣٠، ٣٣٥.

... ومن قفط تسلك إلى معدن الزمرد، وهو معدن يقال له خربة الملك على ثمان رحلات من مدينة قفط وفيه جبلان يقال لأحدهما العروس وللآخر الخصوم فيهما معادن الزمرد، وفيه موضع يقال له كوم الصابونى وكوم مهران ومكابر وسفسيد. وكل هذه معادن يوجد فيه الجوهر وتسمى الحفائر التى يخرج منها الجوهر شيم، واحدتها شيمة. وكان بها معدن قديم يقال له سر وحيط وهو معدن كان فى الجاهلية وكذلك معدن سابر. ومن المعدن الذى يقال له خربة الملك إلى جبل صاعد وهو معدن تبر مرحلة، وإلى الموضع الذى يقال له الكلبى، وموضع يقال له الشكرى وموضع يقال له العجلى، وموضع يقال له العلاقى الأدنى، وموضع يقال له الريفة وهو ساحل بحر خربة الملك. ولك هذه معادن تبر. ومن الخربة إلى معدن يقال له رحم معدن تبر ثلاث مراحل، وبرحم قوم من بلى وجهينة وغيرهم من أخلاط الناس يقصدون للتجارات، فهذه معادن الجوهر وما يتصل بها من معادن التبر القريبة. ثم مدينة أسوان العظمى وبها تجار المعادن وهم فى الجانب الشرقى من النيل.. ومن أراد المعادن معادن التبر خرج من أسوان إلى موضع يقال الضيقة بين جبلين، ثم البويب ثم البيضة، ثم بيت ابن زياد، ثم عذيفر ثم جبل الأحمر ثم جبل البياض ثم قبر أبى مسعود ثم عفار ثم وادى العلاقى. وكل هذه المواضع معادن التبر يقصدها أصحاب المطالب.. ووادى العلاقى كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم أصحاب المطالب، وبها أسواق وتجارات. وشربهم من آبار تحفر فى وادى العلاقى . وأكثر من بالعلاقى قوم من ربيعة من بنى حنيفة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية. ووادى العلاقى وماحواليه معادن للتبر وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس. لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون فى الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر، ثم يسبك. ومن العلاقى إلى موضع يقال له الجبل مرحلة، ثم إلى موضع يقال له ؟ ثم إلى موضع يقال له كعار يجتمع الناس به لطلب التبر، وبه قوم من أهل اليمامة من ربيعة. ومن العلاقى إلى معدن يقال له بطن داح مرحلة. من العلاقى إلى موضع

يقال له أعماد مرحلتان، والى معدن يقال له ماء الصخرة مرحلة، والى معدن يقال له الأخشاب مرحلتان، والى معدن يقال له ميزاب تنزله بلى وجهينه أربع مراحل، والى معدن يقال له عربة بطحا مرحلتان، ومن العلاقى إلى عيذاب أربع مراحل. وعيذاب ساحل البحر المالح يركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في المراكب. ومن العلاقى إلى بركان وهى آخر معادن التبر التى يصير إليها المسلمون ثلثون مرحلة. ومن العلاقى إلى موضع يقال له دح ينزله قوم من بنى سليم وغيرهم من مضر عشر مراحل. من العلاقى إلى موضع يقال له السنطة وبه قوم من مضر وغيرهم عشر مراحل. ومن العلاقى إلى موضع يقال له الرفق عشر مراحل . ومن العلاقى إلى معدن يقال له سخيت عشر مراحل. فهذه المعادن التى يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر.



ملحق رقم ١١

شراء العرب أراض بالنوبه

منقول عن المسعودى: مروج الذهب، نشر دى مينار ودى كورتل .

باريس ١٨٦٦ - ١٨٧٧م ج٣، ص ٤٢ - ٤٣ .

ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة فى أرض النوبة، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة. ابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس. وقد كان ملك النوبة استعدى إلى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أن أناسا من مملكته وعبيده. باعوا ضياعا من ضياعهم لمن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيده ولا أملاك لهم، وانما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها. فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من الشيوخ وأهل العلم. وعلم من ابتاع هذه الضياع أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتيع منهم من النوبة، أنهم إذا حضروا إلى حضرة الحاكم ألا يقروا لملكهم بالعبودية، وأن يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته وترك المخالفة له. فان كنتم أنتم عبيد لملككم وأموالكم له فنحن كذلك. فلما جمع بينهم الحاكم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام أو نحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى ، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت. وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس.وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك فى نوعين، نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن بالنوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان وهى بلاد مريس.

ملحق رقم ١٢

التجاء فلول الأمويين إلى بلاد النوبه وبلاد البجه

عن المسعودى: كتاب التنبيه والإشراف.

تشر دى خويه، ليدن، ١٨٩٧. ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

لما قتل مروان بن محمد بن مروان، تفرقت بنو أمية فى البلاد هربا بأنفسهم وقد كان عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، قتل منهم على نهر أبى فطرس من بلاد فلسطين نحوا من ثمانين رجلا مثلة، واحتذى أخوه داود بن على بالحجاز فعله. فقتل منهم نحوا من هذه العدة بأنواع المثل. وكان مع مروان حين قتل ابناء عبد الله وعبيد الله وكانا ولى عهده، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بنى أمية، فساروا إلى أسوان من صعيد مصر، وساروا على شاطئ النيل إلى أن دخلوا أرض النوبة وغيرهم من الأحابش، ثم توسطوا أرض البجة ميممين باضع من ساحل بحر القلزم، فكانت لهم مع من مروا به من هذه الأمم حروب ومغادرات، ونالهم جهد شديد وصبر عظيم، فهلك عبيد الله ابن مروان فى عدة من كان معهم قتلاوعطشا وضرا. وشاهد من بقى منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب. ووقع عبد الله بن مروان فى عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجة، وقطع البحر إلى جده من ساحل مكة، وتنقل فيمن نجا معه من أهله ومواليه فى البلاد متسترين راضين أن يعيشوا سرقة بعد أن كانوا ملوكا، فظفر بعبد الله أيام أبى العباس السفاح. فأودع السجن، فلم يزل فيه بقية أيام أبى العباس وأيام المنصور والمهدى والهادى، فأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير فسأله عن خبره فقال يا أمير المؤمنين حبست غلاما بصيرا وأخرجت شيخا ضريرا.

ملحق رقم ١٣

رسالة ملك الحبشة إلى جورج ملك النوبه للتدخل لإعادة العلاقات بين كنيسة الحبشة والكنيسة المرقسية

من حياة البطريرك فيلاتاوس وهو من العدد الثالث والستون ٩٧٠ - ٩٩٥م
عن تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة.
المقدسة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين.
الجزء الثالث

وفى أيامه (البطريرك فيلاتاوس) أنفذ ملك الحبشة إلى ملك النوبة كتابا، واسمه جرجس، وعرفه ما أدبه الرب به هو وأهل كورته وهو، أن امرأة ملكة على بنى الهموية ثارت عليه وعلى كورته وسبت منها خلق كثير وأحرقت مدن كثير وأخربت البيع وطردته من مكان إلى مكان وأن هذا الذى لحقه جزى (جزاء) عما كان الملك الذى قبله فعله مع المطران فى أيام الأب انبا قزما (قسما) مما قد شرحناه أولا من تزويره وكذبه، وقال له فى الكتاب الذى أنفذه له: أحب أن تساعدنى وتشاركنى فى التعب منجل (من أجل) الله ومن أجل اتفاق الأمانة، وتكتب كتاب من جهتك إلى الأب البطرك بمصر تسله أن يحللنا ويحلل بلادنا ويصلى علينا ليزيل الله عنا وعن أرضنا هذا البلا وينعم لنا بأن يقسم لنا مطران كما جرت عادة ابائنا ويدعى لنا بأن يزيل الله غضبه عنا. وذكرت لك أيها الاخ ذلك خوفا من ان ينقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لان هو ذا ستة بطاركه قد جلسو ولم يلتفتو إلى بلادنا بل هى ساية بلا راعى، وقد ماتو أساقفتنا وكهنتنا، وقد خربت البيع وعلمنا أنه بحكم حق نزل علينا هذا البلا عوضا مما فعلناه بالمطران. فلما وصلت الكتب إلى جرجس ملك النوبة ووقف عليها أنفذ من جهته كتبا ورسلا إلى البطرك فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره ملك الحبشة وساله ان يتراف على شعبه فاجاب سواله ورسم لهم راهبا من دير أبو مقار اسمه دانيال وانفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح وازال الله عنهم الغضب وابطل امر الامراة التى قامت عليهم.

ملحق رقم ١٤

نص اليمين التى حلف عليها مشكد ملك النوبه الجديد بدنقله للظاهر بيبرس بعد فتح المماليك لتلك البلاد سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٥م)

وهو منقول من النويرى (نهاية الأرب، جـ٢٨. ورقة ١٠٩. صورة شمسية بدار الكتب المصرية معارف عامة رقم ٥٤٩ وقد صحح وقوبل على النص الوارد فى ملحق رقم ٥ من كتاب السلوك جـ١ القسم الثالث ص ٩٧٣ - ٩٧٤ نشره الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة.

والله ! والله ! والله! وحق الثالوث المقدس، والانجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية، والأنبياء والمرسلين والحواريين والقديسين والشهداء الأبرار، والا أجحد المسيح كما جحده يودس، وأقول فيه ما يقول اليهود واعتقدما يعتقدونه، والا أكون يودس الذى طعن المسيح بالحربة، إننى اخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس وانى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته، وانى مادمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصا من كل حق، والنصف الآخر أرصده لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها وأن يكون على كل سنة من الأفيلة ثلاثة،ومن الزرفات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، من الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة، وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عينا، وأن يفرد بلاد العلى والجبل خالصاً للسلطان. وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمه وأقاربه، ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة، أحمله إلى الباب العالى مع من يرصد لذلك. وأننى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قررته أوشئ من هذا المذكور أعلاه، كنت بريئا من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية، وأصلى إلى غير الشرق، وأكفر بالصليب، واعتقد ما تعتقد اليهود. وأنى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة،ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطانى. ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان فى وقته وساعته، ولا أنفرد بشئ من الأشياء إذا لم تكن مصلحة. وانننى ولى من والى السلطان وعدو من عاداه والله على ما نقول شهيد.

ملحق رقم ١٥

نص اليمين التى حلف عليها النوبيون بطاعة السلطان بيبرس ونائبه فى حكم النوبه وهو الملك مشكد (شكنده)

منقول من النويرى: نهاية الأرب، الجزء ٢٨، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، معارف عامة، رقم ٥٤٩، ص ١٠٩

وكل نايب يكون للسلطان أطيعه، ولا أرى عليه بردئ، ولا أخبئ. عنه مصلحة. وكل ما أسمعه من الأخبار الجيدة والردية أطالع نايبه به. ومتى علمت على نايب الملك مشكذ أمراً يخالف المصلحة، لا أطيعه فيه وأطالع السلطان به فى الوقت والساعة . وأننى لا أدخل فى حكم داود، ولا أكون معه، ولا أطالعه بخبر من الأخبار، ولا أرتضى به ملكا. ورضيت بأن أقوم بدينار عينا فى كل سنة خالية على

ملحق رقم ١٦
حملة السلطان الناصر محمد بن قلاون على العربان ببرية عيذاب: توغل الحملة فى أرض البجه وبلاد علوه وعودتها إلى مصر عن طريق دنقله
سنة ٧١٦هـ - ١٣٢٢م

منقولة من النويرى: نهاية الأرب، مخطوطة بدار الكتب المصرية.

صورة شمسية، معارف عامة رقم ٥٤٩ - جزء ٣٠.

ص ٩٦ - ٩٨.

(ص٩٦) وفى سنة ست عشرة وسبعمائة أمر السلطان بتجريد جماعة من العسكر إلى جهة الصعيد، أن يتوجهوا خلف العرب حيث كانوا من البرية. فجرد الأمير علاء الدين مغلطاى أمير مجلس، وهو المقدم على الجيش، وهو من جملة مقدمى الألوف، والأمير عز الدين أيدمر الدوادار، والأمير علم الدين سنجر الدمشيرى، والأمير علاء الدين على بن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى، والأمير سيف الدين بهادر النقوى، والأمير سيف الدين الدمياطى، والأمير صارم الدين الجرمكى، والأمير سيف الدين طقصبا متولى الأعمال القوصية والأخميمية، وسبعة من مقدمى الحلقة المنصورية، وتوجهوا فى نحو خمسمائة فارس. وكان رحيلهم من القاهرة فى يوم الأربعاء العشرين من شوال من السنة. وكان سبب ذلك أن العربان ببرية عيذاب قطعوا الطريق على رسول اليمن الواصل إلى الأبواب السلطانية وأخذوا ما كان معه من التقادم ومن رافقه من غلمانه التجار. والذى حملهم على ذلك الأمير سيف الدين طقصبا متولى الأعمال القوصية اعتقل فياضا أمير هذه الطائفة من العرب، فحملت أصحابه الحمية على فعل ذلك. فلما اتصل فعلهم بالأبواب السلطانية، جرد هذا العسكر فى طلبهم. (٩٧) و رسم أن يتوجهوا إلى مدينة قوص ويتوجهوا منها إلى البرية ويتبعوا العرب حيث كانوا. فأخبرنى الأمير عز الدين الدوادار أحد الأمراء الذين توجهوا، وهو الثقة فى أخباره، أنهم توجهوا فى التاريخ المذكور حتى انتهوا إلى مدينة قوص، فأقاموا بظاهرها خمسة وخمسين يوماً. وفى مدة مقامهم توجه متولى الأعمال والأمير صارم الدين الجرمكى إلى البرية ليجتمعا بالعربان فى رد ما أخذوه من الأموال ومراجعة الطاعة. فاجتمعا بهم ولم يهنا بالموافقة على ما

أرادوا. ولما توجها طولع السلطان بتوجههما، وأن العسكر تأخر لقلة الطهو وسعة البرية وقلة الماء. وجهز بذلك الأمير بدر الدين بكتمر الحسامى أحد مقدمى الحلقة المنصورية.

فلما وصل إلى الأبواب السلطانية حصل من السلطان الإنكار الشديد بسبب تأخر العسكر عن دخول البرية، فعندها توجه العسكر من مدينة قوص فى القمر الأول من المحرم سنة سبع عشرة وسبعمائة، ودخلوا إلى البرية، فانتهوا إلى ثغر عيذاب خمسة عشر يوماً. واجتمع العسكر بالأمير بن سيف الدين طقصبا وصارم الدين الجمركى بعيذاب، وأقاموا بها اثنى عشر يوماً. وكان متولى الأعمال قد استصحب معه فياضا أمير العرب الذى كانت الفتنة بسبب اعتقاله، ثم دخل الجيش من ثغر عيذاب، وساروا حتى انتهوا إلى سواكن فى إثنى عشر يوماً يسلكون بين الجبال والأدغال. وحصل لهم ضرر كبير بسبب المياه وقلتها حتى كادوا يهلكون فى ماء منها يقال له ديكام . فإن العربان كانوا قد غوروا المياه أمام العسكر، فأقام الجيش أربعة أيام، ووصل إلى ذلك الماء فى اليوم الخامس، فوجدوا قفاراً واحداً وهو متغير اللون والطعم والريح. فبينما هم كذلك إذ قدمت كشافة العسكر، وكانوا قد قدموا من يستقرى لهم خبر تلك الجبال. فدخلوا من هناك وقت المغرب، وانتهوا إلى مياه قد اجتمعت من الأمطار فأقاموا بها بقية تلك الليلة إلى نصف النهار من اليوم الثانى وحملوا منها وارتحلوا، حتى انتهوا إلى سواكن ، فخرج إليهم متملكها بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان، وقرر على نفسه قطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية فى كل سنة وهى من الرقيق ثمانون رأساً ومن الجمال ثلثمائة رأس ومن العاج ثلثون قنطارا. واستقر بسواكن نيابة عن السلطان، وأقام العسكر بسواكن ستة أيام، واستصحب معه أولاد مهنا. وكان فضل أحد مقدمى العربان قد التحق بالعسكر فيما بين سواكن وعيذاب وصحبهم. وتوجه الجيش خلف العربان ودخلوا البرية يتبعون آثارهم، فساروا سبعة عشر يوما. وفى أثناء مسيرهم ظفروا بطوائف من السودان بقرب المياه فى أودية هناك، فقتل العسكر منهم وأسر وسبى وغنم من مواشيهم من الأبقار والأغنام ما ارتفق به الجند. وانتهوا إلى وادى (اتيرب) فى اليوم السابع عشر، فأقاموا بها يومين، ولم يجدوا من سواكن إلى هذا الوادى غير ماء واحد، وكان شربهم من مياه الأمطار ، وأمطرت البرية فى غير الوقت المعتاد لطفا من الله تعالى بعباده، واتقاء عليهم. ثم ساروا إلى أن وصلوا أزبينات، وهو جبل صغير على شاطئ نهر أتبرا، وهو فرع من فروع نيل مصر، يخرج من بلاد الحبشة، فأقاموا عليه يوما واحدا ثم توجهوا يتبعون آثار العربان، وهم يسيرون على شاطئ ذلك النهر ثلاثة أيام،

والنهر على يمين العسكر. ثم فوزوا ودخلوا البرية إلى أرض السالة، فانتهوا فى اليوم الثالث من يوم دخولهم المفازة إلى جبل كسلان وهو جبل أقرع ليس فى تلك البرية غيره. وجبل ألوس، وبين الجبلين واد، هذا الجبل هو حد بلاد التاكة من الحبشة. (ص ٩٨) فلما وصلوا إليه وقد قربوا من الماء وهم فى أرض صفر التربة تشبه أرض بيسان فى كور الشام، وهى كثيرة أشجار السنط وأم غيلان وشجر الأهليلج والأبنوس والصبر والحمى وهو الذى يطرح التمر هندى، إذ طلع عليهم غبار أمامهم، فندبوا من يكشف الخبر، فعاد الكشافة وأخبروهم أن طائفة من السودان تسمى هلنكة قد اجتمعوا لقتال العسكر، وهم خلق كبير فتقدم العسكر إليهم.. واجتمع العسكر فى أرض خالية من الأشجار هى من طرق.. وقد صارت مثل البركة . فدخل العسكر فيها.. وهلنكة من أعلا البركة والعسكر أسفل منهم، وبأيدى هلنكة الحراب والمزاريق والسيوف ومع بعضهم النبل. فوقف العسكر، وأرسل إليهم: أننا لم نأت لقتالكم وإنما جئنا فى طلب طائفة من العرب، أفسدوا وعصوا وقطعوا السبيل، وأمنوهم فردوا الأمان وأبوا إلا القتال، فقاتلهم العسكر ورموهم رشقا واحدا بالسهام فقتل من هلنكة أربعمائة وستون نفرا وجرح منهم خلق كبير. ولم يتمكن العسكر من أسرهم فأنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر وقتل منهم اثنان من ملوكهم، على ما حكاه من اجتمع بهم من غلمان العسكر. وكان سبب اجتماعهم بهم وسلامتهم منهم، أنهم كانوا انقطعوا وراء العسكر وناموا فلحقهم كشافة هلنكة فمسكوا بهم، وأتوا بهم إلى أكابرهم فسألوهم من أين انتم، وكان فيهم من يعرف لغة القوم، فقالوا نحن تجار، أغار علينا هذا العسكر ونهبونا وأخذوا أموالنا وأسروا، فلما قاتلوهم هزمنا منهم، فرقوا لهم وأطلقوهم. وذكروا لهم عدة من قتل منهم. ولما انهزمت هذه الطائفة من هلنكة تحصنوا بالأشجار وتركوا أحمالهم،فأخد العسكر منه ما قد زاد على جملة من الذرة وليس لهم طعام غيرها، وحملوا حاجتهم من الماء ورجعوا من هناك من يومهم على آثارهم، وذلك فى سادس شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة، وعادوا حتى انتهوا إلى أربينات. ولم يمكنهم الرجوع على الطريق الذى دخلوا منه لقلة المياه والأقوات والعلوفات، فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرا، فساروا على شاطيه عشرين يوما. وكانت دوابهم ترعى من الخلف ثم انتهوا إلى قباله الأبواب وأقاموا هناك وتوفر سيف الدين أبو بكر بن والى الليل فى الرسيلة من جهة متولى الأعمال القوصية الأمير سيف الدين طقصبا، إلى متملك الأبواب فخاف ولم يأت إلى العسكر، وأرسل إليهم بمائتى رأس بقر وأغنام وذرة،

- -

ونهب العسكر ما وجدوه بتلك الجهة من الذرة وتوجهوا إلى مدينة دنقلة، فى سبعة عشر يوما فى أرض كثيرة الأشجار والأفيلة والقرود والنسانيس والوحش الذى يسمى المرغفيف، فأقاموا ثلاثة أيام. وملكها عبد الله برشنبو كما تقدم، وأضاف العسكر وزودهم، توجهوا إلى ثغر أسوان ثم مدينة قوص، وأقاموا بها خمسة عشر يوما. وحصل للعسكر فى هذه السفرة مشقة كبيرة وكلفة عظيمة حتى بيعت قطيعة النعال بينهم بخمسين درهما. وابيع رطل البقسماط بدرهم ونصف فى المراكب لأمرين: أولهما عدم الطهر. ومنها أن النيل كان قد عم البلاد وقطع الطرق إلا الجبال، وكان وصول العسكر إلى القاهرة المحروسة فى يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الآخرة سنة سبع عشرة.

ملحق رقم ١٧

المكاتبة إلى أهل الجانب الجنوبى ممن جرت العادة بالمكاتبة إليه من العرب

عن القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٨، ص ٥.

وقد ذكر في «التثقيف» ممن كوتب منهم جماعة بالطرقات الموصلة من الديار المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها، ثم قال: ولعل هؤلاء أيضا من عربان الممالك المحروسة، غير أنه لا إقطاعات لهم، وعد منهم ثمانية أشخاص وذكر أنه كتب إلى كل منهم الاسم ومجلس الأمير:

الأول: سمرة بن كامل العامرى.

الثانى: عباد بن قاسم.

الثالث: كمال بن سوار، قال: وهو مستحدث المكاتبة فى العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

الرابع: جنيد شيخ الجوابرة من الهكارية بأبواب النوبة. قال: وهو مستحدث المكاتبة فى سنة تسع وستين وسبعمائة.

الخامس : شريف شيخ النمانمة، بأبواب النوبة أيضا، ومكاتبته مستجدة حينئذ.

السادس: على شيخ دغيم.

السابع: زامل الثانى.

الثامن : أبو مهنا العمرانى.

ملحق رقم ١٨
الممالك والمشيخات التى دخلت فى حلف مع الفونج
بواسطة العابد الاب أول القرن السادس عشر الميلادى

نقلا عن نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث.

وجغرافيته، جـ٢ ، ص ١٠٣ .

مشيخة الشنابلة: قامت على النيل الأزرق شمالى سنار، ومركزها المسلمية وأشهر مشايخها الشيخ شنبول الذى قتل فى أيام الملك عدلان الثانى.

مملكة الجموعية: امتدت غرب النيل الكبير والنيل الأبيض من عقبة قرى إلى الترعة الخضراء، ومركزها الفيزان المنسوبة إلى أولاد الملك المحينسة. وكان أهم فروعها الجميعاب والسرواب والفنيحاب وأقواهم الجميعاب.

مملكة الجعليين: قامت فى شمالى مشيخة العابد الاب على أنقاض مملكة مروى القديمة بين حجر العسل والدامر ومركزها شندى وكانت مملكة قوية تولاها فرع من الجعليين يعرف بالسعداب.

مملكة الميرافاب : فى شمالى الجعليين بين القرن ووادى السنقير، ومركزهم بربر ولهم ككر وطاقية.

مشيخة المناصير: امتدت من الشامخية إلى الشلال الرابع.

مملكة الشايقية: قامت على أطلال مملكة نبته القديمة وامتدت من الشلال الرابع إلى أبى دوم قشابى ومركزها مروى. وهى مملكة عربية محضة. وقامت فى شمالها مملكة الدفار ودنقلة والخندق وأرقو. وهى ممالك نوبية أو عربية منوبة.

قائمة باسماء ملوك النوبه الشمالية «مقرة»

الملك	التاريخ
سلكو	٥٣٦م
أيربانم (ارجمنيز)	٥٥٩ أو ٥٧٤م
قاليدور	٦٥١ - ٦٥٣م
زكريا بن باركى	٦٤٥ - ٦٥٥م
مرقوريوس	٦٩٧ - ٧١٠م
زكريا بن مرقوريوس	
سيمون	
ابرام	بين ٧٤٤ - ٨٦٨م
ماركو	
كيرياكوس	
ميكائيل	فى أواخر القرن الثامن
يوحنا	؟؟؟
زكريا اسرائيل الثانى بن يوحنا (يحنس)	٨٢٢م
جورج الأول بن زكريا	٨٧٣ - ٨٩٢م
زكريا الثالث بن جورج الأول	؟؟؟
كبرى بن سرور	٩٤٣م
جورج الثانى	٩٦٩ - ١٠٠٢م
رفائيل	١٠٠٢ - ١٠٠٦م
سالمون	١٠٨٠م
باسيل	١٠٨٩م
جورج الثالث	١١٣٠ - ١١٥٨م
داود الأول	١٢٧٣ - ١٢٧٣م
داود الثانى ابن داود الأول	١٢٧٤ - ١٢٧٧م
شكنده أبن أخت داود الأول	١٢٧٥ - ١٢٧٦م

برك	١٢٧٩ - ١٢٩٠م
سمامون	١٢٧٦م
ابن احدى أخوات سمامون	١٢٨٨م
عودة سمامون للملك للمرة الثانية	؟؟؟
أحد أبناء أخت الملك داود الثانى	١٢٩٠م
عودة سمامون للملك للمرة الثالثة	١٢٩٠ - ١٢٩٣
آنى	؟؟؟
بدمة	؟؟؟
أماى	١٣٠٤ - ١٣٠٥م
كرنبس	١٣١٣م
عبد اللله برشمبو النوبى	١٣١٦م
كنز الدولة	١٣١٧م
ابرام شقيق كرنيس	(حكم ثلاثة أيام)
كرنبس ثانيا	١٣٢٣م
كنز الدولة ثانيا، ونهاية المملكة المسيحية الشمالية	١٣٢٣م

قائمة : ملوك «مقره».

مطالعات فى الفكر الإسلامى
من العصرين الأموى والعباسى
مؤلفات سياسية

يدخل علم السياسة حسب تصنيف العلوم عند المسلمين فى باب العلوم العملية التى تضم ثلاثة فروع موضوعها الأعمال الصادرة عن البشر. أولها علم الأخلاق وهو ما يختص الفرد، ثانيهما علم تدبير المنزل ويتعلق بنظام الأسرة. أما الأخير فموضوعه أحوال أهل البلد بجملتهم وهو علم السياسة. وقد عرف بأنه علم يتناول أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات المدنية وأحولها. ويطلب هذا العلم لمنفعته وليس لذاته، أما منفعته فهى معرفة الاجتماعات المدنية الفاضلة ـ أى أنظمة الحكم العادلة ـ والتوصل به إلى الوسائل المؤدية لاستبقائها ومكافحة أسباب زوالها. والمحتاج إلى هذا العلم هم أهل السلطة أولا ثم سائر الناس لأن الإنسان مدنى بالطبع ويجب عليه اختيار المدينة الفاضلة مسكنا والهجرة عن الفاسدة، كما يجب عليه أن يعلم كيف ينفع أهل مدينته وينتفع بهم. والطريق إلى ذلك هو علم السياسة، الذى يجب على الفرد العادى أن يلم به ليوصله إلى حياة مدنية فاضلة، ويأتى هذا التوجيه ضمن المجرى الذى اتخذه علم السياسة فى العصور الاسلامية متجاوزا حد الاختصاص إلى قدر معين من الشمول.

ينقسم علم السياسة إلى فروع أولها علم آداب الملوك وهو معرفة الاخلاق والملكات التى يجب أن يتحلى بها الملوك لتنظيم دولتهم. والثانى علم آداب الوزارة وموضوعه أوصاف الوزراء وقوانين الوزارة.. والثالث علم الاحتساب ويشمل النظر فى أموال أهل المدينة وتطبيق القوانين المقررة اصطلاحا أم شرعا، والقائم بهذا الأمر هو المحتسب. أما الفرع الأخير من علم السياسة فهو علم قيادة الجيوش.

ضمن هذا التصور لعلم السياسة وضعت مؤلفات حاولت أن ترسم الصورة المثلى للعمل السياسي بدراستها للقواعد التي يتعين الاهتداء بها في إدارة شؤون الدولة. وقد استند الكتاب السياسيون إلى معيار المنفعة وهو معيار عملي بحت قد يفسر بدوره خلو مؤسساتهم قبل مقدمة ابن خلدون من الشروح المختصة بفلسفة الدولة وعدم ظهور ميل قوى إلى تنظير السياسة.

اشتملت فهارس المؤلفات السياسة على صنفين عريضين: ما يختص بعرض الوجه القانوني للدولة وقد عرف باسم الأحكام السلطانية. وما يختص بفن الحكم ـ الدهاء.

الأحكام السلطانية

يشير هذا الاصطلاح إلى المبادئ التي كرستها الشريعة لتنظيم السلطة. وهي فرع من الفقه عولجت أحكامه ضمن سائر المواد الفقهية ثم أفردت له بعض المؤلفات المستقلة. ويعد كتاب الخراج أول الكتب التي استقلت بعرض هذا الموضوع. وضعه أبو يوسف بعد تعينه قاضيا للقضاة من قبل هارون الرشيد. وذكر في مقدمته أن الخليفة سأله أن يضع له «كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي ـ أي الجزية ـ وغير ذلك مما يجب النظر فيه والعمل به..». وقد مر بنا أن السلطة الاسلامية بعد الرشيدين لم تعن بالبحث عن أساس دستوري لسياستها فمن المحتمل أن يكون الرشيد قد احتاج إلى الإلمام ببعض المبادئ العامة للسياسة المالية بوجه خاص دون أن نحمل طلبه على الرغبة في تقييد سياسته بأحكام الشريعة.

يشتمل كتاب الخراج على الفصول التالية:

الفئ والخراج. أحكام أرض السواد والشام والجزيرة. ذكر القطائع. أحكام الأراضي التي افتتحها النبي. موات الأرض.. أحكام متعلقة بأهل القرى والأمصار. ما يخرج من البحر. الضرائب والصدقات. إجارة الأرض، أحكام الجزر في الأنهار. الآبار والأنهار ومياه الشرب. المراعي. وسائل وأسس الجباية. أحكام حول أهل الذمة والمجوس والوثنيين والمرتدين. عشور التجار والعقوبات. رواتب القضاة والعمال. شؤون عسكرية.

يفهم من هذه العناوين أن كتاب الخراج مفرد في المقام الأول للشؤون المالية والاقتصادية لأن القسم الأكبر من فصوله منعقد على قضايا الزراعة والتجارة والضرائب. وإذ كان غرض المؤلف بيان أحكام الشريعة في هذه الأمور فقد عني باستقصاء الخطى التي اتبعها محمد

وخلفاؤه بخصوصها. واقتضاه ذلك سلوك طريق أهل الحديث رغم أنه من أتباع مدرسة الرأئ التى أسسها أبو حنيفة. ومن هذه الجهة يخدم كتاب الخراج تاريخ الحديث كأقدم مصدر من مصادره بعد مؤطأ مالك بن أنس. على أنه رجع فى الأمور المختلف عليها، أو التى لم يرد فيها نص قاطع إلى رأيه الشخصى.

ويلاحظ أن انتماء أبو يوسف للسلطة لم يحل دون تضمين كتابه مقترحات جدية لإصلاح بعض الأوضاع القائمة، فعقد فصلا فى تقبيل السواد، يعنى التزام جبايته لقاء مبلغ إجمالى يدفعه الملتزم إلى الخليفة، بين فيه ما ينجم عنه من الفساد والظلم. يقول أبو يوسف [١]:

«ورأيت أن لاتقبل شياء من السواد ولاغير السود من البلاد، فإن المتقبل إذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لايجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه. وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية. والمتقبل لايبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته. ولعله يستفصل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك إلابشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامة لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه. إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو ـ أى ما فضل عن حاجتهم وقدروا على دفعه ـ وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم . وإنما أكره القبالة لأنى لاآمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ماليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج. وليس يبقى على الفساد شئ ولن يقل مع الصلاح شئ..». ولكنه استثى من كراهة التقبيل ما وافق عليه أهل الأرض واعتبروه أخف عليهم. واشترط فى هذه الحالة أن يعين موظف من قبل الخليفة مباشرة يكون رقيبا يمنعه عن التعدى والظلم.

أما عن موظفى الخراج فذكر أبو يوسف ما يجب أن يتوفر فيهم من الخصال المناسبة لوظيفتهم. وقد أوصى بالاحتياط فى توليتهم بالبحث عن أحولهم كما يجب فيمن يعين للقضاء. وأوجب أن يزود موظف الخراج بتعليمات مشددة تمنعه من عسف أهل الأرض أو احتقارهم أو الاستخفاف بهم. واستطرد من هنا فوصف أنماطا من الإساءات التى تصدر عن موظفى الخراج وهى بجملتها لاتخرج عن التصرفات المعتادة لرجال السلطة كالجلوزة

(١) ص١٠٥، ط. القاهرة ١٣٥٢هـ.

والتحاليل والتعذيب وابتزاز حقوق الآخرين، وشدد أبو يوسف على ضرورة حسم هذه الإساءات.

ثم أوصاه بعمارة الأرض فاقترح عليه فى حالة استخباره بوجود أنهار قديمة وأرضين متروكة أن يرسل خبيرا يثق به لدراسة أوضاعها والتأكد من إمكان استصلاحها وأن يأمر فى ضوء تقرير الخبير بحفر تلك الأنهار أو استصلاح الأرضين، على أن تكون نفقات العمل من بيت المال لما فى ذلك من المصلحة فى زيادة المعمورة من الأرض.

وتعرض بعد ذلك للإصلاحات التى يتطلبها انتظام الزراعة، فجعل نفقات كرى الأنهار العظام التى تأخذ من دجلة والفرات شركة بين بيت المال وأهل الخراج. أما الجداول الممتدة فى أراضيهم فإصلاحها يجرى على نفقتهم.، ولكن ما يجرى من أشغال وإصلاحات على الأنهار العظام كالمسنيات ومفاتح المياه وسد البثوق فنفقاتها على بيت المال وحده.

ولضبط موظفى الخراج دعا إلى التفتيش عليهم سرا باستخدام عيون يرصدون تصرفاتهم لمحاسبتهم على ما يظهر منهم من خيانة لبيت المال أوظلم لأهل الخراج. ولكن هذا الإجراء ليس ناجحا وحده إذ يتعين على الخليفة أن ينظر بنفسه فى مشكلات أهل الخراج وذلك بأن يعقد لهم مجلسا كل شهر أو شهرين. وعدد أبو يوسف فوائد هذا الإجراء على الوجه التالى(١):

«ولعلك لاتجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يسير ذلك فى الأمصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك فى أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه».

وفى فصل العقوبات تناول أبو يوسف أحكامها فى الشريعة ودعا إلى الوقوف فى تطبيقها عند هذه الأحكام. وثبت فى غضون ذلك توصياته بشأن معاملة السجناء وإصلاح السجون. ويستفاد من ملاحظاته أن حالة السجون كانت فى غاية التردى إذ كانت الدولة لاتتولى إعالة السجناء وتترك ذلك لأهاليهم ومن كان فقيراً سمحت له بالخروج مقيداً بالأغلال بحراسة السجانين للاستجداء. وإذا مات السجين لم تدفنه إدارة السجن فيدفنه رفاقه الذين معه فى

---

(١) الخراج، ص١١٢.

السجن. ويدفن السجين بغير المراسم الدينيه كالغسل والتكفين والصلاة. وقد أدان أبو يوسف هذه الأوضاع وقال للرشيد.. «وإن ابن آدم لايعرى من الذنوب» وإن ارتكاب الجرم ليس طبعا فيه بل هو راجع إلى أحد أمرين: الجهل أوالقضاء، مما يوجب عدم المبالغة فى العقوبة بحيث تصبح انتقاماً.

وقدم خطة لإصلاح السجون تتكون من البنود التالية:

١ـ تعيين موظف نزيه يتولى تسجيل أسماء السجناء من الذين لايملكون مصدرا للعيش.

٢ـ تخصيص مبالغ شهرية تدفع إلى كل واحد من السجناء المسجلين. وحدد مبلغ ما يدفع للواحد بعشرة دراهم فى الشهر.

٣ـ تأمين كسوتهم. وهى فى الشتاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وازاز، هذا للرجال. أما للنساء فقميص ومقنعة وكساء شتاء، وقميص ومقنعة وازار صيفا.

٤ـ أما السجين الذى يملك ما لا فالإنفاق عليه يكون من ماله الخاص.

٥ـ النظر فى قضايا المحبوسين، فمن استحق منهم عقوبة تأديبية أدب وأطلق، ومن لم يكن عليه شئ خلى عنه.

٦ـ منع ضرب السجناء.

٧ـ استخدام الوسائل الاعتيادية فى التحقيق وعدم تعذيب المتهم لحمله على الإقرار. فمن أقر على نفسه بالتعذيب فأقراره لايؤخذ به.

وفى عرضه لأصول التحقيق قال أبو يوسف بعدم جواز الإدانة استناد، إلى المعرفة الشخصية للقاضى. فإذا رأى القاضى إنسانا قد سرق فلايقيم عليه الحد حتى تقوم عنده بينة. وذكر أن هذا المبدأ مستند عنده إلى الاستحسان، وهو من أصول الاستنباط فى مدرسة أهل الرأى. والقضاء الحديث يأخذ بهذا المبدأ.

إن كتاب الخراج لم يستوعب، كما بينت، كل قوانين الدولة لتركيزه على الأحكام ذات الصلة بالمشكلات المالية كما يدل عليه عنوانه. إن الاستيعاب التام لهذه القوانين جاء فى مدة متأخرة عن كتاب الخراج وذلك بظهور كتابين فى عصر واحد يحملان اسما واحدا هو الأحكام السلطانية. مؤلفا الكتابين هما أبو الحسن الماوردى ٤٥٠هـ وأبو يعلى الحنبلى

٤٥٨هـ. وقد عاش المؤلفان فى بغداد أكثر حياتهما وكان الأول فقيها وقاضيا ورجل دولة. أما الثانى فهو فقيه ومتكلم حنبلى شغل منصب القضاء فى دار الخلافة.، إلا أنه لم يشغل بالسياسة، كالماوردى، وكان قد اشترط لقبول القضاء أن لايحضر المواكب الرسمية ولايخرج فى الاستقبالات ولايدخل مجلس الخليفة، فعين على هذه الشروط.

هناك تقارب شديد بين أسلوب هذين الكاتبين يرجح اعتماد أحدمها على الآخر دون أن نملك من الأدلة ما يوصل إلى معرفة السابق منهما. وقد طبع كتاب أبو يعلى فى القاهرة عام ١٩٣٨، أما كتاب الماوردى فقد حظى بعدة طبعات تبدأ بطبعة المستشرق ر. انكر فى بون ١٨٥٣ وتنتهى بطبعة مصطفى البابى فى القاهرة ١٩٦٠. وترجم إلى الفرنسية عام ١٨٩٥. كما ترجم فصولا منه المستشرق انكر ونشرها فى كتابه (أبحاث حول الملكية الريفية فى البلاد الاسلامية) المطبوع فى باريس ١٨٤٦. ثم اختيرت فصول منه ترجمت إلى الهولندية ذكر أنها أجريت لأغراض إدارية. وترجمه إلى الفرنسية مرة أخرى. أ. فاكنان ونشر فى الجزائر عام ١٩١٥ثم ظهرت له ترجمة انجليزيةفى ١٩٤٧. تعبر هذه العناية التى حظى بها كتاب الماوردى عن الأهمية التى يتمتع بها فى مجاله، دون أن نغض الغايات التى يتوخاها الغربيون من الاهتمام بكتاب يتحدث بالتفصيل عن النظم القانونية والإدارية لبلدان تقع تحت سيطرتهم.

محتوى الأحكام السلطانية

يضم كتاب الماوردى عشرين بابا وزعت على الموضوعات التالية:

- عقد الإمامة ويشتمل على فصول تعالج أحكام الخلافة.
- تقليد الوزارة - حول أحكام وزارتى التفويض والتنفيذ والشروط الواجب توافرها فى الوزير
- تقليد الإمارة على البلاد، يعنى تعيين الولاة على الأقاليم
- تقليد الإمارة على الجهاد، ويختص بقضايا الحرب.
- فى الولاية على حروب المصالح، وهى الحروب التى تخوضها الدولة ضد ثلاثة أطراف: أهل الردة وهم المسلمون إذا ارتدوا عن دينهم، وأهل البغى وهم الثائرون ضد الدولة من المسلمين. أما الطرف الثالث فهم المحاربون ويقصد بهم العابثون بالأمن كقطاع الطرق.

يلى هذه الأبواب:أحكام - ولاية المظالم أى القضاء المختص بالنظر فى الخلافات بين الدول

ورعاياها ـ ولاية النقابة على ذوى الأنساب وهم العلويون العباسيون. ثم الإمامة على صلاة، فولاية الحج وولاية الصدقات (الزكاة) وباب فى قسمة الفئ والغنيمة وهى الأموال المأخوذة من غير المسلمين كالجزية وعشور التجارة والخراج. يلى ذلك أبواب فى أحكام الأراضى الزراعية وباب فى أحكام الأسواق والشوارع ومنازل الأسفار كالخانات والفنادق وما أشبة. ثم باب فى الديوان وآخر فى العقوبات. أما الباب الأخير فمكرس للحسبة.

يشتمل كتاب أبو يعلى على نفس الأبواب ولكن من غير تبويب. أما تفاصيل الموضوعات فمتقاربة إلا أن الأخير يعطى الصدارة لاجتهادات أحمد بن حنبل لكونه حنبليا. ولغة الكاتبين مركزة تتماشى مع الغرض الذى استهدفه المؤلفان وهو عرض الأحكام القانونية بطريقة أقرب إلى التقنين منها إلى البحث. ولكن كتاب الماوردى يعانى من العيب الذى يشيع فى مؤلفاتة الأخرى وهو الإسراف فى الاستشهاد بالشعر والأخبار مما يمكن أن يستغنى عنه كتاب يخدم غايات تشريعية بحتة. وقد تخلص أبو يعلى من هذه الاستطرادات.

جاءت أبواب الكتابين شاملة للوجوه المختلفة لنشاط الدولة من وجهة نظر الشريعة. ولكننا نعلم أن الدولة الاسلامية منذ الأوان الأموى لم تكن تدار على أسس دستورية فما الباعث إذن على وضع هذين الكتابين؟ يقول الماوردى فى مقدمة كتابة: «لما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير، أفردت لها كتابا امتثلت فيه أمر من لزمت طاعتة ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له فيستوفية وما علية منها فيوفية توخيا للعدل فى تنفيذه وقضائه وتحريا للنصفة فى أخذه وعطائه..» أى أن الكتاب ألف بناء على طلب من أحد المسؤولين. ولعلها أن تكون رغبة زينها له المؤلف، الذى عبر بنفسة عن ضرورة كتاب من هذا الطراز لكون الأحكام السلطانية مدرجة فى مصادر الفقه ضمن الأحكام الشرعية الأخرى بما يصعب معه على رجال الدولة مراجعتها واستخلاصها لانشاغلهم فى أمور السياسة والدولة. ولاسبيل للاعتقاد بان الطلب وقع من هذا المسؤول بناء على التفكير بضرورة الحكم وفق دستورية مستقاة من الشريعة أو غيرها، إذ لم نجد من بين الذين اشتغل الماوردى معهم من رجال الحكم من كان يصدر فى تصرفاته عن هذه النية. أما يعلى فيذكر فى شرح السبب الباعث على تأليف كتابه: «إنى كنت صنعت كتاب الإمامة وذكرته فى اثناء كتاب المعتمد وشرحت فيه مذاهب المتكلمين وحجاجهم وأدلتنا

والأجوبة عما ذكروه وقد رأيت أن أفراد كتابا فى الإمامه أحذف فيه ما ذكرت هناك من الخلاف والدلائل وأزيد فيه فصولا أخر تتعلق بما يجوز للإمام فعله من الولايات وغيرها » يعنى أنه وضع الكتاب فى سياق اختصاصه كفقيه للفقه. وفى ظل الإهمال الرسمى للشريعة فإننا ملزمون بالوقوف عند هذه الاعتبارات وقد مر أن الدراسات الفقهية ازدهرت فى إطار نظرى وكانت تشبع حاجة علمية ودينية لدى المختصين فيها. وهو ما يفسر استمراها ليس فقط فى كل عصور الدولة الاسلامية وانما بعد ذلك، أى فى العصور التى شهدت زوال السلطان السياسى للاسلام. وبتأثير نفس العامل واصل الفقهاء تقنين الأحكام السلطانية ومن بينها أحكام الأراضى المفتوحة فى وقت تحولت فيه الأراضى الإسلامية إلى مستعمرات للفاتحين الجدد القادمين من أوربا وأمريكا. مهما يكن، فإن كتابى الأحكام السلطانية يعكسان الوجه القانونى المتفرض للدولة الإسلامية كما يعطيان القارئ فكرة مباشرة عن الجانب السياسى من شريعة الإسلام وفق الصيغة التى أخذتها الشريعة على يد الفقهاء.

الدهائيات

بدأ التأليف السياسى عند المسلمين على شكل مترجمات قام بها الكتاب المنحدرون من أصل فارسى. وتناولت الترجمة أدبيات ساسانية تدور حول الدهاء. وقد ذكر ابن النديم أن ابن المقفع ترجم كتابين أحدهما خداينامة فى السير والثانى كتاب التاج فى سيرة أنوشروان. وابن المقفع معاصر للبداية الحاسمة للترجمة مما يحمل على القول بأن الترجمات السياسية سبقت - أو زامنت على الأقل - ترجمة العلوم الأخرى التى نشطت منذ زمن المنصور. تلا ابن المقفع أبان بن عبد الحميد اللاحقى (٢٢٠هـ) وقد نسب إليه ابن النديم ترجمة كتابين فى سيرة أشير وسيرة أنوشروان. ثم ترجم البلاذرى(٢٧٩) عهد أردشير شعرا. ومن المحتمل أن لاتكون المترجمات المذكورة كتبا لأن المجتمع الساسانى لم يألف تصنيف الكتب فمن الأفضل أن ينظر إليها على أنها وصايا وعهود صدرت عن هؤلاء الملوك أو نسبت إليهم. والى جانب هذه المدونات، كانت هناك حكايات متداولة عن دهائيات ملوك الفرس الساسانين وقادتهم جاء بعضها عن طرق الرواية المرفوعة إلى العرب المعاصرين للحكم الساسانى، وبعضها عن طريق المثقفين الفرس الذين عاشوا مع العرب منذ الفتح الاسلامى للعراق وايران، وتكاثروا بشكل خاص فى العهد العباسى. وبصرف النظر عن صحة إسناد هذه المرويات فهى تؤلف مع

التـرجمات المشار إليها تراث السياسة والأخلاق للفرس الساسانين. وقد اعترف بالفرس فى الفترة الاسلامية أساتذه فى السياسة يضاهى مركزهم فيها مركز الإغريق فى الفلسفة. وانتشر بين المسلمين انطباع بأن السياسة الحكيمة والوعى العمرانى يكمنان فى الدولة الساسانية ويدين هذا الانطباع لعدة عوامل:

١ـ النفوذ الفارسى الذى أمتد فى الدور العباسى الأول إلى السياسة والثقافية والإدارة مقترنا بإحياء التراث الساسانى.

٢ـ اتخاذ الامبراطورية الساسانية مركزها فى العراق بما أدى إلى وضع العرب فى نقاط إجراءاتها وجعلهم على تماس مباشر بأعمال ملوكها وأخبارهم.

٣ـ الآثار العمرانية التى أحدثها الساسنيون فى المطارح شملها حكمهم خاصة فى العراق وإيران.

٤ـ اقتباس العرب نظم الساسانيين فى الادارة والضرائب والزراعة والكثير من قواعدالعمران. ويكفى هذا بحد ذاته فى وضع السياسة الساسانية موضع القدرة بالنسبة للتفكير السياسى اللاحق.

إلى جانب التراث الساسانى، اعتمد الكتاب السياسيون على مصدر قريب هو تجارب صدر الإسلام والدولة الأموية. وقد وفرت لهم معرفتهم الجيدة بتاريخ تلك الحقبة مادة سياسية ثمينة تألفت من سيرة محمد وخلفائه وفى مقدمتهم عمر وعلى، اللذين تشغل لافكار المنسوبة إليهما حيزا ملحوظا فى المؤلفات. ثم من سيرة الخلفاء الأمويين البارزين كعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز. وفى زمن متأخر دخلت سياسات العباسيين فى عداد العبر المستوحاه من تاريخ الاسلام.

العنصر الأخير فى الفكر الدهائى يتمثل فى الممارسات الشخصية للكتاب، وهم فى الغالب من المشتغلين بالسياسة كرجال دولة أو أعضاء فى الحاشية. وليس من شك فى أن معاناتهم للأحداث قد عززت قدرتهم على فهم أصول السياسة، خاصة عندما تكون هذه الأحداث على تلك الدرجة من التعقيد التى عاناها الكيان السياسى للإسلام فى أزمنته المختلفة. وقد وردت إلينا أكثر المؤلفات الدهائية من تلك الأحقاب التى شهدت التصدعات الحادة لهذا الكيان بسبب الصراع العاصف بين أطراف المجتمع الاسلامى، لتحمل من هنا بصمات الواقع

السياسى فى وعى الكتاب. ويمكن أن نضع على هذا الملاك ما سنقف عليه من إدراك عميق لأسرار السياسة يقترون بمخططات سديدة وضعها الكتاب بين أيدى سادتهم آملين أن تزودهم بالقوى العملية والفكرية التى تجعلهم قادة ناجحين.

وماذا عن التراث السياسى للإغريق؟ لقد اطلع المسلمون على بعض الآثار السياسة لهؤلاء الأساتذة الكبار ومنها بعض محورات أفلاطون كالجمهورية وتداولوا رسائل منسوبة إلى سقراط وأرسطو حيث يذكر ابن النديم مقالة فى السياسة لسقراط ومكتابات موجهه من أرسطو إلى تلميذه الإسكندر. ولم يصل إلينا شئ مما ذكره ابن النديم ولكن الفقرات المقتبسة من آثار سقراط وأرسطور فى الكتب الاسلامية تحمل طابعا إسلاميا طاغيا يحملنا على الإعتقاد بأنها نسبت إلى فلاسفة الإغريق من أجل أن تحظى بتثمين أكبر من القراء. أما سياسات أرسطو الحقيقة فلم تترجم. وربما كان إغفال هذه المتون المهمة لفيلسوف عنى به المسلمون أكثر من سواه راجعا إلى عدم توافقها مع مزاج العرب والشرقيين عموما بينما تركت محاورات أفلاطون بصماتها فى الفكر السياسى للفلاسفة، بفضل خلفياتها المشاعية المستمدة من تقاليد الشرق. وتحت تأثير أفلاطون كتب بن رشد مؤلفه الممتاز «جوامع سياسة أفلاطون». فإذا تركنا الفلاسفة جانبا، لم نجد لسياسيات الإغريق تأثير كبيرا فى المؤلفات الدهائية.

ترجع أقدم محاولات الكتابة فى أصول الدهاء إلى أوائل عهد الترجمة. وقد ترك ابن المقفع ثلاثة مؤلفات هى: الآيين والأدب الصغير والأدب الكبير. والأول مفقود أما الأخيران فقد وصلا إلينا وطبعا عدة طبعات وهما صغيرا الحجم كرسهما ابن المقفع للبحث فى الأخلاق الفاضلة وتطرق فى غضون ذلك إلى أخلاق الملوك وقواعد السلوك السياسى بما فيه تلك الأصول التى يتعين على الحاشية مراعاتها مع الملوك والولاة للحصول رضاهم واتقاء غضبهم. وفى وصاياه للملك نصحه ابن المقفع بالحزم وتعاهد الأمور الجسيمة بنفسه دون أن يحظر عليه التنعم واللهو كما أوصاه بالانحياز إلى الخاصة وإيثارهم بالعطاء والتكريم. وشغلت وصاياه للحاشية جزءا كبيرا من الكتابين بما يتناسب مع نمو حجم هذه الفئة آنذاك وحاجتها إلى مرشد يعلمها كيفية التعامل مع أوليائها. ولم ينس أبن المقفع مع ذلك أن ينبه الحاشية إلى مخاطر صحبة الملوك وأن يدعو إلى تحاشيها ما أمكن. واقتضاه ذلك أن يقدم وصفا دقيقا لأخلاق الملوك استقصى فيه ما تختص به من الشذوذ عن أخلاق عامة الناس.

ظهرت بعد ابن المقفع مصنفات دهائية لم تصل إلينا. منها كتاب للمدائنى (٢١٥هـ) بعنوان «آداب السلطان» وآخر لسهل بن هارون رئيس بيت الحكمة فى زمن المأمون عنوانه «تدبير الملك والسياسة» وكتابان لأحمد بن أبى طاهر (طيفور) - ٢٨٠هـ - الأول فى تدبير المملكة والسياسة والثانى كتاب «الملك المصلح والوزير المعين» (١).

وورد فى فهرس أعده ميخائيل عواد فى مقدمة تحقيقه لكتاب رسوم دار الخلافة ثلاثة كتب للجاحظ وهى التاج وآداب صحبة الملوك وآداب الملوك. ولم يتسير لنا الإطلاع على الأخرين لأنهما مخطوطان، أما الأول فمطبوع. ونسبته إلى الجاحظ موضع خلاف وقد استند منكروها إلى عدم ذكر الكتاب ضمن مؤلفات الجاحظ التى عدها فى كتاب الحيوان. ولكن ذلك ليس كافيا للشك فى نسبته إليه، فقد ورد فى المقدمة أنه ألف الكتاب للفتح بن خاقان وزير المتوكل أى حين كان الجاحظ قد قارب السبعين من عمره، مما يرجع أن الكتاب من مؤلفاته الأخيرة التى تلت كتاب الحيوان. وكتاب التاج يضم تعليمات حول سلوك الحاشية فى حضرة الملك تتناول المطاعمة والمنادمة والحوار معه والسلام عليه وعيادته إذا مرض. وتعليمات حول سلوك الملك فى مجلسه مع ندمائه وخواصه من الوفود. وفيه أبواب مخصصة لوصف أخلاق الملوك التى يجب أن يتميزوا بها عن بقية الناس ولوصف أزيائهم، مع باب لأصول السفارات. فالكتاب بمجمله يدور حول «الأتيكيت» والشؤون الشخصية، أى أنه من نفس نمط كتابى ابن المقفع السالفى الذكر.

ليس فى وسعنا معرفة ما إذا كان هذا الأفق الضيق الذى انحصرت فيه اهتمامات الجاحظ وابن المقفع هو نفسه ما صدرت عنه كتابات معاصريهما التى مرت الإشارة إليها، بالنظر إلى أنها لم تصل إلينا. ومهما يكن الحال، فإن كتاب العهود التالية قد تجاوزا ذلك إلى معالجات

---

(١) ينسب إلى نفس الوقت كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك تأليف شهاب الدين أحمد بن أبى الربيع بالاستناد إلى وهم وقع فيه حاجى خليفة صاحب كشف الظنون الذى ذكر الكتاب وقال إنه ألف للمعتصم المتوفى عام ٢٢٧هـ. وسرى هذا الوهم إلى بروكلمان فاعتبره أول كتاب عربى فى علم السياسة. والوهم ناجم فى الأصل عن تصحيف وقعت فيه بعض نسخ الكتاب المخطوطة حيث ذكر المعتصم بدلا من المستعصم الذى أرجح أن الكتاب ألف له. وهو ما نصت عليه مخطوطة باريس على هامش معيد النعم للسبكى. ولايغرب عن البال أن الألقاب المنسوبة إلى الدين، كلقب المؤلف، لم تكن متداولة فى عهد المعتصم مما يقوى ترجيحنا بأن يكون من رجال المستعصم. ومن نتائج هذا الوهم أن صاحب الأعلام خير الدين الزركلى ذكر ولادة ابن أبى الربيع فى سنة ٢١٨هـ ووصفه بأنه من رجال المعتصم الذى استخلف سنة ٢١٨هـ أى فى السنة التى قال إن ابن أبى الربيع ولد فيها ؟.

أشمل تناولت الوجوه المختلفة لنشاط رجل السياسة. وأقدم ماوصل إلينا من هذا النمط، وربما أفضلها أيضا، هى كتب الماوردى الثلاثة:

تسهيل النظر وتعجيل الظفر.

نصيحة الملوك.

قوانين الوزارة.

ينقسم البحث فى الكتاب الأول إلى بابين الأول فى أخلاق الملك والثانى فى سياسة الملك. **الباب الأول** يشتمل على دراسة للمبادئ الأخلاقية تعتمد على ثلاثة مصادر: أخلاقيات أرسطو، التقاليد الأخلاقية للعرب، والأخلاق الإسلامية. وقد استخدمت نظرية الأوساط الأرسطية فى تعيين الحدود بين المبادئ الأخلاقية المختلفة حيث نظر الماوردى إلى الفضائل بوصفها توسطا محمودا بين رذيلتين مذمومتين. إلا أنه سعى فى صياغة مصطلحاته إلى الربط بين مقتضيات البحث المنطقى والواقع العلمى. يتضح هذا الربط بشكل أفضل فى الفصل الذى تضمن النصائح الموجهة للملك حيث نجد شرحا لما يجب على الملك اتباعه للوصول إلى أخلاقية منتجة فى ضوء ما تم تنظيره فى الفصول السابقة. وكان مهيأ للماوردى أن يبتعد بذلك عن التجريد الفلسفى والوعظى للأخلاق، لولا الإسراف فى تطبيق نظرية الأوساط، الذى أوقعة أحيانا فى تكلف ممجوج.

فى الباب الثانى من تسهيل النظر بحث الماوردى قواعد الملك فقسمها إلى قسمين عريضين: تأسيس وسياسة. يتناول القسم الأول أسباب نشوء الدول وعوامل بقائها ــ المقصود هنا انتقال السلطة من يد إلى يد ــ أى نشوء الدولة على انقاض دولة أخرى وليس نشوءها ابتداء. وقد حصر أسباب التأسيس والدوام فى ثلاثة:

الدين. القوة. المال.

وعنده أن الدولة التى تقوم على الدين أقوى وأكثر دواما. وساق للبرهنة على ذلك فروضا متكلفة لايبدو أنه اضطر إليها إلابسبب العلاقة التى تجمعه بالدين بوصفه فقيها. أما القوة فتظهر بها الدولة الجديدة حين تتعرض الدولة القائمة للانحلال أو ينتشر فيها الظلم فيحدث فيها ثغرات ينفذ منها الطامعون. إن القوة الكافية لإقامة دولة تتطلب جيشا يجتمع فيه ثلاثة خصال: «كثرة العدد، شجاعة، قيادة مسموعة الكلمة». والاستيلاء على الملك بالقوة، يجعله

قائما على القهر ولكن إذا عدل أصحابه في الرعية وأحسنوا السيرة فيهم صار ملكهم ملك تفويض وطاعة. يعنى ملكا يستند إلى رضا الناس كما لو أنهم اجتمعوا فقرروا تفويض الملك للقيام بشؤونهم، نيابة عنهم. وبغير هذا الشرط يكون ملك القهر كالحكم الذى يقوم على البلطجة يصفه الماوردى بأنه «جولة توثب ودولة تغلب يبيدها الظلم ويترتب عليه هلاك الرعية وخراب البلاد» وهى نفس النتائج التى ترتبت على أى حكم تديره زمرة من الأشقياء. أما تأسيس الملك بالمال فيتم بأن يكون ذو المال مخالطا للسلطة فيستعمل أعوان الملك بالبذل لينحازوا إليه. ولايتم ذلك إلاعند ضعف الدولة وفساد الأعوان. والملك الذى ينتقل بالمال قصير المدة لعدم الثقة بأعوان يعتمد ولاؤهم على استمرار البذل لهم. ولكن هذا الملك يمكن أن يدوم إذا اقترن بسبب يقتضى ثبوته.

هذه الوجوه الثلاثة لانتقال الملك يقابلها عند أرسطو ثلاثة عوامل تقف وراء الانقلابات السياسية فى نظام الحكم الفردى، وهو نفس النظام الذى يستمد الماوردى ملاحظاته منه. والعوامل هى:

١.فظاظة الحكام.

٢.تحقير المرؤوسين.

٣.طمع المرؤوسين فى الحكم والثورة. أما فى الحكم الملكى المقيد بشريعة فالانقلاب يحدث على أحد وجهين: الأول خروج أعوان الملك على طاعته والثانى تحول الملك إلى طاغية بتعطيله للدستور. وبالمقارنة نرى الماوردى وأرسطو يعطيان للحاشية دورا اساسا فى الانقلابات ولكنهما يفسحان فى نفس الوقت مجالا لتأثير العامة يعبر عنه الماوردى بجعله ملك التفويض أكثر دواما بسبب استناده إلى رضا الناس، وعند أرسطو ما قرره بشأن السبب الأخير للانقلاب الذى يتعرض له الحكم الملكى حين يخرج الملك على الشريعة ويتحول إلى طاغية. ويعنى ذلك ، إذا استخدامنا تعبير الماوردى، تحول ملك التفويض إلى ملك قهر. أى إلى طغيان.

سياسة الملك تتألف من أربع قواعد:

عمارة البلدان: التنمية والإعمار.

حراسة الرعية: رعاية شؤونها.

تدبير الجند: الدفاع

تقدير الأموال: السياسة المالية.

فى شرحه للأولى قسم البلاد إلى نوعين: مزارع أى أرياف، وأمصار أى مدن. والمزارع هى الأصل الذى تقوم عليه حياة الدولة. وهى عنده مقياس الرخاء، فأى بلد انتعشت زراعته اكتفى بنفسه فلم يحتج إلى أحد وانما يحتاج إليه الآخرون فيكون فى وسعه اجتلاب المزيد من الاموال لقاء ما يصدره من المنتاجات الزراعية. وللريف على الملك ثلاث حقوق:

١- توفير وتنظيم المياه. ويلحق بهما توزيع المياه بالعدل ومنع التحكم فيها من ذوى السطوة.

٢- حماية المزاعين من العدوان والعسف لكونهم مطمع أنظار المتسلطين، حتى ينصرفوا إلى أعمالهم آمنين ولايتشاغلوا بالدفاع عن أنفسهم فيهملوا زراعة الأرض وعمارتها.

٣- تقدير الضرائب عليهم وفق الشرع والعدل مع التخفيف عنهم قدر الإمكان. ويعنى هذا من جهة تجنب فرض الضرائب الاعتباطية، ومن جهة اتباع الرفق فى الجباية. والسلطة التى لاتلتزم هذه القواعد هى ولاية قهر خارجة عن سيرة الإنصاف.

أما الأمصار فتحتاج إلى ستة شروط:

توفر المياه العذبة. توفر مصادر الميرة. صلاح البيئة. القرب من المراعى وغابات الاحتطاب. الموقع الحصين. وجود أرياف محيطة بالمدينة لتموينها بالغذاء. وهذه الشروط تختص بموقع المدينة. أما تأسيسها فيراعى فيه:

- توزيع المياه بطريقة يتسير الحصول عليها دون عناء.
- تقدير الطرق والشوارع بمقاييس تجعلها من السعة بحيث لاتثير مشكلة مرور لأهلها.
- بناء المساجد الكافية للصلاة.
- بناء الأسواق
- أن يراعى فى إسكان أهل المدينة توزيعهم على مجموعات متجانسة.
- تسوير المدينة وتخصيص باب لضبط الداخلين والخارجين منها الأغراض الأمن.

ـ أن ينقل إليها من أعمال أهل الصناعات والعلوم ما يسد حاجة أهلها إلى هذه الأشياء.

وإذا أراد الملك أن يتخذ المدينة مقرا له فعليه أن يسكن فى طرف فسيح منها ويجعل حوله حاشيته وأمراء الجيش ويفرق الحراس فى بقية الأطراف لحمايته من كل الجهات. وعليه بعد ذلك أن يسكن عامة أهل المدينة فى وسطها لتوفير الحماية لهم. وقد نصحه أن لايظهر للعامة كثيرا حتى لايلين فى أعينهم.

لاحظ الماوردى أن المدن على نوعين: زراعية، وتجارية. والأولى أفضل لأن مواردها موجودة فيها. واشترط أن تبنى المدينة الزراعية وسط المنطقة المزروعة حتى تتساوى الطرق الموصلة إليها من جميع الأطراف. ومن مزايا هذه المدينة أن أهلها إذا نالهم حيف من داخلها تفرقوا فى ريفها فعاشوا فيه وإذا نال أهل الريف حيف لجأوا إلى المدينة فأمنوا فيها. وهكذا يكون كل واحد منهما ملاذا للآخر. أما المدينة التجارية فتلائم مطالب الملوك أى أنها للترف والزينة وليس لإنتاج المواد ـ يلمح الماوردى بهذا إلى أن التجارة من الأعمال غير المنتجة ـ وأسلوب بناء هذا الطراز من المدن يجب أن يتماشى مع طبيعة النشاط الاقتصادى فيها.

إن الكلام على هذه القاعدة ـ عمارة البلدان ـ يشغل الجزء الأكبر من هذا الفصل، فهى الغرض المقصود من تأسيس الملك. أما القواعد الثلاث الأخرى فهى لواحق يقتضيها التطبيق الأمثل للقاعدة الأولى. ولكن القاعدة الثانية وهى حراسة الرعية تستمد أهميتها من الوجوب العقلى للعدالة فضلا عن ضرورتها لاستقامة الدولة. وقرر الماوردى للرعية حقوقا على الملك لاتتجاوز فى مجملها المقدار الذى حدده المنصور فيما سبق، وما وصل إليه التطور السياسى لمفكرى البورجوازية فى العصر الحديث. أما القاعدة الثالثة فهى تدبير الجند، والمطلوب فيها أن يتفرغ الجند للجندية مع تعليمهم فنون الحرب التى هى صناعة تجمع بين العلم والعمل. وأوجب الإنفاق على الجند بما يكفيهم واشترط لهم حدا وسطا فلا يزيدهم لئلا يصرفوها فى وجوه الفساد ويستغنوا بها فيتقاعسوا عن واجباتهم ولاتنزل عن قدر الحاجة فتشره نفوسهم إلى أموال الرعية أو تدفعهم إلى الخيانة. ودعا الملك إلى العناية باستخبارات الجيش لئلا يغيب عليه شئ من شؤون وتصرفات أفراده. ثم لفت النظر إلى أن سياسة الجند من أصعب ما يعانية المدبر للدولة لأنهم أداة البطش والقهر لديه مما يستدعيه أن يسوسهم بالحزم حتى ينقادوا له والاصار مقهورا لهم. وتشير هذه الالتفاته إلى واقع التغلب العسكرى على الخلفاء منذ مقتل المتوكل.

القاعدة الرابعة تخص السياسة المالية. وينص الماوردى على تقدير الاموال كمهمة أساسية للسلطة ولكنه يعترف بصعوبتها لأن الملك يرى بسبب قدرته إمكان بلوغ كل غرض بأية وسيلة يختارها مما يبعث على الاختلال. إن السياسة المالية الحكيمة تقتضى مبدأين:

الأول تقدير الدخل أى الإيردات. ويشترط لاستقامته أن يكون مقيدا بما نصت عليه الشريعة بلا زيادة أو نقصان.

الثانى تقدير الخرج، أى المصروفات، ويخضع هذا لاعتبارين هما المطلوب والممكن، حتى لايقع تعسف فى الإنفاق يعجز عنه الدخل. وقاس حال الدولة على ذلك فأوضح أن الملك الذى يزيد فيه الدخل على الخرج هو الملك السليم لوجود احتياطى للنوائب تأمن الرعية به من التعدى إلى أموالها. أما الملك الذى يقصر فيه الدخل عن الخرج فهو الملك المعتل. وصاحب السلطة يضطر فى هذه الحالة إلى مخالفة لوازم الشرع وقوانين السياسة فى جباية الأموال فيهلك الرعية، وقد يقتدى به العسكريون فلايقوى على منعهم.. هناك حالة ثالثة يتكافأ فيها الدخل والخرج وفيها تكون الدولة سليمة الأوضاع فى زمان السلم ولكنها تختل إذا دهمتها الحوادث من حروب وغيرها. وعلاج هذا الوضع يكون بإحسان الملك إلى رعيته وعدله فيهم فى الظروف الاعتيادية حتى يكونوا له عونا إذا اختلت أموره. لأن استعداد الناس للتضحية من أجل السلطة يكون رهنا بالمكاسب التى وفرتها لهم.

يواصل الماوردى سرد قواعد السياسة الناجحة فيتحدث عن أعوان الملك مبينا أنهم كأعضائه التى لايتحرك إلابها. فعليه أن يحسن اختيارهم من الكفأة المخلصين وأن يعمل على تهذيبهم ومراقبتهم. ولما كان الكفاة أقلة فعلى الملك أن لايضيعهم وأن يختارهم دون النظر إلى أنسابهم أو ما ضيهم فى السيادة والجاه فإذا نفرت النفوس من صعودهم المسرع فعلى الملك أن يدرجهم فى الرتب حتى يتعود الناس عليهم. ثم بين مراتب الكفاة فحصرها فى أربعة: الوزراء القضاة، قادة الجيوش، موظفى الخراج. واستطرد فى وصف ما يجب أن يتوافر فى أصحاب هذه المراتب من المواصفات. ثم ذكر مراتب أخرى أوصى الملك بالتعامل معهم بحسب منزلتهم منه فى الخدمة وحثه على مراعاة الحدود الطبقية فى ذلك، والماوردى كما نعلم رجل دولة وعضو فى الأرستقراطية الحاكمة.. ثم اقترح على الملك أن يكتفى بعدد مناسب من الأعوان فلا يستكثر منهم لأن الاستكثار بعد الإكتفاء تضييع للمال. إلاأنه استدرك

فنصحه بعدم تضييع ذوى الكفاءة فإذا وجدهم ولم يجد لهم عملا فعليه أن يدخرهم لوقت الحاجة. ولم يضع خطة للطريقة التى يدخر فيها الأعوان. هل يحفظون كما تحفظ الأموال إلى أن تحين الحاجة إليهم؟وكيف يتعامل معهم أثناء عطالتهم؟

يعقد الماوردى بعد ذلك فصلا للنوائب التى تصيب الملك فصنفها إلى صنفين: فساد الزمن وتغير الأعوان. والأول على نوعين: ما يحدث عن أسباب إلهية وما يحدث عن عوارض بشرية الأولى هى الأقدار. والماوردى كرجل دين يؤمن بالإرادة الحرة للخالق أو مايسمية صدر الدين الشيرازى الإدار ة الجزافية. وهو يعتقد، كما يفهم من تسلسل آرائه فى هذه المسألة، أن الله يتدخل فى أمور الملك مباشرة فيمتحنه ببعض النوائب. ولمواجهتها يوصيه بأمرين: أن يصلح سريرته وسرائر رعاياه، يعنى أن يتدارك أخطاءه ويصفى نيته. وفى هذا الصدد يدلى بحديث نبوى يقول:« إذا جارت الولاة، قحطت السماء» . فما يصيب الملك من البلاء قد يكون نتيجة لجوره فى الحكم مما يستجلب معه غضب الخالق.. نود أن ننبه القارئ إلى أن الماردى تفصيلا يستشهد فى مؤلفاته الدهائية والاجتماعية بأحاديث مرفوعة إلى النبى لاتوجد فى مصادر الحديث المعتمدة ودون أن يعنى بالتأكد من صحة الحديث لأنة لايتوخى فى هذه المؤلفات غرضا تشريعا.. الأمر الثانى أن يواجه القدر برباطة جأش لأن القدر كالعاصفة إذا هبت وجب عدم معاكستها حتى تمر. ولا يعطى الماوردى تفصيلا للنوائب التى تنزلها السماء بالملك.

أما العوارض البشرية فتحسم بحسم أسبابها ولكن بعد الوقوف على السبب الحقيقى. وهو أصعب ما فى هذه السياسة. ويتعين على الملك أن يعيد النظر فى سياسته إذا تبين له أن العوارض حدثت بسببها، فإذا كان ذلك قد حدث عن شدة وعسف منه تراجع اللين والعطف، وإذا كان قد حدث عن تهاون عالجه بالشدة. والأسباب تحسم بأضدادها كما تعالج الأمراض بمضاداتها من الأدوية.

هذا عن فساد الزمن، ونأتى إلى تغير الأعوان فنراه مردودا إلى أحد أمرين: أن يكون تعدى إليهم من الخارج إما لتقصير من الملك بحقهم وعدوان منه عليهم وإما لإغراء وقعوا فى شباكه. ويجب صد الأخير بالحزم والحذر وبسياسة يمتزج فيها الإغراء والإرهاب. أما التقصير والعدوان فالملك مسؤول شخصيا عن إزالتهما.. الحالة الأخرى من تغير الأعوان هو ما يحدث

لفساد في ذواتهم أى لتغير في ولائهم بسبب من الأسباب غير ماذكر آنفا، وهو أخطر من الأول، وإصلاحه وحسم دواعيه يتقرر بموجب قواعد السياسه في تدبير الدولة. والدولة تساس بثلاثة أمور، القوة والرأى والمكيدة. ولكل من هذه أحوال تستخدم فيها، ففي بداية الدولة حيث لم تتوطد أركانها بعد يمكن الجمع بين هذه الأمور الثلاثة بينما يمكن الاستغناء عن المكيدة عند استقرار الدولة ويكتفي بالقوة لحفظ قواعدها المستقرة، وبالرأى الجامع للسياسة العادلة.. والأخير يجب اتباعه في تدبير الرعية في الأحوال الاعتيادية، فإذا اضطربت الأمور وفسدوا فتستعمل القوة لردع المفسدين ،إلى جانب الرأى. ولايجوز استعمال المكيدة مع الرعية في أى حال. ولكن يجوز استعمالها مع الحاشية وأعوان الملك. ويعطى الماوردى تفصيلات دقيقة عن الأساليب التى يلزم اتباعها مع هؤلاء وفق الحالات التى يكونون عليها. ويرجع اهتمامه بهذه المسألة إلى تفاقم دور الحاشية في المرحلة التى عاصرها من الحكم العباسى، ومن المؤكد أنه كان يتوخى أن يضع بين يدى الخليفة، الذى كان الماوردى من رجاله الخلص، أسسا صالحة لاستخدام الأعوان والسيطرة على نشاطاتهم.

ويكتب عن الولاة فيوصى باختيارهم من أهل البيوتات وأن يمتنع عن استخدام العوام في أعمال الحكومة. وهو بذلك يناقض نفسه فقد مر بنا قبل قليل وصيته في استخدام الكفاة دون النظر إلى مكانتهم. ثم أوصى بعدم تنقيل الولاة. فما دام الوالى مرضى السيرة وجب إقراره في عمله، لأنه إذا علم أن مكثه في عمله قليل عمل لسوق يومه واحتجن[١] الأموال تأهبا لليوم الذى يخرج فيه من عمله. فإذا كان مطمئنا إلى بقائه في منصبه نظر المزارعين في زرعهم يفكر في إصلاحه ولايعالجه قبل أن ينضج! وحث الملك على عدم محاسبة موظفيه على مااكتسبوه في وظائفهم لأنهم قد يكتسبون بحكم المنصب من مباحات الوجوه مالاتبعة فيها عليهم[٢].

تحدث الماوردى بعد ذلك عن الاستخبارات فأوجب أن يضع تحت طائلتها الرعية والحاشية

---

(١) احتجن: تؤدى هنا معنيين في وقت واحد هما الابتزاز والاكتناز.

(٢) حرم مسلمو صدر الاسلام كسب المسؤولين حتى من الوجوه المباحة كالهدايا. واعتبر السبب الذى جعله الماوردى وجها للكسب المباح مناطا للتحريم لأن مايكسبه الموظف بفعل مركزه الرسمى داخل في باب الغلول. وقد أشار الطرطوشي في«سراج الملوك» إلى مشاطرة عمر بن الخطاب لعماله، أى مصادرة نصف أمواهم، وقال تعليلا لها: كأن عمر رأى ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فلا يستحق ذلك لأن له بالأمرة بالقوة على أن ينال من الحلال مالايناله غيره..

والموظفين. ويبرر ذلك بأنه لايقدر على رعاية قوم تخفى عليه أخبارهم،فربما خفيت عليه أمور من الفساد والخيانة تفضى إلى انحلال الملكة. وربما شجعت غفلة الملك على حبك أسباب الكيد ضده فتقوى المؤامرات ويشتد خطرها. وأفضل طريقة للاستخبار هى التى تعتمد على ضربين من المخبرين؛ مكشوف ومستتر أى علنى وسرى. وسيساعده ذلك على أن يكون معروفا باليقظة فتأمن الرعية إلى حسن حراسته لها كما يتهيب أعوانه فعل الشر خوفا من الافتضاح. وحث الماوردى على متابعة تقارير المخبرين وقراءتها بإمعان لأنها تقدم؛ إلى جانب قيمتها الاستخبارية، فوائد وغرائب لاتخلو من متعة وموعظة.. والاستخبارات يجب أن تمد إلى سائر أنحاء المملكة وإن كانت عناية أكبر يجب أن تصرف إلى البعيد عن العاصمة لأن بعد الدار إذا رافقه قلة الاستخبار يبسط أيدى الظلمة فى الرعية والمملكة ويعرض كلتيهما لخطر التآمر والكيد، وربما أفضى ذلك إلى فسادهم فى الطاعة، وكثير من العصيان يبدأ بإهمال الملك واسترسال الأعوان فى مخالفتهم. ولايصح أن يقتصر الاستخبار على فئة دون أخرى من الأعوان فتهمل مراقبة الصالحين منهم تعويلا على حسن الظن بهم لأن الأمناء عرضة للتلقب.

ينبغى القول إن تشديد الاستخبارات إلى هذا القدر يتناسب مع حاجة الحكم الا ستبدادى والفردى. لأن المستبد يواجه باستمرار خطر التآمر، ربما بسبب انفراده بمزايا السلطة مما يثير عليه الطامعين، الذين يجدون عنده نفس المؤهلات ولايملكون فى مقابلها نفس المزايا، وربما أيضا بسبب الحاجز الذى يضعه الحكم المستبد بينه وبين الشعب بما يجعل من العسير معرفة ما يعتمل فى داخله من رغبات ونوايا بغير الاستخبارات. وقد علمتنا تجارب السياسة المعاصرة أن جهاز الاستخبارات يتسع فى الأنظمة المعزولة عن الشعب، لاسيما تللك الأنظمة ذات النهج القمعى الفاشى التى يدفعها الشعور بالعزلة والخوف الدائم من السقوط إلى توسيع الاعتماد على أجهزة القمع والتجسس. على أن الماوردى وهو يدعو إلى تنشيط الاستخبارات لايظهر ميلا إلى تشديد القمع.، وقد بدا وهو يتحدث عن هذا الموضوع مهتماً بتيقظ الملك كشرط للمحافظة على حكمه من العبث. وطبيعى أن اليقظة فى حكم فردى تعتمد، حصرا، على جهاز الاستخبارات. وقد أخضع الماوردى ضرورة هذا الجهاز لاعتبارين: الأول ما يسمية حقوق الاسترعاء أى مطالب الوضع الداخلى بما فى ذلك حماية الرعية. وهو المقصود بحقوق الاسترعاء. الثانى ما توجبه حقوق السياسة وهذا يشمل التجسس على ما تاخم المملكة من

دول، ليس فقط على سبيل التيقظ ضد النوايا السيئة للجيران وإنما أيضا لأن صلاح هذه الممالك وفسادها يسريان فيما جاورها.

نقرأ بعد هذا فصلا للبحث في شئون العملة، يوجب فيه على الملك أن يحافظ على عيارات النقود من الدراهم والدنانير فلا يسمح بغشها. ونهاه عن إلزام الناس بقبول النقود المغشوشة لأنه يحملهم على ترك التعامل بها إلى الذهب والفضة الخالصين. ويعنى ذلك استهلاك أصول الأموال مع ضعف القدرة الشرائية إلا لعدد محدود من الناس هم أرباب الأموال الجمة. وفساد النقد يفضى إلى فساد أمور المملكة. هذا مادل عليه العرف. ولايتم للدولة شئ من الازدهار والطمأنينة بغير استقرار قانون الأخذ والعطاء.

تكلم الماردى عن الضرائب وهو فى صدد الحديث عن النقود فحذر من زيادتها عما أوجبه القانون الشرعى. أو من فرض ضرائب لم ينص عليها. وكانت السلطة الاسلامية قد اتبعت هذا الخط منذ الأمويين فتصرفت فى نسب الضرائب المقررة، كما فرضت ضرائب جديدة شملت المزارعين وأهل المدينة. وتعرف ضرائب المدن غير المنصوص عليها فى الشريعة باسم المكوس. وقد جوبهت هذه السياسة باستنكار من قبل المعارضة السياسة كما أدانها الفقهاء. ويجد القارئ فيما يلى وصفا للأوضاع الناجمة عن التعسف فى فرض الضرائب يبدو أنه مستمد من واقع الحال. وقد لفت الانتباه إلى أن زيادة الضرائب تستلزم العنف لتحصيلها لأن الناس لايدفعونها عن طيب خاطر مما يترتب عليه نفور الرعية من الحكم، مع اشتطاط الموظفين الذين يجدون فى مثل هذه الأحوال فرصا للكسب الحرام. وينتهى هذا كله إلى عكس المطلوب وهو نقص حصيلة المأخوذ من الضرائب، وذلك بسبب المماطلة فى الدفع مع ما يلحق الزيادة فى الضرائب من انفتاح أبواب جديدة للصرف يؤدى إلى زيادة النفقات فى مقابل الزيادة الحاصلة فى واردات الضريبة.

تشغل خصومات الملك حيزا مهما من تسهيل النظر. ومن رأى الماردى أن على الملك مداهنة الأعداء قبل مكاشفتهم بالخصومة. ودعاه إلى دفع الحرب بالمكيدة ما استطاع سبيلا إلى ذلك لأنه فى المكايد لايخسر ألا الأموال وبالحروب يخسر من الأرواح. وقسم الأعداء إلى ثلاثة أصناف أعطى لكل منها نوعا من التعامل بسبب حظه من القوة، فأوصاه، بانتهازية مكشوفة، أن يلاطف ويلاين الأقوى وأن يتطاول على من هو أضعف منه وأن يقارب ويسالم

من يكافئه فى القوة.. فإذا لم تنفع المداهنة نظر فى أمر الحرب فدرس ما يتوقعة من نتائج الفوز والخسارة ليضع خطته فى ضوئها. وهو يبنى التوقع على ثلاثة احتمالات تتصل بسيرة الملكين المتخاصمين:

١ـ أن يكون الملك أعدل.

٢ـ أن يكون عدوه أعدل.

٣ـ أن يتكافآ فى العدل.

والعدل هو العامل الحاسم فى ترجيح كفة أحد الخصمين. ويؤخذ من تعليله لذلك أنه راجع أولا إلى القيمة الذاتية للعدل بوصفه من أركان القوة الروحية. ثم إلى موقف الرعية من الملك فإذا كان عادلا وقفت وراءة فى حربه وإن كان جائرا خذلته وربما نصرت عليه خصمه. ولذلك يجب على الملك أن يخوض الحرب بلا تردد إن كان واثقا من عدله ومن حب رعاياه، والاوجب عليه التروى ودفع الحرب بالكيد والحذر. أما عند التكافؤ بين الملكين فى العدل فقد أدلى بتحليل مبهم يقول فيه إن الزمان فاسدا مالت احتمالات الظفر يكون إلى جانب الملك الذى أعوانه أصلح وإذا كان الزمان فاسدا مالت احتمالات الظفر إلى من كان أعوانه فاسدين، بسبب المناسبة بين الزمن والأعوان فى الصلاح والفساد. وفكرة صلاح الزمان وفسادها من الأفكار الغامضة التى ترددت فى الفكر الاسلامى دون أن يكشف عن مقاصده. وقد استخدم تعبير الزمان فى اصطلاحات فضفاضة تشمل المجتمع والسياسة وأخلاق الناس مقترنة فى الغالب بتعلقات غيبية تضفى على الزمان معنى مقاربا للقدر أوأشد غموضا منه. ومن العسير أن نستخلص أى مغزى من الطريقة التى استعمل بها الماوردى هذا الاصطلاح، وإن كنا نلمح من بعيد فكرة قلقة عن التناسب بين الظروف وأسلوب العمل. ويبدوا أن ما يعنية القول بأن الملك فى الزمان الفاسد يحتاج إلى أعوان فاسدين لكى يكسب النزال مع خصومه.

يختتم كتاب تسهيل النظر بفصل يحث فيه المؤلف على مراعاة المبادئ الدينية وتقريب علماء الدين. وتختلف هذه الدعوة فى جوها عن الدعوة التى تكررت فى الفصول السابقة من الكتاب إلى التقيد بأحكام الشريعة. فالأخيرة تهدف كما بينا مرارا إلى توفير قواعد دستورية تحكم الدولة بموجبها وتمنع الملك من إدارة ممتلكته وفقا لمزاجه الشخصى. أما مراعاة الدين فتهدف إلى تأكيد الصفة الدينية للدولة. وهى تتمثل، تطبيقا، فى رعاية، رجال الدين والمؤسسات الدينية والسهر على شؤون العبادة.

نصيحة الملوك

هذا الكتاب لايزال مخطوطا كسابقه. وهى ضمن مجموع يحتوى على كتاب معيد النعم للسبكى وعلى هامشه سلوك المالك لابن أبى الربيع. وتقع مخطوطة نصيحة الملوك فى ٩٨ورقة مكتوبة بخط جيد يرجع تاريخ نسخه إلى عام ١٠٠٧ هجرية.

هذا الكتاب يشترك مع تسهيل النظر فى الموضوع ويجرى الماوردى فى ذلك على سنن المؤلفين القدماء فى تخصيص أكثر من كتاب للموضوع الواحد. على أن الكتابين لا يتفقان فى التفاصيل وإن اتفقا فى الموضوع إذا يغلب على نصيحة الملوك روح وعظى استغرق حوالى أربعة من مجموعة أبوابة العشرة. وتأتى المواعظ هنا كما لو كانت استكمالا للقضايا الأخلاقية التى طرحت فى الباب الأول من تسهيل النظر إلا أنها تميزت بنكهة دينية مفرطة. وقد استخدم الماوردى أسلوب الوعاظ واستعار الصور البلاغية المتداولة فى أوساطهم فجاءت مواعظه مملة وقاتمة. على أننا لانلبث أن نعثر فى أبواب الكتاب الأخرى على مادة سياسية لاتخلو من الجد. وقد كرس الباب الثالث لمحاولة جريئة فى تفسير انحلال الدول أقامها على فرضية التماثل فى أحوال الأمم والممالك وخضوعها لقانون واحد يحكم نشوئها وسقوطها. ولكى يثبت الماوردى فرضيته أسقط التجربة الإسلامية ـ فى حدود فهمه لها ـ على سائر الحالات فقال إن جميع الدول تبدأ بدعوة دينية تدعو إلى عبادة الله وحده. ثم يقع الاختلاف بين أهل الملة بعد وفاة مؤسسها وتميل بعد ذلك إلى الدنيا وتنزع إلى الشهوات مما يفتح عليها أبواب الصراع والتنافس المؤديين فى النهاية إلى اضمحلال الدولة. ويثير الماوردى الانتباه فى هذا الصدد إلى عاملين فى انحلال الدول يتمتعان بصفة أكثر شمولاً هما: ولايه العهد، التى تدفع إلى السلطة بملوك غير أكفاء لمجرد كونهم من أبناء الملك السابق. ويربط الماوردى بين ظهور ملوك من هذا النمط وبين الفساد والاختلال اللذين يعرضان للدول. أما العامل الثانى فهو خوف الملوك من النقد السياسى، الذى يدفعهم إلى تقريب المنافقين والمتزلفين وإبعاد الحكماء المناصحين لهم. وينجم عن ذلك وقوع الملك فريسة أهوائه وأخطائه التى تتفاقم فتضع الدولة على حافة الانهيار. ونستطيع أن نؤكد أن هذا المبدأ يحتفظ بقيمته إلى الآن بل هو أكثر معاصرة مما كان عليه فى أى وقت مضى. وقد لاحظ هارولد لاسكى، المفكر، السياسى الإنجليزى فى كتاب «أصول السياسة » أن الحكومة تستطيع أن تستفيد دائما من نقد

خصومها أكثر من مدح مؤيديها وتقريظهم، وهى إذ تخنق ذلك النقد تكون النتيجة النهائية على الأقل أنها تمهد السبيل لهدمها. والواقع أن هذا ما يحدث فى جميع أنظمة الحكم الفردى، وما يماثلة، وهو ميزة ملازمة للاستبداد.

ويحتوى الباب المكرس لسياسة الخاصة على وصايا بشأن العناصر المختلفة من الحاشية. وفى فصل عن أولاد الملك أورد مبادئ تربوية قال إنها تلزم الملوك فى شأن أولادهم. وقنن الأصول اللازمة للتصرف مع الحاشية والأعوان والموظفين ولكيفية اختيارهم للمهام التى تناسب مؤهلات كل منهم وبين للملك أنه لن يجد من الناس الكامل فى كل الأمور فعلية أن يختار لكل عمل من هو أصلح له وأسد لمسده وإن كان فيه تقصير وتختلف من جهات أخرى، وأن لايمتنع عن استعمال ذوى المعايب إذا كانت لهم كفاءة فى موضوع ما. وأوصاه أن لايستكثر من الموظفين، وقد سبقت هذه النصيحة فى تسهيل النظر وعللها هناك بالاقتصاد فى النفقات أما هنا فلمحذورين: الأول أن الموظفين إذا كثروا زادت المشاكل المترتبة على أعمالهم من مكاتبات وكتب وتفتيش وشكايات منهم أو عليهم مما يشغل الملك عن أمور كثيرة أهم وأجدر بأن ينشغل بها. والماوردى يضع بذلك يده على إحدى الأزمات التى يثيرها تضخم الجهاز الإدارى فى الدول المتخلفة حينما ينتقل من كونه وسيلة لتصريف شؤون الدولية إلى مشكلة معقدة تفرض تفرعاتها على أجهزة الدولة من أعلاها إلى أسفلها.. الثانى إلى أن كثرتهم مانعة من ظهور الصلاح فى جهاز العمل لأن كثرة العاملين مع القلة فى عدد الأمناء والكفاة تعنى زيارة فى عناصر الفساد والخيانة.

فى الباب المكرسى لسياسة العامة رفع الماوردى شأن الرعية ودورها فى المملكة إلى مرتبة متميزة من بين سائرى القوى الفاعلة فيها. فالرعية مصدر قوة الملك. وهى لدى المقارنة بقوة جنوده وأعوانه أقوى. كما لوقورنت أيضا بقوة أعدائه. فالخطر الناجم عن معاداة الرعية أدهى من الخطر الخارجى. ثم إن الدولة تكتسب تقدمها وهيبتها من صلاح الرعية وانتظام أمورها. وبالعكس كلما كانت حالة الرعية خسيسة متردية كانت المملكة أخس شأنا وأندر دخلا. ولكى يتم التنسيق بين مصالح التقدم فى المملكة وبين انتظام الرعية ثمة خطوط عريضة يتعين على الملك العمل بموجبها. وقد اشتملت جملة من هذه على التقيد بأحكام الشريعة، وعنى فى أثناء النص على ذلك بتأكيد سلطة القضاء وتوسيعها لتشمل الملك نفسه إذ دعاه إلى قبول

التقاضى مع أى فرد من رعاياه، على أن يكون أمام القضاة فى منزله واحدة مع من يقاضيه. وضرب له أمثلة من سيرة الخلفاء الراشدين. ولم ينس الماوردى مركزه كرجل دولة فدعا الملك إلى معامله الناس بحسب طبقاتهم، ورغم أنه قيدها باعتبارات عملية فدعا إلى مراعاة ذوى الكفاءة والنجدة فإن المنزلة الرفيعة تبدأ عنده بأولاد الملوك والأشراف وذوى الأنساب ورجال الدين، ثم الفصائل التى تليهم من الدهاقين والملاك والتجارة ومن دونهم. والتناسب مفقود بين التدرج بحسب هذه الطبقات والتدرج بحسب الكفاءة لإن الأخيرة لاتخضع للحدود الطبقة.

من قواعد انتظام أمور الرعية أن يتعرف الملك أحوالها. ويقتضى ذلك تقوية جهاز التجسس ـ الاستخبارات. ولكن من المعلوم أن هذا الإجراء يخدم الملك دون الرعية، التى تكون فى العادة الضحية الأولى للجهاز المذكور. ومن دون أن يلتفت الماوردى إلى تناقضه أوضح فى شرحه لكيفية الاستفاده من الاستخبارات أن فى الرعية أنماطا من الناس لايحملون نوايا طيبه للملك وهؤلاء هم الأعداء الداخليون الذين يعرفون مواطن الضعف فى المملكة. فإذا أحكم الملك فعالياته التجسسية أمكنه معرفة هذه العناصر ومعرفة الأسباب التى حملتهم على مناوأته. وانتقل من هنا إلى سرد الأسباب المحتملة فى مثل هذه العله. ثم أعطى وصفا لعلاج كل حالة على حدة. والغالب على هذه الوصفات أنها مكايد لاترخص بالقمع إلافى أحوال معدودة. والماوردى بوجه عام ضد الميول الإرهابيه للسلطه.

يلى بعد هذا، باب تدبير الأموال، وتتكرر فيه مطالبة الملك بعدم تجاوز ما قرره الشرع فى الجباية والإنفاق. وقال إن الملك الحازم فى كل عصر ومن كل ملة هو من يمشى على قوانين شريعته فى هذه السياسة. ثم تحدث عن أخلاقية التصرفات الماليه فذكر البخل والجود والتبذير. وقد استخدمت هذه التعابير فى البحوث الدهائية وفى المواعظ وفلسلفات الأخلاق دون تفريق بين ما إذا كان موضوعها ملكا أم فردا عاديا. ويرجع ذلك إلى أن الكتابة تجرى هنا ضمن أجواء الحكم الفردى حيث يتخذ الحاكم صفه الرجل الذى يملك بين يديه أموالا طائلة يتصرف بها تبعا لمزاجه الشخصى. ويشترك فى هذا المنحى كل من الدهائيين المسلمين ومكيافللى، الذى كتب فى الأمير عن البخل والجود بنفس الطريقة لأن أمير مكيافللى هو الآخر نموذج فردى. على أن الماوردى يفاجئنا بإعطائه معنى مغايرا لهذه المصطلحات آخذا بالاعتبار كون الملك رئيسا للدولة. إن هذا ما يستفاد من بعض عباراته التى تقول إن أدنى

منازل البخل أن يمنع المال سبيل الحق التى شرعها الدين، فالملك عنده يكون بخيلا إذا أخذ الأموال من غير حقها وأنفقها فى غير وجهها. أما التبذير فهو أن ينفق أمواله فى المحرمات من قبيل وسائل اللهو الشائعة فى قصور الحكام أو أن يكثر من بناء القصور أو يتخذ من الأثاث مالا يحتاج إليه. وبوجه عام فإن كل ما أنفق فى معصية الله مما يكسبه إثما أو ذما عند العقلاء فهو تبذير وإن قل، وكل ما أنفقه بخلاف ذلك فهو جود وإن كثر. ولاعلاقه لهذا التفسير بالغنى اللغوى أو الاصطلاحى لهذه المفردات.

يرد فى الباب التاسع حديث عن العلاقات الخارجية أوجب فيه أن يحل الملك خلافاته مع الملوك الآخرين بالطرق الدبلوماسية ـ المفاوضة واستعمال المكيد. وفى حالة التهديد بالحرب حذره من أن تستغل المفا وضة لزيادة قوة العدو ودعاه إلى عدم إتاحة الفرصة لمثل ذلك وقال إن الحرب إذا وجبت، أى إذا لم يجد عنها محصيا، فعلية أن لايتردد فى خوضها. واستطرد من هنا فاستقصى أصول الحرب التى إذا تقيد بها الملك ضمنت له الفوز.

فى الباب الأخير من نصيحة الملوك عرض لتصرفات الملوك المسلمين المنافية للشرع الإسلامى ووجهات نظر الفقهاء بشأنها. يبدأ العرض بمقدمة طويلة حلل فيها الأشياء حسب استعمالاتها ودرجات الضرورة فيها مع تبيان ما هو حرام أو حلال أو مشتبه منها والجهات التى ينصرف إليها استعمالاتها الشىء الواحد. ثم سجل وجهة نظره فى هذه المسألة فندد بإتيان الملوك للمحرمات المتفق عليها كشرب الخمر والزنا ولبس الحرير واستعمال أوانى الذهب والفضة. وأجاز الغناء بشرط عدم تطرقه إلى أمور محر مة كالحث على الفجور وأن يقتصر على ما هو نافع ومقبول من الكلام . ولم يعترض على لبس الألبسة الناعمة عدا ما هو داخل فى عددا الحرير كما تساهل فى مظاهر الأبهة فلم ير فيها حرجا مادامت تؤدى إلى إعزاز مملكة الإسلام. وبإجمال: اعترض الماوردى على المحرمات القطعية وأجاز مادونها. ويدخل فى قائمة التصرفات التى تسامح فيها مجمل ماكان شائعا فى زمنه فى أوساط ذوى السلطة. وبحكم مركزه فى الدولة، كان عليه أن يعطى المبرر الشرعى لتصر فات أولياء نعمته وهو ما هدف إليه من تخصيص هذا الباب، وإن كان ذلك لم يحل دون تسجيل تحفظاته بوصفه فقيها.

قوانين الوزارة

الكتاب الثالث للماوردى فى الدهاء هو قوانين الوزارة. وقد طبعته مكتبة الخانجى فى القاهرة سنة ١٣٢٩ بعنوان أدب الوزير. والكتاب صغيرالحجم يقع فى ٥٨ صفحة تناولت القواعد

والآداب المناسبة للوزير الناجح. والوزير عند الماوردى جامع لصفتى السائس والمسوس، فهو سائس للناس مسوس للملك مما يو جب عليه أن يعرف كيف يجمع بين الصفتين ويعطيهما حقها. وقد تحدث عن النوعين المعروفين للوزارة فى العصر العباسى وهما وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، فاستقصى الحدود القانونية لكل منهما ثم ذكر ما يستدعيانه من أصول الدهاء؛ فوزارة التفويض تجمع السيف والقلم فهى تشترط وزيرا يتمتع بالسطوة والمعر فة أما وزارة التنفيذ فتحتا ج إلى الرأى والحزم، لأن وزير التفويض يقوم مقام الملك والخليفة أما الأخير فيعمل بمقتضى أوامرهما. وتترتب بالسطوة والمعرفة. أما وزارة التنفيذ فتحتا ج إلى الرأى والحزم، لأن لوزير التفويض مهام ثقيلة لأنه مسؤول عن زيادة عمران الدولة وتكثير ثرواتها، كما أن عليه المساهمة فى توسيع الدولة. وتدعو هذه الغاية إلى الحزم وربما اقتضت الحرب ولكن الأولى أن يلجأ الوزير إلى الكيد والاحتيال بدلا من المغامرة فى الحرب. ويعبر المارودى بذلك عن النزعة التوسعية للدول الكبيرة.

يتولى وزير التفويض أيضا مهمة الدفاع عن أمن المملكة وحمايتها من كيد الأعداء المنافسين فى الداخل والخارج. والأعداء المنافسون ثلاثة أصناف: أكفاء عاقلون يجب مقاربتهم ومسالمتهم لكسب ودهم. وعظماء متقدمون يجب الحذر منهم مع ملاينتهم. وطامعون فى السلطة وهؤلاء يردعون بالقوة. ولم أفهم معيار التفريق بين هذه الأصناف كما لم يكشف الماوردى بالتفصيل عن هوية كل صنف لكى نعرف من هى الفئات المعنية بهذا التصنيف.

والوزير مهما تكن صفته يحتا ج إلى موظفين يكلفون بواجبات الدولة الرسمية. ولاختيارهم يؤخذ بنظر الاعتبار أن هناك أربعة أصناف من الناس:

خيرّ عاقل. خير جاهل. شرير عاقل. شرير جاهل.

الأول يصلح لكل الأمور فيستعان به دون تحديد.. الثانى يصلح لأمور لاتتطلب علما. أما الثالث فيمكن الاستعانة به مع الحذر من مكره. والأخير لايجوز الاعتماد عليه البتة. ثم حدد شروط تعين الموظفين، وهى تختلف تبعا لنوع العمل، وذكر اختصاصتهم وصلاحياتهم كما تحدث عن عزل الموظفين فقيده ببعض الشروط ونهى عن العزل الكيفى، الذى قد يقدم عليه الوزير دون سبب معقول.

لاحظنا سابقا أن كتب الماوردى هى أفضل غرارات النظر الدهائى عند المسلمين. ويبدو هذا

المؤلف مع افتراض الثقة غير القابلة للشك فى أنه كتب بالفعل كل هذه المؤلفات، كاتبا سياسيا لامعا لاتقل براعته فى هذا الحقل عنها فى الفقه الذى يعتبر فيه من الأعلام المبرزين. على أن التأليف السياسى لم يتوقف عند هذا الكاتب الكبير فقد وصلت إلينا مؤلفات كثيرة من الأزمنة التالية يحتوى بعضها على ماده سياسية ثمنية. وقد اخترنا منها لهذا الغرض كتابين يتميز الأول فى أن كتابه من الملوك، أما الثانى فبمادته الشاملة التى تناهر، إن لم تفق، محتوى كتب الماوردى. سنبدأ بالكتاب الأول لنرى كيف يتحدث ملك مثقف بنفسه عن قضايا السياسة. والكتاب من تأليف السلطان موسى بن يوسف أبو حمو الذى حكم فى الجزائر من سنه ٧٥٣ إلى ٧٨٨ أو٧٩٢ على أختلاف الروايات. عنوانه «واسطة السلوك فى سياسة الملوك«» وقد طبع عدة طبعات فى كل من الجزائر وتونس واستنبول.. ذكر المؤلف فى المقدمة أن الغرض من الكتاب إيضاح قواعد السياسة الحكيمة لولده حتى تكون مرشد له عندما يستقل بالملك. والكتاب على أربعة أبواب:

الباب الأول فى قواعد الملك والوصايا والاداب والحكم المرشدة إلى الصواب.

الباب الثانى فى قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه فى قوام سلطانه.

الباب الثالث فى الأوصاف التى هى نظام الملك وكماله وبهجته وجماله.

الباب الرابع فى الفراسة.

وقد استخدم المؤلف تجاربة الشخصية كنماذج للسياسة ا لحكمية التى يتعين على ولده اتباعها. وأهم ما فى الكتاب هو الباب الثانى الذى بحث فيه قواعد الحكم وما يحتاج إليه الملك من الخصال لتستقيم أموره. وقد صنف الملك لهذا الغرض أربعة أصناف يبدو أنه استمدها من تاريخ الفرس والعرب وهى:

١ـ من له عقل يصلح به دنياه وآخرته ومثاله عمر بن عبد العزيز.

٢ـ من له عقل يصلح به دنياه دون آخرته ومثاله ملوك الفرس وبعض الملوك الحازمين من بنى أمية والعباس.

٣ـ من له عقل يصلح به آخرته دون دنياه. ولم يضرب له مثلا.

٤ـ من له عقل لايصلح به دنياه ولاآخرته ومثاله الواليد بن يزيد الأموى والأمين العباسى.

وأفضل الأصناف عنده هو الأول لأنه يمزج بين السياسة والتقوى ويراعى مقتضيات كل

منهما، فيقوم بأمور الدولة على الوجه المطلوب دون أن يشتط فى سلوكه الشخصى عن القواعد المأمور بها فى الشرع. وهذا النوع من الحكم يرجى له الدوام والانتظام. على أن القسم الثانى هو الآخر يكون ثابت الأركان طويل العمر رغم أن أصحابه ليس لهم دين ماداموا سائرين فى السياسة على طريقة تستجيب لدواعى العدل والعمران. ويلاحظ السلطان أبو حمو أن الحكم يدوم مع حسن السياسة والفكر ولايصلح العكس، أى أنه لايدوم مع سوء السياسة والدين ولهذا السبب فالصنف الثالث ، أى الذى يصلح آخرته دون دنياه يؤول إلى خراب، وهذا هو الحكم الدينى البحت. أما القسم الأخير فهو كالثالث لادوام له. وقال عن هذا النوع من الملوك بأنه يجوز على الرعية ويحدث الحوادث عليهم، يعنى أنه يفرض عليهم التزامات غير شرعية من قبيل أن يرهقهم بالضرائب أو يرفع الأسعار أو يكلفهم أعمالا لاطاقة لهم بها. ومثل هذا الملك يحسن لمن أساء ويسىء لمن أحسن ويكل الأمور إلى غير أهل الكفاءة وهو فى غالب أحواله منهمك فى الملذات.

إن هذا التصنيف للملوك يتمتع بأهمية نسبية بمقدار تأكيدة على أولوية العمران والعدل ـ بصرف النظر عن المفهوم الفضفاض لهذا الأخير ـ مع تصريحه بالتعارض بين الحكم الدينى البحت وبين متطلبات السياسة المدينة إلى حد اعتباره الأول من عوامل خراب الدول. ويبدو لى أنه لم يعثر على غرار لهذه الصنف من الملوك فى التواريخ المعروفة لدية فنص عليه كافتراض منطقى ممكن الوقوع. على أننا لنجد فى هذا العصر أمثلة تطابق الوصف الذى ذهب إليه هذا السلطان المثقف. عاصرنا أنظمة حكم اعتمدت على الدين البحت ورفضت الاتصال بالدنيا فبقيت لذلك منعزلة عن مجرى الحياة ولم تأخذ بأى سبب من أسباب التطور. من هذا القبيل حكم أسرة آل حميد الدين فى اليمين، وحكومة الدالاى لاما فى التبت فعند هذه الحكومات يقترن المحتوى الدينى الخالص للدولة بالتخلف الشامل فى كافة وجوه الحياة تبعا لما أكده السلطان المذكور.

يعكس أبو حمو بهذه الملاحظات الثاقبة، بقايا الوعى السياسى للإسلام، الذى كان لايزال يحتفظ فى زمانه ببعض الفاعلية. وفيما عدا ذلك لايجد القارئ أفكارا تتجاوز إطار الشخصى كملك مما يفقد الكتاب كثيرا من المزايا التى تمتعت بها مؤلفات الماوردى مثلا.

الكتاب الثانى عنوانه آثار الاول فى ترتيب الدول لكاتب غير مشهور هو الحسن بن عبد الله العباسى ألفه للظاهر بيبرس(٦٧٦هـ). وللكتاب طبعة قديمة فى القاهرة غير مؤرخة. وقد جعله مؤلفه على أربعة أقسام ووزع كل قسم إلى أبواب. ولإعطاء فكرة عن اتساع موضوعاته أضع بين يدى القارئ فهرس الكتاب كما وضعه المؤلف:

القسم الاول: فى الضوابط والأصول وقواعد المملكة. وأبوابه:

١ ـ فى فضل الملك والحاجة الداعية إليه.

٢ ـ فى أركان الملك ودعائمه وقوانينه.

٣ ـ فى مجمع الملك وهيئاته وخصاله وأبهته.

٤ ـ فيما يجب للملوك على الرعية وللرعية على الملوك.

٥ ـ فى حسن سيرته مع الملوك المجاورين والقبائل والأعداء والمعاندين.

٦ ـ فى سيرة الملك مع أمراء دولته وأركان مملكته.

٧ ـ فى سيرة الملك مع أهل الشريعة والعلماء والفقهاء والفضلاء.

٨ ـ فى حسن سيرة الملك مع العباد والنساك وقبول نصائحهم.

٩ ـ فى سيرته مع ذوى الشرف والبيوتات وإعانتهم.

القسم الثانى: في أصول الملك فى ذاته مع خواصه وخدمه. وأبوابه:

١ ـ فى آداب الدخول علية ومخاطبته ومجالسته.

٢ ـ فى أحوال الوزراء واختيارهم وما يجب لهم وما عليهم.

٣ ـ فى كتاب الرسائل والدواوين وما لهم من الرسوم والقوانين.

٤ ـ فى ولاة المظالم.

٥ ـ فى أصحاب البريد والأخبار والعيون.

٦ ـ فى الحجاب والنقباء والحرس والأعوان،

٧ ـ فى ذكر رسل الملوك وصفاتها وهدايها وأتحافها.

٨ ـ فى صحبة السلطان وشرائطها وما يحمد ويذم من ذلك.

القسم الثالث: فى الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته. وأبوابه:

١ـ فى هيئة الملك ولباسه وركوبه وجلوسه وانفراده بخصائص يتميز بها.

٢ـ فى آداب الأولاد والأقارب وحسن السيرة معهم.

٣ـ فى آداب خواص الملك معه فى جميع أحواله.

٤ـ فى أمر الحريم وسياستهن.

٥ـ فى سيرة الملك مع مماليكه والخدم وتفضيلهم.

٦ـ فى طعام الملك والأداب فيه.

٧ـ فى سماع تلاوة القرآن والمنادمة والمسامرة.

٨ـ فى مجلس السماع ـ الغناء ـ وراحة النفس واختيار ذلك.

٩ـ فى الرياضة واللعب بالكرة والمطاردة.

١٠ـ فى الصيد وصفات الجوارح والكواسر وأمراضها وعلاجاتها.

القسم الرابع فى الحروب. وأبوابه:

١ـ فى وصف أجناس الناس واختلاف أصنافهم وأطوارهم.

٢ـ فى الشجاعة وحدها وفضلها وصفاتها.

٣ـ فى الفروسية ورياضة الخيل والركوب.

٤ـ فى الأسلحة واستعمالها فى الحرب وصفات الرمى وفضله، والطعن والضرب للغزاة والحث على الجهاد.

٥ـ فى تولية الأعمال والمدن والأمصار.

٦ـ فى حفظ الثغور والقلاع وما يجب من أمرها.

٧ـ فى الحروب والمصافات وتعبية العساكر.

٨ـ فى الكر والهزيمة وما ينبغى أن يفعله الهازم والمهزوم.

٩ـ فى الحصار وفتح القلاع وما ينبغى أن يفعله الحاصر والمحصور.

١٠ـ فى حروب البحر ونصفاتها.

هذه الأبواب تكشف كما قلت عن اتساع موضوعات الكتاب. فى حين تدل معالجات المؤلف لموضوعاته على خبرة سياسة جيد ة مع ثقافة تستوعب عددا من وجوه المعرفة الشائعة فى عصره. وقد أعطى المؤلف تفاصيل دقيقة عن تنظيم المدن خططيا واجتماعيا و حرفيا. كما تحدث عن حقوق الرعية فدعا الملك إلى استعمال الرفق لا العنف أصل السياسة ومدعاة للحصول على رضا الناس. كما دعا إلى ضمان معيشة الفقراء والعاجزين وعدم إهمال شؤون الناس إلى الحد المفضى إلى هلاكهم بسبب العوز. ودعا إلى كف الجند عن الرعية وذلك بأن تتخذ منازلهم فى معزل عن منازل الرعية وأن يكون لهم جامع مفرد وحمايات مفردة. وأوجب ألا يشتغل العسكريون فى الحرف لأنهم إذا عملوا فى الزراعة أو التجارة أو غيرها ضعفت أحوال الرعية من عدم التسبب الناجم عن مزاحمة العسكريين لهم بما يتمتعون به من نفوذ وسطوة، كما تضعف بيوت الأموال من عدم تحصيل الضرائب للسبب نفسه. إن هذه الوصية ترتبط بالطابع العسكرى لدولة الظاهر بيبرس التى عاش المؤلف فى كنفها مما اقتضى أن يضع حدودا تمنع من طغيان العسكرين على الجمهور كما يحدث عادة فى الدول ذات الأنظمة العسكرية حتى اليوم.

وتناول العباسى قضايا الأمن العام فبحث فى أصناف المجرمين مستقصيا الدوافع المختلفة للسلوك الإجرامى. وحول الطريقة الناجعة فى حسم مادة الأجرام أوصى بإزاحة الدوافع قبل الإقدام على العقوبة. وفى حالة كون السلوك الإجرامى. متفشيا فى جماعة فإن العلاج يجب إن يعتمد على السياسة لاالعقوبة. من هذا القبيل إن أهل الجبال والقبائل يكون فى طبعهم الظلم والقتل، كما يقول، فللتخلص من شرهم يجب أن يشغلوا بالجهاد والأسفار. وهذا الحل يشمل كل أولئك المصابين بداء الإجرام الناشئ حسب تقديرة من إفراط القوة الغضبية فيهم[١]. واعتبر إشغالهم بالحروب وتكليفهم بالمهام الثقيلة سبيلا إلى تصريف هذه القوة فيما هو أصلح. وفى مقابل التوصية بالرفق والسياسة مع عامة الناس، دعا إلى استعمال الشدة مع

---

(١)القوة الغضبية هى واحدة من أربع قوى حصر الإغريق فيها قوى الإنسان الغريزية. والغضبية من القوى الباعثة يقول الجرجانى فى تعريفها إنها تحمل القوة الفاعلية على تحريك الأعضاء عند ارتسام صورة أمر مهروب عنه فى الخيال طلبا لدفعه ضارا كان فى نفسه أو نافعا. بمعنى أنها قوة المقاومة ضد الأشياء الخارجية.

حاشية الملك إذا ارتكبوا أفعالا مخلة.. وإلى عدم قبول الشفاعات فيهم لأن جرائم هؤلاء أشد ضرراً على الناس من جرائم غيرهم بحكم مركزهم فى السلطة. ثم تطرق إلى أهل القرى الصحراوية فأوصى باتباع الرفق معهم وذلك لصعوبة حياتهم. وأكد العباسى على محاربة الطائفية فى المدن لأنها تؤدى إلى فتن عظيمة وخطوبة جسيمة وأثار الانتباه إلى دورها التخريبى فى الكثير من بلدان الشرق.

وأوجب المؤلف على الملك محاربة البدع المخالفة لما علية الجمهور، يقصد ما هو مخالف للعقيدة السنية التى كانت قد صارت عقيدة جمهور المسلمين آنذاك. وقد سبق للماوردى أن دعا بمثل هذه الدعوة فى نصيحة الملوك. لكنه نهى عن استعمال العنف لهذا الغرض بعد أن لاحظ أن البدع قد انتشرت وترسخت فى المجتمع الإسلامى فلم يصبح من المعقول مقاومتها بالقوة. ورأى أن الأسلوب السليم لذلك هو العمل الفكرى الذى يجب أن تقوم به الدولة وتساعد عليه لحماية الجمهور من خطر الهرطقة. أما العباسى فلم يقترح وسيلة معينة فاكتفى بالنص على اعتبار هذه المهمه من واجبات الدولة. ولما كانت الفلسفة هى إحدى أخطر أشكال البدع فإن على الملك ألا يتهاون معها. لكن العباسى أكد فى نفس الوقت على الأهمية الكبيرة للعلوم فاعتبر من شروط الملك الهمام أن يكون مثقفا مطلعا على علوم عصره فى حدود المستطاع وأن يرعا العلم وأهله. وأثار الانتباه إلى أن بقاء الدول وطول عمرها رهن بتعظيمها للعلوم وتمكين من يشتغل بها ورعاية جانبه. ثم أشار إلى دولتى الفرس واليو نان فقال إن عظمتها واستطالة مدتهما مدينان لاهتمامهما بالعلم.

إن هذا التمييز بين الفلسفة والعلوم يرجع فى الحقيقة إلى زمن المتوكل، الذى اضطهد الفلسفة وعلم الكلام بينما شجع العلوم وكان من رعاتها المبرزين. وقد تبناه الغزالى فى تهافت الفلاسفة كما تقبلة الأوساط الفقهية المعتدلة. ومعرفة السبب فى هذا الاتجاه ليست عسيرة، فالفلسفة خطر مباشرا على العقائد مادامت مجردة عن تعلقاتها الفلسفية. ولاسبيل إلى التخلص من ضغط الحاجة إلى مثل هذه الأداة فى مجتمع يزاول نموا حضاريا، على الرغم من حضور الدين كعامل سلبى.

فى حديثه عن الحروب قال العباسى إنها عوارض كالأمراض يجب دفعها بالسياسة مالم تلجئ الضرورة إلى خوضها. على أن لبعض الحروب أسباب معقولة تترتب عليها نتائج مهمه وهذه الأسباب هى:

مطالعات: من العصرين الاموى والعباسى.

- -

ـ تأسيس دولة.

ـ تثبيت أركان دولة قائمة.

ـ الدفاع ضد العدوان الخارجي.

ـ حرب دينية بين أهل ملتين

ـ التوسع.

تدخل هذه الأمور في حكم الضرورات. وهناك حروب لاتترتب عليها نتائج على هذا المستوى من الخطورة وهي:

حروب الفتنة والسلب

حروب القبائل ـ الغزو

وهذه داخلة في حكم العبث والفوضى...

إن البحث في مشروعية وعدم مشروعية الحرب هي اليوم من موضوعات القانون الدولي. وقد روعيت في التمييز بين هذه الحالات معايير جديدة مستمدة من تطور المجتمع البشري في العصر الحديث. ومن حق العباسي أن يذهب بفضيلة السبق إلى وضع هذه المسألة على بساط البحث وإن تكن أسبابه المعقول ليست كلها معقولة في نظر الباحث المعاصر.

في الأبواب المكرسة لخصوصيات الملك قال المؤلف ان الهيئة المثالية للملك تقتضي صفات الهيبة والفطنة والذكاء وفخامة الصوت، وأن يكون لباسه من أفخر اللباس. أما الزى فيخضع للعادة السائدة في الزمان والمكان. ويذهب العباسي مذهبا غريبا في تمييز الملك عن سائر الناس فيحرم تقليده في ملابسه ويوجب انفراده بزى وهيئة خاصتين به. وهناك وصايا حول طعام الملك وشرابه ومتعه الشخصية وحول الرياضة وأشكالها مع تفصيل للألعاب الرياضة المناسبة لأعضاء الجسم. ووصايا حول الأولاد حث فيها الملك على عدم كثرتهم حتى يستطيع تربيتهم على نحو أفضل كما أعرب عن عدم تحبيذه للتكثير من النساء.

في عرض لأصول السفارة أوجب العباسي أن يتصف السفير بحسن الوجه والاسم وأن يكون تقيا ورعا لايؤثر فيه الإغراء فيخون واجبه أو يتسامح فيه. وأن يكون له من العقل والرزانة ما يستطيع به أداء الواجب المكلف به في سفارته على الوجه المطلوب. والسفير قد

- -

يكون واحدا ـ لاننس أن السفارات لم تكن ثابته وإنما كانت على شكل وفود تقوم بمهمة وتعود إلى وطنها ـ وربما اقتضت الحاجة تأليف الوفد من ثلاثة: عسكرى وقانونى وإدارى. وهناك شرح آخر لكيفية استقباله لدى العودة. كما تناولت هذه الفقرات أصول التعامل مع الوفد الأجنبى.

* * *

خلاصة

هذه المجموعة من الكتب ليست كل ما كتبه المسلمون فى السياسة. ولكنى اخترتها لسببين: الأول أن مؤلفيها بذلوا جهدا فكريا فاعتمدوا على استنتاجاتهم الشخصية فى تقرير قواعد الدهاء. وهى بذلك تتميز من مؤلفات اقتصرت على سرد العبر والأمثال كنصيحة الملوك المنسوب للغزالى وعين الأدب والسياسة لابن هذيل. الثانى وضوح النزعة الدنيوية لدى مؤلفيها مما يميزها عن مؤلفات آخرى كتبت بروح دينية متطرفة، أشاعت فيها جوا فكريا قاتما. ومن أمثلتها كتاب سراج الملوك للطرطوشى.

إن الميزتين المذكورتين هما من النقاط المشتركة لهذه الكتب. وهناك أمور أخرى، من بينها الاتفاق على تأكيد العنصر الأخلاقى فى سلوك الملوك وعدم السماح إلا بقدر ضئيل من المرونة السياسية على حساب الأخلاق. وليس من النادر مع ذلك أن نجدها تسقط فى الانتهازية فتخرج عن هذا الخط العام. وقد مرت بنا بعض الأمثلة الدالة على أنها لاتصل فى تجاهلها للأخلاق مبلغ مكيافللى الذى رسم الخط الفاصل بين الأخلاق والسياسة معلنا القطيعة النهائية بينهما. وكثيرا ما أدى التمسك بالمبادئ الأخلاقية إلى شيوع نبرة وعظية ومفتعلة أفقدت هذه الفصول شيئا من طرافتها. ويمكن أن يوضع على نفس المنوال إسراف الكتاب، وخاصة الماوردى، فى الاستشهاد بالشعر والحكايات والأمثال، وكان من الأجدى لو اكتفوا بالوقائع ذات الدلالات الملائمة لمقتضى البحث كما فعل السلطان أبو حمو الذى تحدث عن تجاربة الشخصية، أو ميكافللى بإعتماده فى تعزيز وصاياه على وقائع تاريخية معروفة.

واتجة بعض المؤلفين إلى توسيع مفهوم السياسة الصائبة ليشمل وصايا عن السياسة الاقتصادية والعمرانية إلى جانب الدهاء فى إطاره الضيق. إن الملك الناجح طبقا لهذا الاتجاه ليس هو الداهية فحسب بل هو من يعطى لكل جانب من النشاط البشرى حقه. وقد دفع

ذلك إلى الحديث عن قواعد الدول وما يجب لتأسيسها وديمومتها مع محاولات غير ناضجة للتساؤل عن أصل الدولة.

هناك أيضا اتفاق على ضرورة التقيد بأحكام الشريعة فى محاولة، لتقنين تصرفات الحكام بإرجاعها إلى أصول دستورية. كما سجل الكثير من الكتاب نقدهم لأخطاء الحكام وأدانوا ميل السلطة إلى الجلوزة مؤكدين على تخفيف العنف بحيث لايتجاوز الحد الذى تقضية ضرورات بقائها وانتظام أمرها. وقد توافرت فى هذه المؤلفات شروح مسهبة للالتزامات المتبادلة بين الحاكم والشعب أشير فى بعضها إلى الأثر الحاسم للشعب فى قيام الدول وبقائها وزوالها. ويلتقى حول هذه النقطة كل من الكتاب المسلمين ومكيافللى. وقد جاء فى كتاب الأمير ما يلى: «من الضرورى لكل أمير أن يكسب صداقة شعبة وإلا فإنه لايجد له أى ملجأ فى أوقات الشدة» وهو ما قاله الماوردى نفسه بتوسع فى تسهيل النظر ونصيحة الملوك. ولابد أن يثير التساؤل هذا الاتجاه من كتاب لم يأتوا من صفوف المعارضة وكان أغلبهم رجال دولة أو أعضاء فى الحاشية. وفى وسعنا مع ذلك أن نلفت انتباه القارئ إلى مفارقة التوجه السياسى لمثقفين متبصرين يشغلون مثل هذا الموقع من السياسة الرسمية. ففى حين يتحرك الحكام تحت تأثير الشعور بالقوة فإن الحاشية المثقفة تستطيع أن تعطى لمنطق العلاقات السببية ما يعطية الحكام لمنطق السلطة. وعندما أقول: حاشية مثقفة أعنى شيئين:

وعى فكرى.

درجة معينة من السلطة.

ومع اجتماع هاتين الصفتين فى شخص واحد فإنه يظل قادرا على التفكير بطريقة سياسية معتدلة. على أن هذه القدرة معلقة من الجهة الأخرى بالدرجة المعطاة من السلطة. ويرجع ذلك إلى أن الصفتين المذكورتين تعانيان فى واقع الحال تناسبا عكسيا تتراجع فيه الأولى بمقدار ما تشتد الثانية ، أى بقدر ما تتسع صلاحيات المثقف المسؤول. وفى تقديرى أن المثقف يحتفظ بقدرته على مجابهة التأثيرات التى تفرضها السلطة على موقفة السياسى مادام يشغل مركزا ثانويا ، أى مالم يتسلم صلاحيات مطلقة فيتحول هو نفسة إلى طاغية. وبمقدرى القول إن أفكار سياسة ناضجة ومعتدلة كالتى صدرت عن الكتاب المسلمين تدخل ضمن هذا الواقع ، الذى هو جدير أيضا بأن يفسر لنا حرصهم على أن يتمتع أولياء نعمتهم برؤية مماثلة تضئ لهم الطريق نحو سياسات أكثر عقلانية ، وبالتالى أكثر نجاحا وإنتاجا.

* * *

عهد الأشتر

أفردت الحديث عن هذا العهد بعد استكمال البحث فى الكتابات الدهائية ، بالنظر إلى الخصائص التى ينفردها بها. وعهد الأشتر كتاب قيل إن على بن أبى طالب أملاه على مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر. وقد وردنا فى روايتين: رواية الشريف الرضى فى نهج البلاغة ورواية ابن شعبة فى تحف العقول. وهما متقاربتان فى الزمن لأن ابن شعبة توفى فى حدود ٣٨١ وتوفى الرضى فى ٤٠٦ . أما محتواهما فمتماثل ما عدا فروقا فى بعض العبارات ونقصا وزيادة فى فقرات معينة منهما. وهناك شك حول نسبة العهد إلى على بن أبى طالب يرد ضمن الشك فى نهج البلاغة، وتحقيق ذلك يحتاج إلى وقفة طويلة قد تخرج بنا عن غرضنا. وبقدر مايتعلق بالعهد سأكتفى بأن أضع خطوطا عريضة لاحتمالين متعارضين بهذا الشأن:

الأول:١ـ ورد فى بعض الاعتراضات على صحة العهد أن أفكارة الرئيسية تجد ما يماثلها فى بعض وصايا الزعماء الرسميين فى الأزمنة التالية . مما يرجح أن يكون العهد صدى لهذه الأفكار أراد صانعوه أن ينسب إلى على بن أبى طالب لغرض من الأغراض.

٢ـ إن العهد كتب فى فتره مضطربة من خلافة على وأريد به أن يكون دستورا للحكم فى إقليم غير مضمون الولاء يتنازعه نفوذ الفر يقين المتخاصمين على ومعاوية. فهل فات الرجل أن إملاء مثل هذا الدستور فى مثل هذه الظروف هو ضرب من العبث؟ لقد كانت المهمة المركزية التى أنيطت بمالك الأشتر هى الاحتفاظ بمصر التى تتعرض لضغط شديد من معاوية بهدف الاستيلاء عليها. ومن الصعب فى هذه الأحوال أن ينصرف التفكير إلى وضع نظام للحكم بمثل تلك الدقة التى تضمنها العهد.

٣ـ فى العهد مواد تتعلق بموسسات لم تكن حتى ذلك الحين قد استكملت شخصيتها النهائية من بينها المواد المتعلقة بتنظيم القضاء والديوان وشؤون الكتاب. مما يثير شكا مبررا فى صحة هذه الفقرات على الأقل.

الثانى: ١ـ إن الملاحظة الواردة فى البند الأول ينقضها اختلاف كبير بين أفكار العهد وأفكار الزعماء الرسميين المشار إليهم. ففى جميع الوصايا التى وردتنا عن هذا الفريق تطغى نزعة بيروقراطية متطرفة تضع حاجزا سميكا ليس بين الحاكم والرعايا بل أيضا بين الحاكم والحاشية. بينما يتضمن العهد إدانات مباشرة لهذه النزعة على النحو الذى ستكشف عنه

الفقرات التالية من البحث. كما يجد الباحث فرقا كبيرا في الاتجاه السياسي والاجتماعي فالعهد يصدر في مجمل مؤداه عن مطلقات المعارضة السياسية نفسها في العصرين الأموي والعباسي أما عهود الزعماء فتصدر عن وجهة النظر المعروفة لرجال الحكم المسلمين.

٢ـ هناك اختلاف ملحوظ أيضا بين محتوى العهد الاجتماعي والسياسي وبين ماآلت إليه في زمن ابن شعبة والرضي، اتجاهات الفرقة التي ينتميان إليها وهي الشيعة الإمامية. وذلك بعد أن اندمجت هذه الفرقة في خط السلطة البويهية متخلية عن شعاراتها التي كانت قدر رفعتها في العصر الأموي وأوائل العباسي. كما أننا لانجد للرضي بالذات موقفا اجتماعيا أو سياسيا مماثلا لما نجده في العهد مما يجعلنا نستعبد أن يكون العهد من صنع الرضي كما يقال أحيانا.

مهما يكن من شئ فإن عدم القطع برأى نهائي حول نسبة العهد إلى علي لايمنعنا من تناوله كوثيقة تاريخة تسجل موقفا سياسيا متميزا عن الموقف الرسمي وهو في الحقيقة أقرب إلى أن يعبر عن أفكار وتطلعات معارضي صدر الاسلام على اختلاف تنظيماتهم وانتماءاتهم...

* * *

يبدأ عهد الأشتر بالمقدمة المعتادة للوصايا الاسلامية وهي الأمر بتقوى الله واتباع تعاليمه مع ما يلحق بها من العصمة عن شهوات النفس. ثم يخاطب عامله مبينا له أن البلاد التي سيتوجه إليها قد جربت قبله أشكالا من الولاة وأن موقف الناس منه هو موقفه نفسه من أولئك الولاة في السابق وأوضح له أن سيرة الحاكم تعرف من كلام الناس عنه . يقول: «إنما يستدل على الصالحين بما يجرئ الله لهم على ألسن عباده» أو كما يرد في مكان آخر من نهج البلاغة: السنة الخلق أقلام الحق . ولابد أن يكون المقصود بكلام الناس ما يعبر عن ردود الفعل تجاه سياسة السلطة ويشكل بالتالي صورة الانطباع السائد حول الوضع السياسي، أي ما يعتبر في الوقت الحاضر ضمن مفهوم الرأى العام . وقد تضمنت كلمة تنسب إلى عمر بن الخطاب هذا المفهوم بطريقة مقاربة حيث يقول في وصية لأحد عماله «اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس »[١].

---

(٧) الطبري ـ جـ ٣ ، ص٦ . وقد استشهد بها الجاحظ في كتاب «البرصان والعرجان» ٢ ٧٠. والعامل هو سعد بن أبي وقاص.
يلاحظ أن وصية عمر تقلب القاعدة الدينية القائلة بأن على المؤمن أن ينال رضا الله أولا فهنا يتعين على الوالي أن يسعى للحصول على رضا الناس كمقدمة للحصول على رضا الله الذي يأتي في المرتبة الثانية ويخضع لمقتضى العلاقة بين الحاكم ورعاياه.

يأتى هذا التعليم كمقدمة عامة تسبق تفصيل السياسة الواجبة الاتباع مع الرعية. وهنا يقول كاتب العهد:

«أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم.

ولاتكون عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم.

فإنهم صنفان إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق.

يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ.

ولاتقول إنى مؤمر آمر فأوطاع فإن ذلك أدغال فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير».

إن الطبيعة القمعية للدولة كمؤسسة تقوم على العنف تتجسد هنا فى صيغة بشعة تظهرها فى شخص الحاكم على صورة حيوان ضار يكون الافتراس محتوى سلوكه اليومى. وبدافع من مقته لهذه الصورة يطلب كاتب العهد من عامله أن يجعل الحب منطقا للتعامل مع رعيته. لماذا؟ لانهم لايخرجون عن إحدى صفتين يشتركون بهما مع الوالى فهم بين أخ له فى الدين أو مشارك له فى الانسانية. وتبعا لذلك، فإن صاحاب السلطة لايملك ميزة تجعلة فوق رعاياه وتسمح له بمعاملتهم كضحايا له. وعندما نضيف إلى هذا تأكيده على عدم العصمة حيث يشترك الناس كلهم فى الاستعداد لاقتراف الذنوب عن خطأ أو حتى عن عمد فإن الأساس الذى تنهض عليه سياسة التنكيل بالناس يصبح لاغيا.

على أن هذه النتيجة تصطدم بقسوة العقوبات المنصوص عليها فى الشريعة، مما لايدع للاعتقاد بأن المشرع الإسلامى قد نظر إلى الناس بالعين التى نظر إليهم بها كاتب العهد. ومن المؤكد فى الوقت ذاته أن كتاب العهد لا يريد من عامله تعطيل هذه العقوبات فكيف إذن سيكون تصورنا للحدود التى يجب أن تتوقف عندها وصيته؟ إن الاجابة على ذلك من الصعوبة بمكان. وإننا لمضطرون إلى الاعتراف بأن العهد يتناقض فى هذا الوضع مع المبادئ التشريعية التى ينطلق منها. ولعلاج هذا التناقض كان يجب أن يعاد النظر فى هذه المبادئ بما يتلاءم مع روح العلاقة المقترحة بين الحاكم والرعية. ومع ذلك فسوف يتحتم علينا أن نبحث عن بعد آخر لهذا التعميم دون أن نغض النظر عن قصوره من الناحية التشريعية. ففى إحدى

- -

الفقرات الأخيرة من العهد نجد الكاتب ينهى عاملة عن القتل الاعتباطى (سفك الدماء بغير حلها) ثم يردف نهيه عن القتل بتعداد لمحاذيره على جهة التغليظ فيعتبرة مؤذنا بزوال الدولة مستجلبا لغضب الله. وهو يؤكد فى أثناء ذلك أن أول قضية جزائية ينظر إليها يوم القيامة هى القتول. ثم يومئ إلى أن الحكام يلجأون إلى هذه الطريقة لترسيخ قواعد حكمهم ليلفت نظر الوالى إلى أن السلطة لاتقوى بالقتل وإنما تضعف وتكون قصيرة العمر.

وعندما نرجع إلى تصرفات السلطة الاسلامية منذ الأوان الأموى فسيمكننا ملاحظة أن هذا النهى يستهدف الوقوف ضد الإرهاب الحكومى الذى كان حينئذ محور التعامل مع المواطن العادى. ومن جهة أخرى يكتسب التأكد على ترويض السلطة وجعل الحب بدلا الإرهاب منطلقا للسياسة الرسمية فى علاقتها بالناس، أهميتة فى التعبير عن الدور الذى تلعبه الأخلاق فى تخفيف وطأة القانون . وقد يبدو لنا عند المقاربة أن أخلاقية كاتب العهد تسمو فى بعض الأحيان على روح التشريع، الأمر الذى يتمثل فى بعض الوجوه فى إدانته لهمجية السلطة رغم عجزه الملحوظ عن إدانة التشريع.

فى سياق هذه النظرة إلى سيرة العامل مع الرعية يقول كاتب العهد إن العامة يجب أن تكون قاعدة للحكم . إن هذا ما تنص عليه الفقرات التالية:

« ليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضا الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء وأقل معونة لها فى البلاء وأكره للأنصاف وأسال بالالحاف وأقل شكرا عند الإعطاء وأبطأ عذرا عند المنع وأضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة. وإنما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك إليهم.».

لم يبين الكاتب مايقصده بالخاصة، لكن هذه المفردة أطلقت فى النصوص الاسلامية على فئيتين من الناس: الأغنياء والمتنفذين أو أصحاب المال والجاه. ثم أهل الفكر. وقد استعلمت الأخيرة من قبل الفلاسفة الذين تسموا بالخاصة، تمييزا لهم عن بقية الناس لأغراض تخصهم من بينها اكتساب حق التفكير بطريقة تخالف ما عليه الجمهور. ولابد أن يكون الصنف الأول هو المقصود هنا، بالنظر إلى الموضوع الذى يتحدث عنه وهو موضوع سياسى لاصلة له

بقضايا الفكر. أما العامة، فالكتاب يستعملها مرادف للرعية، استنتاجا من عبارته «أجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة.. الخ» والعامة مأخوذة من الفعل عم أى شمل واشتقت منه لتسمية الأكثرية الساحقة من الأمة، وبذلك تكون العامة هى الشعب فى الاصطلاح الحديث. وللخاصة صفات سلبية هى تلك الصفات الشائعة فى الطبقات المصابة بخواص طفيلية، مثل الجشع، الاتكالية، الأنانية، وقلة الصبر، مما يجعل الاعتماد عليها فى الحكم غير مضمون النتائج، هذا عدا عن أن حجمها، كأقلية، لايوفر القوة الكافية للسلطة. أما العامة فهى جماع المسلمين، أى أكثريتهم، ولكونها أكثرية فإن إرادتها ـ رضاها ـ هى المعول عليها دون الخاصة، وهى بتجردها من سلبيات الخاصة لابد أن تكون عدة مضمونة فى مجابهة الأعداء. ولهذه الأسباب يتحم إنحياز الوالى إلى العامة تبعا لقولة: فليكن صغوك لهم. والصغو فى اللغة هو الانحياز.

فى هذه الوصية نجد النزعة الديمقراطية لكاتب العهد متمثلة فى دعوته إلى اتباع سياسة تحوز موافقة الأكثرية دون النظر إلى الطرف الآخر. ولاشك فى أن إهمال رأى الأقلية فى تقرير السياسة العامة هو المبادئ العامة للديمقراطية التى ينادى بها علم السياسة التقدمى فى العصر الحاضر. ولاعبرة بما يثيرة بعض الكتاب من اشتراط الإجماع فى التطبيق الأمثل للديمقراطية لأن المجتمع يتكشف باستمرار عن مصالح متضاربة يمتنع التوفيق بينها. فى هذا الحالة تقضى السياسة الديمقراطية بتطمين مصالح وحقوق الأكثرية، وهم عامة الشعب، على حساب الأقلية وهم الخاصة، الذين يعتبر تجريدهم من امتيازاتهم الطبقية أحد المبادئ الجوهرية فى التحويل الديمقراطى للمجتمع (*).

على أن الكاتب رغم وضوح انحيازه إلى الأكثرية لم يضع أسسا لكيفية الاعتماد عليها أو تجسد إرادتها. وإذا كان الأمر بالنسبة إلى الخاصة واضحا وميسورا إذ يقتضى عدم الاعتماد عليها إبعادها عن الوالى وحرمانها من النفوذ الذى تتمتع به مثيلاتها فى حكومات الأقلية، فإنه بالنسبة إلى العامة غامض وغير محدد. وربما اتصلت هذه المسأله بالمآخذ التى تذكر على مبدأ الشورى فإذا وضعنا هذا النقص فى حسابنا فإن التوصية بالاعتماد على العامة لايمكن أن

(*) معيار الأكثرية والأقليمية فى معادلة عامة ـ خاصة يختلف عنه فى النظام البرلمانى. فهنا لاتوجد أقلية حقيقية لأنها تتحدد بفرق بضعة أصوات. لكن مفهوم العامة فضفاض لأنه يقوم على افتراض الوحدة المطلقة للشعب وعدم التباين فى الآراء والمصالح والأمزجة.

تتعدى التأكيد على مبدأ يتوقف العمل به على شخص الحاكم. والضابط الوحيد فى ذلك هو نزعه المبدئية. وقد بينا فى مبحث الشورى أن هذه النزعة كانت، مع افتراض وجودها، إحدى الضمانات القليلة لصيرورة الشورى نظاما رسمايا للدولة فى تلك الظروف.

وزراء الحاكم وأعوانه:

بعد تقرير السياسة الواجبة مع الرعية، ينتقل كاتب العهد إلى بيان كيفية اختيار الأعوان والوزراء فيوصى عامله بتجنب الأشخاص الذين عملوا للولاة السابقين من الأشرار لأنهم شركاؤهم فى آثامهم. فإذا كان هناك ما يدعوه إلى استخدام هؤلاء بسبب كفاءاتهم فإن كاتب العهد يؤكد أن الكفاءة ليست وقفا على الطغاة فلن يعدم الحاكمون بالعدل أعوانا يشبهونهم، فى الصلاح والاستقامة ويملكون من الكفاءة ما يغنى عن الاستعانه بأعوان الظلمة. إن هذا التعليم المتشدد يصدر عن موقف على بن أبى طالب نفسه من الاشخاص «غير المستقيمين». فعلى النقيض من أسلافه، لاسيما عمر الذى طبق شعار «نستعين بقوة المنافق واثمه عليه» كان على يصر على الجمع بين الكفاءة والنزاهة، وربما اضطره تشدده إلى التضحية بالأولى لحساب الثانية، كما فعل عند تعيينه محمد بن أبى بكر واليا على مصر. وكان المذكور من أتباعة الصالحين لكنه كان شابا قليل الخبره وقد اعترف على فيما بعد أن إختياره هذا لم يكن فى محله.

ثم اشترط عليه بعد اختيار الأعوان إن يروضهم على عدم الإطراء له لأن كثرة الاطراء تورط الحاكم فى الكبرياءوالزهور. أما الباعث على اهتمامه بهذا الشرط، الذى قد لايكون على جانب كبير من الأهمية، فهو الخوف من أن تكون الصلة المباشرة بين الأعوان بحكم مراكزها الرسمية ـ وبين الوالى سببا فى إفساده. وسيأتى فى السطور القادمة أن كاتب العهد لا يحبذ التهريج الإعلامى.

طبقات الرعية:

استعمل هذا الاصطلاح فى العهد للتمييز بين الفئات الاجتماعية المختلفة ليس على أساس علاقاتها بعلمية الإنتاج، بل على أساس الاختلاف فى المهنه أو الوضع الاجتماعى، وقد سماها الأصناف أيضا. والطبقات هى:

الجنود.

الموظفون وهم كتاب العامة والخاصة.

القضاة.

عمال الإنصاف والرفق.

أهل الجزية والخراج.

التجار وأهل الصناعات.

الطبقة السفلى وهم المساكين.

وهذه الطبقات لايصلح بعضها إلا ببعض ولايستغنى بعضها عن بعض. فالجنود هم حماة الرعية والمدفعون عن الدين وقوامهم بأموال الخراج، وقوام الخراج بالموظفين والقضاة لأنهم أدوات تنظيمه وتحصيلة. وهذه الأصناف كلها تبع للتجار وذوى الصناعات لأنهم محور النشاط الاقصادى فى عموم المجتمع.

ثم وصف أسلوب التعامل مع كل طبقة على التفاصيل الآتى:

الجنود:

أوصاه بأن يستعمل عليهم رؤساء يتمتعون بهذه الخصال.

١ـ العفة والنزاهة.

٢ـ الحلم والأناه.

٣ـ الرأفة بالضعفاء والقسوة على الأقوياء.

٤ـ التوسط بين العنف والضعف.

تكرس هذه الخصال مناوأة كاتب العهد للعجرفة العسكرية وهى تتساوى مع النزعة التى سيطرت على وصاياه المتعلقة بسياسة الوالى مع الرعية. ولا مفر من الإشارة إلى أنها تحمل أثرا من طوباويات على بن أبى طالب فمن المعلوم أنها لم تجد طريقها إلى الواقع لافى الماضى ولافى الحاضر وظلت إلى اليوم محصورة فى دائرة صغيرة من أهل الفكر والأنبياء غير المسلحين.

وأوجب كاتب العهد لأغراض تنظيم الجيش أن يتفقد الوالى أحوال الجنود وأن يتعامل معهم بروح أبوية مع تخصيص ما يكفيهم ويكفى أهاليهم حتى لايشغلهم العوز عن مجاهدة العدو. كما يجب التنوية بالأفعال البطولية وتكريم أصحابها تشجيعا لهم وتحفيزا لغيرهم. وقد تضمنت رواية ابن شعبة فقرة يوصى بها بوضع عيون ـ (مفتشين سريين) من الأمناء ليتابعوا مآثر ذوى البلاء والبطولة من الجنود فيثبتوها ثم يعرضونها على الوالى ليتخذ فى ضوئها قرارته التكريمية، ومن حقنا مع ذلك أن نتعرض على التعليم الذى يوصى بمعاملة الجنود بروح أبوية ـ معاملة الآباء للأبناء، فهى من نتائج ذلك التفاوت فى الرتبة الذى يمنح الأعلى حق الأبوة على الأدنى. ويبدوا لى أن كاتب العهد وهو يحمل كل ذلك الحب لرعاياة وكل ذلك الحرص على حمايتهم من عنجهية الحكام والرؤساء لم يتمتع بالقدرة الكافية على التحرر من آثار الوصاية التى يفرضها المجتمع الأبوى على أفراده.

القضاة:

نصت الفقرة المختصة بالقضاء على صفات من يجب اختياره لهذا المنصب وهى أن يكون القاضى:

١ـ من أهل العلم والحلم والورع.

٢ـ صارما فى الحق.

٣ـ منزها عن الطمع.

٤ـ أن يكون معتدا برأية حتى يكون لديه الاستعدا د لتصحيح أخطائه اذا اتضحت له الحجة فيها.

٥ـ أن يكون متوقفا فى الشبهات. وهى الأمور الملتبسة التى تتطلب الفحص بإمعان وأناة حتى ترد إلى وجهها الصحيح. ويقتضى ذلك من القاضى أن يتريث ويلح فى الاستقصاء حتى يتهيأ له الانتقال من أدنى الفهم إلى أقصاه .

٦ـ أن لايكون ملولا يميل به عدم الصبر إلى اجتزاء الأمور وحرمان الخصوم من الإدلاء برأيهم فيها.

ثم لفت نظر القاضى إلى أمور قضائية صبها فى عبارات مكثفة يقول فيها:

«أكثر تعاهد قضائه». والمقصود تتبع الأحكام وفحصها. ويقع ذلك ضمن حق التمييز والتفتيش على القضاءة وقد تناولته كتب الفقة فيما بعد بالتفصيل. وفى الثانية يقول: «افسح له فى البذل مايزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس» يعنى أن يعطية من المال ما يكفية، فالحاجة من بواعث الخيانه، وإزاحتها إحدى الضمانات الواقية من السقوط فى هذا الدرك. وفى رواية ابن شعبة نص على التزامات بتنفيذ حكم القاضى وآخر بترتيب أعوان له من الفقهاء وأهل الورع يساعدونه فى الحكم. ولعلها أقدم إشارة إلى تعدد الأعضاء فى المحكمة الواحدة.

كبار الموظفين:

يشترط العهد أن يكون تعيين كبار الموظفين ـ المعبر عنهم فيه بالعمال ـ بناء على الاختيار دون المحاباه والأثرة. وقد وصمهم بما يوصم به الموظفون حتى الآن: الجور والخيانة. وأمر باختيارهم من ذوى التجربة والحياء ومن لهم عراقة فى خدمة الإسلام معتبرا ذلك من وجهة نظره مدعاة للثقة بهم. وأمره أيضا بالتوسيع لهم فى العطاء لئلا تضطرهم الحاجة إلى الاختلاس، كما سبق مع القضاة، وقال إن هذا الإجراء يساعدهم على إصلاح أنفسهم كما يعطية حجة للإيقاع بهم إذا ثلموا الأمانة. ثم اشترط عليه وضعهم تحت المراقبة السرية من قبل مفتشين يختارهم من أهل الصدق والوفاء. ولعلنا إن نجد فى عدم الثقة بالموظفين مسوغا لإخضاعهم لهذا الإجراء المخالف للشريعة. وقد ربط مصير الموظف بالمفتشين فإذا اجتمعت تقاريرهم على إدانته بالخيانه كان ذلك موجبا لعزلة ومصادرة أمواله مع التشهير به ووسمه بالخيانه.

وحول صغار الموظفين ـ وهم الكتاب فى لغة العهد ـ توصية تنهى عن الاعتماد فى تعيينهم على الرأى الشخصى للوالى فربما تأثرت فراسته بتصنع المرشحين للعمل وحسن خدمتهم له دون أن يكون لهم وراء ذلك من النصيحة والأمانه شئ. وقد وضع المعيار البديل وهو: سوابق المرشح وفى مقدمتها أن يكون قد عمل للولاة الصالحين قبله مع حسن أثره فى العامة واشتهاره بالأمانه: وأمره بعد ذلك بتقسيم الواجبات وتخصيص رئيس لكل قسم. فى رواية ابن شعبة نص على تفقد حالهم أى التفتيش عليهم. وعين الغرض من التفتيش وهو ما فيهم من العجرفة فى معاملتهم للناس الذين لا يجدون بدا من مراجعتهم فيكونوا هدفا لسوء المعاملة. ثم حمله مسؤولية مايرتكبه الموظفون أذا هو تغابى عن عيوبهم.

التجار والصناع:

يقول كاتب العهد إن طبقة التجار تقوم بما يعجز عنه سائر الناس وهو التوغل فى الأبعاد بحرا وبرا وسهلا وجبلا لاستجلاب المنافع والمرافق التى يحتاجها الناس ولا يجترئون عليها. ويأتى هذا من الطبيعة الخاصة لعمل التجار فى ذلك الزمن بما ينطوى عليه من مخاطر تنشأ عن وعورة المواصلات وصعوبة تأمينها مع بدائية وسائط النقل.

ومن هنا اعتبرت التجارة عند القدماء من الأعمال الصعبة التى لايتولاها إلا ذوو الهمم العالية. وقد أسقط القدماء من حسابهم إمكان قيام الدولة بالأعمال التجارية بما يغنى عن انفراد التجار بهذه الميزة. ثم أضاف إلى عنصر المخاطرة التى يتعرض لها التجار أن هذه الطبقة ومعها طبقة الصناع هم أناس مسالمون وأنهم بحكم المجال الذى يشتغلون فيه يحبون الأمن والاستقرار ولا يشكلون مصدر إقلاق للسلطة، مما يوجب العناية بهم وتفقد أمورهم. إلا أنه لم ينس أن ينبه الوالى إلى أن فى أكثرية التجار والصناع ضيقا فاحشا وشحا قبيحا. ولم يوضح مايقصدة بالضيق. ولكن محمد عبده فسره بعسر المعاملة أى عدم التسامح فى البيع والشراء. وأضاف أن فيهم أيضا احتكارا للمنافع وتحكما فى البياعات وهذا من عوامل الإضرار بالعامة كما أنه عيب على الولاة فأوصاه بمنع الاحتكار وأن يجعل البيع بيعا سمحا بلا اجحاف وأن تكون الأسعار لا تجحف بالفريقين. وفى هذا نص على تدخل السلطة فى الأسعار خلافا للحديث النبوى الذى ينهى عن التسعير.

الطبقة السفلى:

تضم هذه الطبقة تبعا لتحديدة: المساكين والمحتاجين وذوى العاهات واليتامى والعجزة. وقد أمره أن يخصص لهم نصيبا من بيت المال وغلات الصوافى ـ أراضى الدولة ـ أى دون أن يقتصر على نصيبهم من الزكاة وحذره من إهمالهم بحجة الانشغال بالأمور الخطيرة. ثم نظم له طريقة الاتصال بهم فأوصاه أن يعين لهم موظفين يتولون أمورهم فيستقصونهم ليعرفوهم مؤكدا على ضرورة الذهاب إليهم فى مواقعهم لأن فيهم من لايستطيع الوصول إلى السلطة أو ممثليها ليعرض عليها حالته. يعنى بالضبط عدم تعليق ذلك على القصص ـ العرائض، ووضع مسؤولية المبادرة إلى ضمانهم على السلطة. وقد أوجب أن يكون الموظف من أهل التقوى والتواضع، وهو شرط يفرضه التعامل مع هذه الفئة التى يجعلها وضعها البائس عرضة اللازدراء

والإهمال فيستحيل بالتالى أن يتولى أمورهم بكفاءة وعناية من يرى نفسه أرفع رتبة منهم. واعترف كاتب العهد أن شؤون هؤلاء المسحوقين ثقيلة على رجال الحكم والادارة لكنه استطرد فقال إن الحق هو فى العادة ثقيل إلا على من «طلب العافية ووثق بوعد الله» ولا بد أنه يقصد المؤمنين الصادقى الايمان.

إن هذه التوصية تتفق مع الصله التى جمعت بين على بن أبى طالب وهذه الفئة وهى من بين المحتويات الأساسية فى العهد، التى تحملنا على توثيق نسبته أو بعضه إليه. وقد بدا الرجل حائرا فيما إذا كان بمقدوره تحقيق طموحاته بالنسبة لهؤلاء المسحوقين بالنظر الى عدم ثقته فى الكثير من أعوانه فتشبث بعاطفته الدينية متوقعا أن تكون هذه المهمة الثقيلة خفيفة على المؤمنين الصادقين.

الخراج:

يقول كاتب العهد إن الزراعة هى مصدر حياة الناس فالناس كلهم عيال على الخراج وأهله والخراج هو المصدر الأكبر لبيت المال. وقد شدد على عامله بالعناية أولا بعمارة الأرض وأن يقدمها على التفكير فى حصيلة الخراج. وتعنى العمارة ديمومة وتطور الإنتاج الزراعى مما يستدعى الإشراف المباشر على وضع الإنتاج فى الأرياف. ولهذا الغرض تنص رواية ابن شعبة على الأمر التالى:

أن يتصل الوالى بالمزراعين لمعرفة أوضاعهم وحاجتهم. وبعد أن ينهى استقصاءاته حول أيه قضية يتصل بالخبراء فيتداول معهم بشأنها. ثم يصدر قراره فى ضوء ذلك. وعلى سبيل المثال إذا كان المزارعون قد شكوا من فداحة الضريبة عليهم وجب على الوالى تخفيفها عنهم. وإذا كانوا قد طلبوا تعميرا أو إصلاحا وجب القيام به نيابة عنهم. وقد علل هذه الوصية بالاستناد إلى اعتبارين:

تحقيق العدل.

ديمومة الخراج.

ومنال العدل ضرورته الأخلاقية من جهة، وما ينتج عنه من الحصول على ثقة أهل الأرض بالوالى من الجهة الأخرى . أما الخراج فلا يدوم إلا بالعمارة فإذا خربت الأرض هبطت حصيلته. وندد بمن يجبى الخراج دون النظر فى عمار ة الأرض لأنه إيذان بخراب البلاد وهلاك الناس. ثم ذكره بأن نفوس الولاة تميل إلى الجمع، يقصد الجباية، بما ينتج عنه من

إرهاق أهل الأرض وأفقارهم. وربط بين هذه الحالة وخراب الأرض، « وانما يؤتى خراب الأرض من إعـواز أهلهـا» وعلينا أن نتـذكـر بهـذه المناسبـة أن وضـع الزراعـة كـان على الدوام هدفـا للسياسة الاستنزافية التى سار عليها الخلفاء المسلمون والتى اعتمدت أساسا على (الجمع) دون النظر فى متعلقاته. وقد سبب إفقار مستمرا للفلاحين وجعل الريف نموذجا بائسا للظلم والخرا ب. وهو مايفسر لنا عناية بعض المفكرين والفقهاء بالتأكيد على العدل والإنصاف - فى حدود الشريعة على الأقل - وعلى الاهتمام بعمار ة القيعان ومراعاه ظروف المزراعين عند الجباية.

أموريباشرهاالوالى:

أوصى كاتب العهد عامله أن يتصدى بنفسه للنظر فى قضايا المتظلمين وذوى الحاجات، على أن يعقد لهذا الغرض مجلسا عاما اشترط إن يكون خاليا من الحرس حتى يكون بإمكان المتظلم عرض قضيته من غير تردد أو رهبة. كما أمره أن ينظر فى حاجات المتظلمين بلطف وأناه وأن يستحمل هفواتهم ولا يعاملهم باستعلاء.

ومهام أخرى يتعين على الوالى مباشرتها منها الإجابة على رسائل الولاة المرتبطين به إداريا إذا عجز الكتاب. ومنها تلبية حاجات الناس فى يوم ورودها، وبين له أن ذلك سيحرج، أعوانه أى موظيفة وعماله، فيمنعهم من تأخير معاملات الناس. ويدخل فى عددا الأمور المباشرة إقامة الفرائض الدينية وقد أكد كاتب العهد على أدائها وأوصاه بتفريغ أوقات لطقوس العبادة. وفى الحالات التى يؤم فيها الناس للصلاة أمره بعدم الإطاله لئلا يؤذى صاحب العلة والحاجة .وحدد الوقت المناسب لذلك بحديث رفعة إلى محمد يأمره فيه أن يصلى فى الناس صلاة أضعفهم أى أعجزهم عن القيام بالصلاة وما تتطلبة من جهد بدنى.

ثم أوصاه بعدم الاحتجاب لأنه يجعل الناس يجهلون اتجاهات السياسة القائمة فيسيئون فهمها كما يحرم الوالى من معرفة الاحتياجات العامة. ولابد لتحصيل الفهم المتبادل بين الحاكم والرعية من المخالطة لأن الحقائق، كما يقول، لا تعرف بالظن وانما بالاختبار. وقد نص كاتب العهد على أن هذه السياسة تقود إلى البلبلة حين وصف الاحتجاب بأنه يقطع عن الرعية علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل. ودفعاً لهذه الملابسات يجب على الوالى أن يكون على صلة مباشرة بالناس.

وفى فقرة تالية أكد على الوالى بأن يدافع عن سياسته أمام الرعية فإذا اتهموه بالحيف فى إجراء ما وجب عليه أن يصرح لهم بالعذر فيكشف لهم مبرر الإجراء المنتقد. وجعل التصريح بالعذر سبباً لجملة أشياء، منها ترويض نفسه على ممارسة الاتصال والتفاهم مع الرعية وتقتضى هذه الرياضة مجابهة عقدة التعالى التى تميز علاقة الحاكم بالشعب. ثم إن الانفتاح على الرعية بهذا الشكل يعطيه العذر الكافى لمطالبتهم بالسير فى خط السلطة.

إن هذا التعليم يصدر عن الميول الشعبية لكاتب العهد. ومن المعتاد أن تعمد السلطة وهى تتمثل مثل هذه الميول إلى مكاشفة الناس بالحقائق وعدم تضليلهم إعلامياً. وفى الغالب، فإن هذا يحدث حين يكون رجل الحكم مالكاً لقضية تتعدى مصالحة الخاصة كحاكم. ويعنى ذلك:

١ـ عدم جعل السلطة، كما فهمها الحكام المسلمون، مثلاً، وسيلة للتلذذ.

٢ـ أن لا يكون الحاكم معبراً عن مصالح طبقة فاسدة.. والحالتان لا تنفصلان عن بعضهما. فالحكام الذين أرادوا السلطة لأغراضهم الشخصية هم أنفسهم الذين يحكمون فى العادة نيابة عن طبقة من هذا النوع. إن السلطة التى تتلبس هاتين الحالتين تتجه تلقائياً نحو الاستبداد والبيروقراطية، أى نحو الانعزال عن الشعب واتباع سياسة ما وراء الكواليس. وقد اتجه العهد حتى الآن إلى رسم الصورة التقريبية للسلطة البديلة عن هذه فى حدود المستوى المتواضع للفكر السياسى فى المرحلة التى كتب بها. ويتطابق هذا المبدأ مع سلوك على بن أبى طالب فى خلافته. وقد دافع عن نفسه أمام الخوارج بأنه لم يكتم عنهم شيئاً.

الحاشية والبطانة:

أطلق هذا الاصطلاحان فى الأدب السياسى الاسلامى على الفئة القريبة من الحاكم كالوزراء وقادة الجيش والموظفين الكبار، إلى أجانب أقرباء الحاكم وأصدقائه. وقد نسب كاتب العهد إليهم الاستئثار[١] والتطاول وقلة الإنصاف فى المعاملة. وهى صفات مألوفة عرفتها أنماط الحكم المختلفة قديماً وحديثاً.

لكى يضع حداً يمنع البطانة من سوء التصرف أوصى كاتب العهد بما يلى:

(١) الاستئثار: من الاثرة وهى الأنانية: واستأثر بالشىء انفرد به. والاستئثار فى لغة العهد يعنى انفراد الحاشية بالمصالح والامتيازات مستفيدة من علاقاتها بالحاكم.

- -

١ـ عدم منحهم إقطاعات. لأنهم إذا امتلكوا أرضاً أضروا بجيرانهم لاعتمادهم فى استثمارها على نفوذهم مما يوفر لهم ميزات لا يتمتع بها غيرهم كما يمكّنهم من التصرف بقوة السلطة تبعاً لمصالحهم.

٢ـ أن لا يسمح لهم بأية صفقة عمل يحملون مؤونتها على غيرهم ويستقلون هم بثمراتها.

٣ـ تقديم ما يراه الوالى حقاً على مصالح الحاشية والبطانة والزامهم به رضوا أم كرهوا.

٤ـ أن لا يترك لعاطفته أثراً على سلوكه معهم.

وتعطى التوصية انطباعاً بأن خاصة الوالى لن تحصل على شىء. فمن حقنا لذلك أن نسأل: ما الذى يشد هؤلاء إلى السلطة إذا فقدوا الأمل فى استغلالهم؟ الجواب هو أن تكون هناك قضية مشتركة بين القائد وأتباعه تحقق درجة معقولة من التجانس ويكون فيها القائد أسوة للأتباع فى عدم استغلاله لسلطته وفى سيرته الشخصية القائمة على الورع. وعندئذ لا يعود هم الحاشية محصوراً فى الاستيلاء على الامتيازات.

على أن تصور مثل هذا الوضع المثالى مستحيل إلا فى سلطة ثورية وفق المفهوم العصرى. أعنى سلطة يتولاها ممثلوا الطبقات المسحوقة وتوجهها إيديولوجية علمية وأهداف محددة. ولابد أن يقودنا ذلك إلى القول بأن عهد الأشتر قد تجاوز الحدود الممكنة لمرحلته وهو يتصور بطانة للسلطة لا تملك شيئاً وحاكماً لا يمنح خاصته امتيازاً على سائر الناس. وحينما نعود إلى افتراض أن كاتب العهد هو على بن أبى طالب فإننا نعلم أن بطانة هذا القائد لم تحصل بالفعل على شىء، وكان هو نفسه قدوة لهم فى عدم استغلال السلطة والاستئثار بامتيازات خاصة. على أننا نعلم أيضاً أن على بن أبى طالب فشل فى كبح جماح بطانته عن الاستغلال والخيانة. وبعد أن أكلت الحرب فى الجمل وصفّين وما تخللها وتلاها من أحداث خيرة أتباعه من أمثال عمار بن ياسر ومالك الأشتر وأدركت البطانة ضعف مركزه عاد أفرادها يتصرفون بروح الباحث عن الغنائم. وقد امتدت هذه الروح إلى أقرب أتباعه كابن عمه عبدالله بن عباس الذى عينه والياً على البصرة فنهب بيت مالها وهرب، وشقيقه عقيل الذى دفعه الحرمان

إليى الالتحاق بمعاوية. وانتهى الأمر بعد مقتله إلى عقد الصفقات السرية مع خصومه، فالتحق ابن عمه الآخر عُبيد الله بن العباس بمعاوية بعد تقديم رشوة اتفقا عليها. وكان عبيدالله قائداً لجيش الحسن الذى بويع بالخلافة بعد والده. ثم جاء دور الحسن ليتنازل عن الخلافة لحساب معاوية لقاء خراج دَرا بجِرد إحدى المقاطعات الكبيرة فى إيران.

لدى البحث عن تفسير لهذا الوضع فإننا نراه فى عدم تكامل المنهج الاجتماعى للحركة التى قادها على بن أبى طالب، وفى انعدام أيديولوجية اجتماعية تقف وراء الانحياز الذى أظهره للعامة. وكان من شأن ذلك أن يحرم الحركة من شروط الحركة الثورية بمفهومها المعاصر، وأن يبعدها، بالتالى، عن ذلك الجو الأخلاقى الصارم الذى يفترضه الموقف الثورى. ولم يكن أمام الحركة للتعويض عن هذا النقص غير الدور الذى تلعبه الأصالة الشخصية كما بينت سابقاً. ولعل هذا هو السبب فى أن النماذج النزيهة لم تتجاوز عدداً محدوداً من الأتباع.

وصايا ختامية:

بعد أن فرغ الكاتب من تفصيل المبادىء المطلوب من العامل أن يصرف شؤون ولايته وفقاً لها، سجل الوصايا التالية وجعلها ختاماً للعهد:

- وجوب البحث عن سُنَن الماضين للاقتداء بها. وفيها دعوة للاستفادة من تجارب الغير توجب على القائد أن يدرس التاريخ.

- مجانبة الإعجاب بالنفس وحب الإطراء. ومن هذا القبيل عدم المنّ على الرعية بالإحسان أو التزيد فى أفعاله عما هو حاصل منها. بعبارة أخرى: أن يقدم الإنجاز البسيط فيثير حوله ضجيجاً لا يتناسب مع حجمه الفعلى. ولفهم اتجاه هذه التوصية يحسن أن نتذكر ما يفعله الإعلام الرسمى فى البلدان العربية وغيرها من بلدان العالم المتخلف. إن أجهزة الإعلام فى هذه البلدان تثير الضجيج حول أصغر الإجراءات كتبليط شارع أو إنشاء حديقة عامة، أما الإجراءات من الحجم الأكبر فإنها تضع المواطن العادى تحت طائلة تذكير يومى على مدى سنوات طويلة. ويعتبر ذلك فى باب المنّ على الشعب بمنجزات السلطة التى تعرضها أجهزة الإعلام بالطريقة التى يتحدث بها المحسنون عن أنفسهم.

- -

ـ الحذر من العجلة بالأمور قبل أن تتضح أسبابها ومن التهاون عند إمكانها، ومن اللجاجة فيها إذا تعذرت، وبذلك يزن سياسته بميزان دقيق يميز بين الممكن والمستحل، وبين ما تهيأت ونضجت أسباب المبادرة إليه وما لم تتهيأ بعد.

هذه التوصية تدعو إلى التصرف وفقاً للظروف، وهى ضد اتجاهين فى السياسة: اتجاه مغامر يعمل قبل أن تنضج الأسباب متجاهلاً أحكام الظرف القائم وآخر متخاذل يعجز عن المبادرة إذا حان الوقت.

ـ ثم يكرر وصايا سبقت فينهاه عن الاستئثار والعجرفة والسطوة ويختتم بدعاء يسأل فيه التوفيق إلى العدل والحصول على ثناء العباد مع الآثار الجميلة فى البلاد.

العنف والأغتيال السياسى فى الإسلام

الاغتيال اشتقاق من الجذر الثلاثى غ. و. ل الذى يفيد الهلاك، وصياغته على زنة افتعال تفيد الطلب، أى بما ينطوى على العمد والقصد. فالاغتيال هو إرادة الغول ـ الهلاك ـ للآخر، وبهذا المعنى يفيد القتل العمد. وإذا اعتبرنا اشتقاقه من غ. ى. ل. فهو مفسر فى قول الفيروز آبادى وابن منظور: «قتله غيلة، خدعه فذهب به إلى موضع فقتله». وأصل غ. ى. ل. هو الحرج ذو الأشجار الملتفة الكثيفة. وعندئذ قد يصح لنا الاستنتاج بناء على قول الفيروزى آبادى وابن منظور أن قولهم اغتاله مأخوذ من قتله فى الغيل، أى غفلة فى موضع خفى. مع ملاحظة أن عبارة قتله غيلة أكثر وروداً فى النصوص القديمة من اغتاله.

يرادف الاغتيال كلمة أخرى هى الفتك، التى تتضمن معنى مزدوجاً: القتل عمداً وهو ما تؤديه الكلمة الانكليزية Murder التى تترجم تسامحاً إلى القتل بإطلاق. المعنى الثانى هو القتل على غِرّة كما نص عليه الزمخشرى فى «الأساس» . وهو المقصود فى الحديث النبوى: «الإيمان قيّد الفتك» الذى سيأتى الكلام عليه . وميز اللغويون الاغتيال عن الفتك؛ فالاغتيال إذا قتله من حيث لا يعلم، والفتك إذا قتله من حيث يراه وهو غارّ (غافل) غير مستعد. وتدخل الحالتان فى مفهوم الغدر. لكن الفتك أعم فهو يشتمل على جملة أركان تكتنف الفعل: العمد، الاستغفال، الاندفاع غير المحسوب، الجرأة والإقدام، ونجد هذه الأركان مجتمعة فى صفة الفاتك التى ترد فى معان تترواح بين الإعجاب وعدم الارتياح. ولذلك لا نجدها تستعمل لوصف الشخصيات التاريخية المشتهرة بالشجاعة مثل على بن أبى طالب مع أنها تطلق مع الإشعار بالمهابة على الشجعان العاديين.

من هنا ينفرد الاغتيال بالدلالة على القتل العمد المشتمل على أحد ركنين:

١ـ استغفال المقتول، كأن يأتيه القاتل من ورائه، أو يكمن له.

٢ـ أو استدراجه للإيقاع به فى مكان معزول.

والاغتيال هو اللفظ الشائع اليوم، والذى يجب أن تقتصر عليه المعاجم الحديثة، دون قتل الغيلة لأنه مهجور فى العربية المعاصرة ولأن الأفضلية فى الاستعمال يجب أن تكون للاصطلاح المؤلف من كلمة واحدة.

الحكم الشرعى وتجارب العهد النبوى

أورد الفخر الرازى فى تفسير الآية ٣٨ من سورة الحج من «تفسيره الكبير» ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾. إن مسلمى مكة استأذنوا النبى على قتل المشركين الذين آذوه، سراً، فنهاهم ونزلت الآية لتؤكد هذا النهى.

وفى هذا المعنى يرد حديث أخرجه أبو داوود فى كتاب الجهاد من سننه، نصه.. «الإيمان قَيَّد الفتك. لا يفتك مؤمن».. وقد تردد هذا الحديث فى أخبار قتل الحسين، إذ يروى أبو الفرج الأصفهانى فى «مقاتل الطالبيين»[١] أنّ مسلم بن عقيل استشهد به حين دافع عن عدم تنفيده خطة رسمها له قائد شيعى بالكوفة لاغتيال عبيد الله بن زياد. ويمكن قبول صحة الحديث فى ضوء الآية الآنفة من سورة الحج، وهو يشكل بالتكامل مع الآية موقفاً شرعياً غير محبذ للاغتيال مهما تكن دوافعه. ويتجانس هذا الاتجاه مع قيم الفروسية الجاهلية التى تتمسك بالقتال وجهاً لوجه ولا تقر حتى ملاحقة الهارب. والفارس الجاهلى إذا صادف خصماً له خاطبه بالعبارة الشائعة: «خذ حذرك إنى قاتلك» قبل أن يهاجمه.

ولعل الموقف الاسلامى لا يتعدى هذا المنحى الجاهلى بقدر ما يكون قاعدة أخلاقية متعارف عليها. لكن هذا ليس هو السبب الأساسى فى النهى عن اغتيال المشركين بمكة، فهذا النهى يأتى فى سياق استراتيجية النبى محمد فى الطور الملكى. وكانت الدعوة الاسلامية حينذاك مقتصرة على التبشير وإمكاناتها لا تسمح باستعمال السلاح، كما أنها لم تكن قد امتلكت بعد مستقراً تتحرك منه لمزاولة هذا الشكل من الصراع. وفى الظروف الصعبة التى كانت عليها الدعوة آنذاك، كان مقتل أى شخص من المشركين يكفى لإعطاء مبرر لشن حملة إبادة ناجحة ضد تلك الفئة القليلة من مسلمى مكة. وفيما يتعلق بسلوك مسلم بن عقيل فهو - إذا صحت الرواية - لا يعبر عن التزام جدى بالحديث بقدر ما كان تبريراً لتردد مسلم، المعروف أنه لم يكن قدّ المهمة التى كلفه بها ابن عمه حين أوفده إلى العراق.

---

(١) ص٩٩ من . طـ القاهرة ١٩٤٩ (باب مقتل الحسين). انظر أيضاً: «الأخبار الطوال» للدينورى ص٢٣٦ القاهرة ١٣٣٠هـ.

وفى وسعنا الافتراض أن النهى عن الاغتيال كما يتحدد فى الموقف الشرعى الاسلامى موجه لمحيط العلاقات الفردية، و«نافذ» ضمن الوضع الاعتيادى لمجتمع لم يتأزم فيه التناحر - حث تأخذ القوانين أو الأعراف مكانها فى ضبط سلوك الأفراد، وتخضع حالات الصراع اليومى لاختصاص السلطة القضائية، وهو اختصاص لا يشمل أطراف الصراع السياسى والاجتماعى فى ظروف التحولات التاريخية القائمة على العمل المسلح.

ويستفاد من دراسة السيرة النبوية أن فضلاً كثيراً فى النجاحات التى أحرزها محمد يرجع إلى مرونته فى اختيار الوسائل وقدرته على التصرف خارج منظومة المحرمات التى تشكلت منها شريعته.ولا شك فى أن منشيء تاريخ من طراز محمد لا يعجز عن التفريق بين إقدام فردى ينتهك مبادىء داخلية تقوم عليها البنية الأخلاقية لمجتمع ما، وبين تكتيك حركة ينفذ بالسلاح منطلقاً من أرضية سياسية تاريخية أشمل وأبعد مدى.

تضمنت مصادر السيرة والتاريخ ثمانى وقائع اغتيال ناجحة ومحاولة واحدة فاشلة حدثت جميعها إلا واحدة فى المرحلة السابقة للحديبية. وهذه المرحلة اتسمت بالنمو البطىء للقدرة السياسية والعسكرية للإسلام الناشىء، وكانت فيها المدينة معقله الأوحد حينذاك، عرضة باستمرار للاجتياح. وقد استعمل تكتيك الاغتيال السياسى فى ذلك الوقت ليوفر أحياناً، تعويضاً نوعياً عن الافتقار إلى قوة عسكرية ضاربة وليساعد أحياناً أخرى على ردع العناصر المناوئة داخل يثرب فى وقت كانت سلطة الإسلام لم تترسخ بعد حتى فى معقله الوحيد هذا.

اغتيال زعماء يهود

كانت فى يثرب كما هو معلوم تجمعات يهودية تعيش غالباً فى حصون بعيدة عن مركز المدينة. وكانوا خليطاً من مهاجرين وسكان أصليين (عرب) وقبائلهم الرئيسية هى بنو النضير وبنو القينُقاع وبنو قُريظة، إلى جانب يهود خيبر خارج يثرب على طريق الشام. وكان محمد قد سعى أول هجرته إلى التحالف معهم ضد مشركى مكة على أساس العقائد المشتركة للديانتين. لكنه أخفق، فكان لمحمد أن يسعى لأضعاف تأثيرهم عليه. وكانت وسيلته المبكرة إلى ذلك هى الاغتيال، الذى وجه للتخلص من عناصر مؤثرة بينهم. وقد نفذت ضدهم خمس خطط اغتيال نستعرضها فيما يلى:

كعب بن الأشرف:

زعيم يهودى بارز والده من قبيلة طيء وأمه من بنى النضير وكان حليفاً لبنى قريظة أقوى عشائر يثرب اليهودية. نشط ضد محمد منذ أول الهجرة وكان من حلقات الاتصال الأساسية بين اليهود وقريش. وبعد معركة بدر ذهب إلى مكة ليحرض قريش على الثأر لقتلاها فى تلك المعركة. وكان يقرض الشعر فنظم قصائد يعرّض فيها بنساء الصحابة وأنشد فى مكة قصيدة فى رثاء قتلى بدر من أهل مكة. وتقول مصادر السيرة إن ذلك مما أغاظ النبى كثيراً. لكن خطره فى الحقيقة لا يتمثل فى هذا الجانب، لا سيما وأن شعره، بحسب الأمثلة التى أوردتها هذه المصادر، لم يكن فى مستوى شعر الفحول الذين يُخشى من جاذبيتهم، وإنما يكمن فى موقعه القيادى بين يهود يثرب.

للخلاص من عنصر خطر كهذا تقرر اغتياله. وقد وردت تفاصيل العملية فى روايات مختلفة يغلب عليها الاضطراب والابتسار، وأقدم هنا خلاصة موحدة بالمحتويات الرئيسية، المقبولة عندى، لهذه الروايات.

اختار النبى صحابياً يدعى محمد بن مسلمة عرف بخبرته فى حبك المكايد ــ اعتمده عمر بن الخطاب فيما بعد للتجسس على الولاة ــ وأمره بالتشاور مع زعيم الأوس سعد بن معاذ. وكان الأوس حلفاء بنى قريظة فى الجاهلية، فهم يعرفون بعضهم جيداً كما توطدت بينهم علاقات شخصية استمرت بعد الاسلام. وتقول المصادر أن محمد بن مسلمة اختار لتنفيذ المهمة نفراً من الأوس، وهو نفسه أوسى، بينهم رجل يكنى أبو نائلة كان هو وابن مسلمة رضيعين لكعب بن الأشرف. وتمت الخطة على مرحلتين؛ ذهب أولا محمد بن مسلمة أو أبو نائلة ــ بحسب اختلاف الروايات ــ إلى كعب وقال له إن هذا الرجل، يعنى محمد، قد طلب منا صدقة وإنه قد عنّانا وإنى قد آتيتك أستسلفك. ورأى كعب فى هذا الكلام من رضيعه مصداقاً لتحذيراته لهم من محمد فعقب عليه: وأيضاً، والله لتملنه. فقال صاحبه: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين. فوافق كعب أن يسلفهم لقاء رهن. واتفقوا على موعد.

ورجع ابن مسلمة ــ أو أبو نائلة ــ إلى جماعته فأخبرهم. وتوجهت المجموعة لموعدها ومعها النبى محمد يسايرها حتى البقيع ــ من ضواحى المدينة ــ حيث بقى فى انتظارهم. ولما بلغوا

قلعة كعب ناداه ابن مسلمة أو أبو نائلة فنزل إليه فعرفه على جماعته، وتمشوا خارج القلعة للتحدث فى الشأن الذى تواعدوا عليه. ولم يطل بهم المسير حين مد ابن مسلمة أو صاحبه يده إلى رأس كعب، ثم سحبها ليشمها وهو يقول مداعباً إياه: ما أطيب عطرك. وكان كعب حديث عهد بالزواج من امرأة عرفت بكثرة التعطر. وبعد قليل أعاد المذكور هذه الحركة معبراً مرة أخرى عن إعجابه بعبيره، ثم رجاه أن يسمح لأصحابه أن يشموه ليتمتعوا معه بهذه الرائحة النادرة... وكانت هذه إشارة متفق عليها فتقدم أفراد المجموعة من كعب بوضعية من يريد أن يتشمم شعره المطيب وأهووا عليه بسيوفهم فقتلوه ثم قطعوا رأسه. وقد تمت هذه العملية بسرعة خاطفة لأنها نفذت فى أراضى اليهود الذين انتبهوا على صرخة كعب لحظة ضربه فأشعلوا نيرانهم فوق أسوار القلاع. وعاد المنفذون إلى البقيع ومعهم رأس كعب ووضعواه بين يدى النبى برهاناً على نجاح المهمة.

اغتيل كعب بن الأشرف فى الشهر الثالث من السنة الثانية للهجرة، بُعيد معركة بدر.. وقد اشتملت عملية اغتياله على تكتيكات وأهداف نجملها فيما يلى:

١ـ اختيار شخصين قريبين إلى المراد اغتياله لتسهيل استدراجه إلى الفخ.

٢ـ إيكال المهمة إلى رجال من الأوس وهم كما قلنا حلفاء بنى قريظة. ويهدف هذا التكتيك إلى منع ردود الفعل المحتملة إزاء مقتله فى أوساط الأوس.

٣ـ التظاهر أمام كعب بمعارضة النبى والاستياء منه، استغلالاً لوجود معارضة فعلية فى يثرب سواء من المنافقين أو الناس الأخرين الذين لم يكونوا مرتاحين لما تعرضت له مدينتهم من مشاكل بعد هجرة النبى إليها، ويدخل ذلك فى تكتيك الاندساس الهادف للإيقاع بالعدو.

٤ـ جعل العملية فى الليل لتسهيل الانسحاب بعد القيام بها.

أما الأهداف التى وفرها الاغتيال فهى:

١ـ التخلص من متآمر خطر على حركة ناشئة.

٢ـ إرعاب المناوئين للتخفيف من اندفاعهم ضد الحركة، لا سيما وأن نجاح الاغتيال قد بيَّن لهم أن الحركة تمتلك أدوات ووسائل كافية للردع. كما أثبتت لهم جدية محمد فى المجابهة.

٣ـ إن هذا العمل قد بيَّن ليهود المدينة أن محمد ليس هدفاً سهل المنال كالمسيح، ولعله قد أزال ما قد يكون تبقى بعد معركة بدر من أوهام بهذا الخصوص.

استنتاج فقهي خاطيء:

قال السهيلى فى «الروض الأُنُف» الذى شرح فيه سيرة ابن هشام، إن الفقهاء ـ عدا أبو حنيفة ـ رتبوا على قتل كعب بن الأشرف حكماً بوجوب قتل من سب النبى وإن كان ذا عهد[1]. والحكم مبنى على أن كعب قتل لأنه كان يهجو النبى. وقولهم «ذا عهد» يشير إلى ارتباط يهود المدينة فى ذلك الوقت بميثاق يثرب الذى حاول النبى محمد أن يجعله إطاراً للتحالف معهم. وقد أكسبهم هذا الميثاق صفة أهل الذمة. وهذا من الأقيسة السطحية القائمة على مناط شكلى، إذ لم يدخل هؤلاء الفقهاء فى اعتبارهم أركان الحدث من جهة ارتهانه بحالة حرب وكون المقتول من قادة العدو المقاتل وكونه بالتالى إجراءً سياسياً عسكرياً لا يصلح أن يكون سابقة، لحكم قضائى. وكم من الفرق بين هذه الحالة وحالة إنسان عادى يشتم النبى لغواً أو مهاترة. ولعل معارضة أبو حنيفة لهذا الحكم وعدم إجازته قتل من سب النبى مسلماً أو ذمياً هى نتاج هذا التفريق بين الحالتين. وأبو حنيفة معروف بدقة أحكامه وسعة أفقه فى الاجتهاد.

سلام بن أبى الحقيق:

كان من زعماء بنى النضير والتحق بعد إجلائهم بخيبر ليستمر فى مناهضة المسلمين من هناك. وهو من المحرِّضين الكبار الذين عملوا على دفع قريش لشن هجومها الأخير على المدينة حيث وقعت معركة الخندق.. وكان قد ذهب فى وفد يهودى إلى مكة لهذا الغرض. وبعد عودته وضعت خطة لتصفيته. ومصادر السيرة تفيد أن البادرة جاءت من الخزرج وأنها كانت بدافع المنافسة مع الأوس، خصوههم القدماء الذين حصلوا على شر ف اغتيال كعب بن الأشرف. لكن الفكرة لم تكن، مع صحة هذه المصادر، لتغيب عن النبى الذى سبق أتباعه إلى إدراك الفوائد المترتبة على مثل هذه العمليات. وقد اختار لهذه المهمة مجموعة من رجال الخزرج وأمرهم بالتوجه إلى خيبر. وفيما يلى تفاصيل العملية:

كان على المجموعة أن تدخل حصن خيبر ليلاً، حسب الخطة، فتقدم أحدهم ويدعى

(١) ج٢/ ١٢٢ ـ القاهرة ١٩١٤.

عبدالله بن عتيك أو ابن عُقبة من بوابة الحصن، وتظاهر بأنه يقضى حاجته خارج السور فصاح عليه البواب: إن كنت تريد أن تدخل فادخل أريد أن أغلق الباب. فدخل وكمن فى معلف حمار قريباً من المدخل. وبعد أن دخل أهل الحصن فى وقتهم المحدد دخل البواب وأغلق البواب وانتظر عبدالله فى مكمنه حتى أقفر المدخل من الناس فقام وأخذ المفاتيح، وكان قد رأى أين علقها البواب، وفتح البوابة. وكانت المجموعة تنتظر خارج الحصن فدخلوا. وكان الغسق قد حل، فتوجهوا إلى دار ابن أبى الحقيق فدخلوها. وكانت الدار أشبه بمجمعة تحتوى على عدة بيوت. ولم تصف الرواية كيف استطاعوا دخولها لكنها تذكر أنهم أغلقوا أبواب البيوت على أهلها من برة. ثم اقتحموا المنزل الذى يقيم فيه ابن أبى الحقيق، والرواية هنا مبتسرة لا توضح كيف اقتحموا المنزل. وعلى أى حال فقد وصلوا إليه فوجدوه مع زوجته على فراشهما. وكان البيت مظلماً ولكى يميزوه عن زوجته نادى عليه أحدهم فأجابه فزعاً: من أنت، فهجم باتجاه الصوت وضربه ضربة عشوائية بالسيف لم تصبه. ونهضت امرأته فى وجوههم فارتبكوا؛ لأن النبى أوصاهم أن لا يتسببوا فى قتل امرأة أو طفل. غير أنهم استطاعوا أخيراً دفعها عنه وتناولوه بأسيافهم فأجهزوا عليه. وفى هذه الأثناء خرج أهل الحصن من بيوتهم على صراخ المرأة، فاختفى المنفذون فى إحدى زوايا الحصن، فلم يعثر لهم على أثر لشدة الظلام. وعاد اليهود بعد أن يئسوا من العثور عليهم إلى زعيمهم فوجدوه قد مات، فانشغلوا به، وانتهزت المجموعة هذه الفرصة فتسللوا من الحصن.

إن اغتيال سلام بن أبى الحقيق يندمج فى اغتيال كعب بن الأشرف ويحقق نفس الأهداف بالنظر للدور والمركز المتماثلين لكلا الزعيمين:

ابن سنينة:

هكذا ورد الاسم فى المصادر. وكان من يهود بنى حارثة. ولم تذكر له الرواية دوراً يتعدى هجاء النبى والمسلمين بالشعر. تولى اغتياله بأمر النبى شخص يدعى مَحيصة بن مسعود. وكان المقتول حليفاً لشقيقى القاتل وهو حُويصة بن مسعود. وقد اغتاله بحضور شقيقه دون علم مسبق منه. وكان حويصة مشركاً متنفذاً وقد اختار النبى أخاه محيصة لهذه المهمة وهو مسلم، بخلاف أخيه، لتفادى مشكلات الثأر.

اغتيل ابن سنينة بعد اغتيال كعب بن الأشرف. ويؤخذ من الرواية التى تناولت الحدث أنه

جاء فى سياق التخويف لغيره لأن اليهود جاءوا بعد مقتله إلى محمد يشكون ما حدث فأجابهم: «إنه لو قر كما قد قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل. لكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر». وكلام النبى هنا واضح فقد اغتيل الرجل لأنه نشط فى المناهضة ولو سكت كما سكت غيره محتفظاً بوجهة نظره لسلم.

اغتيال امرأة:

ورد هذا الحدث فى روايتين مختلفتين كثيراً، إحداهما فى مصادر الحديث والأخرى فى مصادر السيرة. رواية مصادر الحديث أخرجها النسائى وأبو داود فى كتاب الحدود من سننهما وملخصها أن أعمى كانت له أم ولد (جارية ـ زوجة) وله منها ابنان وكانت تكثر الوقيعة بالنبى وتسبه وهو ينهاها ويزجرها فلا تنتهى. وذات ليلة ذكرت النبى وأخذت بشتمه فتناول مغولاً (سيف قصير دقيق) فوضعه فى بطنها ثم اتكأ عليه حتى قتلها. وجاء الأعمى إلى النبى وقال له: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت أم ولدى وكانت بى لطيفة رفيقة ولى منها ابنان مثل اللؤلؤتين ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك وتشتمك فأنهاها فلا تنتهى وأزجرها فلا تنزجر. فلما كانت البارحة ذكرتك فوقعت فيك فقمت إلى المغول فوضعته فى بطنها فاتكأت عليها حتى قتلتها. فقال النبى «ألا اشهدوا أن دمها هدر». ولم تذكر الرواية اسمها.

رواية مصادر التاريخ تفيد أن المرأة هى عصماء بنت مروان وأنها كانت يهودية ولم تكن جارية بل زوجة رجل من بنى خَطْمة كانت تحرض على الاسلام وتهجو النبى بالشعر. فنذر صحابى دعى عُمير بن عدى الخَطْمى ـ من نفس عشيرة زوجها ـ أن يغتالها إذا رجع النبى سالماً من معركة بدر. فلما رجع جاءها ليلاً فدخل عليها وهى بين أولادها وكان أحدهم على صدرها ترضعه، وكان عمير أعمى، فتلمسها فوجد الرضيع فنحاه عنها ووضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها. وعاد من الصبح وصلى مع النبى. ولما انتهت الصلاة نظر إليه النبى وقال: أقتلت ابنة مروان؟ قال: نعم يا رسول الله فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير فقال: علىّ شىء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان. وقال لأصحابه: إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدى.

ويصعب الجزم بأى الروايتين أصح. ولو أنهما تشتركان فى كون القاتل أعمى وفى أن المبادرة إلى الاغتيال جاءت منه ولم تكن أمراً من محمد، وأنه أ قرها بعد أن تمت. وربما

استنتجنا من قوله فى الرواية الثانية: أقتلت ابنة مروان؟ أن هناك أمراً ما، ما لم يكن هذا القول إضافة من الرواة للتدليل على معرفة النبى بالغيب. ويمكن ترجيح وجود أمر إذا أخذنا بما أوردته الرواية الثانية من كون القاتل من عشيرة زوجها لأن فيه تفادياً لمشكلات الثأر. وفى الروايتين إشكالات عسيرة الحل إذ يمكننا الارتياب فى صحةالثانية من الوصف المبسط للعملية الذى يبدو منه كأن المرأة كانت تمثالاً تجلس أمام الأعمى فى صمت وهو يلتقط المغول ويزيح رضيعها من على صدرها ثم يغرز المغول فيها ويتكىء عليها حتى تموت لكننا نجد هذا الأسلوب فى السرد شائعاً فى معظم روايات مصادر الحديث والكثير من روايات مصادر التاريخ العام. وهو ابتسار يكرس طبيعة النقل الشفوى للأخبار قبل مرحلة التدوين. ويتعذر علينا كذلك أن نعرف الصفة الحقيقية للمرأة، وهل كانت زوجة أم جارية؟ وهل هى يهودية؟ وما هو رد فعل زوجها إذا كان القاتل غيره؟ وماذا يدل عليه كون القاتل أعمى فى الروايتين؟ يضاف إلى ذلك تعارض هذا الفعل مع التشديد فى النهى عن قتل النساء. وقد رأينا كيف كادت خطة اغتيال ابن أبى الحقيق تفشل بسبب زوجته لأن المكلفين بذلك تحاشوا المساس بها التزاماً بوصية نبيهم. إننا مضطرون أمام هذه الإشكالات إلى التوقف بشأن الروايتين وعدم الجزم إن كان مثل هذا الحدث قد وقع فعلاً،ولو أن ورود الروايتين فى مصادر متعددة، مختلفة الاختصاصات ـ حديث، سيرة، تاريخ عام، تراجم، وأموال ـ يمنع من التشكيك الاعتباطى فيهما مع بقاء التفاصيل مجهولة فيما يتعلق بهوية المرأة ودورها فى الخصام إذا كان لنا أن نقبل المضمون الأولى للروايتين.

أبو عفك:

يهودى من بنى عمرو بن عوف، كان يحرض على محمد شأنه شأن غيره من كبراء اليهود فى يثرب، ولجأ فى ذلك إلى الشعر. وتقول الرواية إن صحابياً يدعى سالم بن عُمير الأنصارى عزم على اغتياله وأنه دبر الخطة بنفسه. وقد بقى يترصده حتى جاء الصيف حيث ينام الناس فى الأفنية. وفى إحدى الليالى كان أبو عفك ينام فى منازل عشيرته فتسلل إليه سالم وقتله بالمغول. وكان قد ناهز المئة والعشرين. وأقر النبى هذه العملية.

وكان اغتياله بين معركة بدر وأحد، وهى المدة التى اغتيل فيها أقرانه اليهود عدا ابن أبى الحقيق الذى اغتيل بعد معركة أحد.

توقفت الاغتيالات الموجهة ضد الشخصيات اليهودية بعد فتح خيبر الذى أعقب معركة الخندق، آخر معارك الاسلام ضد أهل مكة. وبفتح خيبر كانت المعارضة اليهودية قد صفيت حيث سبقه إجلاء بنى القينقاع والنضير وإبادة بنى قريظة وأصبح الخيبريون رعايا لمحمد بموجب عقد الذمة الذى أعقب اجتياح معقلهم الأخير.

اغتيال زعيم قبيلة:

وقع هذا الحدث بين معركتى بدر وأحد. وقد رواه الطبرى فى أحداث السنة العاشرة للهجرة من فصل عدّد فيه سرايا النبى، أى الحملات التى كان يوجهها لأهداف موصوفة. يدعى هذا الرجل خالد بن سفيان وهو من هذيل. وكان قد قرر تجميع قوة من عشيرته وغيرها لمهاجمة يثرب بعد معركة بدر. وقد يكون فعل ذلك بتحريض من قريش. ويبدو أن محمد وقف من طريق استخباراته على جدية هذا القرار. وقد نفذ هذه المهمة صحابى يدعى عبدالله بن أنيس كان ضمن المجموعة التى اغتالت كعب بن الأشرف. وحسب رواية هذا الصحابى نفسه أن النبى دعاه وأبلغه أن خالد بن سفيان يجمع الناس ليغزو المدينة، وأمره أن يذهب إليه ليقتله. وتوجه إليه بعد أن عين النبى أوصافه حتى يستطيع تشخيصه، إذ لم يكن قد رآه من قبل، ووصل قبل الأصيل فرآه يمشى مع نساء كان يبحث لهن عن منزل. ويظهر من الرواية أنه كان بعيداً عن الحى. فسلم عليه فرد عليه السلام ثم سأله من الرجل؟ فقال: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل ـ يعنى محمد ـ فجاءك لذلك. فرد خالد، أجل أنا فى ذلك. فتمشى معه قليلاً يحادثه فى هذا الشأن فلما وجد منه غفلة عاجله بضربةمن سيفه فأرداه. وعاد إلى نبيه ليخبره بإتمام المهمة فكافأه بعصا لتكون وسيلة تعرّف بينهما يوم القيامة. وباغتيال خالد بن سفيان فشلت خطة الهجوم.

يلاحظ أن اغتيال هذا الزعيم تم بسهولة لأنه كان يتحرك على طريقة البدو، بلا حرس ولا أركان حرب. ولم يتطلب الأمر خطة معقدة كالتى اقتضاها اغتيال كعب بن الأشرف ـ التاجر والمتحصن فى قلعة. ويرجع تأثيرهاالحاسم فى إفشال الهجوم إلى أنه كان قراراً منفرداً ومرتهناً بشخص القتيل، فانتهى بانتهائه. وكان محمد حين قرر اغتياله ملماً بهذه الحقائق جيداً لأنه كان يعتمد على جهاز رصد كفؤ.

اغتيال زعيم قبيلة آخر:

فى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى أن زعيماً لقبائل قيس يدعى رفاعة بن قيس الجُشَمى كان يجمع قيساً لحرب رسول الله. فوجه إليه ثلاثة فدائيين ذكر منهم عبدالله بن أبى حَدْرَد فكمنوا له. ورماه ابن أبى حدرد بسهم فقتله وجاء برأسه إلى النبى.

أورد هذا الخبر أيضاً ابن حبيب فى «أسماء المغتالين من الأشراف» ويختلف الرواة فى اسم المغدور إذ يرد أحياناً قيس بن رفاعة.

ويمكن الشك فى قطع رأسه لأنه يفترض وقتاً طويلاً للعملية مع انفراد المقتول عن أصحابه، مما يتعارض مع خطة العملية التى اعتمدت على كمين متحرك. كذلك يتعارض حمل الرأس مع حكم، شرعى ينهى عنه لأنه من باب المُثلة (التمثيل بالجثث) لكن ثمة حاجة قد تكون دعت إليه لإثبات نجاح العملية. وكما بينت فمؤسس الاسلام لم يتقيد بالأحكام الشرعية إذا تعارضت مع مخططاته.

اغتيال عَبْهَلة، الأسود العنسى:

كان عبهلة (أو عيهلة) من زعماء الردة وقد تحرك باليمن فى أواخر حياة محمد وسيطر على معظم أنحائها وامتد نفوذه إلى أجزاء واسعة من الجزيرة تصل حتى الخليج وكانت حركته من مستوى حركة مسيلمة (الكذاب) فى اليمامة من حيث قوتها وخطورتها.

كان من المعتاد أن يعالج محمد مثل هذه التحركات بالمجابهة الحربية لا سيما بعد أن صار هو القوة الأولى فى الجزيرة منذ صلح الحديبية. وهو السبب فى أننا لا نجد عمليات اغتيال فى هذه المرحلة. لكن طبيعة تحرك عبهلة فرضت على محمد مجابهة من طراز خاص تنطلق من خطة اغتيال تأتى فى سياق عمل منظم لسحق الحركة بأقل قدر من التكاليف. وكانت هذه الخطة من أعقد مخططات الاغتيال السياسى التى أوعز بها النبى محمد وأشدها إثارة. وفيما يلى تفاصيل العملية كما وردت فى تواريخ الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وفتوح البلدان للبلاذرى.

كان محمد قد أصدر بنفسه قرار الاغتيال وكلف به جماعة من أهل اليمن واستغرقت العملية وقتاً أطول من أى عملية سابقة بحيث لم تتم إلا والنبى على فراش الموت.

نهض بالمهمة إلى جانب الأشخاص الذين كلفهم محمد، جماعة أخرى مؤثرة من أهل اليمن بينهم القائد العام لجيش عبهلة قيس بن عبد يغوث، الذى قدم تسهيلات بهذا الشأن بعد اختلافه مع نبيه، وقد تصدر التنفيذ زعماء «الأبناء» وهم من الفرس الذين استوطنوا اليمن بعد جلاء الأحباش عنها وكان لهم نفوذ سياسى كبير إلى جانب أقيالها. وكان هؤلاء قد ناهضوا حركة عبهلة وخاضوا ضده معركة خاسرة انتهت بقتل قائدهم المسمى «شهر» واستيلاء عبهلة على زوجته «آزاد». وتم التنسيق على المستوى الأبعد للخطة مع غير المرتدين من أهل صنعاء على أن يتحركوا إذا سمعوا الأذان من داخل قصر عبهلة.

كانت العقدة الأساسية فى الخطة هى كيفية الوصول إلى عبهلة لأنه كان يقيم فى قصر محصن ومحاط بحرس شداد لا يفارقونه ليلاً ولا نهاراً. وقد تولى حل العقدة آزاد، الزوجة المغصوبة التى عزمت على الثأر لزوجها. فدلت ابن عم لها يدعى فيروز كان من عناصر التنفيذ، على مكان خلفى فى القصر يكون وراء الحرس ويؤدى رأساً إلى غرفة نوم عبهلة. وفى ليلة متفق عليها مع آزاد جاء فيروز ومعه فارسيان آخران أحدهما يدعى داوذويه والآخر قيس بن جَشيش الديلمى ونقبوا القصر من المكان الذى عينته آزاد. ودخلوا عليه والحرس لا يشعر لأنه كان يقف خارج الحجرة، وباغتوه بسيوفهم فأجهزوا عليه. وتقول الرواية إن الحرس سمعوا صوته لحظة ضربه فنادوا على آزاد فقالت لهم: النبى يوحى إليه. . وكان قد عرف عند العرب من الأخبار التى تحدثت عن كيفية نزول الوحى على محمد ما يحدث له أثناءه من الرعدة والغيبوبة. وبقى الحرس فى مكانهم خارج الغرفة والمجموعة مع آزاد فى داخلها وعبهلة قتيل بينهم حتى الصباح. وكانوا قد رتبوا من يرفع الأذان من داخل القصر عند الصبح. وعلى صوت المؤذن تحرك مسلمو صنعاء وهجموا على القصر، وتحرك الحرس من جانبهم فخرجت إليهم المجموعة من غرفة عبهلة وألقت إليهم برأسه مقطوعاً، فأرتبكوا واختلت صفوفهم، مما سهل على المهاجمين احتلال القصر. وهرب جنود عبهلة إلى خارج صنعاء.

تشتمل عملية اغتيال الأسود العنسى على جملة عناصر ومدلولات تتميز بها عن سائر العمليات المماثلة فى تاريخ السيرة نستخلصها فيما يلى:

١ـ إنها كما قلنا فى البدء ليست عملية اغتيال فردى بحت، لأنها جاءت كجزء/ أساسى/ من خطة انقلابية لنسف الحركة من الداخل. وكما بينا فإن قادة العملية نظموا مسلمى صنعاء

للهجوم على القصر عند سماع الأذان، الذى قام هنا بدور كلمة السر التى أعلنت ساعة الصفر، مع ما فى رفع الأذان المحمدى من قصر عبهلة من إرباك لأتباعه.

٢ـ إن اغتيال عبهلة قد حسم الوضع لصالح محمد. ولكن هذا لم يتم إلا بالارتباط مع المخطط الانقلابى فى جملته. وقد أدى الاغتيال بدوره إلى نجاح الانقلاب بسرعة وبأقل كلفة مما أغنى عن حروب طويلة كانت ستكلف ما كلفه القضاء على حركة مسيلمة من ثمن باهظ، لا سيما وأن عبهلة أثبت أنه يتمتع بقدرات كبيرة لعلها هى التى أطمعته أن يضع نفسه نداً لمحمد، شأن نظيره مسيلمة.

٣ـ وهنا لابد من التنويه بأن مبادرة كالتى قام عبهلة كان يمكن أن تثمر لو توفر لها مقومان: أحدهما منهاج محدد، مقترن بايديولوجيا واضحة المعالم، كالذى كان لدى محمد. والثانى لو أنها ظهرت فى أوانها. إذ من الواضح أن عبهلة جاءمتأخراً، كما هو حال مسيلمة، بعد أن تهيأ لمحمد أن ينجز ما كانت المرحلة التاريخية فى جزيرة العرب وعموم المنطقة تريد أن ينجز على يد نبى ما.

وفى ظرف كهذا تميل فيه عوامل النصر الموضوعية مع محمد، فإن تحركاً كبيراً كتحرك عبهلة بدا مع تنفيذ ذكى وجرىء لخطة اغتيال أشبه بحدث عابر سرعان ما تلاشى على صوت المؤذن. ويؤدى الاغتيال هنا، ضمن ظروفه المادية وما ارتبط به من مخطط شامل، إلى نتائج بعيدةلا يؤديها الاغتيال الفردى.

٤ـ قامت بشوط كبير فى إنجاح عملية الاغتيال زوجة عبهلة المغصوبة آزاد. والمسؤولية هنا تقع على عبهلة نفسه لأنه خاطر بالزواج من امرأة قتل زوجها. ولابد أن جمال آزاد الفتاة الفارسية، قد أنساه مرتكسات مثل هذا التصرف. إن آزاد هى التى جعلت تنفيذ الخطة ممكناً، ولولاها لكانت شبه مستحيلة، مع الوضع الحصين الذى رتبه عبهلة لنفسه، ولكان على خليفة محمد أن يجهز جيشاً كالذى جهزه لحرب مسيلمة للقضاء على هذه الحركة.

من المفيد أن نذكر هنا أن حالة آزاد قد سبقتها حالة مماثلة لكنها لم تؤد إلى النتيجة نفسها. فقد سبق لمحمد أن أقدم على نفس المخاطرة حين تزوج من صفية بنت حُيَيّ بن أخطب أحد زعماء خيبر. وكانت صفية متزوجة من زعيم يهودى من بنى النضير هو كنانة بن الربيع، الذى التجأ إلى خيبر بعد إجلاء عشيرته عن يثرب. وقد قتل أبوها وزوجها فى معركة فتح خيبر التى

قادها على بن أبى طالب وأشرف عليها محمد بنفسه. وأُسرت صفية فتزوجها محمد. وتنقل مصادر السيرة عن صفية أنها كانت تكره محمد أشد الكره، وهو أمر طبيعى، لكن المصادر تضيف أنها قالت إن الله أدخل حبه فى قلبها بعد ذلك. ومن المرجح أنها لم تكن صادقة فى هذا القول. ويخبرنا «ابن سيد الناس» فى سيرته المشهورة «عيون الأثر» أن تقريراً رفع إلى عمر بن الخطاب بأن أم المؤمنين صفية تحب السبت وتتصل باليهود سراً. فاستجوبها عمر فأنكرت حبها للسبت واعترفت باتصالها باليهود قائلة بأن لها أقرباء فيهم فهى تبرّهم. وقبل منها عمر وأغلق القضية. ولم يكن له بد من ذلك لأنها من «أمهات المؤمنين» فلا سبيل له عليها، فضلاً عن أن اليهود لم يعودوا فى زمان عمر قوة يؤبه بها حتى يقلقه اتصال صفية بهم.

المهم فى هذه الحالة أن صفية كان يمكن أن تلعب مع محمد نفس الدور الذى لعبته آزاد مع عبهلة لو أن محمد كان قد وقع فى وضع مماثل. لكن الانتصارات الساحقة التى أحرزها مؤسس الاسلام منطلقاً من قاعدته التاريخية الراسخة قد نجته من عواقب هذا الزواج الخطر.

خطة فاشلة لاغتيال أبو سفيان:

بعد معركة بدر، التى قتل فيها نفر هام من زعماء قريش، تركزت قيادة أهل مكة فى يد أبو سفيان، شيخ الأمويين. وكان أبو سفيان هو منظم وقائد حملتى أحد والخندق ووراء جميع النشاطات المعادية التى قام بها المكيون حتى فتح مكة، وكان من المنتظر أن يدرج فى قائمة الاغتيالات. لكن الأمر لم يكن سهلاً، لسببين أولهما طول المسافة بين مكة ويثرب، وبالتالى عدم ضمان خط انسحاب لمجموعة تكلف بهذه العملية، لا سيما وأن قريش كانت تسيطر على معظم الطريق بين المدينتين. الثانى، وهو الأهم، صعوبة توفير مكمن فى مكة تتحرك منه المجموعة، لأنها كانت خالية من المسلمين.

لكن هذه الصعوبات لم تمنع محمد من المحاولة، وقد وردت تفاصيل ذلك فى الطبرى وابن الأثير ـ حوادث سنة ٤ ـ وتقول الرواية إن النبى اختار لهذا الغرض «فاتكاً متشيطناً» يدعى عمرو بن أمية الضَمَرى، دخل فى الاسلام بعد أن شارك مع قريش فى معركتى بدر وأحد. ولعله كان بانتظار اسلام مغامر كهذا ليجرب حظه مع أبو سفيان. وقد بعث معه رجلاً من الأنصار. وخرج الرجلان إلى مكة فدخلاها فى الليل، وهو الوقت الذى تمت فيه المهام الأخرى. وكان أهل مكة يرشون أفنيتهم فى المساء ويجلسون فيها للسمر. وفى طريقهما إلى

منزل أبو سفيان، مر عمرو وصاحبه بجماعة جالسين فى فناء. فأصبروا عمرو، وكان معروفاً لديهم لشهرته، فصرخوا: هذا عمرو بن أمية، فاهتاج أهل مكة وأدركوا أنه لم يأت إليهم إلا لغرض شرير. وكان عمرو يعرف دروب البلد فاستطاع الإفلات مع صاحبه فى جنح الظلام.وعاد إلى المدينة وقد سلم أبو سفيان. ولم تكرر المحاولة. ولا شك فى أن محمد كان مدركاً لصعوبتها وهو عندما اختار فاتكاً كعمرو بن أمية الضمر قد فعل غاية ما فى الإمكان، ولم يكن ميسوراً لغير هذا الرجل أن يوفق فيما فشل هو فيه. ومن الجدير بالذكر فى هذه المناسبة أن شخصية عمرو بن أمية الضمرى دخلت فى الحكايات الشعبية التى تناولت بعض أحداث الفتوحات. وقد أخذت فى هذه الحكايات نفس منحاها التاريخى. ولو أن عمرو فى الحكايات الشعبية، خلافاً له فى مصادر التاريخ، لا يمكن أن يفشل فى مهمة!

* * *

تنتهى إلى هنا قصة الاغتيالات فى العهد النبوى.. وسوف نتناول فيما بعد قصتها فى خلافة الراشدين.. وقبل أن نترك هذا الفصل يلزمنا إيراد بعض الملاحظات الضرورية:

١ـ إن محمد مارس هذا التكتيك كما قلنا فى تعارض مع الحكم الشرعى الذى ثبته بنفسه. وهو بذلك يكرس تصوره الخاص للدائرة التى يمكن لهذا الحكم أن يتحقق فيها ـ حيث نجده يمارس الاغتيال فى دائرة الصراع السياسى المسلح وبقدر ملموس من الذرائعية.

٢ـ إن الاغتيالات التى نفذت فى عهد النبوة محدودة عددياً ومحصورة زمنياً.. وضمن هذه الحدود أعطى تكتيك الاغتيال نتائج ذات مفعول بالنسبة لمسيرة الثورة المحمدية.

٣ـ إن الأطراف التى وجهت ضدها الاغتيالات هى أطراف معسكر العدو الذى كان يضم المشركين واليهود. ويرتبط اغتيال الشخصيات اليهودية الخمس أو الأربع بالأدوار الخطرة التى لعبتها الجماعات اليهودية فى يثرب ضد محمد وهو فى أحرج أوضاعه. وقد أعطته الاغتيالات ورقة رابحة رجحت كفته عليهم وحدّت نشاطهم المناوىء.

وكما بينت، فقد توقفت الاغتيالات ضد اليهود بعد تصفية المعارضة اليهودية. وتحتوى مصادر الحديث والفقه والتفسير على وقائع كثيرة، عولجت كسوابق فقهية، كان أشخاصها من يهود المدينة، منها رواية تقول إن النبى كان إذا وزع الخمس يقول: «ابدأوا بجارنا اليهودى».

فى الخلافة الراشدية

وقعت فى خلافة الراشدين أربعة حوادث اغتيال طالت خليفتين وصحابياً كبيراً وقائداً شيعياً. وقد جاءت هذه الحوادث فى مجرى الصراع السياسى الذى انفجر بين المسلمين لحظة وفاة النبى، واستمر متفاقماً حتى تأوّج بالحرب الأهلية التى بدأت بالانتفاض المسلح ضد عثمان ثم تواصلت فى خلافة على لتنتهى بإنهيار دولة المدينة ـ حكومة الخلفاء الراشدين وتأسيس الامبراطورية الأموية.

نفذت ثلاثة من الاغتيالات بأيدى اسلامية وواحدة بيد أجنبية. وجرت ثلاثة منها فى العلن كعملية اغتيال مكشوفة، وواحدة منها سراً. لكن إحدى العمليات، هى التى طالت الخليفة الثاني، اشتملت على احتمالات عنصر سرى يكمن خلف التنفيذ المكشوف للاغتيال.

اغتيال سعد بن عُبادة:

هو زعيم الخزرج وأحد النقباء فى بيعة العقبة التى مهدت لهجرة محمد إلى يثرب. عرف فى الجاهلية بسمو أخلاقه وتعدد كفاءاته فلقب بالكامل. وينقل ابن عساكر[١] عن الواقدى أن النبى قال بسببه كلمته المشهورة: «خيار الناس فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا فى الدين». وكان هو قائد الأنصار فى حروب الاسلام على عهد النبى وسلك حينذاك سلوك رجل متعفف عن الغنائم. كما يتولى حماية المدينة أثناء الحروب التى كان النبى يقودها بنفسه.

وكان سعد بن عبادة يتمسك بزعامة الأنصار ويعارض قريش. وقد أخرج البخارى[٢] أنه هتف يوم فتح مكة وفى يده راية الأنصار بسقوط الكعبة ـ كرمز لسيادة قريش ـ فشكاه أبو سفيان للنبى فقال: كذب سعد هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة. ثم أوعز بنزع الراية منه وتسليمها إلى ولده قيس فى رواية أو إلى على بن أبى طالب فى رواية أخرى.

من هذا الموقع رشح سعد نفسه للخلافة يوم السقيفة. لكنه لم يحصل على إجماع الأوس، خصوم الخزرج التقليدين، مما رجح عليه كفة أبو بكر، الذى أيدته قريش ومعظم الأوس.

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير. بيروت ١٩٧٩ ج٦/ ٩٠ فى ترجمة سعد بن عبادة.

(٢) الصحيح ج٥ ص١٤٧ باب غزوة الفتح.

على أن سعد لم يقر بالهزيمة، وأصر على عدم الإقرار باستخلاف أبو بكر. وبسبب ذلك اختار العزلة فلم يشارك في نشاطات الخلافة في الداخل ولا في الفتوحات. وكان لا يحضر حتى الصلاة في المسجد وانما يصلى في بيته. ويبدو أنه لبث يتحين الفرص لمغادرة المدينة، فلما فتحت بلاد الشام هاجر إليها وأقام في حوران. لكنه لم يعش طويلاً. فقد مات في ظروف غامضة سنة ١٤ للهجرة. وقد وردت في موته أخبار نستعرضها فيما يلي:

- رواية ابن عساكر عن النَضُر بن شُميل وهى موجزة تذكر بأنه بال قائماً فمات، فسُمع قائل يقول(١):

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم نُخْط فؤاده

- ثلاث روايات أوردها صاحب العقد الفريد(٢) إحداها عن هشام الكلبي وتفيد أن عمر بن الخطاب بعث رجلاً إلى الشام فقال له ادعه إلى البيعة، واحمل له بكل ما قدرت عليه فإن أبى فاستعن الله عليه. فقدم الرجل إلى الشام فلقيه بحوران في حائط (بستان) فدعاه إلى البيعة فقال له: لا أبايع قرشياً أبداً. قال: فإني أقاتلك قال: وإن قاتلتنى. قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟ قال: أما من البيعة فأنا خارج. فرماه بسهم فقتله.

الثانية عن ميمون بن مهران، وتفيد أن سعد بن عُبادة رُمى في حمّام بالشام فقتل، ولا تزيد عليه شيئاً.

الثالثة عن ابن سيرين وفيها أن سعد بن عبادة رمى بسهم فمات فقالت: قتلته الجن.

وقتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم نخطىء فؤاده

- رواية في شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد(٣) تقول ان سعد بن عبادة خرج إلى حوران فمات بها. واستطرد:فقيل قتلته الجن لأنه بال قائماً في الصحراء ليلاً. ثم أورد البيتين المنسوبين إلى الجن في نص مطابق لنص ابن عساكر. لكن ابن أبى الحديد يعود فينقل رواية

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٩٣.
(٢) ط ـ القاهرة ١٩٦٢ ج٤/ ٢٦٠ كتاب العسجدة الثانية.
(٣) ٣/ ٥٤٠.

تقول ان أمير الشام يومئذ أكمن له من رماه ليلاً وهو خارج إلى الصحراء بسهمين فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، أى الخليفة. وأردف هذه الرواية بأيات قال إنها لبعض المتأخرين تضمنت إشارات صريحة عن ملابسات مقتل ابن عبادة سنرويها للقراء بعد قليل.

تتفق هذه الروايات فى جملتها على أن سعد بن عبادة مات ميتة غامضة. ويمكننا أن نستبعد منها الرواية التى تقول إنه قتل مباشرة بأمر عمر بن الخطاب، لأن قتل زعيم الخزرج وقائد الأنصار وأحد نقباء بيعة العقبة على المكشوف تهور لا يقدم عليه سياسى محنك كعمر بنت الخطاب. ولعله كان سيثير فتنة تعيد إلى ذاكرة الخليفة أحداث الردة القريبة. ولا مفر بالتالى من قبول الروايات التى تحدثت عن الاغتيال. ومما يلفت النظر هنا دور الجن فى العملية وتفسيره بأن سعد بال قائماً. والتبول قياماً مكروه فى الشريعة، قد يكون سبباً فى التعرض لعقوبة خفية، مما يمكن أن يكون قد جرى توظيفه هنا لإعطاء سبب غيبى للموت. والوعى الدينى لا يستكثر مثل هذا الإسراف فى العقوبة، المتضمن فى قتل قائد إسلامى كبير سلفت له أيادى جليلة على الإسلام بسبب مخالفة بسيطة. أما قتله على يد الجن فيفهم منه أن هؤلاء الجن كانوا من المسلمين - والجن كالإنس فيهم المسلم وفيهم الكافر - وأنهم تولوا قتل الصحابى غيرة على الدين لأنه خالف الشرع بتبوله قائماً. هذا مع ما فى القول بأن سعد بال قائماً فقتلته الجن، أو مات ميتة خفية من تصغير لشأنه فى عيون المؤمنين.

نأتى الآن إلى الأبيات التى أوردها ابن أبى الحديد لبعض المتأخرين وهذا نصها:

يقولون سعد شكّت الجن قلبه	الا ربما صححت دينك بالغدرِ
وما ذنب سعد أنه بال قائماً	ولكن سعدا لم يبايع أبا بكر
وقد صبرت عن لذة العيش أنفس	وما صبرت عن لذة النهى والأمر

إن قائل هذا الشعر لم يستوعب كيف يصح للجن أن تقتل رجلاً كسعد بن عبادة لمجرد أنه بال قائماً، وهو بالتالى يضع الحادث على ملاك الغدر - الاغتيال، مصرحاً بالسبب وهو موقف سعد من خلافة قريش متمثلاً فى رفضه مبايعة أبو بكر. وقد عزز الشاعر استنتاجه بالكلام عن شدة إغراء السلطة، الذى يضعف أمامه حتى الزهاد القادرين على ترويض أنفسهم للصبر عن متع الحياة. ومن الواضح أنه يلمح بذلك إلى عمر وأبو بكر اللذين عرفا بالزهد وبساطة العيش قبل الخلافة وفى أثنائها.

هذه الأبيات تعطى تفسيراً يمكن أن يكون سليماً لمجمل ما حدث بشأن سعد بن عيادة. وقائلها قريب العهد بالحادث. وهى من جهتها شاهد على وعى سياسى قادر على أن يخر ق حجاب العقائد الشعبية ليطل منها على أسرار السياسة.

ونحن نميل إلى القبول بهذا التفسير ونعتقد أن اغتيال سعد تم بتدبير عمر بن الخطاب وأن الباعث عليه هو إصراره على عدم الإقرار بخلافة قريش واباؤه أن يبايع للخليفتين حتى بعد أن بايع الهاشميون بصدارة على بن أبى طالب، صاحب الحق الأكثر رجحاناً من سعد فى خلافة محمد.. ومع أن عمر لم يكن ليجهل أن زعيم الخزرج غير قادر على تغيير مجرى الخلافة فمن المحتمل أنه كان يخشى من تأثيره على الأنصار، وربما على غيرهم من المسلمين. وهناك ما يشير إلى أن نواياه المعادية للخليفتين قد تجاوزت الأنصار فعلاً. وقد اتضحت هذه الحقيقة فى وقت لاحق حين انضم ولده قيس، الذى ورث الكثير من سجايا والده، إلى على بن أبى طالب وكان من أشد أنصاره حماساً ضد الأمويين إلى حد أنه امتنع عن مبايعة معاوية بن أبى سفيان بعد انتزاعه الخلافة من الحسن بن على حتى بعد أن بايعه الحسن نفسه..

إن مصرع سعد بن عبادة هو أول حدث من نوعه فى تاريخ الاسلام يقتل فيه مسلم على يد رفاقه أنفسهم، وهذا الحدث يجرى من جهته على سنن شائعة فى الحركات السياسية المسلحة بعد انتصارها. فهذه الحركات قلما تخلو بعد وصولها إلى السلطة من مصائر مأساوية يذهب ضحيتها بعض قادتها الذين يشاء سوء حظهم أن لا يتمتعوا بثمار انتصارهم.

اغتيال عمر بن الخطاب:

اغتيل عمر بن الخطاب على يد فيروز الديلمى المكنى أبو لؤلؤة. وكان عبداً للمغيرة بن شعبة الثقفى. وقد جرى اغتياله وهو يؤدى صلاة الصبح. وكانت العملية سهلة لم تتطلب خطة معقدة كالتى اضطر إليها المسلمون لتنفيذ الاغتيالات التى أمر بها النبى. وسبب هذا أن عمر كان بلا حرس لأنه، شأن صاحبيه أبو بكر وعلى، لم يكن يرتاح لمظاهر السلطة ويعتبرها من قبيل أعمال كسرى وقيصر ـ طغاة ذلك الزمان فى عيون العرب. وقد دخل أبو لؤلؤة مع جمهور المصلين إلى المسجد رغم أنه لم يكن مسلماً، دون أن يعترض عليه أحد. وكان يخفى خنجراً له رأسان فلما تقدم عمر صفوف المصلين اتجه إليه أبو لؤلؤة وطعنه ست طعنات، أو ثلاث بحسب اختلاف الروايات، كانت إحداها تحت سرته وهى التى قتلته. ويستدل من ذلك

أنه لم يطعنه من الخلف وإنما دغره من الأمام، مما يدل فى حد ذاته على سهولة العملية، الناتجة كما قلنا من انعدام مظاهر الحماية فى أيام عمر.

من هو قاتل عمر؟ وأية حالة طمّنها رحيله؟

المعروف أنّ الباعث على اغتيال عمر كان هو الانتقام لهزيمة الفرس وانهيار امبراطوريتهم. وهو ما حرك أبو لؤلؤة للقيام بهذه المغامرة. ويذكر عن هذا الفدائى المجوسى أنه كان يقول: أكل عمر كبدى. ولعله كان يقولها حقاً، إذا لم نشأ أن نتجاهل رد الفعل الطبيعى الناتج عن الأحاسيس القومية.

ومما أثار حفيظة أبو لؤلؤة ومن على شاكلته من الفرس أكثر، هو أنّ الفتوحات الإسلامية لم تخرج، رغم نتائجها التاريخية الهائلة، عن ناموس الفتوحات والحروب القديمة القائمة على جمع الغنائم واسترقاق الأسرى بما فى ذلك نساء المقاتلين وأطفالهم. ولقد قيل أن أبو لؤلؤة كان إذا رأى سبايا بنى قومه فى المدينة يمسح على رؤوس الأطفال ويبكى.

لكن هل كان اغتيال عمر مجرد رد فعل فارسى؟

كانت قريش هى الارستقراطية الأغنى والأكثر نفوذا فى بلاد العرب. ومع أنها حاربت الإسلام فى البداية فسرعان ما انضوت تحت لوائه لكى تتصدر العرب المسلمين كما تصدرت العرب الجاهليين. وبالطبع فقد أصبحت قريش بعد الاسلام أغنى وأقوى منها فى الجاهلية كما اتسعت قاعدتها العددية، كطبقة اجتماعية بالعناصر الارستقراطية الجديدة التى تكونت مع الفتوحات وتدامجت معها فى موقع اجتماعى واحد دون أن تكون بالضرورة من قريش.

وقد ساهم عمر بنفسه فى نمو هذه الفئة، وذلك عن طريق سياسته فى العطاء (التخصصيات المالية) وكان عمر بعد أن تدفقت عليه أموال الفتح قد اتبع قاعدة فى العطاء تقضى بتفضيل المسلمين الأولين ـ ومعظمهم من قريش ـ وأقرباء النبى من قريش أيضاً من حيث مقادير الأموال التى تدفع لهم. وقد تكدست لديهم بسبب ذلك مبالغ طائلة أضيفت لدى أكثرهم إلى ثروته السابقة من التجارة. ورغم أن هذا المبدأ حرم من العطاء عدداً من زعماء قريش الذين أسلموا متأخرين ـ بعد فتح مكة، فإن نفوذ هؤلاء استمر فى أبنائهم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الاسلام فشملهم التفضيل. وقد استند عمر بهذه السياسة إلى

منطق «حزبى» عبر عنه بقوله[1]: «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه» صادراً فى ذلك عن نهج شبه سائد فى الحركات السياسية التى تصل إلى السلطة فيستأثر قادتها وكوادرها بامتيازات مخصوصة.

غير أن عمر لم يكن على وفاق تام مع هذه الفئة. ورغم أنه كان من قريش ومتمسكاً بزعامتها للعرب فقد صدر منه ما ينم عن عدم انسجام مع النزعات المعروفة لهذه القبيلة الارستقراطية. ويورد الطبرى كلاماً له يحذر فيه من فتيان قريش وذوى الأرومة النبيلة فيها يدل على معرفة جيدة بشخصية التاجر الذى يجمع بين احتياز الثروة والجاه[2]. ولهذا الاتجاه لدى عمر أصول اجتماعية وقبلية، فعشيرة عمر (بنوعدى) لم تكن ذات وجاهة أو ثروة قبل الاسلام. ويقول أبو حيان التوحيدى عن عمر نفسه إنه كان يشتغل دلالاً فى السوق[3]. وهى حرفة غير محترمة كثيراً عند العرب حتى الوقت الحاضر. وما يقال عن عمر أنه كان يَسفُر، يتوسط، فى الخصومات بين قريش فمرجعه ليس إلى مكانته بل إلى كفاءته الشخصية.

ويبدو أن معايير عمر «الحزبية» والدينية لم تمنعه من الوقوع فى تناقض مع أولئك الناس الذين فضلهم بالعطاء بتأثير واحد من هذه المعايير. ولدينا روايات تحدثت عن نوايا مستجدة لديه بشأن الأموال تمس علاقته بهذه الفئة على نحو خطير. ونستعرضها فيما يلى:

الأولى فى كتاب الخراج لأبو يوسف وفيها يقول عمر[4]: «لئن عشت إلى هذه الليلة من

---

(1) الخراج، أبو يوسف، ط. السلفية ـ القاهرة ١٣٥٢هـ ص٤٣ فصل كيف فرض عمر لأصحاب رسول الله.

(2) التاريخ ط ـ الاستقامة، القاهرة ١٩٣٩ ج٣/٤٢٧ باب مقتل عثمان. نص الكلام: «احذروا فتى قريش وابن كريمها، الذى لاينام إلا على الرضا، ويضحك عند الغضب، وهو يتناول من فوقه ومن تحته».

(3) البصائر والذخائر. دمشق ١٩٦٦ ج٢ ق٢ ص٤١. وفى «الأمتاع والمؤانسة» يورد أبو حيان كلاماً لعمر بن العاص يقول فيه: «لعن الله زماناً عملنا فيه لابن الخطاب. لقد رأيته وأباه وأنهما لفى شملة ماتوارى ارساغهما وأن العاص بن وائل (والد المتكلم) لفى مقطعات الديباج مزررة بالذهب. ط بيروت بلا تاريخ ج٢/٩٥.

انظر أيضاً شرح النهج م١ ص٨٥ى وعبارة عمرو فيه: «لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر. والله لقد رأيت عمر وأباه وعلى كل واحد منهما عباءة قطوانية لاتجاوز مابض ركبته وعلى عنقه حزمة حطب. والعاص بن وائل فى مزررات الديباج».. وينبغى أن يكون هذا النص أقرب إلى الأصل لأن التوحيدى يعيد صياغة مروياته بأسلوبه ولا يتقيد بالنص الذى ينقله.

(4) ص٤٦ فصل كيف فرض عمر لأصحاب رسول الله. أيضاً طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٢١٧.

قابل لألحقن آخر الناس بأولاهم حتى يكونوا فى العطاء سواء» ويفهم الثالثة فى تاريخ الطبرى وفيها يقول[١]: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين». ويفهم من قوله: «لو استقبلت ما استدبرت» إنه صرح به فى عامه الأخير. والأغنياء المقصودون هم الذين استفادوا من التوزيع المتحيز والمستفدين من عوائد الفتوحات. وكان بينهم تجار المسلمين من قريش وهم فريقين: المسلمين الأول كعثمان بن عفان ومسلمي الفتح. أما فقراء المهاجرين فهم فقراء المدن الذين هاجروا إليها من البوادى والأرياف بموجب نظام الهجرة الذى أشرنا إليه سابقاً.

إن الروايات الثلاثة متكاملة فى محتوياتها بشكل يبعث ـ مع ورودها عن رواة متفرقين لا يصدق عليهم وصف التواطؤ ـ على تعزيز الثقة بصحتها. وهى تشكل بما تضمنته من نوايا معلنة بشأن الأموال موقفاً جديداً موجهاً ضد الارستقراطية القديمة ـ الجديدة التى ساهم عمر نفسه فى بلورتها وترسيخ موقعها الاقتصادى. ويتمتع بأهمية دالة فى هذا الصدد، إجراء سبق لعمر أن اتخذه بحق القرشيين الذين اختصهم بأفضلية العطاء سبب فى حينه صراعا خفياً بينهم وبين الخليفة. ولنترك للطبرى تفسير ذلك..

ـ عن الحسن البصرى[٢] : كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج (من المدينة إلى الأمصار) إلا بإذن وأجل (سفر مؤقت).

ـ عن الشعبى[٣]: لم يمت عمر حتى ملته قريش. وقد كان حصرهم فى المدينة وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد.

ويضيف الشعبى أن بعضهم كان يستأذنه فى الخروج إلى الجهاد فيقول له قد جاهدت مع النبى وهذا يكفيك. وخير لك من الجهاد اليوم أن لا ترى الدنيا ولاتراك..

ويقول الشعبى فى نفس الرواية إن عثمان رفع الحجر عن قريش فتنقلوا فى البلاد فكان أحب إليهم من عمر. وهو ما تؤكده الرواية التالية:

(١) حوادث ٢٣. مقتل عمر ـ باب شىء من سيره مما لم يمض ذكره.

(٢) نفسه. حوادث ٣٦ مقتل عثمان.

(٣) نفسه. حوادث ٢٣ فصل مقتل عمر فى آخر الحديث عن الشورى. يريد عمر انهم سوف يتسلطون على الناس بوصفهم عشيرة النبى وصحابته الأقربين. ويبدو عمر من هنا مدركا للدور السلبى الذى تمارسه أمثال هذه الفئات فى الدول الناشئة حين تجمع بيدها السلطة والثروة. انظر أيضاً ابن عساكر ٥/ ٢٦٦.

- عن محمد وطلحة[1]: لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع إليهم الناس - يقصد تجمعوا حولهم وصار لكل واحد حاشية وأتباع.

نقرأ في هذه الروايات مقدمات انشقاق سياسي بين عمر والارستقراطية الجديدة تسبق تصريحاته الثلاثة، منشأة الحجر عليها في المدينة. وهو إجراء يحد من اتساع هذه الفئة التي كانت تطمح إلى إيجاد مواقع لها في الأمصار مدفوعة بحافز طبيعي نحو تركيز وتوسيع مصالحها الاقتصادية ونفوذها الاجتماعي. ومن هنا كان تبرمها من عمر، وتوقها بالتالي إلى الخلاص منه (ما مات عمر حتى ملته قريش). على أن الخلاف لم يبلغ، حتى السنة الأخيرة من حياة الخليفة، من التناحر ما يكفي لتفجير صراع دموي. وينبغي لذلك أن لا نتوقع تحركا معاديا يستهدف التضحية بإمام عظيم، حتى في عيون الارستقراطية التي ملت منه، من أجل أن تتحرر وتنطلق. ولو أنها كانت تود، بحسب ما يسعنا استخلاصه من إفادات رجال الطبري، لو أن هذا الإمام مات في أجله المسمى ليذهب إلى ربه دون أن تتحمل شيئاً من وزره. وللمؤمنين من أتباع الأديان السماوية نهج معروف في التوفيق بين الدين والدنيا يرتبط بحرصهم على الفوز بسعادة الدارين، نعيم الدنيا والآخرة معاً.

لكن انتقال عمر إلى موقع آخر، ذو طبيعة صدامية، كان من شأنه أن يثير ردود فعل من درجة أشد قد ترتقي بالرغبة إلى مرتبة الإرادة.

هنا يخبرنا الطبري أن عبدالله بن عمر قال مهدداً بعد مقتل والده[2]:

والله لأ قتلن رجالاً ممن شرك (شارك) في دم أبي

وينقل الطبري عن أحد رواة الخبر وهو عبدالعزيز بن سياه تعقيباً عليه يقول: إنه - أي عبدالله - يعرّض بالمهاجرين والأنصار.

وكان عبيدالله قد قتل الهرمزان ورجلاً مسيحياً اسمه جفينة اتهمها بالتواطؤ على اغتيال والده ثم قتل ابنة أبو لؤلؤة وبقي شاهراً سيفه. ويقول الطبري إن صهيب الرومي أرسل إليه حينذاك عمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص. وقد صاوله سعد حتى انتزع السيف منه وحجزه في داره. وتبعاً للرواية فإنه كان يردد هذا التهديد في تلك الساعة، مما يعني أنه كان

(١) نفسه. حوادث ٣٦. فصل مقتل عثمان.
(٢) نفسه، حوادث ٣٦. فصل مقتل عثمان.

ينوى بعد أن فرغ من مقتل الثلاثة أن يتوجه إلى أولئك الرجال ليصفى حسابه معهم. ولذلك لم يلق السيف إلا بعد المبارزة مع عسكريين كبيرين ما كان بمقدوره أن يتغلب عليهما.

ويبدو أن عمر لم يكن بعيداً عن التفكير فى احتمال كهذا، لأنه كان يسأل الداخلين عليه من الصحابة وهو يحتضر: أعن ملأ منكم كان هذا؟ وهم يقولون: معاذ الله. (عن ملأ: تواطؤ. والملأ اصطلاح يمنى يشير إلى مجالس ممثلى القبائل التى كانت تشارك فى إدارة الدولة فى الدول اليمنية الغابرة).

وبوسعنا الافتراض أن الجهة التى كان يهمها التخلص من عمر قد جسدت إرادتها، أو رغبتها على الأقل، من خلال الغضب الفارسى على هادم الامبراطورية الساسانية. ومما له مغزاه أن أبو لؤلؤة كان عبداً للمغيرة بن شعبه الثقفى، وهو شخصية تآمرية قديرة كانت له وشائج صميمة مع الارستقراطية الجديدة، وهو الذى سعى لدى عمر للسماح لغلامه هذا بالإقامة فى المدينة لأن عمر كان نهيى عن دخول الأعاجم، الذين فتحت بلدانهم، إلى عاصمة الفاتحين المسلمين، كإجراء أمنى.

ترد فى هذا السياق أخبار غامضة عن كعب الأحبار. وهو يهودى من اليمن أسلم فى خلافة أبو بكر وقدم إلى المدينة فى خلافة عمر. وتدور شبهات حول إسلام هذا الرجل، الذى يحل فى التقييم الشيعى محل عبدالله بن سبأ فى التقييم السنى؛ كلاهما لعب دوراً فى تأجيج الفتن بين المسلمين بحسب الاتهامات المتقابلة بين الطوائف.

أورد الطبرى[١] فى تفصيله لأحداث مقتل عمر أن كعب قال لعمر قبل اغتياله بثلاثة أيام أنه سيموت. ولما سأله الخليفة من أين علم ذلك قال انه مكتوب فى التوراة. ويقال ان عمر دهش لهذا الكلام فأكد عليه: الله! إنك لتجد أن ابن الخطاب فى التوراة؟ فرد عليه: «اللهم لا. ولكن أجد صفتك وحليتك». ولما ضرب عمر فى اليوم الثالث ودخل عليه كعب أنشد عليه عمر بيتين يذكر فيهما نبوءة كعب.

وفى طبقات ابن سعد[٢] رواية أخرى تفيد أنّ زوجة عمر، أم كلثوم بنت على، قالت لزوجها وهى تبكى ـ وكانت شابة غريرة ـ إن هذا اليهودى، تقصد كعب الأحبار، يقول إنك

(١) نفسه حوادث ٢٣ مقتل عمر.
(٢) طبقات ابن سعد/ ٢٤٠.

على باب من أبواب جهنم. فأرسل إليه وسأله عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تعجل علي؛ والذى نفسي بيده لا ينسلخ (لاينصرم) ذو الحجة حتى تدخل الجنة. فقال عمر: أى شيء هذا مرة في الجنة ومرة في النار؟ فرد عليه: انا لنجدك في كتاب الله (التوراة) على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها.

تتحمل هذه الأخبار وجوهاً مختلفة؛ ان تكون بصحيحة، وتكون بالتالى دليلاً على معرفة كعب الأحبار بمخطط اغتيال عمر، وبمعنى ما: ضلوعه فيه. وأنا أستبعد ذلك لاعتبارات، منها أن حوار عمر مع كعب يظهره مؤمناً ساذجاً سريع التصديق، مما لا يأتلف مع شخصية قائد سياسى وعسكرى كبير يصعب علىي مشعوذ، أياً كان، أن يضحك عليه بهذه الطريقة المفضوحة. وينبغى أيضاً نفى صحة البيتين اللذين يقال ان عمر أنشدهما حين دخل عليه كعب لأنهما من الشعر المتين، الجيد السبك. ولم يكن لعمر من الشاعرية ما يمكنه من نظم مثل هذا الشعر وهو سليم فكيفى وهو، يحتضر؟

أو أنها اختراع أريد به إضفاء القداسة على الخليفة الثانى من حيث النص عليه فى التوراةأسوة بالنص على محمد فى الانجيل.

وقد تكون فى أصلها شائعات بثت عن عمد بعد مقتل عمر لإعطاء هذا الحدث صفة التدبير الإلهى غير الخاضع لإرادة البشر، وبالتالى لقطع اللغط حوله. إن الكثير من الأخبار التى اعتدنا على اعتبارها مكذوبة واتهام المؤرخين باختلاقها هى فى الواقع من هذا النمط. ونحن نعرف من تجاربنا الراهنة أن الأخبار الكاذبة غالباً ما تنشأ حول الحدث السياسى، وبالتزامن معه أحياناً، لدوافع وأسباب مختلفة.

يهمنا أيضاً أن نشير إلى صلة جفينة، المسيحى الذى مر ذكره، بسعد بن أبى وقاص وكون الأخير هو الذى جاء به إلى المدينة حين عاد إليها معزولاً من ولاية الكوفة بأمر عمر. ولابد أن تبعث على التساؤل هذه الصحبة إلى المدينة بين فاتح العراق وأحد العشرة المبشرين بالجنة وبين رجل نصرانى من عرب الحيرة غريب على الحجاز. ومن الجدير بالذكر أن جفينة كان على صلةبالهرمزانى وأبو لؤلؤة وهو ما حدا بعبيد الله بن عمر إلى قتلهما معاً. وقد مر بنا أيضاً أن سعد بن أبى وقاص هو الذى انتزع السيف من يدى عبيدالله وحجزه في داره. ومن المفيد أن نذكر هنا أن عمر كان على خلاف شديد مع سعد بسبب سلوكه عند ولايته الكوفة، مما حمله

على عزله بعد أن أرسل مبعوثاً من قبله إلى الكوفة وأمره بإحراق باب قصر الإمارة الذى يقيم فيه سعد. وكان عمر يمنع الولاة من اتخاذ أبواب لمقراتهم حتى لا ينحجبوا عن الناس(١) .

تتجمع من مجمل ما رويناه حتى الآن خيوط مؤامرة خفية قد تكون حيكت من خارج المجموعة الفارسية الصغيرة التى اتهمت بالتواطؤ مع القاتل. ولعل عبيدالله بن عمر كان مطلعاً، أو على الأقل متحسساً بملابسات من هذا القبيل حين هدد بقتل آخرين قال إنهم اشتركوا فى الجريمة، إذا صح ما نقله الطبرى. وقد حال الإسراع بالقبض عليه دون تنفيذ تهديداته، وبالتالى أدى إلى كتمان أسماء كان يمكن أن تظهر للعلن مع لمعان سيف الولد الموتور.

ولكن لماذا لم يتفوه عبيدالله بذكر هذه الأسماء بعد أن قبض عليه؟ هنا قد نجد أنفسنا أمام سر آخر يتعين علينا كى نستشقه أن نعرف من كان يقصدهم عبيدالله بالتهديد. وهم فى حالتنا هذه أحد ثلاثة: قريش، أو أنصار على بن أبى طالب، أو ورثة وأعوان سعد بن عبادة. وكان هؤلاء الثلاثة قد استقطبوا فى جبهتين متخاصمتين ستخوضان حرباً أهلية بعد قليل، تضم الأولى قريش وتضم الثانية الفريقين الآخرين. وقريش هى التى استلمت الخلافة فى شخص عثمان وهى التى احتجزت عبيدالله وتحكمت فيه. وبالتالى فلو أنه كان يقصد بتهديده الفريق الآخر فقد كان من مصلحتها أن لا يسكت. لكنه وقد سكت لابد أن يكون المقصود بالتهديد رجال من قريش. وبالطبع فإن قريش، الحاكمة، تملك القدرة على إسكاته. وثمة عامل هام يفترض أنه أثر على موقفى عبيدالله وهو مطالبة على بن أبى طالب بإعدامه لقتله الهرمزان. وكان على يصدر فى هذه المطالبة عن موقف شرعى بحت. وعلى معروف بعدم مرونته فى هذا الجانب. وقد لجّ فى مطالبة عثمان بعد استخلافه بإعدام عبيدالله إلى أن حسم عثمان القضية بتخريج قانونى قال فيه إنه، أى عثمان، ولى الهرمزان لأن الهرمزان لا ولى له (يقصد ليس له أقرباء يطالبون بدمه، وفى هذه الحالة يكون الخليفة هو الولى) وانه بالتالى قد تنازل عن دمه وقرر العفو عن قاتله. وهكذا وجد عبيدالله نفسه فى حماية قريش، والأمويين بالأخص، فكان من الطبيعى أن ينحاز إليهم ويعتبر قضية والده منتهية إلى هذيا الحد.

---

(١) الدينورى ـ الأخبار ـ الطوال ص١٢٥ . وأورده ابن عساكر عن طبقات ابن سعد رغم الترجمة المنحازة التى اختص بها سعد بن أبى وقاص فى تاريخ دمشق الكبير ج٦/ ١٠٦ .

لا مجال مع ذلك لأى قدر من الجزم بنتيجة قاطعة. وإن كنت لألمح من الضجيج الذى أثاره القدماء والمتأخرون من رواة التاريخ حول هذه «الجريمة الفارسية» دوراً فى التمييع والتستر.

على أننا لنملك حق البت فى الحقيقة التالية، وهى أن مقتل عمر قد استجاب لمصالح اجتماعية إن لم تكن هى التى دبرت قتله فإنها كانت المستفيد الأوحد من هذه العملية. وأنه ليبدو لنا الآن دون أن نجد حافزاً إضافياً لمواصلة الهجوم على أبو لؤلؤة المجوسى، أن الفاتح العظيم قد ذهب ضحية ـ محتومة ـ لتلك المفارقة الكبرى (التى تكررت أيضاً فى خلافة على بن أبى طالب وانتهت به إلى المصير المماثل الذى سنقصه بعد قليل) بين سياسة تقوم على الفتويحات ـ أى بناء امبراطورية ـ وتسعى فى نفس الوقت لإقامة نظام داخلى فى توزيع المنهوبات يقوم على التساوى بل ويسعى لمصادرة أموال الأغنياء (قادة الفتح ومؤسسى الامبراطورية) وتوزيعها على الجنود.. إن من يفكر فى المساواة، وفى أى إطار كانت، لا يستطيع أن يبنى امبراطورية ولا شك أيضاً أن من يبنى امبراطورية لا يسعه أن يسلك سلوك عمر. لقد خلق عمر بهذه السياسة المزدوجة تناقضاً لم يكن ممكناً حله باستخلاف عثمان بن عفان. وهو الخيار الوحيد الذى أمكن معه لتاريخ الاسلام أن يأخذ مساره اللاحق. ولم يكن خنجر أبو لؤلؤة غير الرافعة التى اختارتها المسيرة لإزاحة عقبة ناشزة فى مجراها.

اغتيال على بن أبى طالب:

وصل على بن أبى طالب إلى الخلافة بعد الحركة المسلحة التى أودت بعثمان. واغتيل على بيد نفس الحركة. والفريق الذى اغتاله هم الخوارج الذين انشقوا عليه فى صفين. فاغتيال على هو نتيجة لتناقض فى صفوف مجموعة سياسية واحدة أخذ بعداً تناحرياً أدى إلى انفجار صراع دموى بين شقيها. وهذه ظاهرة مطرّدة فى تاريخ الحركات السياسية المسلحة بعد وصولها إلى السلطة.

وقد تسبب اغتيال الخليفة الرابع عن مسلك تدميرى لدى الخوارج هو ما دفعهم إلى اتخاذ قرارهم بتصفية زعيمهم السابق وخصومه فى آن واحد. والخطة معروفة، فقد تداول فريق من الخوارج فى أمر الأمة فوجدوا أزمتها تكمن فى زعامتها. واتخذوا من ثم قرارهم الذى يقضى

بالتخلص من هذه الزعامة التى تمثلت حسب تحديدهم فى على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص. وعهد بالتنفيذ إلى ثلاثة فدائيين أرسل أحدهم إلى الكوفة والثانى إلى دمشق والثالث إلى مصر. وعينت الخطة للتنفيذ يوماً واحداً هو التاسع عشر من رمضان بعد أن حسبت المدة الكافية لوصول الثلاثة إلى مقاصدهم، وساعة واحدة هى ساعة صلاة الفجر.

وفى الوقت الموعود، كان كل من الثلاثة قد توجه إلى هدفه. ويبدو أن الفدائى الذى أرسل إلى معاوية لم يحسن توجيه الضربة، فوقع السيف فى إليه معاوية ولم يقتله. أما فدائى عمرو بن العاص فأجاد الضربة وقتله. ثم تبين أنه شخص آخر ناب عنه فى الصلاة لمرض ألمّ به ذلك اليوم. ويفهم من هذا أنه لم يكن يعرف شكل عمرو فلم يميزه عن نائبه. وكان اسم النائب القتيل «خارجة» فقال الفدائى قولته المشهورة: «أردت عمْراً وأراد الله خارجة». ونجحت خطة اغتيال على بن أبى طالب. ونحاول الآن استقصاء عوامل نجاحها

١ـ فدائية الخوارج، وهى عامل مشترك بين الثلاثة الذين نفذوا ما عليهم دون تردد ودفعوا حياتهم ثمناً لها، لولا أن صاحب معاوية لم يظهر قدرة فى توجيه الضربة القاتلة إذا لم نضع فى الحسبان وضع معاوية الأكثر حصانة من زميليه لما عرف به من دهاء وحذر.

٢ـ وجود الطابور الخامس لمعاوية فى معسكر على، مع خوارج فى الكوفة بحكم كونها المكان الرئيسى للحركة التى انشق عنها الخوارج. وكان على ترك للخوارج بعد معركة النهروان حرية الإقامة فى عاصمته ولم يلاحقهم. وقد تمت العملية بتنسيق مشترك مع الطرفين، عملاء معاوية والخوارج. وكان من العناصر البارزة فى الطابور الخامس الأشعث بن قيس زعيم كندة وحفيد ملوكها الغابرين. وتفيد المصادر أنه ساعد الفدائى الخارجى فى الاختفاء حتى يحين موعد التنفيذ، وكان معه صبيحة اليوم الموعود. وقد دفع ذلك بعض المؤرخين الذين لايعرفون ألاعيب السياسة إلى جعل الأشعث من الخوارج(١)، وهو فى الحقيقة

---

(١) منهم سبط بن الجوزى،ى وهو مؤرخ لامع، فى «مرآة الزمان» مخطوطة فيض الله أفندى (مكتبة مليت باسطنبول) رقم ١٥٢١ . المجلد الرابع فى ترجمة على بن أبى طالب.
كذلك: أبو الفرج الاصفهانى ـ مقاتل الطالبين طـ ـ القاهرة ١٩٤٩ ص٣٣باب مقتل على بن أبى طالب.
البلاذرى ـ أنساب الأشراف بيروت ١٩٧٢ ج٥/ ٤٩٣.

عدو مشترك لهم ولعلي وحليف سرى لمعاوية. وكان من الذين حرضوا على مقاتلة الخوارج فى النهروان بدلاً من استئناف الحرب ضد معاوية.وكان التخلص من على هدفاً كبيراً لمعاوية سعى إليه الأشعث ومن على شاكلته من زعماء الارستقراطية العربية فى العراق.

٣ـ عدم توافر إجراءات صيانة لحياة علي. وقد أشرنا إلى ذلك فى قضية عمر بن الخطاب. والخلل هنا أشد، لأن عمر كان يحكم من دون معارضة مكشوفة أو جدية حتى عامه الأخير، أما على فحكم وسط قلاقل دامية وجبهة مفككة. وكما بينا، كان المنشقون عليه من الخوارج وخصومه من عملاء معاوية يجاورونه فى الكوفة دون أن يتعرضوا للملاحقة. وقد أحسّ أعوانه بالخطر وحذروه من الاغتيال ولم يلتفت إليهم ورفض أن يخصص له حرس شخصى. وهو ما كان الخوارج يعرفونه جيداً، فقد أورد الطبرى أن صاحب معاوية أخبره بعد القبض عليه أن على بن أبى طالب قد يكون قتل فى نفس الساعة، وكشف له عن خطتهم. ولما شكك معاوية فى احتمال نجاحهم فى قتل على قال له الخارجى: إن علياً يخرج وليس معه من يحرسه. وقد حاول أولاده وبعض أعوانه الخلص أن يحرسوه من بعيد ولكن إجراءهم لم يكن جدياً. وهم بلا شك ملومون على ما حدث لأنهم وقد استوعبوا الخطر كان بمقدورهم أن يشكلوا حراسة منظمة من بينهم دون أن يشعروه بها. أما المراقبة من بعيد فقد دلت على بؤس القائمين بها لأن الفدائى الخارجى نفذ إلى المسجد واقترب من على، الذى كان يصلى وحده دون أن يثير انتباه أحد إلا بعد أن صاح على اثر الضربة. وكانت صيحة مضروب فعلموا أنه أصيب.

٤ـ من الملاحظ أن كلاًمن خطة الخوارج الثلاثية وخطة اغتيال عمر بن الخطاب نُفّذت عند الصلاة. وتفسير ذلك أن للصلاة موعداً معلوماً لابد أن يظهر فيه المطلوب اغتياله ليؤم المصلين مما يوفر ضبطاً فى توقيت العملية لا يتيسر خارج أوقات الصلاة. يضاف إليه أن الامام عند الصلاة يكون مكشوفاً وسهل المنال لأن الصلاة تتم ـ حسب الأصول الشرعية ـ دون شكليات وتوجب أن يندمج الإمام بالمصلين ليتساوى معهم. وقد بلغ التشدد فى هذا المبدأ أنهم حرموا أن يصلى الإمام على ديكة حتى لا يكون أعلى مقاماً من المصلين. وقد بادر معاوية بعد التجربة التى مرت به إلى تسكير هذه الثغرة فأمر ببناء مقصورة منفردة يؤم منها المصين. وهو إجراء مخالف للشريعة . ولكن من المعروف أن معاوية لم يكن من الخلفاء الراشدين وكان فى سياسته معنياً بتأمين مصالح امبراطوريته وليس بتنفيذ أحكام الشريعة.

٥ ـ من الجدير بالذكر أن قاتل على استخدم سيفاً مسموماً. وقد اعترف بعد القبض عليه أنه سمم سيف باتقان، لضمان أن تكون الضربة مميتة إذا هو لم يوفق إلى توجيه ضربة قاضية. وهو ما حدث بالفعل، فقد كان على القاتل أن يضرب ضربة خاطفة توفر له وقتاً للهروب من داخل المسجد قبل أن يحاصر. وقد عاش الخليفة بعد الضربة ثلاثة أيام رغم وقوعها فى رأسه. ويستفاد من الوصف الذى أوردته المصادر عن كيفية الوفاة أن السم انتشر فى جسمه ببطء حتى أجهز عليه فى اليوم الثالث. ونحن نستنتج من هذا أن خطة اغتيال على كانت قد درست بعناية ومن جهات أخرى لا تقتصر على الخوارج مما ضمن لها نجاحاً لم يتوفر لخطة اغتيال معاوية.

ماذا حقق الخوارج باغتيال على؟

تدل خطة الاغتيال الثلاثى التى رسمها الخوارج ونفذوها على خصوبة فى الخيال العنفى تقترن بحيوية التحرك غير المقيد باعتبارات ضيقة. وهى تمثل من هنا نهجاً قتالياً ثابتاً لا يطاله التردد ولا يخضع لدقة فى الحساب أو براعة فى التخريج النظرى.

لكن أصحاب الخطة تجاهلوا عنصراً هاماً فى تكتكة العنف وهو ترتيب الأولويات فى المجابهة ضد خصوم متفرقين ومختلفين فى أهدافهم، وما يتيحه ذلك من إمكان العمل على كسب الأقرب إليهم لضرب الأبعد. وبالطبعى فهذا يعنى وجود توجه جبهوى، وهو مالم يعرفه تاريخ الخوارج قط. وقد انطوت الخطة من هذه الجهة على خطأ سياسى كبير تمخض مع نجاحها فى اغتيال على وحده، عن كارثة على الخوارج أنفسهم. فقد ترتب على مقتل على بن أبى طالب إنهاء خلافة الراشدين وإقامة الخلافة الأموية، وقطع أى احتمال للحوار السلمى يمكن أن يظل قائماً مع بقاء السلطة الراشدية. وقد وجد الخوارج أنفسهم بعد انفراد معاوية بالسلطة أمام عدو مختلف حصرهم بين خيارى القتال أو البيعة.

أضف إلى ذلك أن مقتل على حرم الخوارج من الميزة التكتيكية التى تمثلت بوجود معسكرين متناحرين يشغلهما الاقتتال بينهما عن التفرغ لهم. وكان لدى الخوارج بفضل وجود هذين المعسكرين فرصة ثمينة لتنظيم أنفسهم والعمل على إقامة قاعدة لهم فى موقع مناسب خارج نفوذ على ومعاوية اللذين اقتصرت سلطتهما الفعلية على الشام والعراق.

كان ثمة أيضاً خطر لم يحسب الخوارج حسابه، فماذا كان سيحدث لو نجحت الاغتيالات كلها؟ الخوارج لم يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال. والمصادر التى تحدثت عن الأمر لم تتحدث عن أية لواحق يمكن أن تكون قد ارتهنت بالخطة فى حال نجاحها. ويمكن القول ببساطة، حسب هذه المصادر، إن قرار الاغتيالات كان أحادياً مبتوراً يكتفى بتصفية الزعماء الثلاثة بوصفهم سبب فساد الأمة. وليس لدينا ما يدل على أن الخوارج فكروا فى استثمار هذا الاقتحام الكبير للتحرك نحو استلام السلطة وإعلان قيام خلافة جديدة. وهو الاتجاه المعقول الذى يبرر هذه المغامرة ويعطيها مفعولها التاريخى المكافىء.

وفى ضوء هذه الثغرة الواسعة فى الخطة فإن نتيجة شديدة الاحتمال كان يمكن أن تترتب على شغور القيادة الإسلامية وهى أن يقع تحرك من الجانب البيزنطى المتربص على حدود الشام لتوجيه ضربة سريعة وخاطفة كانت ستؤدى على الأقل إلى إعادة احتلال بلاد الشام. ونحن نعرف أن محاولات تحرك من هذا القبيل حصلت عند اندلاع الحرب الأهلية بين العراق والشام مرتين، فى عهد معاوية وفى عهد عبدالملك بن مروان. لكنها اصطدمت حينذاك بخليفتين عظيمين كانت مواهبهما السياسية والعسكرية تتألق فى ظروف الأزمات فتمنحهما القدرة على احتواء التحركات المضادة مهما تعددت جبهاتها. وكان من المستبعد أن لا ينجح البيزنطيون هذه المرة مع ما سيحدثه اغتيال القادة الثلاثة من اختلال فى أوضاع الأقاليم الملاصقة لهم؛ الشام والعراق ومصر، وهى نفس الظروف التى مكنت الصليبيين فى عصر لاحق من القيام بفتوحاتهم الظافرة فى الشام.

ولم يكن للخوارج من الحنكة السياسية ما يبصّرهم بهذا المرتقب. وتدل خطتهم الثلاثية على براعة حزب مسلح يمتلك المؤهلات العالية للاقتحام العسكرى الناجح، لكن غير المقرون بتخطيط سياسى يبرر الإقدام عليه. فالخوارج كانوا مقاتلين جمعوا إلى الروح الفدائية فقراً ملحوظاً فى العمل السياسى. ويصدق هذا الوصف على الفرقة بتشعباتها العديدة طوال الخلافة الأموية، ولو أنهم اكتسبوا من بعدها بعض الخبرات التى ساعدتهم على التوصل إلى إقامة كيانات سياسية صغيرة نسبياً، خلال الحقبة الأولى من الحكم العباسى.

اغتيال مالك الأشتر:

كانت مصر من محاور الصراعى بين على بن أبى طالب والأمويين لما تتمتع به من ثقل استراتيجي يمكن أن يساهم فى ترجيح كفة الطرف الذى يسيطر عليها. وقد اختار على لولاية مصر أول الأمر قيس بن سعد بن عبادة فاستطاع ضبطها وإحباط محاولات الأمويين لانتزاعها من على. غير أن معاوية توصل فيما بعد وبأساليبه الماكرة إلى زعزعة الثقة بين قيس وخليفته، القليل الدهاء، فعزله عن مصر. وقد عين على فى مكانه ربيبه محمد بن أبى بكر وهو شاب متحمس ولكنه ضعيف الخبرة. بيد أن على وقد أدرك جسامة الخطر الذى يتهدد مصر سعى لتعزيز الولاية بشخصية كفوءة أخرى هى مالك الأشتر أحد قادة الحركة المسلحة التى أوصلته إلى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان. وقد سبب تعيين الأشتر لولاية مصر قلقاً شديداً لدى معاوية فسعى لمنعه من الوصول إليها. وتختلف الروايات فى وصف الطريقة التى تم بها لمعاوية الخلاص من الأشتر ولو أنها تتفق فى جملتها على أنه اغتيل وهو فى طريقه إلى مصر.

وفيما يلى عرض لهذه الروايات مأخوذ من «شرح نهج البلاغة» لابن أبى الحديد..

١ـ إن معاوية بعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به وعرض عليه أن يعفيه من الخراج المترتب عليه طيلة حياته إذا تمكن من اغتيال الأشتر. وكان هذا الرجل يقيم فى مفترق سبل تؤدى إلى مصر والحجاز على البحر الأحمر يمر منه من يريد التوجه إلى مصر. فلما وصل الأشتر إلى هناك تلقاه الرجل وضيّفه. وكان قد أعد شربة عسل مسمومة فقدمها له بعد الطعام فلما شربها مات على الأثر.

٢ـ إنه بعث رجلاً ليتابع الأشتر حتى يحتال فى اغتياله. وكان الرجل يحمل مزودتين فيهما شراب. فاستسقاه الأشتر يوماً فأعطاه من إحدى المزودتين، وكانت مسمومة ولما شربها مال عنقه ومات. وهرب الرجل قبل أن يلحق به رجال الأشتر.

٣ـ إنه دس إليه رجلاً من موالى عمر بن الخطاب. وكان آل عمر قد انحازوا إلى الأمويين منذ أيام عثمان لكن معسكر على لم يصل إلى درجة القطيعة معهم، بتأثير بعض الوشائج التى كانت تجمع بين على وعمر فى سنواته الأخيرة، وقد اطمأن الأشتير إلى الرجل وضمه إلى

مرافقيه في سفره. وبينما هم في بعض الطريق وعطش الأشتر قدم له المذكور شربة سويق مسمومة فمات منها(١).

تتفق هذه الروايات على أن الأشتر اغتيل بالسم وبتدبير من معاوية وأن السم دس فى شراب من عسل أو ماء أو سويق. ورواية العسل أكثر شيوعاً، وقد وردت عن الواقدى وهو مؤرخ مبكر وموثوق، وروايته تفيد أن الرجل الذى سم الاشتركان دهقاناً فى العريش. وهذه البلدة من أعمال مصر لكنها قريبة إلى الشام. وقد اقترنت بالحادث كناية مشهورة لعمرو بن العاص وهى قوله بعد أن بلغه نفاذ خطة القتل: «إن لله جنوداً من عسل، أو منها العسل»(٢). والله كما نعلم قاسم مشترك لجميع الأطراف والطبقات والأحزاب المتصارعة فى مجتمعات الأديان السماوية الثلاثة.

أدى اغتيال الأشتر إلى خسارة قائد كبير كان على بن أبى طالب يعتمد عليه كثيراً فى صراعه المرير ضد الأمويين مما مكن معاوية أخيراً من الاستيلاء على مصر بعد أن انفرد بحاكمها الضعيف محمد بن أبى بكر.

وقد نجحت الخطة لأنها اعتمدت، بحسب الروايات كلها، على استغفال مالك الأشتر وهو درس استفاد منه اللاحقون فى إحباط وتنفيذ خطط مماثلة كما سيأتى تفصيله فى القسم التالى:

دلالات مستخلصة من حوادث الاغتيال الراشدية:

ترجع الاغتيالات فى هذه الحقبة إلى الأصل الذى بنى عليه الاسلام كتحرك سياسى ـ اجتماعى أملته ظروف العرب الخاصة فى المقام الأول، والظروف العامة للمنطقة فى المقام الثانى. وقد رأينا كيف سلك مؤسس الاسلام بعد هجرته إلى يثرب خط العمل العسكرى، بما فى ذلك الاغتيالات، كنهج ثابت أشاح به عن نهجه التبشيرى الذى اتبعه فى مكة. وترتهن سياسات النبى محمد فى يثرب بصراع قومى موجه لتوحيد أمة بينما يعكس نهجه فى مكة

---

(١) ابن أبى الحديد ٢/ ٢٩. السويق شراب يتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.
(٢) بن أبى أصيبعة ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. بيروت ٥ب١٩٦ ص١٧٤ترجمة الطبيب ابن أثال الذى كان يستحضر السموم لمعاوية بن أبى سفيان.

حالة صراع اجتماعى داخل معشر محدود هو المعشر القريشى ـ المكى. وكان ثمة صراع من هذا القبيل فى يثرب ولكن داخل نفس الحركة، بين الفئات الاجتماعية والقبلية التى تتكون منها كتلة الصحابة المشكّلة لقوام الحركة فى طورها اليثربى.

وحيث أفلح الاسلام فى إقامة مجتمع ودولة شملت الجزيرة بامتدادتها العراقية والشامية وما وراءها من أقاليم، فقد تعين عليه أن يواجه كل مرتكساتهما. فالمجتمع يعنى الصراع والدولة هى أداة الصراع التى لا وجود لها من دونه. وهو أداة قابلة للتداول. (اسم الدولة فى العربية مأخوذ من هذا المعنى الدال فى جوهره على الصراع). ولو أراد محمد لحركته أن تكون دعوة ولنفسه أن يكون محض مبشر فإن شيئاً مما قد سردناه للتو لن يقع فى أوانه. ولو أننا قد لا نعدم عندئذ شيئاً آخر، ولكن بعد مضيي قرون يكون فيها الاسلام قد تمكن من قلوب الناس، وتوطدت مؤسسته الدينية، المؤهلة لأن تضع نفسها فى خدمة دولة خارجة عنها لتكون أداتها القمعية أو غطاءها الايديولوجى، مثلما تهيأ للمسيحية والبوذية بعد ثلاث قرون من وفاة صاحب الدعوة.

وهناك دلالة هامة فى أن كتاب الاسلام المقدس لم يصطبغ، رغم مضاهاته للكتب المقدسة التى قبله فى طقوسيتها، بقداسة أحادية تجعل منه كتاباً إلهياً عديم اللحم والعظم، فقد استغرقه التناحر فأضفى عليه صفة خاصة به، ويتجاوز عدد المرات التى ذكر فيها القتل بمشتقاته فى القرآن عدد المرات التى ورد فيها ذكر الصلاة بمشتقاتها (حوالى ١٧٤ مقابل ٩٩). ولغة الصراعى فى الاسلام تحريضية شديدة النبرة تذكر القارىء بلغة البلاغات الحربية. ولا شك فى أن مؤسس الاسلام كان يستجيب فى ذلك لمستلزمات وضعه/ مهمته التاريخية. وهو فى الحقيقة لم يكن شديد الافتقار إلى الوعى بنواميس التاريخ البشرى لأنه سجل فى كتابه أن الناس لا يمكن أن يكونوا أمة واحدة فهم «لا يزالون مختلفين، إلا ما رحم ربك، ولذلك خلقهم» خلقهم كما يقول المفسرون ليختلفوا لا ليتفقوا. واذا كان الناس فى حسابهم لا يمكنهم أن يكونوا أمة واحدة فهو يعرف أيضاً أن أمته نفسها لن تنجو من الاختلاف. وقد عايش بنفسه ولا سيما فى مرحلة ما بعد مكة، جانباً من التكتلات التى بدأت تشق الصحابة إلى أجنحة. ولن يكن بمقدوره، لو أراد، أن يؤلف بين أتباعه، وهم طبقات لا طبقة واحدة، ولا

أن يمنعهم من الاقتتال وهم ينظمون حياتهم وفقاً لعلائق المادة وليس الروح، شأن غيرهم فى كل زمان ومكان.

كان الصراع الذى خاضه الاسلام الأول من الحدة بما يكفى لتعزيز صياغة شخصية تناحرية مشتركة بين طبقات المجتمع الظالمة والمظلومة. ولو أن هذه الشخصية لم تنشأ من فراغ إذ يمكننا فى الواقع أن نتابعها فى الشخصية الجاهلية التى يشغل السيف موقعاً مؤثراً فى علاقاتها. والمجتمع الجاهلى هو كما نعلم مجتمع تناحرى لم يعرف السلم إلا كهامش استغرقته الأشهر الحرم الأربعة فى أضيق نطاق. ولم تقتصر هذه الظاهرة على الأغلبية الوثنية من العرب، حيث جرت العادة على اتهام الديانة الجاهلية بتأجيج العداوات، فالمسيحية الشرقية التى اعتنقتها بعض القبائل، ومنها قبائل كبيرة مثل تغلب، لم تستطعى أن تخلق من البدوى مسيحياً بسيطاً من الغرار الذى عرفناه مثلاً فى الحيرة. يقول الشاعر المسيحى جابر بن حُنَىّ التغلبى رداً على استخفاف صدر من قبيلة بهراء تجاه قبيلته[1] :

وقد زعمت بهراء أن رماحنا	رماح نصارى لا تبوء الى الدم
نعاطى الملوك السلم ما قسطوا لنا	وليس علينا قتلهم بمحرم

وقد سبق لبنى تغلب أن قتلوا ملكاً فى الحادثة المعروفة. والشاعر يرد هنا ليس على بهراء وحدها، بل وعلى تعاليم الخد الأيمن لنبيه.. وثمة إدراك لضرورة هذا اللون من العلاقات يتمشى مع التورط فيها عملياً. فالطبرى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه علّم المسلمين أن يطيعوا الخليفة إذا استقام ويقتلوه إذا اعوج. ولما اقترح عليه أحدهم الخلع بدل القتل ردّ عليه أن القتل أنكل لمن بعده، أى أكثر ردعاً[2] . وسواء صدر هذا التوجيه عن عمر أو غيره فهو يحمل نزوعاً إلى أدلجة وشرعنة ما جرى فى صدر الاسلام.

يمكننا أخيراً أن نرصد مؤشرين لهذه الأحداث: أولهما هو دلالتها، رغم ما قد يكون فيها

(١) جابر بن حنىّ (وزن قصى) التغلبى من شعراء القرن السادس الميلادى. توفى عام ٥٧٠م وهو عام ولادة النبى. والبيتان من قصيدة له من «المفضليات» التى جمعها المفضل الضبى المعاصر للمنصور. وهى من أوثق وأقدم مختارات الشعر الجاهلى.

(٢) التاريخ: باب مقتل عمر. والمعترض هو طلحة بن عبيدالله.

من تكدير لمزاج الانسان المستريح، على حيوية مجتمع غير قابل للوحدة، لأنه يشتمل في مقومه الأساسي على تلك الشخصية الاجتماعية القادرة على التصرف خارج دائرة المحرمات حيثما اصطدمت بقناعاتها، أو بكلمة أدق، بمصالحها الجوهرية.

الثاني أن العنصر التحريضي للاسلام يوكد هنا حضوره على حساب الدور التخديري للدين، إذ لا يسعنا بحال أن نفصل ما حدث في صدر الاسلام عن الاسلام نفسه. ويمكننا أن نتلمس في هذا المجرى تلك المؤثرات المتعددة المصادر التي شملها مجتمع صدر الاسلام سواء ما يعكس منه امتدادات المجتمع الجاهلي أو ما هو نتاج الصراعات الاجتماعية التي سبقت أو زامنت نشوءه. وبالطبع فإن هذه الحالة ما كانت لتستمر طويلاً مع وجود الدين كتكوين جوهري في الوعي الاسلامي. وسنصادف في وقت مبكر نسبياً محاولات لاهوتية لضبط سلوك المسلم يتصدرها الحسن البصري، وهو فقيه ومتكلم من أصل فارسي لم يعايش الاسلام الأول ولم يمتحن بموروثات العصر الجاهلي. وكان يتكلم لغة دينية ناضجة لا تشوبها لكنة جاهلية، من ذلك الغرار المألوف لدى الأحبار الخلص. والحسن البصري هو من أقدم مؤدلجي السلام الاجتماعي في الاسلام، ولو أن آراءه ظهرت في وقت كان العنصر التحريض للاسلام لا يزال أبداً في نفوس أتباعه وكان الكثير من الفقهاء لا يزالون يتلقون الجلد والنفي على أيدي الخلفاء الأمويين وولاتهم. وقد أخرج ابن عساكر في ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي ما يلي: لما كانت فتنة ابن الأشعث ـ يقصد انتفاض أهل العراق بقيادة عبدالرحمن بن الأشعث الكندي ضد الحجاج ـ دخل جماعة على الحسن فقالوا: ما تقول في هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة وفعل وفعل؟ وذكروا من أفعاله فقال الحسن: «لا تقاتلوه فإنه إن يكن عقوبة من الله فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيافكم. وإن يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين». فخرجوا من عنده وهم يقولون: نطيع هذا العلج؟ وكانوا قوماً عرباً فخرجوا مع ابن الأشعث[1]. وإشارة ابن عساكر أنهم كانوا من العرب وأنهم نبزوا الحسن بأنه «علج» يقصدون أعجمي يكرس ما ذهبنا إليه بشأن العنصر التحريضي لاسلام صدر الاسلام بتركيباته المعقدة التي لم يستوعبها الاكليروس الناشيء الذي كان الحسن البصري يعبر عن اتجاهاته.

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق... ج٤/ ٨٠.

في الخلافة الأموية

في هذه الحقبة، كانت الاغتيالات السياسية متقابلة بين السلطة والمعارضة. وقد مارسها الخلفاء الأمويون بدءاً من معاوية الذى استهلها باغتيال مالك الأشتر في خلافة على ثم واصلها بعد انفراده بالخلافة. أما المعارضة فقد انفردت منها الخوارج بالتوسع في استعمال هذا التكتيك.. ونستقصى فيما يلى أهم وأشهر حوادث الاغتيال بادئين بما حدث منها على يد السلطة.

اغتيال الحسن بن على:

كان الحسن قد سلم الخلافة لمعاوية بعد مقتل والده، انسياقاً مع نهجه الاستسلامى المعروف، لكنه اشترط في عقد التسليم، تحت ضغط المتشددين من أصحاب على، أن تعود إليه الخلافة بعد وفاة معاوية. وكان هذا الشرط في غاية الخطورة بالنسبة لمستقبل الخلافة الأموية، لأنه يعنى حتمال استعادة الراشدين للخلافة في شخص الحسن، الذى كان أصغر سناً من معاوية. ولم يكن أمام الأمويين من خيار إلا التخلص من الحسن بوسيلة ما. لكن معاوية لم يستعجل الأمر، لأن وريثه يزيد كان لا يزال صغيراً وكان التفكير في تعيينه ولياً للعهد سابقاً لأوانه . ولذلك عاش الحسن لمدة عشر سنوات بعد تنازله وهو في دعة ينتظر، أو على الأصح، ينتظر أصحابه موت معاوية ليعود إلى المطالبة بالخلافة بحكم العقد المبرم بينهما. وفي هذه المدة كبر الوريث وصار مؤهلاً للولاية، كما جرى تسويقه في عيون أهل الشام وبنى أمية على السواء، واقترب معاوية من شيخوخته بينما الحسن لا يزال يتمتع بشبابه. وعندئذ بدأ معاوية يفكر في إزالة هذه العقبة التى تحول دون استمرار الخلافة في أسرته.

ثمة ما يشبه الاجماع على أن الحسن مات مسموماً، مع الميل إلى تحميل زوجته جعدة بنت الأشعث الكندى مسؤولية ذلك. وقد وردنا شعر يرثى فيه كثير عزة - أو النجاشي الشيعى - الحسن ويستهله بتوجيه الخطاب إلى جعدة إشعاراً باتهامها. وكنا قد أشرنا في القسم الثانى إلى موقف الأشعث بن قيس المناهض لعلى والمتواطئ مع معاوية. ويبدو أن هذه الزيجة كانت تدبيراً من على للتقرب من الأشعث واستدراجه إلى جانبه. والأشعث زعيم كندة شبه المطاع إذ هو سليل ملوكها الغابرين. لكن حسابات على لم تكن موفقة، فالمصالح الاجتماعية غالباً ما تعلو على اعتبارات القرابة ناهيك عن المصاهرة. وقد تواطأ الأشعث مع قتلة على فليس

- -

من الصعب أن يكون لدى ابنته التى نشأت فى بيت تآمر، مناوئ لعلى وأولاده استعداد للقيام بدور مماثل لما قام به أبوها. وكان معاوية يعى هذه الحقائق وعى الحاكم الخبير باتجاهات وسرائر رعاياه.ومن المثير للانتباه أن جعدة بقيت زوجة للحسن الذى عرف بكثرة التطليق ولم تكن المرأة تثبت عنده إلا قليلا. ولعلها بقيت كذلك تقديراً لمكانتها وما ينجم عن ذلك من تمتين الروابط مع قبيلة كندة القوية.

من بين الذين أكدوا تسميم الحسن، «المدائنى». وهو من أقدم كتاب السير. وقد وردت روايته فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (١). وهى تفيد بأن الحسن توفى بعد مرض دام أربعين يوماً وأن معاوية دس له سماً على يد جعدة بنت الأشعث زوجته وقال لها إن قتلتيه بالسم فلك مئة ألف (درهم) وأزوجك يزيد ابنى. فلما مات الحسن وفى لها بالمال ولم يزوجها من يزيد لعدم اطمئنانه إليها. لكن قولالمدائنى أن مرض الحسن دام أربعين يوماً غير واقعى بالنسبة لمسموم. ويغلب على الظن حصول التباس فى معدود الأربعين، وقد ورد فى رواية ابن عساكر (٢) أن الحسن بعد أن سم كان يوضع تحته طست ويرفع نحوا من أربعين مرة. يشير إلى ماأحدثه السم فى بطنه من مفاعيل. فلعل المرة صارت فى رواية المدائنى يوماً على جهة الاشتباه.

ونص على موت الحسن مسموماً ابن عبد البر فى «الاستيعاب» (٣) عن قتادة وأبى بكر بن حفص، وهما من قدماء الرواة. وأورد عن رواة أخرين أن جعدة سمته بتدسيس من معاوية. وقال هؤلاء الرواة فى تعقيب على هذا الخبر أن جعدة كان لها ضرائر. والمقصود من ذلك إلقاء الشك على علاقته بزوجها قبل أن يحدث له ما حدث.

وأشار إلى موته مسموماً ابن حجر فى «الإصابة» و«تهذيب التهذيب» وابن الأثير فى «أسد الغابة». والكتب الثلاثة هى، إلى جانب الاستيعاب من المصادر المعتمدة فى التراجم.

ويلاحظ تجاهل الطبرى لوفاة الحسن فلم يذكرها فى حوادث السنين التى يرجع المؤرخون وفاة الحسن فى إحداها. لكن ابن الأثير ذكرها فى حوادث سنة ٤٩، ونص على وفاته مسموماً

....

(١) المجلد ٤ ص ٥. وكتاب المدائنى مفقود.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٤ / ٢٢٩

(٣) الترجمة ٥٥٥ الحسن بن على. جـ١/ ٣٨٩ - ٣٩٠.

على سبيل القطع كما فعل فى «أسد الغابة» وهو بذلك يستدرك على أستاذه الطبرى (تاريخ ابن الأثير «الكامل» مبنى على تاريخ الطبرى حتى السنة التى ينتهى بها ثم يكملها حتى السنة التى سبق وفاته وهى سنة ٦٢٩هـ). لكن الطبرى ذكر ذلك فى «ذيل المذيل» عن ترجمته للحسن . والطبرى يتحسس للأخبار التى تسئ إلى الأمويين فيسعى لاستبعادها ما استطاع.

وروى ابن كثير فى البداية والنهاية (حوادث ٤٩) أن الحسن مات مسموماً بتدبير من معاوية. وأن الذى دس إليه السم خادم له، فى رواية، وفى روايات أخرى زوجته جعدة. وأثبت الرثاء الذى يستهله الشاعر بمخاطبة جعدة ونسبه إلى كثير عزة. والرواية التى تتهم الخادم بتسميمه غير مشهورة فى المصادر، التى تميل فى جملتها إلى اتهام الزوجة بذلك.

وربط أبو الفرج مشروع البيعة ليزيد بالتخلص من شخصيتين هما الحسن بن على وسعد بن أبى وقاص[1] .وكان سعد من بين القلائل الذين تبقوا من قادة الاسلام الكبار، الذين يعسر تخطيهم فى خطط الاستخلاف، لا سيما لشخصية عادية مثل يزيد. ويجب أن يفسر التخلص من سعد، إذا صحت رواية أبو الفرج، بمعارضته لاستخلاف يزيد وليس بطمعه فى الخلافة لأنه كان يومذاك قد عمى، والبصر شرط رائس فى صحة الاستخلاف عند المسلمين.

إن لجوء معاوية إلى السم للتخلص من المناوئين قد أشار إليه ابن أبى اصيبعة لدى ترجمته للطبيب السريانى ابن أثال. فقد جاء فى «عيون الأنباء» أن ابن اثال كان متخصصاً بالسموم، وأن معاوية كان يقربه لذلك كثيراً. ثم استطرد فقال: ومات فى أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم[2]. وتلقى هذه الملحوظة الهامة لابن أبى اصيبعة بعض الضوء على الوفيات المشبوهة لأمثال سعد بن أبى وقاص، ورغم أن المؤرخين لم يعنوا باستقصائها فى ترجمتهم لهذه الشخصيات عدا الحالات المشهورة مثل حالة الحسن بن على . ويبدو أن ابن أثال كانت له مدرسة ومريدون فى هذا الفن ، لأنه قتل فى وقت مبكر من خلافة معاوية كما سنبين ، بينما حدثت اغتيالات بالسم من بعده. ويمكن أن نستنتج أن من أسباب اهتمام معاوية بمسألة التخصص فى تحضير السموم إنتاج سموم لطيفة لا يظهر لها أثر. وقد ذكرت الروايات التى تحدثت عن موت الحسن إنه سقى السم مرات عديدة فلم يمت،

---

(١) مقاتل الطالبين ا لقاهرةت ١٩٤٩ ص ٧٣ فصل وفاة الحسن.

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ط. بيروت ١٩٦٥ص ١٧١ .

مما ألجأ فيما يبدو إلى استعمال وصفة أشد مفعولاً هي التي قتلته وتدل المحاولات الفاشلة السابقة على أن السموم كانت ضعيفة المفعول بسبب المبالغة في لطافتها.

بعد موت الحسن بدأ معاوية مساعيه العلنية لمبايعة يزيد ولياً لعهده. وقد نظر بعض القدماء إلى هذا الحدث على أنه من الأحداث الفاصلة في تحول الخلافة إلى ملكية، واشتداد وطأة الاستبداد على العرب. وينقل أبو الفرج عن رجل يدعى أبو اسحق أنه سئل: متى ذل الناس؟ فقال: حين مات الحسن. وادعى زياد وقتل حجر [١]. وهي ثلاثة أحداث متكاملة الدلالة في هذا الصدد، فموت الحسن أفسح المجال لمبايعة يزيد حيث اتخذ تحول الخلافة إلى ملكية شكله الرسمي، وادعاء زياد (استلحاقه بآل أبي سفيان) ارتهن بتسليطه على العراق ليفرض على أهله أول سياسة قمعية يقع العرب تحت طائلتها. وقتل حجر (ابن عدى الكندى) بأمر من معاوية نظر إليه في حينه على أنه تحدى مباشر للعرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت يجاهرون بمعارضتهم للدولة دون أن تجرأ على قمعهم بهذه الطريقة.

اغتيال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

كان عبد الرحمن قائداً عسكرياً مرموقاً كوالده. وقد انضم إلى معاوية في صراعه ضد على بن أبي طالب. وبعد أن استتب الأمر لمعاوية عينه لقياده جبهة الفتوحات في أسيا الصغرى (أرض الروم) التي بدأ المسلمون يقضمونها بالتدريج بعد إخراج البيزنطيين من بلاد الشام. وقد أحرز عبد الرحمن نجاحات كبيرة في حروبه هناك جلبت له شهرة واسعة بين أهل الشام أضيفت إلى رصيده الموروث من والده. ويذكر الطبرى[٢] أن عبد الرحمن انصرف عام ٤٦ من بلاد الروم إلى حمص وكان قد عظم شأنه بالشام ومال إليه أهلها لما كان عندهم من آثار أبيه ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه، حتى خافه معاوية فأمر ابن أثال أن يحتال في قتله. فلما وصل عبد الرحمن إلى حمص دس إليه ابن أثال شربة مسمومة، يقول ابن أبي أصيبعة[٣] إنها شربة عسل. فمات منها . وكافأ معاوية ابن أثال بإعفائه من الضرائب طيلة حياته وتعيينه والياً على خراج (ضرائب) حمص.

---

(١) مقاتل الطالبين ص ٧٦.

(٢) التاريخ. حوادث سنة ٤٦ط الاستقامة، القاهرة ١٩٣٩ . جـ٥/ ٢٢٧ . انظر أيضاً: ابن عساكر في ترجمة خالد بن عبد الرحمن ٨٣/٥.

(٣) عيون الأنباء ص ١٧٤ .

إن رواية الطبرى ، التى اعتمد عليها ابن عساكر وابن أبى اصيبعة كما يبدو، تجعل سبب الاغتيال خوف معاوية من منافسة عبد الرحمن له فى سلطانه، لكن رواية لأبى الفرج[1] تربط الحدث ببيعة يزيد وخلاصتها أن معاوية لما أراد أن يظهر البيعة لابنه قال لأهل الشام إن أمير المؤمنين قد كبرت سنة ودق عظمه واقترب أجله ويريد أن يستخلف عليكم فمن ترون ؟ فقالوا : عبد الرحمن بن خالد. فسكت وأضمرها فى نفسه حتى دس إليه الطبيب ابن أثال ، فسقاه سماً فقتله.

قد يكون محتملاً أن معاوية خاف على نفسه من عبد الرحمن عندما نعتبر أن تصفيته تمت فى وقت مبكر نسبياً - بعد خمس سنوات من انفراده بالسلطة. لكن الباعث الأقوى يجب إرجاعه إلى بيعة يزيد إذ يصعب القولى أن معاوية الذى انتصر على رجل كعلى بن أبى طالب يخشى رجلاً كعبد الرحمن بن خالد، بينما نجد عبد الرحمن يشكل خطراً حقيقياً إزاء ابنه ، الذى لا يمتلك مثل رصيده. وتبدو رواية أبو الفرج من هنا معقولة أكثر، مما يحملنا على الاعتقاد أن اغتيال عبد الرحمن بن خالد يندرج فى نفس الاعتبارات التى أدت إلى اغتيال الحسن بن على والوفاة المشبوهة لسعد بن أبى وقاص وهى إزالة عقبات تقف دون البيعة ليزيد واستمرار الخلافة فى بنى أمية.

تمت عملية أغتيال عبد الرحمن بن خالد فى سهولة أكبر بالقياس إلى اغتيال الحسن. ذلك لأن عبد الرحمن لم يكن يحس بحاجة إلى التحفظ من خطر كهذا نظرا لعلاقاته الطبيعية بمعاوية.وقد حدثت قبل اغتيال الحسن وقبل شيوع الحديث عن بيعة يزيد، أى فى وقت لم تظهر لعبد الرحمن بوادر تثير مخاوفه.

لكن العملية انكشفت بعد وقوعها وأدت إلى ردود فعل مباشرة انتهت باغتيال الطبيب ابن أثال. وقد قام بذلك ابن المغدور أو ابن أخيه، بحسب اختلاف الروايات واسم كليهما خالد (تميل الروايات إلى أنه ابن الأخ). وتفيد رواية أوردها أبو الفرج أن هذا الشخص كمن لابن أثال فى مسجد دمشق وكان يمسى مع معاوية فلما خرج من القصر وحاذاه وثب عليه فقتله

---

(١) الأغانى جـ١٦ / ١٤٠ ط بيروت - بلا تاريخ فى أخبار المهاجر بن خالد. تفهم هذه الرواية من حيث دلالتها على جس نبض المتنفذين من أهل الشام. أما التفاصيل التى تضمنتها فقد لا تكون واقعية بالضرورة..

وقد اعتقله معاوية وأمر بجلده مئتى سوط وأغرمه الدية ألفى دينار. وبقى فى السجن حتى وفاة معاوية وتقول الرواية إنه قال لمعاويةعند اعتقاله: «قتلت المأمور وبقى الآمر»[1]. وهذا مجرد تهديد. إذ كان المفروض أن يبدأ بالآمر لأنه الفاعل الأصلى. لكن من الواضح أنه قد اختار الأسهل والأقل كلفة. وهو بذلك قد تصرف بموجب حساب مسبق حدد له سلوكاً مزدوجاً: لم يسكت عن الجريمة التى ارتكبت بحق والده، أو عمه، ولم يذهب فى إدراك ثأره إلى المدى المطلوب حين قرر قتل المأمور دون الآمر. ومع أن المأمور يستحق نفس العقوبة (لاسيما وهو طبيب مؤتمن على أرواح الناس فخان رسالته وتحول إلى أداة قتل بيد السلطان) فقد كان واثقاً أنه لن يقتل إذا اغتال المأمور، بخلاف مالو اغتال أو حاول اغتيال الآمر. وحسابه مبنى على اعتبارين: مكانته الأعلى بوصفه حفيد خالد بن الوليد، ومكانة القتيل الدون بوصفه طبيباً غير مسلم. وهو حساب مضبوط أدرك به جزءاً من ثأره من دون أن يكلفه حياته. ومما يؤكد لنا أنه أجرى هذا الحساب سلفاً ما ذكرته رواية أبو الفرج من أنه أشرك فى كمينه رجلاً من مواليه يمتاز بشدة البأس ورسم له خطة تقضى بأن يكون هو الذى يتولى قتل ابن أثال بينما يقتصر دور المولى على المراقبة والحماية من وراءه. والغرض من هذا بين فلو أن المولى هو الذى تولى قتل الطبيب لكان من المحتمل أن يقتل به، لا سيما وهو يتجرأ على اغتيال طبيب الخليفة وأداته الضاربة فى تصفية خصومه ومنافسيه.. وربما ساعدنا هذا الموقف الأخلاقى من جهته على ترجيح أن قاتل الطبيب هو ابن الأخ وليس الابن . وابن الأخ هو خالد بن المهاجر بن الوليد، وكان أبوه مع على بن أبى طالب خلافاً لأخيه الموالى لمعاوية والأمويين. ولابد أنه قد اكتسب من خلال ذلك شيئا من أخلاقيات على بن أبى طالب هى التى جعلته يتجنب توريط مولاه فى قضية تخصه شخصياً، رغم ما انطوت عليه خياراته من حسابات ربح وخسارة لم تكن لعلى بن أبى طالب خبرة كافية لها.

اغتيال عمر بن عبد العزيز:

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بين عامى ٩٩ و ١٠١هـ ومجمل مدته سنتين ونصف. وكانت خلافته بمثابة انقلاب (أبيض) ضد السياسة الأموية نفذ فى أثنائه إجراءات كثيرة وجذرية استهدف بعضها الاتجاه العام للخلافة السائدة وبعضها الآخر المصالح المباشرة لأركان

(١) المصدر السابق. أيضاً ابن عساكر ٥ / ٩٥ .

الأسرة. وكان مقدار الخطر الذى حملته خلافة عمر بن عبد العزيز على الوضع الأموى يكفى لإثارة اعتراضات شديدة من جانب أسرته. لكن هذه اعتراضات عبرت عن نفسها فى احتجاجات هادئة أخذت فى الغالب شكل عتاب أو نصائح من شيوخ الأسرة ووجهائها.. وفى هذا السياق المتطامن نفسه تأتى الوفاة العاجلة للخليفة لتضع حداً لانقلابه القصير العمر.

توفى عمر بن عبد العزيز قبل أن يكمل الأربعين. وكان لا يزال شاباً لم يستهلك طاقاته البدنية بالإسراف الذى اعتاده الخلفاء وأبناؤهم فى الملذات الحسية. وقد ذكر ابن كثير فى حوادث ١٠١ من البداية والنهاية أنه مات بالسل، فى رواية، وبالسم فى رواية أخرى. لكن مصادر سيرة عمر لم تتحدث عن أعراض سل حين تحدثت عن مرضه الذى توفى به. وتتجه معظم الروايات إلى القول أنه مات مسموماً. وقد أورد الطبرى فى حوادث ٩٩ التى أعقبت استخلاف عمر بعد أن استعرض مفاوضاته مع وفد من الخوارج أن بنى مروان «خافوا أن يخرج ما عندهم وفى أيديهم من الأموال فدسوا إليه من سقاه سماً» . ذكر الطبرى ذلك بعد أن تحدث عن اتفاق وشيك بين الخوارج وبين الخليفة يعلن الخوارج بموجبه تأييدهم له مقابل خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد. وكان يزيد ولياً لعهد عمر بموجب وصية سليمان بن عبد الملك التى تضمنت استخلاف عمر ثم يزيد، وكان ذلك هو الاعتراض الأساسى الذى أبداه الخوارج على سياسة عمر. وفيما يتعلق بخبر اغتياله بالسم فإن رواية الطبرى لها قيمتها الكبرى فى إثبات هذا الاحتمال، لأن هذا المؤرخ الكبير قلما يتبنى خبراً مضاداً للأمويين مالم يتثبت منه. وقال الكتبى فى «الوفيات» مانصه: سقاه بنو أبيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيراً مما فى أيديهم[(١)]. وبينما ذكر أبو الفدا فى ترجمته لعمر فى مختصره أن موته بالسم معروف لدى اكثر الناس. وقد نص على وفاته مسموماً كذلك الشعرانى فى طبقاته عند ترجمته لعمر فى المجلد الأول . بينما أورد الغزالى فى أحياء علوم الدين[(٢)]، أن أعراض تسمم ظهرت فى مرض عمر الذى توفى فيه. اكتشف ذلك طبيبه وأخبره بها فقال عمر إنه قد أحس بالسم حين وقع فى بطنه. وفى «حلية الأولياء» لأبى نعيم حكاية ذات مضمون غيبى تحدثت عن

---

(١) انظر ط، بولاق ١٢٨٣هـ. ٢/١٠٥ .

(٢) انظر جـ٤ / ٤٦٥ مطبعة الحلبى ١٢٩٦هـ القاهرة . «كتاب الموت».
أيضاً : ابن الجوزى، سيرة عمر بن عبد العزيز. القاهرة١٣٣١ هـ ص ٢٧٧ .

تسميمه نسبت إلى الوليد ابن هشام (لم يذكر إن كان ابن عبد الملك) قال فيها: لقينى يهودى فأعلمنى أن عمر سيلى أمر هذه الأمة فيعدل فيه. فلقيت عمر فأخبرته بقول اليهودى . فلما استخلف عمر و دنت وفاته لقينى اليهودى وقال لى: إن صاحبك قد سقى فأمره فليتدارك نفسه. قال فلقيت عمر فذكرت ذلك له. فقال قاتله الله ما أعلمه . لقد عرفت الساعة التى سقيت فيها[1] . لا شك أن مخترع هذه الحكاية قد استفاد من وجود خبر ذائع عن تسميم عمر لإعطاءه «كرامة ولى» مما يحرص ذوو الأمزجة الصوفية على منحها للأولياء . ومن المعتاد للحكايات التى تتوخى هذا الغرض أن تجرى على لسان يهودى أو نصرانى لأنهم عند المسلمين من أهل العلم الأول الذين سبقوهم إلى الاتصال بالسماء.

وتقرن رواية لابن عبد الحكم تسميم عمر بحكاية عن ملك الروم تقوم إن الملك المذكور لما بلغه سقى عمر أرسل إليه رأس الأساقفة وكتب إليه يعلمه حاله عنده وما يحفظه له من الحق عنده بوصفه من أهل الخير وطاعة الله ويقول له إنه قد بلغنى أنك سقيت وقد بعثت إليك رأس الأساقفة وأطبهم (أعلمهم بالطب) ليعالجك مما بك. فقدم عليه فقال له عمر: انظر إلى. فجسه فقال: سقيت يا أمير المؤمنين. وتقول الرواية إن عمر أبى أن يتقبل العلاج الذى وصفه له المبعوث الرومى. وأنه دعا فى نفس الوقت الرجل الذى اتهمه بدس السم إليه فاستجوبه فاعترف وقال إنه خدع وغر فقال عمر : خدع وغر، خلوه ولم يعرض له بشئ[2].

والحكاية بقدر ما يتعلق بملك الروم باطلة، لأن مدة وصول الخبر وإرسال رأس الأساقفة لاتتناسب مع حالة مسموم. ولو أننا لا نعدم أن نجد لها أساساً لأن خلافة عمر كانت فترة سلام مع البيزنطيين، وقد سحب عمر القوات التى كانت تحاصر القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك، كما أظهر ميلاً إلى عدم التوسع فى الفتوحات حيث كان يقول «حسب المسلمين ما فتح الله عليهم» . فمن المنطقى أن تكون للبيزنطيين مصلحة فى بقائه. وقد يكون صدر عن الامبراطور البيزنطى فى هذه الأثناء رد فعل ما، فصاغ منه الناس حكاية. ومن الطريف فى هذه المناسبة أن بعض المصادر زعمت أن ملك الروم نعى عمر لقومه حين بلغته وفاته ورثاه رثاء مؤثراً!

(١) أنظر الترجمة ٣٣٣ جـ٥ ط مصر ١٩٣٥ .
أيضاً : ابن الجوزى - المصدر السابق ص ٢٧٦ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز . القاهرة ١٩٢٧ ص ١١٨ - ١١٩ .

لا يسعنا أيضاً قبول الخبر المتعلق بالمتهم بدس السم، فانكشاف مثل هذا الفعل ليس سهلاً. وإذا انكشف فليس من السهل ترك المتهم طليقاً، إن لم يكن من جهة عمر أو من جهة أولاده. كما أن الذين يقفون وراء المكيدة سيجدون أنفسهم مضطرين إلى القضاء على أداتهم الجرمية لإخفاء مكيدتهم. وما أيسر أن يأمر الخليفة الأموى الذى استلم بعد عمر بقتل المتهم «غضباً» له و«انتقاماً» من القاتل....

مهما يكن من شئ فإن روايات اغتيال عمر بالسم هى الأرجح بين المؤرخين. وقد ذكر أبو الفدا فى ترجمة عمر من مختصره أن أكثر الناس يميلون إلى هذا الرأى. وليس لدينا فى الحقيقة ما يضعف هذه الروايات غير سكوت بعض المؤرخين عنها، بينما لانجد مؤرخاً عنى بأبطالها أو تقدم برواية أخرى تصلح للتوثيق. وسكوت بعض المؤرخين يرتهن بالطبيعة السرية للحدث وهو كما رأينا حدث غير اعتيادى تقوم به أسرة حاكمة ضد خليفتها الذى يتمتع بشأن خطير ومكانة لاتطال.

علامة استفهام:

تقول بعض مصادر سيرة عمر إنه لم يتخذ عبيداً لمنزله أثناء الخلافة. لكن هذا لا يمنع أن يكون له خدم يتولون شؤونه الشخصية والمنزلية. وهناك ما يدل على أن مائدته كانت تحضر وفق الأصول وأنه كان يساهم أحياناً فى ترتيبها. فهل دس السم فى طعامه أو شرابه من طرف بعض الخدم؟ مر بنا أن بعض الروايات صرحت بذلك. وهو احتمال وارد من المعروف أن الخدم كانوا من الأدوات الشائعة لمثل هذه المكايد... لكن لدينا احتمال أخر قد يتوارد إلى الذهن.

كان عمر بن عبد العزيز متزوجاً من ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك، وكانت حياته معها قبل الخلافة مترعة بالحب والنعيم.ولكنها أصيبت بخيبة أمل كبرى بعد استخلاف عمر. وقد أوردت المصادر عنها أموراً تدل على تبرمها الشديد بحياتها فى تلك المدة. ومن ذلك إفادة لها بعد وفاته تقول فيها إنه لم يغتسل من جنابة منذ تولى الخلافة حتى مات[1]. ومثل هذه الإفادات كانت مألوفة من نساء العرب فى صدر الإسلام فلا يستبعد صدورها عن زوجة عمر،

---

(١) طبقات ابن سعد. ليدن ١٣٢٢هـ. جـ٥ / ٢٩٣ فى ترجمة عمر بن عبد العزيز.
أيضاً : ابن عبد الحكم ص ٥٠.

ولو أنها قد تكو غالت فى ذلك لتعبر عن مدى عزوفه عن متع الحياة بسبب انهماكه فى تنفيذ سياسته الإصلاحية.

بالطبع لم يكن فى مقدور أميرة مدللة ربيت فى بيت امبراطورى تجبى له كنوز الدنيا أن تتقبل وضعاً كالذى أراده لها خليفتها الزاهد، فطباع هؤلاء الناس هى أبعد ما تكون عن القناعة والعزوف عن الامتيازات الخرافية التى ينعمون بها . ورغم أن المصادر ذكرت أن فاطمة تابعت زوجها فى البدء فى التخلى عن بعض مقتنياتها النفيسة وارجاعها إلى بيت المال، فقد عادت تتذمر فيما بعد إلى الحد الذى جعلها تصرح بتلك الإفادة المثيرة عن حياتها الجنسية. وقد تحدثت الروايات فى نفس الوقت عن علاقة حب جمعت بين الزوجة الساخطة وبين رجل من أبناء عمومتها بدأت فى أيام عمر وانتهت بالزواج من هذا الرجل بعد وفاة الخليفة. وقد هجيت بسبب ذلك بشعر نسبه ابن عساكر(١) إلى الأحوص وصاحب الأغانى (٢) إلى موسى شهوات وهو شاعر من موالى قريش. وفى رواية أن عمر سمع زوجته أو جاريتها تقول: أراحنا الله منك. وقد وردت فى مصدر معتمد وعن محدث قريب الزمن منه(٣). وبالاستناد إلى هذا الوضع يتوارد احتمال أن تكون للزوجة يد فى التخلص من الخليفة . وهو احتمال لا أستبعده ولا أثبته؛ لا أستبعده لأنه طبيعى جداً فى هذه البيئات ومن هولاء الناس فى ظرف كالذى وصفناه للتو. ولا أثبته لأنى لا أملك رواية صريحة أو ضمنية تدل عليه. مهما يكن فإن مصير عمر بن عبد العزيز قد تقرر كما رجحنا فى منزله وأن خطة تصفيته رسمت من طرف أسرته. وقد استعادت السياسة الأموية سيرتها الأولى على يدى يزيد بن عبد الملك تبعاً للترتيب الذى أوصى به سليمان بن عبد الملك. ولو قدر لعمر أن يستمر فى الخلافة مدة أطول، وهو أمر كان فى قيد الإمكان لأنه حين مات لم يكن قد بلغ الأربعين، لكان ممكناً أن يشتد ساعد المعارضة الاسلامية للخلافة الأموية لتنتهى إلى انقلاب جذرى يعيد حكم الخلفاء الراشدين. وهو ما

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ١٩٩

(٢) جـ٣ / ٣٥٣. فى أخبار موسى شهوات.

نص الشعر:

أبَعـد الأغـر ابن عـبـد العـزيز — قـريع قـريش إذا يُذكـر

تـزوجت داود مـخـتـارة — الا ذلـك الخلـف الأعـور

(٣) تاريخ أبو زرعة الدمشقى ١ / ١٩٥. فقرة ١٢٨. دمشق ١٩٨٠.

كان الأمويون يخشونه من خلافة عمر بن عبد العزيز.وقد جسدت هذه المخاوف عبارة شديدة الوقع ينسبها ابن عبد ربه إلى مسلمة بن عبد الملك قالها بعد وفاة عمر[1]: «أما والله ما أمنت الرق حتى رأيت هذا القبر» والرق الذى يقصده مسلمة هو خروج السلطة من أيديهم وتحويلهم إلى رعايا.

وفيات مشبوهة

ذكرنا عند الكلام على اغتيال الحسن بن على ما أورده أبو الفرج عن موت سعد بن أبى وقاص مسموماً بتدبير من معاوية. وهو خبر لم يشتهر بين المؤرخين فسجلناه على احداث الوفيات المشبوهة. وهناك وفيات أخرى حصلت فى ظروف غامضة أو جاءت فيها روايات اغتيال غير مقطوع بها يمكن وضعها فى نفس العداد. ومنها:

وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية:

شاب تولى الخلافة بعد والده. ويتردد المؤرخون بين وصفه بالضعف ووصفه بالورع وعدم الرضا عن سياسة أبيه وجده . وقد تنازل عن الخلافة بعد أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر واعتكف فى منزله. لكنه لم يعش طويلاً، فقد مات فى نفس السنة وهو فى الثالثة والعشرين. وتقول بعض الروايات إنه مات بالطاعون وبعضها أنه مات مسموماً. وهو بعد أن تنازل واعتزل السياسة لم يبق من له مصلحة فى التخلص منه مالم نأخذ بروايات تقول إنه أظهر ميولاً راشدية تحت تأثير مؤدبه عمرو بن مقصوص وكان من القدرية.

وفاة مروان بن الحكم:

تولى مروان الخلافة بعد معاوية بن يزيد مسجلاً بذلك انتقال السلطة من آل أبى سفيان إلى آله. وقد توفى بعد تسعة أشهر من استخلافه. وكان قد تزوج أرملة يزيد بن معاوية وهى أم ابنه الثانى خالد الذى طالب بالخلافة بعد تنازل أخيه لكن صغر سنة لم يساعده فى تحقيق هذه الغاية. ويقال أن مروان تزوج أمه بقصد إذلاله وأنه شتمه مرة فقال له: يا ابن الرطب! فأبلغ خالد ذلك إلى أمه ولا مها على الزواج من مروان فحميت ووعدته بالانتقام منه. وفى الليل انتهزت نوم مروان وتواطأت مع جواريها فألقين مخدة على عنقه وقعدن عليها حتى اختنق. وهذه أقرب إلى أن تكون حكاية لا رواية . على أن موت مروان قد حامت حوله بعد الشكوك

(١) العقد الفريد ط أحمد أمين - القاهرة ٤/ ٤٣٧.

رغم أنه كان قد قارب السبعين. وقد أورد اليعقوبي رواية تفيد أن أم خالد سقته سم في لبن[1]. وهو أمر غير مستبعد في بينات القصور. بينما ذكرت بعض المصادر أنه مات بالطاعون وقد يكون، ولو أننا لا نملك دليلاً على حصول موجة طاعون بالشام سنة وفاته.

وفاة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز:

هذا الحادث هو أكثر الحوادث مدعاة للريبة. فقد كان عبد الملك غلاماً في السابعة عشرة حين مات فجأة في خلافة والده. وكان هذا الغلام أعجوبة في وعيه الديني والسياسي وقد وقف إلى جانب والده في سياسته الاصلاحية المعادية لأسرته، وكان أشد تطرفاً منه وأكثر اندفاعاً في تنفيذ الاصلاحات. وقد تبناه الخوارج لهذا السبب. وتزعم بعض مصادرهم أن والده دفعه حين مات إلى مندوبيهم الذين كانوا في ذلك الحين يفاوضونه، ليتولوا غسله ودفنه بأنفسهم، باعتباره «صاحبهم» وكان من بين هؤلاء أبو حمزة، الذى احتل الحجاز في وقت لاحق، أيام مروان الحمار، وهو الذى صلى على الولد صلاة الجنازة كما تقول الرواية الخارجية[2].

لم أجد فيما رجعت إليه من المصادر شيئاً عن هذه الوفاة المفاجئة لغلام في السابعة عشرة، ولا ما يعين المرض الذى مات منه. فهل مات مسموماً؟ المصادر أيضا لا تتضمن ما يشير إلى أعراض تسمم ظهرت عليه. على أن الحاجات التي طمنها رحيل هذا الغلام تلقى شيئاً من الريب على وفاته. لا شك أن الأسرة التي كانت تسعى لإنهاء خلافة الوالد قد وقفت على اتجاهات الولد فصار واضحاً لها أن بقاءه بعد والده يجعل العودة إلى سياسته من بعده أمراً ممكناً وهناك ما يدل على أن تجربة هذه الخليفة قد أثارت هلعاً لدى الأمويين من احتمال تكرارها (*). وهو احتمال يقويه وجود مثل هذا الوريث الخطر ويؤخذ من رواية لابن الجوزى

(١) التاريخ ط. النجف ١٣٥٨ ه. جـ٣ / ص ٤.

(٢) انظر: منهج الطالبين للشقصي الرستاقي. القاهرة ١٩٧٨. جـ١ ص ٦١٨.

(*) جاء في «نسب قريش» لمصعب الزبيرى أن هشام بن عبد الملك اتخذا طرازاً (قماش مطبوع) له قدر واستكثر منه حتى كان يحمل عل سبعمئة جمل، وحمله على ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما مد يده إلى أموال بني أمية لم يتعرض لما قطعوا من الثياب ولبسوا بل تركها لهم. فرأى هشام أن عمر أمام عدل وأن من يأتي بعده من أئمة العدل يقتدى به فجعل يتخذ المتاع الجيد ويؤثر فيه ويلبسه ثم يدخره لولده، فإذا جاء بعده خليفة واستأنف سياسة عمر فسيبقى لأولاد هشام شئ كثير نفيس لا تشمله المصادرة لأنه مستعمل. ط - القاهرة غير مؤرخة . ص ١٦٤ فقرة ٤.

أن الأمويين كانوا يتخوفون من أن يكون عبد الملك بديلاً عن يزيد فى ولاية العهد[١]. وفى مثل هذه الحالة يكون من المعقول جداً أن يفكروا فى تصفية الولد قبل الوالد. لأن قطع الأصل مع بقاء الفرع قد لا يحسم الداء.

من هنا يتقوى الشك فى هذه الوفاة. ويمكن تفسير سكوت المؤرخين عن سبب الوفاة فى ضوء الطريقة التى يمكن أن يكون قد تم بها إنهاء الغلام قبل والده. وهى هنا استخدام سم لطيف خفى الأثر لا يترك أعراضاً على المسموم. وعلى أية حال، ينبغى أن لا نستبعد ما تقدمه الطبيعة من خدمات مجانية فى بعض الأحوال. فلعل الغلام قد مات فى أجله الموعود كما يحدث لأقرانه ليوفر على ذويه إثماً زائداً كان عليهم أن يثقلوا به ضمائرهم. ولو أن المشكلة تبقى قائمة على أى حال لاسيما حين نعلم أن الولد لم يمت وحده، فقد لحقه عمه المسمى سهل بن عبدالعزيز وكان على نهج أخيه ومن أعوانه الأشداء على الإصلاح. ثم لحق بالاثنين مولى عمر المسمى مزاحم وهو بدوره من ألص أعوانه. ويقول ابن عبدالحكم إن عمر صار بعد موت الثلاثة يتمنى الموت ويدعو الله لأجل ذلك[٢]. وأنه لسؤال صعب أن يكون القضاء والقدر قد مالأ بنى أمية إلى هذا الحد فصفى لهم أربعة خصوم كلهم شبان فى أقل من سنة؟.

وفاة يزيد الناقص

هو يزيد بن الوليد بن عبدالملك. كان يعارض سياسة أسرته، وقد استصباه القَدَرية المناهضون لهذه الأسرة فانضم إلى جبهتهم ثم قاد تمرداً مسلحاً فى ضاحية المزة، من ضواحى دمشق، وزحف على دمشق فاحتلها وقضى على حكم الوليد، ابن عمه، الذى اشتهر بمجونه وطغيانه. وألقى يزيد عند مبايعته بالخلافة خطاباً ضمنه برنامجاً فى الحكم شبيهاً ببرنامج عمر بن عبدالعزيز مما كان يشكل الأهداف المشتركة للمعارضة الإسلامية لحكم الأمويين.

مات يزيد بعد ستة أشهر من استخلافه وكان عمره أربعين. وتقول بعض الروايات أنه مات بالطاعون، وغيرها أنه مات مسموماً. وليس لدينا ما يدل على أن طاعوناً جارفاً قد ضرب الشام فى ذلك الوقت. واحتمال تسميمه قوى جداً وتبرره نفس الأسباب التى أدت إلى القضاء على

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٦٤.
(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز ١١٤.
«لكل من ابن عبدالحكم وابن الجوزى كتاب عن عمر بن عبدالعزيز يحمل نفس العنوان».

عمر بن عبدالعزيز. وقد أعقب وفاته استيلاء مروان الحمار على الخلافة بعد إزاحة شقيقه الضعيف إبراهيم بن الوليد. وربما كان لآخر خلفاء بنى أمية، المشهور بدهائه وجبروته، يد فى تصفية هذا الخليفة القصير العمر.. ولو أن اليعقوبى ينقل خبراً عابراً يتهم أخاه ابراهيم بسمه.

على بن الحسين وابنه محمد الباقر:

حسب المأثور الشيعى (الاثنى عشرى) أن الأول مات مسموماً بتدبير من الوليد بن عبدالملك، والثانى بتدبير ابراهيم بن الوليد، وحسب مصادر التاريخ العام، مات الإمامان المذكوران فى أجلهما الموعود دون أية شبهة وفى ظروف لا تتحمل أى شك فى سبب الوفاة. ويعطى هذا المأثور الباطل دليلاً على الانطلاق المعكوس من الايديولوجيا إلى الوقائع، لأنه مبنى على اعتقاد جمهور الاثنى عشرية أن الإمام لا يموت إلا شهيداً. وهو مسلك يتميز به المؤرخون الدعاة فى الغالب ويتحاشاه المؤرخون المحترفون. ولذا نجد خبر تسميم الإمامين فى «بحار الأنوار» للمجلسى وهو من كتب الدعاة، ولا نجده فى «تاريخ اليعقوبى» وهو من مصادر التاريخ العام رغم أن مؤلفى كلا الكتابين هما من الشيعة الاثنى عشرية.

* * *

قبل أن ننتقل إلى الكلام عن الاغتيالات التى قامت بها المعارضة نود التنويه بأن وسيلة الاغتيال التى استعملتها السلطة فى الخلافة الأموية قد اقتصرت على السم كما هو واضح من المخططات التى وصفناها. ويرجع هذا إلى أن الشخصيات التى طالتها الاغتيالات كانت لها مكانة فى الأسرة الحاكمة أو فى المجتمع تمنع من تصفيتها علناً. والاغتيال بالسلاح قد يعرض الخطة للانكشاف بالقبض على القاتل. وقد وفر السم الذى كان يحضَر كما قلت آنفاً بطريقة متقنة غطاء للخطط ساعد كثيراً على إخفائها، مما ساعد بدوره على البلبلة والاختلاف الذى يجده المرء وهو يجوس خلال المصادر ليتعرف على مصير أولئك الناس.

الاغتيال من جانب المعارضة

كانت المعارضة الإسلامية للأمويين تتألف من الشيعة والخوارج والقَدَرية وجمهور الفقهاء والمتكلمين ـ مثقفى ذلك الوقت. وقد سلكت المعارضة بجميع أطرافها سبيل العمل المسلح. وكان الأسلوب الغالب هو أسلوب الانتفاضات المسلحة ومن أبرزها انتفاضة الحسين فى

كربلاء، والمختار في الكوفة، وزيد بن علي في الكوفة، وولده يحيى في جرجان، وابن الأشعث في العراق والمشرق والقدرية في الشام، والحارث بن سُرَيج في خراسان.

ونظراً لطول وتشعب هذا العصر وتعقد الأحداث فيه، لامجال لحصر الاغتيالات بالشكل الذى حاولناه في الأقسام الثلاثة الأولى وستقتصر دراستنا على حوادث منتقاة، إما لأهمية نتائجها أو لخطورة عنصر التنفيذ فيها.

على يد السلطة

اغتيال ادريس بن عبدالله:

من أحفاد الحسن بن علي. كان قد اشترك في تمرد قاده أحد أبناء عمه بالحجاز في خلافة موسى الهادى، أخ الرشيد، وهو التمرد المعروف بوقعة فخ. وبعد سحق التمرد هرب ادريس إلى مصر ومن هناك واصل سيره حتى المغرب الأقصى، حيث بدأ بتنظيم حركة ناجحة ضد العباسيين انتهت إلى إقامة أول دولة علوية في أفريقيا. وكانت حركة ادريس ثاني حركة انفصالية خطيرة ضد الخلافة العباسية بعد انفصال الأندلس بزعامة عبدالرحمن الداخل. وقد أرّقت هارون الرشيد، الذى استلم بعد أخيه الهادى، القصير المدة. لكن الرشيد ارتأى عدم أفضلية استخدام القوة العسكرية، ربما لبعد المكان، أو لاعتبار آخر فكر فيه، فلجأ إلى المكيدة لضرب ادريس وحركته.

يتفق معظم المؤرخين على أن ادريس مات مسموماً وعلى أن الرشيد دس إليه رجلاً استغفله حتى سمّه. لكنهم يختلفون في اسم الرجل وكيفية أدائه لمهمته. وتقول رواية لأبو الفرج الأصفهاني[1] إن هذا الرجل كان من الزيدية، وهو مذهب ادريس نفسه، وأن يحيى البرمكى رغّبه وأغراه لاغتيال ادريس. واسم الرجل في هذه الرواية هو سليمان بن جرير الجزرى. وهو مشابه لاسم متكلم زيدى يدعى سليمان بن جرير الرقى، والرقة كانت من أعمال الجزيرة. ومن المستبعد أن يكون هو الفاعل لأنه كان من أعلام الزيدية المناهضين لبني العباس، كما كان من كبار متكلميهم ورأسا لشعبة منهم تسمى الجريرية. ولعل رواية أبو الفرج قد وقع في

(١) مقاتل الطالبيين. القاهرة ١٩٤٩ ص ٤٨٩ الفصل المخصص لادريس بن عبدالله.

- -

اشتباه ناتج عن تقارب الاسمين. وقد ورد الاسم عند ابن خلدون[1] هكذا: سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ. فربما تصحفت حريز إلى جرير. أما الشماخ فهو اللقب الذى تتفق معظم الروايات على تلقيب الفاعل به. وهو ليس لقب سليمان الرقى. وينبغى مع هذا أن لا نستبعد أن يكون الرشيد أو كبير وزرائه قد اختار رجلاً زيدياً لهذه المهمة حتى يمكنه استدراج ادريس للمكيدة. وتذكر رواية أخرى لأبو الفرج وردت أيضاً عند الطبرى[2] وابن خلدون أن الشماخ كان طبيباً وأظهر أنه من الشيعة.

أما كيفية تنفيذ الخطة فيستفاد من مجمل الروايات أن الرجل المذكور التحق بادريس متظاهراً أنه من أنصاره وأنه ساخط على العباسيين. ومن المحتمل جداً أن ادريس صدقه لكونه شيعياً. وقد أنس به وجعله من جملة خواصه. ثم حدث أن اشتكى ادريس وجعاً فى أسنانه فأعطاه مسواكاً مسموماً ونصحه أن يستالك به عند طلوع الفجر. وهرب الرجل فى نفس الليلة. وعند الفجر استيقظ ادريس وأخذ المسواك فجعل ينظف به أسنانه، ويفترض أنه كان قد بيّن له أن فى المسواك مادة علاجية، فتسرب السم إلى جسده وقضى عليه. وقد وردت عن ابن خلدون عبارة تشكك فى هذه الرواية. ولعل ذلك لأنه استصعب أن يكون المسواك المسموم سبباً فى الموت، فمثل هذه الحالات من التسمم كانت ميسورة العلاج بالمضادات الترياقية آنذاك. وقد جاء فى رواية أخرى لأبو الفرج أن الشماخ قدم إليه سمكة مشوية مسمومة. وهو ما يرد أيضاً عن ابن حبيب الذى يسبق أبو الفرج بنحو القرن[3]. وفى رواية غيرها لأبو الفرج أنه قدم إليه عطراً مسموماً فقتله بعد أن شمه وتعطر به. وقد تكون هذه الوسائل أفتك من المسواك.

مهما يكن الخلاف حول كيفية التسميم فقد مات ادريس وكافأ الرشيد مغتاله بتعيينه موظفاً كبيراً فى مصر. وكانت لإدريس جارية حامل منه فانتظرها أعوانه حتى ولدت ولداً سموه ادريس وتعهدوه ليكون وريثاً لوالده. واستمروا فى هذه الأثناء يدبرون شؤون الدولة حتى

....

(١) التاريخ ١٣/٤ الفصل الخاص بالادارسة.

(٢) التاريخ حوادث ١٦٩ ـ أخبار الحسين بن على صاحب فخ. اغتيل ادريس سنة ١٧٥ لكن الطبرى ساق قصته استطراداً من قصة التمرد الذى شارك فيه.

(٣) انظر: «أسماء المغتالين من الأشراف» سلسلة: نوادر المخطوطات، تحقيق عبدالسلام هارون. القاهرة ١٩٥٤، ص١٩٨.

بلغ الوريث سن الرشد. وقد استطاعوا بذلك صيانة دولة الأدارسة من السقوط فلم يتحقق للرشيد الهدف الذى كان يتوخاه من اغتيال مؤسسها.

تصفية الوزير ثم ولى العهد:

بعد أن انفرد المأمون بالخلافة بمقتل أخيه الأمين، وكان مقيماً حينذاك فى خراسان، استداعى على الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام الثامن فى سلسلة الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، وقرر تعيينه ولياً للعهد، فى حركة دراماتيكية أراد أن ينقل بها الخلافة من بنى العباس إلى آل البيت. وقد تم ذلك خلافاً لرغبة الإمام الشيعى الذى قبل الخطة، مكرهاً، رغم أنه كان من المطالبين بالخلافة. ولعل السبب هو عدم تيقنه من قدرة المأمون على فرض خطته على أسرته العباسية ذات النفوذ القوى، أو عدم اطمئنانه إلى جدية الخطة. وقد سبب هذا الإجراء تمرداً فى بغداد قاده عم المأمون ابراهيم بن المهدى وتم فيه خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بالخلافة. وكانت أخبار التمرد تصل إلى وزيره الفضل بن سهل فيكتمها عنه، وكأنه كان يتوق إلى معالجة الأوضاع بنفسه قبل أن ينتبه إليها المأمون، لأن الوزير كان من أهداف المتمردين وأحد الأسباب التى دعتهم إلى العصيان. لكن الأمور تفاقمت وخرجت من يد الوزير فاضطر على الرضا إلى مكاشفة الخليفة بتفاصيل ما يجرى فى بغداد وبيّن له أن العباسين وأنصارهم فى بغداد قد خرجوا على طاعته بسبب ولاية العهد وأن الفضل يستر عنه الأخبار ويتصرف باسمه فى أمور سببت المزيد من القلاقل وعرضت سلطته للخطر. وكان على ملتزماً بعدم غش المأمون، جرياً على أخلاقيات متوارثة لدى أئمة أهل البيت. قرر المأمون على الأثر أن يتوجه إلى بغداد لتدارك الأوضاع. وفى مدينة سرَخس كان الفضل بن سهل، الذى رافق الخليفة فى عودته، يغتسل فى حمام فشد عليه جماعة وتناولوه بسيوفهم فأردوه قتيلاً. وكان المهاجمون من حشم المأمون، فأمر بالبحث عنهم وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، فلما مثلوا أمامه قالوا: «أنت أمرتنا بقتله». فأمر بإعدامهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل، شقيق الفضل، وكان معتمد المأمون فى واسط[1]. وقد ورد قتل الفضل فى الحمام فى مصادر أخرى لم ينص بعضها على تورط المأمون. فابن العماد يقول إن الاغتيال كان بإيعاز من خال

---

(١) الطبرى: حوادث ٢٠٢ هـ.

ـ ابن الأثير، حوادث نفس السنة.

المأمــون(١). بينما أوردها اليعقوبى بعبارات لا يفهم منها إن كان القتل من المأمون أو تصرفاً كيفياً من القتلة(٢). ورواها الخطيب البغدادى(٣)، بطريقة لا تشعر بعلاقة المأمون بها. بينما صـرح ابن حبيب(٤) أن المأمون دس غالب الرومى، وهو مولاه، فقتله فى الحمام وأنه قبض عليه فقتله وقتل معه أربعة آخرين من الحشم.

لسنا بحاجة إلى مجاراة المؤرخين الذين يتحرجون أحياناً من توريط الخلفاء فى المكايد، فقد كان المأمون فى أمس الحاجة لإنهاء الفضل بن سهل الذى كان أحد أخطر عقبتين فى طريق تسوية الفتنة ببغداد. وصراخ القتلة حين قدموا للاعدام لالبس فيه، فالمأمون هو الذى أمر بقتل وزيره، وحتى لو لم يصرخوا لكان علينا أن نفهم سرالاغتيال: فالفضل يجب أن يذهب ثمناً لعرش الخليفة. وقد يتساءل القارئ: أما كان بمقدور الخليفة أن يقتل الفضل علناً وهو شئ مألوف عند الخلفاء بعد الراشدين؟ أو يعزله على الأقل؟ وأجيب أن الفضل مكان له أعوان مستعدون للتمرد لو قتل صاحبهم بأمر الخليفة، وأن له كذلك أخاً متنفذاً لم يكن ليسكت لو حدث هذا لأخيه. أما عزله فقد كان محتملاً أن يدفعه إلى القيام بنشاط مناوئ مستفيداً من كثرة أعوانه وإخلاطهم له. وقد جاء الاغتيال حلاً لهذه الاحتمالات الممكنة حينئذ. ومما له دلالة هامة هنا أن يبعث المأمون برؤوس القتلة إلى الحسن شقيق الفضل مشفوعة بكتاب يرثى فيه المغدور ويبكيه ويخبر الشقيق أنه قد صيره مكان شقيقه... سياسى بارع من طراز معاوية ورجل دولة دقيق الحساب.

بعد قتل الفضل فى سرخس، واصل المأمون سيره إلى بغداد فنزل فى طريقه بمدينة طوس ليقيم أياماً عند ضريح والده الرشيد. وهناك مات ولى العهد فجأة.. وميتة هذا الرجل محيرة؛ فالكثير من المصادر المعتمدة لا تنص على سبب قاطع يفيد الاغتيال لكنها أفادت أنه أكل عنباً فأكثر منه فمات، وكان فيما يقال مشغوفاً بأكل العنب(٥)، والإكثار من أكل العنب لا يميت

---

(١) انظر شذرات الذهب حوادث سنة ٢٠٢هـ.

(٢) التاريخ، ١٨٠/٣ط النجف ١٣٥٨هـ حوادث ٢٠٢. نص العبارات: لما صار المأمون بقومس قتل الفضل بن سهل فى الحمام دخل عليه غالب الرومى وسراجة الخادم فقتلهما المأمون وقتل قوماً معهما.

(٣) تاريخ بغداد. القاهرة ١٩٣١م، ٣٤٣/١٢ الترجمة ٦٧٨٤.

(٤) مصدر سابق. ص١٩٨.

(٥) الطبرى ـ التاريخ، ابن كثير ـ البداية والنهاية، حوادث ٢٠٣هـ. ابن خلدون ٢٥٠/٣ ابن خلكان الترجمة ٣٩٦. المسعودى ج٤/ ٢٨ من ط ـ محى الدين عبدالحميد الخامسة، القاهرة ١٩٧٣(باب ذكر أيام المأمون).

وإنما قد يحدث ارتباكات هضميةفي أسوأ الأحوال. تنص روايات أخرى على أن العنب كان مسموماً، وهى القناعة التى يبدو أن أبو الفرج قد توصل إليها. وقد أورد فى ذلك روايتين تقول إحداهما إن المأمون أمر أحد أعوانه المسمى عبد الله بن بشير أن يطول أظفاره ثم أخرج إليه شيئاً يشبه التمر الهندى وقال له افركه واعجنه بيديك جميعا، ففعل . ثم دخل على الرضا وكان قد اعتل فسأله عن حاله ثم قال له: هل جاءك أحد من المترفقين اليوم (يقصد الممرضين والمعتنين بالمرضى) فقال له: لا. فغضب المأمون وصاح على غلمانه. ثم قال له: خذ ماء الرمان اليوم فإنه لا يستغنى عنه. ودعا برمان فأعطاه عبد الله بن بشير وقال له: اعصر ماءه بيديك. ففعل وسقاه الرضا بيده فشب، ومات بعد يومين وفى الرواية الأخرى يرد ذكر العنب وأن الرضا كان مولعاً بأكله فأخذ له عنب وغرست الابر فى أقماعه. وتركت أياماً ثم قدم له فأكل منه، وكان مريضاً، فقتله وتضيف هذه الرواية أن ذلك كان من لطيف السموم [١].

وفى الروايتين ما يدعو إلى عدم الثقة بهما، ففى الأولى يجرى التسميم بحضور الخليفة حيث يعصر أحد الأعوان رماناً بيده بعد أن طول أظفاره وأشبعها سماً. ومثل هذه الطريقة فى تحضير الأشربة والأطعمة غير مألوفة فى دور الأباطرة التى يعد كل شئ فيها سلفاً ويقدمه خدم متخصصون فى أوانى وكؤوس مخصوصة وبطريقة مخصوصة أيضا . وسيكون من الشذوذ المثير للشك أن يعصرالرمان بحضور الخليفة وولى عهده. أما فى الرواية الثانية فإن ترك العنب أياماً وفيهاالابر لابد أن يفسده، وكان الرضا- مثل سائر أهل بيته - متحرياً للنظافة وله معرفة جيدة بالطب، فهو لا يستسيغ أكل طعام فيه علامة فساد، مع إمكانية توفر أفضل الأصناف له.

وقد أشار اليعقوبى [٢] إلى مسألة التسميم بالرمان دون أن يجزم بصحتها. بينما ذكر ابن العماد أنه مات بالحمى أو بالسم [٣]. والترجيح الأول يعزز ماورد فى بعض الروايات من أنه كان عليلاً قبل أن يدس إليه السم.

واستعرض المحقق الشيعى محسن الأمين قضية موت الرضا فجزم بأنه مات مسموماً، لكنه أورد عن علماء شيعةكبار شكهم فى ذلك. وقدلاحظ أن الكُلينى لم يتطرق إلى اغتياله، والكلينى من أقدم مؤرخى الشيعة. ونقل الأمين كذلك عن «كشف الغمة» أن السيد رضى

(١) مقاتل الطالبين. ص ٥٦٦ - ٥٦٧ الفصل المخصص لعلى بن موسى.
(٢) التاريخ ٣/ ١٨٠ - ١٨١ حوادث ٢٠٣هـ.
(٣) مصدر سابق حوادث ٢٠٢هـ.

الدين على بن طاووس - من مراجع الشيعة فى القرن السابع - كان لا يوافق عل أن المأمون سم الرضا ولا يعتقده. وكان كثير المطالعة والتنقيب والتفتيش عن مثل ذلك. وعزز ابن طاووس قناعته بما كان يظهر من المأمون من الحنو على الرضا والميل إليه واختياره له دون أهله وأولاده[1].

وقد استبعد ابن الأثير رواية العنب المسموم[2]. ورأى ابن الأثير جدير بالاعتبار لأنه مؤرخ رصين وقلما يتحيز فيما لا يتعلق بمعاصريه.

وترددت أصداء اغتيال الرضا فى الشعر، فى قصيدة باكية لدعبل الخزاعى وهو معاصر للرضا عبر عن حيرته بشأن الموت المفاجئ لإمامه ولو أنه مال فيما بعد إلى تأكيد الاغتيال حين صب غضبه ولعناته على بنى العباس:

شككت فما أدرى أمسقى بشربة؟	فابكيك ام ريب الردى فيهون
وايهما ماقلت إن قلت شربة	وان قلت موت انه لقمين
أيا عجباً منهم يسمونك الرضا	وتلقاك منهم كلحةوغضون

لكن أبو فراس الحمدانى جزم بالاغتيال إذا قال فى قصيدته التى هاجم فيها العباسيين ودافع عن آل البيت:

«باءوا بقتل الرضا من بعد بيعته».

وأبو فراس من أبناء القرن الرابع. ولعله يردد هنا ماشاع بين الناس، لاسيما الشيعة.

يستبين من مجمل ما استعرضناه أن تسميم الرضا غيرمتفق عليه. لكن ميتة مفاجنة كهذه وفى وقت كان المأمون محتاجاً إليها لابد أن تثير شكوكاً جدية. وأنا أميل، دون أن أستبق، إلى وجود خطة اغتيال، لاسيما وأننالا نملك دليلاً على إصابة الرضا بمرض قاتل سوى الحمى التى لم يذكر لها المؤرخون مضاعفات أو أعراضاً خطيرة. فضلاً عن أنه حين مات كان بين الرابعة والأربعين والخمسين، تبعاً لاختلاف الأقوال فى عمره، وفى مثل هذا السن لا يموت الانسان إلا بعلة واضحة. وكان المأمون قد كتب فور وفاته إلى العباسيين الغاضبين فى بغداد يخبرهم

---

(١) أعيان الشيعة(٢/ ٣٠ ترجمة على بن موسى الرضا ط - بيروت ١٩٨٣.

(٢) الكامل فى التاريخ. حوادث سنة ٢٠٣.

(يبشرهم؟) بأن الرجل قد مات وأنه عاد إلى لبس السواد شعارالعباسيين الذى كان قد خلعه ولبس الخضرة شعار العلويين. وانتهت بذلك قصة ولايةالعهد التى فجرت الأزمة.. أترى المأمون كان على موعد مع القدر المسارع له فى هواه يجتاز مدينة طوس متوجهاً لإخماد الفتنة فى بغداد؟.

مقتل المتوكل:

قتل المتوكل بتدبير من ابنه المنتصر وحاشيته التركية. ولم تتضمن الخطة أية تعقيدات فقد باغته المسلحون وهم أنفسهم من أفراد القصر فى حجرته وخبطوه بسيوفهم جهاراً ودون أية تكتيكات. وقد وضعنا الحدث على ملاك الاغتيال لأنه دبر فى غفلة من المغدور ونفذ بالمباغتة. وتعكس طريقة قتله روح التهور غير المحسوب لدى المتغلبين الأتراك. وكان واضحاً أن الابن يقف وراء المؤامرة، وهو ماجرهر به البحترى فى مرثيته لولى نعمته.

أكان ولى العهد أضمر غدرة ؟ فمن عجب أن ولى العهد غادره

والسبب الذى حمل الابن على الغدر بالأب أنه قدم عليه فى ولاية العهد أخاه الأصغر. لكن ثمة ماهو أبعد من هذا السبب. فمقتل المتوكل ترتب عليه فقدان الخلافة العباسية سلطتها لحساب المتغلبين الأتراك، ومارافق ذلك من تفكك وحدة الدولة الاسلامية وظهور دويلات الطوائف. ومثل هذه التحولات الكبرى لا تنشأ من مجرد نزاع بين خليفة وابنه. وفى تقديرى أن المتغلبين الأتراك بعد أن اشتد بأسهم فى عهد المتوكل أخذوا يتأهبون للانقضاض على الخلافة وانتزاع السلطة الفعلية منها. وكان المتوكل قوياً مهيوباً، والدولة فى عهده لاتزال محتفظة بوحدتها وتكاملها المركزى. فلم يكن ميسوراً لأحد أن يتطاول على سلطته، فدبروا خطة لاغتياله. وقد انتهزوا تأخير الابن الأكبر فى عقد الولاية فاتخذوا منه أداة لتنفيذ المكيدة. وكان شاباً غراً ضعيفاً فانساق معهم. ولما قتل المتوكل استخلف الابن بقوة الحاشية التركية خلافاً لعقد الولاء. وبهذا تمت للأتراك السيطرة على الخلافة العباسية بإزاحة أخر الخلفاء الأقوياء.

على يد المعارضة

اتسعت حركة المعارضة فى الخلافة العباسية مع تفاقم وتعقد الأزمات الاجتماعية فى عموما المجتمع الاسلامى وحصلت فى أثناء ذلك تبدلات فى مواقع وفصائل الفرق المعارضة. فقد

أستمر الخوارج من خلال تشعباتهم المعروفة وأسلوبهم المعتاد (حرب العصابات) لغاية النصف الثانى من القرن الثالث قبل أن يبدأوا أنحساراً فى الرقعة التى كانت تشملها نشاطاتهم ليتمركزوا فى مواقع نفوذ حصلت فى أيديهم نتيجة انتفاضات مسلحة تجاوزوا بها أسلوبهم القتالى السابق. أما القدرية فقد تطوروا حينئذ إلى المعتزلة وحافظوا على نهجهم المعارض إلى عهد المأمون الذى تحالف معهم وجعل مذهبهم رسمياً للدولة. وقد اشترك المعتزلة فى أوائل العصر العباسى فى حركة مذهبهم رسمياً للدولة. وقد اشترك المعتزلة فى أوائل العصر العباسين فى حركة مسلحة كبرى قادها ابراهيم بن عبد الله الحسنى فى البصرة وكادت تقضى على الخلافة العباسية لحساب المعارضة الاسلامية . لكنها فشلت . ولم يظهر للمعتزلة نشاط سياسى هام بعد هذه الحركة . وبقى الفقهاء في معارضتهم للخلافة غير الراشدية التى أصبحت الآن من نصيب العباسيين وشارك بعضهم فى حركتى ابراهيم وأخيه محمد - الذى أستولى على المدينة فى عهد المنصورة. لكن معارضتهم أخذت فى التراجع بعد هاتين الحركتين لاسيما فى ساحة العمل المسلح، لتنتهى إلى وئام مع السلطة الإسلامية تبلور فى غضون القرن الرابع. ومن الشيعة ظهرت الزيدية بنشاط مسلح استهله الشقيقان ابراهيم ومحمد ضد المنصور. وتواصل متراوحاً بين الشدة والخفوت حتى انطفأت جذوته نهائياً بوصول الزيدية إلى السلطة فى اليمن. وفى النصف الثانى من القرن الثانى بدأت الاسماعيلية الباطنية نشاطها السرى الذى تطور إلى حركة كاسحة غطت العالم الاسلامى من مشرقه إلى مغربه وكانت وسيلتها الضاربة فى مرحلة الظهور هى العمل المسلح.

إلى جانب الفرق، ظهرت حركات مسلحة أخذت شكل الانتفاضات فى أماكن معينة وعلى يد قيادات غير مرتبطة بتنظيم فرق كان من أعظمها شأناً انتفاضة البشمور فى شمال مصر والزنج فى جنوب العراق والبابكية (الخرمية) فى أذربيجان.

من بين الحركات والفصائل المسلحة ، واصل الخوارج أسلوب الاغتيال ولكن فى نطاق ضيق. والعملية الهامة التى قاموا بها فى هذا المرحلة هى اغتيال القائد البارز المخضرم معن بن زائدة. وسنصفه بعد قليل . بيد أن الأسماعيلية ملأت الشاغر الذى تركه الخوارج. وكانت هذه الفرقة قد لجأت كما قلنا إلى استراتيجية العمل المسلح فى مرحلة الظهور . وقد تجلى ذلك أول الأمر فى انتفاضات كبرى هى التى تمخضت عن الخلافة الفاطمية والكيانات القرمطية فى العراق واليمن وشرقى جزيرة العرب . وفى غضون القرن الخامس شرعت فى استخدام

أسلوب الاغتيال. ويأتي لجوء الاسماعيلية إلى هذا الأسلوب فى ترتيب مناقض لنظيره عند الخوارج، الذين استخدموه فى البدء ضمن استراتيجيتهم العامة فى «حرب العصابات» ثم تخلوا عنه لصالح الانتفاضات فى مواقع نفوذهم. أما الاسماعيلية فقد بدأت بالانتفاضات وانشاء مواقع النفوذ ثم الكيانات وانتهت إلى الاغتيال. يقترن هذا التحول عند الاسماعيلية بمقدمات دخولها مرحلة الأفول متمثلة فى انحسار الخلافة الفاطمية فى مصر وشروعها فى التدهور، وانكماش الحركة القرمطية فى شرقى الجزيرة ثم زوالها فى أواخر القرن الرابع بعد أن صفيت تماماً فى العراق والشام. ولذلك لم تعط الاغتيالات مردوداً استراتيجياً للفرقة، وإنما حققت لها مكاسب موضعية.. ويستدل من تحليل لابن أبى الحديد على أن الاسماعيلية سلكت هذا السبيل بدافع شرعى. ولأهمية هذا التحليل نورده بنصه [١].

«.. إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند أصحابنا (المعتزلة) أصل عظيم من أصول الدين. واليه تذهب الخوارج الذين خوجوا على السلطان متمسكين بالدين وشعار الاسلام مجتهدين فى العبادة لأنهم إنما خرجوا لما غلب على ظنونهم، أو علموا، من جور الولاة وظلمهم أن أحكام الشريعة قد غيرت وحكم بما لم يحكم به الله. وعلى هذا الأصل تبنى الاسماعيلية من الشيعة قتل ولاة الجور غيلة».

إن لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نطاقات مختلفة: فردية وجماعية، كما ورد هذا التحليل فى سياق شرح لكلمة فى نهج البلاغة عن مكانة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

أن فيها ما يتعلق بالسلطة وما يختص بعامة الناس. وتحليل ابن أبى الحديد هنا منصب على نطاقها السياسى حيث يتعين على المسلم أن يقاوم السلطة الجائرة بالوسائل المتاحة له، حسب شروطها وظروفها، ومن ذلك استعمال السلاح سواء كان هذا السلاح فى حرب مكشوفة ضد السلطة أم أعمال قتل منفردة. وقتل الحاكم الجائر مبدأ اسلامى قديم، متأثر بنزعة التمرد اللقاحية عند العرب الجاهليين. وقد أشرنا فى القسم الأولى إلى أن الاسلام لم يحرم الاغتيال السياسى وانما حرم الاغتيال الشخصى.

على أن التعليل الشرعى للاغتيال لا ينفى دلالته الاستراتيجية بوصفه نتاجاً لحالة الانحسار

(١) شرح نهج البلاغة ٤/ ٤١٣.

التى أصيبت بها الحركة. وهو من هذه الجهة تعويض عن فشل الثورة. ولو أنه كان عند الاسماعيلية تعويضاً باهظ الثمن للمعسكر المعادى. وقد ساعد فى بعض حالاته على انتقال سلطة أو انهيار كيان كما أعطى الاسماعيلية وهى فى أوان تراجعها هيبة فى عيون أعدائها جعلت لها حضوراً مؤثراً فى الأحداث.

ربطت بعض المصادر بعض الاغتيالات التى قام بها الاسماعيلية بالصراع على السلطة بين أمراء الحرب الأتراك، بحيث ظهرت فى بعض الأحيان كما لو أنها كانت أعمالاً مأجورة. لكن الأحداث التى فسرت على هذا النحو، كانت فى الواقع قد تحددت سلفاً بحلف سرى بين بعض الأمراء والاسماعيلية ضمن هؤلاء بموجبه عدم التعرض لأعضاء الحركة مع تقديم تسهيلات تساعدهم على مواصلة التنظيم والدعوة(١). هى من هذا أقرب إلى تكتيك الاستفادة من تناقضات الأعداء منها إلى مفهوم الارتزاق، الذى لا ينسجم مع المبادئ التى تعمل المجموعات الفدائية بموجبها. ومن الجدير بالملاحظة.، أن الفدائيين الاسماعيليين كانوا يعملون تبعاً لتوجيهات من مركز قيادتهم وكانت المبادرات الفردية فى هذا المضمار شبه معدومة.

نأتى الآن إلى وصف بعض العمليات التى نفذتها المعارضة فى هذا العصر..

اغتيال معن ابن زائدة:

كان معن من قواد الأمويين فى أواخرهم ثم انضم العباسيين فى خلافة المنصور. وكان إرهابياً سفاكاً، عينه المنصور والياً على اليمن وكانت قد وقعت فيها قلاقل فقمعها بوحشية وأباد الكثير من أهلها. ثم أرسله المنصور إلى سجستان فأساء السيرة فيه. وهناك عزم الخوارج على تصفيته. وكان للخوارج حضور قوى فى تلك النواحين. وقد وصف ابن الأثير وابن خلكان كيفية ذلك فرويا ان المجموعة الفدائية التى تكلفت بالعمل تنكرت فى زى عمال بناء. وكان معن ينى منشأت فى منزله فدخل هؤلاء مع العمال. ويفهم من الرواية أنهم أخذوا يأتون يومياً إلى المنزل ويخرجون منه عند انتهاء ساعات العمل. وهم فى أثناء ذلك ينتظرون

....

(١) ذكر ابن الأثير أسماء أمراء تواطأوا مع الباطنية أو قدموا لهم التسهيلات لنشر دعوتهم. ومن هؤلاء مجد الملك الباسلانى قال ابن الأثير أنه كان من قواد الدولة السلجوقية يتشيع كثير الصدقة على العلويين إلا أنه كان يذكر الصحابة ذكراً حسناً ويلعن من يسبهم. وقد قتله أولاد أمير آخر قتله الباطنية لأنهم اتهموه بالتواطؤ معهم على قتله. كما أثر الباطنية فى سورية على حفيد لالب ارسلان كان يستولى على حلب فاستعان بهم فى كثير من أمورهم وفى عهده كثروا بحلب..

الفرصة للتمكن منه. فلما بلغوا التسقيف جلبوا أسيافهم وأخفوها في القصب المعد لهذا الغرض. وسنحت الفرصة عندما استدعى معن حجاماً واختلى معه في حجرة ليحجم له. فأخرج الخوارج سيوفهم من مخابئها وداهموه في حجرته ففتكوا به. وقد شق أحدهم بطنه بخنجر للاشتفاء منه كما يبدو، وهتف آخر وهو يخبطه بالسيف: «أنا الغلام الطاقي» نسبة إلى قرية في سجستان تسمى الطاق[١].

إن قتل معن يأتي على سبيل التأديب والزجر لغيره من الولاة الذين عرفوا بالتعطش إلى الدماء. لكنه لم يترك أثراً رادعاً. فقد أخذ ابن أخيه يزيد بن مزيد مهمة عمه وأربى عليه في القتل والتنكيل في منطقة ولايته. وكان قد قبض على قتلة معن فقتلهم وقتل معهم عدداً كبيراً من الخوارج.

اغتيالات باطنية.

قتل المقتدر بالله العباسي:

عاصر المقتدر نهوض الدعوة الاسماعيلية وتوطد كل من دولتها في المغرب والحكم القرمطي في شبه جزيرة العرب وكانت الحملات توجه ضد القرامطة باسمه أو من قبله رأساً. ولأبو طاهر القرمطي رسالة جوابية إلى المقتدر رداً على رسالة تهديد كتبها إليه يدل محتواها ولغتها على مدى العداء المستحكم بين الطرفين.

أغتيل المقتدر سنة ٣٢٠ حين كان يحارب مؤنس الخادم، المتمردعليه. أما كيفية اغتياله فيقول ابن الأثير[٢]إن جماعة من المغاربة والبربر لقوه في ظاهر بغداد حين انهزم فشهروا عليه سيوفهم فقال: ويحكم أنا الخليفة. قالوا قد عرفناك ياسفله أنت خليفة ابليس تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير (يشيرون إلى المكافآت التي كان يعطيها لمرتزقته عن كل قتيل أو أسير يأسرونه). ثم ضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فطاح على الأرض وجلس آخرون على صدره وذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه. ويخبرنا ابن الأبار[٣] أن عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية في المغرب ادعى المسؤولية عن تصفية المقتدر وأقام مجلساً للتهنئة بنجاح خطة الاغتيال. وقد نقل ابن الابار عن الصولي أن الذى

(١)الكامل حوادث سنة ١٥١، وفيات الأعيان الترجمة ٧٠٣.
(٢) الكامل حوادث سنة ١٥١، وفيات الأعيان الترجمة ٧٠٣.
(٣) التكملة ١٨٩/١.

قتل المقتدر رجل يسمى عليون الصنهاجي وأنه رماه بحربة فى صدره فخرجت من ظهره. وقد يكون عليون هذا أحد أفراد المجموعة التى هاجمت المقتدر بحسب رواية ابن الأثير. وفى كلتا الروايتين فالقاتل من المغرب، مما يعزز إدعاء المهدى الفاطمى.

إن اغتيال المقتدر هو من أوائل العمليات الكبيرة التى نفذتها الاسماعيلية . لكنه حدث حين كانت الحركة فى أوج قوتها وانتصاراتها فكان لذلك حدثاً منفرداً لا يندرج فى سياق موجة الاغتيالات التى سيشهدها القرن التالى. أما مردوده فكان ضئيلاً إذا لم يترك أثراً كبيراً على العدو الذى كان المقتدر رمزاً واحداً من رموزه العديدة ولم يكن شغور مكانه ليسبب ارتباكاً أو قصوراً فى مركز السلطة ، لاسيما وأن السلطة الفعلية كانت حينئذاك بأيدى أمراء الحرب الأتراك المتسلطين على الخلافة. أما ابتهاج عبيد الله المهدى به فهو من باب استعراض القوة وإظهار قدرة الحركة على توجيه الضربات الموجعة للعدو فى الوقت والمكان الذى يختاره.

اغتيال أمير حرب تركى:

تم ذلك عام ٤٤٠ أى بعد من قرن على اغتيال المقتدر. وكان الهدف هو حاكم همدان الأمير آق سنقر. وكان هذا الشخص كما يصفه ابن الأثير كثير الغزو للاسماعيلية والقتل فيهم والنهب لأموالهم والتخريب لبلادهم. وقد جرى قتله فى كمين نصب له وهوفى طريقه لزيارة أحد رجال الدين جرياً على عادة أمراء الحرب الأتراك فى توقير هذه الفئة والعناية بشؤونها.

ظهر التعذيب أيضاً فى معاقبة الهاربين من الجيش منذ الفتوحات الأولى. وكانت العقوبة أيام الراشدين هى التعزى[*] وتتم بإقامة الهارب حاسراً فى مكان عام للتشهير به . وقد أضاف مصعب بن الزبير، فى العراق، إلى نزع العمامة حلق الرأس واللحية. وفى ولاية بشر بن مروان - شقيق عبد الملك - للعراق فرض التعذيب الجسدى فكان الهارب يرفع عن القاع ويسمر فى يديه مسماران فى حائط - على طريقة صلب المسيح - ويترك لشأنه، فربما بقى معلقاً حتى يموت وربما خرق المسمار كفه فسلم [١].

(*) التعزى عقوبة معنوية تكون عادة بجلدات محدودة العدد.

(١) ابن الأثير «الكامل فى التاريخ» فى أخبار الحجاج وقد ورد فيه لجند عاشق كتب إلى حبيبته:

لولا مخافة بشر أو عقوبته	وأن ينوط لفى كفى مسمار
إذن لعطلت ثغرى ثم زرتكم	إن الحب لمن يهواه زوار.

عطلت ثغرى: كناية عن الهرب من جبهة القتال. والثغور هى خطوط التماس مع دار الحرب وكانت بمثابة الحود الرسمية للدولة الاسلامية.

إن مصدر العذيب فى الحالات الموصوفة آنفاً هو الدولة، وضحياه هم عامة الناس. وهو أمر مفهوم مادام القادر على التعذيب هو المالك لأجهزة الدولة. ولدينا مع ذلك استثناء هام كان فيه ضحايا التعذيب هم الحكام أنفسهم جرى ذلك فى أوان التغلب الذى فرضه العسكريون الأتراك على الخلفاء العباسيين بعد المتوكل، وقد ظهرت حينذاك طريقة سمل العيون لإرغام الخليفة غير المرغوب فيه على التنازل. ويهدف السمل إلى حرمان الخليفة من أحد شروط الاستخلاف وهو سلامة الجسد حيث يصبح بعد أن يفقد إحدى عينيه أو كلتيهما فى حكم المنخلع. وكان ذلك يتم فى هجوم مباغت يدبره المتغلب ضد الخليفة يقوم المهاجمون خلاله بسمل عينيه أو إحداهما . وقد يكون التدبيرم خفياً بحيث من عناصر غير منضبطة، أو مباشراً بحكم السلطة الفعلية التى يتمتع بها المتغلب . وفى كلتا الحاليتين يسقط اسم الخلافة عن الخليفة القائم ويستبدل به غيره. وكان السبب فى ذلك عدم قدرة المتغلبين على خلع الخليفة دون مبرر شرعى لأنه قد يثير مقاومة الخليفة ويظهرهم للناس مستهترين أكثر مما ينبغى.

فنون التعذيب وأبطاله.

فى بداية الدعوة الاسلامية بمكة وجد تجار قريش حاجة لإرهاب عبيدهم ومواليهم الذين أسلموا فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام . وكانت وسيلتهم فى ذلك هى التشميس الذى يعتمد على شمس الجزيرة الحارقة. فكانوا يكتفون الضحية ويلقونه فى الشمس بعد إلباسه أدراع الحديد أو وضع جندلة على ظهره أو صدره ويترك على هذا الحال ساعات غير محدودة قد تستمر مادامت شمس النهار فى عنفوانها. وظهر التشميس أيضاً فى صدر الاسلام لتعذيب الممتنعين عن دفع الخراج وفى بعض الحالات كان يدهن جسد الضحية قبل تشميسها بدهن الحيوان فيحدث أن تظهر به ديدان ترعى جسد الضحية فيعانى من ذلك آلاماً شديدة حتى يموت.

إن التشميس هو أقدم وسائل التعذيب وهو وسيلة مشتركة بين الجاهلية والاسلام. ونبدأ الأن بعرض مفصل للوسائل التى ظهرت فى الاسلام.

حمل الرؤوس المقطوعة:

و تدخل فى باب المثلة بالميت. وقد بدأها الأمويون فى زمان معاوية. ويقال إن أول رأس

حمل في الاسلام هو رأس عمرو بن الحمق، أحد أتباع علي بن أبي طالب، وقد قتله زياد بن أبيه. ومن الحوادث المشهورة في هذا الباب حمل رؤوس الحسين وأصحابه بعد معركة كربلاء. وقد ثبتت الرؤوس على الرماح وسير به من كربلاء إلى الكوفة حيث قدمت لحاكمها عبيد الله بن زياد . ثم استأنفوا السير بها إلى دمشق لتقديمها إلى الخليفة الأموي. ولم تتكرر هذه المثلة بكثرة أيام العباسيين، إلا أنها انتشرت في الأندلس أيام ملوك الطوائف، ومن المبرزين فيها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الذي أقام في قصره حديقة لزرع الرؤوس المقطوعة. وكان المعتمد شاعراً.

الضرب والجلد:

باليد أو السوط أو الهراوة أو المقرعة. وهو الشكل المعتاد في تعذيب الاعتراف كما استعمل في التأديب والانتقام السياسي . والضرب باليد غالباً مايكون صفعاً على القفا والوجنتين ولم يكن الغرض منه الإيلام بقدر الإهانة. ويضرب بالهراوة على الكتفين والظهر والأرداف. أما المقرعة فللرأس وهي أشد إيلاماً من اليد والهراوة. ويمكن اعتبار المقرعة تطويراً للدرة، وهي عصا خفيفة كان عمر بن الخطاب يحملها في تطوافه بالأسواق والدروب ويقرع بها المخالفين لتعليماته. وقد استبدل بها عثمان السوط، أو العصا بحسب الروايات، وكان ذلك من أسباب النقمة عليه.

أما الضرب بالسوط فهو الجلد، ينفذ في المضروب واقفاً أو مبطوحاً، وقد يقنطر ويضرب، هو ما اختاره والي المدينة لجلد مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي. وكان قد أفتى، كما في رواية لابن عبد البر في «الانتقاء» بعد شرعية البيعة للمنصور لأنها أخذت بالإكراه، فأمر الوالي بتأديبه، وتم ذلك برفعه من يديه ورجليه بعد أن قلبوه على وجهه وأخذوا بجلده على الظهر. وليس للأسواط مقدار معلوم إلا في العقوبات الشرعية التي تضمنت حداً أعلى هو مئة جلدة لجريمة الزنا. لكن التحديد الشرعي لم يعمل به . وكان المقدار يتحدد تبعاً لرغبة الآمر وربما استمر حتى الموت كما حدث لبشار بن برد الذي جلد بأمر المهدي بعد أن هجاه. وغالباً ما يتم الجلد دفعة واحدة ولكن يحدث أن يقسط على دفعات، ومن أمثلته جلد أبو حنيفة ، مؤسس المذهب الحنفي، مئة سوط بأمر حاكم العراق الأموي – عمر بن هبيرة لرفضه عرضاً بالعمل في إدارته . وقد نفذ الحكم بالتقسيط، كل

يوم عشرة أسواط. وكان الهدف من التقسيط إعطاءه فرصة للتراجع وقبول المنصب الذى عرض عليه [١].

تقطيع الأوصال:

ويشمل قطع اليدين والرجلين واللسان وصلم الآذان وجدع الأنف وجب المذاكير (الأعضاء التناسلية للرجل) وقطع اليد الواحدة منصوص عليه فى الشريعة عقوبة للسارق، وكذلك قطع اليدين والرجلين وهو لقطاع الطرق. وقد توسع الحكام المسلمون بعد الراشدين فى هذه الوسيلة دون التقيد بالجرائم المنصوص عليها، وطبقت على الجرائم السياسية. وكان المقطوع يترك حتى يموت من تلقائه فإذا لم يمت قطعوا رأسه. وأقدم مثال لهذه الطريقة هو قتل عبد الرحمن بن ملجم، قاتل على بن أبى طالب، وقد أعدم ببتر يديه ورجليه و لسانه وسمل عينيه. ثم قطع رأسه [٢]. والبتر هو الغالب فى هذه الحالات، أما الصلم والجدع فنادراً ما يحصل. ولكن جب المذاكير كان فى بعض الأحيان عقوبة يفرضها السيد على عبده إذا صدر منه فعل جنسى لا يرضاه السيد.

سلخ الجلود:

فى رواية لابن الأثير [٣] أن قائداً من الخوارج يدعى محمد بن عبادة أسر فى أيام المعتضد بالله فسلخ جلده كما تسلخ الشاة. نقل ابن الأثير حادثاً آخر كان ضحيته أحمد بن عبد الملك بن عطاش صاحب قلعة أصفهان الاسماعيلية. وكان السلاجقة قد حاصروا القلعة بقيادة السلطان محمد بن ملكشاه ثم افتتحوها وأسروا صاحبها ابن عطاش. ويقول ابن الأثير: فسلخ جلده حتى مات ثم حشى جلده تبناً [٤]. والغرض من حشوه عرضه بعد ذلك للتشهير

---

(١) هذا هو المروى فى المصادر التى ترجمت للنعمان. وقد نسب ابن حجر فى «الخيرات الحسان» هذا الإجراء إلى المنصور وقال إنه مات بعد الجلد بخمسة أيام. ومن المعروف أن المنصور سجنه ولم يجلده وأنه مات فى السجن مسموماً كما ترجحه رواية أخرى لابن حجر.

(٢) الدينورى، «الأخبار الطوال» ص ٢١٧.

- ابن طاووس، فرحة الغرى. ط حجر. ايران . ١٣١١ هـ ص ٥. نقلاً عن «مقتل أمير المؤمنين للثقفى (من الكتب القديمة المفقودة). وابن طاووس من رجال القرن السابع .

- ابن الأثير، «أسد الغابة» طهران ١٣٢٢ هـ. ٤/ ٣٨٥.

(٣) الكامل فى التاريخ ٧ / ١٥١.

(٤) نفسه ١٠/ ١٥١.

- -

والتخويف. وقبض المعز الفاطمى على الفقيه الدمشقى أبو بكر النابلسى بعد أن بلغه قوله: «لو أن معى عشرة أسهم لرميت تسعة فى المغاربة (الفاطميين) وواحداً فى الروم» واعترف بالقول واغلظ لهم بالكلام فسلخوا جلده وحشوه تبناً وصلبوه [١]. السلخ من أشنع صنوف التعذيب ويستدعى الإقدام عليه نزعة سادية فى غاية الإفراط.

الاعدام حرقا:

فرضه أبو بكر على رجل مأبون يدعى الفجاءة السلمى. وورد فى حروب الردة ما يدل على أن أبا بكر ضمن تعليماته لقادة الجيوش التى أرسلها لمحاربة المرتدين أوامر بالإحراق. وروى الطبرى كتابين له فى هذا المعنين كما نقل وقائع نفذت فيها أوامره[٢]. ويخبرنا البلاذرى فى «فتوح البلدان» أن خالد بن الوليد أحرق بعض المرتدين بعد أسرهم وأن اعتراضاً من الصحابة قدم لأبى بكر ضد هذا الإجراء، فدهم أبو بكر قائلا : «لاأشيم سيفاً سله الله على الكفار». يقصد خالداً.

واستعمل بعض ولاة الأمويين هذه العقوبة ضد الثائرين عليهم. وقد ذكرت آنفاً إحراق المغيرة بن سعيد العجلى حياً بأمر خالد القسرى حاكم العراق. وفى أوائل العباسيين أعدام الكاتب عبد الله بن المقفع حرقاً بأمر سفيان بن معاوية أحد ولاة المنصور [٣] وقد طور العباسيون فى وقت لاحق هذ الفن إلى شئ الضحايا فوق نار هادئة. وهو مافعله المتعضد بحق محمد بن الحسن المعروف بشليمة أحد قادة الزنج فى البصرة، وكان المعتضد قد أعطاه الأمان ثم اكتشف أنه يواصل نشاطه المعادى سراً فأمرم بنار فأوقدت ثم شد على خشبة من خشب الخيم وأدير على النار كما يدار الشواء حتى تقطع جلده ثم ضربت عنقه [٤].

....

(١) نفسه ٢/ ٣٣٠ حوادث ٣٦٣.

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩١.

(٣) ابن النديم، الفهرست ط فلوجل ١٧٨.

قال ابن النديم: حل المنصور دمه لما فعله فى شرط عبد الله بن على. وكان ابن المقفع قد حرر الأمان الذى أعطاه المنصور لعمه عبد الله وضمنه شروط باهظة تقطع عليه سبيل نقضه.

(٤) الطبرى ٨/١٦٥.

انظر كذلك . ابن النديم ص ١٩.

وفى البداية والنهاية أنه وجد نصرانى يشرب الخمر مع أمرأة مسلمة فى نهار رمضان فحكم نائب دمشق المنصور ابن قلاوون بإحراق النصرانى وجلد المرأة. فأحرق بسوق الخيل (حوادث ٦٨٧هـ) والمنصور من حكام المماليك بمصر.

تعذيب متعدد الوسائل

تجمع هذه الطريقة عدة أشكال من التعذيب ضد شخص واحد. وقد استخدمت ضد أسرى القرامطة فى بغداد، ومن أمثلتها تعذيب ابن أبى القوارس من قادة القرامطة فى سواد الكوفة، بأمر المعتضد وتفصيله كما أورده الطبرى (١).

«وعلقت بالأخرى جندلة وترك فى حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب. ثم «قلعت أضراسه أولاً. ثم خلعت إحدى يديه بشدها إلى بكره متحركة. قطعت يداه ورجلاه فى الصباح وقطع رأسه وصلب فى الجانب الشرقى- من بغداد - وحملت جثته بعد أيام إلى محلة تدعى الياسرية كانت تعلق فيها جثث القرامطة ليصلب معهم».

مثال آخر وصفه الطبرى أيضاً وهو لصاحب الشامة الحسين بن زكرويه قائد القرامطة فى السواد وكان قد أسر مع عدد من أصحابه وجئ بهم إلى بغداد ليعدموا:

«بنيت دكة فى مكان عام ونودى على الناس لحضور حفلة الاعدام. وبدأوا يقتادون الأسرى واحداً واحداً وكان الرجل يؤخذ ويبطح فتقطع يمنى يديه ويحلق بها ليراها الناس ثم ترمى. ثم تقطع رجله اليسرى ويحلق به لنفس الغرض وترمى. ثم يسرى يديه فيمنى رجليه ويرمى بكل ما يقطع إلى أسفل، ثم يقعد فيقطع رأسه ويرمى به مع جثته إلى أسفل.

وقدم حسين بن زكرويه وضرب مئة سوط، وقطعت يداه ورجلاه. وكوى بالنار فغشى عليه فأخذ خشب فأضرمت فيه نار ووضع فى خواصيره وبطنه فجعل يفتح عينيه ثم يغمضهما. فلما خافوا أن يموت ضربوا عنقه. ورفع رأسه على خشبة فكبر الجلادون من فوق الدكة وتبعهم سائر الناس بالتكبير» (٢) ولم تجر العادة بالتكبير فى مثل هذه الأحوال إلا حين يكون الرأس المقطوع لعدو خطر. وهو ما فعله الأمويون عند قطع رأس الحسين بن على فى كربلاء . وكان الحسين بن زكرويه حينما أدخل إلى بغداد واستقبله الناس خاطبهم بقوله: يا قتلة الحسين.

---

(١) الطبرى ٨/ ٢٠٧.

(٢) نفسه ٨/ ٢٣٠.

تنور الزيات:

ابتكره محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق لتعذيب عمال الخراج المختلسين. وكان يصنع من خشب تخرج منه مسامير حادة وفى وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب. وقد عذب فيه صانعه بعد عزله زمن المتوكل بسبب إهانة كان قد وجهها إليه قبل أن يستخلف. ووصف الطبرى تعذيبه على الوجه التالى[1].

«حبس أولاً. ثم سوهر (منع من النوم) فوكل به سجان ينخسه بمسلة كلما أراد أن يغفو. ثم ترك أياماً فنام وانتبه فاشتهى فاكهة وعنباً فقدمت إلى فأكل . ثم أعيد إلى المساهرة أياماً نقل بعدها إلى التنور حيث مكث أياماً كلما أراد أن يغفو سقط، على مسمار فانتبه، فكان يضطر إلى البقاء فوق الخشبة المعترضة ومقاومة النوم. وهى الفكرة التى تكمن وراء صنع التنور بهذا الشكل. أى أن المعذب يجد أمامه خيارين، إما النوم على المسامير أو السهرطيلة إقامته فى التنور.

أشكال مفردة:

تدخل هذه الأشكال فى عداد المبادرات الأنية ولذلك لا تجرى على نسق واحد أو تصميم متبع. وفيما يلى وصف لبعض الوقائع:

القتل بالطشت المحمى:

قبض السفاح العباسى على عبد الحميد الكاتب، وكان فى معية مروان آخر الخلفاء الأمويين، فسلمه إلى صاحب شرطته فكان يحمى له طشتاً ويضعه على رأسه إلى أن مات..

التعذيب بالمقدحة:

أوردت مصادر السيرة [2] أن النبى محمد دفع كنانة بن الربيع ، من زعماء بنى النضير، إلى الزبير قائلاً: عذبه حتى تستأصل ما عنده. وكان تحت يده كنز من أموال بنى النضير.. وعذبه الزبير بالمقدحة فكان يقدح فى صدره حتى أشرف على الموت ثم سلمه النبى إلى محمد بن مسلمة لقتله ثاراً لأخيه الذى قتله بنو النضير.

---

(١) نفسه ٧/ ٣٤٠.

(٢) ابن هشام «السيرة» وقائع فتح خيبر.

- ابن كثير، «البدية والنهاية» القاهرة ١٩٣٢، ٤/ ١٩٧.

الموت بالنورة:

من الوسائل التي قيل ان ابراهيم الإمام، زعيم الدعوة العباسية، قتل بها على يد مروان بن محمد أخر خلفاء الأمويين وضع رأسه في جراب ملئ بالنورة وشده عليه بإحكام. وقد ترك على هذه الحالة إلى أن مات مختنقاً [(١)].

النفخ بالنمل:

سعيد بن عمر الحرشي كان والياً على خراسان لعمر بن هبيرة حاكم العراق (كان المشرق يدار من العراق أيام الأمويين) وكان يستخف بأوامره، فأرسل إليه رجلاً يستطلع حاله. فعاد الرجل فأيد ما ذكروا عنه. وكان سعيد بعد أن علم بالرجل وضع له سماً في بطيخة لكنه لم يمت ورجع إلى العراق فعولج حتى برئ. وعزل عمر بن هبيرة سعيداً وعذبه بأن نفخ في بطنه النمل[(٢)]. ولم تذكر الرواية إن كان قد مات أم لا.

التعطيش:

عام ٤٠٣هـ هجمت خفاجة على الحجاج فقتلوا منهم خلقاً وهرب الكثيرون إلى الصحراء فماتوا عطشاً فقبض الوزير البويهي فخر الملك على قائدهم وأركانه وأمر بصلبهم على مسيل ماء بحيث يرونه ولا يصلون إليه حتى ماتوا عطشاً [(٣)].

التبريد بعد الجلد:

أورد الغزالي في «إحياء علوم الدين» أن عبد الملك بن مروان خطب ابنة التابعي سعيد بن المسيب، وكانت مشهورة بجمالها، لابنه الوليد فرفض سعيد لورعه ومعارضته لسياسة الأمويين، فأمر عبد الملك بتأديبه فضرب مئة سوط في يوم بارد وألبس جبة صوف ثم صب عليه جرة ماء بارد. وارتكب عمر بن عبد العزيز إجراء مماثلاً بحق خبيب بن عبد الله بن الزبير بأمر من الوليد بن عبد الملك حين كان عمر والياً على المدينة. وتقول بعد الروايات أن الوليد لم يضمن أمره صب الماء البارد وأن عمر أضاف هذه العقوبة من عنده. ولعل هذا هو السبب في

---

(١) تاريخ الدولة العباسية لمؤلف مجهول. دار الطليعة بيروت. فصل: ابراهيم الامام.

(٢) الطبري ٥/ ٣٦٩.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق، حوادث سنة ٤٠٣هـ.

حدة شعوره اللاحق بالجريمة كما تقول الروايات حيث أعلن الندم والتوبة وحاول التخلص من الولاية (*). وكان يومذاك في الخامسة والعشرين من عمره.

التكسير بالعيدان الغليظة:

مر بنا ذكر خالد القسرى الذى كان والياً على الحجاز ثم على العراق لهشام بن عبد الملك. وقد عزل خالد بيوسف بن عمر الثقفى ثم قتل بسبب مخالفات صدرت منه ضد الخليفة . وكان قتله على الشكل التالى: (١).

وضع عود غليظ على قدميه وقام عليها عدد من الجلادين فكسرت قدماه. ثم وضع العود فى ساقيه فكسرت بنفس الطريقة. ثم نقل إلى فخذيه ومنهما إلى حقوبه وانتهى العمود إلى صدره فكسر ، وعندها مات . وكان خلال ذلك ساكتاً لايتأوه..

قرض اللحم:

استخدمه قرامطة شرقى الجزيرة. وكان مؤسس الدولة القرمطية أبو سعيد الجنابى قد اغتيل بيد خادمه بعد أن دخل الحمام، وقام الخادم بعده بقتل عدد من القادة استدرجهم إلى الحمام . وقبضوا على الخادم بعد اكتشاف أمره فشدوه بالحبال ثم أخذوا يقرضون لحمه بالمقايض حتى مات(٢).

إخراج الروح من طريق آخر:

عقيدة خروج الروح من الفم عن الموت أوحت لمعتضد بأشكال من القتل أراد بها إخراج روح المقتول من غير طريق الفم. قال المسعودى فى «مروج الذهب» إن المعتضد كان شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله وذكر من وسائل ذلك:

١ ـ إذا غضب على القائد النبيل أو الذى يختصه من غلمانه أمر أن تحفر له حفيرة ثم يداس التراب بالأرجل حتى تخرج روحه من دبره بعد أن تكون قد سدت كل المنافذ التى يمكن أن تخرج بواسطتها من فمه.

(*) كان عمر يقول لمن يشره بحسن العاقبة لما قام به فى خلافته: «فكيف بخبيب ؟» وكان خبيب قد مات نتيجية تعذيبه بهذه الطريقة ويبدو مما ذكرته الرواية أنه كان شاباً حكيماً بعيد الإدراك رفيع الخلق فأراد الأمويون التخلص منه. انظر «نسب قريش» لمصعب الزبيرى ٦/ ٢٤٠ و«نسب قريش» للزبير بن بكار ١/ ٣٨٠.

(١) نفسه ٥/٥٦٣.

(٢) المقريزى «اتعاظ الحنفاء القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٢١ .

٢ ـ يؤخذ الرجل فيكتف ويؤخذ القطن ويحشى فى أذنيه وخيشومه وفمه. ثم توضع منافخ فى دبره حتى ينتفخ ويتضخم جسده. ثم يسد الدبر بشئ من القطن وبعدها يفصد من العرقين فوق حاجبيه حتى تخرج الروح من ذلك الموضع.

قلع الأظافر:

أقيمت وليمة قرشية حضرها هشام بن عبد الملك حين كان أميراً، ووجيه يدعى عمارة الكلبى. واقتضى ترتيب الوليمة أن يجلس عمارة فوق هشام، فاستكثرها منه وآلى على نفسه أن يعاقبه متى أفضت إليه الخلافة . فلما استخلف أمر أن يؤتى به وتقلع أضراسه وأظافر يديه. ففعلوا به ذلك. وكان يقول فيما بعد يندب نفسه[١]:

عذبونى بعذاب	قلعوا جوهر رأسى
ثم زادونى عذاباً	نزعوا منى طساسى
بالمدى حزز لحمى	وبأطراف المواسى

وهنا يذكر أشكالاً أخرى من التعذيب لم تذكرها الرواية ولعلها جاءت استطراداً منه لاستكمال صورة العدوان الذى وقع عليه.

التعذيب بالقصب:

فيروز بن حصين من قادة انتفاضة ابن الأشعث ضد الحجاج فى العراق. أسر بعد فشل الانتفاضة، وكان تحت يديه أموال طائلة يعود بعضها للحركة . ولا ستحصال الأموال منه أمر الحجاج بتعذيبه، فعرى من ملابسه ولفوه بقصب مشقوق ثم أخذوا يجرون القصب فوق جسده. ولزيادة إيلامه كانوا يذرون الملح ويصبون الخل على الجروح التى يسببها القصب. وبعد أن يئس الحجاج من اعترافه بالأموال قطع رأسه.

التعذيب الجنسى:

من الوقائع النادرة فى هذا المجال اغتصاب نساء المدينة على يد جنود من أهل الشام بأمر من يزيد بن معاوية، وسيرد الكلام عليها لاحقاً. لكنى لم أعثر حتى الآن على رواية موثوقة بشأن الاعتداء الجنسى على الأسرى أو المعتقلين. سوى مارواه الذهبى فى «سير أعلام النبلاء» أن الحاكم بأمر الله الفاطمى كان يتجول فى الأسواق على حمار ومعه غلام أسود ضخم فمن

(١) امالى القالى - بيروت ص ٥٧.

أراد تأديبه أمر الأسود فأولج فيه جهاراً [1]. ويبدو أن التغليظ فى النهى عن الزنا جهراً مع بقايا القيم والتقاليد القبلية قد جعل مثل هذه الاقترافات غير ميسورة. وكان ولاة الأمويين يعتقلون النساء ويقتلونهن أحياناً ولكن مع عدم المساس بشرفهن الشخصى. وقصة زوجة الكميت بن زيد مع والى العراق خالد القسرى تحتفظ هنا بدلالة هامة. فقد كان الكميت معتقلاً بأمر هشام بن عبد الملك وينتظر تنفيذ حكم من هشام بقطع لسانه على قصائده الهاشميات، فدبر خطة هروب مع زوجته فلبس ثيابها وانسل من السجن بدلاً منها وأخذوها إلى خالد القسرى فلم يزد هذا الارهابى الخطر على أن قال: حرة فدت ابن عمها!

تعذيب أدبى:

كان يطبق على المخالفات التى لا ترقى إلى درجة الجنحة أو الجناية أو التى لا تمس أمن السلطة ومصالحها . ومن وسائله حلق اللحى أو نتفها - والنتف يجمع بين التعذيب الجسدى والأدبى معاً - وحلق الرؤوس . وكان هذه العقوبات تفرض أحياناً على الزعران والزنادقة. ومنها قص الشعر الطويل، وكان يطبق على المراهقين أو الفتيان اللاهين. وقد تباهى ابن الجوزى فى «القصاص والمذكرون» بحملة قادها فى بغداد ضد هؤلاء فقصوا فيها «أكثر من عشرين آلاف طائلة - أى خصلة طويلة». ومن وسائل التعذيب الأدبى التى شاعت هو التشهير، وكان يتم فى الغالب بإركاب المشهر به على حمار والطواف به فى المدينة ومعه أشخاص ينادون بجريمته. ويورد الجاحظ فى «مفاخرة الجوارى والغلمان» تشهيراً بهذه الوسيلة لجارية ماجنة فى بغداد قبض عليها وهى تجامع مخنثاً بكنديج (قضيب اصطناعى) ويؤخذ من رواية الجاحظ أنها اعتبرت هذه الوسيلة معادلة للقتل، لأنها كانت تخاطب الرجال عند الطواف بها وتقول متهمة إياهم بالظلم: «إنكم تنيكوننا الدهر كله فلما نكناكم مرة واحدة قتلتمونا » (*). وابتكر عبيد الله بن زياد وسيلة إضافية فى التعذيب الأدبى بهذه الطريقة طبقها على الشاعر المتمرد يزيد بن مفرغ الحميرى ، أمر بأن يسقى مادة مسهلة ثم يطاف به. وكان الشاعر يسلح على نفسه أثناء الطواف.

---

(١) ١٥/ ١٧٦. الرواية فى حاجة إلى توثيق.

(*) فى العامية البغدادية المعاصرة يقال للمرأة الماجنة أو المستهترة: مشهورة. ويبدو أن هذا من آثار تلك العقوبة التى شاع استعمالها أنذاك فى بغداد. ومنه قولهم فى التوبيخ: مسخم (بتفخيم السين إلى الصاد) ويشار به إلى المشهر به قديماً إذ كانوا يلطخون وجهه بالسخام ونحوه. وورد اصطلاح «تجبيه» ومعناه فى القاموس المحيط أن تحمر وجوه الزانيين ويحملا على بعير أوحمار ويخالف بين وجهيهما .

خارطة التعذيب:

تفاقم التعذيب على يد الأمويين، متلازماً مع تحول دولة المدينة البسيطة إلى امبراطورية يحكمها خليفة مطلق السلطة. لكن ذلك لا يعنى أن التعذيب لم يمارس من قبل. وقد أشرنا آنفاً إلى أوامر أبى بكر بحرق المرتدين ودفاعه عن أفعال من هذا القبيل صدرت عن خالد بن الوليد فى حروب الردة (*). ويمكن اعتبار خلافة عثمان نقطة تحول أولية فى القمع الاسلامى فهو مؤسس جهاز الشرطة في الاسلام ، وقد ذكر ابن حبيب فى «المحبر» اسم مدير الشرطة الذى عينه وهو عبد الله بن منقذ التيمى - من قريش - ونوه بما يدل على بساطة جهازه، كمؤشر لى سلطة قمعية فى طور النشوء. وانتهج ولاة عثمان نهجاً قمعيا، ومحدوداً فى دار الاسلام منفلتاً فى دار الحرب (جبهة الفتوحات).. ولم يرد عن عمر بن الخطاب شئ من ذلك، أما على فهناك رواية تقول بأنه أحرق مرتدين . وقد أخرجها البلاذرى فى «أنساب الأشراف» على وجهين يرد فى أحدهما أنه أحرقهم أحياء وفى الآخر أحرقهم بعد قتلهم بالسيف[1] . وتربط بعض المصادر هذا الحدث بأتباع عبد الله بن سبأ الذى قيل أنهم ألهوا علياً فأحرقهم فى روايات ، ونفاهم فى روايات أخرى. وتورد الروايات التى ذكرت الاحراق رجزاً قيل أن على أنشده عند أو بعد إحراقهم. وعبد الله بن سبأ مشكوك فى تأريخه ، كما أن الغلو لم يكن قد ظهر فى زمان على . لكن رواية البلاذرى عن حرق المرتدين ممكنة بالنظر لوجود مثل هذه الحالات فى ذلك الوقت. ومن المستبعد مع ذلك أن يكون على قد أحرقهم أحياء لما نعرفه عنه من تشدد فى مراعاة أحكام الشريعة. والوجه الثانى لرواية البلاذرى أحرى عندى بالقبول . مع التنبيه إلى أن الرجز الذى نسب إلى على فى هذا الحادث ركيك لا يحتمل صدوره عنه. وهو من عناصر الضعف فى الرواية، مالم يكن أضيف إليها فيما بعد.

يستثنى من خلفاء الأمويين عمر بن عبد العزيز، الذى حكم أقل من ثلاث سنوات، ويزيد الناقص الذى حكم ستة أشهر. أما الباقون فكانوا قمعيين بدرجات متفاوتة. وظهرت ملامح نزعة سادية لدى بعض الولاة والقواد مثل زياد بن أبيه وابنه عبيد الله ومسلم بن عقبة المرى والحجاج وقرة بن شريك وبشر بن مروان ويزيد بن المهلب وخالد القسرى وأخوه أسد . ويروى

(*) يروى ابن سعد فى الطبقات أن أبا بكر كان يقول: إن لى شيطاناً يعترينى فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى لا أوثر فى أشعاركم وأبشاركم - أى فى رؤوسكم وجلودكم - ج٣ / ١٥١ . ويروى أبو عبيد عن اسحق أن أبا بكر بعث سلمة بن سلامة بن وقش إلى خالد يأمره أن لا يستبقى من بنى حنيفة رجلاً قد أنبت . فوجد خالداً قد صالحهم . الأموال ص ٢٥٧.
أنبت يعنى نبتت له عانة دليلاً على احتلامه، أى بلوغه العمر الذى يجوز فيه قتله حسب الشريعة.

(١) «أنساب الأشراف» ٥/ ١٨٨.

أن عمر بن عبد العزيز استعرض بعض هؤلاء يوماً - قبل خلافته - فتحدث بما يشعر بالهول من اجتماع عدد منهم فى وقت واحد قال : الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة.. اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس ! و اشتهر الحجاج من بين هؤلاء. وتقول رواية شعبية إنه كان إذا أعدم أحداً يستمنى على نفسه.. ويكرس هذا الجنوح فى الخيال حالة الاقتران السيكولوجى بين الجنس والعنف مما عسى أن يكون الحدس الشعبى قد لمسه من خلال نموذج سادى تصدر قصص الارهاب فى تاريخنا.

وأنتظم الخلفاء العباسيون فى نفس السلك، مع استثناءات من النزعة السادية يمكن أن تشمل المأمون والواثق، والخلفاء الذين وقعوا تحت طائلة البويهيين والسلاجقة ففقدوا سلطتهم الفعلى، وخلفاء الحقبة العباسية الأخيرة الذين عاشوا فى ظروف خاصة واقتصرت سلطتهم فى الغالب على بغداد وما حولها. وعرف بالدموية من ولاتهم وقوادهم : أبو مسلم الخراسانى وعبد الله بن على ومعن بن زائدة ويزيد بن مزيد وعقبة بن مسلم . ومن الوزراء الفضل بن مروان ومحمد بن عبد الملك الزيات وحامد بن العباس. وفى الأندلس، تميز المعتمد بن عباد بميله إلى التلذذ بمشهد الرؤوس التى كان يأمر بقطعها . وقد مر بنا أنه كان يشتلها فى حديقة داره. واشتهر بالقسوة معظم ملوك الطوائف من غير المعتمد، وكذا المرابطون والموحدون الذين اقترن تاريخهم بأعمال الإعدام الجماعية التى ذهب ضحاياها مئات الألوف من خصومهم . ومن الخلفاء الفاطميين عرف الحاكم بأمر الله بحالته المرضية التى تجمع بين أعراض التقلب والمزاج الدموى. وعرف من القرامطة أبو طاهر القرمطى بالمذابح المجانية فى مكة وغيرها من النواحى التى امتدت إليها غزواته مالم نضع فى الحسبان احتمال المبالغة فى أخباره التى وردتنا فى مصادر معادية للقرامطة.

* * *

جلادون من الخلفاء يندمون عند الموت:

بتأثير الحرمة المؤكدة للقتل الكيفى والتعذيب كان بعض الخلفاء يتنغصون عند الموت خوفهم من دخول جهنم. فقال عبد الملك بن مروان ليتنى كنت غسالاً . وبلغت الفقيه أبو حازم فقال: الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت مانحن فيه. ولا نتمنى عند الموت ماهم فيه.. (ترجمة عبد الملك من الطبرى وابن الأثير) وقال الواثق العباسى: لوددت أنى أقلت العثرة وانى حمال أحمل على رأسى». وطلب منه العهد لولده فقال: لا يرانى الله أتقلدها حياً وميتاً . (اليعقوبى ٨٣/٢) وفى قوله هذا إشارة إلى حتمية اقتران القمع الدموى بالسلطة الفردية.

وقال والده المعتصم عند الموت : لو كنت أعلم أن عمرى هكذا قصير لم أفعل مافعلت - الطبرى فى ترجمته . وانفرد الحجاج براحة ضمير مطلقة ترجع إلى ولائه الدينى للأمويين.

وسائل الاعدام:

لم يتطلع الفقهاء المسلمون إلى يوم تلغى فيه عقوبة الاعدام، مفترضين الضرورة الأبدية للعقوبات مادام الانسان مزيجاً من ا لخير والشر . وإنما تداولوا حديثاً نبوياً يقول: «أعف الناس قتلة أهل الإيمان » أى أن المؤمن إذا اضطر إلى القتل نفذه بأقل الوسائل إيلاماً . وقد استنتج منه ابن تيمية أن القتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه لأن ذلك أوحى أنواع القتل - يقصد أسرع بحيثى لا يتعذب المحكوم به [١] وينبنى على هذا أن الإعدام يجب أن ينفذ بالسيف ما دام الوسيلة الأقل إيلاماً ، فإذا وجدت وسيلة أخرى حلت محله . وهو المستفاد من الحديث. ولم يلتفت الفقهاء إلى تعارض هذا الحكم مع حكمين بالقتل يقترنان بالتعذيب. أولهما حكم قطاع الطرق، المنصوص عليه فى القرآن، بقطع اليدين والرجلين والصلب وهو يقتضى قتلهم بهذه الطريقة . إلا أن جمهور الفقهاء . جعلوا الصلب بعد القتل . وقد أوله ابن تيمية برفعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشتهر أمرهم [٢]. لكن القتل بقطع الأطراف هو بحد ذاته تعذيب. ولم يكن للفقهاء الذين حرموا التعذيب إلا الامتثال لهذا الحكم بسبب صدروه عن الوحى الالهى.

الحكم الآخر هو رجم الزانى والزانية المحصنين - أى المتزوجين وهى ذات أصل سومرى وكانت تفرض على المرأة المراهطة. وانتقلت إلى المسلمين عن طريق التوراة. وينص هذا الحكم على الرجم حتى الموت . وكانت عقوبة الزانية المحصنة حبسها فى منزلها حتى الموت وفقاً لنص الآية (١٥) من سورة النساء . ثم نسخت بالرجم . وقد أثار حكم الرجم التباسات ناشئة عن شناعته من جهة وعدم النص عليه فى القرآن من جهة أخرى. فأنكره فريق من المسلمين بينهم الخوارجن وتساهل آخرون فى تنفيذه . ويبدو أن القائلين به شعروا بالحاجة أمام الإنكار ، إلى توكيد وروده فى الكتاب والسنة فقالوا إن حكم الرجم منصوص عليه فى آية منسوخة التلاوة باقى الحكم [*]. ونص الآية كما ترد فى مصادر التفسير والناسخ والمنسوخ منسوبة إلى عمر بن الخطاب

﴿والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾.

(١) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ص ٧٧ - ٧٨.
(٢) نفسه ٧٨. قال ابن تيمية إن بعض الفقهاء قالوا بالقتل أثناء الصلب خلافاً لقول جمهورهم.
(*) الآية المنسوخة التلاوة الباقيةالحكم، هى التى حذفت من القرآن مع بقاء حكمها سارياً.

وقد نسخت تلاوة الآية برفعها من القرآن مع بقاء حكمها. ولا سبيل إلى البت فى صحة هذه الرواية لأن أسلوب الآية المدعاة من الركاكة بحيث يصعب القول إنها صادرة عن مؤلف القرآن. ويزداد الأمر التباساً حين يراد منا أن نقبل بأن آية باقية التلاوة (الآية ١٥ من سورة النساء) نسخها آية منسوخة التلاوة (اية الرجم) مما لا نجد له نظيراً فى الناسخ والمنسوخ. على أن مصادر الحديث والسنة اشتملت على وقائع نفذ فيها الحكم على يد النبى وبعض الأحاديث التى تصرح به، مما يعزز الاعتقاد بوروده كحكم شرعى منصوص عليه فى الأصول. وعندئذ قد يكون من المعقول أن يقال بأن الآية ١٥ من سورة النساء قد نسخت بالسنة. ويوافق معظم الأصوليين على أن السنة تنسخ القرآن. على أننا نعثر فى «طبقات الصوفية» للسُبكى أن الصحابى عبدالله بين أبى أوفيى سئل إن كان النبى قد رجم فقال نعم. فسئل: بعدما نزلت سورة النور أم قبلها؟ فقال لا أدرى (ص٣٣٣) وتعزز هذه الرواية الشك فى الرجم لأن سورة النور اقتصرت على عقوبة الجلد.

ونظراً لتحريم الاجتهاد فى موضع النص لم يكن ميسوراً إعلان رأى ما بشأن هاتين العقوبتين. ولعل الفقهاء قد وضعوهما على باب الاستثناء من حكم الحديث، وهو عام فى سائر الأحكام التى قال الفقهاء بوجوب تنفيذها بضربة واحدة سريعة بالسيف.

الجلد: وللفقهاء تقييدات للجلد. فقد قال أبو حنيفة أن السكران لا يجلد إلا إذا بلغ فى سكره حداً لا يفرق فيه بين السماء والأرض وبين الرجل والمرأة. والمعروف عن أبو حنيفة أنه أباح النبيذ. وقد استفاد الناس من هذه الرخصة. وفى «محاضرات» الراغب الأصفهانى أن رجلاً لقيه فى الطريق وهو سكران من النبيذ فقال: يا أبا حنيفة يا ابن الزانية قد شربت النبيذ بفتواك! .بينما أثارت هذه الفتوى زوبعة بين أتباعه فضلاً عن خصومه[1]. وقال الفقهاء إن السارق لا يقطع إلا إذا سرق من مال محرز. والمحرز أن يكون مقفلاً أو مدفوناً من مالكه. ولذا لا يقطع من سرق الكعبة أو المسجد أو بيت المال لعدم توفر شرط الأحراز فيها. كما لا يقطع

---

(١)قال أبو سعيد السيرافى، وكان حنيفاً، فى حديث عن إباحة أبو حنيفة للنبيذ: ولأبى حنيفة مسائل لا أرتضيها له وقد خالفه فيها أعيان أصحابه والناقلة لمذهبه. معجم الأدباء لياقوت ٧/ ١٧٠.

سارق البساتين والزروع. وكذا من سرق من حرز هتكه غيره[1]. ولا يقطع سارق المواد التى يسرع إليها التلف كاللحم والفواكه وسارق المباح الكثير كالخشب[2]. وحددوا معنى السرقة بأخذ المال على سبيل الخفية والاستتار فإن اختلس أو نشل لم يكن سارقاً ولا قطع عليه[3]. ويشمل هذا الحكم النشالين أو الطرارين. ولا يستفاد من هذا إباحة السرقة فى هذه الأمور فالمقصود هو عقوبة القطع فإذا لم تتوفر شروطها عوقب السارق بعقوبات أخف كالحبس أو التعزير.

وقال أبو حنيفة بعدم العقوبة على اللواط فى رواية[4]، وفى أخرى بالجلد مادون الحد المقرر للزانى[5] ويروى عنه أنه قال من استأجر امرأة ليزنى بها لايُحد لأن العقد يصير شبهة[6]. يقصد أن عقد الاستئجار هو كعقد الزواج، لأنه يتضمن ركنين هما المهر الذى يدفع للمرأة فى شكل أجرة، والتراضى بينهما. وأخذ الأجرة دليل مادى على رضا المرأة. وفى المحلى لابن حزم أن أبا حنيفة لم ير الزنى إلا ما كان مطارفة، وأما ما كان فيه عطاء أو استئجار فليس زنا ولا حدفيه. وقد استند فى هذا إلى خبر الجائعة التى أتت راعياً فسألته الطعام فأبى عليها حتى تعطيه نفسها فوافقت. ثم جاءت إلى عمر (بن الخطاب) فأخبرته فقال: مهر. ودرأ عنها الحد[7]. ولا يعنى هذا القول من أبو حنيفة إباحة البغاء. ويجب على أى حال أن يفهم فى ضوء الاتجاه إلى تقليص حالات تطبيق العقوبة على الزنا، مع ما يحمله من التفريق بين زنا الرغبة وزنا الحاجة.

يقصد بالمطارفة ما كان عن مجرد رغبة عابثة. ورواية ابن حزم أقرب إلى المعقول. وهى بحسب قصة الجائعة المنقولة عن عمر حكم خاص بالمرأة المزنى بها دون الرجل، لأنها زنت

(١) انظر: أبواب الحدود فى «المختصر النافع» وأحكام الماوردى السلطانية. كذلك: المغنى لابن قدامة ـ أعلاه ـ ٨/ ٢٥٣.

(٢) الاقسرائى. المصدر أعلاه.

(٣) المغنى لابن قدامة ـ أعلاه ـ ص ٨/ ٢٤٠.

(٤) نفسه ٨/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥) المحلى لابن حزم، القاهرة ١٣٤٧ هـ، ١١/ ٣٨٢.

(٦) أبو المعالى الجوينى (إمام الحرمين)، «مغيث الخلق فى ترجيح الخلف فى ترجيح القول الحق» القاهرة ١٩٣٤ ص٤٤.

(٧) المحلى ـ أعلاه ـ ١١/ ٢٥٠.

اضطراراً ـ لا مطارفة ـ وهذا لا يرفع العقوبة عن الراعى الذى لا تذكر الرواية حكمه، إذ يبدو إنه كان مجهولاً لعمر، وإلا لكان من المفروض أن يقع عليه الحد. ورواية الجوينى تفيد أن عدم العقوبة يشمل الرجل ويجب عدم الوثوق بها لأن كتابه مكرس للتشنيع بأبو حنيفة وليس لدراسة الأحكام الفقهية.

ويمكن أن نفهم من مجمل هذه الأقوال أن أبو حنيفة يريد رفع العقوبة عن المرأة التى تزنى اضطراراً. وبالطبع فهذا يشمل البغايا لأن زناهن للحاجة وليس للرغبة. ولابد أن العقوبة لا تسقط عن الرجل (الفاعل) لعدم توفر هذا القيد.

ويمكننا أن نرصد اتجاهاً عاماً بين الفقهاء فى التشدد فى جرائم القتل العمد وقطع الطريق والتساهل فيما عداها. وهناك قاعدة تقول: يخير الشهود (أى من شهدوا الجريمة) بين إقامة الحد عند الإمام وبين الستر على المشهود عليه واستتابته، بحسب المصلحة؛ فإن ترجح عندهم أنه يتوب ستروه وإن كان فى ترك الحد عليه ضرر للناس كان الراجح رفعه إلى الإمام[١]. وتعطى هذه القاعدة دوراً للجمهور فى معالجة الجريمة دون رفعها إلى السلطة. ولم يحدد صنف الجرائم المشمولة بهذا الإجراء لكن الإشارة إلى ما فيه «ضرر للناس» يمكن أن تنسحب على جرائم القتل والسرقة التى لا يجوز التستر على فاعلها ولابد بالتالى أن يكون المقصود هنا هو الجرائم الشخصية التى يسميها القرآن «فواحش» وهى الزنى وشرب الخمر وما أشبه.

وللقاعدة المذكورة أصل فى القرآن هو الآية ١٦ من سورة النساء: ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

والاشارة إلى الرجل والمرأة. وقد ذكر الزمخشرى فى تفسير هذه الآية إن المراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الأمام. فإن تابا قبل الرفع إلى الأمام فاعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما[٢] . وقد وردت روايات تتضمن هذا المعنى. ففى طبقات ابن سعد عن عبدالرحمن بن حرملة أنه جاء إلى سعيد بن المسيب يسأله: وجدت رجلاً سكراناً أفتراه يسعنى أن لا أرفعه إلى السلطان؟ فقال له سعيد: إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره[٣] . ويورد ابن

(١) المقدسى، حاشية على «المقنع» لابن قدامة. السلفية ١٣٨٢، ٣/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٢) الكشاف ١/ ٢٥٦ تفسير سورة النساء.
(٣) ابن سعد، طـ ليدن، ٥/ ٩٩.

سعد توجيهاً لعمر بن عبدالعزيز بعدم التعرض لمرتكبى الفواحش وراء البيوت[1] . وأشار الغزالى فى «إحياء علوم الدين» إلى أن النبى شجع المقارفين على الستر والانكار[2] . وقد ورد هذا التوجيه فى حديث أخرجه مالك فى الموطأ نصه: «من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله. فإن من أبدى لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»[3] . وربما أمكننا استبعاد صحة هذا الحديث إذا استبعدنا كون النبى كان مجرد وكيل تنفيذ فهو يسعى لتخفيف قسوة أحكام شرعها غيره. لكن الحديث على أى حال ينسجم مع القاعدة الفقهية المذكورة.

وأوردت مصادر الفقه والحديث قول النبى : «تدرأ، أو ادرأوا، الحدود بالشبهات». ويشتمل هذا الحديث على مبدأ قضائى هام هو تفسير الشك لمصلحة المتهم. ويقول ابن حزم إن أشد الفقهاء قولاً بمضمونه واستعمالاً له هو أبو حنيفة وأصحابه، ثم مالك، ثم الشافعى[4].

وشدد الفقهاء على مسألة تعذيب العبيد. وقد استعرضنا بعض الأحاديث المتعلقة بذلك. وهناك اتفاق عام على تحريم الخصاء لأنه مثلة. ويعتبر العبد منعتقاً تلقائياً إذا خصاه مولاه. ولهذا السبب لم تزدهر تجارة الخصيان فى العالم الاسلامى آنذاك رغم الحاجة إلى هذا الصنف من العبيد. والأندلسيين كانوا يحصلون على حاجتهم من الخصيان من الامبراطورية الجرمانية المقدسة التى تخصصت فى هذه التجارة وينعتق العبد تلقائياً كذلك إذا عذبه مولاه على رأى الامامية. وحرموا الضرب واللطم للعبيد ولكن دون أن يرتبوا عليهما الانعتاق مالم يبلغا حد التنكيل، وهو المبالغة فى الايلام. كما خففت عقوبة الجلد الشرعية على العبد إلى نصف مقدارها على الحر فى الجرائم التى تستوجبها. ويروى عن على بن أبى طالب إنه قال فى تعليل هذا التخفيف: «إن الله أكرم من أن يجمع عليه الرق والحد». واختلفوا على حكم السيد إذا قتل عبده. وقد أخرج النسائى حديثاً يقول[5]: من قتل عبده قتلناه ومن جدعه جدعناه ومن خصاه خصيناه». والحديث مقبول عند عامة الفقهاء والمحدثين لكنهم تفاوتوا فى التزامه نصياً: فسره بعضهم على سبيل الزجر والتغليظ فى النهى فلم يعتبروه نصاً فى العقوبة وقالوا بعقوبة القاتل بما دون القتل، واحتجوا عليه بخبر فى سنن البيهقى يفيد أن رجلاً قتل عبده فجلده

---

(١) نفسه ٥/ ٢٦٩.
(٢) رحياء علوم الدين ٣/ ١٢٠.
(٣) الموطأ ص٣٣٥.
(٤) المحلى ١١/ ١٥٣.
(٥) سنن النسائى ٨/ ٢٠.

النبى ونفاه سنة ومحا سهمه من المسلمين ولم يقتله. وقال آخرون يقتل الحر إذا قتل عبد غيره ومن هؤلاء: أبو حنيفة وسفيان الثورى، فى رواية عنه، وابن أبى ليلى والشافعى وداود الظاهرى. وقالت فئة ثالثة بقتل السيد إذا قتل عبده ومنهم البخارى وابراهيم النخعى وسفيان الثورى فى رواية أخرى عنه. وأهل السنة والامامية على اتفاق بأن الحر لا يقتل بالعبد، سواء كان عبده أو عبد غيره. ويكرس رأى هاتين الطائفتين حالة التردى الاشمل فى العصور البعد ـ اسلامية مما يتضح على الخصوص من مقارنته بآراء الفقهاء الذين ذكرنا أسماءهم للتو، وهم معدودون، حسب التصنيف الطائفى المعاصر، من أئمة أهل السنة[١].

وتسقط الحدود بالتقادم. وهو للخمر بزوال ريحته من الفم عند العموم، وشهر عند الشيبانى. وللزنا والقذف والسرقة مضى شهر عند الفقهاء الثلاثة والتقادم لا يشمل القتل العمد.

أحكام عامة:

١ـ منع الخصاء للانسان والحيوان. واعتبروه من واجبات المحتسب الذى يتولى تأديب الخاصى وملاحقته بالقصاص أو الدية فى حالة حدوث وفاة بسبب الخصاء. وقد طبق المنع بالملموس. فكان أمراء المسلمين وأغنيائهم يحصلون بالشراء على الخصيان المجلوبين من خارج دار الاسلام .

٢ـ مراعاة حرمة المنازل بمنع دخولها بغير اذن أهلها. وسمح للمحتسب باقتحام المنزل عند الشك باحتمال وقوع جريمة كأن يصل إلى علم المحتسب أن رجلاً خلا بآخر ليقتله أو احتمال حصول زنا أو لواط. ولا يجوز الاقتحام فى حالة شرب الخمر لأنه من المخالفات الشخصية التى تعنى صاحبها وحده. وفى السماح له بذلك فى حالة الزنا واللواط إشكال أنها

---

(١) يلاحظ هنا أن أتباع الفقهاء الأوائل، ومنهم رؤساء المذاهب الأربعة وأئمة أهل البيت يختلفون حول الكثير من آرائهم. ويرجع هذا من بعض الوجوه إلى اختلاف الروايات عن الفقهاء الذين لم يتركوا مؤلفات. لكننا نجد من جهة أخرى أن الفقهاء المذكورين كانوا قد ظهروا فى وقت مبكر من العصور الاسلامية فأدلوا بآراء أشكلت على أتباعهم الذين جاؤوا فى أطوار متأخرة تبلور فيها الوعى الدينى على حساب العقلانية الاجتماعية التى تميز بها معظم فقهاء الطور الأول. ومن هنا نقدهم لبعض آراء أبو حنيفة، وتعمد بعضهم إخفاءها أو تجاهلها لا سيما فى العصور السلفية.

معدودة فى المخالفات الشخصية. ولم يوضح النص الفقهى ملابسات الحدث وما إذا كان الفعل على سبيل الاغتصاب.

آراء للغزالى:

الغزالى غير معدود فى الفقهاء إنما فى الأصوليين (علماء أصول الفقه) وهو قبل هذا فيلسوف ولاهوتى ومتصوف ومفكر اجتماعى وكاتب سياسى. وكتابه «احياء علوم الدين» يجمع هذه الاختصاصات فى جملتها. وقد تعرض فى الكتاب الخامس إلى كيفية التعامل مع أهل المعاصى وقسمهم لهذا الغرض إلى ثلاثة أقسام:

«القسم الأول، وهو أشدها ما يتضرر به الناس بالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة وهؤلاء يجب الاعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق. ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم فى الدماء وإلى من يظلم فى الأموال وإلى من يظلم فى الأعراض. وبعضها أشد من بعض. فالاستحباب فى اهانتهم والاعراض عنهم مؤكد جداً.

القسم الثانى: صاحب الماخور الذى يهيء أسباب الفساد ويسهل طرقه على الخلق فهذا لا يوذى الخلق فى دنياهم ولكن يفسد بفعله دينهم وإن كان على وفق رضاهم، فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه، فإن المعصية بين العبد وبين الله إلى العفو أقرب. ولكن من حيث أنه متعدٍ على الجملة إلى غيره فهو شديد. وهذا أيضاً يقتضى الاهانة والاعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظُن أن فيه نوعاً من الزجر له أو لغيره.

القسم الثالث: الذى يفسق فى نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محظور يخصه فالأمر أخف. لكنه فى وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فإن النهى عن المنكر واجب. فإذا فرغ منه وعُلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه؛ فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العودة إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر باللطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع. فاما الاعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يُعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه فهذا فيه نظر..».

لا يذكر الغزالى ما يستحق هؤلاء الأصناف من العقوبة بموجب الشرع ويقتصر على مسألة

التعامل معهم فى المجتمع. وقد شدد على الأفعال التى تمس الناس. وتساهل فى الأفعال التى يؤذى بها الانسان نفسه دون غيره. وهو الحكم العام عند الفقهاء. والملخص فى قولهم: «إن حقوق العباد مبناها على الشح، وحقوق الله مبناها على السعة» وحقوق الله هى أفعال الفرد لنفسه كشرب الخمر وترك الصلاة والزنا وما أشبه. والحساب على هذه يسير لأن ضررها لا يصل إلى الناس.

وقد أسرف الغزالى حين اعتبر البغاء من أفعال النفس التى لا يتعدى ضررها إلى الغير، فالبغاء آفة اجتماعية وليس فعلاً فردياً. وانما حمله عليه تقريره أن العلاقة بين البغى والرجل هى بتراضى الطرفين، ولم ينتبه إلى وضع البغى، الاضطرارى فى الأصل.

هوية الجلادين والسجانين:

عندما واجه الأمويون مسألة تأسيس الدولة اصطدموا بالجذور الجاهلية فوجدوا حاجة إلى ترويض العرب حتى يصبحوا رعايا لدولتهم التى لم يألفها الجاهليون. وقد استعانوا لهذا الغرض بعناصر أجنبية سلموها أمر السجون ومهمة الجلادين لاسيما بعد أن تعذر عليهم تأمين ما يكفى لهذه المهام من الأفراد العرب. وكان جلادو الأمويين من الأتراك. وإليه يشير فتى عربى هرب من سجن ابن زياد فى العراق:

وجاء البخاريون يبتدروننى ... لهم أعين خُزْر توقَّد كالجمر
عكوف على الأبواب من يؤمرونا به ... فليس براءِ آخر الدهر

والبخاريون نسبة إلى بخارى، من مدن آسيا الوسطى.

ويصف جعفر بن عُلبة سجناً أموياً كان فيه:

إذا باب دورانٍ ترنم فى الدجى ... وشد باغلاق علينا وأقفال
وأظلم ليل، قام علج بجلجلٍ ... يدور به حتى الصباح باعمال
وحراسي سوء ما ينامون حوله ... فكيف لمظلومٍ بحيلة محتال
ويصبر فيه ذو الشجاعة والندى ... على الذل للمأمور والعلج والوالى

والعرب يطلقون العلج على الأعجمى. وقوله: جلجل إشارة إلى المفاتيح لما تحدثه من قرقعة عند استعمالها.

مسؤولية الجلاد:

اختلف الفقهاء فى مسؤولية الجلاد فبرأ بعضهم لأنه مأمور وألقوا بالمسؤولية على الآمر فقط. وأشركه آخرون بالاثم. لكن الشيعة يقولون بتجريم الجلاد الذى يعذب السجناء ويحكمون عليه بالحبس الأبدى ـ التخليد فى السجن فى اصطلاحهم.

رأى للمؤرخين:

فى سياق المعارضة الفقهية للتعذيب، دعا المؤرخ السخاوى إلى تجنب رواية أخباره، «إلا ما يضطر المؤرخ إلى إيراده منها بشرط بما يقتضى الانكار، إذا أمكن، حتى لا يكون تطرقاً لمن لا يروم فعل مثله وحجة يحتج بها». وأورد فى هذا المعنى خبراً يفيد أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثنى بأشد عقوبة عاقب بها النبى. فحدثه بها. فلم بلغ الحسن البصرى ذلك قال: وددت أنه لم يحدثه[١]. وانكار البصرى لحديث أنس، مرجعه إلى الخوف من أن يستغل الحجاج تلك العقوبة لتعزيز وسائله الإرهابية أو الاندفاع أكثر فى هذا الاتجاه. وأعرب ابن الأثير عن الامتعاض من هذه الأفعال لكنه أدلى برأى مغاير إذ دعا إلى تدوين أخبار الظالمين حتى يعلموا أن أخبارهم تنقل وتبقى على وجه الدهر فربما تركوا الظلم لهذا إن لم يتركوه لله[٢]. وهنا خلاف فى المقصود من الرواية بين الحسن وابن الأثير لم يلحظه السخاوى. فابن الأثير يتحدث عن أفعال حكام المسلمين والحسن البصرى يقصد الرواية عن النبى. وما أورده من اشكال فى هذا الخصوص يتعلق بمسألة القدوة. فالحديث الذى رواه أنس للحجاج يمكن أن يوفر له عذراً فى التمادى، كما قلنا، مستمداً من السنة، فى حين قد يكون تصرف النبى المروى عنه مأخوذاً فى خصوصياته التى لا تعتبر فى عداد السنة. وهناك فرق بين أن تروى خبراً عن حاكم عرف بالظلم فتفضحه، وخبراً عن نبى مشرع فتضيف مادة إلى الشريعة. ويبدو السخاوى مع هذا حذراً من أن يستفيد الحكام من رواية وسائل التعذيب فيطبقوها. وهو المستفاد من قوله: حتى لا يكون ذلك تطرقاً لمن يروم فعل مثله.

* * *

---

(١) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. بغداد ١٩٧٣ ص١٢٧.
(٢) الكامل فى التاريخ ٨/ ١٢٤.

العصبية العربية فى مواجهة المصريين

«لعنة الحرس»

كان العرب يمثلون فى المجتمعات التى يغزونها أرستقراطية السيف والدم (الجنس) ويشغلون بالتالى قمة الهرم الاجتماعى. أما قاعدة الهرم فتتكون من الرقيق، يعلوهم الذميون سكان البلاد الأصليون .

وكان يقوم نتيجة لذلك تناقض اجتماعى بين العرب وغير العرب، وبين المسلمين وغير المسلمين، وكان المفروض أن يقف المسلمون الجدد - وهم من غير العرب طبعا - على قدم المساواة الكاملة مع المسلمين الأصليين أى العر ب. غير أن ذلك لم يتحقق قط إذ ظل العرب متمسكين بعروبتهم الجنسية كعامل يحفظ عليهم بقاءهم كطبقة مغلقة تستحوذ على كل الأموال ولا يستطيع غيرهم أن يشاركهم إياها.

وكل ما سمحوا به للمسلمين الجدد هو أن ينتسبوا إلى القبائل العربية، التى تتكون الطبقة الغربية من مجموعها. فيحملوا اسمها فى صورة من التبعية تعرف باسم «الولاء».

ومن هنا نفسر هذا الإدعاء الشائع حول الأصول العربية لبعض سكان مصر فهم عروبى الولاء وليسوا من جنس العرب.

ثم أن الدولة رفضت - حرصا على مواردها - أن تسقط عن هؤلاء المسلمين الجدد - أو الموالى - لما تضخم عددهم الجزية التى كانت عليهم بحكم القرآن نفسه (التوبة: ٢٩) أن يدفعوها وهم ذميون. هذا إلى أنه أصبح عليهم أداء الزكاة بما هم مسلمون. وهكذا لم يحقق اعتناق الإسلام وضعا اجتماعيا أفضل للموالى فلاهم دخلوا الطبقة العربية الحاكمة ولا هم بقوا فى طبقتهم التى ورثوا عضويتها. بل أصبحوا يكونون طبقة قلقة فى المجتمع الجديد، وبذلك لم يحل اعتناق الإسلام التناقض بين العر ب والأجناس الأخرى، بل أعطاه صورة جديدة وظل هذا التناقض أحد مصادر حركات الاستقلال السياسية والاجتماعية والثقافية فى البلدان التى احتلها العرب. وقد سجلت الروايات صورة نادرة لإحدى محاولات المتأسلمين فى مصر لحل هذا التناقض بطريقة فريدة فى بابها.

وهى فى بعض جوانبها تشبه ما حدث للبرامكة ونكبتهم.

الحرس ـ بفتح الحاء والراء ـ قرية مصرية كل ما بقى لنا من أخبارها أنها من شرقى مصر وأغلب الظن أنها من الإقليم الذى تشغله محافظة الشرقية. دخل سكان هذه القرية الإسلام ولكن يبدو أنهم كانوا يتمتعون بنشاط خاص كما هو الحال بالنسبة للبلدان التى احتلها العرب فأهل هذه البلدان أصحاب حضارات يفتقدها العر ب الذين اعتبروا أنفسهم أهل سيف لا يشغلهم عنه الثقافة والعلم. فقد ظهر منهم فى القرن الثانى ـ التاسع الميلادى عدد من الشخصيات العلمية، فكان هناك كلب القضاعى الحرسى (ت ٢٠٧هـ) الذى روى عن الفقيه عمرو ين الحارث (ت١٤٨هـ) ، صاحب القراءة العظيم نافع (ت ١٦٩هـ). وكان منهم ـ وهو أهمهم وأشهرهم ـ زكريا بن يحيى (ت ٢٤٢هـ) المعروف بكاتب العمرى، والذى تتلمذ على علماء أجلاء يكفى أن أحدهم العالم المصرى الجليل عبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ). وقد يكون من المفيد أن تتأمل الاسم الكامل لهذا العالم الحرسى، وهو: زكريا بن يحيى صالح بن يعقوب. فإن طوله يدل على قدم دخول الأسرة فى الإسلام، هذا من جهة، ومن أخرى يلحظ أن اسمه واسم أسلافه هى أسماء أنبياء أو بتعبر أدق أسماءدينية لا تتعارض مع الإسلام ولكنها تخلو ـ ربما عن عمد ـ من الطابع العربى الخالص. كما كان هناك أحمد بن رزق الله بن ابى الجراح (ت ٢٤٦هـ) تلميذ العالم المصرى الكبير يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٤٦هـ). وكان هناك كذلك أبو بكر زكريا بن يحيى (ت٢٥٤هـ) نجل العالم المذكور أنفا.

كان هؤلاء الحرسيون يمارسون نشاطهم العلمى فى العاصمة ـ الفسطاط ـ حيث كان يقيم ـ فيما يبدو ـ عدد غير قليل من مواطنيهم ويكونون جميعا تكوينا متميزات يعرف باسم « أهل الحر س». ويبدو كذلك أن أهل الحرس هؤلاء ـ علماء وغيرهم ـ أصابوا من النجاح والشهرة فى الفسطاط ما نبه إليهم أفراد الطبقة العربية الذين بدءوا يرون فيهم حالة جديدة من حالات الارتقاء الطبقى الذى كان ـ بما هو حركة اجتماعية مستمرة ـ يهدد وضعهم كطبقة عليا متفردة بالسلطان، ورأى العر ب أن يبادروا إلى القضاء على هذا النجاح الجديد الذى تحرزه الطبقة الشعبية. فأخذوا يتحرشون بأهل الحرس، ويؤذونهم وينكرون عليهم حقهم فى

- -

التفوق محتجين بأنهم ليسوا عربا ينتمون إلى الطبقة الأستقراطية الحاكمة صاحبة الحق فى الاستئثار بكل أنواع التفوق، ولكنهم. كبط مصر ينتمون إلى الطبقة الشعبية المحكومة التى ليس لها أى حق فى التمتع بأى نوع من التفوق.

وتزعم حركة اضطهاد أهل الحرس، ثلاثة من وجوه الطبقة العربية أولهم: هاشم بن عبد الله التجيبى أحد ذرية معاوية بن خديج (ت ٥٢ هـ) الذى كان من أبرز شخصيات الغزو العربى مثلما كان من أهم زعماء الأرستقراطية العربية الغازية. وكان هاشم مازال محافظا على وضعه الطبقى المورث وكان يلى الوظائف الكبرى. أما الثانى أبو رحب العلاء بن عاصم الخلانى فهو أحد رجال الدين، ولى القصص بجامع عمرو فى مقابل عشرة دنانير فى الشهر. كما كان إمام لجامع عمرو استخلفه أحد الأمراء على حكم مصر سنة ١٩٣هـ إلى حين قدومه. أما الثالث فهو أبو الدهمج رياح بن ذوابة التجيبى الكندى الذى كان أحد شيوخ المؤرخين.

هؤلاء الرجال الثلاثة أذن من أقوى القبائل العربية فى مصر وأغناها وأشدها أرستقراطية. وقد استاءوا من أولئك الحرسيين النشطين الممتازين الذين استطاعوا بالعمل والمثابرة أن يحققوا لأنفسهم حياة أفضل من حياتهم. ولسنا نشك فى أن الزعماء العرب الثلاثة فى شعورهم العدائى نحو هؤلاء الحرسيين الناجحين إنما كانوا يعكسون إحساس الطبقة الأرستقراطية التى ينتمون إليها واحساسها بخطورة هذه الظاهرة. ويعد زكريا بن يحيى خير نموذج للارتقاء الطبقى الذى حققه أهل الحرس لأنفسهم، فقد استطاع أن يرتفع إلى العلم والسلطة والثراء. وقد جعله ذلك هدفا لنقمة الشاعر العربى يحيى الخولانى الذى وصفه بأنه «صار بعد الذل للجور يرهب» وأنه « بعد قران العرى أصبح فاكتسى»، وأنه بعد الحفا والمشى قد صار يركب».

أو كما قال شاعر. عربى أخر:

عصبة من طبنة النيل مناسى الجدود

لبسوا بعد التباين نقيات البرود

وتسموا وتكنوا بعد جرجه وشنوده

لم يستطيع أهل الحرس الصبر على الاضطهاد، وكانوا لا بدلا لهم من أن يتخذوا إجراء

مضادا، أى كان لا بد من أن يحلوا هذا التناقض بينهم وبنى العرب فلجئوا إلى زعيمهم أو عميدهم فى العاصمة الذى لم يكن سوى زكريا بن يحيى يشكون إليه أنهم يؤذون ويطعن فى شرفهم، ويسألونه حتى متى يصبرون على هذا.. ولم يكن زكريا يجهل الموقف ، بل لعله كان قد روى فيه طويلا، ذلك بأنه قدم إليهم أعجب حل يمكن أن يخطر بالبال. فقد نصحهم لكى يتخلصوا من اضطهاد العرب بأن يتحولوا إلى عرب طالما أن إسلامهم لم يشفع لهم. وأكد لهم أنهم يستطيعون تحقيق هذا المستحيل إذا جمعوا مبلغا من المال يقدمونه إلى قاضى مصر فيسجل لهم سجلا يثبت لهم نسبا عربيا. فهل اقترح زكريا على مواطنيه هذا الإجراء العجيب لأنه كان مألوفا حينذاك مثلما كان مألوفا فى مجتمعنا المعاصر أن تشترى الأسرة لنفسها «حجة» تثبت لها شرف الانتساب إلى النبى؟ أو أنه فعل ذلك اطمئنانا إلى إمكان اتخاذ هذا الإجراء الشاذ فى عهد قاضى مصر الموجود حينذاك والذى كان هو نفسه يعمل كاتبا له حتى اشتهر بلقب « كتابا العمرى»، وأيا كان الأمر فمن كان هذا القاضى؟

هو عبد الرحمن بن عبد الله العمرى، أحد أحفاد عمر بن الخطاب الذى ينسب إليه، فقيه مدنى ملكى - تلميذ مباشر لمالك (ت ١٧٩ هـ) - دخل مصر فى صفر ١٨٥هـ قاضيا عليها من قبل الخليفة هارون الرشيد. وكانت له وجهات نظر خاصة فى كثير من وسائل الفقه والقضاء سرعان ما راح يطبقها فى مصر ، فكان يميل مثلا إلى اتخاذ الشهود بمعنى أن يعين عددا من الأفراد تكون كل وظيفتهم هى أداء الشهادة على المتخاصمين . وقد ضرب رقما قياسيا فى عدد شهوده فاتخذ مائة شاهد وجعل عليهم رئيسا. ويلحظ أنه اختار هؤلاء الشهود من أهل المدينة بالحجاز- بلده - بالذات، من موالى قريش وغيرهم. على أن الجديد الذى لم يسبق إليه أنه دون أسماء هؤلاء الشهود فى سجل خاص وأسقط سائر الناس حتى تكفيهم عوائد هذه الوظيفة مشقة الكد والعمل ويركنوا إلى حياة الدعة والبطالة، فأصبح ذلك تقليدا متبعا منذ ذلك الحين. والعمرى هو أول من عمل تابوت القضاء فى بيت المال لتودع فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له، واتخذ لنفسه عددا من الكتاب كان زكريا بن يحيى من أبرزهم.

على أن ذلك ليس كل شئ بالنسبة الى القاضى العمرى الذى لعله كان مزدوج الشخصية فقد كان يتزين ويسرف فى التزين. أتاه أحدهم بعد قيامه من مجلس حكمه فإذا هو مضجع

وقد ترجل، وصفر يديه(من أثر الحنة) وكحل عينيه واتشح بأزار معصفر وأدهن بملاب على وزن سحاب وهو عطر من الزعفران، ولاشك فى أن هناك علاقة وثيقة بين التجمل وبين كلفه الشديد بفن الغناء. فقد كان يشدو بأطراف الغناء على مغانى أهل المدينة، ويبرز كثيرا فى مجالسه ولا يتحاشى أن يقول: هذا غنى به ابن سريج، وهذا غنى به الدلال، وهذا من جيد غناء الغريض. ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها يسمع غناءها وربما قوم ما انكسر من غنائها ويرى ذلك من الدين. ويضيف الرواية الذى دخل عليه فوجده فى كامل زينته أنه كان وهو فى حالة تلك يضرب بأصابع يديه بعضها على بعض ويقول:

كأنى من تذكر أم عمرو.. سرت بى قرقف صرف مدام

(القرقف/ الخمر القوية. المدام ـ بضم الميم: الخمر).

ونستطيع أن نزن هذه التصرفات إذا تصور ناها تصدر فى مجتمعنا المعاصر عن رجل يكاد منصبه يوازى منصب وزير العدل. ومهما بدا ذلك السلوك متنافيا مع ما يجب أن يأخذ القاضى نفسه به من الوقار والاتزان فمن الممكن اغتفاره على حال من و جهة النظر الفنية الجمالية. على أن الذى لاسبيل الى اغتفاره بحال هو تصر فاته المالية المتسمة بالتفريط الشديد وعدم مراعاة أى قانون مالى أو أدبى. فقد عهد الى مساعده الكبير يحيى بن عبد الله بن بكير بالإشراف على أموال الأيتام ـ أى دورا ـ ونخيلا، وراح يستغلها ويدفع الى الأيتام المستحقين من الأرباح ما ينفقونه ويخصم ما يصل اليهم من أصل أموالهم. فلما استهلكوا رؤوس أموالهم ادعى يحيى الأصول وقال: هى لى. فخوصم عند صديقه ورئيسه القاضى العمرى فقال: لا أراه ظلمكم بشئ هى أموالكم استهلكتموها.

شكل أهل الحرس لجنة منهم لمباشرة هذه القضية الهامة وبدأت اللجنة فجمعت من الحرسيين ستة آلاف دينار ـ وهو مبلغ يدل على ثراء الحرسيين ونجاحهم العلمى ـ ثم توجهت الى القاضى العمرى ـ الذى لاشك فى أن صديقه زكريا بن يحيى عميد أهل الحرس كان قد فاتحه فى الأمر ـ وعرضت عليه مطلبها مشفوعا بالمبلغ الكبير. وبالرغم من حب العمرى الشديد للمال واستخفافه فإنه لم يجسر على اتخاذ هذه الخطوة بصفة مباشرة. ولذلك نصح أعضاء اللجنة بأن يحصلوا أولا على أذن بذلك من الخليفة هارون نفسه.

وافق أعضاء اللجنة، وقرروا السفر الى بغداد، ولكنهم فضلوا أن يتزودوا بسند قانونى يسهل مهمة اقناع الخليفة بإصدار أمره العالى الى قاضى مصر باتخاذ الإجراءات اللازمة لأثبات الجنسية العربية لأهل الحرس فماذا يفعلون؟ ذهب اثنان من أعضاء اللجنة ـ ولعلهما فعلا ذلك من قبل فى محاولة سابقة ـ الى ناسخ يدعى عبد الكريم القراطيسى «كان يضع الخطوط على نظيرها» أى يزورها، فدفعا له ألف دينار وما كان أكثر آلاف الدنانير معهم ـ فى مقابل أن يزور على لسان قاضى مصر الأسبق المفضل بن فضالة (ت ١٨٤هـ) حكما باثبات أنساب أهل الحرس الى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. ثم توجها الى متولى ديوان المفضل حيث تحفظ الأحكام فدفعا اليه ألف دينار أخرى ليودع ذلك الحكم الديوان فلما تم لهما ذلك شدا الرحال الى بغداد. وسرعان ما عرفا طريقهما الى بلاط الخليفة هارون حيث أنفقا مالا عظيما للوصل الى الخليفة وعرض قضيتهم على مسامعه مؤكدين أن هناك قاضيا سابقا قد صدر حكما رسميا بعروبتهم ولم يكن المفضل هناك ليطعن بالتزوير، وعلى كل حال فإن هذه الورقة الى جانب الدنانير الذهبية، كان لها أثر فعال فى نجاح مساعى الرجلين وكتب الخليفة هارون الى قاضى مصر يأمره بالتسجيل لأهل الحرس. لم يعد أمام العمرى ما يخافه فشمر عن ساعده وشرع يتخذ الإجراءات الرسمية لمنح أهل الحرس الجنسية العربية. غير أن القاضى المدقق لم يشأ أن يكتفى بحكم زميله. بل أراد أن يقوم بواجب التأكد بنفسه من صحة الدعوى فدعا الحرسين إلى إقامة البينة عنده على أنسابهم ولم يكن شئ أسهل من ذلك على أهل الحرس فالدنانير الذهبية متوفرة، والشهود العرب الذين يحبون الدنانير أكثر توافرا وسرعان ما وجد أهل الحرس، الذين يعرفون دائما الطريق إلى ما يريدون ـ الشهود المناسبين فى أهل الحوف الشرقى وأهل الشرقية وجماعة من بادية الشام لم يجدوا جميعا مانعا من أن يحضروا إلى الفسطاط، ويمثلوا أمام القاضى الجليل ويقسموا، بالله العظيم أن أهل الحرس عرب خلص كاللبن الصريح. قد نستطيع تفسير إقدام هؤلاء الناس ـ وهم عرب ـ على تلك الشهادة الزور بأنهم بدأه جفاة لا يعينهم سوى الدنانير، وأيا كان الأمر فإن الشهود كانوا كافيين جدا لاقناع القاضى العمرى اقتناعا قانونيا بعروبة أهل الحرس وإمكان إصداره حكما بذلك، فأسجل لهم سجلا بتثبيت أنسابهم إلى قبيلة من قضاعة هى حوتكه.

لقد وقعت المعجزة، وتحقق المستحيل، وأصبح أهل الحرس عربا، ومن قضاعه. وأخيرا استطاع أهل الحرس أن يتخلصوا من ماضيهم الطبقى اللعين الذى ظل يطاردهم كالشبح. وآن لهم أن يتعربوا مع السادة العرب على قمة الهرم، يتحدثون معهم فى مهام الأمور ويتبادلون معهم العلاقات المختلفة، ويلقون فى خلال ذلك بنظرات التعالى والزهور على زملائهم السابقين الذين مازالوا يرزحون عند القاعدة، ولن يستطيع هاشم بن حديج، ولا أبو رحب الخولانى ولا أبو الدهمج بعد اليوم أن يتحرشوا بهم أو يؤذوهم أو يعيروهم بأصلهم القبطى الذى أفلحوا فى أن يبتروه كما يبتر الذنب. لقد تساوت الرءوس، صحيح أن الناس - بعض الناس - سيظلون يذكرون الماضى زمنا، ولكنهم لن يلبثوا حتى يزولوا ولا يعود أحد يعرف سوى أن أهل الحرس عرب أقحاح من قضاعه، والفضل لصديقهم العزيز القاضى العمرى - بعد الدنانير طبعا - فلازموه وأحاطوا به يتقدمهم عميدهم زكريا بن يحيى يغدون عليه إذ غدا ويروحون إذ راح، وهم يرفلون فى نسبهم العربى الجديد، ويزهون بجنسيتهم الجديدة التى تتلألأ على هاماتهم كالتيجان.

لم يكن اعتناق أهل الحرس الإسلام ونجاحهم فى ظل النظام الجديد كافيا لحل التناقض بينهم وبين العرب بل على العكس أدى إلى قيام تناقض جديد أشد حدة، فقد اضطروا إلى ذلك الحل الشاذ لعلهم يتخلصون من هذا التناقض ويحصلون على الاستقرار الاجتماعى والطمأنينة النفسية. غير أن هذا الحل الجديد قد أدى بدوره إلى تناقض جديد فقد كان يشكل سابقة شديدة الخطورة على الطبقة العربية يؤدى السكوت عليها إلى فتح الباب أمام تكرارها إلى ما لانهاية مما يؤدى بالضرورة إلى اختفاء العرب كطبقة. ولذلك هبت الطبقة العربية. وقد أصابها الذعر، تهاجم القاضى العمرى وأهل الحرس وزعيمهم زكريا بن يحيى، وتعارض الحكم الصادر وتعمل كل ما تستطيع لوقف تنفيذه، ولعب الأدب دورا بارزا فى المعركة، فلمع ثلاثة من الشعراء من ذوى الأصل العربى هم: يحيى الخولانى، معلى الطائى، طاهر القيسى، ونستطيع أن نحس الذعر الذى أصاب العرب فى صيحة يحيى الخولانى:

ألا قم فـــانـدب العـــربا	وابك الدين والحـــسـبا
ولا تـنـفـك تـنـعـى العـــدل	لما بان فـــاغـــتـــربا

كما نستطيع أن نستشعر دهشة العرب إزاء هذا التصرف الجرئ فى قول يحيى أيضا:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة	من القبط فينا أصحبوا قد تعربوا
وقالوا: أبونا حوتك، وأبوهم	من القبط علج حبله متذبذب
وجاءوا باجلاف من الحوف فأدعوا	بأنهم منهم سفاها وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضيا	بهم رغما مادامت الشمس تغرب

وكان طبيعيا أن يركز الشعراء هجومهم على القاضى العمرى سبب البلية كلها فانطلقوا يهجونه ويعددون عيوبه، فقال يحيى الخولانى يصف ركوبه لسماع الغناء الذى كان يصاحبه موكب من أهل الحرس:

مر بنا راكب على فرس	يامن رأى هريدا على فرس
قد كشف الخف من ضلالته	فى عصبة من مسالم الحرس
يقدمه خالد ويتبعه	لوط قران الكلبين فى مرس
فقلت: من ذا اللعين؟ قيل	أبو الندى غدا مسرعا إلى عرس
كيما يرى قينة ذكرت	تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح فى المخزيات منغمسا	وليس فى غيرها بمنغمس

وقال معلى الطائى يسخر من تظاهره بالتقوى، ويصفه بالظلم واللصوصية ويذكر شغفه بالغناء ويسخر منه ويحض على اغتياله:

كم تطول فى قراتك	والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى	وتبيت بين مغنياتك
ليت الثلاثين التى تجزى	تقوم بمسمعاتك
فاشرب على صرف الزمان	بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم عرب	فزوجهم بناتك
ولتكشفن بما أتيت	صدور قوم من مساتك
وكأننى بمنية تسعى	إليك بكف فاتك
أفقرته من ماله	بقضية، أو لم يؤاتك

لا تعـجلن أبا الندى	حتى تصير إلى وفاتك
أن المقـامع تطلقن	من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسان أكثم	ما وصلت إلى صفاتك

ولم يكن بد من أن يمد الشعراء هجومهم على القاضى العمرى حتى يتناول أهل الحرس ومعاونيه فى القضاء.

قال يحيى الخولانى:

كم فقير كان قد موله	بالمورايث التى كان منح
زكريا وكبيش منهم	والمدينيون أصحاب البلح
فأفادوا الدور فضلا بعدما	كلب الفقر عليهم والح

وقال يحيى أيضا يسب زكريا بن يحيى:

وفى زكريا أية فأعجبوا لها	فقد صار بعد الذل للوجود يرهب
وبعد قران العمر أصبح فاكتسى	وبعد الحفا والمشى قد صار يركب

ثم أننا نتساءل: هل لزم أهل الحرس الصمت المطلق فى هذا الجانب القولى من المعركة؟ أو لم يكن لهم شعراء يتبنون قضيتهم ويدافعون عن موقفهم؟ أو لم يستطيعوا حتى أن لم يقل فى هذه المعركة دفاعا عن أهل الحرس، ذلك بأن الشعر كان ينتمى طبقيا إلى العرب بما هم أصحاب الطبقة الحاكمة السائدة التى تستطيع أن تعطى وتمنع والتى تصطنع التقاليد السلوكية التى كان الشعر كفن يتغنى بها على أنها مثل عليا، هذا إلى أن الشعر يستطيع فى تلك المر حلة التاريخية أن يتصور أن يتخذ مو قف الدفاع أو حتى العطف على الطبقة الشعبية التى كان أفرادها يوصفون بأنهم «لا ناس» فى حين أن الموالى «أشباه الناس» أما العرب فهم «الناس». ولعل ما كتب من شعر فى هذه الفترة دفاعا عن أهل الحرس لم يجد طريقة إلى التسجيل الرسمى المضاد للشعب المصرى.

على أن الخليفة هارون لم يلبث حتى مات فى جمادى الأول ١٩٣هـ ليخلفه ابنه محمد

الأمين، ولما كان الأمين يفضل إنفاق وقته فى المتع على أنفاقه فى معالجة شئون الحكم فقد فوض أموره إلى الفضل بن الربيع (ت ٢٠٨هـ) حاجب والده الرشيد ووزيره. وترامت سيرة القاضى العمرى إلى الوزير، ولعل العرب واصلوا السعى لدية فلم يتردد فى استصدار مرسوم بعزله. وصدر المرسوم بعد سنه كاملة من موت الرشيد (جمادى الأول ١٩٤هـ). وحمله من بغداد إلى مصر موظف خاص. ولم يكد ذلك الرسول يعلن النبأ فى مسجد مصر الجامع حتى عمت موجه هائلة من الفرح عند العرب، وتكاثفوا حوله يدعون ويثنون، ويهللون ويكبرون، فقد تخلصوا أخيرا بعد تسع سنوات كاملة وشهرين اثنين من القاضى الذى عبث بهم ولم يتمالك أحدهم نفسه فقال ـ ربما من أبيات أكثر:

بنعـــمـــه الله ورأى الفـــضـل

نـحى عـن الحكـم عـــدوالعـــدل

هـذا ســـوار لـرســـول العـــزل

وأيا كان الأمر فبهذا يبدأ الفصل الأخير من المهزلة التى لعب بطولتها القاضى العمرى.

من المفارقات أن قاضى مصر الجديدة، هاشم بن أبى بكر البكرى (ت ١٩٦هـ)، كان من ذرية أبى بكر الصديق كذلك، ولا شك فى أنه كان يعرف كل شئ، بل لعله كان مزودا بتعليمات معينة. وقد بادر العرب إلى الالتفاف به، وإطلاعه على كل ما فعل القاضى العمرى وأعوانه، وتزعم هذه الحركة الانتقامية أبو رجب العلاء بن عاصم الذى أشار على القاضى الجديد بالقبض على سلفه وأعوانه وحبسهم والتحقيق معهم. ولم يتردد القاضى البكرى لحظه، فقبض على القاضى العمرى، وسجنه وقيده وطالبه بما صار إليه من الأموال والأقوات وأخذ البكرى بما زعمه العر ب من أن جملة ما اكتسبه العمرى فى فترة ولايته القضاء عليهم مائة ألف (دينار طبعا)، فطالبه بها. كما تتبع البكرى أصحاب العمرى كلهم وسجنهم وأسقط كل من شهد لأهل الحرس فلم يرجع أحد منهم عند أحد من القضاء، وكان نصيب يحيى بن عبدالله بكير من هذه الإجراءت التطهيرية كبيرا، فقد بادر أولاد العرب والعاطلين بالوراثة إلى القاضى الجديد يشكون إليه احتياله على أموالهم واستهلاكه إياها فأخذه بالحساب، فأنكر، فأمر به فربط على عمود فى المسجد الجامع مقابل لباب إسرائيل، ومناد ينادى: « هذا جزاء

كل خائن». وظل على ذلك أياما لا يحل رباطه إلا وقت كل صلاة. ولابد أن بكيرا كان يتمتع بقدرة كبيرة على الاحتمال، ولم يستطع البكرى أن يصل منه إلى درهم واحد، فلما يئس منه خلى عنه.

استطاع القاضى العمرى أن يجد شخصا واحدا على الأقل يقف إلى جانبه منذ أن بدأت أيامه السيئة، ذلك هو عبد العزيز بن مطرف المطر وهو الذى كان يرأس فرقة الشهود التى كونها من المدينين وغيرهم، والذى تناوله يحيى الخولانى بالهجاء فيمن هجا من أصحاب العمرى. وقف المطر فى إلى جانب صديقه فى محنته فقام بأمره وضمن عنه مالا عظيما للبكرى. على أن البكرى لم يستطع أن ينال شيئا من المبالغ الطائلة التى أدين بها العمرى لا لأنه كان مصرا على عدم الدفع فحسب، ولكن كذلك لأنه لم يكن له مال بمصر، فقد كان رجلا بعيد النظر يحسب حساب ذلك اليوم ويعلم أنه سيجئ حتما، ولذلك سبق إلى تهريب كل أمواله إلى مدين، إحدى مدن الحجاز على ساحل البحر الأحمر. فلما وقعت الواقعة شرع فى تنفيذ الخطة المرسومة، فعمل على الهرب من السجن ومن مصر كلها إلى حيث أمواله. وقد افلح فى أن يفلت من السجن ويهرب. وان لم يكن قد تيسر بفضل أصدقاء له لم يتخلوا عنه، فلا بد أنه بفضل أو فى الأصدقاء: الدنانير وغاظ هربه خصومه الذين كانوا يمنون أنفسهم بالتشفى منه غيظا.

وصل العمرى إلى مدين حيث احتمل أمواله، واتفق مع مجموعة من رجال البادية على أن يخفروه فى رحلته، ثم سار يقطع شبه الجزيرة من شمالها متجها نحو الشرق - وربما إلى العراق - يتبعه هؤلاء الرجال. فلما وصل إلى فيد، شمالى شرق شبه الجزيرة، خرج عليه جماعة من قبيلتى أسد وطى فأوقعوا به وأخذوا جميع ما حواه. ولم يغن عنه حراسه المأجورون شيئا، كما لم يستطيع هو أن يفعل أكثر من أن يشترى جلده بكل ما معه من هؤلاء البدو قطاع الطريق « فما تخلص منهم إلا بحشاشة نفسه».

وغسل العرب أيديهم من القاضى العجيب، والتفتوا ليزيلوا أهم أثر تركه بينهم وهو قضية أهل الحرس.

بما أن المرسوم لا يلغيه إلا مرسوم مثله فقد كان لابد من استصدار مرسوم جديد يلغى المرسوم السابق الذى منح أهل الحرس حق التمتع بالجنسية العربية. وأخذ الزعيمان العربيان أبو رحب العلاء بن عاصم وهاشم بن عبد الله التجيبى هذه المهمة على عاتقها. وكانت الظروف مواتية تماما، فالخليفة الرشيد صاحب المرسوم الأول قد مات، والخليفة الجديد لا يعنيه التفكير فى مثل هذه الأمور، ووزيره الفضل بن الربيع عربى قح والقاضى العمرى قد ذهب إلى غير رجعة.

قام أبو رحب وهاشم بن عبد الله بتشكيل وفد يسافر إلى بغداد ويحصل على المرسوم المطلوب. ووصل الوفد إلى بلاط الخليفة، وذكروا ما فعل العمرى فى أهل الحرس، وأنه ألحقهم بالعرب، ونسبهم إلى حوتكه بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، واقتنع المسئولون بفساد هذا الحكم وعدالة مطلب الوفد فكتب الخليفة إلى قاضى مصر بكتاب يقرر فيه مبدأ عاما هو «أنه لا يمنح أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب» ويأمره فيما يتعلق بأهل الحرس « أن يردهم إلى ما كانوا من أنسابهم» ، فرجع الوفد بذلك.

لم يكن كتاب الخليفة إلى القاضى البكرى سوى وثيقة النصر للطبقة العربية فى المعركة. وكان على القاضى أن يعلن المتخاصمين ويجلس للنظر فى القضية. ولكن إذا كان القاضى العمرى لم يصدر حكمه بإثبات الجنسية العربية لأهل الحرس إلا بعد ان شهد بذلك لديه شهود، فقد كان على القاضى البكرى كذلك ألا يصدر الحكم بأن أهل الحرس ليسوا عربا بل قبط أى مصريون إلا بعد أن يشهد بذلك شهود كان من بينهم إلى جانب عبد الله بن وهب، وسعيد بن عفير اللذين مر ذكرهما ـ النسابة، الاخبارى، المؤرخ المحدث الذى روى عنه البخارى: سعيد بن مريم(ت ٢٢٤هـ).

نستطيع أن نتصور مسجد مصر الجامع (جامع عمرو) وقد غص بالجماهير المتطلعة من سكان الفسطاط والقاضى البكرى فى مجلسه يحيط به كتابه، وبين يديه قد مثل الزعماء من العرب ومن أهل الحرس. وفتح القاضى الجلسة، وعرض القضية وطالب كلا من الطرفين بالدليل على دعواه. أما أهل الحرس فقد قدموا إليه الحكم الذى أصدره سلفه العمرى بعروبتهم، وأما العرب فقد تركوا الأمر للشهود الذين أجمعوا على أن أهل الحرس من القبط،

والعمرى قضى فيهم بجور» فنقض البكرى قضية العمرى فيهم، وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم من القبط، وأخرج من تحت مصلاه مقراضا كان يخفيه لهذا الغرض فقطع حكم القاضى وهو يقول لأهل الحرس الذين يشهدون انهيار كفاحهم ويتجرعون كأس الهزيمة المرة:«العرب لا يحتاجون إلى كتاب من قاض، إن كنتم عربا فليس ينازعكم أحد»، ولسنا نستبعد أن الشاعر معلى الطائى قد انفجر فى نفس هذه اللحظة يصرخ بأعلى صوته بتلك الأبيات القاسية:

يابنى البظراء موتو كمدا	واسخنوا عينا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم	من بنى العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم	قبط مصر، ومن القبط سفل
كيف ياقبط تكونوا عربا	ومريس أصلكم شر الجيل؟

أما زميله يحيى الخولانى فقد وجد من السعادة ما أوحى إليه قصيدة راقصة، قال:

اشكروا الله على إحسانه	فله الحمد كثيرا والرغب
رجع القبط إلى أصلهم	بعد خزى طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيا	جائرا قد كان فينا يغتصب
ما كفته رشوة ظاهرة	وقضايا جوركم فيها عجب
أن أتى أعظم ما يأتى به	أحد أن صير القبط عرب

ولم ينس طاهر القيسى أن يشيد بالدور الهام الذى لعبه أبو رحب العلاء بن عاصم فى الوصول إلى هذه النتيجة العظيمة فقال:

ولقد قمعت بنى الخبائث عندما	راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آبائهم	ونسيب أصلهم الذى قد غيبوا

أما بعد ـ فهكذا انتهت معركة من معارك الصراع الطبقى فى مصر فى القرن الثانى للهجرة، هذا الصراع الذى كان نتيجة حتمية للتناقض الطبقى الحاد فى المجتمع المصرى حينذاك.

لم تكن قضية أهل الحرس(١٨٥ـ ١٩٤هـ) الحالة الوحيدة ولا الأولى ولا الأخيرة من حالات الصراع الطبقى فى المجتمع المصرى الإسلامى المبكر، فهى فى الحق ليست سوى حلقة من سلسلة طويلة متكاملة تكون فى مجموعها حركة تاريخية كانت تحدث كنتيجة حتمية للتناقض بين العرب والمصريين تذكر منها على الاخص ثورات البشمور التى امتدت من الخلافة الأموية حتى الخلافة العباسية.

* (أنظر كتاب الهلال ٤١٦/ أوراق مصرية. د. عبد الله خورشيد ، القاهرة/ ١٩٨٥).

عبودية القبط للعرب

وفى الصعيد حيث هيمنت القبائل العربية كان التناقض يتحول إلى تناقض عنصرى من نمط خاص. حيث نجد العلاقات بين الأسر القبطية ومشايخ القبائل أشبه بعلاقة السيد بالعبد. ولقد ترك بوركهارت وصفا معاصرا ذكر فيه ان الاسر القبطية كانت اشبه بالـ Hareedirary SLaves† الذين يمتلكهم مشايخ القبائل العربية. وأضاف ان كل اسرة قبطية كانت تحت سلطه وحماية أحد المشايخ وتعتبر من املاكه مقابل ان تقوم بالعمل فى أرض مفردة له. وكان لهؤلاء المشايخ حق توارث الأسر القبطية وحق بيعها فيما بينهم . والواقع أن وصف بوركهارت ليس فيه اى مبالغة حيث يذكر على باشا مبارك فى خططه (جـ ١٧ص ٢٥الاميريه) « ثم ان نصارى بلاد الهلة قليلون وكانوا مستعبدين لهم قبل حكم العزيز محمد على ويقتسمونهم ويتوارثونهم كالمماليك ويحكمون فيهم ويحامون عنهم، كما كان فى كثير من البلاد إلا أن أهل الهلة أشد فى ذلك.

علم الأنساب العربية

« كان نظام تعدد الأزواج والطوطمية سائدا عند عرب الجاهلية بجانب نظام الزواج الخارجي، وبذلك لم تكن نسبة الأبناء للآباء أنما كانت للقبيلة فى الغالب وأحيانا للأم. أما سلاسل الأنساب التى تنسب للجاهليين فلم يكن عرب الجاهلية يعرفونها وهى من صنعة الرواة والنسابين فى القرن الثانى للهجرة.

وفكرة الأنساب بدأت وجودها لما أسس عمر خليفة المسلمين ديوان الخراج وراعى فى تقييد الأسماء وتدوينها اعتبارين الدينى والقبلى، وكان هذا مقدمة بعد قرن من زمان لوضع شجرات الأنساب» .«سبرنجر»

إن دراسة ظاهرة الأنساب عند العرب القدماء كمظهر للصلات العائلية بين أفراد سلالة بعينها، أو بمعنى أشمل كمظهر لصلات القرابة بين القبائل العربية من وجهة عامة وبين البطون والأفخاذ من وجهة خاصة، مع صرف جانب كبير من التدقيق لسلاسل الآباء والأجداد ونسبة الأبناء لهم، لا يمكن أن يخلص بها الباحث مجردة عن دراسة العوامل والمؤثرات التى كونت طبيعة العنصر العربى. ذلك لأن ظاهرة الأنساب من حيث هى مظهر لصلات اجتماعية إنما تتأثر وتتهذب بما فى المحيط الذى يكنفها من فواعل اجتماعية وطبيعية، فتتباين مظاهرها بتباين الظروف التى تترك أثرها الثابت فى البيئة. البداوة أساس ثقافة العرب التقليدية، والبداوة شئ يتصل بكل القبائل التى تعيش متبدية، وجميع ما يتصل بالبداوة أس من الأسس التى تقوم عليها نواحى الحياة عند البداو، إذ البداوة لأهل البادية بداية الحياة، لأن فيها تتجلى روح القبيلة بها تحتفظ الجماعة ببقائها وتصون كيانها، ومن مجموع التصورات والادراكات التى تتمثل لأهل البادية تنشأ الفكر الدينية ثم اللغة ثم ينشأ الفن، ومن بعد ذلك تتحور الأخلاق فتأخذ طابعا خاصا، ومن ثم يتكون قانون العرف البدائى. ومن غير المستطاع أن تنفك جمعية إنسانية طبيعتها البداوة عن كل ما توارثته فتنسلخ عن كل ما انتقل اليها عن اسلافها الأقدمين، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل من غير أن يهتز لذلك التغيير الطارئ أعماق وجودها هزا عنيفا، ذلك لأن طبيعة العرب المطبوعة على البداوة وما يتبعها من مظاهر لا

يمكن تغييرها إلا بتقطيع أسباب البداوة فى نفوس الأعراب بأنزلاقهم لحياة حضرية تتقطع معها أسباب البداوة فيهم، ولهذا ظل العرب بعيدين عن الأشتراك فى الحركة الثقافية التى قامت فى كيان المدنية الإسلامية ولم يقوموا إلا بدور ثانوى فى بناء الحضارة الإسلامية.

فإذا لاحظنا أن البداوة نظام تقوم فيه توزيع الثروة على اساس مستمد من الأسلوب والمغانم من جهة، وعلى الرعى والصيد وبعض الزرع من جهة أخرى، لهذا كانت الحياة الاقتصادية غير مستقرة لأنها تستند على الغزو ومهاجمة القوافل والإغارة على القبائل الأخرى والأقاليم والدساكر المتحضرة التى تقوم بجانب منازل البدو، ومن التنقل بين المراعى وبعض الزرع بجانب العيون والآبار ومسالك السيول فى الوديان. وهذا يعرض البدو كثيرا لأخطار القحط والمجاعات، كما يجعل وسائل عيشهم ضيقة السبل، وهذا يضطر القبائل للتنقل دائما فى طلب ارتياد المراعى وانتجاع المياه، وتأخذ فى التخلص من أسباب الزيادة فى الاستهلاك خصوصا إذا ما قام دون ارتحالها موانع طبيعية، والى وسائل التخلص من أسباب زيادة الاستهلاك «وأد البنات».

ونحن نعرف من التاريخ أن العرب كانوا على عادة وأد البنات فى الجاهلية حتى أن القرآن حرم عليهم ذلك، وكان نتيجة ذلك أن كان يأتى وقت على القبيلة لا يجد ر جالها لأنفسهم نساء بنسبة عددهم فيضطر كل جماعة من الرجال الى المشاركة فى إمراة واحدة. وهذا النظام من الزواج يعر ف بنظام تعدد الأزواج وهو شائع بين القبائل البدوية فى العالم ومازال البعض من هذه القبائل فى بعض أطراف العالم دارجاً عليها. وفى مثل هذا النظام يتعذر أن يعرف الأب على وجه التحقيق، فإذا ولدت المرأة فإن المولود ينسب الى أمه أو قبيلته.

ويتفق علماء الاجتماع على أن هذا النظام كان سائدا عند الجاهلية. ويذكر«استرابون» الجغرافى الرومانى المشهور عن العرب أنهم كانوا على هذا النظام دارجين، وأن ذكور أسرة بعينها يتزوجون بإمرأة واحدة، ومن الملاحظات التى يبديها «استرابون» يرى الباحثون فى علم الاجتماع أن نظام تعدد الأزواج كان سائدا فى بلاد العرب وأن النسبة لم تكن الأباء، وأن الجاهليين كانوا دارجين على نظام الأمومة، والنسبة عندهم للأم أو القبيلة.

كان الزواج عند العرب القدماء على عدة ضروب، وابسط هذه الضروب، الزواج المشترك،

- -

وهو أن يشترك الذكور فى الزواج بالإناث، وهذا الضرب كان شائعا فى عصور التاريخ الأولى وهو مجرد عن القيود، وتطور عنه مع الزمن زواج المساكنة وهو أن يساكن الرجل المرأة مدة حملها، وتمخض عن هذا الضرب زواج المتعة. وقد ظل الضرب الأخير معروفا عند العرب حتى القرن الرابع عشر للميلاد حتى أن قبيلة «زبيد» النازلة على الشاطئ الآسيوى من البحر الأحمر كانت تجرى على ضرب من الزواج المؤقت الاختيارى حيث يساكن الرجل المرأة باختياره مدة حملها وكان ذلك على عهد «ابن بطوطة» الرحالة المغربى الشهير.

ولو نظرنا للنصوص الأثرية لوجدنا ما يثبت درج العرب القدماء على هذا النظام، إذ النصوص الأثرية تثبت أن النسبة كانت للأم. فهذا نص أثرى من القرن الأول لميلاد عثر عليه فى مداين صالح ـ الحجر ـ مكتوب بالخط النبطى جاء فيه:

«هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهن وذريتهن».

هذا الى ان هناك تمثال للزباء عليه نقش بالخط التدمرى نسبتها فيه لأمها كما أن أبنائها وهب اللات وخيراز وتيم اللاه من زوجها أذينه كانوا ينتسبون اليها وحدها دون إبيهم، مما يثبت ان المجتمع التدمرى كان دراجا على نظام الأمومة.

ـ٣ـ

لنا أن نخلص مما سبق بأن العرب كانت فى الجاهلية دراجة على نظام الأمومة إلا الذين أخذوا بأسباب التحضر بحكم الاتصال بمراكز الحضارة فى العالم القديم وخاصة فى اليمن.

وإذا لا حظنا أن حقوق المرأة فى اليمن كانت متساوية لحقوق الرجل لها نفس حظ الذكر تتعاطى أعماله وتقوم بوظيفة الكهانة. كان لنا أن نجد فى هذا بداية انتظام الحياة الزوجية على أساس متحول من نظام الأمومة. غير أن هذا الانتظام لم يكن على اساس تعدد الزوجات، لأن العرف لم يكن يسمع للرجل بتزوج غير زوجته، وكل ما كان يسمع به أن المرأة إذا لم تلد لزوجها قدمت له جارية لتلد له، وكان ذلك بداءة ذى بدء من حق المرأة غير أنه مع الزمن صار حقا للرجل وصار مقدمة لنظام تعدد الزوجات.

أما فى الشمال فقد كان هنالك مجتمعان: حضرى وبدوى، أما الحضرى فقد كان يدرج

على نظام مزيج من تعدد الأزواج والزوجات ولهذا كان لأنسابهم على وجه عام اتصال، أما البدو فقد كانوا على نظام تعدد الأزواج دراجين. وهذا يفسر لنا ورود آثار منقطعة الأنساب، النسبة فيها للأم بجانب آثار متصلة واضحة النسبة للأب.

أما عرب الحجاز ونجد فقد كانوا بدوا حتى زمن قصى الذى جمع شمل قبيلة قريش وأسكنها مكة وما حولها، وكان سببا لأن يأخذ القريشيون بأسباب الحياة المتحضرة لوقوعهم على طرق التجارة من الجنوب إلى الشمال، ومع الزمن أخذوا يشتغلون بالتجارة فتحضروا وانتظمت حياتهم على أساس حوالى القرن الرابع للميلاد، والى ذلك التاريخ كان عرب الحجاز ونجد دارجين على نظام الأمومة، فما انتظمت حياتهم على أساس فى القرن الرابع للميلاد حتى أخذ نظام الأمومة فى ا لضعف والتلاشى وانتهت الحياة الزوجية عندهم إلى نظام تعدد الزوجات فى القرن السادس للميلاد وأتى الإسلام فتقبلها وجعلها متكافئة مع مبادئه

ومن المهم لنا فى هذا أن نتتبع نظام الطوطمية الذى كان عليه العرب والذى كان يرد لثلاثة أسس أولية:

١ـ اتفاق القبيلة على كائن أعلى عادة يكون نباتا أوحيوان وأحيانا جمادا، تعتقد أنه الجد الأعلى لها وأنها من صلبة منحدرة.

٢ـ الانتساب إليه والتسمى باسمه.

٣ـ تقديسه، وكان يشترك فى هذا التقديس كل أفراد القبيلة، أما إذا كان الطوطم خاصا بالشق Sex فإن الذكور أو الإناث فقط من القبيلة هى التى تقدس الطوطم.

فإذا تتبعنا العرب على عهدهم الجاهلى لنتثبت من قيام هذه الشرائط الأولية بينهم، سنجد أن العرب وإن لم تتفق يوما فى اعتقاد فى نبات أو حيوان على أنها منحدرة من صلبه إلا أنه من الشائع التلقيب بصيغة الجمع فى قولهم أنمار وكلاب وأراقم وضباب وهذا يجعل أبناء قبيلة النمر أنمار وقبيلة الكلب كلابا... ومن هنا لنا نستخلص وجود فكرة مهمة عن رواة العرب فى العصر الاسلامى عن انتساب قبائلهم فى الجاهلية لأجداد من الحيوانات أعنى الطواطم.

ذلك أن التسمي بأسماء حيوانية ونباتية شائعة عند العرب القدماء ويمكننا أن نعد من بين أسماء القبائل والبطون والأفخاذ أكثر من خمسمائة اسم من ذلك: بنو أسد بدن وبنو بكر وبنو بهثة وبنو ثعلب وبنو ثور وبنو جعدة وبنو جعل وبنو حداء وبنو حمامة وبنو حنش وبنو دؤبل نعامة وبنو نمر صنب وبنو ضبيعة وبنو عضل وبنو عنز وبنو غراب وبنو فهد وقريش وبنو كلب وبنو نعامة وبنو نمر وبنو وبر وبنو هوزن وبنو يربوع، غير أن لهذا التسمى صلة مقطوعة فى الرويات العربية فى نسبة أبناءالقبيلة للحيوان التى تحمل اسمها، غير أنه من المهم أن نلاحظ أن الرويات العربية وقد تأخر العهد بتدوينها الى أواخر القرن الثانى للهجرة، ومضت فى أذهان الرواة نيفا وأربع قرون من الزمان، فقد تأثرت بأوضاع المجتمع وتطورت تبعا له. وهذه حقيقة أولية معروفة فى سير التراث الشعبىLagends فى الزمان وتطوره. فإذا رجعنا الى الآثار وحدها وجدنا ما يسند القول بأن العرب القدماء كانت تنتسب لآباء من الحيوانات أو النبات.

-٤-

ثم هناك عبادة العرب وتقديسها للطواطم وهذا شئ لا يتطرق اليه الريب، فنحن نعرف أن العرب كانت تنصب أوثانها وتنحت أصنامها على أشكال من الحيوانات وكان تقديسها كثيرا ما ينصرف لصور من الحيوان والنبات وأحيانا لصور من الجماد، وهذا تقديس الحجر الأسود فى الجاهلية واحترامه فى الإسلام ليس إلا بقية من بقايا الطوطمية.

كذلك من بقايا الطوطمية عند العرب اجتماع القبيلة الواحدة للثار باسمها لأحد أفرادها، ذلك نظرا لأن هذا الاجتماع مظهر من مطالبة القبيلة بحق الطوطم الذى هو الجد الأعلى، واذا لوحظ بجانب ذلك أن آخر حدود العرب الاجتماعى هو الحى، حيث لم تكن للأعراب نظام الأسرة، جاز لنا أن نحكم من مجموع هذه القرائن بالاضافة الى ما سبق بمقدار تحكم نظام الطوطمية عند العرب القدماء. ولما كان من شرائط الطوطمية الزواج الخارجى Exogamy وكان سبب قيام نظام الزواج الخارجى عند العرب اثنين: الأول منها نظام الطوطمية نفسه، فإن صلة القرابة بين الآخذين بهذا النظام لا تعود للدم إنما للأنتساب لطوطم واحد، فيحرم صلة الزواج بين أفراد الطوطم الواحد، ويكون الزواج خارجيا، بمعنى أن إناث القبيلة يتزوجون برجال من غير قبيلتهن ورجالها يتزوجون بإناث من غير قبيلتهم. وهذا يؤدى

الى الزواج الخـــارجExogamy . إما السبب الثانى فيرجع لاختلال التوازن بين عدد الذكور والإناث فى القبيلة بأن تكون الكثرة العددية فى جانب الذكور لتفشى عادة وأد البنات فيها فينظر الذكور للزواج من الخارج أو اكتفاء عدة من الرجال بإمراة واحدة، والأول يسوق لنظام الزواج الخـارجى والثـانى لنظام الأمـومـة، حيـث تكون الأم هى مـدار العـائلة، وفى مـثل هذه الحالات تنقطع صلة الأنساب الدموية. لأن النسبة من جهـة للطوتم، ومن جهة أخرى معرفة الأب مجهولة.

ولنا أن نخلص من هذا كله الى أن العرب القـدمـاء لم يكونوا يعرفـون من فكرة الأنسـاب ذلك الاتصـال الذى نعرفه اليوم نـحن عنها، لأن كل ما كـانت تعيه خواطرهم ذكريات مبهمة عن جد تنتسب القبيلة اليه. وهذا الجد عادة يكون آخذا صورة حيوان أو نبات أو جماد تعتقد القبيلة بأنها منحدرة منه.

إذا صح كل هذا، وهذا ما لا نرتاب فيه، فتكون النتيجة أن فكرة النسب والأنسـاب التى تسند للعرب القدماء لا تستند على أساس طبيعى معقول من حقائق الجماعات العربية كما نخلص بها من التحقيق العلمى.

ونحـــن لو رجعنا الى الوراء الى العـهـد الذى نشـأت فـيـه القـبـائل وتكونت فـيـه البطون والأفـخـاذ فإننا سنجـد فـى التكاثر العـددى السبب الأول، مثال ذلك أن عرب الوسـط، وهم ينزلون تهامة والحـجاز ، نجد أنهم ينقسـمـون الى فـرعين كـبـيـرين «معد»و«عك» والفـرع الأخير نزل نواحى زبيد جنوبى تهامة وقد ذكرها اليونان فـى كتبهم تحـت اسـم Acchaitai وتفرع مع الزمن عنهم القبائل والبطون والأفخاد. أما«معد» فهو فـرع انقسم الى قسمين «نزار» و«قنص» والأخير انقسم إلى خمسة بطون: قضاعة ومضـر وربيعة وأياد وأنمار، وقد نزلت كلها فى تهامة والحجاز ونجد، فكانت مسـاكن قضاعة حوالى جدة على البحر الأحمر فما دونها شرقا إلى منتهى ذات عرق (الحد الفاصل بين نجد وتهامة) والى حيز الحرم من السهل والجبل، وقبائل مضر أقامت فى حيز الحـرم إلى الســروات وما دونها من الغور وما والاها من البـلاد، أما ربيعة فقد أقامت فى مهبط الجبل مـن غمر ذى كنده وبطن ذى عرق وما اتصل بها من بـلاد نجد الى الغور من تهامة، وأقامت أياد وأنمار معا ما بين حـد أرض مضر الى حـد نجـران وما الاها وصـاقبها. وعندما ضاقت بهم الأرض «نـزح بنو قضاعـة ثم تهامـة وكذا أيـاد،

التى أنزلت فى الجزيرة، وصار لقنص وغيره من أولاد معد أرض مكة وأوديتها، فلما تكاثروا مع الزمن جميعا ضاقت بهم الأرض فنزح بنو قضاعة ثم أغاز ثم تهامة وكذا أياد التى نزلت فى الجزيرة شمال العراق. ولم يبق من بنى معد فى تهامة إلا ربيعة ومضر فنزحت ربيعة ولم تزل مضر بعد خروج ربيعة مقيمة وحدها فى تهامة حتى كثر أفرادها وتكونت الأحياء المختلفة والبطون والأفخاد فرحل منها من رحل والباقون تمخض الزمن عنهم بقبيلة قريش «(أبن خلدون).

على هذا الأساس الذى يرويه رواة العرب يتبين لنا أن نشأة القبائل ترجع لكثرة الأفراد فى قبيلة وتزايدها زيادة يضيق دونها الوسط فتضطر للارتحال تصريفا لكثرتها العديدة، وارتحال العدد الزائد يكون سببا فى نشأة قبائل وبطون جديدة. وكثيرا ما تنشأ هذه القبائل من اجتماع عدة بطون من قبائل مختلفة.

ولقد روت المراجع العربية أن قبائل تنوخ وغسان والعنق تكونت من شتيت البطون التى تناثرت فى الصحراء من بقايا القبائل العربية المهاجرة. إذا فيمكننا أن نقول أن الصلات بين القبائل البدوية لم تكن لترجع للانحدار من أصل واحد تتفرع عنه بالزيادة العديدة فقط كما يريد الرواة أن يحملونا على ذلك إنما كانت لأسباب عديدة منها هذا السبب، فإذا لاحظنا أن الصلات الدموية بين القبائل والبطون والأفخاذ لا تجرى على أساس ثابت يمكن الاعتماد عليه سقطت حجة النسابين فى فكرة الأنساب وشجرات أنساب القبائل.

-٥-

فإذا رجعنا من فكرة الأنساب العامة للقبائل وصلاتها وعلاقاتها من القرابة والدم الى فكرة النسب والأنساب بين عرب البادية، لم نجد دليلا يسند القول بأن الأعراب كانت لهم القدرة على معرفة سلسلة آبائهم وأجدادهم تصاعدا فى الماضى لبضعة بطون غير قول الرواة واجتماع النسابين، وهو لا يكفى وحده لقبول هذه الفكرة ما لم يقم معها الدليل عليها خصوصا ونحن نرى أن تكأة الصلات بين الأفراد لا تؤدى الى مثل هذه الفكرة نظر لدرج المجتمع العربى على نظامى الطوطمية والأمومة.

غير أن لنا دليلا من الحاضر نستمده لنقيس استناد عليه ذلك الماضى وهذا الدليل يقوم على أساس أولى فى أن البداوة ثقافة العرب التقليدية وأنها لم تتغاير فى الزمان الى صورة مغايرة من عهد الجاهلين الى اليوم بما يجعلنا نمتحن فكرة الرواة والنسابين فى أعراب البادية اليوم. وسنجد أن نتيجة هذا الامتحان مما يثبت كذب الرواة والنسابين، فإن جميع الرحلات التى قام بها الباحثون فى صحراء الجزيرة وبادية بلاد العرب اتفقت على أن العرب يجهلون فكرة الأنساب ولا يتذكرون شيئا عن آباء أجدادهم وذكرياتهم مبهمة عن أنسابهم وتجرى من حول جد كبير ينتسبون اليه، ووهذا يرجع من وجهة نظر خاصة إلى ثبات ظروف الحياة على وتيرة واحدة فى البادية.

إذا صح ما قدمناه ـ وهذا ما لانشك فيه ـ فى أن عرب الجاهلية كانوا يجهلون فكرة الأنساب، فليس لنا إلا أن نحكم بأن كل ما قرره الرواه عن الأنساب وما رووه من شجرات الأنساب عن الجاهلية منتحلة لا تمت للعصر الجاهلى بسبب، هذا الى أنه لا يمكننا أن نصدق أن ذاكرة العربى كانت خزانة تعى سلسلة نسبه أبا عن جد لأن ذلك رغم منافاته لمشاهداتنا عن أعراب اليوم وهم لم يتغيروا قليلا أو كثيرا عن أعراب الجاهلية، فإنه من الصعب نسبة مثل هذا الزعم لقوم أميين لأننا رغم وجود الوثائق وأخذنا بتسجيل الأسماء نعجز عن معرفة أباء أجدادنا فى كثير من الحالات.

إن مثل هذه الدعوى الخطيرة التى روج لها الرواة العرب والنسابون فى القرن الثانى للإسلام كانت السبب فى وهم الكثيرين أن العرب شعب له مقدرة فائقة فى معرفة أنسابه. ولست أدرى كيف يكون للعرب هذه المقدرة التى تنسب لهم، ثم لايتفق اثنان من نسابيهم على نسب واحد من أنسابهم؟

هذه دولة حمير ـ أضرب بها مثلا على سبيل التمثيل لا الحصر ـ فأقول أنك لا تجد الرواة العرب اتفاقا فى عدد ملوكها وأسماء هذه الملوك وتعاقبهم فى الملك. ونحن نعرف من الاستكشافات الأثرية الأخيرة حقائق عن دولة حمير تباين كل المباينة ما رواة العرب وما قاله نسابوهم عن ملوك حمير، مما يكشف أنها من صنع خيالهم الخصيب الذى حاك هذه التخيلات من حول بعض الحقائق التى مضت فى طى الزمن فشوهت مع الزمان.

وهذا نسب عدنان، لو القيت نظرة علية لوجدته مشحونا بأسماء لاهى الى العربية تمت بصلة ولا الى السريانية كما ظن ابن دريد، وهى تدل على كذب الرواة. ويكفينا أن نلاحظ مع» ليون كايتانى «هذه الحقيقة الملموسة فى أن النسابين حاولوا أن ير جعوا بكل معاصرى الرسول المعروفين وعددهم يربو عن أربعة آلاف الى آدم أبى البشر فى سلسلة من الأنساب.

ـ٦ـ

لنا أن نبحث الآن فى الكيفية التى استندت عليها شجرات الأنساب، وسنجد أن ديوان الخراج الذى وضع قواعده عمر بن الخطاب كان الأساس لاستحداث فكرة النسب ووضع شجرات الأنساب فيما بعد. بيان ذلك أن عمر بن الخطاب أسس الديوان شاملا لأسماء المسلمين المهاجرين والأنصار ومن تابعهم ومقدار اعطياتهم تبعا للنسب النبوى والسبق فى الإسلام، وكان لكل مسلم راتب يتناوله هو ورواتب لعائلته وأولاده، ويجب أن تلاحظ أن ديوان الخراج أسس على عهد عمر بن الخطاب على اعتبار أن كل المسلمين وقتئذ جند، وهاك شئ من التقسيم:

المهاجرون والأنصار الذين شهدوا غزوة بدر	٥٠٠٠درهم
الذين لم يشهدوا غزوة بدر	٤٠٠٠درهم
أزواج النبى	١٢٠٠٠درهم
العباس عم النبى	١٢٠٠٠درهم
الحسن والحسين	٥٠٠٠ درهم
ابن الخليفة	٣٠٠٠ درهم
أبناء المهاجرين والأنصار	٢٠٠٠ درهم
أهل مكة	٨٠٠ درهم
سائر المسلمين	٣٠٠ ـ ٥٠٠درهم
نساء المهاجرين والأنصار	٢٠٠ ـ ٦٠٠درهم

وكان التقييد فى الديوان يراعى فيه اعتباران: السبق للإسلام والنسب، أعنى الاعتبار الدينى والقبلى فرتب الأفراد باعتبار الشعب والقبائل والعمارات والبطون والأفخاذ والفضائل حتى يتميز كل عن غيره. فالعرب كانوا يرتبون باعتبار القرابة من الرسول فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوى ثم بما يتفرع عنه، لهذا بدأ عمر ديوان الخراج بالعباس عم النبى ثم ببنى هاشم ثم بمن بعدهم طبقة طبقة. فالعرب لما كانوا ينقسمون حسب زعمهم الى قحطانيين وعدنايين فتتقدم العرب العدنانيين فى الديوان لأن النبى منهم، وعدنان يجمع ربيعة ومضر فتتقدم مضر على ربيعة لأنه منها ومضر تجمع قريش وغير قريش بنى هاشم وغيرهم فتتقدم بنى هاشم، وهكذا ترى قطب الدائرة بين هاشم ثم من يليهم وهكذا.

وكان مراعاة الجانب القبلى فى تدوين ديوان الخراج سببا أساسيا فى فتح الباب لوضع الأنساب والتر ويج لفكرتها، لأن العرب كانت تعيش قبائل بحكم طبيعتها، وتعد القبيلة وحدة لنفسها كوحدة الأسرة فتنمحى فيها شخصية الفرد، فالمحمدة التى يأتيها الفرد محمدة للقبيلة، والعار لها، والشاعر النابغ تفتخر به القبيلة.و لقد حاول الإسلام ضمن ما حاول أن يجعل الأخوة الدينية بدل الأخوة القبائلية ولكن العرب ظلوا ينحازون فى القتال الى قبائل ويذكرون مواقفهم بما لهم من ذكريات مبهمة عن ما ضيهم . وكان مراعاة عمر للاعتبار القبلى فى الديوان سببا للتناحر بين القبائل، وعاشت الدولة الأموية تتقاتل بالعصبية حتى أتت الدولة العباسية، وكانت الأفكار قد هضمت فكرة النسب والأنساب. فقام جماعة من الرواة هم النسابون وأخذوا يضعون شجرات الأنساب ويملؤون الفراغ ما بين المعروفين من أعلام عصرهم وبين شجرة نسب الرسول فكانت بذلك سببا لوضع الأنساب وتناقلها. ويجب ألا ننسى أن عمر بن الخطاب راعى الاعتبار القبلى فى التدوين بديوان الخراج مما مهد لكثيرون أن يندفعوا لأغراض مادية فى الرغبة على الحصول على مخصص أكبر من الديوان الى تزكية نفوسهم كأفراد من هذه القبيلة أو ذالك ولجأوا الى أنساب مفتعلة ليصلوا الى أغراضهم فكانت هذه مقدمة أساسية تطورت مع الزمن فانتهت كما قلنا الى شجرات الأنساب.

ولقد اشتهر القرن الأول بأن الحياة فيه كانت عربية محضة. فكان الاقتتال بالعصبية، ولقد فأخرت القبائل بعضها بما لها من مواقف حاسمة فى الجاهلية والإسلام وتهاجى الشعراء

وتفاخروا بقبائلهم، فهذا جرير والفرزدق والأخطل يتهاجون بالقبائل فيفخر جرير على الأخطل بقبيلتي تميم وقيس ويفضلها على قبيلة تغلب ويفخر الأخطل بقبيلة تغلب على تميم ويفخر جرير على الفرزدق بقبيلته والفرزدق على جرير بما لأجداد من مآثره، وفي وسط هذا الاقتتال وجد بعض الرواة سبيلا يذكون به هذا الاقتتال بالعصبية بين القبائل لأغراض ومصالح لهم فزجوا أنفسهم فى الميدان كنسابين، وكان أظهر هؤلاء فى ذلك الزمان البكرى الذى روى عنه رؤبة ابن الحجاج وسعيد بن المسيب. وفكرة الأنساب للأفراد، الشئ الذى اختص به العصر الثانى من ا لإسلام أيام العباسين، إنما كان السبيل لتنظيم أنساب القبائل وبيان صلاتها ببعض. ولما جاءت الدولة العباسية ، وجاء معها التفكير المنظم وقامت الشعوبية فى الإسلام انتظمت فكرة الأنساب واستقرت فى العقول وظهر جماعة من النسابين كان لهم اليد الطولى فى وضع شجرات الأنساب ونشرها بين الناس.

-٧-

اشتهر من بين هؤلاء النسابين نفر أشهرهم اثنان: محمد بن السائب الكلبى وابنه أبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى. وبجانبهما اشتهر نفر مثل سحيم المكنى بأبى يقظان المتوفى سنة ١٩٠هـ وكان من مشايخ المدائن. ويروى عنه أنه جمع نسب تميم وخندف أو قل وضع لتميم وخندف نسبهما، غير أنه من المهم أن نلاحظ أن هؤلاء النسابين والرواة فى القرن الثانى يختلف عن طابع نسابى القرن الأول ورواته . لأن اهتمام النسابين والرواة فى القرن الثانى كان موجها لإيجاد شجرات الأنساب بعكس نسابى ورواة العصر الأول الذين كان اهتمامهم موجها لفكرة الأنساب العامة والصلات القبلية بين القبائل خضوعا لروح العصر، وهذا الاختلاف فى الطابع يبين لنا سر عدم وضع شجرات أنساب الأفراد فى القرن الأول للهجرة .

وقد قلنا أن محمد السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦هـ والذى ينتسب لقبيلة كلب هو أول من صنف فى الأنساب على وجه منظم، ومن هنا شهرته كأب لعلم الأنساب وموجدا لها. وكان صاحب علم غزير أخذ على رأى ر واة العرب نسب قريش عن أبى صالح عن عقيل بن أبى طالب، وأخذ نسب كنده عن أبى العباس الكندى، ونسب معد بن عدنان عن البخار بن

أوس العدوانى، وكان هو وأبو اليعقوب المنهدى من مشايخ ابنه أبى النذر بن محمد السائب الكلبى شيخ النسابين، غير أنه كان متهما فى روايته ، صاحب لهو لا يعتد بما يرويه كما تتفق المصادر العربية، وهذا يجعلنا نشك فى قيمة ما رواه من أنساب وما قدمه من شجرات للنسب، وكلها تمتاز بأن سندها ساقط فى العموم. ويجب أن نلاحظ أن فكرة الأسناد هنا لم تكن بنفس أهميتها فى رواية الحديث النبوى، وإن كان ابن السائب الكلبى يرى الأسناد فى الخبر كالعلم فى الثواب. ويجب ألا يغرب عن البال أن الأفكار المتسلطة على ذهن العصر وأهمها الترويج للهاشميين وأبناء هاشم ورفع شأنهم لم يكن ابن الكلبى ليخلص من تأثيرها بجانب فكرة الأنساب التى راجت فى القرن الأول للهجرة والتى أخذت حيزا فى ذهنية ذلك العصر.

ومن أعلام الناس الذين أخذت فكرة الأنساب حيزا كبيرا من ذهنيتهم أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤هـ هو قد تلقى النسب والأنساب عن والده وكذلك شيخه أبى اليعقوب المنهدى. وكان شديد الاتصال بالعباسيين يغلب عليه التشيع، روى عن أبيه وعن معروف المولى وروى عنه كثيرون منهم شباب العصفرى وابنه العباس بن هشام ومحمد بن سعيد (كاتب الواقدى) وعلى بن حرب الموصلى وعبد الله بن الضحك المهداوى وابو الأشعث أحمد بن مقدام العجلى.

وكان هشام آية فى معرفة النسب ووضع شجراتها حتى صار فردا يضرب به المثل، وأهم كتاب له« جمهرة النسب» وهو أشهر مؤلف فى علم الأنساب وعليه تعويل أهل العلم من نسابى العرب، وهذا الكتاب هو المصدر الوحيد لما كتب فى نسب العرب مثل كتاب المعارف لابن قتيبة والأنساب للسمعانى ، وقد عول عليه ابن حزم الظاهرى فيما كتب عن أنساب العرب. الا أ ن دراستنا على الجمهرة وتلخيص ياقوت الحموى لها (فى المقتضب من جمهرة النسب)، أثبتت أن هشام الكلبى كان يأخذ لنفسه الحرية فى وضع الأنساب مستمدا مادته من الذكريات المبهمة التى حفظت عن الجاهلية ورويت فى العصر الإسلامى.

والعلماء لا يرضون عن هشام الكلبى ويطعنون فى نزاهته، فهذا السمعانى يقول إنه يروى الغرائب والأخبار التى لا أصل لها، وأبو الفرج الأصفهانى يشك فيه وفى نزاهته فيقول أن الأخبار التى وضعها عن الجاهلية التوليد بين فيها، وأن ما ذكره عن الجاهليين موضوع كله. وهو يروى الكثير عنه غير أنه يعقبها بعبارة ولعلها من أكاذيب ابن الكلبى.

-٨-

إذا فسدت مروءة الرواة والنسابين وأحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والانتحال ككسب المال والتقرب الى الأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ظهرت وجوه الانتحال وذهبت الثقة بما يرويه الرواة.

ولم تكن العصبية بين القبائل فى القرن الأول للهجرة والخلافات السياسية والأغراض الدينية والاجتماعية إلا التكأة لوضع شجرات الأنساب، فنحن نعلم أن العرب انتظمت حياتها على نظام القبائل، والقبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التى يفنى فيها الشخص، ولقد حاول النبى محمد أن يغير من هذه الطبيعة فى نفوس العرب وبذل جهدا خارقا ليجعل من الأخوة الدينية سببا للوحدة الاجتماعية بدلا من الأخوة القبلية ـ نسبة الى القبيلة ـ غير أن ذلك كان من المستحيل، حتى أنه فى عصر الفتوحات الإسلامية كان العربى يذهب فى صفوف المسلمين غير مندمج فى جموعهم لا حقا بأبناء قبيلته. فمن هنا يتبين أن كل فئة من العرب كانت تحيا ذاتها ولذات نفسها مع الصلات التى كانت هذه الصلات تأخذ صورة من منازلة الفئة الأخرى. ولذلك ما فرغ من الفتوحات حتى أخذ ينازل الفئات المجاورة التى تربطها به صلة القربة، أو يتحالفان للقرابة بينهما ويشنان الغارة على الجماعه العربية عنهما. وكان هذا الصراع بين قبائل العرب فى العصر الأموى مقدمة لزوال دولة العرب، وكان فى الآن نفسه سببا فى أذكاء العصبية القبلية وكانت كل فئه تفتخر بقبيلتها مما يثبت أنها كانت تعيش لذاتها وبذاتها.

ولا أدل على ذلك عندنا من صفحة الصراع الدموى بين قبائل العرب فى العصر الأموى (و حتى فى الأندلس البعيدة)، والذى كان من مظاهره الباقية افتخار كل قبيلة على الأخرى بشعرائها، وكان ذلك بدوره سببا لأن تلجأ كل فئة الى الرواة والنسابين رجاء نصرة عصبتهم على عصبية الفئه المجاورة لهم، وليس تعوزنا النصوص العر بية التى تثبت هذا القول من غير لبس أو تردد، لأن هناك شبه اجماع عند المتقدمين بهذه الحقائق الأساسية التى نخلص بها من أسباب الانتحال تمهد لنا سبيل البحث والدرس. فإذا أردنا أن ننظر لشجرات الأنساب فيجب أن نضع موضع النظر قبل كل شئ العوامل والمؤثرات والفواعل التى كان يغلى بها قلب

المجتمع العربى فى فجر الإسلام وضحاه، والمتحصل من هذا كله أن التكون الاجتماعى للعرب لم يسايره وضع الأنساب من حيث هى مظهر لصلات التكون الاجتماعى، وكما قلنا أن «ديوان» المسلمين كان مقدمة لذلك. وهو أن كان بداءة ذى بدء مواطئا لتكون العرب الاجتماعى فى عصر الخليفة عمر إلا أنه فتح الباب لأوجه من الانتحال.

ولعل من المستطاع لو نظرنا لأسباب الوضع أن نخلص بالنصوص التى أعوزتنا فى فحص النواحى المصطنعة، ولا جرم أن هذا الأمر ينتهى بنا الى تدقيقات واسعة تغربل كل ما وصلنا عن النسابين والرواة.

والذى لامعدل عنه تدبر أسباب الوضع لتكوين فكرة عامة يتدبر معها الباحث فى الأنساب السبيل الى حيث لا يخطئ، ونحن لو تدبرنا أسباب الوضع لوجدنا العصبية التى أوفيناها حقها من البحث تنزل فى الرأس، ثم يليها الدين والصراع بين الأمويين والهاشميين على الخلافة مما يدخل من جانب تحت العصبية القبلية، ومن جانب تحت السبب الدينى.

خاتمة

ودراسة كيفية افتعال الأنساب ليست بالشئ الهين، لأن التكوين الاجتماعى عند العرب كان يسمح ويساعد على تغطية أوجه الانتحال، ودليل ذلك واضح فى النصوص التى تقدمت، والمتحصل أن الناظر فى افتعال الأنساب يجب أن يلاحظ أن تكون العرب الاجتماعى كان يختلق فى العصر الذى وضعت له الأنساب من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب كما سبق الى ذلك البيان. فقدكان مجتمع عرب الجنوب Arabia Felix يقوم على أساس نظام الأبوة وتعدد الأزواج ـ من النساء ـ بعكس المجتمع الشمالى الذى كانت بدويته تقف عقبة دون تخلصه من أثار نظام الأمومة فى البيئات التى كانت تأخذ بأسباب الحضارة كما حدث فى بيئة مكة على عهد قصى.

هذا الى أن دراسة التكوين الاجتماعى عند العرب القدماء وتطور هذا التكوين وانتهائه الى صورة ما فى العصر الجاهلى، يتكافأ والمحيط الطبيعى والاجتماعى، تبين الى أى حد كان النسابون ينتحلون الأنساب ويضعوها. ولما كان كل واقعة فى التاريخ تخفى وراء مظهرها

المادى مظهرا نفسيا فاكتشاف هذا المظهر النفسى معناه الكشف عن حقيقة خفية من الحقائق التى تمضى فى صلب التاريخ، والمظهر النفسى وراء شجرات الأنساب يكشف عن وجه دقيق للحياة والتفكير والصراع فى العصر الأموى والعباسى، ومن هنا نحن نرى فى شجرات الأنساب سجلا دقيقا للمنازعات التى قامت فى العصر الإسلامى، فضلا عما لها من قيمة أسطورية لأنها فى العادة تحاك من حول أصل تاريخى. فدرسها إذن من الناحية الأسطورية تكشف للمؤرخ عن مادة واسعة غنية بالحقائق التاريخية يستعين بها فى توضيح ما غمض من أحوال العرب قبل الإسلام، ولا يخالجنى الشك أننا لو اتخذنا هذا الطريق فى دراسة شجرات الأنساب للاستعانة بها فى دراسة تاريخ العرب فإننا سنخرج بصورة جديدة عن تاريخ العرب لا أقول أنه أقرب إلى الواقع فحسب، إنما أقرب الى الواقع من كل عرفناه الى اليوم.

المراجع:

(1) kinship and Marrige in Early Arabia,By W. Robertoson Smith 2nd Edbtion, London 1903.

(2)Das Matriacht bei den alten Arabien Von G.Wilke

(الأمومة عند العرب تأليف ويلكن ونقله للعربية بندلى صلبيا الجوزى قازان)

(3)Geschichte des Volkes Arab.Von G.Eurold.Berlin 1935.

(4)Travels in Arabien Desert, BY DOVghtY, 2vol.cambridge, 1888.

Beduins tribes ofthe Euphrates,By Lady Anne Bleint,2nd Vol.London.1879

أنساب العرب القدماء لجورجى

زيدان صاحب مجلة الهلال، القاهرة، ١٩٠٦

(7)Al-Ansab Al-Arabiya, Von.I.A.Edham.

(٨) تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان، القاهرة، ١٩٠٨.

(٩) فجر الإسلام لأحمد أمين، القاهرة، ١٩٢٨.

The Kitab Al- Ansab of Abid Al-Karim Ibn Muhammde Al-Samani Reproduced in Faximile front Manuscript in The British Museum,With an Introduction BY D.s Margoliouth, London,1912.

(*) المقال بتصرف عن كتاب «المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أدهم/ جزء ٣قضايا ومناقشات» ـ تحرير تقديم: د. أحمد إبراهيم الهوارى. دار المعارف/القاهرة ,١٩٨٦

فهرس الجزء الرابع

الموضوع	الصفحة
المخطوط: (٤٩) مرقس: ٧٩٩/ ٨١٩م.	٥
هامش جانبي: * بقايا اتباع «برسنوفه».	٢٢
هامش سفلي: * موقف المصريين من الحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى الخلافة.	٢٦
هامش جانبي: * شيعة الابراهيميين فى انطاكية	٤٠
* وفاة هارون الرشيد وقيام الصراع بين ولديه الأمين والمأمون	٦٠
* اضطراب الاحوال فى مصر وانقسامها بين أيدى المتمردين على الخلافة.	٦١
* عبدالعزيز الجروى يستقل بشرق الدلتا. والسرى ابن الحكم ينفرد بالصعيد وقبيلتي لخم وجذام تحتلان غرب الدلتا والاسكندرية ومريوط.	٦٢
* غزو الاندلسيون للأسكندرية واستقرارهم بها	٦٤
* انتقال البطرك والبطركية إلى «نبرو» هروباً من الاندلسيين فى الاسكندرية.	٧٦
المخطوط: (٥٠) ابا يعقوب: ٨١٩/ ٨٣٠م.	٩١
هامش سفلي: * خروج الاندلسيين من الاسكندرية بعد حوالى اثنى عشر عاماً وذهابهم إلى اقريطش (كريت).	١٠٧
هامش جانبي: * الوالي الجروى يحتكر الاموال والغلال ويرفع اسعارها.	١٢٤
* تولى عبدالله ابن طاهر على مصر من قبل المأمون.	١٤٤
المخطوط: (٥١) سيمون: ٨٣٠م.	١٦٨
(٥٢) يوساب: ٨٣٠/ ٨٤٩م السيرة ٢١.	١٧٠

هامش جانبى: * تعددت فى ايامه ثورات البشمور فى شمال الدلتا بسبب مخالفة العباسيين لوعودهم لهم ١٧٠
هامش سفلى: * مصريو النوبة عبر التاريخ ٢٠٤
هامش جانبى: * المأمون يرسل البطرك يوساب والبطرك ديونوسيوس لتحذير البشمور من بطشه وقوته ٢٠٧
* البشمور يرفضون وساطة البطركين ويستمروا فى المقاومه ٢٠٨
* المأمون يعيد تجميع جيوشه للقضاء على البشمور ٢٠٩
* حول نهاية البشمور ٢٢٥
* تولى على ابن يحيى الارمنى مصر من قبل اشناس وزير المعتصم الذى كان يتصرف فى أمور الخلافة دون الرجوع لأحد ٢٦٠
* تولى هارون ابن جعفر الملقب بالواثق الخلافة ٣١٥
هامش سفلى: * ملاحق خاصة بمصريوا النوبة ٤٣٠
١ـ نقش الملك سلكو ٤٣٠
٢ـ فردوس النعيم ٤٣٣
٣ـ الوثائق الدالة على استقرار البليميين فى منطقة طيبة ٤٣٨
٤ـ نقش دندور ٤٤٠
٥ـ عهد عمرو ابن العاص لأهل مصر ٤٤٢
٦ـ عهد عبدالله ابن سعد لعظيم النوبة ٤٤٣
٧ـ البقط حسبما ورد فى كتب المؤلفين العرب ٤٤٤
٨ـ هجرة القبائل العربية إلى مصر ومنها للسودان ٤٤٦
٩ـ عهد عبدالله بن الجهم لكنون عظيم البجه ٤٤٩
١٠ـ مناجم الذهب والزمرد باوطان البجه ٤٥١
١١ـ شراء العرب أراض بالنوبة ٤٥٣
١٢ـ التجاء فلول الأمويين للنوبة وبلاد البجه ٤٥٤
١٣ـ رسالة ملك الحبشة إلى جورج ملك النوبة ٤٥٥

هامش سفلى: ١٤ـ اليمين التى حلف عليها مشكد ملك النوبة للظاهر بيبرس... ٤٥٦
١٥ـ اليمين التى حلف عليها النوبيين للظاهر بيبرس.............. ٤٥٧
١٦ـ حملة السلطان الناصر قلاون على العربان فى شمال
السودان. ٤٥٨
١٧ـ المكاتبة إلى من جرت العادة بالمكاتبة اليهم من العرب........ ٤٦٢
١٨ـ الممالك والمشيخات المتحالفة مع الفونج فى القرن ١٦م. ٤٦٣
ـ قائمة باسماء ملوك النوبة الشمالية........................ ٤٦٤
ملاحق: * مطالعات فى الفكر الاسلامى من العصرين الأموى والعباسى... ٤٦٦
* العصبية العربية فى مواجهة المصريين. ٦٠٠
* علم الانساب العربية.. ٦١٤